

محمد عبد المنعم خفاجي



تفسير القرآن الحكيم

أحدث التفاسير ، وأجمعها للفكرة الإسلامية ،
ولفهم العصر الحاضر لكتاب الله

(١٠)

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح ـ تليفون : ٩٠٨٥٢



ط رحيلب | بيروت ٧٩٢٣٦

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد : فهذا هو الجزء العاشر من تفسيرى لكتاب الله ، الذى سميته باسم « تفسير القرآن الحكيم » ؛ والذى كان ظهوره معجزة كبيرة ، وتوفيقا إلهيا ، ورعاية جليلة من الله ؛ وقد سرت فى كتابة هذا التفسير بإلهام من الله ، وعون سماوى كريم من الذات المقدسة العليا ، وكان البدء فى تأليفه استجابة لنداء خفى ، وتلبية لباعث إلهى .. وسرت فى طبعه بمدد من الله ، وفيض كريم من جنابه . . وعلى الرغم من العوائق والحوائل والصوارف والموانع ، كان الله معى فى كل لحظة ، وكان تأييده الكريم يتخطى بى الحواجز والعقبات ، وكان عونه العظيم يؤيد خطاى ، ويوفق مسعاى ، ويثبت قدماى ، فى هذه السبيل المحمودة الكريمة .. وقد صدرت هذه الأجزاء العشرة فى أمد قصير ، والمأمول بعون الله أن تصدر باقى أجزاء هذا التفسير فى زمن يسير ، وأن تتم هذه الموسوعة الإسلامية بعنايته كما أتمنى وأرجو من الله . . وليس صدور مثل هذا التفسير بالأمر الهين اليسير ، فكتابته تأخذ جهداً كبيرا ، وتقتضى عملا كثيرا ؛ ونشره كذلك يتطلب مالا وفيرا ؛ وليست كل هذه الأعباء مما يسهل تذليلها ، إلا بعون الله ورعايته ..

ولهذا التفسير ميزات كثيرة يكفى هنا أن أشير إلى بعضها :

١ — فأولى ميزاته أنه يربط الفكرة بالفكرة ، والمعنى بالمعنى ، والغرض بالغرض ، والموضوع بالموضوع ، دون تجزىء لمعانى القرآن الكريم ، أو تفكيك لوحدته ... ونحن لا نتناول تفسير كتاب الله آية فآية ، وإنما نتناوله موضوعا فموضوعا ، مع تحديد لأغراض القرآن الكريم ، وإظهار لوحدة السور القرآنية ، ولأفكارها ومعانيها المتصلة المتلاحمة ..

٢ — وثانى ميزاته أن أسلوبه عصرى يستطيع كل إنسان من كل طبقة أن يفهمه ، وأن يلم بمعانى القرآن الكريم دون غموض أو تعقيد أو التواء .. ومن ثم فقد حذفنا من هذا التفسير كل الاصطلاحات ليكون أقرب إلى الفهم ، وأسهل على القارىء ..

٣ — وثالث ميزاته أنه كتب ليكون مجاريا للثقافات الحديثة ومتمشيا مع مناهجها ، دون بعد عنها ، أو مخاصمة لها ، ومن ثم فقد عرضنا لكثير من الأفكار التاريخية والاجتماعية والفكرية والروحية أثناء عرضنا لهذا التفسير ، نشرح بها كتاب الله ، ونؤيد بها معجزته الجليلة الباهرة ..

٤ — ورابع ميزاته أنه موسوعة إسلامية كبرى تحتوي على كثير من الثقافات الإسلامية القديمة والحديثة ، وتحتوى على شرح جديد لكتاب الله ، وتنتظم الكثير من وجوه الدفاع عن دين الله وكتابه الحكيم .

٥ — وخامس ميزاته أنه كتب وفق منهج علمى مرسوم ، يبدو فى أجزاء هذا التفسير واضحا جليا ، ويستطيع القارى أن يتبينه بسهولة ، كما يستطيع أن يكشف عن أصول هذا المنهج الذى سرنا عليه دون عناء أو صعوبة .

٦ — وسادس ميزاته عرضه لجميع الآراء والمذاهب والأفكار ومناقشتها والموازنة بينها فى كل موضوع ، وكل مناسبة .

٧ — وسابع ميزاته تحقيقه للمعجزات الإلهية التى ظهرت على أيدى الرسل والنبيين تحقيقا علميا واضحا قريبا إلى العقل والمنطق وإلى الذوق والقلب أيضا .

٨ — وثامن ميزات هذا التفسير ما احتوى عليه من دراسات لسور القرآن الكريم ، وبيان لمراميها ، وتحديد لأفكارها ومعانيها وموضوعاتها .. إلى ما احتوى عليه من تبيين للأصول العامة التى اشتمل عليها كل ربع من سور القرآن الحكيم ..

٩ — وتاسع ميزاته العناية بالتحقيق التاريخى وبالنقد العلمى ، فى هذا التفسير عناية كبيرة ..

١٠ — وعاشر ميزاته ما اشتمل عليه من دراسات جديدة عن القرآن الكريم ومعجزته الخالدة ، مما صدر به الجزء الأول من تفسيرنا ، ومما جاء فى أثناء باقى أجزائه .

١١ — والحادى عشر من ميزات هذا التفسير : إلمامه بكل ما كتب المفسرون القدامى والمعاصرون ، وبكل مادونوه فى تفاسيرهم . .

١٢ — والثانى عشر من ميزات هذا التفسير هو ما انفردنا به نحن انفرادا واضحا من تقسيم جديد لآيات القرآن الكريم ، بحسب المعانى والأفكار والموضوعات والأغراض التى اشتملت عليها . .

إلى غير ذلك من ميزات هذا التفسير ، مما لم نذكره ، ومما ندعه إلى رأى القارىء المنصف الكريم .

ونحن فى مطلع الجزء العاشر من هذا التفسير ، نضرع إلى الله عز وجل أن يوفق المسعى ، ويؤيد الخطى ، ويحقق الأمل ، ويقرب الهدف ؛ وأن يعين على إكمال هذا التفسير بفضله وكرمه . . إنه على ما يشاء قدير ، وهو ولى العاملين ، ورعايته تحيط بالمخلصين المجاهدين من عباده ، والسلام على من اتبع الهدى ، وما توفيق إلا بالله ؟

المؤلف

(٨)

ســـورة الأنفال

تمهيد

سورة الأنفال من السور المدنية ، وهى ثامن سورة فى المصحف الشريف ، وقد نزلت بعد سورة البقرة ، وجملة آياتها ٧٥ آية ، وفيها سبع آيات تعد مكية ، وهى الآيات ٣٠ — ٣٦ ، وسورة الأنفال تتحدث عن غنائم الحروب وكيفية توزيعها ، وعن غزوة بدر وأحداثها الكبرى ، وتدعو إلى الايمان بالله وبرسالة محمد ، وتتهكم بالشرك والمشركين ، وفيها إذن من الله عز وجل للمسلمين بالقتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وتتحدث السورة عن الشرك والمشركين وصنيع مشركى مكة فى بدر ، كما تتحدث عن المنافقين وموقفهم إزاء الأحداث التى صاحبت الغزوة الكبرى - غزوة بدر - وتحذر السورة الكافرين من سوء المصير ، وتدعو إلى الاستعداد العسكرى لمواجهة أعداء الإسلام والإنسانية كما تدعو إلى الحرص على السلام ، وتنظم شئون الأسرى وفدائهم ، وتنوه بصنيع المهاجرين والأنصار فى نصرة الرسول ودعوة الإسلام . . إلى غير ذلك مما تناولته من موضوعات .

وكان نزول سورة الأنفال بعد غزوة بدر التى حدثت فى السنة الثانية من الهجرة ، وسميت بهذا الاسم لما تناولته من أحكام الأنفال وهى الغنائم وطرق توزيعها .. وهو على أى حال اسم عجيب وضع علما لهذه السورة ، وكونه عجيبا لعدم الإلف لا غير ، إذ لم يألف العربى البليغ أن يضع اسما مثل هذا الإسم علما على قطعة من البلاغة ، وفصول من النثر الفنى .. وهذا هو شأن أسماء سور القرآن الكريم .. يوضع لها اسم غريب للدلالة عليها ولتعريفها به ، كالأعراف وهو اللقب الذى جعل علما على السورة السابعة ، وكالأنعام والمائدة والنساء وآل عمران والبقرة .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى شأن هذه السورة فيما رواه عنه سعيد بن جبير : « تلك سورة بدر » ، يريد أنها نزلت فى هذا الحادث التاريخى الكبير ..

وذهب زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وعطاء بن أبى رباح ، وجابر ابن زيد وعكرمة . والحسن إلى أنها كلها مدنية ، فليس فيها آية واحدة مكية .

وروى البزار عن ابن عباس أن آية « يأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » نزلت عقب إسلام عمر رضي الله عنه ، فهي مكية . وقد صحح هذا الاستثناء ابن العربي وآخرون ، قائلين إن مناسبتها لآيات التحريض على القتال هي التي اقتضت وضعها في مكانها من هذه السورة المدنية . . واستثنى مقاتل آية « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » ، لأن موضوعها هو ائتمار قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم ، في الليلة التي خرج فيها من مكة مهاجراً إلى المدينة ... غير أن هذا الاستثناء يبدو استنباطا من المعنى ، وهو استنباط يرده ما صح عن ابن عباس : من أن هذه الآية بعينها نزلت في المدينة ، وما تقتضيه المناسبة وتستحسنه : من تذكير الرسول صلى الله عليه وسلم بحاله مع قومه ، عند أول نصر له عليهم .. . وزاد بعضهم الآيات الخمس التالية لهذه الآية (٣١ — ٣٥) ولكن هذا أيضا يبدو استنباطا من المعنى ، وهو استثناء يعوزه الدليل في رأينا ، فإن وصف هذه الايات لحال قريش قبل الهجرة لا يعنى نزولها حينذاك ، وبخاصة أن هزيمة قريش في بدر مناسبة حسنة لتذكير الرسول صلى الله عليه وسلم بما كانوا عليه : من مكابرة في الحق ، ولجاج في الباطل (١) . .

وتتلخص أحداث غزوة بدر الكبرى التي عرضت لها هذه السورة في أن المهاجرين كان الكثير منهم قد فر بدينه من فتنة قريش وترك لهم ما له ، فغنمت قريش أموالا عظيمة ، ولم يبال المسلمون بما فقدوا ، فقد أمنوا بعد ذلك على حياتهم وحريتهم في تعبدهم ، ولكنهم حقدوا على قريش وتربصوا بهم ريب الدهر حتى علموا أن قريشا قد خرجت بتجارتها إلى الشام يقودهم أبو سفيان بن حرب ، وحمل الخبر إلى رسول الله فقال لهم : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يجعلها من نصيبكم عوضا عن بعض ما سلبوه من أموالكم التي تركتموها مكرهين يوم هجرتكم .. ولما بلغ أبو سفيان رئيس العير بركبه أرض الحجاز جعل يتحسس الأخبار خوفا على أموال قريش التي في يديه فبلغه أن محمدا قد حشد أصحابه لتلك العير لعلهم يغنمونها منه ، فاستأجر أبو سفيان رجلا اسمه ضمضم بن عمرو فبعثه إلى مكة ليستنفر قريشا للدفاع عن عيرهم ، لأن محمدا قد تعرض لها ، فخرج ضمضم مسرعا

---

(١) ص ٩ سورة الأنفال — تأليف مصطفى أبو زيد .

إلى مكة .. وكان غالب أهل رسول الله بمكة كعمه العباس وعمته عاتكة بنت عبد المطلب وغيرهما ممن يكتمون إسلامهم ، فخرجت عاتكة بنت عبد المطلب إلى أخيها العباس وخلت به وقالت: والله يا أخى إنى رأيت الليلة رؤيا ضاقت بها نفسى وأخشى على قومك أن ينزل بهم شر منها فلا تحدث بها أحدا ، قال: وماذا رأيت ؟ قالت :رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته : يا أهل بدر اخرجوا لمصارعكم فى ثلاثة أيام ورأيت الناس قد اجتمعوا به فدخل المسجد والناس يتبعونه فوقف به بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ الصرخة الأولى ثم وقف به بعيره على جبل أبى قبيس، فصرخ الصرخة الأولى ثم أخذ صخرة فرماها فجملت تهوى حتى بلغت سفح الجبل فتفتتت فما بقى بيت من بيوت مكة إلا دخلته فلقة منها .. فقال لها العباس إنها لرؤيا هالتنى فاكتميها عن الناس .. وخرج العباس فرأى الوليد بن عتبة وكان صديقا له فذكرها له وسأله أن يكتمها عن غيره ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشى الحديث بمكة حتى تحدثت به قريش فى أنديتها وخرج العباس يطوف بالبيت فلقيه أبو جهل بن هشام فقال له: يا بنى عبد المطلب أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ؟ وهذه أختك عاتكة تزعم ما تزعم فسنتربص بكم تلك الأيام الثلاثة فإن لم يكن شىء من ذلك نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت فى العرب . وشاع حديث أبى جهل وما رمى به أهل البيت من سبه بيت بنى هاشم فغضبوا منه ، ومضى على حديث الرؤيا تلك الأيام الثلاثة فخرج العباس يطوف بالكعبة فرأى أبا جهل خارجا يشتد فى مشيته فقد سمع نداء ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره ـ وكان قد قطع أنف البعير وحول رحله وشق قميصه وهو يقول : يا معشر قريش أغيثوا أموالكم الى مع أبى سفيان فقد عرض لها محمد فى أصحابه وأخشى ألا تدركوها .

فتجهز الناس مسرعين، وتقاسمت قريش عبء الخروج، فكان بعضهم يتجهز للقتال بنفسه أو يبعث بدله رجلا بسلاحه ونفقته ، وخرجت قريش فلم يتخلف من أشرافها أحد ورأى أمية بن خلف أن يتخلف وكان شيخا جليلا ثقيلا فى بدنه ، فحضر إليه عقبة بن أبى معيط بمجمرة فيها نار حتى وضعها بين يديه وقال له : تجمر يا أبا على ، فإنما أنت من النساء فخجل منه وقام فتجهز وخرج مع الناس .. وخرج رسول الله عليه السلام لاثنتى عشرة ليلة خلت من رمضان من السنة الثانية للهجرة وكان أمامه رايتان سوداوان إحداهما يحملها على بن أبى طالب والأخرى يحملها

سعد بن معاذ الأنصاري ومعهم سبعون من الإبل يتعاقبون على ركوبها لكل جماعة ناقة يركبها الرجل في دوره .. فسلك جيش النبي طريقه إلى مكة، فلما توسط الطريق حمل إليه خبر خروج قريش للدفاع عن أموالهم، فاستشار الناس وأخبرهم بمسير قريش بجحافلهم، فتكلم أبو بكر فأجاد وأحسن وحبذ القتال وبشر بالنصر عليهم، ثم قام عمر بن الخطاب فتكلم فأجاد وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يارسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى آخر المدى لجالدنا معك حتى تبلغ ما تريد، فدعا له رسول الله وقال له خيرا . وعاد النبي فقال: أشيروا على أيها الناس، يريد بذلك الأنصار، لأن الكثرة من المقاتلين منهم ولأنه كان يخشى ألا ترى الأنصار مؤازرته في القتال إلا إذا دهمه عدو بالمدينة، فقال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: أجل، قال: لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على أن نطيعك ونستمع إلى أمرك، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، فسر بنا على بركة الله .. فسر النبي عليه السلام بقول سعد ونشطه قوله وقال للناس: سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم .. وبعث النبي علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى آبار بدر التي يستقي منها الناس وذلك ليتعرفوا الأخبار فعثروا برجلين من قريش يسوقان إبلا تحمل روايا الماء فحملوهما إلى جيش المسلمين فسألوهما ـ وكان النبي قائما يصلي ـ فقال الرجلان: نحن سقاة قريش خرجنا نحمل الماء، فلم يصدقهما الناس وظنوا أنهما لأبي سفيان فضربوهما، فلما أوجعهما الضرب قالا: نحن لأبي سفيان فتركوهما .. وختم النبي صلاته وقال: إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما، لقد صدقا والله، إنهما لقريش، ثم سألهما عن مقر قريش فقالا: هم وراء هذا الكثيب، فسألهما عن عدتهم، فقالا: هم كثيرون، فقال: كم ينحرون من الإبل كل يوم؟ فقالا: يوما يذبحون تسعا ويوما عشرا، فقال النبي عليه السلام: القوم بين التسعمائة والألف، ثم سألهما عمن حضر من أشراف قريش فذكروا له كبارهم، فقال النبي لأصحابه: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها .

ورأى أبو سفيان أعلام قريش قريبا منه فاطمأن ، واستقر فى خاطره أنه قد نجا بالعير من محمد ، فأرسل إلى قريش أن عيركم وأموالكم قد نجاها الله فارجعوا إلى مكة ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد ساحة بدر فنقيم عليها ثلاثة أيام ، فننحر ذبائحنا ونطعم الطعام ونشرب الخمر وتعزف علينا الجوارى وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، وكان بدر موسما من مواسم العرب تجتمع به سوق عظيمة كل عام . ونزل النبى بجيشه على أول بئر من آبار بدر ، فخاطبه من أصحابه الحباب بن المنذر قال : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل قد اختاره الله لك ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو رأى اقتضته ضرورة الحرب ؟ فقال النبى : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، فقال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أقرب ماء من عدونا فننزله ونعطل كل الآبار التى وراءه ، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء ، ثم نقاتل العدو ولدينا الماء لنشرب وليس لديهم ماء يشربونه ، فقال له النبى : لقد أشرت بالرأى ، وفعل الناس ما أشار به الحباب بن المنذر ، وقال سعد بن معاذ سيد الأوس : يا نبى الله ألا نبنى لك عريشا تكون فيه وترابط عندك الرواحل ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله بنصره كان ذلك ما أحببناه وإن كانت الأخرى جلست على الرواحل فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبا منهم لك ، ولو ظنوا أنك ستحارب قريشا ما تخلفوا عنك ، فأثنى عليه رسول الله ودعا له بخير ، وبنى لرسول الله عريش فكان فيه .. وهلت قريش من وراء الكثيب وأقبلت على الوادى فرآها النبى عليه السلام فقال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى اللهم أهلكهم بالغداة ، ورأى النبى عتبة بن ربيعة فى قريش على أحمر فقال إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، أن يطيعوه يرشدوا . فلما استقرت قريش على مواقفها بعثوا فارساً منهم يحزر : كم يبلغ جيش النبى ؟ فجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال : لعلهم ثلثمائة رجل أو يزيدون قليلا أو ينقصون ، ولكن دعونى حتى أنظر إن كان لهم كمين أو مدد ، فضرب فى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئا فرجع إليهم فقال : ما وجدت شيئا ؟ ولكنى يا معشر قريش رأيت البلايا تحمل المنايا .. إن نواضح يثرب تحمل إليكم الموت الناقع ، إنهم قوم لا ملجأ لهم إلا سيوفهم فإذا قتلوا منكم بقدر عددهم فلا خير فى العيش بعد ذلك . . فتكلم عتبة ابن ربيعة صاحب الجمل الأحمر ، وقد خاطبه سيد من سادات قريش بأن يسعى فى

منع الحرب وحقن الدماء ، فقام فى الناس خطيبا وقال : يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون شيئا حين تلقون محمدا وأصحابه ، فلئن انتصرتم عليه فلا يزال الرجل منكم ينظر كارها إلى وجه الرجل الآخر وقد قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم وإن كان غير ذلك لم يكن بينكم وبينه ما يسوء ، فأفسد هذا التدبير أبو جهل. ونفخ فى الناس أبواق الشر وسفه ذلك الرأى الذى دعاهم إليه عتبة، وعندئذ قامت الحرب. فخرج من صفوف قريش رجل اسمه الأسود بن عبد الأسد المخزومى وكان رجلا عنيفا سىء الخلق فقال : أعاهد الله أن أشرب من حوضهم أو أهدمه أو أموت دونه ، فلما خرج .. خرج له حمزة عم النبى وضربه بسيفه فأطار قدمه بنصف ساقه قبل أن يصل إلى الحوض فوقع الأسود على ظهره تشخب دماؤه ، ولكنه حبا إلى الحوض وفاء بقسمه فلم يمهله حمزة حتى ضربه فقتله فى الحوض . ثم خرج من بعده أشراف قريش وكانوا ثلاثة : عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وولده الوليد ابن عتبه، ودعا عتبة إلى المبارزة ، فخرج إليه فتيان من الأنصار ثلاثة فقالوا لهم: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، فقال لهم عتبة: أنتم أكفاء كرام إنما نريد قومنا، فقال النبى : قم ياعبيدة بن الحارث وقم ياحمزة وقم ياعلى، فلما تقدموا إليهم قالوا لهم: من أنتم؟ فذكروا أسماءهم، فقالوا لهم: نعم أكفاء كرام ، فبارز عبيدة ـ وكان أكبر إخوانه سنا ـ عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة، وبارز على الوليد بن عتبة، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله وأما على فلم يمهل الوليد أن قتله واختلفت بين عبيدة وعتبة ضربتان قاتلتان فسقطا وكر حمزة وعلى على عتبة فأجهزا عليه واحتملا عبيدة إلى صفوف المسلمين، ووقف النبى عليه السلام يعدل صفوف أصحابه فرأى رجلا بارزا عن الصف اسمه سواد فوكزه بطرف السهم وقال : استو ياسواد فقال له : لقد أوجعتنى يارسول الله فدعنى أقتص لنفسى منك ، فكشف النبى عن بطنه وقال له : اضرب ياسواد فاعتنقه سواد فقبل بطنه فقال له النبى :ما حملك على هذا ؟ فقال : إنها الحرب ثم الموت يارسول الله، وقد أردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك فدعا له النبى بخير . ورجع النبى عليه السلام إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر دون غيره ، فجعل يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، وأبو بكر يقول: يانبى الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك . . وخرج النبى بعد ذلك إلى الناس فحرضهم وقال : والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا

مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة فسمعها رجل أسمه عمير بن الحمام وكان بيده تمرات يأكلها فقال : بخ بخ ما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده وأخذ السيف فقاتل القوم حتى قتل . . وحرض النبى أصحابه وقال : شدوا عليهم : فكانت هزيمة قريش المنكرة بعد قتل أبطالهم وصناديدهم وأسر أشرافهم، وعاد رسول الله إلى العريش وكان سعد بن معاذ قائما بباب العريش يحرس رسول الله فى نفر من الأنصار ، وظهر الكدر فى وجه سعد بن معاذ حين كثر الأسر فى أشراف قريش فقال له النبى : لعله قد ساءك ما يفعل إخوانك فقال: نعم والله يارسول الله لقد كانت أول وقعة أوقعها الله بالمشركين من قريش ، فكان الإثخان فى القتل فيهم أحب إلى من استبقاء الرجال ، فذلك يرهب أعداء الدين . وقال النبى لأصحابه : إنى قد عرفت رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجتهم قريش كرها لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ومن لقى أبا البخترى بن هشام فلا يقتله ، ومن لقى العباس عم رسول الله فلا يقتله فإنه خرج مكرها ، وإنما نهى النبى عليه السلام عن قتل أبى البخترى لأنه كان أبعد الناس عن إيذاء النبى وهو بمكة وما كان يبلغه عنه شىء يكره . وكان أحد الأنصار المسمى المجذر يقاتل ، فمر بأبى البخترى على ناقة وله زميل اسمه جناده ، فقال الأنصارى : إن رسول الله قد نهانا عن قتلك يا أبا البخترى فقال : وماذا يكون نصيب زميلى هذا فقال له : ما نهانا النبى إلا عنك وحدك ، فقال أبو البخترى إذن أموت أنا وزميلى معا حتى لا تتحدث عنى نساء مكة أنى تركت زميلى حرصا على حياتى ، فاقتتل أبو البخترى والمجذر فقتله المجذر ثم بادر بالخبر إلى النبى فقال له : والذى بعثك بالحق لقد حاولت أن آسره فآتيك به حيا فأبى إلا أن يقاتلنى فقتلته . ويحدثنا الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف أن أمية بن خلف كان صديقا له منذ القدم وكان عبد الرحمن يحمل دروعا قد سلبها من صرعهم فى القتال ، فالتقى بأمية بن خلف وابنه على بن أمية فناداه أمية وقال له : هل لك أن أكون أنا وولدى أسيرين لك فأنا خير لك من هذه الأدرع ، فقلت له: رضيت وطرحت الأدرع أرضا وأخذت بيده ويد ابنه وكان يقول : سأفدى نفسى بإبل كثيرة ، وسألنى عن رجل من المسلمين فى صدره ريشة نعامة فقلت : ذاك حمزة بن عبد المطلب فقال : لقد فعل بنا الأفاعيل ، وقال عبد الرحمن : إنى كنت أقود أمية وولده فرآه بلال بن رباح معى وكان أمية يعذب بلالا بمكة ، فيخرجه إلى رمضائها إذا حميت فيسحبه على ظهره ثم يأمر بالصخرة

العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول : لا تزال هكذا حتى تفارق دين محمد ، فيقول بلال : أحد أحد . فلما رآه بلال معى قال : رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا ، فقلت له: يا بلال هما أسيران بيدى فصاح بلال لا نجوت إن نجا، فقلت إلا تسمع منى يا بن السوداء، فصرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف ، فأحاطوا بنا إحاطة السوار وهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما ، وسار عبد الرحمن بن عوف يقول: رحم الله بلالا فبسببه ضيعت أدراعي وفجعني في أسيرى. وقتل أبو جهل وقد قتله معاذ بن عمر الأنصارى .

وجمع رسول الله عليه السلام القتلى من قريش فألقى بهم فى بئر ثم وقف عليهم فقال : يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فأنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا، فقال له أصحابه : يا رسول الله أتكلم الموتى؟ فقال لهم لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق وما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى . ثم قال قبل منصرفه : يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس .

وقد ورد ذكر غزوة بدر فى سورة الأنفال وآل عمران . . وعندما نتصفح أحداث هذه المعركة الكبرى نخرج بهذه العبر والنتائج :

١ — أن المسلمين فى وقعة بدر كانوا قليلين وناقصى العتاد ، بحيث كانوا لا يأملون الانتصار على عدوهم فى كثرة عدده ، وقد عبر الله عن حالتهم ذلك اليوم بأنهم كانوا (أذلة) ، والإنسان لا يشعر بالذل إلا فى حالة العجز واليأس . فإذا لم يكونوا يشعرون بأنهم كانوا ذلك اليوم أذلة ، ساء ظنهم فى الوحى ودخلهم الشك فى مصدره .

٢ — أنهم كانوا ، وهم رجال حرب وجلاد ، لا يتوقعون النصر يوم بدر إلا إذا جاءهم من طريق الإعجاز ، ويدل عليه قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » . ولو كان الأمر ذلك اليوم عاديا لا يتطلب العون الإلهى المباشر ، لكان فى ذكر المدد الملائكى هنا ، توهين للدعوة الإسلامية عند أهلها وعند خصومهم .

٣ — أنهم انتصروا على أعدائهم نصرا مؤزرا ، وهم يعتقدون أنهم منحوه منحا ، ولم يستحقوه بقوتهم استحقاقا ، بدليل قوله تعالى : « فلم تقتلوهم ولكن الله

قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . ذلك أن رجالا منهم عادوا من المعركة يذكرون أسماء من قتلوهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم عند بدء المعركة تناول حثوة من الحصباء ورمى المشركين بها قائلا : (شاهت الوجوه) ، فردعهم الله عن إسناد هذا النصر وما اقتضاه إلى أنفسهم ، وأمرهم بإسناده إلى الله وحده . ومراده أن يعرفوا أنهم لو كانوا تركوا وشأنهم بدون تأييد سماوى ، لما تمكنوا من قتلهم والتغلب على من بقى منهم . وهذا إذا لم يكن صحيحا فى تقدير رجال الحرب المحنكين ، وناهيك بحرب الجاهلية ، لكان تأثيره فى قلوب سامعيه عكسيا ، أى أنه كان يصد عن الإيمان بصحة الإسلام ، ويوقر فى صدر الناس أنه يعتمد على الإيهام ، وتجسيم الحوادث ، لكسب الأعوان والأنصار لأغراض دنيوية بحتة . وإذا كان الأمر على ما رأيت ، فإن هذه الموقعة جديرة بأن يكون لها من الأثر فى تثبيت إيمان المؤمنين ، وتوثيق ارتباطهم بالإسلام ، ما عزى إليها . وقد أشاد المسلمون بذكرها ، ونوهوا بشأنها ، ما لم يفعلوه بجميع ما تلاها من الوقائع ، حتى إنهم دونوا أسماء من شهدها من المسلمين الأولين ، وذكرها الشعراء فى أشعارهم .

وجانب الإعجاز فى هذه الموقعة يتجلى فى كثير من أحداثها . ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما ندب أصحابه لملاقاة قافلة التجارة التى لقريش ، لم يأخذوا أهبتهم لقتال ، ولكن لمنازلة عصابة من الحراس . والتأهب لمثل هذا الشأن غير التأهب لملاقاة جيش محارب . فإذا كان منازلة العصابة لا تقتضى أكثر من الهجوم عليها بالأسلحة الخفيفة واغتصاب ما بيدها ، ثم تشريدها وأسر من يقع فى اليد منها ، فإن مكافحة جيش يستدعى التذرع له بجميع ما للحروب من أهب آلية ، كالأسلحة والتروس والدروع ، وأدوات للقطع والحفر والتحطيم ، وأهب للتموين والزحف والحصار والمواصلات ؛ وقد ظهر هذا الفرق على أشد حالاته عندما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن الله قد وعده إحدى الطائفتين ، إما التجارة وإما جيش قريش ، فاختاروا أن يتحقق وعد الله فى التجارة ، محتجين بأنهم لم يتخذوا للحرب عدتها ، ولم يقل لهم النبى حين ندبهم أنهم قد يدعون لملاقاة جيش مقاتل . فلما أفلتت التجارة تعين عليهم أن ينازلوا الجيش المقاتل ، وكيف يتأتى ذلك وهم مع قلة عددهم لم يتخذوا للحرب عدتها ؟ وقد أدى ذلك إلى موقف من التردد أدركه النبى صلى الله عليه وسلم وعمل على ملافاته ، وهذا الإقدام لا يكون مع وجود هذا

العامل الخطر من التردد فى جيش محارب إلا إذا كانت ثقة قائده بالنصر مطلقة ، وكيف لا تكون كذلك وهو رسول وقد وعده الله إحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداهما فلا بد أن يكون مصداق وعد الله الأخرى . فإذا لم يكن قائد هذه الفصيلة من المحاربين نبيا ، واتقاكل الثقة من صدق ما ينزل عليه من الوحى ، لما أقدم على الزج بمن تحت إمرته فى الحرب ، وهم على ما هم عليه من الاختلاف والتهيب ، لأنه كان يتحقق أن هزيمتهم لا بد منها لأسباب فنية وجيهة :

١ — تفوق العدو فى العدد بحيث كان على نسبة ٣ على ١ ، وهذا يعتبر فى عرف الحربيين تفوقا ساحقا ، لا يكون فيه للقلة أمل فى الظفر إلا إذا كان لديها من العتاد ما ليس عند الأخرى ، أو من المناعة الطبيعية ما ليس مثله لخصيمتها .

٢ — تفوق العدو فى الأسلحة ، وهى العوامل الفاصلة فى الحروب كما لا يخفى .

٣ — تحقق الجيش المحارب من تفوق عدوه عليه فى عوامل الغلب .

فالقائد الذى يدفع بجيشه فى أتون الحرب مع تحققه من تأثير كل هذه العوامل ، ويقول كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أبشروا والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » وقوله : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى به » ، قلنا : إن القائد الذى يدفع بجيشه للحرب ، مع توافر أسباب الضعف فى جنوده ، وهو واثق بالفوز هذه الثقة ، لا يعقل أن يكون صادرا فيها عن مغامرة ، إلا إذا كان يريد المجازفة بكل ما يملك من نفس ومال وأهل ، وما الذى كان يدفع محمدا لذلك ولم يكن مضطرا إليه بحال من الأحوال؟ فلا قومه كانوا يقولون له : قد غررت بنا وادعيت أنك فائز ولم نفز ، لأنهم هم الذين كانوا يطلبون إليه الرجعى بدون حرب ؛ ولا مشروعه كان يتعرض للفشل لو رجع بدون قتال ، لأن العدو لم يكن ينوى أن يهاجمه فى عقر داره ، ولو فعل لاستهدف للهزيمة ، لأن القوة التى كانت معه لا تسمح له بالشروع فى حرب استئصال ؛ ولا هو كان يخشى أن يتفرق أصحابه عنه إذا عاد ولم يلق فلجا ، فقد خرج مرارا للاستيلاء على تجارة قريش وعاد دون أن يعمل شيئا لإفلاتها منه ، فلم يؤثر ذلك فى إيمان أصحابه به . فلم يبق إلا أنه دفع مع قومه فى هذه المعركة التى لم يستعدوا لها ، ثقة منه بما وعده الله من الفوز على إحدى الطائفتين ، وقد

أفلتت إحداهما فلا بد أن يصدق وعد ربه فى الأخرى ، فدفع أصحابه إلى منازلها واثقا بالنصر ثقة لا حد لها ، لأن الله لا يخلف وعده كما قال فى كتابه الكريم : « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله » . فحقق الله ظنه فيه ، وآتاه نصرا أيد به حجته ، وقوى عزيمته ، وجعله فاتحة لانتصارات أخرى سيكون من آثارها ما بقى عليها من الحوادث العالمية الخطيرة . وإذا حاول بعض خصوم الإسلام أن يهونوا من شأن النصر الكبير الذى أحرزه الإسلام فى بدر ، ذاهبين إلى أنه ليس فى انتصار محمد فى وقعة بدر ما يصح أن يجعل فى عداد المعجزات النبوية . لأن جميع عوامل الغلب كانت تنقص المسلمين فى تلك الموقعة ، ولكن كان هناك عامل خطير جدا كان متوافرا لديهم ، وهو الثقة المطلقة فى نبوة قائدهم ، وأنه ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى . فإذا اتفق لقائد أن يكون تحت إمرته رجال يثقون بكلامه ، ويصدقونه كما يصدق أصحاب محمد محمدا ، لاقى بهم الأهوال ولم يبال ، لأن عقيدتهم تضاعف من قوتهم ، وتكسبهم روحا تدفعهم فى الكريهة بغير مبالاة بما يصيب أجسادهم ، وتحملهم لا يشعرون بما يشعر به الرجال المجردون من مثل هذه الروح من التعب والنصب ، وخاصة إذا كانوا يعتقدون أنهم إذا ماتوا انتهوا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، أعد لهم فيها من ضروب المتع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فهل تعجب بعد ذلك أن يكسب محمد معركة بدر ولديه من أمثال هؤلاء الرجال ثلاثمائة إزاء ألف ؟ إن العجب كان أن لا تفوز هذه الشرذمة بالغلب على عدو لا يملك من وسائل الكفاح إلا ما لديه من العتد العادية .

ونحن نقول : إن هذه الشبهة فى ظاهرها قوية ، لاستنادها إلى أصول بسيكولوجية ، ولكنها فى الواقع شعرية خيالية ، وقائمة على افتراضات تحكمية ، فإن الأصول النفسانية التى تقوم عليها لو صدقت على عشرة رجال أو عشرين بل خمسين ، فلا تصدق على المئين ، لا سيما وقد كان معظمهم قريبى عهد بالإسلام ، ولم تظهر لهم بعد من مظاهر تأييد الله لرسوله فى الأزمات ، ما يتخذونه مثالا لهم فيما هم بسبيله من منازلة جيش يفوقهم عددا وعدة ، وفيه من الأبطال المعدودين عدد ليس بالقليل . فعناصر الاستماتة فى القتال التى يفترض المشتبه وجودها فى جيش الصحابة إن وجدت فيه ، فلا توجد بالقدر الذى يوجب لهم التغلب على عدو لا ينقصه من عوامل التغلب شىء ، حتى عامل النعرة القومية ، فإن الجاهليين كان

ة أمضهم تسفيه أحلامهم ، وتحقير آبائهم . ولو أضفت إلى هذا عامل تنازع البقاء ، وهو مالا بد من أن يكون قد تيقظ فيهم بسبب قيام المسلمين على طريق تجارتهم ، يتصدون لها كلما مرت بهم ، فيضطروا إما إلى زيادة عدد حامياتها ، وإما إلى الإقلاع عن إرسالها ، وكلا الأمرين غير محتمل . فكان من أمس الأمور بمعاشهم أن يستبسلوا فى إبادة هذه الطائفة التى قامت عقبة فى سبيل مبادلاتهم ، وهم ما آثروا الحياة الحضرية ، فى مدينة مبنية ، ليموتوا فى حجرات دورها جياعا عارين، ولكنهم تخيروها ليعيشوا عيشة المدنيين ، مع كل ما تقتضيه حياة الاستقرار من المبادلات والمعاوضات ، وهذه لا تكون إلا بتأمين الطرق ومسالمة الجماعات التى تقوم على جانبيها ، أو إخضاعها لسلطانهم . إذا اعتبرت كل هذا وجدت أن جيش الجاهليين لم تكن تنقصه عوامل الاستبسال والاستماتة فى القتال ، وإذا أضفت إلى ذلك تفوقه فى العدد والعدد ، أدركت أن التغلب عليه بشرذمة لم تتخذ كل عدتها لحرب زبون ، يعتبر آية من الآيات فى تلك البيئة التى كان أوهم ما يحرك الهمم فيها إلى حدود التضحية ، عامل الحاجات الأولية لحفظ الذات ، لا عامل الدفاع عن العقائد ، والذياد عن المبادىء . ناهيك أن تلك البيئة التى كانت لا تنقطع سلسلة الغارات فيها بسبب تنازع البقاء ، لم تنشأ فيها حرب واحدة فى مدى تاريخها الطويل ، لنصرة دين على دين ، أو مذهب على مذهب . فكانت وقعة بدر أول معركة من نوعها فى هذا الركن المنعزل من الأرض .

ووجه مناسبة سورة الأنفال لسورة الأعراف : أنها فى بيان حال خاتم المرسلين، مع قومه وسورة الأعراف مبينة لأحوال أشهر الرسل مع أقوامهم ، هذا هو العمدة ، وهناك تناسب خاص بين عدة آيات من السورتين يقوى هذا التناسب ، ولكنه لا يصح أن يكون شىء منه سببا للمقارنة بينهما ، لأن مثل هذا الاتفاق فى بعض المعانى مكرر فى أكثر السور الكبيرة .

ويقول السيوطى فى وضع هذه السورة هنا : « الظاهر أن وضعها هنا توقيفى وكذا وضع براءة بعدها وهما من هذه الحيثية كسائر السور ، وإلى ذلك ذهب غير واحد كما مر فى المقدمات ، وذكر السيوطى أن ذكر هذه السورة هنا ليس بتوقيف من الرسول ، للصحابة رضى الله تعالى عنهم ، كما هو المرجح فى سائر السور ، بل باجتهاد من عثمان رضى الله تعالى عنه ، وقد كان يظهر فى بادىء الرأى أن المناسب

إيلاء الأعراف بيونس وهود لاشتراك كل فى اشتمالها على قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأنها مكية النزول خصوصا أن الحديث ورد فى فضل السبع الطوال، وعدوا السابعة يونس وكانت تسمى بذلك كما أخرجه البيهقى فى الدلائل ، فنى فصلها من الأعراف بسورتين فصل للنظير من سائر نظائره ، هذا مع قصر سورة الأنفال بالنسبة إلى الأعراف وبراءة ، وقد استشكل ذلك قديما حبر الأمة رضى الله تعالى عنه ، فقال لعثمان رضى الله تعالى عنه : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين ، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا البسملة بينهما ووضعتموهما فى السبع الطوال ؟ ثم ذكر جواب عثمان رضى الله تعالى عنه وقد أسلفنا الخبر بطوله سؤالا وجوابا ثم قال : وأقول : يتم مقصد عثمان رضى الله تعالى عنه فى ذلك بأمور :

١ — أنه جعل الأنفال قبل براءة مع قصرها لكونها مشتملة على البسملة فقدمها لتكون كقطعة منها ومفتتحها ، وتكون براءة - لخلوها من البسملة - كتتمتها وبقيتها ، ولهذا قال جماعة من السلف : إنهما سورة واحدة .

٢ — وضع براءة هنا لمناسبة الطول فإنه ليس بعد الست السابقة سورة أطول منها ، وذلك كاف فى المناسبة .

٣ — أنه أتى بالسورتين أثناء السبع الطوال المعلوم ترتيبها فى العصر الأول للاشارة إلى أن ذلك أمر صادر لا عن توقيف ، وإلى أن رسول الله قبض قبل أن يبين كلاهما فوضعا هنا كالوضع المستعار بخلاف ما لو وضعا بعد السبع الطوال ، فإنه كان يوهم أن ذلك محلهما بتوقيف ، ولا يتوهم هذا على هذا الوضع ، للعلم بترتب .

٤ — أنه لو أخرهما وقدم يونس وأتى بعد براءة بهود كما فى مصحف أبى لمراعاة مناسبة السبع وإيلاء بعضها بعضا لفات مع ما أشرنا إليه أمر آخر آكد فى المناسبة، فإن الأولى بسورة يونس أن يؤتى بالسور الخمس التى بعدها لما اشتركت فيه من المناسبات من القصص ، والافتتاح بآلر ، وبذكر الكتاب ، ومن كونها مكيات ، ومن تناسب ماعدا الحجر فى المقدار ، ومن التسمية باسم نبى ، والرعد اسم ملك ، وهو مناسب لأسماء الانبياء عليهم الصلاة والسلام . فهذه عدة مناسبات للاتصال بين يونس وما بعدها ، وهى آكد من هذا الوجه الواحد فى تقديم يونس بعد

الأعراف ، ولبعض هذه الامور قدمت سورة الحجر على النحل مع كونها أقصر منها ، ولو أخرت براءة عن هذه السور الست لبعدت المناسبة جداً لطولها بعد عدة سور أقصر منها ، بخلاف وضع سورة النحل بعد الحجر ، فإنها ليست كبراءة فى الطول . ويشهد لمراعاة الفواتح فى مناسبة الوضع ما ذكرناه من تقديم الحجر على النحل لمناسبة (الر) قبلها وما تقدم من تقديم آل عمران على النساء ، وإن كانت أقصر منها لمناسبتها البقرة فى الافتتاح بآلم ، وتوالى الطواسين والحواميم ، وتوالى العنكبوت والروم ولقمان والسجدة لافتتاح كل بآلم ، ولهذا قدمت السجدة على الأحزاب التى هى أطول منها . ثم ذكر أن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قدم فى مصحفه البقرة والنساء وآل عمران والأعراف والأنعام والمائدة ويونس ، راعى السبع الطوال فقدم الأطول منها فالأطول ، ثم ثنى بالمئين ، فقدم براءة ثم النحل ثم يوسف ثم الكهف وهكذا الأطول فالأطول وجعل الأنفال بعد النور ، ووجه المناسبة أن كلا منهما مدنية ومشتملة على أحكام ، وأن فى النور « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض » الآية ، وفى الأنفال « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض » الخ ، ولا يخفى ما بين الآيتين من المناسبة ، فالأولى مشتملة على الوعد بما حصل ذكر به فى الثانية .

وذكر الألوسى عن بعضهم أن السابعة الأنفال وبراءة بناء على القول بأنهما سورة واحدة وقد ذكر ذلك الفيروز أبادى فى قاموسه ، وما ذكره من الأمر الثانى يغنى عنه ما علل به عثمان رضى الله تعالى عنه ، فقد أخرج النحاس فى ناسخه عنه أنه قال : كانت الأنفال وبراءة يدعيان فى زمن رسول الله القرينتين ، فلذلك جعلتهما فى السبع الطوال ، وما ذكره من مراعاة الفواتح فى المناسبة غير مطرد فإن الجن والكافرون والإخلاص مفتتحات (بقل) مع الفصل بعدة سور بين الأولى والثانية ، والفصل بسورتين بين الثانية والثالثة . وبعد هذا كله لا يخلو ما ذكره عن نظر كما لا يخفى على المتأمل .

وروى الشيخ رشيد رضا أن جواب عثمان لابن عباس رضى الله عنهما هو كما رواه أحمد وأصحاب السنن الثلاثة ، وابن حبان والحاكم : «كان رسول الله ينزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشىء دعا من كان يكتب يقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا . وكانت الأنفال من أوائل ما نزل

بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها . فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها . فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتهما فى السبع الطول ؛ ولأجل هذه الرواية ذهب البيهقى إلى أن ترتيب جميع السور توقيفى عن النبى ، إلا الأنفال وبراءة ، ووافقه السيوطى . ويرد عليه أنه لا يعقل أن يرتب النبى جميع السور إلا الأنفال وبراءة ، وقد صح أنه كان يتلو القرآن كله فى رمضان على جبريل عليه السلام مرة واحدة من كل عام ، فلما كان العام الذى توفى فيه عارضه بالقرآن مرتين ، فأين كان يضع هاتين السورتين فى قراءته ؟ التحقيق أن وضعهما فى موضعهما توقيفى وإن فات عثمان أو نسيه ، ولولا ذلك لعارضه الجمهور أو ناقشوه فيه عند كتابة القرآن ، كما روى عن ابن عباس بعد سنين من جمعه ونشره فى الأقطار . وهذا الحديث قال الترمذى حسن لا نعرفه إلا من حديث عوف بن أبى جميلة ، عن يزيد الفارسى عن ابن عباس ، ويزيد الفارسى هذا غير مشهور اختلفوا فيه هل هو يزيد بن هرمز أو غيره ؟ والصحيح أنه غيره ، روى عن ابن عباس وحكى عن عبيد الله بن زياد وكان كاتبه ، وعن الحجاج بن يوسف فى أمر المصاحف . وسئل عنه يحيى بن معين فلم يعرفه ، وقال أبو حاتم لا بأس به .

وذهب الجلال السيوطى كما قلنا إلى أن سورة الأنفال هى وسورة التوبة سورة واحدة ، وأنه من أجل هذا لم يفصل بينهما بالبسملة ، وأن وضع هذه السورة بعد الأعراف لم يكن عن توقيف ، وإنما كان باجتهاد من عثمان رضى الله عنه ، ثم عزز هذا بما رواه أحمد وأصحاب السنن الثلاثة وابن حبان والحاكم ، من أن الحبر قال لعثمان رضى الله عنهما : « ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى « براءة » وهى من المئين ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا البسملة بينهما ، ووضعتموهما فى السبع الطوال ؟ » وأن عثمان قد أجابه بقوله : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا من يكتب ، يقول : « ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا » وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر

« بسم الله الرحمن الرحيم » ، ووضعهما فى السبع الطوال » . . غير أن راوى هذه القصة عن ابن عباس - وهو يزيد الفارسى - ليس بمشهور ، حتى لقد اختلف فيه فلم يعرف : أهو يزيد بن هرمز أم غيره ؟ ، وسئل عنه يحيى بن معين فلم يعرفه ومثل هذا الرجل لا يصح أن تكون القصة التى انفرد بروايتها مما يؤخذ به فى ترتيب القرآن المتواتر ، وبخاصة أنها تثير عدة مشاكل لو أنها صحت ، فأين رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع الأنفال والتوبة عندما كان جبريل يعارضه القرآن ؟ وهل يعقل أن يرتب النبى صلى الله عليه وسلم جميع سور القرآن ثم يدع سورتى الأنفال و التوبة فقط دون أن يحدد مكانهما بين السور ؟ وكيف ترك الصحابة لعثمان هذا الأمر الخطير يجتهد فيه برأيه وحده ، فلم يعارضه أو يناقشه أو يؤيده من بينهم أحد ؟ ... إننا نميل إلى قبول مارجحه القوم : من أن ترتيب السور كان بتوقيف لا باجتهاد ، ومن أن وضع سورتى الانفال والتوبة من هذه الناحية لا يختلف فى كثير أو قليل عن وضع غيرهما من السور(١)

(١) ١٢ تفسير سورة الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة الأنفال

١ — يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

قوله تعالى : « يسألونك » يا محمد « عن الأنفال » أى الغنائم لمن هى وكيف مصرفها ، وسميت الغنيمة نفلا لأنها عطية من الله تعالى وفضل منه ، كما يسمى به ما يشرطه الإمام لمقتحم خطر ، عطية له وزيادة على سهمه «قل» يامحمد لهم « الأنفال لله والرسول » يجعلانها حيث شاء ..

وأكثر المفسرين أن سبب نزولها اختلاف المسلمين فى غنائم بدر كيف تقسم : فقال الشبان : هى لنا لأنا باشرنا القتال ، وقال الشيوخ : كنا ردءاً لكم ولو انكشفتم لفئتم إلينا ، فنزلت ، وقيل : شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كان له غناء ونفع أن ينفله فسار شبابهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين ثم طلبوا أنفالهم وكان المال قليلا ، فقال الشيوخ الذين كانوا عند الرايات : كنا ردءاً أى عونا لكم تنحازون إلينا فنزلت ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم على السواء ، رواه الحاكم فى المستدرك ، وعن عبادة بن الصامت : نزلت فينا معاشر أصحاب بدر حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من الدنيا فجعله لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه بين المسلمين على السواء ، وكان فى ذلك تقوى الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإصلاح ذات البين ، وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه أنه قال : لما كان يوم بدر وقتل أخى عمير وقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه وأتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستوهبته منه فقال : هذا ليس لى ولا لك اطرحه فى القبض (١) فطرحته وبى مالا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخى وأخذ سلبى ، فما جاوزت إلا قليلا حتى نزلت سورة الأنفال ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : سألتنى السيف وليس لى وإنه قد صار لى ، اذهب

(١) وهو بفتحتين : ما قبض من الغنائم .

نخذه ، وقيل : إنها نزلت فيما يصل من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من عبد أو أمة أو متاع ، فهو للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع فيه ما يشاء ، واختلفوا هل هذه الآية منسوخة أولا ؟ فقال مجاهد وعكرمة : هي منسوخة بقوله تعالى « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول » الآية ، فكانت الغنائم يومئذ للنبي صلى الله عليه وسلم فنسخها الله تعالى بالخمس ، وقال بعضهم هي ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه ، وذلك أن الغنائم كانت حراما على الأمم الذين من قبلنا في شرائع أنبيائهم ، وأباحه الله تعالى بهذه الآية لهذه الأمة وجعلها ناسخة لشرع من قبلنا ، ثم نسخت بآية الخمس ، وقال عبدالله بن زيد بن أسلم : هي ثابتة غير منسوخة ، ومعنى الآية : قل الأنفال لله والرسول يضعها حيث أمره الله تعالى ، وقد بين الله تعالى مصارفها في قوله « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه » الآية . ومعنى الجمع بين ذكر الله والرسول أن حكم الغنيمة مختص بالله ورسوله بأمر الله يقسمها على ما تقتضيه حكمته ، ويمتثل الرسول فيها صلى الله عليه وسلم أمر الله تعالى وليس الأمر في قسمتها مفوضا إلى رأى أحد « فاتقوا الله » بطاعته واتركوا مخالفته واتركوا المخاصمة والمنازعة في الغنائم « وأصلحوا ذات بينكم » أي وأصلحوا الحال فيما بينكم بالمودة وترك النزاع وتسليم أمر الغنائم إلى الله ورسوله « وأطيعوا الله ورسوله » فيما يأمركم به وينهاكم عنه « إن كنتم مؤمنين » حقا فإن الإيمان يقتضى ذلك .

٢ — إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

٣ — ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ .

٤ — أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

وصف الله المؤمنين بصفات خمس :

أما الصفة الأولى (١) منها فهي وجل القلب — أي خشيته ورهبته — إذا ماذكر اسم الله أمامه ، لا خوفا من عقابه ، ولكن إجلالا لذاته وصفاته .. والذى

(١) راجع ص ٥٣ وما بعدها — سورة الأنفال — مصطفى أبو زيد .

لا شك فيه أن ذكر الله يلين القلوب ؛ ويهز المشاعر ، ويثير فى النفوس إحساسات شتى ؛ فإنه الله : خالق كل شىء ، وإليه مرجع كل شىء . وهو الله : الغفور الرحيم ، شديد العقاب ذو الطول ، وهو الله : منح كل النعم ، فاستحق الشكر كله ، ومامنا إلا من يقصر فى شكره كل التقصير ، أو نوعا من التقصير .. فكيف إذن لا يقشعر جلد المؤمن فرقا منه ، وفزعا من لقائه كلما ذكر اسمه أمامه ؟ ولكن .. كيف لا يطمئن قلب المؤمن إلى غفرانه ورحمته بعد ذلك ؟ إنه عز وجل يقول : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد » ، فيصف المؤمنين بالوجل منه وبالطمأنينة إلى مغفرته فى آية واحدة . ولا تناقض فى هذا ما دام ذكر الله هو الذى توجل منه القلوب إجلالا ومهابة ، وهو نفسه الذى تطمئن به رجاء فى المغفرة وطمعاً فى الرحمة .

وأما الصفة الثانية من صفات المؤمنين فهى أن يزيدهم الاستماع إلى آيات كتابه إيمانا به ، أى أن يقوى عقيدتهم ، ويزيد تصديقهم رسوخا ؛ فالذى لا شك فيه أن الإيمان يزيد كلما تعددت الأدلة التى تدعو إليه ، أو صارت أقوى . ولقد سأل الله نبيه إبراهيم عليه السلام عندما طلب منه أن يريه كيف يحيى الموتى قائلا: أو لم تؤمن ؟ فكان جواب إبراهيم : « بلى ولكن .. ليطمئن قلبى » ، وماذا تكون طمأنينة القلب بعد الإيمان إلا تمكينا لهذا الإيمان فى القلب أو زيادة فيه ؟ على أن الإيمان يطلق على مجموع الاعتقاد والعمل بموجبه ، كما يطلق على كل منهما منفردا ، ولا مانع من إرادة العمل والاعتقاد معا ، ومن إرادة العمل وحده ؛ إذ للزيادة حينئذ مجال آخر هو العمل ، وقبوله لها أمر يلمسه الجميع .

وأما الصفة الثالثة فهى أن يتوكل المؤمنون على الله وحده ، أى أن يفوضوا أمورهم كلها إليه فلا يعتمدوا على غيره فى شىء ، ولا يسألوا غيره شيئاً . ولا يعنى هذا بحال أن يتواكل المؤمن فلا يعمل ؛ اعتماداً على أن الله هو الرزاق ، وهو الموفق للنجاح ، وهو . . . وهو . . . الخ ؛ إذ العمل وبذل الجهد شرط ضرورى للتوكل لا يتم بدونه . ولن يكون مؤمناً حقاً ذلك الإنسان الذى يخرج على سنة الله ، فينتظر ثمراً من غير غرس ، وشبعا من

غير أكل ، ونجاحا من غير جهد .. لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير : تغدو خماصا وتروح بطانا » فقرر أن التوكل لا يكون إلا مع السعى ، وقال عمر رضى الله عنه : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى ، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » ، فبين أن واجب المؤمن العمل أولا ، ثم التوكل بعد ذلك . وقال الغزالى : « ليس من التوكل الخروج على سنة الله أصلا » فنفى أن يكون التواكل توكلا ؛ لأن التوكل هو أعلى مقامات التوحيد ؛ إذ هو تفويض الأمر كله إلى الله ، واليقين بأنه هو المدبر لأمور العالم كله ، بعد بذل الجهد ، وأداء الواجب بالأسباب ؛ خضوعا لسنن الله التى لا تتخلف ، ولا تتحول .

والصفة الرابعة هى إقامة المؤمنين للصلاة ، أى تأديتهم لها مستوفية الشروط والأركان فى صورتها وفى روحها .. أى انقطاعها بها فترة عن الحياة الدنيا للاتصال بالله . . وفى مناجاة كلها تدبر وخشوع ، وفى دعاء كله إيمان وثقة ، وفى امتثال كله إجلال ورهبة . فهكذا يعرف الإسلام صلاة المؤمنين : إحساسا عميقا بالوقوف بين يدى الله ، وانقطاعا تاما إلى مناجاته ، وتمثلا حيا لجلاله وكبريائه ، واستغراقا كاملا فى دعائه .

والصفة الخامسة من صفات المؤمنين هى إنفاق المال فى سبيل الله : أى فى مصالح الأمة ، ولكفاية المعوزين والمحتاجين من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، هى إنفاق المال بالزكاة المفروضة وبالصدقة المندوبة ، وبكل وسائل الإنفاق التى تعود بالخير على الدولة أو على المجتمع . . . وإذا كان المال — كما يقولون — هو شقيق الروح ، فإن إنفاقه فى سبيل الله من ألزم صفات المؤمنين ؛ لأن هذا الإنفاق — كما شرعه الله — وسيلة ضرورية لبناء المجتمع السليم .

يقول الله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » ، الوجل استشعار الخوف . يعنى ما يجعل القلب يشعر به بالفعل ، وعبر غيره عنه بالفزع والخوف ، وذلك أن الخوف توقع أمر مؤلم فى المستقبل قد يصحبه شعور الألم والفزع ، وقد يفارقه لضعفه أو لاعتقاد بعد أجله ، فالوجل والفزع أخص منه . وفى سورة الحجر من حوار إبراهيم مع ضيفه المنكرين :

« قال إنا منكم وجلون ، قالوا لا توجل » ، وفى سورة المؤمنين فى صفة المؤمنين المشفقين من خشية ربهم « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون » ، فالوجل هنا مقترن بالعمل الصالح وهو البذل والعطاء. وفى سورة الحج « وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » ، وهى بمعنى آية الأنفال ، وليس للوجل ذكر فى غير هذه الآيات ، ويتفق معنى الوجل فيها بأنه الفزع وشعور الخوف يلم بالقلب ، وقد يكون هذا الخوف من العاقبة المجهولة ، وقد يكون من الإجلال والمهابة .

وعن ثابت البنانى قال : قال فلان : إنى لأعلم متى يستجاب لى ، قالوا : ومن أين لك ذلك ؟ قال : إذا اقشعر جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى . والمراد بذكر الله ذكر القلب لعظمته وسلطانه وجلاله أو لوعيده ووعده ، ومحاسبته لخلقه وإدانتهم ، وغير ذلك من صفاته وأفعاله سواء صحبه ذكر اللسان أم لا ، وأعظم ذكر اللسان مع القلب ترتيل القرآن بالتدبر ، وقد يقول المؤمن فى صلاة التهجد فى الخلوة « الله أكبر » مستحضرا لمعنى كبريائه عز وجل فينتفض ويقشعر جلده ، فمن خص الذكر هنا بالوعيد غفل عن كل هذا وظن أن الوجل لا يكون إلا من خوف العذاب ، وكأنه لم يذق طعم الخشية والوجل من مهابة الله وعظمته وكبريائه وعزة سلطانه . « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » أى تصديقاً ويقينا ، لأن زيادة الإيمان بزيادة التصديق ، وذلك على وجهين :

الوجه الأول وهو الذى عليه عامة أهل العلم على ما حكاه الواحدى أن كل من كانت عنده الدلائل أكثر وأقوى كان أزيد إيمانا ، لأنه عند حصول كثرة الدليل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين ، فتكون معرفته بالله أقوى فيزداد إيمانه وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجح .

الوجه الثانى وهو أنهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله ، ولما كانت التكاليف متوالية فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، فكلما تجدد تكليف كانوا

يزدادون تصديقا وإقرارا ، ومن المعلوم أن من صدق إنسانا فى شيئين كان أكثر ممن يصدقه فى شيء واحد ، فقوله تعالى « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » معناه أنهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا بإقرار جديد فكان ذلك زيادة فى الإيمان والتصديق ، واختلفوا هل الإيمان يقبل الزيادة والنقصان أولا ؟ فالذين قالوا : إن الإيمان عبارة عن التصديق القلبى قالوا لا يقبل الزيادة ولا النقصان ، والذين قالوا إنه مجموع الاعتقاد والإقرار والعمل قالوا : يقبل الزيادة والنقصان ، واحتجوا بهذه الآية من وجهين :

الأول أن قوله تعالى «زادتهم إيمانا» يدل على أن الإيمان لا يقبل الزيادة ولو كان عبارة عن التصديق فقط لما قبل الزيادة ، وإذا قبل الزيادة فقد قبل النقص .

الوجه الثانى أنه تعالى ذكر فى هذه الآية أوصافا متعددة من أحوال المؤمنين ، ثم قال بعد ذلك « أولئك هم المؤمنون حقا » وذلك يدل على أن تلك الأوصاف داخلة فى مسمى الإيمان ، وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان ، ففى الحديث دليل على أن الإيمان أدنى وأعلا فيكون قابلا للزيادة والنقص ، وقال عمير بن حبيب: إن للإيمان زيادة ونقصانا ، قيل له : فما زيادته ومانقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وحمدناه فذلك زيادته، وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن عدى : إن للإيمان فرائض وشرائط وحدودا وسننا ، فمن استكملها فقد استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان . . ثم وصف الله تعالى الكاملين بصفة أخرى ثالثة وهى الاتكال عليه بقوله « وعلى ربهم يتوكلون » أى يفوضون جميع أمورهم إليه لا يرجون غيره ولا يخافون سواه ، لأن المؤمن إذا كان واثقا بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره ، وهذا الحال مرتبة عالية ودرجة شريفة ، وهى أن الإنسان بحيث يصير لا يبقى له اعتماد فى أمر من الأمور على الله تعالى ، وهذه الصفات الثلاث مرتبة على أحسن صفات الترتيب ، فإن

المرتبة الأولى هى الوجل عند ذكر الله ، والمرتبة الثانية هى الانقياد لمقامات التكاليف ، والمرتبة الأخيرة الانقطاع عما سوى الله والاعتماد على فضل الله بل الغناء عما سوى الله ، ثم إن هذه المراتب الثلاث أحوال معتبرة فى القلوب والبواطن ، ثم انتقل منها إلى رعاية أحوال المؤمنين فقال « الذين يقيمون الصلاة » أى يؤدونها بحقوقها « ومما رزقناهم » أى أعطيناهم « ينفقون » فى طاعة الله ، لأن رأس الطاعات المعتبرة فى الظاهر بذل النفس فى الصلاة وبذل المال فى مرضاة الله ، ويدخل فى ذلك صلاة الفرض والنفل والزكاة والصدقات والإنفاق فى الجهاد والإنفاق على المساجد وفى مصالح الوطن والأمة ، ثم قال تعالى « أولئك » أى الموصوفون بهذه الصفات الخمسة « هم المؤمنون حقاً » لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ومحاسن أفعال الجوارح التى عليها المعيار ، وهى الصلاة والصدقة ، و(حقا) مصدر مؤكد للجملة التى هى « أولئك هم المؤمنون » ، كقوله : هو عبدالله حقاً .. واختلف العلماء فى أنه هل للشخص أن يقول : أنا مؤمن حقا أولا ؟ فقال أصحاب الشافعى رضى الله عنه : الأولى أن يقول الرجل : أنا مؤمن إن شاء الله ولا يقول : أنا مؤمن حقا ، وقال أصحاب أبى حنيفة : الأولى أن يقول : أنا مؤمن حقا ولا يجوز أن يقول إن شاء الله ، وعلى الأول أن الشخص إذا قال : أنا مؤمن ، فقد مدح نفسه بأعظم المدائح فربما حصل له بذلك عجب ، فإذا قال : إن شاء الله زال ذلك العجب وحصل الانكسار له ، وعن الحسن أن رجلا سأله : أمؤمن أنت ؟ فقال : الإيمان إيمانان : فإن كنت سألتنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن بها ، وإن كنت سألتنى عن قوله تعالى « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » الآية فلا أدرى أنا مؤمن أم لا ، وقال سفيان الثورى : من زعم أنه مؤمن حقاً عند الله ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية ، وهذا إلزام منه أى كما لا نقطع أنه من أهل الجنة قطعا فلا نقطع بأنه مؤمن حقاً . « لهم » أى للموصوفين بتلك الصفات « درجات » أى منازل فى الجنة « عند ربهم » بعضها أعلا من بعض لأن المؤمنين تتفاوت أحوالهم

فى الآخذ بتلك الأوصاف المذكورة فلهذا تتفاوت منازلهم فى الجنة على قدر أعمالهم ، قال عطاء : درجات الجنة يرتفعون فيها بأعمالهم ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام ، وعن أبى سعيد رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : فى الجنة مائة درجة لو أن العالمين اجتمعوا فى إحداهن لوسعتهم « ومغفرة » أى لما فرط منهم « ورزق كريم » أعد لهم فى الجنة لا ينقطع عدده ولا ينتهى أمده .

٥ — كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ .

٦ — يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ .

٧ — وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ .

٨ — لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ .

٩ — إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ .

١٠ — وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

١١ — إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ .

١٢ — إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ .

١٣ — ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

١٤ — ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ .

هذه الآيات الكريمة العشر فى قصة غزوة بدر ، وما حدث فيها من توفيق الله وفضله ونصر للمسلمين ، ومن خذلانه عز وجل للمشركين يقول الله عز وجل فى هذه الآيات : «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون» أى إن الأنفال لله يحكم فيها بالحق ولرسوله ، يقسمها بين من جعل الله لهم الحق فيها بالسوية ، وإن كره ذلك بعض المتنازعين فيها ، والذين كانوا يرون أنهم أحق بها وأهلها ، فهى كاخراج ربك إياك من بيتك بالحق للقاء إحدى الطائفتين من المشركين فى الظاهر ، وكون تلك الطائفة هى المقاتلة فى الواقع ، والحال أن كثيراً من المؤمنين لكارهون لذلك ، لعدم استعدادهم للقتال ، أو له ولغيره من الأسباب التى تعلم مما يأتى .

هذا هو المتبادر من هذا التشبيه ، ولا يظهر المعنى تمام الظهور فى الآيات إلا ببيان ما وقع من ذلك وأجمعه رواية محمد بن اسحق قال : عن عبد الله ابن عباس قال : لما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليه وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها . فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم

لم يظنوا أن رسول الله يلقى حرباً ، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز من يتجسس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان تخوفا على أموال الناس ، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ، فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة ، وخرج رسول الله فى أصحابه حتى بلغ واديا يقال له ذفران ، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار رسول الله الناس وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام عمر رضى الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يارسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فقال له رسول الله خيراً ودعا له بخير ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيروا على أيها الناس ، وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم كانوا عدد الناس وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يارسول الله : إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، وكان رسول الله يتخوف أن لاتكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من غير بلادهم . فلما قال رسول الله ذلك قال له سعد ابن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجل . فقال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أمرك الله به ، فهو الذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك مايتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء . ولعل الله يريك منا ماتقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله بقول سعد ونشطه

ذلك ، ثم قال : سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم . والتقدير كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق من المؤمنين ، كذلك هم يكرهون القتال ويجادلونك فيه . وقيل الكاف : بمعنى على ، وتقديره : امض على الذى أخرجك ربك ، وقيل : الكاف بمعنى إذ وتقديره : واذكر إذا أخرجك ربك من بيتك بالحق « وإن فريقا من المؤمنين لكارهون » الخروج ، والجملة حال من كاف « أخرجك » ، وقيل (كما) خبر مبتدأ محذوف أى هذه الحالة فى كراهتهم لها مثل إخراجك فى حال كراهتهم. وقد كان خيرا لهم ، فكذلك هذا أيضا ، وذلك أن أباسفيان قدم بعير من الشام فى أربعين راكبا منهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهرى وفيها تجارة كثيرة ؛ فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبر المسلمين فحبب إليهم لقاء العير لكثرة المال وقلة العدو ، فلما سمع أبو سفيان بمسير النبى صلى الله عليه وسلم إليه استأجر ضمضم وبعثه إلى مكة وذهب ضمضم إلى مكة يستنفر قريشا ويقول: أيها الناس عيركم أموالكم إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبدا ، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة ، وهو النفير، وفى المثل: لا فى العير ولا فى النفير، فقيل له : إن العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس ، فقال : والله لا يكون ذلك أبدا حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور ونقيم المعازف ببدر فيتسامع جميع العرب بمخرجنا ، فمضى بهم إلى بدر ، وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما فى السنة ، ونزل جبريل عليه السلام ، وقال يا محمد إن الله وعدكم إحدى الطائفتين : إما العير وإما قريش . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه حدثه عن أهل بدر قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس ، فيقول : هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله ، قال عمر : فوالذى بعثه بالحق نبيا ما أخطأ الحدود التى حدها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى

انتهى إليهم فقال : يافلان بن فلان هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقاً : فإنى وجدت ما وعدنى الله حقا ، فقال عمر كيف تكلم أجساداً لاأرواح فيها ، فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول لهم منهم غير أنهم لا يستطيعوا أن يردوا على شيئا « يجادلونك فى الحق » أى القتال « بعدما تبين » إنك لا تصنع شيئاً إلا بأمر ربك « كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » إليه أى يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه ، وذلك أن المؤمنين لما أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك ، وقالوا: لو يعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد للقائهم وإنما خرجنا لطلب العير ، إذ روى أنهم كانوا مشاة وما كان فيهم إلا فارسان ، وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم كانت لفرط فزعهم «وإذ» أى واذكر إذ « يعدكم الله أحدى الطائفتين» أى العير أو النفير « أنها لكم وتودون » أى تريدون « أن غير ذات الشوكة » أى القوة والشدة والسلاح وهو العير « تكون لكم » لقلة عددها وعددها إذا لم يكن فيها إلا أربعون فارسا بخلاف النفير لكثره عددهم وعددهم « ويريد الله أن يحق الحق » أى يظهره « بكلماته » أى بآياته المنزلة فى محاربة ذات الشوكة وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة ، وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم فى قليب بدر « ويقطع دابر الكافرين » أى يستأصلهم ، والمعنى : إنكم تريدون أن تصيبوا مالا ولا تلقوا مكروها ، والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق وما يحصل لكم فوز الدارين « ليحق الحق » أى يثبت الإسلام « ويبطل الباطل » أى يمحق الكفر « ولو كره المجرمون » أى المشركون ذلك ، وليس قوله تعالى : « ليحق الحق » بعد قوله تعالى : « أن يحق الحق » من التكرار لأن المعنيين متباينان ، وذلك أن الأول لبيان المراد وما بينه وبين مرادهم من التفاوت ، والثانى لبيان الداعى إلى حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة على غيرها ونصرة عليها « إذ » أى واذكر إذ « تستغيثون ربكم » وذلك أنهم لما علموا أن لا محيص عن القتال أخذوا يقولون : ربنا انصرنا على عدوك اغثنا يا غياث المستغيثين ، وعن عمر رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلثمائة وبضعة عشر

فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو: اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هـذه العصابة لا تعبد فى الأرض ـ فما زال كذلك حتى سقط رداؤه وأخذه أبو بكر فألقاه على منكبه وقال: يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ماوعدك « فاستجاب لكم أنى » أى بأنى « ممدكم بألف من الملائكة مردفين » أى متتابعين يردف بعضهم بعضاً، وقد وعدهم أولا ألفا ثم صارت ثلاثة آلاف ثم صارت خمسة آلاف كما فى آل عمران ، فقيل: نزل جبريل فى خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر رضى الله عنه وميكائيل عليه السلام على الميسرة ، وفيها على رضى الله عنه فى صـور الرجال عليهم عمائم بيض فقاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا يوم الأحزاب ويوم حنين ، وروى أن أبا جهل قال لابن مسعود : من أين كان ذلك الصوت الذى كنا نسمع ولا نرى شخصاً؟ قال : من الملائكة . فقال أبو جهل : هم غلبونا لا أنتم ، وروى أن رجلا من المسلمين بينما هو يشتد فى طلب رجل من المشركين إذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه ، فنظر إلى المشرك وقد خر مستلقيا وشق وجهه ، فحدث الأنصارى رسول الله صـلى الله عليه وسلم فقال : صدقت ، ذلك من مدد السماء فقتلوا يوم بدر سبعين وأسروا سبعين ؛ وعن أبى داود المازنى: تبعت رجلا من المشركين لأضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدى قبل أن يصل إليه سيفى ، وروى أبو أمامة ابن سهل بن حنيف عن أبيه قال : رأيتنا يوم بدر وأن أحداً ليشير بسيفه إلى المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف ؛ وقيل : إن الملائكة لم يقاتلوا وإنمـا كانوا يكثرون السواد ، يثبتون المؤمنين وإلا فملك واحد كاف لإهلاك أهل الدنيا كلهم . فإن جبريل عليه السلام أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط وأهلك بلاد ثمود وقوم صالح بصيحة واحدة ، وقيل : يدل على هذا القول قوله تعالى: « وما جعله الله إلا بشرى » أى وما جعل الإرداف بالملائكة إلا بشرى لـكم « ولتطمئن به قلوبكم » فيزول ما بها من الوجل لقلتكم وذلتـكم « وما النصر إلا من عند الله » أى لا من عند غيره ، وأما إمداد الملائكة وكثرة العدد والعتاد ونحوها فهى وسائل لا تأثير لها فلا تحسبوا أن النصر منها، ولا تيأسوا

منه بفقدها ، « إن الله عزيز » أى أنه تعالى قوى منيع لا يقهره شيء ولا يغلبه غالب بل هو يقهر كل شيء ويغلبه « حكيم » فى تدبيره ونصره، ينصر من يشاء ويخذل من يشاء من عباده « إذ » أى واذكر إذ « يغشاكم النعاس » وهو النوم الخفيف « أمنة » أى بما حصل من الخوف من عدوكم « منه » أى من الله تعالى لأنهم لما خافوا على أنفسهم لكثرة عددهم وعددهم وقلة المسلمين وقلة عددهم وعطشوا عطشاً شديداً ألقى الله عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة وزال عنهم الكلال والعطش وتمكنوا من قتال عدوهم ، كان ذلك النوم نعمة فى حقهم لأنه كان خفيفاً بحيث لو قصدهم العدو فعرفوا وصوله إليهم قدروا على دفعه عنهم ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : النعاس فى القتال أمنة من الله وفى الصلاة وسوسة من الشيطان « وينزل عليكم من السماء ماء » أى مطرا « ليطهركم به » أى من الأحداث ، وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب رمل أعفر تسوخ فيه الأقدام .

وكان المشركون قد سبقوهم على ماء بدر فنزلوا عليه وأصبح المسلمون على غير ماء ، وبعضهم محدث وبعضهم جنب وأصابهم العطش فوسوس إليهم الشيطان فقال لهم المنافقون : تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبى الله ، وأنتم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين، فكيف ترجون أن تظهروا على عدوكم؟وما ينتظرون بكم إلا أن يجهدكم العطش، فإذا قطع العطش أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة ؛ فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا، فأنزل الله تعالى مطرا أسال منه الوادى فشرب منه المؤمنون واغتسلوا وتوضئوا وسقوا الدواب ، وعظمت النعمة من الله عليهم بذلك،وكان دليلا على حصول النصر والظفر وزالت عنهم وسوسة الشيطان ، كما قال تعالى « ويذهب عنكم رجز الشيطان » أى وسوسة الشيطان التى ألقاها فى قلوبكم « ويثبت به الأقدام » أى يربط قلوبكم ويقوى من عزائمكم ، ويجعلكم أقوياء « إذ يوحى ربك إلى الملائكة » أى الذين أمد بهم المسلمين « أنى » أى بأنى « معكم » أى بالعون والنصرة «فثبتوا الذين آمنوا» أى قووا قلوبهم بأن تقاتلوا

المشركين معهم ، وقيل : بالتبشير والإعانة « سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » أى الخوف فلا يكون لهم ثبات ، وكان ذلك نعمة من الله تعالى على المؤمنين حين ألقى الخوف فى قلوب المشركين « فاضربوا » خطاب للمؤمنين أو للملائكة « فوق الأعناق » أى أعاليها ، وقيل المراد : الأعناق وفوق زائدة أو بمعنى على أى اضربوا على الأعناق « واضربوا منهم كل بنان » قال عطية : يعنى كل مفصل ، وقال ابن عباس يعنى الأطراف ، والبنان جمع بنانة وهى أطراف الأصابع من اليدين والرجلين ، وبضرب الرأس يموت الإنسان ، وبضرب البنان تبطل حركته عن القتال ولا يستطيع إمساك السلاح « ذلك » أى التسليط العظيم الذى وقع من القتل والأسر يوم بدر ، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد « بأنهم » أى الذين تلبسوا بالكفر «شاقوا الله» الذى لا يطاق انتقامه «ورسوله» أى خالفوهما فى الأوامر والنواهى ، والمشاقة المخالفة وأصلها المجانبة كأنهم صاروا فى شق وجانب غير الذى يرضيانه « ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب » له فإن الذى أصابهم فى ذلك اليوم من الأسر والقتل شىء قليل فى جانب ما أعد الله تعالى لهم من العقاب يوم القيامة « ذلكم » خطاب للكفار ، أى ذلكم الذى عجل لكم ببدر من القتل والأسر « فذوقوه » عاجلا « وإن للكافرين » أى آجلا فى الآخرة « عذاب النار » .

١٥ — يَآأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ .

١٦ — وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

هاتان الآيتان الكريمتان فيهما تحريم الفرار من ميدان المعركة ، معركة الجهاد فى سبيل الله لرفع منار الإسلام والمسلمين ، وخذلان الشرك والمشركين

وليس أضر من الفرار من المعركة ؛ إذ هو سبب الهزيمة والفشل ، وباعث الخزى والعار ، ودليل الجبن والخور ، والفرار يؤدى إلى نكسة الأمة ، وهو مظهر لضعف الهمة . يقول الله عز وجل فى هاتين الآيتين الكريمتين ..

« ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا » أى مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون أى يدبون دبيبا ، من زحف الصبى إذا دب على استه قليلا قليلا ، « فلا تولوهم الأدبار » أى منهزمين أمامهم وإن كنتم أقل منهم « ومن يولهم يومئذ » أى يوم لقائهم « دبره » أى يجعل ظهره إليهم منهزما « إلا متحرفا » أى منعطفا « لقتال » بأن يريهم أنه منهزم « خداعا » ، ثم يكر عليهم ، وهو باب من مكائد الحرب « أو متحيزا » أى منضما وصائرا « إلى فئة » أى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التى هو فيها على القرب يستنجد بها ، ومنهم من لايعتبر القرب ، لما روى ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان فى سرية بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ففروا إلى المدينة فقلت يارسول الله : نحن الفرارون ، فقال : بل أنتم الماكرون » . وفى رواية الكرارون أى المتعاطفون إلى الحرب « فقد باء » أى رجع « بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » أى المرجع هى ، وعن ابن عباس : أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر ؛ هذا إذا لم يزد العدد على الضعف كقوله « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا » وقيل : هذا فى أهل بدر خاصة لأنه ما كان لهم الانهزام يوم بدر ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان معهم .

والآيتان تدلان على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصى ، وقد جاء التصريح بذلك فى أحاديث أصحها عن أبى هريرة مرفوعا عن الشيخين « اجتنبوا السبع الموبقات » أى المهلكات - قالوا يارسول الله وماهن ؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات والمؤمنات » وقد قيد بعض العلماء هذا بما إذا كان الكفار لا يزيدون على ضعف المؤمنين ، وعد بعضهم الآية منسوخة بقوله تعالى من هذه السورة (٦٦ - الآن خفف

الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا » الآية وسنأتى . وهذا ظاهر على قول من يسمى التخصيص نسخا كالمتقدمين . قال الشافعى رحمه الله تعالى : إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة ، وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا ولا يستوجبون السخط عندى من الله لو ولوا عنهم على غير تحرف للقتال أو التحيز إلى فئة ، وروى هو وابن أبى شيبة عن ابن عباس قال : من فر من ثلاثة فلم يفر ، ومن فر من اثنين فقد فر .

وقد روى عن عمر وابنه وابن عباس وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى وأبى بصرة وعكرمة ونافع والحسن وقتادة وزيد بن أبى حبيب والضحاك أن تحريم الفرار من الزحف فى هذه الآية خاص بيوم بدر ؛ قيل إنه بناء على أن قوله تعالى « يومئذ » يراد به يوم بدر ، ولكن هذا خلاف قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ويؤيده نزول الآية بعد انتهاء الغزوة ، فانه ليس فيها ذكر « يوم بدر » وإنما المراد بتنوين يومئذ مافهم من أول الآية أى يوم لقائهم زحفا كما تقدم فاليوم فيه بمعنى الوقت . وإنما قد يتجه بناء التخصيص على قرينة الحال لو كانت الآية قد نزلت قبل اشتباك القتال - خلافا للجمهور - مع ما لغزوة بدر من الخصائص ككونها أول غزوة فى الإسلام لو انهزم فيها المسلمون والنبى صلى الله عليه وسلم فيهم لكانت الفتنة كبيرة ، وتأييد المسلمين فيها بالملائكة يثبتونهم ، ووعده تعالى بنصرهم بإلقاء الرعب فى قلوب أعدائهم - فاذا نظرنا إلى مجموع الخصائص وقرينة الحال فى النهى اتجه كون التحريم المقرون بالوعيد الشديد الذى فى الآية خاصا بها ، أضف إلى ذلك أن الله تعالى امتحن الصحابة بالتولى والإدبار فى القتال مرتين مع وجوده صلى الله عليه وسلم معهم يوم أحد ، وفيه يقول الله تعالى : « ٣ : ١٥٥ - إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم » ويوم حنين ، وفيه يقول الله تعالى « ٩ : ٢٦ - لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم

فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » الخ وهذا لا ينافى كون التولى حراما ومن الكبائر ، ولا يقتضى أن يكون كل تول لغير السببين المستثنيين فى آية الأنفال يبوء صاحبه بغضب عظيم من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ، بل قد يكون دون ذلك ، ويتقيد بآية رخصة الضعف الآتية فى هذه السورة وبالنهى عن إلقاء النفس فى التهلكة من حيث عمومها كما تقدم فى سورة البقرة وسيأتى تفصيله قريباً .

وقد روى أحمد وأصحاب السنن إلا النسائى من حديث ابن عمر قال « كنت فى سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاص الناس حيصة [1] وكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة فبتنا ، ثم قلنا : لو عرضنا نفوسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فان كان لنا توبة وإلا ذهبنا . فأتيناه قبل صلاة الغداة [2] فخرج فقال : من الفرارون ؟ فقلنا : نحن الفرارون . قال : بل أنتم العكارون [3] أنا فئتكم وفئة المسلمين . قال : فأتيناه حتى قبلنا يده . ولفظ أبى داود - فقلنا ندخل المدينة فنبيت فيها لنذهب ولا يرانا أحد ، فدخلنا فقلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فان كانت لنا توبة أقمنا وإن كان غير ذلك ذهبنا ، فجلسنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر فلما خرج قمنا إليه فقلنا : نحن الفرارون الخ » تأول بعضهم هذا الحديث بتوسع فى معنى التحيز إلى فئة : لا يبقى معه للوعيد معنى ولا للغة حكم ، وقد قال الترمذى فيه : حسن لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبى زياد . أقول : وهو مختلف فيه ، ضعفه الكثيرون وقال ابن حبان : كان صدوقا إلا أنه لما كبر ساء حفظه وتغير فوقعت المناكير فى حديثه ، فمن سمع منه قبل التغير فسماعه صحيح ، وجملة القول

---

(١) حاص عن الشيء حاد وهرب (٢) أى الصبح

(٣) العكار كالعطاف والكرار لفظا ومعنى .

أن هذا الحديث لا وزن له فى هذه المسألة لا متنا ولا سنداً ، وفى معناه أثر عن عمر هو دونه فلا يوضع فى ميزان هذه المسألة .

١٧ — فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

١٨ — ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ .

١٩ — إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

٢٠ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ .

٢١ — وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ .

هذه الآيات الخمس الكريمة ، هى فى امتنان الله عز وجل على المسلمين بنصرهم يوم بدر ، هذا النصر الأكبر ، الذى كان فيه عزة للإسلام ، ومجد للمسلمين : وقد كان هذا النصر عونا من الله للرسول وأصحابه ، وفتحا مبينا أعز الإسلام وأهله . . وفى الآيات وعد كريم من الله بخذلان الشرك ، وتحذير للمسلمين من العصيان حتى لا يستوجبوا غضب الله ، وحتى لا يزول عنهم نصره ، وفيها أمر لهم بطاعة الله ورسوله ونهى عن الفرار ، وعن الشرك ومتابعة المشركين .

قوله تعالى : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » يقول لهم : يا أيها المؤمنون

لا تولوا الكفار [1] ظهوركم فى القتال أبداً ؛ فأنتم أولى منهم بالثبات والصبر ثم بنصر الله تعالى ؛ فها أنتم أولاء قد انتصرتم عليهم ، على قلة عددكم وعددكم وكثرتهم واستعدادهم ، وإنما ذلك بتأييد الله تعالى لكم ، وربطه على قلوبكم ، وتثبيته أقدامكم . « فلم تقتلوهم » ذلك القتل الذريع بمحض قوتكم واستعدادكم المادى « ولكن الله قتلهم » بأيديكم ، بما كان من تثبيت قلوبكم بمخالطة الملائكة وملابستها لأرواحكم وبإلقاء الرعب فى قلوبهم . فهو بمعنى « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم » والمؤمن أجدر من الكافر بالصبر الذى هو الركن الأعظم للنصر ؛ لأنه أقل حرصاً على متاع الدنيا ، وأعظم رجاء بالله واليوم الآخر كما قال الله تعالى « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما » وقال حكاية لرد المؤمنين بهذا الرجاء على الخائفين من كثرة الأعداء « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

ولقد روى ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قال فى استغاثته يوم بدر : اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا — قال جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم ؛ ففعل ، فما من أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة ، فولوا مدبرين . وفى هذا يقول الله بعد أن يلتفت إلى رسوله : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » غير أنه ينفى رمى الرسول إذ يثبته له تعالى ، فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى وما رمى ، وإنه لكذلك فعلا ! .

لقد رمى رسول الله تلك القبضة من التراب ، أما الذى وصل التراب إلى وجوه المشركين فهو الله عز وجل . وكان رمى الرسول عاديا لا يمتاز على رمى غيره من الناس بشىء ، أما الذى أحدث برميه تلك الآثار البليغة فهو الله ! . « وما رميت إذ رميت » أى ما رميت أحداً من المشركين فى الوقت الذى

---

(١) ص ٧٧ تفسير سورة الأنفال .

رميت فيه التراب فأصاب وجوههم . أو ما رميت بالرعب فى قلوبهم إذ رميت التراب أو ما رميت حقيقة إذ رميت صورة . أو ما رميت التراب إذ رميته « ولكن الله رمى » لأنه هو الذى أوصل المرمىّ به مع بعد المسافة ، وهو الذى أصاب به على قلته جميع المشركين على كثرتهم ، وهو الذى جعله بهذا أحد أسباب هزيمتهم ! . . واختلف فى سبب نزول قوله تعالى « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » على ثلاثة أقوال :

الأول : وهو قول المفسرين . نزلت فى يوم بدر ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ندب إلى قتال بدر نزلوا بدراً ووردت عليهم قريش وفيهم « أسلم » غلام أسود لبنى الحجاج ، وأبو يسار غلام لبنى العاص بن سعد فأتوا بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال لهما: أين قريش ؟ فقالا: هم وراء هذا الكثيب الذى بالعدوة القصوى، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما عدد القوم؟ قالا :كثير ، قال: ما عدتهم؟ قالا لا ندرى قال: كم تنحرون كل يوم؟قالا: يوما عشرة ويوما تسعة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القوم ما بين التسعمائة إلى الألف ، ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البحترى بن هشام وأبو جهل بن هشام وعدا جماعة أخر ، فقال صلى الله عليه وسلم : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها ، فلما طلعت قريش قال عليه الصلاة والسلام : هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك ، اللهم إنى أسألك ما وعدتنى، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له : خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فلما التقى الجمعان قال لعلى رضى الله عنه أعطى قبضة من حصباء الوادى فأرمى بها فى وجوههم ، وقال : شاهت الوجوه أى قبحت ، فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينه وفمه ومنخره ، فانهزموا وردفهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم ، والمعنى أن الرمية التى رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر البشر، ولكنها كانت رمى الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم ، لأن كفا من الحصباء لا يملأ عيون الجيش الكثير برمية البشر، فأثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن صورتها

وجدت منه ، ونفاها عنه لأن أثرها الذى لا يطيقه البشر من فعل الله تعالى، فكأن الله تعالى هو فاعل الرمية على الحقيقة وكأنها لم توجد من الرسول صلى الله عليه وسلم .

والقول الثانى : أنها نزلت يوم خيبر، روى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ قوساً وهو على باب خيبر فرمى سهما فأقبل السهم حتى قتل لبانة بن أبى الحقيق وهو على فرسه .. فنزلت .

والقول الثالث : أنها نزلت فى يوم أحد فى قتل أبى بن خلف ، وذلك أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم وفتته وقال : يا محمد من يحيي هذه وهى رميم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم يحييها الله ، ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك النار فأسر يوم بدر ، فلما افتدى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن عندى فرساً أعلفها كل يوم فرقا من ذرة أقتلك عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أنا أقتلك إن شاء الله تعالى ، فلما كان يوم أحد أقبل أبى يركض على ذلك الفرس حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعترض له رجال من المسلمين ليقتلوه فقال صلى الله عليه وسلم: استأخروا ورماه بحربة كسرت ضلعا من أضلاعه فمات ببعض الطريق فنزلت، والأصح الأول.. ولذا دخل فى أثناء القصة كلام أجنبى عنها وذلك لا يليق ، وقال الرازى لا يبعد أن يدخل تحته سائر الوقائع ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب « وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا » معطوف على قوله « ولكن الله رمى » أى ولينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ، ثم ختم الله تعالى هذه الآية بقوله « إن الله سميع » لأقوالكم « عليم » بأحوال قلوبكم ، وهذا جرى مجرى التحذير والترهيب لئلا يغتر العبد بظواهر الأمور ، ويعلم أن الخالق تعالى يطلع على ما فى الضمائر والقلوب « ذلكم » إشارة إلى البلاء الحسن أى الفرض ذلكم « وأن الله موهن كيد الكافرين » معطوف على ذلكم ، أى المقصود إبلاء المؤمنين وتوهين الكافرين وإبطال حيلهم « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » أكثر المفسرين على أنه خطاب للكفار ، روى أن أبا جهل لعنه الله قال يوم

بدر: اللهم أينا كان أقطع للرحم وأفجر فأهلكه الغداة ، وقال السدى: إن المشركين لما أرادوا الخروج إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى القبلتين وأكرم الحزبين ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، أى إن تستنصروا لأهدى القبلتين وتستقصوا فقد جاءكم النصر والقضاء بهلاك من هو كذلك وهو أبو جهل، ومن قتل معه دون النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وقيل : خطاب للمؤمنين وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما رأى المشركين وكثرة عددهم وعددهم ، استغاث بالله تعالى وطلب ما وعده الله تعالى به من إحدى الطائفتين، وتضرع إلى الله تعالى وكذلك الصحابة رضى الله عنهم ، فقال تعالى: إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح أى إن تطلبوا النصر الذى تقدم به الوعد فقد جاءكم الفتح أى حصل ما وعدتم فاشكروا الله تعالى والزموا الطاعة، وقال القاضى عياض: وهذا القول أولى لأن قوله تعالى فقد جاءكم الفتح لا يليق إلا بالمؤمنين . وقال البيضاوى : إنه خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم ويدل له قوله تعالى « وإن تنتهوا » عن الكفر ومعاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم « فهو خير لكم » أى لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلتين « وإن تعودوا » أى لقتال النبى صلى الله عليه وسلم « نعد » أى لنصرته عليكم « ولن تغنى » أى تدفع « عنكم » « فئتكم » أى جماعتكم « شيئا » لأن الله تعالى على الكافرين فيخذلهم « ولو كثرت » أى فئتكم « وأن الله مع المؤمنين » بالنصر والمعونة « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا » أى تعرضوا « عنه » أى الرسول صلى الله عليه وسلم بمخالفة أمره ، فإن المراد من الآية الأمر بطاعته والنهى عن الإعراض عنه ، وذكر طاعة الله للتنبيه على أن طاعته فى طاعة الرسول لقوله تعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » وقيل: الضمير للجهاد «وأنتم تسمعون» أى القرآن والمواعظ سماع فهم وتصديق « ولا تكونوا كالذين قالوا » أى بألسنتهم « سمعنا وهم لا يسمعون » سماعا ينتفعون به وهذه صفة المنافقين .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الأول من سورة الأنفال . وقد تضمن من الأصول الجليلة ما يلى :

١ - بيان حكم غنائم الحرب وطرق توزيعها بصفة عامة .

٢ — الأمر بتقوى الله وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله .

٣ — تعريف المؤمنين بأنهم الذين جمعوا هذه الصفات الجليلة : خشية الله والاهتزاز لذكره ، والتأثر بآيات القرآن الكريم وامتلاء القلب خشية وإيمانا بسماعها ، والتوكل على الله وحده ، وبأنهم الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله . فهؤلاء هم المؤمنون حقا ، وأولئك لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم .

٤ — ذكر غزوة بدر وتردد بعض المسلمين فيها ، ونصرة الله عز وجل للرسول وأصحابه .

٥ — النهى عن الفرار من المعركة لأى سبب من الاسباب .

٦ — بيان فضل الله على المسلمين بنصره إياهم فى بدر وبهزيمة الشرك والمشركين الساحقة .

٧ — تحذير المسلمين من المعصية ، وأمرهم بالتزام طاعة الله ورسوله ، وترك التولى عن نصرة الرسول ، وترك مخالفته والتحذير من عصيانه .

طلب الله فى هذا الربع من المؤمنين تقوى الله وإصلاح ذات البين بالوفاق والتعاون والمواساة وترك الإثرة ، ووصف المؤمنين بأنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم أى شعرت بالخشية والخوف من الله ، وبأنهم إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، أى سعة فى العرفان ، وقوة فى طمأنينة النفس ، وبأنهم متوكلون على الله يفوضون أمرهم إليه وحده بعد الأخذ بالأسباب ، ويفوضون إليه الأمر ليهديهم إلى الأسباب فيما لا يعلمون له أسبابا ، وبأنهم يقيمون الصلاة ، وينفقون مما رزقهم الله ، كل هذا تضمنه قوله سبحانه : فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين . إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله

وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

وطلب منهم أيضا الثبات فى القتال ، وحرم عليهم الفرار ، وقال : « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقدباء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » . ومعناه : أنه لا يجوز أن يولى المسلم ظهره للأعداء إلا إذا رأى الانتقال إلى مكان آخر هو أصلح للقتال ، أو رأى أن ينضم إلى فئة أخرى من المؤمنين .

وطلب اليهم ترك النزاع وقال : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين » .

الربع الثانى من سورة الأنفال

٢٢ — إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ .

٢٣ — وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ .

قوله تعالى : « إن شر الدواب عند الله » أى إن شر من دب على وجه الأرض من خلق الله عنده « الصم » عن سماع الحق « البكم » عن النطق فلا يقولونه « الذين لا يعقلون » أى ليس لهم عقل ، ولا عندهم دراية ولا فهم ، سماهم دوابا لقلة انتفاعهم بعقولهم كما قال تعالى : « أولئك كالأنعام بل هم أضل » ، قال ابن عباس : هم نفر من بنى عبد الدار بن قصى كانوا يقولون : نحن صم بكم عما جاء به محمد فقتلوا جميعاً بأحد ، وكانوا أصحاب اللواء ولم يسلم منهم إلا رجلان : مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة « ولو علم الله فيهم خيراً » أى سعادة كتبت لهم وانتفاعا بالآيات « لأسمعهم » أى سماع تفهم « ولو أسمعهم » على

سبيل الفرض وقد علم أن لاخير فيهم « لتولوا » عنه ولم ينتفعوا به وارتدوا بعد التصديق والقبول « وهم معرضون » لعنادهم وجحودهم عن الحق بعد ظهوره ؛ وقيل : إنهم كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أحي لنا قصياً فإنه كان شيخا مباركا يشهد لك بالنبوة فنؤمن بك ، فقال الله تعالى : ولو سمعهم كلام قصى لتولوا وهم معرضون .

٢٤ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

٢٥ — وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

٢٦ — وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

٢٧ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ .

٢٨ — وَاعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

٢٩ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

فى هذه الآيات الكريمة الست حث على طاعة الله ورسوله ، وعلى اتقاء الفتن ، وعلى تذكير المسلمين بنصر الله لهم ، وفيها نهى عن خيانة الله ورسوله وخيانة شرف الإنسان وكرامته ، ونهى عن الافتتان بالأموال والأولاد وأمر بتقوى الله ، فتقوى الله تجعل فى قلب المسلم هداية ونورا يفرق بهما بين الحق والباطل .

إن هذه الآيات الست هى من أمهات أصول القرآن الكريم ، ومن جلائل دعواته إلى الهدى والنور والطاعة والتقوى . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات : « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول ، أى أجيبوهما بالطاعة ، ووحد الضمير فى قوله تعالى « إذا دعاكم » لأن دعوة الله تسمع من الرسول « لما يحييكم » فإن طاعة الله والعمل بشريعته والعلم بها حياة للقلوب أو لما يورثكم الحياة الأبدية فى النعيم الدائم من العقائد ، وقال السدى : هو الإيمان لأن الكافر ميت ، وحياته بالإيمان ، وقال ابن إسحق : هو الجهاد أعزكم الله تعالى به بعد الذل ، وقال العتبى : هو الشهادة لقوله تعالى : « بل أحياء عند ربهم يرزقون » . « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » أى أنه يميته فتفوته الفرصة وهو التمكن من إخلاص القلب ، وقال الضحاك : يحول بين المرء والمعصية وبين الكافر والطاعة ، وقال السدى : يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا أن يكفر إلا بإذنه ، وقال مجاهد : يحول بين المرء وقلبه فلا يعقل ولا يدرى مايعمل . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ، قالوا : يارسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء « وأنه » أى واعلموا أنه تعالى « إليه تحشرون » لا إلى غيره ولا تتركون مهملين معطلين فيجازيكم بأعمالكم ، وفى هذا تشديد فى الأمر بالعمل وتحذير عن الكسل .

هذا والاستجابة : هى الإجابة ، ومنه : فلم يستجبه عند ذاك مجيب . أو هى الإجابة بعناية وقوة ، فتكون السين والتاء للمبالغة ، والأصل فيها أنها

التحرى والتهيؤ للجواب ، وعبر بها عما سبق ، لأن التحرى للإجابة قل أن ينفك عن الإجابة بعناية .

أما الحول بين الشيء والشيء : فهو الحجز بينهما . والدعاء : الطلب مع الحث والتحريض . وما به الحياة هو العلم بالله ، والعلم بسننه فى الخلق ، وبأحكامه الشرعية ، والتزين بالحكمة والفضيلة والأعمال الصالحة التى تكمل بها الفطرة الإنسانية ، وتسعد بها فى الآخرة ، فهو يشمل جميع ما فى القرآن الكريم من حكم وأحكام وعقائد وأخلاق وآداب ، ويشمل ما فيه من نظام الحرب والسلم وقواعد الاجتماع ، ويعم كل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى القولى والعملى . كل ذلك يحيى من عمل به حياة طيبة ، يعزه فى الدنيا ويسعده برغد من العيش ، ويعلى قدره ، ويرفع ذكره ، ويجعله فى الآخرة مع الذين أنعم الله عليهم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار . وبعد أن طلب الله إجابة دعائه ودعاء الرسول ، نبه إلى أمرين جليلين يبعث التنبه لهما إلى الانقياد والطاعة والإقبال عليهما بالجد والعزم :

أحدهما أن الله سبحانه قريب من العبد مطلع على مكنونات صدره ، يعلم منه ما قد يخفى عليه « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

والثانى أن العباد يحشرون إليه وحده ، وبيده الجزاء على الأعمال « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

وقوله تعالى « يحول بين المرء وقلبه » تحذير من العصيان وحث على الإخلاص وتصفية القلوب ، وطاعة الرسول واجبة فى حياته وبعد مماته ، فيما علم أنه دعا إليه دعوة عامة من السنن العملية المبينة للكتاب ، ومن السنن القولية القطعية فى الرواية والدلالة . أما غير ذلك مما هو محل الاجتهاد فعلى كل مجتهد أن يعمل بما صح عنده وبما ترجح عنده . أما العادات من اللباس والطعام والشراب والنوم وما أشبه ذلك فلم يعده أحد من السلف من أمور الدين . وكما يجب أن نهتدى بالهدى النبوى ينبغى أن نهتدى بهدى الخلفاء الراشدين والصحابة

وعلماء الأمة فى اجتهادهم وآرائهم ، مع مراعاة أصول الدين العامة ومصالح المسلمين ، لكن ذلك لا يسمى دينا إلا إذا كان ثابتا فى كتاب أو سنة .

« واتقوا فتنة » أى ذنبا قيل : هو إقرار المنكر حتى يستباح دون نكير أو زجر . وقيل : افتراق الكلمة ، وقيل : الفتنة العذاب . وقوله تعالى « لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » جواب الأمر . والمعنى : إن إصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم ، كما يحكى أن علماء بنى إسرائيل لم ينهوا عن المنكر فعمهم الله تعالى بالعذاب « واعلموا أن الله شديد العقاب » لمن خالفه .

والمعنى : احذروا ابتلاء واختبارا من الله سبحانه يبتليكم به فلا يخص المذنب الذى ارتكب المعصية واقترف الذنب بل يعم غيره . هذا ومن المعاصى ما هو خفى بين العبد وربه يحاسبه عليه وليس للعباد أن يبحثوا عنه ، وقد نهى الله سبحانه عن التجسس بقوله : « ولا تجسسوا » ، ومنها ما يظهر ويفشو ، وهو على أنواع : بدعة فى العقيدة والرأى ، وبدعة فى الأعمال ، وفرقة عن الجماعة لمحض الهوى لا لدليل من كتاب أو سنة . وأشد هذه الأنواع الفتن الملية والقومية التى تقع بين الأمم عند التنازع على المصالح العامة من السيادة والملك وعند التنازع فى السياسة على الحكم ، وقد تحصل تبعا لذلك فرقة فى الدين والشريعة حيث يتخذ الدين وسيلة للفوز والغلب . وقد طالب الله سبحانه المؤمنين أن يحذروا هذه المعاصى الظاهرة ، وبخاصة ما كان عاما منها ، وما يوجد الفرقة بين الأمة ويصدع وحدة الجماعة سواء أكانت الوحدة فى العقيدة أو العمل أو فى السياسة وقواعد الاجتماع ، لأن الفرقة فى ذلك كله تضيع الجهود ، وتذهب القوة ، وتطمع الأعداء فى المسلمين حتى ينتهى أمرهم إلى الضعف والوهن ، وينتهى أمرهم بتسلط الأعداء عليهم . فعلى كل فرد وعلى كل جماعة الحذر من هذه الفتن ، طالبهم الله بهذا وبقطع دابرها وعدم تركها تبيض وتفرخ وتعشش ، ومن أجل هذا أوجب الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وشدد فى ذلك فى مواضع كثيرة من كتابه . من ذلك : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ،

فقد جعل الأمر بالمعروف فرضا إذا تركه المسلمون أثموا جميعهم ، وركبهم الحرج . وقد علق الله سبحانه الفلاح على ذلك وقال : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وقال : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » . فقد استحق هؤلاء اللعنة لأنهم تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقال : « فلما نسوا ماذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » وقال : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .
والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وظيفة الأنبياء وخلفائهم . ووظيفة ولاة الأمور جميعهم ، وإذا تعطل فشت الضلالة ، وشاعت البدعة ، وسرى الفساد واسترسل الناس فى الشهوات ، وقلت مراقبة الخالق ، واستولت على النفوس مداهنة الخلق ، ومن واجب الحكومات الضرب على أيدى المفسدين ، وسن القوانين الصارمة ، وخلق حياة اجتماعية للروح فيها نصيب ولله نصيب . وما انحطت أمة إلى الدرك الأسفل إلا بتهاون الجماعة وتهاون أصحاب السلطان فى تقويم الأفراد والجماعات . ولن يبسط سلطان ولن ترفرف سعادة وعزة ومجد حيث يعلو سلطان الشهوة ويسود سلطان الشيطان . وعقاب الأمم على الذنوب العامة والمعاصى الظاهرة لازم فى الدنيا ، وهو أثر من آثارها الطبيعية كما هو مشاهد ومعروف فى التاريخ ، وعقابه فى الآخرة شديد يعاقب من يعصى أمره ويركب رأسه ، ويطيع شيطانه ، ويخالف نظام الله فى خلقه ، وسنن الكون وهدى الاجتماع . وقد بدأت الفتن السياسية أيام على ومعاوية ، ولبست ثوبا دينيا أوجد فى الأمة فرقا ، ثم تبعتها فتن أخرى أضاعت مجد الإسلام وعزه ، ولا علاج إلا باتباع القرآن والرد إلى الله ورسوله ، ومحاولة التوحد فى جميع الشئون الإسلامية . وهذا ما ندعو إليه ، ونطلب من الله تحقيقه . وفى الحديث الشريف : « مامن قوم عملوا بالمعاصى وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل

إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » ، وقيل : يارسول الله ، أيهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال: نعم ، بتهاونهم وسكوتهم على معاصى الله « واذكروا » يامعشر المهاجرين « إذ أنتم » فى أوائل الإسلام « قليل » أى عددكم « مستضعفون » أى لامنعة عندكم « فى الأرض » أى أرض مكة « تخافون أن يتخطفكم الناس » أى تأخذكم الكفار بسرعة كما تتخطف الجوارح الصيد « فآواكم » إلى المدينة أو جعل لكم مأوى تتحصنون به على أعدائكم « وأيدكم » أى قواكم « بنصره » أى بإمداد الملائكة يوم بدر وبمظاهرة الأنصار « ورزقكم من الطيبات » أى الغنائم التى أحلها لكم ولم يحلها لأحد قبلكم « لعلكم تشكرون » هذه النعم العظيمة .

يذكر الله عز وجل المسلمين فى الآية بنصر الله لهم ، وإعزازه إياهم ، رغم قلتهم وضعفهم ، وخوفهم ، فأصبحوا سادة الجزيرة ثم صاروا سادة العالم والشعوب ، وهذا التذكير كأنه دليل على صحة الطلب ، وعلى وجوب الطاعة ، وعن قتادة : كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا ، وأشقاه عيشا ، وأجوعه بطنا ، وأعراه جلودا ، وأبينه ضلالا ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منهم منزلا . حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به البلاد ، ووسع به الرزق ، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس.

« ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول » أى بأن تضمروا خلاف ماتظهرون ، روى أنه صلى الله عليه وسلم حاصر يهود بنى قريظة إحدى وعشرين ليلة ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح كما صالح إخوانهم من بنى النضير ، على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحاء من الشام ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا : أرسل إلينا أبا لبابة ، واسمه رفاعة أو مروان بن عبد المنذر ، وكان مناصحا لهم لأن ماله وعياله عندهم ، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فقالوا: ياأبا لبابة ماترى أننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه أنه الذبح ، أى إن حكم سعد هو القتل فلا تفعلوا ، فقال أبو لبابة : والله مازالت قدماى من مكانهما حتى علمت أنى قد خنت الله ورسوله ، ثم انطلق على

وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما لو جاءنى لاستغفرت له وأما إذ فعل ما فعل فإنى لا أطلقه حتى يتوب الله تعالى عليه، فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه ؛ فقيل له : قد تاب الله عليك فحل نفسك ، فقال : لا والله لا أحلها حتى يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى ، فجاءه فحله بيده فقال : إن من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى ، فقال له صلى الله عليه وسلم: يجزئك الثلث أن تتصدق به ؛ فنزلت هذه الآية ، وعن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة فعلم النبى صلى الله عليه وسلم خروجه وعزم على الذهاب إليه فكتب رجل من المنافقين إليه : إن محمدا يريدكم فخذوا حذركم فنزلت ، وقيل : معنى لا تخونوا الله بأن تقطعوا فرائض الله ورسوله « وتخونوا أماناتكم » أى ما اؤتمنتم عليه من الدين وغيره « وأنتم تعلمون » أنكم تخونون وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح . . هذا ومعنى الخون : النقص : كما أن معنى الوفاء التمام ، ومنه تخونه إذا تنقصه ، ثم استعمل فى ضد الأمانة والوفاء ، لأنك إذا خنت الرّجل فى شىء فقد أدخلت عليه النقصان فيه .

والمعنى : لا تعطلوا فرائض الله وما جاء به رسوله ، ولا تضيعوا الأمانات فيما بينكم وأنتم على علم بأن ما تعملونه خيانة ، أى لا تفعلوا ذلك عن عمد . أما الخطأ والنسيان فهذا مما اغتفره الله لعباده . وكما تكون الخيانة بترك الطاعة ، تكون بعدم بيان الأحكام . وخيانة الأمانة تكون بين الرعية والراعى ، وبين الأفراد بعضهم مع بعض . والأمانة من الصفات الدينية التى قام عليها بناء المجتمع ، وأسس عليها العمران والمدنية ، ولا صلاح لأمة ولا بقاء لدولة إلا بها ، وعليها مدار الثقة فى جميع المعاملات . ومن الأمانة إقامة العدل بين الناس ، وأن يقوم كل فرد بما هو موكول إليه بجد واجتهاد وإخلاص .

ولا إيمان لمن لا عهد له ، ولا دين لمن لا عهد له ، وآية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم .

ومن الخيانة إفشاء سر الدولة ، وإخراجه للأعداء ، سواء فى ذلك السلم والحرب ، والاستعانة على المسلمين بغيرهم . ومن الخيانة أكل أموال الناس بالباطل ، وعدم التحرى فى إنفاق أموال الدولة فى المرافق العامة . ومن الخيانة عدم تولية الأكفاء ، وعدم النصح لأولياء الأمور . كل ذلك خيانة ، والله يطلب أن يكون المسلم ناصحاً أمينا ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر . ومن الخيانة أيضاً إهمال الدفاع عن البلاد . ومن الخيانة أن لا يعد كل مسلم نفسه ليكون جنديا يدافع عن دينه وعن وطنه . فالآية عامة تشمل كل خيانة ، وإن كان سبب النزول خاصا .

« واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة » أى محنة من الله تعالى ليبلوكم بها ، فلا يحملنكم حبهم على الخيانة كأبى لبابة ، لأنه شغل القلب بالدنيا « وإن الله عنده أجر عظيم » فسعادة الآخرة خير من سعادة الدنيا لأنها أعظم فى الشرف وأعظم فى القوة وأعظم فى المدة ، لأنها تبقى بقاء لا نهاية له ، وهذا هو المراد من وصف الآخرة الذى عنده بالعظم .

والأموال محبوبة للنفس ، ركز فى طبيعة الإنسان الحرص عليها ، فهى الوقاية ، وهى العدة عند الشدة ، بها الحياة ، وبها الاستمتاع بما تتنازع إليه النفس وتتقاضاه الطبيعة من اللذات والشهوات وبها يدرك العز ، وينال الفخر والجاه . والأولاد عزيزة على النفس يرى الإنسان فيها صورته ، ويحتفظ بها كما يحتفظ بنفسه أو أشد ، ويدرك أن فى بقائها بقاءه . وقد جبل الإنسان بل الحيوان على الحرص عليها ، والضن بها ، والدفاع عنها ، وقد يضيع الحيوان حياته دفاعا عن حياة ولده . المال والولد كلاهما فتنة ، وقد يكون سبباً من أسباب عدم الطاعة ، ومن أسباب الخيانة ، فلا يتحرى العبد مورد الرزق والكسب ، ولا يقوم بحق الله فى المال ليوفر لنفسه لذته ، ويدخر

لأولاده بعد موته ما يقيم أودهم ، ويسهل عليهم العيش ويقيهم الفاقة وذل السؤال . من أجل ذلك نبه الله سبحانه إلى أن ما ادخره لعباده من الأجر عظيم ، فلا يليق بالعاقل أن يتركه ويفتن بالعاجل ، فليس مما يرضاه العقل أن يترك نعيم مقيم ، وعز دائم ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، ورضوان الله ، من أجل متاع قليل فى هذه الحياة الفانية .

« يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » ، الفرقان : الفارق بين الحق والباطل ، فيشمل كل ما خص الله به عباده المؤمنين من المعرفة والهداية ، وشرح الصدر ، والأخلاق الفاضلة : من الشجاعة والصبر والكرم والحلم ، والنصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وعدم موالاة الأعداء ، وترك الغل والحقد والحسد وكل الأخلاق الذميمة . ويشمل أيضا إعلاء كلمة الله ، والظهور على الأعداء والثواب فى الدنيا والآخرة ، بتقوى الله يحصل هذا كله ، ويستر الله السيئات ويمحوها فلا يؤاخذ عليها ، ويغفر الذنوب ، ويضاعف الأجر ، فهو ذو الفضل العظيم . ومعنى الآية أن العمل على مقتضى الدين والشرع وسنن الله فى الخلق ونظام الاجتماع يورث ملكة العلم والحكمة ، وبذلك يفرق الإنسان بين الحق والباطل ، ويميز بين النافع والضار ، وإذ ذاك يرزقه الله النصر على الأعداء بما يعز به المؤمن ، ويكبت به العدو . والتقوى تشمل اتقاء الذنوب ، واتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الكمال والسعادة حسبما ترشد اليه السنن الكونية ، وذلك يتوقف على علم بسنن الله فى الإنسان منفرداً ومجتمعا ، وعلى معرفة ما ينبغى أن يفعل ، وما ينبغى أن يترك « ويكفر عنكم سيآتكم ويغفر لكم » أى يمحو ما كان منكم غير صالح ، وقيل : السيئات الصغائر والذنوب الكبائر ، وقيل المراد : ما تقدم وما تأخر لأنها فى أهل بدر وقد غفرها الله تعالى لهم « والله ذو الفضل العظيم » تنبيه على أن ما وعده الله تعالى لهم على التقوى تفضل منه وإحسان ، وأنه ليس مما توجبه تقواهم عليه .

٣٠ — وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ

يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ .

٣١ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَا إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ .

٣٢ — وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

٣٣ — وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ .

٣٤ — وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا أَوْلِيَآءَهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

٣٥ — وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

٣٦ — إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ .

٣٧ — لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ .

٣٨ — قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ .

٣٩ — وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

٤٠ — وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ .

فى هذه الآيات الإحدى عشرة بيان لمدى إيذاء المشركين لرسول الله صلوات الله عليه ، ومدى معارضتهم لدعوته ، واستخفافهم بالرسالة والقرآن واستهزائهم بكتاب الله ، وما كانوا عليه من بذل وسخاء فى مقاومة الدعوة ومناهضة الرسول ، وفيها إذن من الله عز وجل لرسوله وللمؤمنين بقتال المشركين حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات ... « وإذ يمكر بك الذين كفروا » فى هذا تذكير لرسول الله صلى الله عليه وسلم بنعم الله عز وجل عليه وهو رفع كيد المشركين ومكر الماكرين عنه ، وهذه السورة مدنية وهذا المكر كان بمكة ليشكر نعمة الله فى نجاته من مكرهم ، وكان ذلك المكر على ماذكره ابن عباس وغيره من المفسرين أن قريشا لما أسلمت الأنصار وبايعوه خافوا أن يتفاقم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمع رؤساؤهم كأبى جهل وعتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبى سفيان وهشام بن عمرو وطعيمة بن عدى والنضر بن الحارث وأبى البحترى ابن هشام فى دار الندوة متشاورين فى أمره صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو البحترى : رأيى أن تحبسوه فى بيت ويسد باب البيت غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها ، وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك مثل من هلك قبله من الشعراء ، وقال شيخ نجدى : بئس الرأى رأيتم ، والله لئن حبستموه فى بيت ليأتينكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم ، قالوا : صدق الشيخ

النجدى ، فقال هشام بن عمرو : رأيي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع واسترحتم ، فقال النجدى : بئس الرأى ، تعمدون إلى رجل قد أفسد سفهاءكم فتخرجونه إلى غيركم فيفسدهم ، ألم تروا إلى حلاوة منطقه وطلاوة لسانه ؟ والله لئن فعلتم ذلك ليذهبن ويستميل قلوب قوم ثم يسير بهم إليكم ويخرجكم من بلادكم ، قالوا : صدق والله ، فقال أبو جهل لعنه الله تعالى : والله لأشيرن عليكم برأى لا أرى غيره ، إنى أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابا وتعطوه سيفا صارما فيضربونه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا تقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم ، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا ، فقال النجدى : صدق هذا الفتى هو أجودكم رأيا ، القول ما قال لا أرى غيره ، فتفرقوا على قول أبى جهل مجمعين على قتله ، فأتى جبريل عليه السلام النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ، وأمره أن لا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه ، وأذن الله تعالى له عند ذلك بالخروج إلى المدينة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه فنام فى مضجعه وقال له : اتشح ببردى فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه ، ثم خرج النبى صلى الله عليه وسلم فأخذ قبضة من تراب وأخذ الله تعالى أبصارهم عنه وجعل ينثر التراب على رؤسهم وهو يقرأ : « إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا » الآية إلى قوله تعالى « فهم لا يبصرون » ، ومضى إلى الغار هو وأبو بكر وخلف عليا بمكة حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده ، وكانت الودائع تودع عنده لصدقه وأمانته ، وبات المشركون يحرسون عليا على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسبونه النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبحوا بادروا إليه فرأوا عليا فقالوا له : وأين صاحبك ؟ قال لا أدرى ، فاقتصوا أثره وأرسلوا فى طلبه ، فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا : لو دخله لم تكن تنسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاثا ثم قدم المدينة وأبطل الله مكرهم ، وهذا معنى قوله تعالى : وإذ يمكر بك الذين كفروا « ليثبتوك » أى ليوثقوك ويحبسوك « أو يقتلوك » كلهم قتلة رجل واحد « أو يخرجوك » من مكة

« ويمكرون » بك « ويمكر الله » أى يرد الله مكرهم عليهم بتدبير أمرك بأن يوحى إليك ما دبروه وأمرك بالخروج إلى المدينة وأخرجهم إلى بدر ، وقلل المسلمين فى أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا « والله خير الماكرين » أى أعلمهم به فلا يؤبه بمكرهم دون مكره ، وهذا الأسلوب من باب المشاكلة ، ويجوز أن يكون استعارة لأن إطلاق المكر على إخفاء الله تعالى ما أوعد به لمن استوجبه بأن جعلت صورته تشبه صورة المكر استعارة ، وعن على رضى الله عنه : من وسع الله تعالى عليه فى دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع فى عقله « وإذا تتلى عليهم آياتنا » أى القرآن « قالوا » أى هؤلاء الذين ائتمروا فى أمره صلى الله عليه وسلم « قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا » وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم ؛ إذ لو استطاعوا ذلك لفعلوا وإلا فما منعهم لو كانوا مستطيعين ، قد تحداهم وقرعهم بالعجز عشر سنين ثم قارعهم بالسيف فلم يعارضوه ولو بسورة ، مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا خصوصا فى باب البيان . وقيل : قائله النضر بن الحارث وكان يأتى الحيرة يتجر فيشترى كتب أخبار العجم ويحدث بها أهل مكة . وكان النضر رئيس القوم وقاضيهم وقد اسره المقداد يوم بدر فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله . فقال المقداد : أسيرى يارسول الله ، فقال : إنه كان يقول فى كتاب الله مايقول . فعاد المقداد لقوله ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم اغن المقداد من فضلك ، فقال : ذلك الذى أردت يارسول الله ، فقتله النبى صلى الله عليه وسلم فأنشدت أخته ترثيه :

ماكان ضرك لو مننت وربما   من الفتى وهو المغيظ المحنق

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لو بلغنى هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه « إن » أى ما « هذا » أى القرآن « إلا أساطير الأولين » أى أخبار الأمم الماضية وأسمارهم وما سطر الأولون فى كتبهم ، والأساطير جمع أسطورة وهى المكتوبة من قولهم سطرت ، أى كتبت وقيل : أساطير جمع أسطور وأسطور جمع سطر « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا » أى الذى يقرؤه محمد

« هو الحق » المنزل « من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » أى مؤلم ، قاله النضر أو غيره استهزاء أو إيهاما أنه على بصيرة . وعن معاوية رضى الله عنه أنه قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة . قال : أجهل من قومى قومك قالوا « اللهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك » الآية ، وما قالوا إن كان هذا هو الحق فاهدنا إليه . وقد يقال : إن الله تعالى قال هذه المقالة عن الكفار وهى من حسن نظم القرآن فقد حصلت المعارضة فى هذا القدر ؛ وأيضاً حكى عنهم أنهم قالوا فى شأن بنى إسرائيل « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا الأرض ينبوعا » ـ الآية ، وذلك أيضاً كلام الكفار ، فقد حصل من كلامهم ما يشبه نظم القرآن وذلك يدل على حصول المعارضة ، وجواب ذلك أن الإتيان بهذا القدر لا يكفى فى حصول المعارضة لأنه كلام قليل لا يظهر فيه وجوه الفصاحة والبلاغة ، لأن أقل ما وقع به التحدى سورة أو قدرها قال الله تعالى : « وما كان الله ليعذبهم » أى بما سألوه « وأنت فيهم » لأن العذاب إذا نزل عم ولم يعذب أمة إلا بعد خروج نبيها والمؤمنين منها « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » أى وفيهم من يستغفر الله ، وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه : كان فى هذه الأمة أمانان النبى والاستغفار ، فأما النبى صلى الله عليه وسلم فقد مضى وأما الاستغفار فهو كائن فيكم إلى يوم القيامة « وما لهم أن لا يعذبهم الله » بالسيف بعد خروجك والمستضعفين ، واختلفوا فى هذا العذاب فقال بعضهم : لحقهم العذاب المتوعد به يوم بدر ، وقيل يوم فتح مكة ، وقال ابن عباس : هذا العذاب هو عذاب الآخرة والعذاب الذى نفى عنهم هو عذاب الدنيا ، ففى الآية السابقة نفى الله أن يعذبهم مادام الرسول فيهم ، وفى الآية التى هنا يثبت الله عز وجل لهم العذاب « وهم يصدون » أى يمنعون النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين « عن المسجد الحرام » أن يطوفوا به وذلك عام الحديبية ، ونبه تعالى على أنهم يصدون لا دعائهم أنهم أولياؤه ، فكانوا يقولون : نحن

ولاة البيت فنصد من نشاء وندخل من نشاء ، ثم بين تعالى بطلان هذه الدعوة بقوله تعالى : « وما كانوا أولياءه » أى كما زعموا « إن » أى ما « أولياؤه إلا المتقون » الذين يحذرون غضب الله « ولكن أكثرهم » أى الناس «لا يعلمون» أن لا ولاية لهم عليه ، وكأنه نبه بالأكثر على أن منهم من يعلم ويعاند أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم « وما كان صلاتهم عند البيت » أى دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة أو ما يضعون موضعا « إلا مكاء » أى صفيرا «وتصدية» أى تصفيقاً ، قال ابن عباس : كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفرون ويصفقون ، وقال مجاهد : كان نفر من بنى عبد الدار يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم فى الطواف ويستهزؤن به ويدخلون أصابعهم فى أفواههم ويصفرون ويخلطون عليه طوافه وصلاته ، فالمكاء جعل الأصابع فى الشدق والتصدية الصفير ، وقال مقاتل : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد الحرام قام رجلان عن يمينه ورجلان عن يساره يصفران ويصفقان ليخلطوا على النبي صلى الله عليه وسلم صلاته « فذوقوا العذاب » أى عذاب القتل والأسر ببدر فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة « بما » أى بسبب ما « كنتم تكفرون » اعتقادا وعملا ، ولما ذكر الله تعالى عبادة الكفار البدنية وهى المكاء والتصدية ذكر عقبه عبادتهم المالية التى لا جدوى لها فى الآخرة بقوله تعالى : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم » فى حرب النبي صلى الله عليه وسلم « ليصدوا عن سبيل الله » أى ليصرفوا عن دين الله ، نزلت فى المطعمين يوم بدر ، وكانوا اثنى عشر رجلا منهم أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وكلهم من قريش، وكان يطعم كل واحد منهم يوم بدر عشر نياق، وفى أبى سفيان استأجر يوم أحد الفين من العرب سوى من اتخذه جيشا وأنفق عليهم، وقيل : نزلت فى أصحاب العير ، فإنه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم : أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك منه ثارنا ففعلوا « فسينفقونها ثم تكون » أى عاقبة الأمر « عليهم حسرة » أى ندامة لفواتها وفوات ما قصدوه « ثم يغلبون » أى آخر الأمر ، وإن كانت الحرب بينهم سجالا قبيل ذلك كما اتفق

بينهم فى بدر فإنهم هزموا مع الكثرة والقوة ولم تغن عنهم شيئا من ذلك بل كان وبالا عليهم « والذين كفروا » أى ثبتوا على الكفر « إلى جهنم يحشرون » أى يساقون إليها يوم القيامة فهم فى خزى فى الدنيا والآخرة ، ولم يقل الله تعالى : وإلى جهنم يحشرون ؛ لأنه أسلم منهم جماعة كأبى سفيان بن حرب والحارث بن هشام وحكيم بن حزام ؛ بل ذكر أن الذين ثبتوا على الكفر يكونون كذلك «ليميز الله الخبيث» أى الفريق الكافر «من الطيب» أى من الفريق المؤمن « ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا » أى يجمعه متراكما بعضه على بعض كقوله تعالى « كادوا يكونون عليه لبدا » ، أى لفرط زحامهم وقيل : ليميز المال الخبيث الذى أنفقه الكافر على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم من المال الطيب الذى أنفقه المؤمن فى جهاد الكفار كإنفاق أبى بكر وعثمان فى نصرة النبى صلى الله عليه وسلم فيركمه جميعا « فيجعله فى جهنم » فى جملة مايعذبون به كقوله تعالى « فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » الآية « أولئك » إشارة إلى الذين كفروا « هم الخاسرون » أى الكاملون فى الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم ، ولما بين ضلالهم فى عبادتهم البدنية والمالية أرشدهم إلى طريق الصواب ، فقال « قل » يامحمد « للذين كفروا » كأبى سفيان بن حرب وأصحابه « إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف » أى قل لأجلهم هذا القول ، وهو إن ينتهوا عن الكفر وقتال محمد صلى الله عليه وسلم يغفر لهم ماقد سلف من ذلك « وإن يعودوا » إلى الكفر ومعاداة النبى صلى الله عليه وسلم « فقد مضت سنة الأولين » أى بإهلاك أعدائه ونصر أنبيائه وأوليائه . واختلفوا : هل الكافر الأصلى مخاطب بفروع الشريعة؟ وهل يسقط عن المرتد مامضى فى حال ردته كالكافر الأصلى كما هو ظاهر الآية ؟ ، وهل الردة تحبط مامضى من العبادات قبلها ؟ فذهب أصحاب الشافعى رضى الله عنه إلى أنه مخاطب بدليل قوله تعالى « ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين » الآية ، وإلى أن المرتد لا تسقط عنه العبادات الفائتة فى الردة تغليظا عليه ، وإلى أن الردة لا تحبط ما مضى .

ولما بين الله تعالى أن هؤلاء الكفار إن انتهوا عن كفرهم حصل لهم الغفران وإن عادوا فهم متوعدون سنة الأولين ، أتبعه بالأمر بقتالهم إذا أصروا فقال : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » أى شرك كما قال ابن عباس ، وقال الربيع حتى لا يفتن أحدكم عن دينه ، لأن المؤمنين كانوا يفتنون عن دين الله فى مبدأ الدعوة فافتتن من المسلمين بعضهم وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا إلى الحبشة ، وفتنة ثانية وهو أنه لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة جهدت قريش أن يفتنوا المؤمنين بمكة عن دينهم فأصاب المؤمنين جهد شديد ؛ فأمر الله تعالى بقتالهم حتى تزول هـذه الفتنة « ويكون الدين كله » خالصاً « لله » وحده لا يعبد غيره « فإن انتهوا » عن الكفر « فإن الله بما يعملون بصير » أى فيجازيهم به « وإن تولوا » عن الإيمان « فاعلموا أن الله مولاكم » أى ناصركم ومتولى أموركم « نعم المولى » فإنه لا يضيع من تولاه « ونعم النصير » أى الناصر فلا يغلب من ينصره ، فمن كان فى حماية المولى وفى حفظه وكفايته كان آمنا فى الدنيا والآخرة .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الثانى من سورة الأنفال . وقد تضمن أصولا كثيرة من أهمها مايلى :

١ — الكافرون عند الله كالدواب ، بل هم شر من الدواب ، لأنهم لا يميزون بين الحق والباطل ، ولا يفرقون بين الشر والخير ، ولا يعيشون مؤمنين بدين من الأديان ، ولا يعرفون المثل النبيلة فى الحياة ، ولا يفرقون بين جميل وقبيح ؛ إن الفطرة الإنسانية قد طمست من قلوبهم ، وفسدت طباعهم ، وضلوا عن سبيل الله .

٢ — على المؤمنين أن يستجيبوا لدعاء الله ، وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم ويعزهم وينهض بهم ، ويقوى من كيانهم ، من أصول الشريعة وقواعد الدين .

٣ — على المسلمين أن يحذروا الفتن ، التى إن وقعت عم أثرها الصالح والطالح ، وكانت وبالا كبيراً.

٤ — على المسلمين أن يذكروا نعمة الله عليهم ، إذ أعزهم بالإسلام بعد أن كانوا أذلة ، وقواهم بعد أن كانوا مستضعفين ، وأيدهم بروح من عنده ، ورزقهم من الطيبات .

٥ — النهى عن خيانة الله والرسول وخيانة الأمانات والمواثيق والعهود.

٦ — التحذير من فتنة الأموال والأولاد ففتنتهما عظيمة عند الله ، والله عنده أجر عظيم .

٧ — تقوى الله تجعل فى قلب المسلم فرقانا يفرق به بين الحق والباطل ، وتقوى فى نفسه نزعات الضمير الحى الإنسانى ، الضمير اليقظ ، الذى يرشد الناس إلى الخير ، وينأى بهم عن الشر ، وتقوى الله يكفر الله بها عن المسلم السيئات ، ويغفر الذنوب

٨ — الامتنان على رسول الله بنصر الله له ، وبإعزازه إياه ، وبانجائه من كيد المشركين ، وبحفظه له وهو مهاجر من مكة إلى المدينة.

٩ — تصوير عنت المشركين وضلالهم ومدى مقاومتهم للإسلام ولرسوله الكريم ، ومدى ما أنفقوا من مال ، فى سبيل مقاومة دعوته الكريمة .

١٠ — إنذار الله للمشركين بأن مصيرهم الهزيمة والفشل والخيبة والخسران المبين ، ودعوتهم إلى الإيمان قبل فوات الأوان .

١١ — الإذن بقتال المشركين حتى يعودوا إلى الله وإلى دينه القويم .

الربع الثالث من سورة الأنفال

٤١ — وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

٤٢ — إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ .

٤٣ — إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

٤٤ — وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

فى هذه الآيات الأربع الكريمة التى هى مطلع الربع الثالث من سورة الأنفال يتحدث الله عز وجل عن الغنائم . وكيفية توزيعها ، ويجعل الله عز وجل الخمس منها للفقراء والمساكين واليتامى وابن السبيل . . ويؤكد الله عز وجل حق هؤلاء فى الخمس فيجعل إخراجه مشروطا بالإيمان بالله ورسوله ، ووقفا على الذين آمنوا بما أنزل الله على محمد صلوات الله عليه يوم الفرقان ، وهو يوم بدر الفاصل بين الحق والباطل ، وبين الشر والخير ، وبين التوحيد والشرك ، ثم يصف الله عز وجل المعركة نفسها ووسائل القوة المعنوية التى أيد الله عز وجل بها المسلمين ، وكيف جعل روحهم المعنوية قوية غاية القوة ، حتى استطاعوا أن ينتزعوا النصر انتزاعا من براثن المشركين . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة . . . « واعلموا أنما غنمتم » أى أخذتم من الكفار فى الحرب من غنائم وأموال « من شىء » مما يقع عليه اسم شىء « فإن

لله خمسه وللرسول » الغنيمة والفيء اسمان لما يصيبه المسلمون من الكفار في الحرب ، والصحيح أنهما مختلفان ، فالفيء ما حصل لنا مما هو لهم بلا إخافة كجزية وعشر تجارة، وسيأتي حكمه عند قوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله »، وأما الغنيمة فهي ما حصل لنا منهم مما هو لهم بإخافة أو غلبة أو التقاط ، وكذا ما أخذناه من أموالهم في المعارك ولو قبل شهر السلاح ، أو أهداه الكافر لنا والحرب قائمة . . ولم تحل الغنائم لأحد قبل الإسلام ، بل كانت الأنبياء إذا غنموا مالا جمعوه فتأتي نار من السماء فتأخذه ، ثم أحلت للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت في صدر الإسلام للنبي خاصة لأنه كالمقاتلين بل أعظم ، ثم نسخ ذلك واستقر الأمر على أنها تجعل خمسة أقسام متساوية:فخمس لله أو للمصالح ويجعل بين أهل الخمس على خمسة أصناف وهو النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه ، وذكر الله تعالى في الآية للتبرك ، وإما ما كان له صلى الله عليه وسلم فهو لمصالح المسلمين كسد الثغور ودفع مرتبات للعلماء ، والصنف الثاني ما ذكره الله تعالى بقوله : « ولذي القربى » أي قرابة النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وبني المطلب دون من عداهم ، لاقتصاره صلى الله عليه وسلم في القسمة عليهم مع سؤال غيرهم من بني نوفل وعبد شمس له ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : أما بنو هاشم وبنو المطلب فشيء واحد ـ وشبك بين أصابعه ـ فيعطون ولو أغنياء ويفضل الذكر على الأنثى كالإرث . . والصنف الثالث هو ما ذكره الله تعالى في قوله : « واليتامى » واليتيم الصغير لا أب له ولو أنثى ، وورد الخبر : لا يتم بعد احتلام . وإن كان له أم وجد ، ومن فقد أمه فقط يقال له منقطع لا يتيم . . والصنف الرابع ما ذكره الله تعالى بقوله : « والمساكين » الصادقين بالفقراء ، والمسكين من له مال أو كسب لائق به لا يقع موقعا من كفايته ولا يكفيه ، والفقير من لا مال له أو له ذلك ولا يقع موقعا من كفايته ، كمن يحتاج إلى عشرة ولا يملك أولا يلبس إلا درهمين أو ثلاثة . والخامس ما ذكره الله تعالى بقوله : « وابن السبيل » وهو المسافر المحتاج

ولا معصية بسفره ، والأخماس الأربعة الباقية للغانمين ، وهم من حضر القتال ولو فى أثنائه بنية القتال « إن كنتم آمنتم بالله » متعلق بمحذوف دل عليه (واعلموا) أى إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه إليهم واقنعوا بالأخماس الأربعة الباقية . فإن العلم إذا أمر به لم يرد منه العلم المجرد لأنه مقصود بالفرض ، والمقصود بالذات هو العمل «وما» عطف على (بالله) «أنزلنا على عبدنا» محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات والملائكة والنصر « يوم الفرقان » أى يوم بدر فإنه فرق فيه بين الحق والباطل « يوم التقى الجمعان » أى جمع المؤمنين وجمع الكافرين وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة ، فالتقوا يوم الجمعة لتسعة عشر أو لسبعة عشر من رمضان ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلثمائة وبضعة عشر رجلا ، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة ؛ فهزم الله تعالى المشركين ، وقتل منهم سبعون وأسر منهم مثل ذلك « والله على كل شيء قدير » فيقدر على نصر القليل على الكثير والذليل على العزيز كما فعل ذلك بكم ذلك اليوم « إذ أنتم بالعدوة الدنيا » أى القربى من المدينة والعدوة الدنيا مما يلى المدينة «وهم بالعدوة القصوى» أى البعيدة من المدينة وهو مما يلى مكة ، وكان الماء بها، وكان استظهار المشركين من هذا الوجه أشد . « والركب » أى القافلة التى خرجوا لها والتى كان يقودها أبو سفيان « أسفل منكم » أى أسفل منكم على ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر « ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد » وذلك أن المسلمين خرجوا ليأخذوا قافلة التجارة راغبين فى الخروج ، وخرج الكفار لما بلغهم من تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأموالهم فيمنعونها من المسلمين ، فالتقوا على غير ميعاد ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد لقلتهم وكثرة عدوهم « ولكن» جمع الله تعالى بينهم على هذه الحالة من غير ميعاد « ليقضى الله أمرا كان مفعولا » فى علمه وهو نصر أوليائه وإعزاز دينه وإعلاء كلمته وقهر أعدائه، وقوله تعالى « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة » استعير الهلاك

والحياة للكفر والإسلام أى ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لاعن شبهة حتى لا يبقى له على الله حجة ، ويصدر إسلام من أسلم أيضا عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذى يجب الدخول فيه والتمسك به، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحات التى من كفر بعدها كان مكابرا لنفسه مغالطا لها «وإن الله لسميع عليم» أى يسمع دعاءكم ويعلم حاجتكم وضعفكم ولا يخفى عليه خافية «إذ» أى واذكر يا محمد نعمة الله عليك إذ «يريكهم الله» أى المشركين «فى منامك» أى نومك «قليلا» فأخبرت به أصحابك فسروا وقالوا رؤيا النبى حق ، وصار ذلك سببا لجرأتهم على عدوهم وقوة لقلوبهم «ولو أراكهم كثيرا لفشلتم» أى ولو أراكهم كثيرا لذكرته للقوم ولو سمعوا ذلك لفشلوا أى جبنوا «ولتنازعتم» أى اختلفتم «فى الأمر» أى أمر القتال وتفرقت آراؤكم بين الفرار والقتال «ولكن الله سلم» أى سلمكم من الفشل والتنازع فيما بينكم وقيل: سلمكم من الهزيمة والقتل «إنه» تعالى «عليم» أى بالغ العلم «بذات الصدور» أى بما فى القلوب من الجرأة والجبن والجزع وغير ذلك «وإذ يريكموهم» أيها المؤمنون «إذ التقيتم فى أعينكم قليلا» أى إن الله تعالى قلل عدد المشركين فى أعين المؤمنين يوم التقوا فى القتال ليتأكد فى اليقظة ما رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه وأخبر به أصحابه ، وتقوى بذلك قلوب المؤمنين وتزداد جرأتهم ولا يجبنوا عن قتالهم ، قال ابن مسعود : لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبى : أتراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ، فأسرنا رجلا منهم فقلنا : كم كنتم ؟ قال: ألفا «ويقللكم فى أعينهم» أى ويقللكم يا معشر المؤمنين فى أعينهم أى المشركين لئلا يهربوا إذا استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا فى الاستعداد والتأهب لقتالهم ، فيكون ذلك سببا لظهور المؤمنين، قال السدى ، قال ناس من المشركين : إن قافلة التجارة قد انصرفت فارجعوا، فقال أبو جهل : الآن إذ برز لكم محمد وأصحابه ، فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم وإنما محمد وأصحابه آكلة جزور، أى قليل يشبعهم جزور واحد - يضرب مثلا فى القلة والأمر الذى لا يعبأ به ، ثم قال : فلا تقتلوهم واربطوهم بالحبال، أراد بقوله ذلك القدرة والقوة . وتقليل الكثير وتكثير القليل ممكن فى قدرة الله

تعالى ، والله تعالى على مايشاء قدير ، وذلك معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمعجزة هي من خوارق العادات فلا ينكر ذلك « ليقضي الله أمرا كان مفعولا » أى فى علمه وهو إعلاء الإسلام ونصر أهله وإذلال كلمة الشرك وخذلان أهله . والمقصود أنه تعالى ذكر هنا أنه قلل عدد المؤمنين فى أعين الكفار فبين تعالى هنا أنه إنما فعل ذلك لئلا يبالغ الكفار فى تحصيل الاستعداد والحذر فيكون ذلك سببا لانكسارهم « وإلى الله ترجع الأمور » كلها فلا ينفذ إلا مايريد إنفاذه فلا تجرى الأمور على مايظنه العباد ، وفى هذا تنبيه على أن الأمور الدنيا غير مقصودة ، وإنما المراد منها مايصلح أن يكون مرادا ليوم المعاد .

٤٥ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

٤٦ — وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ .

٤٧ — وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ .

٤٨ — وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

٤٩ — إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

٥٠ — وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

٥١ — ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ .

فى هذه الآيات السبع الكريمة يأمر الله عز وجل المؤمنين بالثبات فى المعركة ، وعدم التزحزح منها ، ويأمرهم بطاعة الله عز وجل، وباتحاد الكلمة وبعدم التنازع حتى لا يصيبهم الفشل ، وتدركهم الهزيمة ، كما أنه عز وجل يأمرهم بالصبر فى المعركة ؛ وينهى الله عز وجل المؤمنين أن يكونوا مثل المشركين فى جزعهم وبطرهم وريائهم وصدهم عن سبيل الله ، وفى عنادهم ولجاجهم وكفرهم وتزيين الشيطان لهم بالكفر والشرك ومقاومة الرسالة الإلهية ؛ ويصور الله عز وجل موقف المنافقين فى المعركة وسخريتهم بالرسول والمؤمنين ، وسخرية الله عز وجل بهم ، بسبب أعمالهم وما اقترفته جوارحهم .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمات : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم » أى قاتلتم ، لأن اللقاء اسم للقتال غالباً « فئة » أى جماعة كافرة « فاثبتوا » لقتالهم كما ثبتم فى بدر ولا تحدثوا أنفسكم بفرار « واذكروا الله كثيرا » بقلوبكم وألسنتكم ، قال ابن عباس : أمر الله تعالى أولياءه بذكره فى أشد أحوالهم تنبيهاً على أن الإنسان لا يجوز له أن يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله ، وقيل : المراد من هذا الذكر الدعاء بالنصر والظفر ؛ لأن ذلك لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى « لعلكم تفلحون » أى تظفرون بمرادكم من النصر .. « وأطيعوا الله ورسوله » فى سائر ما يأمران به ، لأن الجهاد لا ينفع إلا مع التمسك بسائر الطاعات « ولا تنازعوا » أى تختلفوا فيما بينكم « فتفشلوا » أى تجبنوا « وتذهب ريحكم » أى قوتكم ودولتكم ، فالريح مستعارة للدولة ، شبهها فى نفوذ أثرها بالريح ، وقيل : المراد بها الحقيقة لأنه لم يكن قط نصر إلا بريح يبعثها الله تعالى ، وفى حديث للشيخين : نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور ، « واصبروا » أى عند لقاء العدو ولا تنهزموا عنه « إن الله مع الصابرين »

بالنصر والمعونة ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم » أى ليمنعوا غيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها « بطرا » أى فخرا وطغيانا فى النعمة ، وذلك أن النعم إذا كثرت من الله تعالى على العبد ، فإذا صرفها فى المفاخرة وكاثر بها الناس وأنفقها فى غير طاعة الله ، فذلك هو البطر فى النعمة ، وإن صرفها فى طاعته وابتغاء مرضاته فذلك شكرها « ورئاء الناس » أى ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة ، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وأتاهم رسول أبى سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم ، فقال أبو جهل : لا والله حتى نقدم بدرا ـ وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم فيها سوق فى كل عام ـ ونشرب الخمور وتعزف علينا القيان ونطعم بها من حضرنا من العرب فذلك بطرهم ورياؤهم الناس بإطعامهم ، فوافوها فسقوا المنايا ، فنهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مرائين ، وأمرهم أن يكونوا أهل تقوى وإخلاص من حيث أن النهى عن الشىء أمر بضده « ويصدون عن سبيل الله » أى ويمنعون الناس الدخول فى دين الله « والله بما يعملون محيط » لا يخفى عليه شىء لأنه محيط بأعمال العباد كلها فيجازيهم بأعمالهم ، « وإذ » أى واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم إذ « زين لهم » أى المشركين « الشيطان » أى إبليس « أعمالهم » الخبيثة بأن شجعهم على لقاء المسلمين لما خافوا الخروج من أعدائهم بنى بكر بن الحارث فتبدى لهم فى صورة سراقة بن مالك بن جشعم الشاعر الكنانى وكان من أشرافهم ، وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ـ أى مجير لكم من كنانة « فلما تراءت الفئتان » أى التقى الفريقان « نكص على عقبيه » قال الضحاك : ولى مدبرا ، وقال النضر بن سهيل : رجع القهقرى على قفاه هاربا « وقال إنى برىء منكم » أى من جمعكم « إنى أرى ما ترون » من تأييد الله لمحمد بالملائكة ، ودفع فى صدر الحارث

وانطلق فانهزموا . قال الحسن : رأى إبليس جبريل بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال قتادة : قال إبليس إنى أرى مالا ترون وقال « إنى أخاف الله » وكذب ، والله ما به مخافة الله ، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة وردهم وأسلمهم ، وقال عطاء : خاف إبليس أن يهلكه الله تعالى فيمن هلك ، وقيل : إنه لما رأى جبريل خافه ، وقيل : لما رأى الملائكة تنزل من السماء خاف أن الوقت الذى أنظر إليه قد حضر ، فقال ما قال إشفاقا على نفسه ، ولما انهزموا وبلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقة ، فبلغه ذلك فقال : والله ما شعرتُ بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان ، « والله شديد العقاب » من كلام الشيطان أى إنى أخاف الله لأنه شديد العقاب ، أو كلام مستأنف ، أى والله شديد العقاب لمن خالفه وكفر به ؛ والله تعالى قد أعطى الشيطان قوة ، وأقدره على فعل ذلك كما أعطى الملائكة قوة وأقدرهم على أن يتشكلوا بصورة البشر ، لكن النفس الباطنية لم تتغير فلم يلزم من تغير الصورة تغير الحقيقة ، « إذ » أى واذكر إذ « يقول المنافقون » أى من أهل المدينة ، والمنافق هو من يظهر الإسلام ويخفى الكفر ، كما أن المرائى هو من يظهر الطاعة ويخفى المعصية « والذين فى قلوبهم مرض » أى شك وارتياب وهم قوم من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يقو الإسلام فى قلوبهم ولم يتمكن ، فلما خرجت قريش إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا معهم إلى بدر ، فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا « غر هؤلاء » المسلمين « دينهم » إذ خرجوا مع قلتهم يقاتلون الجمع الكثير توهما أنهم ينصرون بسببه ؛ فقتلوا جميعاً ، منهم قيس بن الوليد بن المغيرة وعلى بن أمية ابن خلف الجمحى والعاصم بن أمية بن الحجاج ، قال الله تعالى فى جوابهم « ومن يتوكل على الله » أى يثق به يغلب « فإن الله عزيز » أى غالب على أمره « حكيم » أى فى صنعه ، يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن تصوره بقوله تعالى « ولو ترى » أى عاينت وشاهدت يا محمد « إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة » أى يقبض أرواحهم عند الموت « يضربون وجوههم وأدبارهم »

أى ظهورهم ووجوههم «و» يقولون لهم «ذوقوا عذاب الحريق» أى النار
قال ابن عباس : كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربوا
وجوههم بالسيف وإذا ولوا ضربوا أدبارهم، فلا جرم قابلهم الله بمثله فى
وقت نزوع الروح، وجواب (لو) محذوف، والتقدير لرأيت منظرا هائلا وأمرا
فظيعا وعقابا شديدا «ذلك» أى الذى نزل بكم من القتل والضرب والحريق
«بما» أى بسبب ما «قدمت أيديكم» من الكفر والمعاصى، وإنما عبر بالأيدى
دون غيرها لأن أكثر الأفعال يكون بها «وأن الله ليس بظلام للعبيد»
فلا يعذب أحدا من خلقه بغير ذنب و (ظلام) للتكثير لأجل العبيد أى إنه
بمعنى ذى ظلم ..

٥٢ — كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِئَايَٰتِ
اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

٥٣ — ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ
يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

٥٤ — كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِئَايَٰتِ رَبِّهِمْ
فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا
ظَٰلِمِينَ .

يبين الله عز وجل فى هذه الآيات الثلاث مصير الأمم من قبل حين كفرت
بالله ورسالاته فأهلكها الله . ويذكر أن عمل مشركى مكة فى عنادهم ومقاومتهم
للرسالة والرسول يشبه عمل آل فرعون فى مقاومتهم لموسى ورسالته ، ويشبه
عمل الأمم البائدة التى أقامت على الشرك والطغيان وكفرت بالله ورسله ،
فأهلكهم الله بذنوبهم ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر . . والله عز وجل لا
يبتدىء الأمم بالعقاب ، وإنما يجازيهم على أعمالهم ، فهو لا يسلب الأمم

نعمه عليها ابتداء ، وإنما يتركها لضميرها ، حتى تبدل الإيمان بالكفر ، وتغير في دين الله ، وتقف مع الشيطان ، فيأخذها الله أخذ عزيز مقتدر ، كما صنع الله عز جل مع آل فرعون والذين من قبلهم حين كذبوا بآيات الله فأهلكهم الله بذنوبهم ، وأغرق آل فرعون ، وهؤلاء كانوا ظالمين مسرفين . .
وفي هذه الآيات الكريمات أصلان عظيمان يجب تدبرهما :

وأول هذين الأصلين أن الله عز وجل لا يغير نعمة أنعمها على أمة حتى تغير الأمة ما بنفسها ، فهو لا يصيب أمة بالمحن والشدائد إلا إذا خرجت على العقيدة الصالحة والأخلاق المثلى وكفرت بالله ورسالته ، وهو عز وجل لا يبتلي شعبا من الشعوب بنقص الرزق والبركة ، ولا يسلبه الحرية والأمن والسلام إلا بسبب أعمال هذا الشعب نفسه ، وبسبب كفره وشركه وخروجه على طاعة الله . . فالأمم لا تمتحن بزوال حريتها واستقلالها ، وبذهاب عزها ومجدها ، وبانقراض غناها وثرائها وحريتها ، إلا بسبب ما تقترف من خروج على الناموس الإلهي ، ونشوز على الله ودينه ، وبسبب ما ترتكب من معاص وذنوب وسيئات . . إن كفر الأمة وشركها وتركها لإقامة العدل هو سبب ما يصيبها من محن في مالها ورزقها وفي حريتها وكرامتها وعزتها .

والأصل الثاني يؤيد هذا الأصل ، وهو أن دمار الأمم والشعوب إنما هو بسبب معاصيهم وذنوبهم وما يقترفون من سيئات ؛ فالذنوب صغيرها وكبيرها وفي مقدمها الشرك والجور ، هي سبب فناء الأمم وهلاكها واضمحلالها ، وتسلط الأمم الأخرى عليها ، ولو وعى ذلك حكام الأمم والشعوب لأراحوا واستراحوا ، واستبداد الحاكمين وجورهم وظلمهم لشعوبهم هو سبب لهلاك أممهم معهم ، وتكون المصيبة أفدح لو كان الشعب نفسه هو الذي اقترف الذنوب والمعاصي والسيئات . . حينئذ يسلط الله عليه أمة أخرى تتحكم في مصيره ، تمحو حريته واستقلاله وعزته وكرامته محوا . . وينتقم الله منه انتقاما مروعا مدمرا ، كما حدث لفرعون وقومه ، ولغيرهم من الشعوب والأمم والمدنيات والحضارات خلال عصور التاريخ .

قوله تعالى «كدأب» أى دأب هؤلاء الكفار مثل دأب «آل فرعون» وهو عادتهم وعلمهم الذى دأبوا فيه أى داوموا عليه فجوزى هؤلاء بالقتل والأسر يوم بدر، كما جوزى آل فرعون بالإغراق، وأصل الدأب فى اللغة إدامة العمل، يقال: فلان دأب فى كذا أى داوم عليه، وسميت العادة دأبا لأن الإنسان مداوم على عادته مواظب عليها «والذين من قبلهم» أى من قبل فرعون، وقوله تعالى «كفروا بآيات الله» تفسير لدأب آل فرعون «فأخذهم الله بذنوبهم» أى بسبب كفرهم كما أخذ الله آل فرعون «إن الله قوى» أى على ما يريده فينتقم ممن كفر وكذب رسله «شديد العقاب» لمن كفر وكذب رسله «ذلك» إشارة إلى ما حل بهم من العقاب «بأن» أى بسبب أن «الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم» أى مبدلا لها بالنعمة «حتى يغيروا ما بأنفسهم» أى بأن يبدلوا ما بهم من الحال إلى حال أسوأ منه، وكان المشركون قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم عبدة أوثان، فلما بعث إليهم رسول الله بالآيات البينات كذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعتين فى إراقة دمه، وغيروا حالهم إلى أسوأ ما كانت عليه، فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب «وأن الله سميع» لما يقولون «عليم» بما يفعلون.. «كدأب آل فرعون» أى قوم فرعون «والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم» أى المنزلة من السماء على الرسل صلوات الله عليهم «فأهلكناهم بذنوبهم» أى أهلكنا بعضهم بالرجف، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالحجارة، وبعضهم بالرياح العاتية، وكذلك أهلك الله عز وجل قريشا بالسيف «وأغرقنا آل فرعون» أى فرعون وقومه.

وفائدة تكرير هذه الآية مرة ثانية أن فيها فوائد: منها أن الكلام الثانى يجرى مجرى التفصيل للكلام الأول، لأن الكلام الأول فيه ذكر أخذهم، وفى الثانى ذكر إغراقهم وذلك تفصيل؛ ومنها أنه ذكر فى الآية الأولى أنهم كفروا بآيات الله، وفى الآية الثانية أنهم كذبوا بآيات ربهم، «وكل» أى من

الفرق المكذبة أو من آل فرعون وقريش « كانوا ظالمين » أنفسهم بالكفر والمعاصى .

وأصل الدأب الاستمرار على الشيء ، لكن المراد به هنا الشأن والعادة ، فهى سنة الله فى الكفار إذن .. كفر آل فرعون بموسى ، وكفر بنوح قومه ، وكذبت عاد هودا ، فأخذ الله هذه الأقوام بما كان من تكذيبهم للرسل الذين أرسل إليهم . لم يظلم أحدا منهم مثقال ذرة ، ونصر رسله والمؤمنين عليهم ، لم تمنعه من ذلك قوة أو كثرة .. وكذلك كان موقف مشركى قريش من رسوله محمد ، فنصره عليهم فى بدر ، وكان نصره له هو مقتضى سنته ! .. وإن الله لقوى شديد العقاب لمن يستحق هذا العقاب ، غير أنه يملى للظالم ؛ لأن لكل شيء أجلا عنده ، فإذا ما أخذ الظالم بعد ذلك لم يفلته كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حقيقة لم يكونوا مؤمنين فكفروا بعد إيمان ولكنهم لم يكونوا يجدون رسلا تهديهم ، فلما وجدوا الرسل ولم يهتدوا ـ صاروا فى حال أسوأ من التى كانوا فيها ، واستوجبوا بسبب هذه الذنوب الهلاك .. ثم كانت الطريقة التى أهلك بها آل فرعون خاصة هى الإغراق . وقد كانوا جميعا ظالمين : لم ينصفوا أنفسهم فيستجيبوا لدعوة الله ، ولم ينصفوا الرسل فيعفوهم من التكذيب والاتهام ، ولم ينصفوا المنعم بالحياة وبالصحة وبالرزق وبسائر النعم ، فيؤمنوا به ويشكروا له .

٥٥ — إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

٥٦ — ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ .

٥٧ — فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ .

٥٨ — وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ .

٥٩ — وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوٓا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ .

٦٠ — وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ

فى هذه الآيات الست يبين الله عز وجل أن الكافرين شر من الدواب التي لا تفهم شيئاً ، ولا تعي شيئاً ، وأن المشركين الذين قاوموا محمداً ورسالته هم والحيوانات العجم سواء ، ويذكر الله عز وجل بعض أعمال المشركين من نقضهم للعهود التى أبرموها مع الرسول ، ومن تركهم للطاعة والتقوى . . ويوصى الله عز وجل رسوله بأن يشردهم تشريداً إذا ما التقى بهم فى حرب جامعة، لأنهم يؤخرون سير العالم ، ويعوقون ركب التقدم ، ويثبطون همم العاملين والمصلحين ، ويقفون حجر عثرة فى سبيل المجد والكرامة والحرية للشعوب ؛ ويرسم الله عز وجل لرسوله الخطط التى يسير عليها فى علاقاته الدولية بالأمم والشعوب ، فيبين أن الأصل فى المواثيق الدولية أن تؤدى لاستقرار السلم وذهاب شبح الحرب بين الدولتين المتعاقدتين ، فإذا كانت المواثيق التى يوقعها الرسول الكريم مع غير المسلمين لا تؤدى إلى استقرار العلاقات السياسية بينه وبين هؤلاء القوم ، فللرسول صلوات الله عليه حق إعلان انتهاء هذه المواثيق . . بشرط أن يعلن القوم الذى تعاقد معهم بإلغاء هذه المواثيق وزوال مفعولها . . وفى ختام هذه الآيات الست ينذر الله عز وجل المشركين إنذاراً شديداً ، ويأمر الرسول بالاستعداد الدائم لملاقاة الأعداء . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة . « إن شر الدواب عند الله » فى حكمه

وعلمه « الذين كفروا » أى أصروا على الكفر «فهم لا يؤمنون» أى لا يتوقع منهم إيمان « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة » هم يهود قريظة عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يساعدوا عليه ، فنكثوا ومالوا مع قريش يوم الخندق ، وانطلق كعب بن الأشراف إلى أهل مكة فحالفهم، وإنما جعلهم الله تعالى شر الدواب ؛ لأن شر الناس الكفار وشر الكفار المصرون منهم ، وشر المصرين الناكثون العهود « وهم لا يتقون » الله فى حذرهم « فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد » قال ابن عباس : فنكل « بهم » أى بهؤلاء الذين نقضوا العهد « من خلفهم » أى من وراءهم من أهل مكة واليمن وغيرهما فيخافون أن تفعل بهم كفعل هؤلاء، وقال عطاء : أثخن فيهم القتل حتى يخافك غيرهم « لعلهم » أى الذين خلفهم « يذكرون » أى يتعظون بهم « وإما تخافن » أى تعلمن يا محمد « من قوم » عاهدتهم « خيانة » فى العهد بأمارات تلوح لك كما ظهر من قريظة والنضير « فانبذ » أى اطرح عهدهم « إليهم » أى إلى هؤلاء الخائنين « على سواء » أى مستويا أنت وهم فى العلم بنقض العهد بأن تعلمهم به لئلا يكون لهم عذر إذا نشبت الحرب معهم « إن الله لا يحب الخائنين » أى فى نقض العهد أو غيره ، روى أن معاوية كان بينه وبين الروم عهد ، وكان يسير نحو بلادهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم ، فجاء رجل على فرس ، يقول : الله أكبر الله أكبر ، فإذا هو عمرو بن عبسة ، فأرسل إليه معاوية يسأله ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا ينبذ عقدة ولا يحلها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ إليهم على سواء » ، فرجع معاوية ، قال الرازى : وحاصل الكلام فى هذه الآية أنه تعالى أمره بقتال من ينقض العهد على أقبح الوجوه ، وأمره أن يتباعد على أقصى الوجوه من كل مايوهم نكث العهد ونقضه ، قال المفسرون : إذا ظهرت آثار نقض العهد ممن عاداهم الإمام من المشركين بأمر ظاهر مستفيض ، فإما أن يظهر ظهورا محتملا أو ظهورا مقطوعا به ، فإن كان الأول وجب الإعلام عليه على ماهو مذكور فى هذه الآية ، وذلك أن

قريظة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أجابوا أباسفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على النبي صلى الله عليه وسلم فحصل للنبي صلى الله عليه وسلم خوف الغدر به وبأصحابه ، فهاهنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم على سواء ويعلمهم بالحرب ، وأما إذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فهاهنا لاحاجة إلى نبذ العهد ؛ يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم فى ذمة النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرعهم إلا وجيش النبي صلى الله عليه وسلم بمر الظهران ، وذلك على أربعة فراسخ من مكة ؛ ولما بين تعالى مايفعله صلى الله عليه وسلم فى حق من يجده فى الحرب ويتمكن منه ، وذكر أيضا مايجب أن يفعله فيمن ظهر منه نقض العهد ، بين أيضا حال من فاته فى يوم بدر فقد كان فيهم من بلغ فى أذية النبي صلى الله عليه وسلم مبلغا عظيما ، وذلك فى قوله تعالى «ولاتحسبن الذين كفروا سبقوا» أى خلصوا من القتل والأسر يوم بدر «أنهم لايعجزون» الله أى لايفوتونه بهذا السيف فى الانتقام منهم ، إما فى الدنيا بالقتل وإما فى الآخرة بعذاب النار ، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم ، فأعلمه الله تعالى أنهم لا يعجزونه (ويحسبن) بالياء وقرىء بالتاء على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشرد من صدر منه نقض العهد ، واتفق لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قصدوا الكفار بلا عتاد ولا عدة ، أمرهم فى هذه الآية بالإعداد لهؤلاء الكفار بقوله تعالى «وأعدوا لهم» أى لقتالهم «ما استطعتم من قوة» والإعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة إليه .. وأسباب القوة متعددة ، من تجهيز الجيوش وتدريبها وتنظيمها ، ومن كثرة عتادها وعددها ، ومن الاختراعات العسكرية الجديدة التى تزيد الجيش قوة ، ومن تعليم شباب الأمة التعليم العسكرى ، وتدريبهم على السلاح والقتال والرمى ، ومن إقامة الحصون وشق الطرق العسكرية وسواها ؛ وفى رواية : ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه وملاعبة أهله ورميه بقوسه .. أى نبله ؛ فإنهن من الحق ،

وقيل القوة : التدريب على القتال ، وقيل : إنها الحصون ، وقيل : إنها جميع الأسلحة والآلات التى تكون لنا قوة فى الحرب على قتال الأعداء « ومن رباط الخيل » مصدر بمعنى حبسها فى سبيل الله سواء كانت ذكورا أو إناثا ، وقال عكرمة : المراد الإناث ، وروى عن خالد بن الوليد أنه قال : لا يركب فى القتال إلا الإناث لقلة صهيلها ، وعن أبى محيريز أنه قال كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف وإناث الخيل عند الغارة ، وقيل: ربط الفحول أولى لأنها أقوى على الكر والفر ، ويدل للأول ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من حبس فرساً فى سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوعده فإنه فى ميزانه يوم القيامة ، يعنى فى حسناته ، وعن عروة البارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والمغنم « ترهبون » أى تخوفون « به » أى بتلك القوة وبذلك الرباط « عدو الله وعدوكم » أى الكفار من أهل مكة وغيرهم ، وذلك أن الكفار إذا علموا أن المسلمين متأهبون للجهاد مستعدون له مستكملون بجميع الأسلحة وآلات الحرب « و» ترهبون « آخرين من دونهم » أى غيرهم وهم المنافقون لقوله تعالى : « لا تعلمونهم » لأنهم معكم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم « الله يعلمهم » أى إنهم منافقون، والمنافقون إذا شاهدوا قوة المسلمين وكثرة آلاتهم وأسلحتهم كان ذلك مما يخوفهم ويقطع طمعهم من أن يصيروا غالبين ، وقيل : هم اليهود وقيل الفرس : « وما تنفقوا من شىء » وإن قل : « فى سبيل الله » أى طاعته جهاداً كان أو غيره « يوف إليكم » قال ابن عباس : يوفى الله أجره أى لا يضيع فى الآخرة أجره ويعجل الله عوضه فى الدنيا « وأنتم لا تظلمون » أى لا تنقصون من الثواب شيئاً .

هذا هو نهاية الربع الثالث من سورة الأنفال ، وقد تضمن من الأصول الجليلة فى بناء الدولة والمجتمع ما يلى :

١ — أرشد هذا الربع إلى طريقة توزيع الغنائم توزيعا يرضى عنه الله

ورسوله : خمسها يصرف فى مصالح الدولة على خدمة الشعب ، ومن الخمس جزء يصرف للرسول وأهل بيته باعتباره القائد الأعلى لجيش المسلمين . ويحل محل الرسول فى أخذ هذا الحق الحاكم الشرعى الذى بايعه المسلمون بالولاية عليهم عن رضا واختيار وطواعية ، وأربعة أخماس الغنيمة يصرف للجيش الفاتح المنتصر ، تشجيعا ومؤازرة وتكريما .

٢ - التذكير بنعمة الله على المسلمين بنصرهم يوم بدر ، وبإمداده إياهم بالروح المعنوية القوية ، التى هزموا بها المشركين .

٣ - الأمر بالثبات والصمود فى المعركة والنهى عن الفرار ، وتأكيد الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله باعتباره القائد الروحى والقائد العسكرى الأعلى للمسلمين فى حياته صلى الله عليه وسلم ، وكذلك النهى عن التنازع لما يؤدى إليه من فشل .

٤ - نهى المسلمين عن أن يتشبهوا بالمشركين فى البطر والرياء والغرور ، وبيان أمر المشركين وأمر المنافقين ومصيرهما الفظيع فى الآخرة عند الله .

٥ - تذكير المسلمين بمصرع قريش وبمصرع الأمم البائدة من قبل ، ومن بينهم الفراعنة القدامى وسواهم .

٦ - التذكير بأن تمرد الأمم وعصيانها ولجاجها فى مقاومة الرسالة ودعوات السماء ، وخروجها على القوانين التى من شأنها أن تثبت الأمة وتقوى شأنها فى الحياة ، كل ذلك يؤدى إلى فنائها وهلاكها ودمارها .

٧ - الكافرون والمشركون شر عند الله من الدواب ، وخاصة هؤلاء الذين ينقضون العهود ، ويخلفون المواثيق .

٨ - أمر الرسول بأن يبيد المشركين إبادة إذا حاربوا الله ورسوله ، لأنهم يعوقون تقدم الحضارة والإنسانية .

٩ - إلغاء العهود المعطاة للمشركين والكافرين إذا حاولوا تدبير الدسائس للإسلام والمسلمين ، وإعلامهم بهذا الإلغاء .

١٠ — الأمر بالاستعداد العسكرى الدائم لملاقاة أعداء الرسالة والدين .

وهكذا تصل الآيات بين الماضى والحاضر ، فتشبه كفرا بكفرا ، وعقابا بعقاب ، ثم تتحدث عن اليهود فتقضى فى موقف المسلمين منهم قضاء حاسما ، ثم تضع هذه القواعد الحربية الهامة :

١ — وجوب الشدة فى معاملة ناقضى العهد ، حتى يعتبر بهم غيرهم ، فتكون للعهود حرمتها .

٢ — نبذ العهد إذا خيف من الطرف الآخر أن يخون فيه . وظهر ذلك فى قوله ، أو عمله ، على أن يتم ذلك بطريقة صريحة واضحة لا تشبه الخيانة فى شىء .

٣ — على الدولة المسلمة أن تعد كل ما تستطيعه من قوة لقتال أعدائها . وأن تدرب الشبان وتزودهم بالسلاح ، وأن تمكن للنظام فى كل مرافقها .

٤ — على المسلمين أن يحصنوا الثغور ، لتكون حدودهم آمنة .

٥ — ليس للسلم المسلح فى الإسلام من هدف إلا تأمين مصالح المسلمين .

٦ — على المسلمين أن ينفقوا فى سبيل تسليح الدولة تسليحاً كاملا ، وإلا ألقوا بأيديهم إلى التهلكة .

الربع الرابع من سورة الأنفال

٦١ — وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

٦٢ — وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ .

٦٣ — وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

ثلاث آيات كريمات فى الدعوة إلى السلام العالمى وفرضه بقوة التشريع والعمل من أجله ، وفى الاحتراز من خداع أعداء الإسلام وخصومه ومكائدهم ، وفى ملء قلوب الرسول والمسلمين بالثقة بأنفسهم وبالله الذى أيد المؤمنين بنصره ، والذى جمع بين المسلمين ، وألف بين قلوبهم ، وقد كانوا قبل الإسلام أعداء وفرقاً متخالفة وعصبيات متنافرة . . ومن كان يصدق أن الأوس والخزرج يجتمعون جميعا فى وحدة واحدة ، وفى رباط واحد ؟ .
وفى الآية الثانية دليل على أن وحدة المسلمين ـ فضلا عن وحدة العرب ـ مطلوبة شرعا ، وأن الله عز وجل يحب للمسلمين الاتحاد والتعاون ، ويكره لهم التفرق والاختلاف ؛ والآية الأولى أصل عظيم من أصول القانون الدولى فى الإسلام ، ودعوة جليلة للتعاون الدولى ، وللعمل على حفظ السلام العالمى وحمايته .

والسلام العالمى دعوة إلى التعاون بين الأمم والشعوب ، وحل مشكلاتها بالوسائل السلمية ، وتحريم الحروب التى تقوم للاستعمار والاستغلال ، بل تحريمها لغرض نشر الدين أيضاً : « لكل أمة جعلنا منسكاهم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك[1] » ، والإسلام بنظمه وروحه وأهدافه يعمل على نشر هذا السلام ويدعو إليه ، ويجعله هدفا من أهداف الإنسان ، « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها[2] » : ويؤيد هذا المبدأ بأن الناس يجمعهم أصل واحد ، وأن التعارف والتآلف والتعاون يجب أن يسودهم ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا[3] » . ولذلك ألغى الإسلام العصبيات وفوارق الألوان والأجناس داعيا إلى الوحدة الإنسانية ، وإلى أن يعيش الناس كما بدأوا أمة واحدة : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا[4] » ، « وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم[5] » ، ولم يشرع الإسلام الحرب إلا للدفاع عن النفس أو العقيدة .

---

(١) ٦٧ الحج . (٢) ٦١ الأنفال . (٣) ١٢ الحجرات .
(٤) ١٩ يونس. (٥) ١٤ الشورى .

إن السلام ـ فى رأى الإسلام ـ ضرورى للإنسانية ، وتلك قضية لاريب فيها ، فالسلام هو أنشودة البشر ، وأمل الإنسانية ، لأنه ضرورى لتقدمها ، هو الذى يساعد على الإنتاج ، وعلى رفاهية الناس وتقدم التجارة والصناعة والزراعة ، وعلى نشر العلوم والفنون والآداب ، وعلى سير الحضارة والمدنية والرقى . أما الحرب فتهدم ولا تبنى ؛ وهى وسيلة للتدمير والتخريب ، تبعث على الذعر والخوف والاضطراب ؛ وتدع الملايين من بنى البشر فى شقاء وظلام ، وتحط من مستوى التفكير والعمل والنشاط بما تنشره من فزع وأحزان ، وتوقف سير المدنية وتعوق تقدم بنى الإنسان . وأنت ترى المفكرين ينادون بتحريم الحروب وتوطيد دعائم السلام بنزع السلاح ، وتحريم شن الحروب ، وبالعمل على توثيق الروابط الفكرية والاقتصادية بين أمم العالم ، وعلى إيجاد أخوة عالمية وزمالة إنسانية ، بل بإيجاد حكومة عالمية . السلام هو المدنية والحضارة ، والحرب هى الدمار والخراب ، والسلام هو أهم عامل يساعد الإنسان فى الحياة على التقدم ، والحربُ أفظع ما شهده الإنسان وخاصة فى العصر الحديث الذى كشفت فيه القنبلة الذرية الصاروخية وسواها من وسائل الإفناء . ولقد دعا الإسلام إلى السلام ، وحث عليه ، وأوجب السلام فى المجتمع ، كما أوجبه بين الأمم والشعوب ، وحمل المسلمون رسالة السلام إلى الأمم والشعوب وبشروا بها الإنسانية داعين إلى الرحمة والمحبة والتعاون والخير العام .

وفكرة السلام جزء من العقيدة الإسلامية ، وأساسها أن المجتمع مهما كبر أسرة واحدة ، والناس إخوة فى الله والإنسانية ، وعلى كل فرد أن يعمل على نشر الأمن والسلام والمحبة والتعاون بين الناس ، وأن يؤمن بالإيثار وبالبذل وبالتكافل والتعاون الإنسانى . والإسلام يدعو إلى السلام العالمى وإلى أن تقوم العلاقات بين الأمم والشعوب على التعاون والإخاء والتعارف ، وألغى العصبيات وفوارق الألوان والأجناس . فالدين الإسلامى فى جوهره ، شريعة السلام والوئام ، ودين الحرية الشخصية والأمن الاجتماعى والإخاء

البشرى ، وهو من أجل ذلك يحارب الفوضى واضطراب والشقاء ، ويحارب الطغيان والإرهاب وكل ما يحول دون تمتع الفرد بحريته ، والمجتمع بأمنه والبشرية بالسلام والإخاء المنشودين . والدين الإسلامى فى اشتراكيته العادلة ، ومبادئه السمحة الواضحة ، وفى عمله على النهوض بالمجتمعات والشعوب فى ظلال التعاون والمحبة ، وفى رعايته لمصلحة الفقير والغنى جميعا ، وفى وضعه للمبادىء العامة التى تكفل للإنسانية الأمن والتقدم والرقى ، هو فى ذلك كله يعزز السلام ، ويعمل على خلق جو جديد ترفرف فيه أجنحة السلام والإخاء والحرية والحضارة والنور والعلم والعرفان . وأنى نظرنا إلى المبادىء الغربية المتصارعة من حولنا ، هالنا الأمر، وأدركنا سمو الإسلام عليها جميعا وعظمته ، فالشيوعية مثلا وهى التى تدعى أنها دعوة للسلام ، تؤمن بالحرب وتدعو إليها ، وتقضى على السلم العالمى ، بإنشائها وتشجيعها للشيوعية الدولية (الكومنترن) التى تحدد أهدافها فى نشر الشيوعية فى العالم ، وتحويل العمال فيه إلى شيوعيين ، وإثارة الاضطرابات والقلاقل السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية فى الدول تمهيدا لثورة الطبقة العاملة وسيادة الشيوعية ، وإذا كانت هذه الشيوعية الدولية قد ألغيت عام ١٩٤٣ تقربا للغرب والديمقراطيات . فقد حل محلها مكتب الاستعلام الشيوعى (الكومنفورم) ، وموسكو وإن تظاهرت بحل الدولية الشيوعية لا تزال توجه الحركات الشيوعية فى جميع أنحاء العالم[١] ، ولا يترك ستالين فى كتابه (مشاكل اللينينية) أثرا للشك فى اعتقاده الذى لا يتزعزع فى أن من حق روسيا بل من واجبها المقدس أن تستخدم القوة فى إشعال نار الثورة فى البلاد الأجنبية إذا ما لاحت الفرصة لإشعالها ، وجاء فى مقدمة الكتاب : إن دراسة تاريخ الحرب لتقوى الاعتقاد فى النصر النهائى للهدف الجليل الذى عمل له لينين وستالين وهو انتصار الشيوعية فى العالم كله[٢] .. وهذه الأفكار

---

(١) ٦٤٢ آثرت الحرية لكرافتشنكو

(٢) ٦٤٧ المرجع السابق

كلها تهدم صرح السلام العالمى ، وتناقض ما يؤمن به الإسلام ويدعو اليه ، والإسلام يحرم أن توجد علاقات دولية قائمة على غير المحبة والتعاون الإنسانى ، ويحارب بذر الشقاق بين الأمم ، ويعادى اللصوصية المستترة ، والجاسوسية المتخفية ، والتمرد على النظام العام فى الجماعات والشعوب .

فأين هذا السمو الإلهى الإسلامى فى الفلسفات القديمة والحديثة على السواء ؟ لقد كان أرسطو وأفلاطون يقرران أن العلاقة بين الدول هى علاقة العداء والمنافسة ، ويقرر أرسطو أن غير اليونانيين أعداء خارجون على القانون ، وإخضاعهم واجب سياسى ، فأين هذا من سماحة الإسلام وجلال مبادئه وأهدافه ؟ . يقول الله تعالى فى هذه الآيات الثلاث الكريمة « وإن جنحوا » أى مالوا « للسلم فاجنح » أى مل « لها » وعاهدهم ، وتأنيث الضمير فى لها لحمل السلم مع أنه مذكر على ضده وهو الحرب ، قال الشاعر :

السلم تأخذ منها مارضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها الجزع

فأنث ضمير السلم فى تأخذ حملا على ضده وهو الحرب ، وعن ابن عباس : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله » ، وعن مجاهد بقوله تعالى « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » ، وقال غيرهما : الصحيح أن الأمر موقوف على مايرى فيه الإمام صلاح الإسلام ، وأهله من حرب أو سلم ، وليس بحتم أن يقاتلوا أبدا ويجابوا إلى الهدنة أبدا ، وهذا ظاهر ، والسلم بكسر السين ، وقرىء بالفتح « وتوكل على الله » أى فوض أمرك إليه فيما عقدته معهم ليكون عونا لك فى جميع أحوالك « إنه هو السميع » لأقوالهم فهو يسمع لأقوالهم كل ما أبرموه فى ذلك وفى غيره كما يسمعه علانية « العليم » بنياتهم فهو يعلم كل ما أخفوه ، كما أنه يعلم كل ما أعلنوه « وإن يريدوا » أى الكفار « أن يخدعوك » أى بإظهار الصلح ليستعدوا لك « فإن حسبك » أى كافيك « الله هو الذى أيدك بنصره » فى سائر أيامك ، وإن أمر النبى صلى الله عليه وسلم من أول حياته إلى وقت وفاته كان أمرا إلهيا وتدبيرا علويا ،

وما كان لكسب الخلق فيه مدخل «و» أيدك « بالمؤمنين » أى الأنصار ، وإذا كان الله تعالى مؤيده بنصره فأى حاجة مع نصره تعالى إلى المؤمنين ؟ الجواب على ذلك أن التأييد ليس إلا من الله تعالى دائما لكنه على قسمين: أحدهما مايحصل من غير واسطة أسباب معلومة معتادة ، والثانى مايحصل بذلك ، فالأول هو المراد من قوله تعالى (أيدك بنصره) والثانى هو المراد من قوله تعالى (وبالمؤمنين) والله تعالى هو مسبب الأسباب وهو الذى أقامهم بنصره ، ثم بين تعالى كيف أيده بالمؤمنين بقوله تعالى « وألف » أى جمع « بين قلوبهم » وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى قوم أنفتهم شديدة ، وحميتهم عظيمة ، حتى لو أن الرجل من قبيلة لطم لطمة واحدة قاتلت عنه قبيلته حتى يدركوا ثأره ، ثم إنهم انقلبوا عن تلك الحالة حتى قاتل الرجل أباه وأخاه وابنه ، واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصارا ، فإزالة تلك العداوة الشديدة وتبديلها بالمحبة القوية مما لايقدر عليها إلا الله تعالى ، وصارت تلك معجزة ظاهرة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال تعالى « لو أنفقت مافى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم » أى تناهت عداوتهم إلى حد لو أنفق فى إصلاح ذات بينهم مافى الأرض من الأموال لم يقدر على الألفة والصلاح بينهم « ولكن الله ألف بينهم » بقدرته البالغة ؛ فإنه تعالى المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء « إنه » أى الله تعالى « عزيز » أى غالب على أمره لاينفذ فى ملكه إلا مايريد «حكيم» لايخرج شىء عن حكمته ، وقيل: الآية فى الأوس والخزرج كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك سادتهم ورؤساءهم، فأنساهم الله ذلك وألف بين قلوبهم بالإسلام حتى تصادقوا وصاروا أنصارا ، وما ذاك إلا بلطف صنعته وبليغ قدرته .

٦٤ — يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

٦٥ — يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم

مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ .

٦٦ — الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

فى هذه الآيات الثلاث زيادة للروح المعنوية فى نفوس المؤمنين ، ورفع للقوة الروحية ، وتحميس لهم ، وبعث لأرواحهم ونفوسهم وقلوبهم للعمل من أجل الإسلام وخدمته ونشره فى الآفاق .. فالآية الأولى مضمونها أن نصرة الله والتفاف المؤمنين حول الرسول فيه الكفاية كل الكفاية ، وهما سبب النصر بإذن الله ، والآية الثانية والثالثة يدلان على أن القوة المعنوية العالية عند المسلمين تغنى عن الكثرة فى العدد وفى العدد .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الثلاث الكريمة . . « يا أيها النبى حسبك ، أى كافيك « الله » فهو وحده ولى المؤمنين ، ونصير المخلصين .. وليس هذا مكرراً ، لأنه تعالى لما وعده بالنصر عند مخادعة الأعداء وعده بالنصر والظفر فى هذه الآية مطلقا على جميع الأحوال ، فلا يلزم حصول التكرار ، لأن المعنى فى الآية الأولى إن أرادوا خداعك كفاك الله تعالى أمرهم ، والمعنى فى هذه الآية عام فى كل ما يحتاج إليه فى الدين ، وقوله تعالى « ومن اتبعك من المؤمنين » المعنى : كفاك الله ، وكفاك المؤمنون . . وهذه الآية نزلت بالبيداء فى غزوة بدر قبل القتال ، وعن سعيد بن جبير : أسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر ، فتم الله به الأربعين فنزلت هذه الآية « يا أيها النبى حرض المؤمنين » أى حثهم « على القتال » للكفار ، والتحريض فى اللغة كالتحضيض ، وهو الحث على الشىء « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » منهم « وإن يكن منكم مائة » صابرة « يغلبوا

ألفا من الذين كفروا » وهذا خبر بمعنى الأمر ، أى ليقاتل العشرون منكم المائتين ، والمائة الألف فالمسلم بعشرة أمثاله ، وذلك يوحى بالصبر ، ويدل على وجوب تدريب المسلمين على شئون الحرب وإعدادهم لخوض المعارك ، وتكوين جيش منظم ضخم مسلم مستعد لسحق الأعداء. ذلك «بأنهم» أى بسبب أنهم « قوم لا يفقهون » أى جهلة بالله تعالى واليوم الآخر فلا يقاتلون لطلب ثواب وخوف عقاب ، إنما يقاتلون حمية فإذا صدقتموهم فى القتال لا يثبتون معكم ، وكان هذا يوم بدر ؛ فرض الله تعالى على الرجل الواحد من المسلمين قتال عشرة من الكافرين فثقلت على المؤمنين ، قال عطاء عن ابن عباس : لما نزل التكليف بهذه الآية صاح المهاجرون ، وقالوا : يارب نحن جياع وعدونا يجد الطعام والشراب ، ونحن فى غربة وعدونا فى أهليهم ، ونحن قد أخرجنا من ديارنا وأموالنا وعدونا ليس كذلك ، فنسخها الله تعالى بقوله : « الآن خفف الله عنكم » أيها المؤمنون « وعلم أن فيكم ضعفا » أى فى قتال الواحد للعشرة « فإن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين » منهم « وإن يكن منكم ألفا يغلبوا ألفين » منهم « بإذن الله » أى بإرادته فردوا من العشرة إلى اثنين ، وقال عكرمة : إنما امر الرجل أن يصبر لعشرة والعشرة لمائة عندما كان المسلمون قليلين. فلما كثروا خفف الله تعالى عنهم ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أيما رجل فر من ثلاثة فلم يفر فإن فر من اثنين فقد فر « والله مع الصابرين » بالنصر والمعونة فكيف لا يغلبون ؟

٦٧ — مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

٦٨ — لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

٦٩ — فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

٧٠ — يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٧١ — وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

هذه الآيات الخمس (٦٧ — ٧١) فيها بيان لطريقة معاملة الرسول للأسرى فى معركة بدر ، وعتاب له صلى الله عليه وسلم ، لرأفته بالمشركين وإبقائه عليهم ، وتحليل للغنائم وإباحة لأخذها والانتفاع بها، وعبر عن الانتفاع بالأكل للمبالغة ، وفيها مواساة للأخيار من الأسرى ، وتهديد للخائنين منهم .. ويقول بعض الكتاب ـ فى غزوة بدر خاصة : كان للأسرى قصة لم تتكرر فى الحروب الإسلامية ؛ فقد كانت أول غزوة فى الإسلام ، وما كان المسلمون حتى وقتها قد اشتد بأسهم ، وتمت لهم القوة والسيادة . . ومن ثم لم يكن ينبغى أن يأسروا أحداً من المشركين ، بل كان واجبا أن يقتلوا كل من يقع فى أيديهم ... حتى إذا قوى بأسهم واشتد أمرهم ، وعظم شأنهم فى الأرض ، أصبح من حقهم أن يأسروا ، حيث يمنون على الأسرى أو يقبلون منهم الفداء ! . . « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » : أى ما كان من شأن الأنبياء فى حروبهم أن يأسروا عدوا ، إلا بعد أن يعظم شأنهم فى الأرض ، فلا يكون اتخاذ الأسرى سببا فى ضعفهم وقوة أعدائهم . . وقد ذكر معظم المفسرين أن معنى الإثخان فى الأرض المبالغة فى القتل ، ولكن مجاهدا يرى أن هذا تفسير بالسبب لا بمدلول اللفظ ... على أن للإثخان فى الأرض — أى للتمكن والقوة وعظمة السلطان فيها — سببين لا سببا

واحدا : أحدهما الاستعداد التام للقتال ، وهو الذى يرهب الأعداء ، والثانى تقتيل الأعداء فى الحروب ، وهو الذى يمكن للمنتصر فى الأرض .. ولكن الإسراف فى التقتيل قد يكون عاملا على جمع كلمة الأعداء واستبسالهم ، ومن أجل هذا — ومن أجل أن لقوة المسلمين سببا آخر هو الاستعداد الكامل — قال الله تعالى : « حتى يثخن فى الأرض » ، ولم يقل حتى يثخن فى القتل ! ..
روى أنه صلى الله عليه وسلم أتى يوم بدر بسبعين أسيراً ، فيهم العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم وعقيل بن أبى طالب ، فاستشار فيهم ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : قومك وأهلك ، استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم الفدية تقو بها أصحابك ، فقال عمر رضى الله عنه : كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم ، فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وإن الله تعالى أغناك عن الفداء : مكن عليا من عقيل ، وحمزة من العباس ، ومكنى من فلان — وهو نسيب لهم — فنضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ، ثم اضرم عليهم نارا ، فقال له العباس : قطعت رحمك ؛ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يجبهم ، ثم دخل فقال ناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال ناس : يأخذ بقول ابن رواحة ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن الله لين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال : « فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم » ومثل عيسى فى قوله « وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ، ومثلك يا عمر مثل نوح قال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ، ومثل موسى حيث قال « ربنا اطمس على أموالهم » ، ثم قال الرسول لعمر : يا أبا حفص ـ وكان ذلك أول ما كناه ـ أتأمرنى أن أقتل العباس ؟ فجعل عمر يقول : ويل عمر ثكلته أمه ، ثم قال لأصحابه : أنتم اليوم عالة ولا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق » فقال ابن مسعود : إلا سهيل بن عمر فإنى سمعته يذكر الإسلام ، فسكت رسول

الله صلى الله عليه وسلم واشتد حزنى ، فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع على الحجارة من السماء من ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلا سهيل وعبيدة ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فديتموهم ، فقالوا : بلى نأخذ الفداء ، وكان فداء الأسارى أربعين درهما ، وقال قتادة : كان الفداء يومئذ لكل أسير أربعة آلاف ، قال عمر : فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه يبكيان ، قلت : يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد تباكيت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبكى أصحابك فى أخذ الفداء ، ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة ؛ يشير إلى شجرة قريبة منه « تريدون » أيها المؤمنون « عرض الدنيا » بأخذ الفداء من المشركين « والله يريد الآخرة » وإنما سمى منافع الدنيا عرضا لأنها لاثبات لها ولادوام ، فكأنها تعرض ثم تزول بخلاف منافع الآخرة « والله عزيز » لايقهر ولا يغلب « حكيم » أى لايصدر منه فعل إلا وهو فى غاية الإتقان ، قال ابن عباس : كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى فى الأسرى : « فإما منا بعد وإما فداء » ، فجعل نبيه والمؤمنين فى أمر الأسرى بالخيار : إن شاءوا قتلوهم وإن شاءوا فادوهم وإن شاءوا أعتقوهم ، فهذه الآية نسخت تلك ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : كانت الغنائم حراما على الأنبياء والأمم ، وكانوا إذا أصابوا مغنما جعلوه للقربان ، وكانت تنزل صاعقة من السماء فتأكله ، فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون فى الغنائم وأخذ الفداء ، فأنزل الله تعالى « لولا كتاب من الله سبق » أى لولا قضاء سبق فى اللوح المحفوظ بأن يحل لكم الغنائم « لمسكم » أى لنالكم « فيما أخذتم » أى من الفداء « عذاب عظيم » وقال الحسن ومجاهد : لولا كتاب من الله سبق أنه لايعذب أحدا ممن شهد بدرا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، قال ابن إسحق : لم يكن من المسلمين أحد إلا أحب الغنائم إلا عمر ، فإنه أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الأسرى ، وسعد

فقال ابن معاذ قد : يا رسول الله كان الإثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال، فقال صلى الله عليه وسلم: لو نزل من السماء عذاب مانجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ ، وروى : لما نزلت هذه الآية كف رسول الله صلى الله عليه وسلم أيديهم أن يأخذوا من الفداء « فكلوا مما غنمتم » أى من الفداء فإنه من جملة الغنائم ، « حلالا طيبا » فأحل الله الغنائم بهذه الآية لهذه الأمة ، وقال صلى الله عليه وسلم : أحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : لم تحل الغنائم لأحد قبلنا ثم أحل لنا الغنائم ، ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا ، والفاء فى قوله تعالى (فكلوا) للسبب ، والسبب محذوف تقديره : أبحت لكم الغنائم فكلوا ، وفائدة (حلال) إزاحة ما وقع فى نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة ، ولذلك وصفه بقوله (طيبا) ؛ « واتقوا الله » فى مخالفته « إن الله غفور » غفر ذنوبكم « رحيم » أباح لكم ما أخذتم ؛ وقوله تعالى (واتقوا الله) إشارة إلى المستقبل وقوله تعالى « إن الله غفور رحيم) إشارة إلى الحال الماضية . ولما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الفداء من الأسرى وشق أخذ أموالهم منهم ذكر الله تعالى هذه الآية مواساة ، فقال عز من قائل « يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا » أى خلوص إيمان وصحة نية « يؤتكم خيرا مما أخذ منكم » من الفداء ،قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : نزلت فى العباس وعقيل ابن أبى طالب ونوفل بن الحارث ، كان العباس أسيرا يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس ، فكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر ، فلم تبلغه التوبة حتى أسر ، فقال العباس : كنت مسلما إلا أنهم ألزمونى ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن تكن ما تذكره حقا فالله يجزيك، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، قال العباس : وكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عن ذلك الذهب لى فقال : أما شىء خرجت به تستعين به علينا فلا ، قال : فكلفنى فداء ابن أخى عقيل بن أبى طالب عشرين أوقية ، وفدى نوفل بن الحارث ، فقال العباس : تركتنى يا محمد أتكفف قريشا ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها : ما أدرى ما يصيبنى فإن حدث بى حادث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل ، فقال العباس : أنا أشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وانك عبده ورسوله ، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ، ولقد دفعت إليها فى سواد الليل، ولقد كنت مرتابا فى أمرك، فأما إذ أخبرتنى بذلك فلا ريب ، قال العباس : فابدلنى الله خيرا من ذلك وأعطانى زمزم ما أحب أن لى بها جميع أموال مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربى ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفا فتوضأ لصلاة الظهر ، ما صلى حتى فرقه ، وأمر العباس أن يأخذ منه فأخذ ما قدر على حمله وكان يقول : هذا خير مما أخذ منى وانا أرجو المغفرة « ويغفر لكم والله غفور رحيم » اختلف المفسرون فى أن الآية نزلت فى العباس خاصة أو فيه وفى غيره ، فقال البعض : إنها نزلت فى الجميع ، قال الرازى : وهذا أولى لأن ظاهر الآية يقتضى العموم من ستة أوجه :

أحدها : قوله تعالى « قل لمن فى أيديكم » .

ثانيها : قوله تعالى « من الأسرى » .

ثالثها : قوله تعالى « إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا » .

رابعها : قوله تعالى « يؤتكم خيرا » .

خامسها : قوله تعالى « مما أخذ منكم » .

سادسها : قوله تعالى « ويغفر لكم » .

فدلت هذه الألفاظ الستة على العموم ، فما الموجب للتخصيص ؟ وأقصى ما فى الباب أن يقال: سبب نزول هذه الآية هو العباس إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب « وإن يريدوا » اى الأسرى « خيانتك » اى بما أظهروا من القول « فقد خانوا الله » بالكفر ونقض ميثاقه المأخوذ بالعهد « من قبل » أى قبل بدر « فأمكن منهم » ببدر قتلا وأسرا فليتوقعوا مثل ذلك

إن عادوا « والله عليم حكيم » اى بالغ الحكمة فهو يوهن كيدهم ويفل عزمهم . ويروى أن المراد بذلك هو أبو عزة الجمحى ، فإنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم فى المن عليه بغير شىء لفقره ثم خان، فظفر به فى غزوة حمراء الأسد عقب يوم أحد أسيرا فاعتذر له ، وسأله فى العفو عنه فقال : (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين) ولم يعف عنه .

٧٢ — إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُولَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

٧٣ — وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ .

٧٤ — وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

٧٥ — وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

فى هذه الايات الأربع بيان للصلات بين المهاجرين والأنصار وولاية[1] المؤمنين بعضهم بعضا من مهاجرين أولين وأنصار، ومهاجرين بعد الحديبية، ومؤمنين فى دار الكفر . . . ثم ولاية الكفار بعضهم لبعض . . . والمراد بالولاية هنا ـ التعاون فى شئون الحياة، والتناصر فى القتال؛ لاشتراك الحقوق والمرافق والمصالح، حتى ليرث الولى وليه إن لم يكن له وراث، ويكفيه إذا كان محتاجا ويغيثه حين يضطرب . . لا الولاية بولاية الإرث؛ لأن المسلمين كانوا يتوارثون فى أول الأمر بالإسلام والهجرة دون القرابة . وذلك أن السورة التى نزلت فى بدر ـ كما قال ابن عباس وغيره ـ قد عالجت شئون الحرب والسلم، فكان من الطبيعى أن تعالج علاقة المسلمين بعضهم ببعض، وعلاقتهم بالكفار فى الحرب والسلم على السواء، ويقتضى هذا بطبيعة الحال أن تكون الولاية هنا عامة، ليست مقصورة على حكم مدنى جزئى، من أحكام الأموال فقط . ولقد تحدثت عن المؤمنين بأنواعهم الأربعة، فوصفت ثلاثة منها بخير ما فى كل منها، ليترتب على هذه الأوصاف إثبات الولاية له، وما نحسب هذه الولاية هى ولاية الميراث فقط بأى حال، فإن ولاية الميراث لا يحتاج إثباتها إلى كل هذا ؟ . . وأنذرت الآيات المؤمنين إن لم يكن بعضهم أولياء بعض بوقوع الفتنة والفساد الكبير فى الأرض، وهو إنذار بشىء لا يترتب على عدم التوارث بحال ؟ إذ المال فى ذلك الوقت لم يكن شيئا ذا بال بجانب العقيدة، فما كان اختلال نظام التوارث فيه ليحدث فتنة فى الأرض، ويسبب فسادا كبيرا ! . .

وفى الحديث عن النوع الثالث من المؤمنين ـ وهم المؤمنون الذين لم يهاجروا ـ قررت الآيات أنه ليس للمؤمنين من المهاجرين والأنصار شىء من ولايتهم، وأن على هؤلاء المؤمنين أنفسهم أن ينصروهم فى الدين إذا طلبوا منهم ذلك، ضد قوم ليس بين المؤمنين وبينهم ميثاق . . . فجعلت لهم على المهاجرين والأنصار حقا ليس لهؤلاء وأولئك عليهم، وعبرت عن هذا الحق بصورتين هما الولاية والنصرة، فهما إذن شىء واحد، والولاية عامة إذن لا خاصة ! . .

---

(١) ١٦٢ تفسير سورة الأنفال

أما ولاية أولى الأرحام بعضهم لبعض ، فهى ولاية منشؤها الفطرة السليمة ، وفى تقرير هذه الولاية تقول الآية : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » ؛ فكل قريب ولى لقريبه إذن ، ولكن على أن يكونا مؤمنين فى دار الإسلام ؛ لأن ذلك هو ما يقتضيه السياق ويستلزمه !.. نعم إن المؤمنين فى دار الإسلام متناصرون متعاونون ، فهم أولياء دون قرابة ، وهذا هو ما تقرره الآيات من قبل .. لكنهم أكثر تناصرا وتعاونا عندما يكونون أقارب ؛ يجمعهم رحم واحد ، وتربط بعضهم ببعض - إلى صلة الإيمان — صلة الرحم ، وهذا هو ما يشعر به (التفضيل) هنا ! .. إن صلة الرحم والبر بهم والشعور بأنهم أولى من سواهم بهذا البر وهذه الصلة — أمر توجبه الفطرة ، وقد تحتمه الغريزة .. ثم هو (فى كتاب الله) أى فى حكمه الذى كتبه على عباده المؤمنين ، وأكده عندما قال فى كتابه الحكيم فى سورة النساء : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام !.. وأخيراً يختم الله سورة الأنفال فيقول : « إن الله بكل شىء عليم » وإنه لواسع العلم ، عظيم الإحاطة بكل شئون المؤمنين والكفار ، فليعلم المؤمنون والكفار ذلك ، وليحسبوا حسابه .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الأربع الكريمة :

« إن الذين آمنوا » أى بالله ورسوله « وهاجروا » أى من بلاد الشرك وهم المهاجرون الأولون هجروا أوطانهم وعشائرهم وأحبابهم ، حبا لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم « وجاهدوا » أعداء الإسلام « بأموالهم » مهما كانت قليلة « وأنفسهم » بإقدامهم على القتال مع شدة الأعداء وكثرتهم ، وقدم المال لأنه سبب قيام النفس « فى سبيل الله » أى فى سبيل إعزاز دين الله ونشره والتمكين له والدفاع عن الرسول « والذين آووا » أى من هاجر إليهم من النبى وأصحابه ، فأسكنوهم فى ديارهم وقسموا لهم من أموالهم وعرضوا عليهم أن ينزلوا لهم عن بعض نسائهم ليتزوجوهن ؛ وهم الأنصار « ونصروا » أى الله ورسوله والمؤمنين ، نالوا هذين الوصفين الشريفين فكانوا فى الذروة من المجد فى الدنيا والآخرة ، وإن كان المهاجرون الأولون

أعلى منهم لسبقهم فى الإيمان الذى هو أس الفضائل ولحملهم الأذى من الكفار زمانا طويلا ، وصبرهم على فرقة الأهل والأوطان « أولئك » أى المهاجرون والأنصار « بعضهم أولياء بعض » أى دون أقاربهم من الكفار ، وقد نزلت فى الميراث . فكانوا يتوارثون بالهجرة، فكان المهاجرون والأنصار يتوارثون دون ذوى الأرحام حتى إذا كان فتح مكة انقطعت الهجرة، وتوارث ذوو الأرحام حيث كانوا ، وصار ذلك منسوخا بقوله تعالى « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » والذين آمنوا ولم يهاجروا » أى امنوا وأقاموا بمكة « مالكم من ولايتهم من شىء » أى فلا إرث بينكم وبينهم ولا نصيب لهم فى الغنيمة « حتى يهاجروا » أى إلى المدينة « وإن استنصروكم فى الدين » ولم يهاجروا « فعليكم النصر » أى فيجب عليكم أن ينصروكم على المشركين « إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » أى عهد فلا تنصروهم عليهم وتنقضوا عهدكم « والله بما تعملون بصير » فى ذلك ترغيب فى العمل بما حث عليه فى الإيمان والهجرة وغير ذلك مما تقدم .. وفيه أيضا ترهيب من العمل بأضدادها « والذين كفروا بعضهم أولياء بعض » أى فى النصرة لأن كفار قريش كانوا يخاصمون اليهود . فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاونوا عليه جميعا .. وبعضهم أولياء بعض كذلك فى الميراث ، فيرث بعضهم بعضا ولا إرث بينكم وبينهم « إلا تفعلوه » أى ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم لبعض حتى فى الميراث . وقطع العلائق بينكم وبين الكفار « تكن » أى تحصل « فتنة » أى عظيمة « فى الأرض » بضعف الإيمان وقوة الكفر « وفساد كبير » فى الدين ، ولما تقدمت أنواع المؤمنين: المهاجر والناصر والقاعد ، وذكر أحكام موالاتهم ، أخذ يبين تفاوتهم فى الفضل بقوله تعالى : « والذين آمنوا » أى بالله ورسوله وما أتى به « وهاجروا » فى الله « وجاهدوا فى سبيل الله » بما تقدم من المال والنفس وغيرهما فبذلوا الجهد فى إذلال الكفار « والذين آووا » أى من هاجر إليهم « ونصروا » ى حزب الله « أولئك هم المؤمنون » أى الكاملون فى الإيمان « حقا » أى لأنهم حققوا إيمانهم بتحقيق مقتضاه

من الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق ، ثم وعدهم الله عز وجل وعدا كريما بقوله تعالى « لهم مغفرة » أى لزلاتهم وهفواتهم ، ولما ذكر تطهيرهم بالمغفرة ذكر تزكيتهم بالرحمة بقوله تعالى « ورزق » أى من الغنائم وغيرها فى الدنيا والآخرة « كريم » أى لا تبعة ولا منة منه ، ثم ألحق بهم فى الأمرين من استلحق بهم ويتسم بسمتهم بقوله تعالى: « والذين آمنوا من بعد » أى بعد السابقين إلى الإيمان والهجرة « وهاجروا » أى لاحقين السابقين ، وعن ابن عباس رضى الله عنهم أنهم من هاجر بعد الحديبية ، قال : وهى الهجرة الثانية « وجاهدوا معكم » أى من تجاهدونه من أعداء الإسلام ومن حزب الشيطان « فأولئك منكم » أى من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار فلهم مالكم وعليهم ماعليكم من المواريث والمغانم وغيرهما، لأن الوصف الجامع هو المدار للأحكام وإن تأخرت رتبتهم عنكم بما أفهمته أداة البعد « وأولو الأرحام » أى ذوو القرابات « بعضهم أولى ببعض » قال ابن العباس : كانوا يتوارثون بالهجرة والإخاء حتى نزلت هذه الآية ، فبين الله تعالى بها أن سبب القرابة أقوى وأولى من سبب الهجرة والإخاء ، ونسخ بها ذلك التوارث «فى كتاب الله» أى القرآن، وتمسك أصحاب أبى حنيفة رحمه الله بهذه الآية على توريث ذوى الأرحام ، وأجاب عنه الشافعى رحمه الله تعالى بأنه لما قال : (فى كتاب الله) ، كان معناه فى حكم الله الذى بينه فى سورة النساء ، فصارت هذه السورة مقيدة بالأحكام التى ذكرها فى سورة النساء فى قسمة المواريث وإعطاء أهل الفروض فروضهم وما بقى فللعصبات ، فوجب أن يكون المراد من هذا هو ذاك فقط فلا يتعدى إلى توريث ذوى الأرحام « إن الله بكل شىء عليم » أى إن هذه الأحكام التى ذكرتها وفصلتها كلها حكمة وثواب وصلاح ، وليس فيها شىء من العبث والباطل ، لأن العالم بجميع المعلومات لا يحكم إلا بالصواب ، ونظيره أن الملائكة لما قالوا « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » قال تعالى مجيبا لهم : «إنى أعلم مالا تعلمون» أى كما علمتم بكونى عالما بكل المعلومات، فاعلموا أن حكمى يكون منزها عن الغلط .. فكذلك ما هنا .

* * *

هـذه هى نهاية الربع الرابع والأخير من سورة الأنفال ، وقد تضمن من الأصول الكريمة الجليلة ما يلى :

١ — الدعوة إلى السلام ، والحرص عليه ، والإيمـان به ، والعمل من أجله . .

٢ — وعد الله عزوجل لرسوله الكريم بنصره نصرا مؤزرا على أعدائه وخصومه ، حتى يكون هذا معجزة من الله ، كما كان تأليف الله عز وجل لقلوب المسلمين — على الرغم من اختلافهم إلى عصبيات وأهواء وفرق متخالفة — معجزة كذلك .

٣ — تحميس المسلمين ، ودعوتهم إلى الصبر والجلد والثبات والإصرار فى قتال المشركين ، وأن يصمدوا فى المعارك حتى لو كان الواحد من المسلمين أمامه عشرة من المشركين ، فضلا عن أن يكون أمامه اثنان .

٤ — تصريف أمر الأسرى ، وبيان الوجوه التى يعاملهم الرسول صلى الله عليه وسلم بمقتضاها .

٥ — تحليل الأكل من الغنائم ، والانتفاع بها فى مختلف وجوه الانتفاع .

٦ — مواساة الأسرى الذين أخلصوا لله ووعدهم بتعويض الله الكامل لهم عما بذلوه من فداء ، وتهديد الخائنين منهم تهديداً شديداً .

٧ — بيان الولاية بين المؤمنين بعضهم والبعض الآخر ، وبين الكافرين بعضهم والبعض الآخر ، وبين أولى الأرحام .

وبذلك ينتهى الربع الأخير من هـذه السورة ، وتنتهى بانتهائه سورة الأنفال . . .

نظرة عامة فى سورة الأنفال

(١)

سورة الأنفال اشتملت على خمس وسبعين آية ، تقع فى أربعة أرباع أو نصف الجزء . وتنتظم أحكاما كثيرة وأصولا جليلة ، وقواعد عامة لبناء الدول وعمرانها وحضارتها ؛ كما تنتظم تحذيرا مما نزل بالأمم السابقة من عذاب ودمار ، ونصحا بالإقلاع عن الذنوب التى هى سبب غضب الله وعذابه .

(٢)

وقد رأينا فى الربع الأول من سورة الأنفال ، كيف تحدث الله عزوجل عن غنائم الحروب الإسلامية المشروعة للجهاد فى سبيل الله وفى سبيل دينه الحق ، وأنها لله ورسوله . . ويدعو الله عز وجل المؤمنين إلى التقوى وإصلاح ذات البين ، وإلى طاعة الله ورسوله . . ثم يصف القرآن الكريم المؤمنين بصفاتهم الحقيقية الجدير بهم أن يكونوا عليها ، والجديرة بهم أن يتبعوها ويتصفوا بها : من خشية الله ، ومن ازديادهم إيمانا كلما سمعوا كتاب الله ، ومن التوكل على الله حق التوكل ، ومن إقامة الصلاة ، وأداء الزكاة . . ووعدهم الله عزوجل بالمغفرة والرزق الكريم فى الدنيا والآخرة . ثم يتحدث الله عز وجل عن نصره للرسول وللمؤمنين فى بدر الكبرى ، وعن هزيمته للشرك والمشركين .. ويدعو إلى الثبات فى المعارك ، والصمود فى وجه شدائد الحروب . . ويدعو المؤمنين إلى طاعة الله ورسوله ، وإلى ترك الفرار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحروب والأزمات والشدائد .

وفى هذا الربع نداءان جليلان للمؤمنين ، فالنداء الأول هو « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار » ، وفى هذا أعظم النهى عن الفرار من ميدان المعركة ، وقوانين الدول الحديثة تجعل جزاء الفار من المعركة الإعدام فوراً دون تردد أو إبطاء .

والنداء الثانى هو قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون » أمر الله عز وجل بطاعة الله ورسوله ، وأمر بالوقوف معه فى المعركة ، وأمر بعدم الفرار .. وهذا كله من أعظم توجيهات القرآن الكريم فى شأن الحروب .

(٣)

أما الربع الثانى من هذه السورة ففيه يذكر الله عز وجل المشركين ويصفهم بالدواب ، وهم على الحقيقة شر منها ، لأنهم لا يسمعون الحق ولا يعتبرون به ، ولا يعملون به . ويدعو الله عز وجل المؤمنين إلى الاستجابة لله والرسول ، والرسول لا يدعوهم إلا لما يحييهم ، وإلى الحذر من الفتن التى لا تصيب الظالمين خاصة ، بل تؤثر على كيان الأمة عامة .. ويدعوهم الله عز وجل إلى التذكر بنعم الله عليهم ، إذ أيدهم بنصره وأعزهم وقد كانوا ضعفاء مستضعفين فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم .. كما ينهاهم عن خيانة الله وخيانة العهود والمواثيق . ويرشدهم إلى أن لا يغتروا بالأموال والأولاد ، فالأموال والأولاد قد تكون فتنة من الله ، والله عنده أجر عظيم . ثم يطلب الله عز وجل من المسلمين تقوى الله ، فتقوى الله الحقة تكون وقاية لهم وحاجزاً يمنعهم من الشر ، وفرقانا يفرق لهم بين الحق والباطل . وبها يكفر الله عنهم السيئات ، ويغفر لهم الذنوب .. ثم يذكر الله عز وجل رسوله بفضله عليه حين نصره وأعزه وحماه ومنعه من مكر المشركين وإيذائهم واضطهادهم وكفرهم برسالته ، ولجاجهم وعنادهم واستمرارهم على مقاومة دعوته ، ويذكر الله عز وجل المشركين وكيف كانوا يقابلون دعوة الإسلام بالسخرية والهزء ، وكيف كانوا ينفقون الأموال الطائلة فى سبيل مقاومة الإسلام والمسلمين ، ويحذرهم الله عز وجل من سوء المصير ، ويأمر الله عز وجل رسوله بقتالهم حتى يعودوا إلى الله وإلى الحق وإلى الدين المستقيم .

وفى هذا الربع ثلاثة نداءات جليلة من الله عز وجل للمؤمنين :

١ — يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم .

٢ — يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ، واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم.

٣ — يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم .

وهى كلها ذات مغزى جليل ، بل إن هذه النداءات هى أهم شعائر الإسلام وأصوله وأركانه وقواعده .

والأمر الجليل الذى اشتمل عليه هذا الربع هو الاستجابة لله وللرسول إذا دعا المسلمين لما يحييهم ، وهو أمر عظيم الأهمية ، كبير الخطر ، جليل الأثر . . فالله عز وجل يأمر المؤمنين برسالة محمد عليه السلام أن يستجيبوا لرسوله إذا دعاهم ، وإن الرسول ليدعو المؤمنين إلى ما يحييهم . فمن يرفض الدعوة إلى الحياة ؟ إنه يقول لهم : استجيبوا أيها الأحياء وأيها المؤمنون للرسول إذا يحييكم . وإذن فالحياة التى يدعوهم إلى ما يمنحهم إياها ليست هى الحياة التى يشاركهم فى الاتصاف بها الكفار والدواب . وهذا الذى يدعوهم إليه الرسول فيحييهم ليس هو الإيمان ، لأنهم لم يدعوا إليه إلا بسبب أنهم مؤمنون . ومع هذا لم يتفق المفسرون على معناه ، فتعددت أقوالهم فيه ، قيل : هو الجهاد فى سبيل الله ، إذ هو الذى يكفل للمؤمنين حياة القوة والعزة والسلطان ، وهو الذى يحمى هذه الحياة ويصونها بعد أن يظفروا بها . وقيل : بل هو القرآن ، إذ هو والسنة المبينة له وسيلة المؤمنين إلى الحياة ، وفيهما كل مقومات الحياة الحرة القوية الكريمة التى يدعو إليها الرسول . . وقيل : بل هو الإسلام والإيمان ، باعتبار ما كان يتجدد من الأحكام ، وثمرته فى القلوب والأعمال ، وباعتبار ما فى كلمة « استجيبوا » من قوة ومبالغة فى الإجابة . . وقيل : بل هو العلم بالله وسننه فى خلقه ، وبأحكام شرعه ، وبالحكمة والفضيلة والأعمال النبيلة التى تكمل بها الفطرة الإنسانية فى الدنيا ، وبها تستعد

للحياة الأبدية فى الآخرة .. وحقيقة يكفل الجهاد للمؤمنين حياة القوة والعزة، ولكن لم لا يكون الجهاد عملا من أعمال كثيرة أمرت الآية بها ؟ وكانت الأحكام تتجدد على عهد الرسول فيزداد المؤمنون بمعرفتها والعمل بها حياة ، ولكن الآية لا تخاطب المؤمنين على عهد الرسول وحدهم ! . . وإذن فالرسول يدعو إلى القرآن وبيانه من السنة ، وإلى العلم بالله وما يستلزمه هذا العلم من عمل وخلق ... وفى كلا هذين للمؤمنين حياة . لأن كليهما يغذى الروح ، ويهدى العقل ، ويوقظ الضمير ، ويقف نزوات النفس حيث ينبغى أن تقف ! . . إن المؤمن لا ينشد الحياة ، ولكنه ينشد شرف الحياة وسموها .. وهذه الغاية هى التى حرصت عليها ، ودعت إليها بقوة تعاليم الإسلام ومبادئه ، كما يقرها كتاب الله وتبينها سنة رسوله . فلنفزع إذن إلى كتاب الله كلما أحسسنا أن مادية الحياة تصدع رؤسنا ، ولتنهل من سنة رسوله كلما أضنتنا صحراء هذه المادية ورمت قلوبنا بالظمأ ! [1] .

وفى هذا الربع أصل جليل آخر ، هو نهى الله عز وجل للمسلمين عن الخيانة ، وعن فتنة الأموال والأولاد حتى يحذروها . . . والوفاء بالأمانة وعدم الافتتان بالمال والولد ، والله عز وجل إذ يحذر المسلمين من الخيانة ، ينهى عن خيانتهم لله والرسول ، وعن خيانتهم لأماناتهم . . . فما الأمانة التى يجب أداؤها لله ورسوله ؟ وما أماناتهم ؟ . . قيل : الأقرب أن خيانة الله غير خيانة رسوله ، وخيانة الرسول غير خيانة الأمانة ؛ ولقد فسرت الخيانة لله ورسوله بأنها تعطيلهم الفرائض والسنن ، أو إضمارهم غير ما يظهرون ، أو غلولهم فى الغنائم . وروى عن ابن عباس أنه قد فسر خيانة الله بترك فرائضه وارتكاب معصيته ، والأمانة بكل ماائتمن الله عليه العباد ... واعتمد كثير من المفسرين على ماروى من أسباب نزول الآية وهى كثيرة متضاربة : فهذا جابر يروى أن السبب هو أن رجلا من المنافقين كتب إلى أبى سفيان : إن

---

(١) ص ٩٠ تفسير سورة الأنفال .

محمداً يريدكم فخذوا حذركم . بعد أن أعلم الله رسوله بمكان أبي سفيان ، فأعلم به الرسول المؤمنين وأوصاهم بكتمانه . وهؤلاء عبدالله بن قتادة والزهرى والكلبي والسدى وعكرمة - يروون أن السبب هو حادثة أبي لبابة المشهورة ، مع بنى قريظة من اليهود . وهذا أبو بكر الأصم يحكى عن الزهرى والكلبي - أيضاً - أن السبب فى نزولها هو حاطب بن أبي بلتعة ؛ فقد كتب إلى أهله لما هم النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج إليهم . وسواء أصحت هذه الأسباب أم لم تصح - فإن السبب لا يقيد اللفظ العام بحال ، والله ينهى المؤمنين هنا عن خيانته : أى عن تعطيل فرائضه ، وتعدى حدوده ، وانتهاك محارمه التى بينها لهم فى كتابه . . وينهاهم عن خيانة الرسول : أى عن ترك سننه إلى غيرها والانصراف عن بيانه لكتاب الله إلى أهوائهم ، ومخالفة أمره إلى أوامر أمرائهم . وينهاهم عن خيانة أماناتهم فيما بينهم وبين أولياء أمورهم من الشئون السياسية والحربية ، وفيما بينهم بعضهم مع بعض من المعاملات : مالية واجتماعية وأدبية ؛ فقد ورد فى الحديث « المجالس بالأمانة » ، وروى « إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة » ، وأطلقت الأمانة فى الأحاديث على الطاعة ، والعبادة ، والوديعة ، والثقة . فكل مايجب حفظه من الحقوق المادية والمعنوية أمانة يجب على المؤمن الوفاء بها ، وعدم نقضها . ولقد روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » زاد مسلم « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ! » ، فهل يدرى أولئك الذين يخونون الأمانات أى جرم شنيع اقترفوا ؟ وفى أى مكان سحيق وضعوا أنفسهم[1] ؟ !

ونقول: إن الحديث الشريف : « كلكم راع ومسئول عن رعيته » يفسر الأمانة المرادة هنا تفسيرا واضحا .

والأصل الثالث من الأصول التى اشتمل عليها هذا الربع هو قوله تعالى :

---

(١) ج ٩٨ تفسير سورة الأنفال

« ياأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » .

فالله عز وجل يضع للمؤمنين هنا دستورا[١] شاملا لما يأمرهم به ، ولما سيمنحهم إياه إن هم أطاعوه .. أما الأوامر ، والنواهى ، وكل مايعبد به — فتجمعها كلمة (التقوى) .. وأما الجزاء على التقوى فتوجزه فى هذه الدار كلمة « الفرقان » ، ويجمله فى الدار الآخرة تكفير السيئات ، وغفران الذنوب ، وفضل الله العظيم ! . . ولقد أطلقت هنا مادة التقوى فلم تقيد ، وعممت كلمة (الفرقان) فلم تخصص ، وحيال هذا الإطلاق والتعميم لانجد بدا من الحديث عن الكلمتين : فأما التقوى — وهى من الوقاية — فقال العلماء : إنها عبارة عن ترك جميع الذنوب والمعاصى ، وفعل مايستطاع من الطاعات ، وقد أمر الله تعالى فى مواضع كثيرة من كتابه باتقائه ، وباتقاء النار ، وباتقاء الشرك والمعاصى ، وباتقاء الفتن العامة فى الدول والأمم ، وباتقاء الفشل والخذلان فى الحرب ، وباتقاء ظلم النساء — أى باتخاذ وقاية دون هذاكله — ثم بين أن العاقبة فى إرث الأرض للمتقين ، وأن الجنة فى الآخرة لهم كذلك ، ووعدهم بأن يجعل لهم مخرجا ، وبأن يرزقهم من حيث لايحتسبون ، وبأن يكفر عنهم سيئاتهم ويعظم أجورهم !.. وأما الفرقان فهو الحكمة التى قال فيها « ومن يؤت الحكمة فقدأوتى خيرا كثيرا » .. هو ملكة من العلم تمكن بوساطتها التفرقة بين الحق والباطل ، وبين الحجة والشبهة ، وهذه الملكة هى نور البصيرة .. أو هو النصر على النفس والهوى والشيطان ، وعلى كل عدو ، لأنه يفرق بين الذلة والعزة ، وبين العبودية والحرية ، وبين الضلال والهدى ، وبين المبطل والمحق ! . . وقد أطلق على أشهر الكتب الإلهية وهى التوراة والإنجيل والقرآن ، ثم غلب على القرآن ؛ لأن كلام الله تعالى يفرق فى العلم والاعتقاد بين الإيمان والكفر والحق والباطل ، وفى الأحكام بين العدل والجور ، وفى

---

(١) ص ١٠٢ تفسير سورة الأنفال .

الأعمال بين الصحيح والفاسد والخير والشر . كذلك أطلق على يوم بدر فى هذه السورة ؛ لأن هذا اليوم فصل بين عهدين : يعد الله من يتقيه بأن ينير بصيرته ، ويمنحه تلك الملكة التى تميز - فى كل شىء - بين ماينبغى ومالاينبغى. ثم يعده مع ذلك بأن يستر ذنوبه ، ويصفح عن عقابه عليها ، فلا يؤاخذه بها، إذ لاعصمة إلا للأنبياء .. ثم يعده ثالثا إذ يقول : « والله ذو الفضل العظيم». ومن أولى بهذا الفضل من مؤمن يتقيه ، فلا يقترف ذنبا ، ولا يخالف أمرا ؟ «يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله» فى كل مايجب أن يتق، بمقتضى دينه وشرعه ، وبمقتضى سننه فى نظام خلقه «يجعل لكم فرقانا» أى نورا فى قلوبكم تفرقون به بين الطيب والخبيث ، أو نصرا على أعدائكم يفرق بين المحق والمبطل، أومخرجا من الشبهات » « ويكفر عنكم سيئاتكم » بسترها فى الدنيا ، « ويغفر لكم » هذه السيئات وغيرها فى الآخرى ، « والله ذو الفضل العظيم » فلن يضن بشىء على من يتقيه ، وهو صاحب الفضل العظيم، إذ يجازى على التقوى بغفران الذنوب.

(٤)

أما الربع الثالث من سورة الأنفال ففيه يتحدث الله عز وجل عن الغنائم وطرق توزيعها : الخمس للقائد الأعلى رسول الله (أوخلفائه) ولمصالح الدولة بحيث تصرف على الفقراء واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والباقى يصرف للجيش الفاتح .. ثم يذكر الله عز وجل المؤمنين بفضله عليهم ، ونصره لهم ، وإعزازه إياهم ، والمحنة شديدة ، والأزمة طاحنة ، والأعداء والمشركون فى بدر يحيطون بالمسلمين من كل جانب ؛ ويفيض القرآن الكريم فى وصف ما أمد الله عز وجل به المسلمين من قوة معنوية فى الحرب ، ومن تثبيت لهم فى الحروب ، ومن إمداد روحى لهم بالعون والنصر .. وينادى الله عز وجل المؤمنين بالثبات فى المعركة ، والصمود فى النزال ، وبأن تكون عامرة بذكر الله والسيوف متشابكة ، والصفوف متقابلة ، وأن يستمروا على طاعة الله ورسوله ، ويكون أمرهم فى الحرب الاتفاق والوحدة والتعاون والتناصر ، بل وفى غير الحرب أيضا ، وينهاهم عن التنازع والفشل والاختلاف

على قائدهم لأن ذلك من أسباب الهزيمة .. ويأمرهم كذلك بالصبر فى القتال ، فالله عز وجل ، عونه وتأييده مع الصابرين .. نداء كريم اشتمل على أصول جليلة لازمة لبناء الأمة الإسلامية : من الثبات فى المعارك ، ومن ذكر الله فى الأزمات ، ومن طاعة الله ورسوله فى الحرب وفى السلم أيضاً ، ومن النهى عن التنازع والاختلاف والفرقة ، لأن ذلك من أسباب الفشل والهزيمة ، ومن أمر بالصبر ؛ فالله مع الصابرين . . نداء إلهى وما أرفعه من نداء ، وتوجيهات سماوية وما أكرمها من توجيهات . لوحاولنا الحديث فيها وشرحها لأخذ منا ذلك عشرات الصفحات .

ثم ينهى الله عز وجل المؤمنين عن أن يتشبهوا بالمشركين فى البطر والرياء والغرور والصد عن سبيل الله ، ويتحدث حديثا طويلا عن المشركين والمنافقين وموقف هؤلاء وهؤلاء ، فى بدر ، وعن جزائهم فى الآخرة عند الله وعقابه الشديد فى النار حيث عذاب الحريق ، بما قدمت أيديهم ، وبما جنوا على أنفسهم ، وبما عرضوا له حاضرهم ومستقبلهم من غضب الله وسخطه . . حيث قاوموا الإسلام ورسوله الكريم مقاومة طاغية باغية . . ثم يقرن الله عز وجل بين المشركين وبين الفراعنة والأمم القديمة البائدة كعاد وثمود وأهل مدين ، إذ أهلك الله المشركين فى بدر ، وأهلك فرعون وقومه فى اليم ، كما أهلك عادا وثمود وأهل مدين وغيرهم من الأمم التى كفرت برسالات الله ، وخرجت على رسل الله ، وأعلنت الحرب على التوحيد . . وهنا يبين الله عز وجل أن هذه الأمم تستحق ما نزل بها ، وأن الله عز وجل لم يكن ليهلك أمة إلا إذا خرجت عن أمر الله ونواميسه وشرائعه ، وأنه تعالى لم يكن مغيرا نعمة أنعمها على شعب من الشعوب فيحل مكانها الجدب والفقر ، حتى يغير هذا الشعب ما بنفسه من صلاح وطاعة وامتثال واستعداد للإيمان ، فيقاوم الرسل والرسالات ، ويصد عن سبيل الله والدين الحق ، وأن الله لا يهلك الأمم إلا بسبب ذنوبها ومعاصيها وكفرها وخروجها على أمر الله .. وقد حدث ذلك لآل فرعون كما حدث للأمم من قبل ، أهلك آل

فرعون غرقا ، وكان فى مصرع فرعون ومصرعهم عبرة ماثلة للناس فى كل مكان لو اعتبروا . . وقد كرر الله عز وجل ذكر مصرع آل فرعون ، وذلك لسبب ملحوظ هو أنه عز وجل ذكر فرعون وآله مع بقية الأمم التى كفرت برسالات الله فأهلكهم الله . . ولما كان أمر فرعون وقومه وحادث إغراقهم فى اليم أمرا عجيبا ، ولما كان عبرة للمعتبرين ، ولما كان معجزة ضخمة دالة على قدرة الله وعظمته أعاد ذكر آل فرعون ، كذبوا بآيات الله وكذبوا موسى نبى الله ؛ فأهلكهم الله بذنوبهم وأغرق فرعون وآله ، وكلا كانوا ظالمين . .

ثم يشبه الله عز وجل المشركين بالدواب التى لا تعى شيئاً ، ولا تفهم أمرا ، ولا تعقل قليلا ولا كثيرا ؛ كفروا ، ونقضوا العهد ، فجزاؤهم التشريد فى الحرب على يدى محمد وأصحابه ، وفى الآخرة لهم عذاب شديد .

ويذكر الله عز وجل العهود التى بين الرسول وغيره ، وأنه إذا خاف من قوم خيانة كان له أن ينبذ العهود التى بينه وبينهم ، فالله لا يحب الخائنين ، وهم ليسوا بمعجزى الله ورسوله . . ويأمر الله عز وجل المؤمنين بالاستعداد الحربى الدائم لملاقاة خصوم الإسلام وأعدائه ، ولتوقيع الهزيمة بهم فى كل مكان ، وأن ينفقوا فى سبيل التسليح وتقوية الجيش كل ما يستطيعون ، وسوف يخلف الله عليهم أكثر مما أنفقوا ، ومما كانوا ينفقون .

(٥)

والربع الرابع تضمن كذلك أصولا جليلة أهمها :

ا — الدعوة إلى السلام وحث المسلمين عليه وإلزامهم به .

ب — الثقة بنصر الله للمؤمنين الصادقين ، فالله دائما مع المخلصين العاملين المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

حـ — التذكير بنعمة الله على المسلمين حين أيدهم بنصره ، وحين جمع قلوب المسلمين فى وحدة واحدة ، وتآلف تام ، واتفاق كامل . . فوحدة المسلمين التى تمت فى عهد الرسول بين قبائل متعادية متخاصمة كان أمرها عجيبا

كل العجب ، ولو كانت استجابة طبيعية لمنطق الأشياء لما تمت إطلاقا ، لأنه لم يكن هناك ما يبررها ، إنما كانت معجزة من الله لا تحدث إلا بعونه ورعايته .

ى — تثبيت قلوب المؤمنين فى المعارك والحروب من أجل الإسلام والرسالة والرسول ، وفرض صمود المسلمين مهما كانوا قلة لأعداء الإسلام مهما كانوا كثرة .

هـ — بيان ما يجب أن يتبعه الرسول صلوات الله عليه فى شأن أسرى بدر ، بما كان قاعدة لمعاملة الأسرى فى كل حرب إسلامية صغيرة أو كبيرة .

و — بيان الولاية العامة والخاصة بين المؤمنين : من المهاجرين ، والأنصار ، ومن القاعدين فى مكة ممن لم يهاجروا . . وبيان منزلة المهاجرين والأنصار عند الله والملائكة وفى الدنيا والآخرة .

ز — تقرير حق الولاية والميراث بين ذوى الأرحام .

سورة الأنفال

والأصول الحضارية فى الإسلام

(١)

سورة الأنفال مدنية ، من وحى السماء فى المدينة ، وكان للمجتمع الإسلامى الجديد فى المدينة مشاكله ومعضلاته ، ومن عجب أن تكون أوجه علاج هذه المشكلات أو أغلبها قد ذكر فى هذه السورة ، التى سميت باسم الأنفال ، أى الغنائم ، وهو اسم عجيب ـ شأن أسماء سور القرآن الكريم ، وكان الشأن أن تسمى سورة النصر، أو سورة السلام ، أو سورة المهاجرين ، أوسورة بدر، أوسورة الأنصار، أوسورة الحرب ، أوغيرذلك من الأسماء ، ولكنها سميت سورة الأنفال ..

(٢)

وهذه السورة الكريمة تضع أصولا حضارية كثيرة للمجتمع الإسلامى .. وإن شئت فاقرأ :

١ ـ فاتقوا الله ، وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله .

٢ ـ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ... إلى آخر هذه الصفات .

٣ ـ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار .

٤ ـ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين .

٥ — يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه ...

٦ — يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم .

٧ — يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ، واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم .

٨ — يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ، ويغفر لكم ..

٩ — قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين .

١٠ — وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير .

١١ — واعلموا أنما غنمتم... الخ .

١٢ — ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

١٣ — فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون .

١٤ — وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين .

١٥ — وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ... الخ .

١٦ — وإن جنحوا للسلم فاجنح لها .

١٧ — يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال .

١٨ — ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض .

١٩ — فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا .

٢٠ — واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة .

٢١ — وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله .

(٣)

وسوف نعرض هنا لبعض الأصول فى هذا المقام . . وذلك على سبيل الإيجاز . .

الإسلام دين إنسانى عام :

نعم إن الإسلام دين الإنسانية عامة ؛ وكما كان دين الإنسانية فى ماضيها ، فسوف يظل دين الإنسانية فى حاضرها وفى مستقبلها أيضاً بإذن الله . .

يقول برنارد شو الكاتب الفيلسوف الإنجليزى - من حديث له فى رسالة انجليزية تحت عنوان « نداء للعمل » كشف فيه القناع عن عقيدته فى صلاحية الإسلام لجميع الأمم ، وفى كل الأطوار التى تدخل فيها فى أى مكان وزمان . وقد قال ذلك الحديث أثناء سياحته فى بمباى : « لقد وضعت دائماً دين محمد موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة ، فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، بحيث يستطيع أن يكون جذابا لكل جيل من الناس » . « لا مشاحة فى أن العالم يعلق قيمة كبيرة على نبوءات كبار الرجال . ولقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا غدا ، وقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم . وقد صور أكليروس القرون الوسطى الإسلام بأحلك الألوان ، إما بسبب الجهل ، أو بسبب التعصب الذميم . « ولقد كانوا فى الواقع يمرنون على كراهية محمد وكراهية دينه ، وكانوا يعتبرونه خصما للمسيح . ولقد درسته باعتباره رجلا مدهشاً ، فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح ، بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية . وإنى لأعتقد بأنه لو تولى رجل مثله دكتاتورية العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة اللذين هو فى أشد الحاجة إليهما . ولقد أدرك فى القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال كارليل وجوته

وجيبون القيمة الذاتية لدين محمد ، وهكذا وجد تحول حسن فى موقف أوربا من الإسلام . ولكن أوربا فى القرن الراهن تقدمت فى هذا السبيل كثيراً ، فبدأت تعشق عقيدة محمد . وفى القرن التالى ربما ذهبت إلى أبعد من ذلك ، فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها . فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتى . وفى الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومى ومن أهل أوربا قد دخلوا فى دين محمد ، حتى ليمكن أن يقال : إن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ » .

وليس برنارد شو أول من شعر بهذا ، فقد سبقه كثيرون وعلى رأسهم جوته الفيلسوف الألمانى المشهور ، وهو يعتبر من أكثر رجالات الألمان علماً وعقلا وبعد نظر . يؤثر عنه — بعد أن درس الإسلام فأعجبه — قوله : «إذا كان هذا هو الإسلام فنحن إذاً فيه » . وليس يخفى أن الألمانيين فى ذلك العهد كانوا مظهر الثقافة العلمية بكل ما فيها من مفيد وطريف . ومما يلفت نظر الباحث الاجتماعى فى حديث الفيلسوف الإنجليزى قوله : إن أوربا ربما اعترفت بالعقيدة الإسلامية طلباً لحل مشاكلها . وقوله قبل ذلك : إنه لو تولى رجل على مثل صفات محمد صلى الله عليه وسلم دكتاتورية العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب إليه السلام والسعادة اللذين هو فى أشد الحاجة إليهما ، فهذه الأقوال ليست ملقاة على عواهنها ، ولكنها ثمرات بحث وتحليل وتفكير ، فإن القرآن الكريم أرصد لكل مسألة من مسائل الاجتماع حلا معقولا لا يدع للإفراط والتفريط سبيلا إلى العبث بالمجتمع ، وقد قام النبى صلى الله عليه وسلم بتطبيق ذلك النظام الإلهى على الآحاد الذين اتبعوه ، فألف منهم أمة ما فتئت تنمو وتشتد وترقى الدرجات العلى فى كل مجال من مجالات النشاط العقلى والمادى ، حتى انتهت إليها زعامة العالم قروناً متوالية ، فكيف لا ينجح فى معالجة أدواء العالم الحديث رجل يقوم على قدم محمد ، فيطبق عليها ما أرصده القرآن الكريم لكل منها من علاج حاسم ؟

وإذا صح هذا على الأمة الإسلامية الأولى ، وصح على الأمم الاوربية

الحديثة ، أفلا يكون أصح على الشعوب الإسلامية الراهنة ، فتسترد به مجدها الضائع ، وتستعيد مجدها الزائل ، وتصبح جديرة بالانتساب لأسلافها الأولين؟ إن أكبر المسائل الاجتماعية التي تهدد مدنية أوروبا في العصر الراهن المسألة الاقتصادية ، فإن النظام الرأسمالي المتطرف الذي يقوم عليه الغرب قد استدعى في الأزمنة الأخيرة أن يتولد في السواد الأعظم من شعوبه ميول ثورية لا تقف مطالبها عند حد ، وما نجمت المذاهب الاشتراكية التي تبني نظرياتها على الأصول الاقتصادية إلا لتترجم عن هذه الميول الثورية ، وقد نجحت هذه المذاهب في جمع كلمة العمال والفقراء وتعبئتهم تعبئة صالحة للنضال والثبات ، فما كان أثره تحسين حالة المحرومين من المال بعض التحسين ، ولكن هؤلاء لا يزالون يرون أن لهم حقوقا على المجتمع أكبر مما رضخت لهم به تلك الحكومات . ولما كان من شأن الأمراض الاجتماعية أن تستشري وتعضل إذا لم تستأصل جراثيمها ، فإن هذه المذاهب الاشتراكية بما تطرفت في مزاعمها ، وتبسطت في مدعياتها ، قد استحالت إلى برامج انقلابات خطيرة تهدد وطائد المجتمعات بالدك عند سنوح أقرب الفرص ، وقد أفضى التناهي ببعضها إلى الشيوعية البحتة . هذه حالة تعتبر على أقصى حد من الخطورة ، وتؤدي إلى تداعي بناء المدنية الغربية وسقوطها عند أول صدمة ، فإذا لم تسعف بالعلاج الفعال السريع التأثير فقد لا تبقي ولا تذر . وهل لهذه الحالة من علاج معقول غير النظام الذي أرصده الإسلام لمثلها منذ نحو أربعة عشر قرنا قبل أن توجد المجتمعات الأوربية الحالية ، وقبل أن تستحيل المسألة الاقتصادية فيها إلى هذه النتيجة المزعجة ؟ نعم : لقد شرع الإسلام للعالم نظاما تعاونيا حكيما فيه كل ما في المبدأ الرأسمالي من حسن ونافع ، وكل ما في المذاهب الاشتراكية من حق وواجب ، فجاء نظاما حاصلا على جميع مزايا المذهبين دون أن يلتاث بشيء من مساوئهما .

والإسلام دين اشتراكي تعاوني بطبعه ومبادئه ، يقول الرسول الأكرم: « من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد

فليعد به على من لا زاد له ، ويقول : ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم ، ويقول : من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع وبخامس . وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، أى بين الفقراء والأغنياء ، وبين المشردين عن أوطانهم وأموالهم والمقيمين فى وطنهم ومالهم وأهليهم . وكان يقول : يا معشر المهاجرين والأنصار ؛ إن بين إخوانكم من ليس له مال فليضم أحدكم إليه الرجلين والثلاثة . وعن جابر بن عبد الله قال : كان لرجال منا فضل أرض ، فقالوا نؤاجرها بالثلث أو الربع أو النصف ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها ولا يؤاجرها إياه .

وقد شرع الإسلام نظام الوقف لتكون الأرض أو العقار ملكا للمجموع وتصرف فى مصارف الخير والإحسان . . وفوق ذلك فقد حرم الاحتكار ، احتكار الأقوات العامة ؛ وما يشبهها من موارد الثروات العامة . كما حرم الربا ، حرمه لأنه مظهر للإثرة والأنانية وحب الذات ، فالفقير الذى يقترض منك جنيها لا يصح أن تأخذه منه جنيها وربعا أو ثلثا أو نصفا وإلا كانت نفسك جشعة لا تعرف معنى الدين والإيثار والإنسانية . . وأوجب الزكاة ، وحارب أبو بكر العرب حين منعوها واعتبرهم مرتدين .

وفرض الصدقات والإحسان ، ونهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، وعن الطمع فيما فى أيدى الناس . وطالب بإعطاء الناس حقوقهم ، وإعطاء الأجير أجره ، وبإيداع الأغنياء أموالهم فى أيدى الفقراء ليعملوا بها على أى لون من ألوان العمل والتصرف ، شركة أو مضاربة أو مزارعة أو مساقاة . وشرع نظام القرض والوديعة والإعارة والوصية والهبة . . وفرض فرائض الميراث . أوليس كل ذلك خطوة حاسمة لتقريب ما بين الطبقات ولمحاربة الفقر وعلاجه علاجا حاسما . ولخلق جو من المودة والتفاهم بين الفقراء والأغنياء ، ولنشر روح من السماحة والإخاء والتعاون ؟ . هذا وغيره من

مبادىء الإسلام الخالدة هو الاشتراكية بأجل معانيها وأروع أهدافها وأسمى غاياتها وألوانها . اشتراكية تحارب الرأسماليـة الجشعة المتنمرة ، وتحارب الشيوعية المتلصصة المتذئبة ، وتحارب المـاركسية المتطرفة الحمقاء ، وتحارب الفوضى فى المجتمع ، وتقتل بذور الشقاق والخلاف والعـداوة بين النـاس والطبقات . اشتراكية هى العدل والتعاطف والمحبة ، وهى الإيثار والتضحية ، وهى تقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، وهى الألم لشقاء الناس والبذل لما فى اليد ومساعدة كل ذى محتاج . اشـتراكية لا تدع لذى ألم ألما ، ولا لذى حاجة حاجة ، ولا لذى كربة كربة . . « من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » .

اشتراكية مبدؤها : « لا يؤمن أحـدكم حتى يحب لأخيـه ما يحب لنفسه » و « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » فأين هذا من قول برنارد شو أحد فلاسفة الغرب : « لا تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » ، ووصيتها : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » فأين من هذا قول برنارد شو : « لا تحب جارك كما تحب نفسك ، فإنك إن كنت سعيدا بنفسك فإن ذلك قحة ، وإن كنت على العـكس فان ذلك ضرر . اشـتراكية ما أجل معناها . وأدق مغزاها ، وأعظم أهدافها وغاياتها .

ولقد آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، وحجز عمر على قريش أن يهاجروا إلى الأراضى المفتوحة حرصا على امتلاكها حتى لا يضيقوا على عباد الله فقال : ألا وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده . ألا فأما وابن الخطاب حى فلا ، والإيثار وحض القرآن الـكريم عليه معروف : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » وقد جعل الله تعالى الفىء لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السـبيل لئلا يستأثر به الأغنياء وحسدهم فقال : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى

والمساكين وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب ».

كل هذا من من مظاهر اشتراكية الإسلام العادلة ، وشريعته السمحة البرة الرحيمة بالناس والفقراء والمجتمع ، إن الإسلام مكن للحرية يوم غرس عقيدة التوحيد فى القلوب ، ويوم علم المسلم أن لا يذل إلا لله ، وأن لا يستعين إلا بالله ، وأن لا يتوكل إلا على الله ، وأن لا يشعر بجلال أو كبرياء إلا لصاحب الجلال الكبير المتعال ، ويوم حارب كل تأله كاذب للأدعياء ، الذين ظهروا فى تاريخ الإنسانية ، متألهين متجبرين ، وتبعهم الناس جاهلين ، أو مخدوعين : «إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » ، ولقد كان صاحب الرسالة أكبر معلم لحرية الفكر يوم نادى فى عاصمة الوثنية بتوحيد الله ، ويوم صبر على الأذى فى سبيله ، وتحمل العنت لإبلاغ الرسالة ، وإزاحة العوائق من طريقها ، وهل كانت هجرته إلا تقريرا لحرية العقيدة ؟ وهل كانت حروبه التى صحبت دعوته إلا دفاعا عن حقوق الإنسان ؟ وعن حق كل امرىء أن يعتنق ما يطمئن إليه من آراء تتفق مع الفطرة السليمة ، من أجل ذلك شرع القتال ، وقال القرآن الكريم : «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله» ، والفتنة استخدام القوة فى مصادرة الآراء الصحيحة ، واضطهاد المبادىء السليمة ، وكما أقام الإسلام بناء المجتمع على الحرية الصحيحة ، جعل العدالة أساساً للشريعة ليطمئن إلى برها وسماحتها العدو والصديق ، ويصل إلى حقه فى ظلها القوى والضعيف ، ولقد شرحت فى موقف سابق ، كيف كان عامة الناس يقاضون الخلفاء أنفسهم أمام قضاة المسلمين ، فلا يستنكف الخلفاء أن يحضروا مجلس القضاء . ولا يترددون فى تنفيذ ما يلزمون به من حقوق . العدالة فى القرآن ، تتضاءل أمامها روابط النسب مهما قربت ، وفوارق الدين مهما بعدت ، « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » . « الذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم فى الدين

فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » . فانظر كيف سادت العدالة منطق القرآن ، وجعلت للعهود حرمة لا تضعفها وحدة الدين . وقد كان النزاع يقع بين أهل الكتاب وحكام المسلمين ، فيقفون جميعاً فى ساحة القضاء ، فلا تعلو إلا كلمة الحق ، وصوت الحجة . ولو كان فى ذلك خذلان المسلم الحاكم وانتصار الكتابى الضعيف . . والقرآن الكريم أول دستور أهدر التفاوت بين الطبقات ، وجعل اختلاف الألسنة والألوان مجرد آية من آيات الله فى الخلق ، فليس هناك جنس أفضل من جنس ولا لون أكرم من لون . وفى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : صهيب الرومى . وبلال الحبشى . وسلمان الفارسى ، وكان الرسول عليه السلام يقول « سلمان منا آل البيت » . نعم علم الإسلام أبناءه ، أن أصلهم واحد ، وأن الحقوق والواجبات موزعة بينهم على السواء ، وأن السوقة والعظماء أمام تعاليم الدين ، وموازين الحساب ، وفى ميادين العمل سواء ، لا يفضل أحد منهم أحداً إلا بالتقوى والخلق الكريم. ومن أروع ما حفل به القرآن ، حفظ التوازن بين الطبقات تأكيداً للتضامن الاجتماعى الذى يشد بناء الأمة شدا محكما ، فلا تتساقط منه لبنة ، أو تحدث فيه ثغرة . فالغنى فى نظر القرآن وظيفة اجتماعية ، وصاحب المال يحاسب على تصرفه فيه ، وتناط به حقوق الدولة أن تسأله عنها ، وقد فرض الله الزكاة وجعلها من أركان الإسلام : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وهناك حقوق لا تقل فى خطرها عن الزكاة ، وقد قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن فى المال حقا سوى الزكاة ، وأوضح القرآن الكريم هذا الحق مبينا حقيقة البر ، وعناصر التقوى ، ودلائل صدق الإيمان ، فقال : « وآتى المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب ، وأردف هذا بقوله : « وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة » . فإسعاف المنكوبين ، وإغاثة الملهوفين ، حق على من صادفهم فى أزمتهم ولو كان قد أدى زكاة ماله ، وهذا من أنواع الماعون ، الذى جعل الله الويل لمانعيه ، واعتبرهم مكذبين بالدين « الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » . وقد بين رسول الله صلوات الله عليه أن إكرام الضعيف المنقطع عن أهله وماله ، حق

لله على من نزل بهم ، وهذا الحكم من دعائم المروءة ، وروافد الخلق الفاضل في المجتمع ، وقد بلغت حساسية الإسلام المرهفة بأوجاع الناس وأحزانهم أن رصد من مال الزكاة ما تسد به ديون الغارمين العاجزين ، وذلك مالا نظير له في شرائع البشر . وإذا عم البلاد قحط جارف ، لم يبق لصاحب مال حق في الانفراد به ، بل تضع الدولة يدها على الطعام ليستفيد منه الجميع على السواء «إن الأشعريين إذا أملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم في ثوب ثم اقتسموه بينهم بالسوية فهم منى وأنا منهم» . حدثوني إذا بعد هذ الذى سمعتم ، ما هى الاشتراكية الحديثة التى ضمنت للناس ما ضمن الإسلام من سماحة . . وإنكم لتعلمون مما ذكرنا أن الحقوق التى قيدت بها الملكية ليست فى نظر الإسلام هينة ، ولكنها نظام مفروض يقاتل دونه الإسلام ، وعصمة الدماء والأموال مقرونة بأداء هذه الحقوق ، كما قررها عليه صلوات الله ... «آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير . . من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له ، وله أجر كريم .

وقد أتى الإسلام بنظام حكيم يقر رؤوس الأموال الفردية من ناحية ، ولا يغضى عن المحرومين منها . فيفرض لهم حصة سنوية منها من ناحية أخرى . فكان هذا الحل كما ترى وسطا جامعا لمزايا كل من النظامين الاقتصاديين، وخالصا من عيوبهما ، تنحسم به مادة المتنازعين على الحياة ، ويبطل تناحرهما عليها ، ويحل محله تكافل ينتظم عليه أمر الجماعة ، ويسود بين فريقيها التحاب والتعاون فى الحياة الاجتماعية ، ذلك النظام هو الزكاة التى جعلها الإسلام ركنا من أركانه .

إن الإسلام شريعة الحياة والبشرية ، ويكفيه ما اشتمل عليه من أصول الدعوة إلى الحضارة والمدنية وإلى التجديد والبناء والإصلاح ، وإلى العمران فى كل ميدان؛ نعم إن الإسلام هو دين الحضارة والعمران ، وقد كان دائما يدفع الأمم إلى إقامة صرح العمران دفعا ، بتهيئة أسبابه لها من العلم والعمل

والتفكير ، وتعبيد سبيلها اليه من الحث على إحياء الموات ، وإقامة المنقض ، والإشادة بذكر الحياة الطيبة ، والجنات المعجبة ، والمياه الجارية ، والبركات المتواترة ، جزء للقائمين على سنته فى الحياة الدنيا ، يعجله لهم فيها ، ويعدهم إذا انقلبوا إلى ربهم بحياة أرفع منها ، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . كل هذا وهو جار على طريقته من الجمع بين البسطتين : بسطة الروح وبسطة الجسم ، والتوفيق بين السعادتين : سعادة الدنيا وسعادة الآخرة . ؛ ماكاد النبي صلى الله عليه وسلم ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى انتدب المسلمون لتحقيق موعود الله من إعلاء كلمة الله فى الأرض ، فانساحوا فيها لا عادين على أهلها ولكن داعين لهم إلى الحق ، ولا هادمين لما شيدوه ولكن مكمليه وموجهيه إلى وجهة الخير المحض ، تالين على العالم قوله تعالى : « يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما » ، « من عمل صالحا من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون » ، « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » . فما كانت إلا كومضة برق ، كما قال مؤرخو الغرب أنفسهم ، حتى انتهى المسلمون إلى الصين ، ومالبثوا بعدها غير قليل حتى عمت دعوتهم القارات الخمس ، وانفتحت أمامها أبواب العالم التى كانت موصدة ، فسرت فى أممه كافة روح لم تكن فيهم من قبل ، وكأنها كانت مندفعة فى تيهور ، فوقفت حيث تتسمع لتلك الصيحة التى رددت أصداءها بقاع الأرض ، وما هى إلا سنون معدودة حتى نبض عرق الحياة فى الشام ومصر ، وكانتا جثتين هامدتين تحت براثن الرومان ، ثم تلتهما العراق وفارس وكانتا تحت سلطان أهلها هيكلين عظميين ، لم يبق فيهما غير ذماء يوشك أن ينضب فتصبحا هشيما تذروه الرياح ، ثم ما لبثت الممالك القائمة بين فارس والصين والهند وسيبيريا أن أفاقت من غيبوبتها الطويلة ، وأدركت أن لها

وجودا وأنها يجب أن تحيا حياة جديدة . ثم ما كاد طارق بن زياد يفتح الأندلس وينشر فيها روح الحياة حتى تنبهت الممالك الأوربية لما هى فيه من الخلافات المذهبية ، والحروب الجاهلية ، والجهالة المستحكمة ، فأخذت تتنسم نسمات ذلك العالم الجديد ، وتعشو إلى ضوئه وتستفيد من جواره . كل هذه الأمم التى كانت كالجثث المصبرة ، أو الأجساد المسخرة ، هبت تتلمس الحياة والعمران ، متأسية بما كانت تراه وتسمع به من أثر الإسلام فى أهله ، من تمصير الأمصار ، وإشادة البلدان ، وتعبيد الطرق ، وإحياء الموات ، وتسهيل الاتصالات ، وإقامة المبانى ، وتنشيط التجارات ، وبعث الصناعات ، واستخراج المعادن ، وبناء المستشفيات ودور العلم وبيوت الحكمة ، وتأسيس المكتبات وترجمة المؤلفات . هذه الحركة المحيية التى كان مثارها بلاد المسلمين وصلت إلى ما يجاورها من البلدان ومنهم إلى من يليهم ، حتى عمت الأقطار ، وتولد منها ما فيه العالم اليوم من علم ومدنية .

كل ذلك حدث بتأثير الإسلام ومبادئه الخالدة ؛ قال الله تعالى : « وإلى ثمود أخاهم صالحا ـ أى وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ـ قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب » . فى هذه الآية الكريمة حث على العمران وامتنان من الله على عباده بإيتائهم القدرة عليه . وقال البيضاوى فى تفسيره عند قوله تعالى : « واستعمركم فيها » أى أقدركم على عمارتها وأمركم بها . وقد أكبر الله تعالى فى آيات كثيرة من الكتاب الكريم شأن العمران ، ووصى المسلمين بأن يحافظوا عليه ، ويعنوا به فقال جل وعز : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين » . ووصف الله الفاسقين فقال : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون » . وعرف ألد

خصوم الحق فى آية كريمة ، فذكر أن من أخلاقه : « وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد » . ولو أردنا أن نستقصى ما ورد فى الكتاب الكريم من الآيات الناهية عن الفساد فى الأرض لا ستوعبت صحفا كثيرة ، فلنكتف بما ذكرنا فان فيه لبلاغا للمتوسمين . نعم إن الفساد ليس خالصا بالعمران ، فانه يشمل كل ضروب الأعمال التى توجب التصدع فى بناء الاجتماع ، والاضطراب فى نظام المعاملات ، والإخلال بالأمن ، والعدوان على الضعفاء الخ ، ولكن مما يندرج فى معناه هدم المبانى وتحطيم المعالم ، وتخريب المدائن ، وإهلاك الحرث والنسل . ومما يدل على أن الله تعالى يعتد بكل ذلك ، امتنانه على بنى سبأ من اليمن بما وفقهم إليه من تشييد القرى والإكثار منها ، والإشارة إلى ما أسدى بعض القرى من بركاته فقال تعالى : « وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها — قرى الشام — قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين » فهذا نص صريح فى الإشادة بذكر العمران والتنبيه على أنه من فضل الله على عباده الصالحين . ومما يناسب هذا المقام قوله تعالى: « لقدكان لسبأ فى مسكنهم آيتان، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ؛ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » وفى هذه الآية إشارة من الحق سبحانه بأن الخصب والبركة وخفض العيش آية من آياته تستدعى الشكر لواهبها ، وفيها تنويه بالبلدة الطيبة إيذانا بأنها من النعم التى تجب المحافظة عليها والاعتداد بها . ثم انظر كيف أن الله جعل جزاء أهلها حين أعرضوا عن طاعته وأقبلوا على مكارهه أن أبدلهم بالخصب والنماء وبالبلدة الطيبة الحافلة بوسائل العمران أطلالا دارسة ، وبيئة لا تثمر لهم شيئا . فكما جعل الخصب والعمران من النعم التى يجب استدامتها ، جعل القحولة والخراب من النقم التى يجب تجنبها . ولفت الحق سبحانه وتعالى الناس إلى أنه لا يهلك القرى لأنه يكره لشيعته

التوسع فى العمران ، ولكنه يهلكها لحيد أهلها عن الصراط السوى وإسرافهم على أنفسهم ، واستخدام وسائل المتع المشروعة التى فتحها عليهم فى الاستهتار فى الشهوات ، فقال تعالى : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

وقد بين الله تعالى فى موطن آخر أن العلة الحق فى إهلاك القرى وإزالة عمرانها ما جناه أهلها على أنفسهم من ناحية آدابهم وأخلاقهم ، وأنه جل وعز أعذر إليهم بالنصح وإرسال النذر لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، فقال سبحانه : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين . وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون » .

فانظر كيف يشير الله تعالى إلى أن أهول المساكن بسكانها ، وحفولها بأهلها ، من النعم التى يجب أن تستبق بالقيام بحقها ، وأن ما ينقص هذه الحالة من إقواء الدور من قطانها ، وإقفارها من أصحابها ، سببه البطر ، والبطر فى هذا الموطن الاستخفاف بالنعمة وعدم الاعتداد بها . ومن أقطع الدلائل على اعتداد الإسلام بالعمران وإكباره لشأنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ينهى أصحابه حين يبعثهم للغزو عن هدم الدور وإحراق الزروع ، إلا ما تقضى به حاجة حربية ملحة . وليس بعد هذا فيما نظن مرمى فى الاعتداد بالعمران ، وفى الاحتفال بأمره . بهذه الروح الكريمة انساح المسلمون فى الأرض ؛ فمروا على مدن وأمصار وقرى لا تدخل تحت حصر ؛ فلم يمسوها بسوء ، بل زادوا فى عمرانها ، وأمروا بإشادة أمثالها ، وعرفوا أن العمران لا يقوم إلا بحافز من الخصب ، فعملوا على إحياء موات الأرض . ولما استتب لهم الأمر أمروا بترجمة الكتب اليونانية والسريانية والهندية فى الزراعة والعمارة وطبقوها على العمل . ولما كان لا يقوم العمران بلا صناعة تؤاتيه بالحاجات الضرورية له ، لم يدعوا صناعة من الصناعات التى صادفوها فى البلاد المختلفة

إلا تعلموها وحذقوها ، وزادوها تحسينا وارتقاء .

وبما أن الصناعة فى حاجة مستمرة إلى المواد الأولية فلم يقصروا فى هذه السبيل ، فاحتفروا الأرض واستخرجوا كنوزها المعدنية ، وأسسوا المصانع لسبكها وصنعها ، وكل هذا يحتاج إلى إلمام شامل بالعلم الطبيعى ، فلم ينوا فى تدارسه وتفهمه ونقل كتبه القديمة إلى العربية ، وبالغوا فى دراسة الجواهر وصفاتها ومميزاتها وكيفية تحليلها وتركيبها ، ووضعوا لذلك علما سموه بالكيمياء ، وعنهم أخذه المعاصرون باسمه العربى . ولما كان هذا لا يغنى إلا بالتوسع فى العلوم الرياضية فقد تبسطوا فيها إلى أبعد مما وصل إليه الكلدانيون واليونانيون القدماء والفرس ، حتى أداهم التبحر فيها إلى ابتكار علم جديد فيها سموه علم الجبر . وقد أخذه الأوربيون عنهم بهذا الإسم العربى . لم يدع المسلمون علما ولا فنا ولا صناعة ولا ذريعة لتكميل صرح العمران إلا أخذوا بها وزادوها بجهودهم رقيا ، ولم تمض عليهم مئتا سنة حتى كانوا فى كل ناحية من نواحى النشاط العقلى والعملى أئمة يرجع الناس إليهم فيها . فلم يكونوا مجرد فاتحين ، ولكنهم كانوا معلمين ومصلحين أيضاً . نزلوا الشام فعمروا مدنها ، وأحيوا مواتها ، وجعلوا عواصمها عواصم العلم والحكمة . وامتلكوا مصر فنشروا فيها العدل والإنصاف ، ورقوا صنائعها وجعلوها تنافس أرقى الممالك ، وتولوا العراق وكان قبلهم تابعا للفرس ، فنقلوا إليه عاصمة الدولة ، فأبلغوه إلى مكانة من السؤدد لم يكن له حتى فى زمن الآشوريين والبابليين ، فكانت عاصمته بغداد سيدة العواصم كلها علما وصناعة ومدنية ، فاكتظت بالسكان حتى بلغوا فيها مليونى نسمة ، وهو عدد لم يسمع به فى بلد سواها حتى ولا أثينا وروما فى إبان عزهما وحضارتهما التاريخية . واجتازوا الأندلس فأسسوا فيها دولة كان لها الأثر البعيد فى نشر الثقافة العلمية حتى أصبحت جامعاتها تهب النور لمن يطلبه منها ، ولو كان أجنبيا عن الإسلام لا يمت إلى دولته بأقل صلة . فكثر فيها الطلاب الأوربيون يعبون من معينها الصافى ، ويعودون إلى بلادهم ينشرون العلم والمدنية . وكان ممن تعلم فيها سلفستر الذى

تولى البابوية الرومانية ؛ وقد بلغ من علو كعب الأندلس فى العمران والمدنية أن ملوك أوربا كانوا يقصدونها للاستشفاء على أيدى أطبائها ، فيقابلون بإكرام ثم يعودون إلى بلادهم مشيدين بذكر الحضارة الإسلامية . وقد أثرت مدنية المسلمين فى الأوربيين تأثيراً عميقا ، حتى إنهم نقلوا كتب ابن رشد وابن زهر وابن سينا وغيرها إلى لغاتهم ، وأخذوا يتدارسونها ، فكانت سببا فى إنهاض هممهم وهم فى ليل دامس من الحكم المطلق ، فهبوا يتطلبون الحياة ثائرين على نظامهم الجائرة ، مجازفين بحياتهم فى سبيل الحياة والحرية . فدام التنازع بينهم وبين الآخذين بخنقهم قرونا حتى تم لهم النصر عليهم فى القرن السادس عشر ، فكان العهد الذى يسمونه عهد البعث الذى سبق عهد المدنية الأوربية الحاضرة . فهذه المدنية التى فتنت العالم اليوم بعلومها وفنونها وصنائعها مدينة للمسلمين بوجودها كما رأيت ، وكما يعترف به مؤرخوها فى مؤلفاتهم المتداولة . وقد نقلنا الشىء الكثير من ذلك فى مقالاتنا الماضية . فالفتوح الإسلامية لم تكن فى حقيقتها إلا صوت الحق ينبه الغافلين ، ويوقظ النائمين ، ويستحث همم الحاكمين والمحكومين : إلى تلمس الحياة الصحيحة ، والخروج عما هم فيه من التقاليد الموبقة ، والرسوم المردية . وكان الإسلام هو الذى أحدث التطور والانتقال فى التاريخ البشرى العام ، وهو الذى قاد العالم إلى العصر الحديث ، عصر النهضة والحرية والديمقراطية والصناعة ..

معجزة إلهية :

إن التوفيق بين القبائل العربية المتعادية المتخاصمة كالأوس والخزرج على يدى محمد صلى الله عليه وسلم معجزة من المعجزات السماوية الكريمة التى حدثت للرسول : « وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » ، ولقد تمر على المجتمعات فى بدء حياتها حوادث تؤثر فى وجودها من ناحية ترابط آحادها وتماسك أجزائها ، ولكنها لا تبلغ ، مهما عظم شأنها ، ما يحدثه النضج الاجتماعى الذى يتم بعد مكابدتها للأطوار التى يستدعيها الاجتماع فى أدواره

المقررة فى قرون عديدة ؛ فهذه الجماعة من مهاجرى مكة ، ومؤمنى قبيلتى الأوس والخزرج اللتين ألف بين آحادهما دين لم يكن للعرب فى وثنيتهم العتيقة وتقاليدهم الموروثة ، عهد بمثله ، كانت بحاجة لأجل أن تحيا حياة اجتماعية أن تتأثر بعوامل الاجتماع ، وأن تخضع لأفاعيلها ، ولا يكون ذلك إلا إذا وجدت تلك العوامل واستعد الآحاد للتأثر بها ؛ وهى لاتوجد بالصناعة . وإن أمكن إيجاد بعضها فيتعذر إيجاد بعضها الآخر ، لأنها تتعلق بالبيئة الطبيعية وبقابلية الآحاد للتطور ، وبالأحوال الاقتصادية ، وبالجماعات المجاورة ، وكل هذه الشئون ليس فى اليد إيجادها . أما مجرد العقيدة الدينية فلا تكفى فى تكوين وحدة اجتماعية ، لأن العقيدة عمل قلبى لايتوقف على الاندماج فى جماعة . وقد عاش المسيحيون بعد عيسى عليه السلام نحو ثلاثة قرون لاتجمعهم جامعة ، متفرقين فى بلاد متباعدة ، وبقى اليهود أكثر من ألفى سنة مشتتين فى الأرض ليس لهم دولة . فكان لابد لأجل قيام دولة إسلامية من توافر عناصر الاجتماع فى الطائفة التى اتخذته دينا لها ، ومن خضوعها لأفاعيلها آمادا طويلة . فإذا كان على محمد صلى الله عليه وسلم ، لأجل أن يصل إلى تأليف جماعة ، أن يوجد العوامل الأدبية والمادية التى تتكاتف على إيجادها على الأسلوب نفسه الذى تتبعه الطبيعة فى تأليف الجماعات ، فأنى له أن يوجد لها الزمان الكافى لترسيخ نتائجها فى نفسية الجماعة ، وهو شرط لابد من توافره فى حياة الجماعات ؟ اللهم إن هذا من المحالات العلمية ، وهو فى البلاد العربية التى لايوجد فيها من عوامل الاجتماع إلا مايكفى لتوليد القبائل ، يعتبر مما لايجوز أن يفكر فيه إنسان ، وكيف يجوز التفكير فيه والطبيعة نفسها عجزت عن إحداثه ، فبقيت الجماعات العربية على الحالة القبيلية من يوم وجدت إلى مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لا لنقص فى قواها المعنوية ، ولكن لعدم توافر عوامل تآلفها . فانتداب محمد صلى الله عليه وسلم للإتيان بمحال فى تاريخ البشر ، أمر لم يقدم عليه فرد من أفراده ، ولم يطف فى رأس عبقرى من عباقرته من يوم وجد العالم إلى يومنا هذا ؛ ولاجرم أن الانتداب لمثل

هذا العمل يعتبر غريبا إلى أبعد حدود الغرابة ، ولكن غرابته وخروجه عن دائرة الأمور العادية لايجوز أن يثنينا عن النظر فى الوسائل التى تذرع بها محمد صلى الله عليه وسلم ، تحت إرشاد الوحى ، للوصول إلى هذه الغاية البعيدة . أول ماوجه النبى همته إليه ، أن جعل للطائفة التى اتبعته غاية سامية تسعى للوصول إليها ، لأن كل جماعة لايكون لها غاية ، تركد حيث هى، وتكتفى من الحياة بما يحفظ وجودها الشخصى وكيانها القومى ليس إلا، وقد تلبث على هذا عشرات القرون حتى تبيد أو تفنى فى جماعات أقوى منها . فكانت الغاية التى عينها النبى للجماعة التى يرأسها أن تكون نواة الدين الذى شرع لإصلاح جميع الأديان ، وأن تحمى الدعوة إليه ضد كل من يحاول أن يحول بينها وبين الانتشار . وهذا لايكفى فى تكوين أمة ، ولا فى إقامة دولة ، فالأمة لايتحقق لها وجود إلا بتوافر عدد أفرادها ، وشغلهم حيزا معروف الحدود بين الأمم المجاورة لها ، والدولة فى حاجة إلى مقومات اقتصادية وأدبية وسياسية ، وهل يمكن الوصول إلى هذا كله إلا بإنشاء العلاقات بينها وبين الجماعات القريبة منها والبعيدة عنها ؟ ولكن هل هذه العلاقات مما يمكن إيجاده من غير طريق العوامل التى توجبه ؟ هذه العوامل تقتضى فيما تقتضيه التبادل الاقتصادى ، والتبادل الثقافى ، وكل هذا يقتضى الإنتاج الزراعى والصناعى ، والإنتاج الفكرى . فهل كانت يثرب بالبيئة التى تولد كل هذه العوامل ؟ هذا هو الأسلوب الطبيعى فى توليد الأمم وإقامة الدول ، ولو صادفها محمد فى البيئة التى ظهر فيها لما كان فى عمله إعجاز ، ولكان أمكن الخصم تعليل نجاحه بالعلل الاجتماعية ولو من طريق التلاعب بالألفاظ ، غير مقدر كم كان يقتضى تنبيه هذه العوامل من الآماد المتعاقبة فى شروط ملائمة ؟ ولكن النبى لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى بعد إحدى عشرة سنة من يوم انتقاله إلى يثرب حتى كانت للإسلام أمة ، وكانت له دولة . إن ميزة الأوامر الإلهية أن تنفذ ولو قامت دونها جميع الحوائل الطبيعية والإنسانية . وقد أراد الله أن تكون للإسلام أمة ودولة قبل أن يفارق رسوله العالم الأرضى فكانتا ، كانتا فتيتين قويتين حاصلتين على

جميع عوامل النماء والتطور ، نقلتا العالم كله من حال إلى حال آخر ، لا صورتين وهميتين لم تلبثا أن انحلتا بعد وفاة موجدهما ولم تتركا أثرا .

فإذا كان في تكوينهما على خلاف السنن المعروفة إعجاز يقف العلم الاجتماعي أمامه حائرا ، فإن في بقائهما واستمرارهما وعظمة آثارهما إعجازاً ثانيا ليس بأقل من الأول. ويستخف بعض الناس بتأليف الأمم ، فيخيل إليهم أن الآحاد كأحجار البناء يضعها البناء حيث أراد ، فيشيد منها قصراً على النظام الذي وضعه من قبل . هذا النظر يدل على فاقة علمية توجب المرحمة . والحقيقة أن الآحاد الذين تتألف منهم الأمم كائنات عاقلة لا يمكن تشبيهها بالأحجار ، والرابط الذي يجمع بينها مؤلف من روابط معنوية تشترك في تكوينها ضرورات طبيعية ، ومقتضيات بيئية ، وحاجات عقلية وروحية ، فإذا لم تنتظم جميع هذه العوامل مئات الألوف من الآحاد في وحدة لا انفصام لها ، اعترى هذه الجماعات التفكك ، فلم يتم ترابطها الترابط المطلوب بحيث إذا تحركت تحرك جميع آحادها اضطرارا لا اختيارا في آن واحد ، كما يتحرك الجسم ، فتنفعل جميع أعضائه في اتجاه واحد ، وعلى غرار واحد ، لا يسأل عضو عضوا لم تحرك . فتخيل كيف تصل أمة مؤلفة من عدة ملايين أو عشرات الملايين إلى هذا الضرب من التكافل مع تخالف آحادها في أخلاقهم وعقلياتهم ونفسياتهم وآمالهم وأهوائهم ؟ فإذا رأيت أمما قائمة ولم يصادف قادتها أثرا من الحوائل ، فما ذلك إلا لأن هذه الأمم كانت من عمل الطبيعة لا من عمل القادة . والعمل الطبيعي يجرى على أدوار متعاقبة ، في آماد طويلة تنفقها الطبيعة في التوفيق بين هذه المتناقضات، لا بصبها في قالب واحد، فهذا محال ، ولكن بإخضاعها لنظام تعاوني يحول تصادمها الضار إلى تكافل مفيد للجماعة ، كما هو مشاهد في كل جماعة قائمة ؛ فهذا العمل الطبيعي البطيء لا يمكن محاكاته بالصناعة ، بمعنى أنه لا يمكن إقامة أمة من مجموعة آحاد من بيئات مختلفة ، بل لا يمكن تحويل الجماعات الصغيرة القائمة على مبدأ التناحر إلى وحدة اجتماعية يسودها التكافل والترافد ، من غير الطريق التدريجي التي تسلكها الطبيعة في إيجادها بالعوامل الخاصة بها ، وهي لا توجد بالصناعة كما قدمنا . وهذا الأمر من الوضوح بحيث أن

الله نبه العقول إلى إعجازه ، ونوه عنه بعبارة تشف عن عظم شأنه ، فقال تعالى « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم، إنه عزيز حكيم » . تأمل فى قوله تعالى: « لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم »، تجد فيه إشارة صريحة يدركها أولو العلم ؛ فان الذى يؤلف القلوب ، ويوحد بين مطالبها ، ويوجهها وجهة واحدة ، هى العوامل الطبيعية الموجبة لذلك ، لا المغريات المادية التى تزول آثارها بزوال تأثيرها . وبعد أن أصبح أمر الإعجاز فى عمل النبى صلى الله عليه وسلم واضحا كل الوضوح ، يؤيده الكتاب الكريم نفسه ، ويؤيده العلم ، وجب علينا أن نتحسس من ذلك العامل الخفى الذى قام مقام جميع عوامل الاجتماع والتآلف إلى أبعد حد ، فتأثرت الجماعة بجميع مقومات الاجتماع على أوسع وأكمل وجه ، دون أن تدخل فى الأدوار التى تحصلها النفس . ودخولها فى تلك الأدوار فى سنين معدودة لا يكفى لإيجابها ، فلا بد من مرور آماد طويلة عليها ، وتكرر حدوثها لتتهيأ النفس لقبول آثارها ، والقيام على أساسها . فأى حدث فى العالم أغرب من قيام أمة متعاقدة الخناصر ، محكمة الأواصر ، متكافلة الطبقات ، منزهة من جميع عيوب الأمم السابقة والمعاصرة لها ، التى من أشهرها غطرسة المتغلب ، وسيطرة المتحكم ، وعجب القوى المنتصر ، وبغى الجاهل المقتدر ؟ هذا غريب حقا ، وهو من أكبر دلائل نبوة القائم به محمد صلى الله عليه وسلم . فاذا ألانت النبوة الحديد ، وأحيت الموتى بعد أن اخترمتهم المنون ، فإن إلانة النفوس الجاهلية ، وتفجير ماء الحياة الروحية ، وبث أصول البطولة الصحيحة فى القلوب ، أشد إعجازا وأبعد أثرا من هذه الآيات الجزئية . فهذه الآيات تشكك فيها الباحثون ، وأنكرها الماديون ، ولكن الآيات المحمدية لا يمكن إنكارها ، فهى ماثلة أمام الأعين مثولها فى تاريخ الأجيال السابقة تشهد بأن روحا ربانيا حل بهذه الجماعة ، فدفعها لإحداث أكبر الأحداث العالمية ، وتنبيه الأمم كافة من سباتها الذى كان طال عليها الأمد فيه ؛ ذلك العامل الخفى هو « الإيمان » الذى نفثه محمد صلى الله عليه وسلم فى روع جماعته ، فجعلهم يتلقفون ما يلقى إليهم بلهف عظيم ، فتتكيف

به نفاسياتهم ، ويصبح حالا لها كأنها ولدت مفطورة عليه . وهذا التعليل قد يجد فيه بعض الخصوم فرجة يتقحمون منها للغض من درجة إعجازه ، فيقولون : مادامت المسألة استحالت إلى الإيمان ، فقد أمكن تعليلها بعلة طبيعية ؛ لأن الإيمان يفعل بالنفوس ما تفعله الوراثات المتأصلة ، فيسوقها إلى الأغراض التى توجه إليها من طريق الانسياق الذاتى ، مضطرة غير مختارة ، فلا عجب أن يطبعها المستولى عليها من هذه الناحية على أى الصور شاء ، وأن يدفعها إلى أى الوجهات أراد ، على أن فى طى هذه المسألة أمرا يعتبر فى أرفع درجات الإعجاز ، وهو إيجاد هذا « الإيمان » ؛ فعلى الخصم قبل أن يمضى قدما فى التعليل به ، أن يفسر لنا كيف أمكن للنبي أن يبثه فى قلوب ألوف مؤلفة من الناس على حال يستولى معها على جميع مشاعرهم ، فيسقط كل ما ورثوه من عقائدهم ، وما جمدوا عليه من وساوسهم ، وأن ينفرد بالسلطان على قلوبهم فيخضعها لكل ما يقدمه إليهم من مختلف التعاليم والوصايا خضوعا مطلقا ، بحيث يصبح منقوشا فى سويداء قلوبهم ؛ ولا تنس أن هذه التعاليم والوصايا لا تشايع ما كانوا عليه من ناحية من النواحى ، فلا يمكن أن يقال هنا : إنهم أخذوا بها لأنها ناسبت ما كانوا عليه ، ولاءمت ما توارثوه من قبل ، ولكنها كانت تناقض ما كانوا قائمين عليه من كل وجه : كانوا معددين للآلهة ، فجاءهم بالتوحيد . . كانوا يخضعون لحكم القوة ، فأخضعهم لسلطان الحق . كانوا يأخذون بالتقليد ، فحولهم إلى حكم العقل . كانوا يحكمون بالعادات ، فجعلهم يحكمون بالقانون . كانوا قانعين بما كانوا عليه ، فأهاب بهم لطلب الأحسن . كانوا واقفين مع عالم المادة ، فحفزهم لتنور عالم الروح . كانوا مكتفين بالأمر الواقع ، فدفعهم لتحرى المثل الأعلى . كانوا يأخذون بالظنون ، فأمرهم أن لا يأخذوا إلا بالدليل . كانوا راضين بالجهل ، فحضهم على طلب العلم . كانوا يحرصون على على الامتيازات ، فقرر لهم مبدأ المساواة . فالإيمان الذى يستولى على النفسية ، ويجردها من كل ما لا يسها من الأصول التى صارت بتوالى توراثها فى الآماد المتتالية ملكات راسخة فيها ، ويحل محلها أصولا تناقضها من كل وجه ،

ويجعل منها كيانا جديداً لشخصيتها ، لا يجوز أن ننظر إليه نظرنا إلى الأمور العادية ، فنعلل به ما نريد أن نتعقله ، ونمضى غير مكترثين له . لأن مثل هذا « الإيمان » الذى يقلب كيان النفس ويحولها من حال إلى حال . لا يعقل أن يكون ثمرة دعوة كلامية ، وإلا أمكن إصلاح أية جماعة بإيجاد إيمان لها من طريق الدعوة ، فلا يكون على الأرض أمة منحرفة عن الصراط السوى فى أية بقعة من بقاع الأرض ، وتصبح مهمة المصلحين من أيسر المهام الاجتماعية ؛ وما نشاهده فى الواقع يخالف ذلك كل المخالفة ، فقد بح صوت الهداة والمرشدين فى كل زمان ومكان من الدعوة إلى الفضائل ، والتنفير من الرذائل ، فلم يزدد الناس إلا مضيا فيما هم فيه ، كأن كل هذه الإهابات بهم لا تعنيهم. ولكن الذى قام به محمد غير مجرد الدعوة ، فأوجد لنفسه فى القلوب هذا الإيمان الراسخ الذى تمكن به من صب نفسية أمة برمتها فى قالب جديد لم تكن تعرفه ، ولا تسمع بمثله من قبل ؟ ؛ قلنا مجرد الدعوة ، لأنكم تنكرون المعجزات ، فعليكم أن تفسروا لنا كيف وصل محمد إلى بث (الإيمان) بنبوته فى هذه النفوس كلها ، وتوصل بذلك إلى التحكم فى تكييفها ، حتى حولها من حال إلى حال آخر ، صلحت معه لأن تصل إلى زعامة العالم كله فى سنين معدودة ؟ ؛ المسألة خطيرة ، خطيرة إلى أبعد حدود اليأس . وهى فى هذا المأزق تصبح أقرب إلى الحل منها وهى على بساط البحث . فإن الدليل على صحة النبوة هو صحة النبوة نفسها ، والفارق بين صحيحها وكاذبها ليس من الدقة بحيث لا تدركه إلا العقول القوية . فالنبوة الكاذبة فرية خسيسة لا تحل إلا بقلوب خوت من كل خير ، ونفوس تجردت من كل فضيلة ، وصارت مباءة لكل دناءة ورجس . والذى يستسيغ الكذب على الله بادعاء أن بينه وبينه اتصالا ، لا يعقل أن يكون إلا فى الدرك الأسفل من فساد الأخلاق ، ويستحيل أن يتولد من هذه النفس المنحلة عمل صالح تتألف منه أمة كريمة ، ذات أصول قويمة ، تتأدى فى سنين قليلة إلى سيادة الأرض ، ناشرة حولها سمعة زكية ، وصيتا مدويا ، حتى اعتبرت منقذة للعالم مما كان يرسف فيه من قيود العبودية ، ويرزح تحته من آصار الجاهلية .

الأمم بين البقاء والفناء :

لله عز وجل نواميس إلهية فى حفظ الأمم وبقائها ، ونواميس أخرى تؤثر فى ضعفها وفنائها . وهنا فى سورة الأنفال نجد مفتاح ذلك واضحا كل الوضوح . يقول الله عز وجل فى هذه السورة : « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم[١] » ، ويقول الله عز وجل فى سورة الرعد : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، ومالهم من دونه من وال [٢] » .

فى هاتين الآيتين تقرير لمسئولية الإنسان على عمله ، وبيان أن الله لا يغنى الأمم إلا وفق نواميس اجتماعية ثابتة ، والإنسان مع إحاطة علم الله بكل ما ظهر وما خفى من شئونه ، ومع خضوعه لأحكام القضاء والقدر ، قد منحه عز وجل نوعا من الاختيار فى أعماله ، وإطلاق التصرف ، يصنع ما يريد ويفعل ما يختار ، ولكن فى دائرة لا تتجاوز علم الله وإرادته ، فهو يعمد إلى اختيار ما يحلو له ويطيب فى نفسه ويغلب عليه الميل إليه من خير أو شر حسبما وهبه الله من قوة الإرادة والاختيار ، ولكن ما يختاره فى مستقبله ويميل إليه بإرادته ومشيئته قد علمه عز وجل منه وأراده فى الأزل ، وأراد أن يفعله باختياره ومحض إرادته ، لا أن يفعله مرغما مكرها مقهورا مجبرا : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » . فإرادة الله الأزلية وعلمه الأزلى لم يخل باختياره ولم يسلب عنه مشيئته ، بل قد حققها . فالله قد أراد منه أن يفعل باختياره ، فمحال أن يفعل مكرها ، وإلا لم يتحقق ما أراده الله من أن العبد يفعل بإرادته واختياره ، ولم يتحقق معنى «تشاءون» فى قوله : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » ، فإرادة الله وعلمه الأزليان

---

(١) آية ٥٣ سورة الأنفال

(٢) من آية ١١ سورة الرعد

لا إخلال فيهما بإرادة العبد ومشيئته ، بل هما محققان لهما . ولقد أبدع جل وعلا فيما سنه للإنسان من نظامه الاجتماعي ، فربط المسببات بأسبابها ، وهداه النجدين : طريق الخير والشر ، ونصب لكل منهما مغريات وبواعث تدعو إليه ، فأودع فيه الميل للشهوات ، واختلاس الفرص وحب الذات ، وأشرب نفسه الميل للعلو على الغير وحب الانفراد بالطيبات ، مما يكون مدعاة للأنانية والاستئثار ، وأعطاه من سلاح القوة ما يستطيع به التغلب على مزاحمه ومنافسه ، فتطغى بذلك فيه قوة الشهوة والغضب والأنانية والإثرة ، ويميل إلى الظلم والاستهتار والخلاعة والمجون ، ولكنه لم يدعه لهذه المهلكات تفتك به وتشقيه ، وتجعل حياته تعسة بما يتفشى فيه من تناحر وتطاحن ، وبما يوهن من عزيمته من خلود إلى الدعة والراحة واستغراق فى الشهوات واللذائذ ، بل عصمه أولا بنعمة العقل والتمييز والإدراك ، حتى يبصر عاقبة كل فعل حلا مبدؤه وخبثت عاقبته ، فيعتبر ويزدجر بما مر عليه من تجارب ، وأمده ثانيا بنعمة الشرائع تتنزل من لدنه جل وعلا رحمة بالناس ، فتعين العقل على مغالبة العواطف ، وقد جاءت الشرائع لسعادة الناس مناسبة لحالهم فى كل عصر وأوان ، حتى كمل الإنسان واستعد لتلقى أعظم وأدوم شريعة جامعة لمصلحته فى كل طور وكل عصر ، وكفيلة بسعادته فى الدنيا والآخرة ، ومنظمة لعلاقته بربه على أكمل الوجوه وأتمها ، ومنظمة لعلاقة أفراده بعضها ببعض ، سواء فى الاجتماع الملاصق القريب وهو باب الأحوال الشخصية ، أو فى المجتمع البعيد على اختلاف مراتب البعد من السياسة المدنية كالمعاملات والحدود ، والسياسات الدولية كالمحالفات والعهود ، وصون كل أمة حياتها وحمايتها مصالحها . وجاءت الشريعة موقظة للعقل ، هادية له إلى سبيل الخير ، مرشدة إلى ماينبغى عمله وما ينبغى تركه ، ببيان عاقبة كل فعل من خير أو شر ، حتى يتقوى سلطان العقل على سلطان الهوى ، لكى لايكون للناس على الله حجة بعد الرسل . فجاء فى الشريعة الغراء قصص الأمم الماضية وما انتابها وحاق بها من سوء أعمالها ، وعدد بالتفصيل ما أنعم الله به عليها وما مكن لها فى ملكه .

وشرح ما أصابها حين استغرقت فى لذائذها وشهواتها ، أو غلب عليها الغرور وانغمست فى الشرور بطغيانها . كل ذلك جاء تفصيلا فى غير ما آية من الكتاب العزيز ، ليكسر من حدة اعتداد الإنسان بنفسه ، وتماديه فى غروره ، ونسيانه أن الاعتدال فى كل شىء هو مصدر بقاء بنيان الكون ؛ وأن الميل هو سبب التهدم والانهيار . وجاءت هاتان الآيتان تجمعان ما تفرق فى كثير غيرهما من الآيات والعظات ، فهما من أجمع جوامع الكلم ، ولقد جرت عادة الله فى الأقوام والأمم أن من سلك للحياة سبلها القويمة ، ودأب على مراعاة قوانينها المنظمة ، فإنه إن كان فى أول أمره فى فقر وعدم فإن دأبه فى عمله الصالح وجده فى تحصيل خيرات الله التى وعدها لمن أحسن عملا ، سيغيره به الله من فقر وعدم ومن وحدة ووحشة ، إلى يسار وغنى ، وإلى عمران وكثرة ، وإلى راحة وهناءة . انظر إلى الأمم تبدأ بالبداوة والوحشية فتستمرىء طعم العمل والجد ، فلا تلبث أن تغدق عليها الخيرات والنعم . فإذا ما استمرت فى سلوك هذا السبيل كانت كل يوم تزداد نعماً ورغداً ، وهكذا حتى يدال لها على غيرها وتصبح فى عز ومنعة ، فتصلح لأن تسود غيرها ، ويمكن الله لها فى ملكه حتى تصبح مهيمنة على كل أمة تتصل بها ممن لم يجد جدها ولم يكد كدها ، ولم يرع قانون الاعتدال فى أحواله مثلها . فإذا ما طغت تلك الأمة وحادت عن الجادة ، واستمرأت مرعى الشهوات الوخيم ، واستنامت للراحة والكسل ، وانغمست فى اللذائذ التى تأكل الهمم وتبرد العزائم ، وتميت الرجولة وتذيب النفوس ، ضاعت منعتها ، واضمحلت حياتها ، وذهب ريحها ، وأبدل بها الله من هو خير منها فى استعمار الأرض والسيطرة على الحياة . وذلك ما ذكره الكثيرون فى تفسير قوله تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . ومثل الاسترسال فى الشهوات ، الاندفاع فى الطغيان ، والتمرد على بنى الإنسان ، والمجافاة لقانون العدل والإنصاف ، والتمادى فى اغتيال الحقوق ، والاستئثار بالثمرات والخيرات اعتماداً على القدرة وقوة البطش . فهذا أيضاً باب من أبواب

الهلاك والدمار ، فإن أقرب نتائجه انصراف هم العاملين المغلوبين عن استعمار الأرض واستثمارها ، فيعم الخراب القوى والضعيف ، وينزل مقت الله على الجميع . وهكذا تجد الآية الكريمة مقررة هذه القاعدة الاجتماعية الصادقة ، وهى أن تغيير الله لحال الأمم تابع لتغييرهم ما بأنفسهم من خير إلى شر أو من شر إلى خير . تنقل بنظرك حيث شئت فى أمم حاضرة تشاهدها ، أو ماضية تقرأ أخبارها ، تجد القاعدة مطردة ، وتجد نظام الكون دائم السير على نظام واحد ، لا يفرق بين قوم وقوم ، ولا بين أمة وأمة ، وأن كل شىء قد ارتبط بسببه ارتباطا محكما لا يؤثر فيه غيره ، وليس بلازم إذا رقت أمة فى شىء أن ترقى فى كل شىء ، ولا إذا انحطت فى شىء أن تنحط فى كل شىء ، وإنما اللازم أن ما وضعه الله عز وجل من ارتباط شأن من شئون الحياة بشأن آخر منها ، قد أحكم نظامه ، وأوثق رباطه فلا يخلف من اتبعه ، سواء أكان من أبواب الخير أم من أبواب الشر . لا تجد أمة جدت فى إتقان صناعتها وضاعت عليها ثمرة إتقانها ، ولا أمة اجتهدت فى ترقية زراعتها وخيب الله سعيها أو أخلفها خيره وميره ، ولا أمة هذبت أخلاقها وقوت خلق الصدق والأمانة بين أفرادها ، وكافأها الله على ذلك بضياع الثقة والطمأنينة بين أفرادها بعضهم مع بعض ، أو ضاعت بها عند الأمم الأخرى المجاورة لها العارفة بأحوالها ، سواء أكانت فيما بينها وبين ربها قائمة بحقوق العبادة أم أخلت بها . ومن ذا الذى يقول : إن أمة غلبت عليها شقوتها واستحوذت على عقولها شهوتها وأخلدت إلى السكينة والراحة ، واستعذبت الكسل واستمرأته ، ثم اكتفت بأن قامت بمراسم العبادة قياما صوريا لم يتغلغل إلى قلوبها ، ولم يملك عليها وجدانها ملكا يضبط جوارحها ويهذب من أخلاقها ويبعدها عن مغاضب الله فى الصدق والأمانة ، تكون هى الحائزة للسيطرة على هذه الحياة . إن لكل طريق غاية يوصل إليها ، ولكل عمل ثمرة منتظرة منه ، ولكل خلق فائدة تترتب عليه ، ولكل سبب مسبب منوط به « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » لافرق فى ذلك بين خيرات الدنيا والآخرة

وشرور الدنيا والآخرة ، فمن قام بعبادة ربه وأدى طاعته فقد سلم مما أعده الله للعصاة فى الدار الآخرة . ولكن هل إذا أضاف إلى ذلك التوانى والكسل وإهمال العمل ، تنهال عليه أمطار الرزق وينهمر عليه غيث الخير ؟ لا ، فكل مسبب مرتبط بسببه . بل إذا قال قائل . إن ثمرة الإيمان الصحيح هو أن يتبع المؤمن ما سنه الله لخلقه من مراعاة حكمته فى استخلافه لبنى الإنسان فى أرضه ، يستعمرونها ويستثمرونها ، بما وهبهم من قوة ، وبما مكن لهم فى الأرض ، وبما قال لهم فى كتابه العزيز : « خلق الله لكم مافى الأرض جميعا » أقول : إذا قال قائل : إن هذا من ثمرات الإيمان الصحيح ، لم يكن فى قوله بعيدا عن الصواب . فكما أنك تقول : إن من قام بإتقان عمله التجارى ربح ولا يلزم أن تصح زراعته ؛ ومن قام بإصلاح زراعته جنى ثماره ، وليس بلازم أن يحسن إدارة التجارة ؛ ومن حذق أساليب الصناعة ارتقت أعماله الصناعية وإن كان أجهل الناس بالزراعة والتجارة ، وهلم جرا ، فقل كذلك : إن من حذق أسباب العمران ارتقى العمران على يديه ، ومن قام بواجب الدين أثابه الله فى آخرته ، ومن أتقن الأمرين معا أحرز السعادتين ، ومن أهملهما معا خسر الصفقتين ، ومن كان فى حال ثم تبدل بها غيرها فقد أحرز نتيجتها شرها أو خيرها « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، وإن العدل الإلهى لعدل مطلق لا ينبغى أن ينتظر فيه أن يتعب امرؤ أو أمة ويجد ويكد ثم هو مع ذلك يحرم من الثمرات ، بينما آخر قد استنام وأخلد إلى الدعة والكسل ثم هو مع ذلك يفوز . كلا كلا ! إنما ذلك يجرى فيما بين العباد عن ظلم واعتساف ، فإذا ما استمر ذلك فى قوم وساد بينهم الظلم ولم يجدوا من يضع لهم حدا ينقذ الأمة من وخيم عواقبه ، فقد غيروا ما بأنفسهم ، فلا يلبثون أن يحل بهم من الخراب مايحقق قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

إن الآية تقرر قاعدة اجتماعية أى حكما يتعلق بالإنسان من حيث يجتمع هو وغيره فى شئون الحياة ، يرشدك إلى ذلك التعبير بلفظ قوم دون أحد أو إنسان أو امرىء أو نحو ذلك ، فلا يقال : قد نرى رجلا صالحا قام بعمل

واجتاحته جائحة أو ما يشبه ذلك ، لأن هذه الأحوال على ندرتها ليست من أحكام الاجتماع العامة ، وإنما هى من الحوادث التى يريدها الله لحكم قد نعلمها وقد لا نعلمها ، والله عليم حكيم . وإن تعجب بعد ذلك فعجب أن تتضافر المشاهدات المتكررة والوحى الصادق على إثبات قاعدة لا تزيدها التجارب إلا رسوخا ، ثم تدعو إليها مصلحة الأمم ، وتجدهم مع ذلك ينصرفون عنها ولا يعملون بمقتضاها . فهل هذا إلا من عمى القلوب ؟ سبحانك اللهم تهدى من تشاء وتضل من تشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد . ولو لم يكن الأمر كذلك ، وأنه إذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، فبماذا نعلل خروج الأمم العاقلة المبصرة على ما علمته علم اليقين ، وزادت به استبصارا بالتجارب والمشاهدات فى نفسها وفى غيرها ، ثم تتعين فيه مصلحتها ؟ فى مثل هذه الأمم تجد الأفراد يتقاذفون الملامات ، وكل يتنصل مما أصابها ويرمى غيره بأنه سبب بلائها . ولو أنصف كل امرىء من نفسه لعلم أنه بإصلاح حاله وقيامه بواجبه حق قيامه يكون قد أكسب أمته خيرين : خيرا بزيادة عدد الصالحين النافعين واحدا ، وخيرا بنقص عدد الفاسدين الشريرين واحدا ، وفى كل من زيادة المصلحين ونقص المفسدين فائدة ومنفعة . فاللهم اهدنا صراطك المستقيم ! ترى من هذا أن الآية الكريمة محتملة لإفادة العموم فى كل شئون الإنسان ، والحمل على العموم أغزر للفائدة .

ويكون التناسب بينها وبين الآى السابقة أن الكلام مبناه من أول السورة على بيان آيات الله الكونية الدالة على عظيم قدرته ، وبديع حكمته ، وواسع علمه ، وباهر نظام تكوينه ، فسيقت آيات الشمس والقمر والزرع والنبات وأمثالها ، وفصلت تلك الآيات بالتعجيب من حال المنكرين للبعث الآمنين مكر الله ، والنعى عليهم ، وتسفيه أحلامهم فى استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة ، وفى طلب إنزال آية ، كأن لم يكفهم ما رأوا ، ثم العود إلى تقرير الأدلة الناصعة على إحاطة علمه جل شأنه بكل ما خفى وما ظهر ، وأن جنده محيطون بالعباد ، ولا يفلت من أمرهم شىء ، ولا يصيبهم مما يحيطهم شىء إلا ما قضى وقدر ، وأن أمره نافذ فى جميع ملكه بلا معارض ولا ممانع . ثم أردف ذلك ببيان

أن نظام العالم فى ارتباط أسبابه بمسبباته نظام مطرد ، لا يختل عما رسم ، ولا يغاير ما حكم ، إلا أن تكون حكمة تقتضى أمرا معينا هو أعلم به وأمره موكول إليه ، وإلا فما عدا ذلك من إنتاج كل عمل ما رتب عليه من خير أو شر أمر مطرد ، فاحذروا أن يصيبكم ما أصاب المعوجين من خراب وهلاك ، وارجوا من فضله ورحمته ما غنمه من قبلكم ممن أحسنوا السير ، فلا السعادة ولا الشقاوة منثورتين فرطا ، ولا الأمور تجرى على غير هدى ، بل هو حكم بالغ ونظام كامل ، فمن اتبع سبيل الهدى والاستقامة أدرك السعادة ، ومن اعوج وضل ندم حيث لا ينفعه الندم « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . وجمهور المفسرين على أن معنى : « إن الله لا يغير ما بقوم -أى من النعم- حتى يغيروا ما بأنفسهم » أى من الطاعات ، وأنه لا ينزل عذاب الاستئصال والمقت إلا على العصاة . وهذا — على ما نقول — بعض ما تشمله الآية . ودلالتها — على ما نرى — أوسع مما ذكروه . وأما قوله تعالى : « وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » فموقعها مما قبلها يشبه ما يسميه علماء البديع « الاحتراس » فإنها تدفع ما قد يتوهمه متوهم من أن العالم حينئذ خاضع لما يجرى من العباد ويأتونه من خير أو شر ، فأين قدرة الله وإطلاق مشيئته وإرادته ؟ فجاءت هذه الآية لدفع هذا الوهم ، ورد الأمر إلى نصابه الحقيق ، ببيان أن من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله . وكون مشيئة الله أصلا لمشيئة العبد لا يقتلع ما للعبد من مشيئة ، فله مشيئة واختيار يبتنى عليهما تكليفه ، فيستحق الثواب والعقاب على ما أتى ، وتربى فيه الهداية التشريعية إرادة الخير لما فيه من النفع الدائم الخالد ، وتنتزع منه حب العاجلة حبا يضيع عليه الآخرة والآجلة . فهو مختار بلا شك ، ومكلف أن يتخير ما فيه الخير الحقيق لنفسه . وقد بين له الطريقين « وهديناه النجدين » فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » .

الحرب والسلام فى الإسلام :

والإسلام ، وهو شريعة السماء ، ودين الرحمة والإخاء ، قد دعا إلى السلام ، وحثا عليه وأكده تأكيدا ، ولكنه مع ذلك لم يغفل نوازع الشر فى النفس الإنسانية ، وأنه قد يتعين علاجها بالحرب ، وأن من الجماعات الإنسانية من يجب بترهم واستئصالهم لمصلحة الجماعة ومنفعتها فى حاضرها ومستقبلها ، كالجسم قد يكون سلامته فى بتر العضو الفاسد فيه . . ونحن نعلم أنه لما استقر النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وأسس بها حكومته النبوية على ما وصفناها فى الفصل المتقدم ، كان مقصودا بالقتل من قريش . وليس يعقل أن تغمض قريش عينيها ، ومصلحتها الحيوية قائمة على زعامة الدين فى البلاد العربية ، عن قيام زعامة أخرى فى بلد كيثرب يصبح منافسا لأم القرى ، وربما بزها سلطانا على العقول ، وكر على قريش فأباد خضراءها ، وسلبها حقها الموروث . ولا يسع الإسلام من جانبه مهما كانت ميوله سلمية «فاصفح عنهم وقل سلام» ، أن يستمر فى منع القائمين به عن الدفاع عن أنفسهم ، وعن الدين الذى أنزل للإنسانية كافة ، فى عالم يضيع الحق فيه إن لم تكن وراءه قوة تؤيده . فكان لامناص من السماح للمسلمين بحماية أنفسهم ودينهم بالسلاح الذى يشهره خصومهم فى وجوههم ، فأنزل الله قوله تعالى : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور . وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وكذب موسى ، فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير؟ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ! أفلم يسيروا فى الأرض فتكون

لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . ويستعجلونك بالعذاب ، ولن يخلف الله وعده، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون . وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة، ثم أخذتها وإلى المصير . قل يأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ، والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم » هذا ولم يغفل الإسلام حتى فى هذا الموطن ، موطن الدفاع عن النفس والدين ، أن ينصح لأتباعه بعدم العدوان ، لأن الموضوع حماية حق لا موضوع انتقام ولا شفاء حزازات الصدور . وهذا من مميزات الحكومة النبوية ، فإن القائم عليها من نبي يكون كالجراح يضع مشرطه حيث يوجد الداء لاستئصاله ، مع عدم المساس بالأعضاء السليمة ، ومقصده استبقاء حياة المريض لا قتله . والعالم كله فى نظر الحكومة النبوية شخص مريض تعمل لاستدامة وجوده سليما قويا ، خالصا من الأمراض العضالة . والإسلام باعتبار أنه دين عام للناس كافة ، يعد العالم كله أمة واحدة ، غير معتد بما أحدثته البيئات والتقاسيم الجغرافية بينهم من الفروق فى الألوان واللغات والأديان. لهذا السبب ولأن موحيه هو رب العالمين الذى وسعت رحمته كل شىء ، أحيطت جميع آيات الجهاد فيه بأوامر مشددة فى مراعاة العدل مع المحاربين ، وعدم الإسراف فى سفك دمائهم، والاعتداد بالظاهر من أعذارهم ، مما يعد مثلا عليا لم تصل المدنية بعد جهادها الطويل ألوفا من السنين إلى خيال منها ، ناهيك أنه يحرم على أهله أن يقتلوا خدم المحاربين الذين يمدونهم بالطعام والشراب، ويعينونهم على حمل عتادهم، وخدمة دوابهم ،وهذا غير ما أمر من احترام حياة شيوخهم وولدانهم ونسائهم ورجال أديانهم ، وعدم الإجهاز على جرحاهم ، وعدم تعقب مهزوميهم للفتك بهم من خلفهم ، فقال الله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وقال : « ولا يجرمنكم شنآن قوم ـ أى ولا يحملنكم بغضكم لقوم ـ ، أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن

الله شديد العقاب » وقال : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون. بهذه القيود الرحيمة ، وفى هذه الحدود العادلة ، أذن الله للمسلمين أن ينبذوا لأعدائهم على سواء ، وأن يقابلوا قوتهم بمثلها حتى يحق الله الحق ، ويزهق الباطل ، ويظهر دين الله على جميع ما حاكته الأوهام من عقائد باطلة ، وخيالات عاطلة. ولما كان القرشيون قد صارحوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالحرب - ولو كان تركهم وشأنهم بعد شخوصهم إلى المدينة لما تركوه وشأنه - فقد اعتبرهم فى حالة حرب ، وعاملهم على موجب هذا الاعتبار .

هذا ولا بد لنا من نفى شبهة كثيرا ما أثارها خصوم الإسلام ضده ، إذ قالوا: إن الإسلام دين شرعت فيه الحرب ، والدين الحق يجب أن يتنزه عن ذلك فلا يدعو إلا إلى السلام ، لأن الحرب من بقايا الوحشية الأولى ، ولا يجوز أن يعتمد عليها دين إلهى أنزل ليكون رحمة للعالمين .

لا جرم أن الذين يدلون بهذه الشبهة لا يعرفون من طبيعة العالم الأرضى ومن عوامل الاجتماع الإنسانى ، ولا من تاريخ الأديان السماوية ، ما يجب أن يعرف ليجىء حكمهم عادلا ، ورأيهم مسددا .

إن طبيعة هذا العالم مبنية على التدافع والتغالب ، ليس فيما بين الناس فحسب ، ولكن فيما بينهم وبين الوجود المحيط بهم ، وفيما بين كل فرد والعوامل المتسلطة عليه من نفسه . ولا تشذ عن هذه القاعدة العامة الحيوانات ولا النباتات أيضاً . وقد بنى علماء النبات والحيوانات وعلماء الإنسان على هذا التدافع كل ترق طرأ على هذه العوالم الثلاثة ، ولا أظن أن قارئا من قرائنا يجهل الناموس الذى اكتشفه دارون وروسل ولاس ودعواه ناموس تنازع البقاء ، وبنيا عليه كل تطور أصاب الأنواع النباتية والحيوانية والإنسان أيضا. وقد أشار الله إلى خطر هذا الأصل العظيم بقوله تعالى فيما يتصل بالإنسان : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله

ذو فضل على العالمين » . وإنما تفسد الأرض بتغلب الأشرار ، وتقاعس الأخيار عن التنكيل بهم . وفضلا عن تغلغل الأشرار فى شرورهم ، فإنهم لا يدعون الأخيار أحرارا فى ممارسة فضائلهم . وقد صرح الكتاب الكريم بهذا فى قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ، وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » . ألم تر كيف تصدى خصوم الدين النصرانى للمسيح وما كان يدعو إلا للصلاح والسلام ، حتى أنهم استصدروا أمرا بصلبه فنجاه الله منهم ، ومازالوا بالذين اتبعوه يضطهدونهم ويقتلونهم حتى مضت ثلاثة قرون وهم مشردون فى الأرض لاتجمعهم جامعة ، إلى أن حماهم من أعدائهم السيف على يد الأمبراطور قسطنطين الرومانى ، واتفق أنه كان يدين بالنصرانية ، فلما ولى الملك أعمل السيف فى الوثنيين ، وهدم هياكلهم ، وأجبرهم على قبول المسيحية دينا لهم . ومن ذلك العهد أمكن المسيحيين أن يجاهروا بدينهم ، وأن يتخذوا لهم زعامة دينية . وأفادهم هذا الدرس القاسى فى ضرورة استخدام السيف لنشر الدعوة ، ولقمع الوثنيين ، حتى دانت لهم أوربا كلها . ولا يمكن أن ينسى أحد ماحدث بين البروتستانتية والكاثوليكية من الحروب الماحقة حتى استقر كل فريق منهم فى الحيز الذى هو فيه .

أو لم تر أيضاً كيف تصدى الجاهليون لمحمد صلى الله عليه وسلم فمنعوه عن نشر الدين الذى أوحاه الله إليه ، وانتهى أمرهم بالتألب عليه لقتله ، والفراغ من أمره ؟ ثم ماحدث منهم بعد أن هاجر إلى المدينة حيث تقصدوه بها ، مؤلبين عليه القبائل الجاهلية لإبطال أمره ، والتعفية على أثره ؟ .

أفيريد مثيرو هذه الشبهة أن يقوم دين على غير السنن الطبيعية فى عالم مبنى على مبدأ التدافع والتنازع ، واستخدام القوة الحيوانية لطمس معالم الحق ودك صروح العدل ؟

يقول المعترضون : وماذا أعددتم من حجة حين تجمع الأمم على إبطال

الحروب ، وحسم منازعاتها من طريق التحكيم ، وهذا قرآنكم يدعوكم للجهاد، ويحثكم على الاستبسال فيه ؟ نقول : أعددنا لهذا العهد قوله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » هذه حكمة بالغة من القرآن ، بل هذه معجزة من معجزاته الخالدة ، وهى أدل دليل على أنه لم يشرع الحرب لذاتها ، ولكن لأنها من عوامل الاجتماع التى لابد منها مادام الإنسان فى عقليته ونفسيته المأثورتين عنه . غير أنه لم ينف أن يحدث تطور عالمى يتفق فيه على إبطال الحرب ، فصرح بهذا الحكم قبل حدوثه ليكون حجة لأهله من ناحية ، وليدل على أنه لايريد الحرب لذاتها من ناحية أخرى . ولو كان يريدها لذاتها لما نوه بهذا الحكم . ولو كان ذكر له إمكان جنوح الأمم للسلم ، لكر على هذا القول بالدحض ، ولحض أهله على عدم الإصغاء إليه ، وعلى اعتباره من عوامل التثبيط لهم .

ومما يجب لفت النظر إليه ، أن الإسلام قد أشاد بذكر كلمة السلام بما لم يفعله مذهب اجتماعى قبله . ناهيك أن الله قد سمى نفسه السلام ، وجعل السلام تحية الإسلام يتبادلها المسلمون فى اليوم ملايين المرات ، ونوه القرآن فى آيات كثيرة بكلمة السلام ، ودعا الجنة التى وعد بها المؤمنون بدار السلام وذكر أن تحية أهلها فيها سلام ، فجواء البلاد الإسلامية مشبعة بهذه الكلمة يتنفسها المسلمون ممتزجة بأوكسيجين الهواء ، وليست هذه سيرة الأمم التى تجعل شعارها الحرب فى الحياة ، ولكنها سيرة الذين يحبون السلام ويعملون على رفع لوائه بين الناس .

ويزيد هذا الأمر اتضاحا أن الإسلام إنما سمح بالحرب لإيجاد السلام ، لا لتأييد مبدأ التناحر بين الأنام ، فقال تعالى : « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله » . ومن العجيب أن الأمم المؤيدة للسلام هى فى مثل هذه الضرورة اليوم ، فقد تجردت لحرب طاحنة مكرهة عليها ، لاهم لها إلا إيجاد السلام ، فعلى من يتهم الإسلام باقرار مذهب التناحر أن يعتبر بما سيقت إليه الأمم الديمقراطية اليوم من مجزرة بشرية هائلة دفعت إليها دفعا

فى سبيل تحطيم مبدأ التناحر لافى سبيل شىء آخر . فإذا كانت هذه الأمم التى وصلت إلى درجة رفيعة من المدنية ، تضطر إلى الدخول فى مثل هذه الحرب الماحقة ، فى القرن العشرين ، أفلا تكون أمثال تلك الضرورة تنشأ فى الجماعات التى فى دور التكون لتحمى وجودها ، فى عالم كان كل مافيه موجها إليها لحلها ، وملاشاة كل ماحملته من عوامل الهدم والبناء لتأسيس عهد جديد يخرج بالإنسانية من الظلمات إلى النور ؟

يتضح مما مر كله أن اعتراف الإسلام بالحرب ، كضرورة لامحيد عنها ، كان لحكمة بالغة ، لو أغفلت لكان تلاشى كل ماحمله الإسلام من عوامل إنهاض الأمم ، ووسائل نقلها من عهد البداوة والاستبداد إلى عهد الحضارة والمدنية والعدالة والإنصاف .

قومية إسلامية عربية :

تشير الآية الكريمة « وألف بين قلوبهم » إلى نزعة القومية الإسلامية العربية وتمكنها فى قلوب المسلمين . .

والقومية مجموعة من الخصائص والطباع والتقاليد والمزايا والنظم الاجتماعية تنطبع على مر الأجيال فى نفوس قوم تعرف بهم ، ويعرفون بها .

أما الوطنية فهى ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الوطن . وهى عاطفة تصدر من أعماق النفس ، لافكرة تتولد من ملاحظات العقل . فمفهوم الوطن بهذا المعنى أوسع بكثير من مفهوم مسقط الرأس ، وعلاقة الإنسان بوطنه لم تكن وليدة تفاعل مادى محسوس ، كما أن حدود هذا الوطن لاتتصف بالمشاهدة المباشرة . فالوطن يشمل كثيراً من البلاد التى لم يعش المواطن تحت سمائها ولا شرب من مائها ، ولا استطاع أن يمتع النظر بمشاهدتها فعلا . ومع أن بعض الناس ينشأ بعيداً عن وطنه أو قد يكون منفياً عنه أو متألما من نظام حكومته أو سياستها ، إلا أنه مع ذلك كله يحبه ويعمل فى سبيل سعادته ورفعته . .

ذلك هو المواطن الصالح الذى يعرف معنى الوطن فيحبه ويسارع إلى خدمته ويضحى فى سبيله . والفكرة القومية تتغلغل فى النفوس تغلغلا يجعلها أحدى القوى المؤثرة فى تكوين الدول وتوجيه السياسة الدولية . فنشأت دول كثيرة على أساس من هذا الوعى القومى .

وقد ظهرت القومية العربية ظهورا واضحا بعد الفتوحات المحمدية فى جزيرة العرب ، ولما امتدت الفتوحات الإسلامية فى الشرق والغرب ، وهاجر العرب إلى الدول القريبة ، ونشروا اللغة العربية فيها ، وصاروا عنصرا مهما من عناصر السكان المكونين لها ، أصبحت قومية العروبة وآصرتها تجمعهم ، ثم لما امتدت الفتوحات الإسلامية فى الشرق والغرب صارت القومية الإسلامية تجمع المسلمين فى كل مكان على الاتحاد والتجمع والتكون .

وأساس ذلك كله المجتمع الصغير الذى كونه الرسول فى المدينة ، وانبعثت منه طاقات روحية ضخمة ، وامتد أثره على المسلمين الذين كونوا على الرغم من اختلاف عناصرهم قومية واحدة امتد أثرها على الأجيال والتاريخ . فصنع المسلمون المعجزات ، وبهرت حضارتهم العالم ، وكتبوا تراثا خالدا ممثلا لقصص البطوله والمجد والكفاح من أجل المثل الإنسانية الرفيعة ، ومن أجل مستقبل البشر وإسعادهم ، ومن أجل تأثيل الحضارة والمدنية والمعرفة ، وإتاحة كل الفرص الممكنة المواتية أمام بنى البشر جميعا ، ولكن هذا التاريخ قد نسيناه ونسينا أمجاده ، وعمل الاستعمار بكل وسائله على أن ينسينا إياه ، فبدد مصادره ، وأخفى معالمه ، ومنع تدريسه فى جامعاتنا ومعاهدنا مدة طويلة ، كان الشرق الإسلامى خلالها خاضعا لنفوذه وسلطانه ، بل لقد صادر الاستعمار كل ما يكتب عن هذا التاريخ الحى المشرق التليد ، حتى عهد قريب . . هذا التاريخ كله مآثر ومفاخر لو وزعت على أمم الأرض جميعا لوسعتها بطولة وكفاحا ومدنية وحضارة ومعرفة ؟ ولو كنا نعى ونقدر تاريخنا ونضالنا خلال عصور التاريخ ، لرأينا أمجاده ممثلة فى تماثيل جليلة تهتز بها الميادين ، وفى قصص

بليغة يحفظها النشء ويرددونها فى قصائد قصيرة وملاحم طويلة ، وتمثيليات مثيرة وفى كتب مصورة للأطفال ، وفى موسوعات مطولة للباحثين والدارسين ، وفى أغان وقصص شعبية ، ولو كنا حريصين على تاريخنا نقدره ونعيه لصنعنا منه المعجزات ، كما يفعل غيرنا ، بل لجعلناه أساطير منسوجة من خيوط الحقيقة ، لا من خيوط الخيال الذى ينسج منه الأوربيون تاريخهم.
وأعجب مآسى تاريخ الشرق الإسلامى أن الاستعمار استطاع أن يلقننا أن تاريخنا كله خلو من الحياة والروح والتضحيات والبطولات ، وأنه تاريخ ميت ، لا يسعى إلى هدف ، ولا يسير إلى غاية ، وأنه تاريخ لم يفد الحضارة ولا الإنسانية شيئاً ، وأنه كله منازعات بين الطوائف والجماعات والعصبيات ، وأننا لا بأس أن نسدل عليه الستار ، فلن نستفيد من المعرفة به شيئاً ! ومن المآسى الدامية التى أحاط بها الاستعمار تاريخنا أنه سرق كل أمجادنا وبطولاتنا واختراعاتنا وأعمالنا ، فأخذها وادعاها لنفسه ، بعد أن أصبح لدول الاستعمار السيطرة على العالم الإسلامى ، ثم لقننا أن المسلمين لم يصنعوا شيئاً ولم يكن لهم فى مجال البحث والاختراع والحضارة جهد ما ! والأدهى من ذلك أنه عاد فجعل كثيراً من الدول الإسلامية التى كانت تعيش فى قلب أفريقية أرضا مجهولة ، وأن « المكتشفين » الغربيين قاموا بعدة رحلات لاكتشاف هذه البلاد النائية حتى عثروا عليها ، وأطلعوا العالم على خريطتها ! هذه كلها أشياء من صنع الاستعمار وكيده ومكره ودهائه ، وما أفظع ما صنع الاستعمار بنا من مآس ومكائد . .
وعندما نعى أحداث التاريخ الإسلامى نعرف هذه الحقائق المذهلة :

١ — تاريخ المسلمين فى جميع العصور مملوء بالبطولات وروائع التضحيات وهو غنى بأمجاده ومفاخره .

٢ — تاريخنا هو تاريخ الحضارة والمدنية والمعرفة ، وتاريخ الكفاح من أجل تقدم الإنسانية ، ومن أجل النهوض بمستوى الحياة البشرية ، ومن أجل المثل والقيم الرفيعة .

٣ — عرف المسلمون كثيراً من أصول المخترعات الحديثة التي ينسب الأوربيون لأنفسهم فضل معرفتها والكشف عنها .

٤ — ابتكر المسلمون النظام الديمقراطي النيابي وطبقوه في الأندلس تطبيقاً كاملا ، وكان الذين قاموا بتطبيقه هم بنو عباد ملوك أشبيلية .

٥ — اكتشف المسلمون القارات كلها ، وقاموا برحلات علمية إلى جميع أطراف الأرض والمحيطات والبحار ، وإلى أواسط أفريقية ، وإلى شمالي أوربا .

٦ — قامت الدول الإسلامية في أنحاء العالم الإسلامي بأعمال مجيدة في خدمة الشعوب ، والترفيه عنها ، ودفع عجلة الإصلاح فيها ، وابتكرت الكثير من هذه الدول الإسلامية نظام مجانية التعليم ، ومجانية العلاج ، والضمان الاجتماعي ، والنظام الاشتراكي التعاوني في رؤوس الأموال ، وأقامت الملاجيء والمستشفيات والجامعات ودور العلم ودور الضيافة ، وأسست الكثير من المصانع ، وابتكرت أدق النظم في تطبيق العدالة وفي القضاء .

٧ — ألغت الدول الإسلامية الحواجز الجمركية بينها ، وجعلت الشرق الإسلامي كله شبيها بولايات متحدة إسلامية ، بل كان النظام فيها يسير نحو هدف إنشاء حكومة عالمية موحدة .

٨ — أنشأت الدول الإسلامية فيما بينها أحدث نظم البريد ، وأنشأت خطوطا منظمة لقوافل التجارة في البر والبحر .

٩ — صاحب التاريخ الإسلامي في جميع عصوره حركات ثقافية وروحية وفكرية واسعة النطاق في جميع أنحاء بلاد المسلمين ، وعكف العلماء والمفكرون على البحث والتأليف ، فأنتجوا لنا ثروة ذهنية ليس لها نظير في التاريخ الثقافي لأي شعب من الشعوب .

١٠ — حاربت أوربا بوسائلها المختلفة الإسلام ، وعملت على تعويق النهضة الإسلامية والزحف الإسلامي الأكبر ؛ ومعركة بواتييه ، ومعارك

الحروب الصليبية ، ومعارك المسيحيين مع المسلمين فى الأندلس ، هى أمثلة واضحة لذلك . بل إن أوربا قد سعت فى القرن السابع والثامن الهجرى للتحالف مع مغول آسيا للقضاء على العالم الإسلامى وتدميره ، ولولا مصر ووقفاتها الرائعة فى حطين وعين جالوت لدمر العالم الإسلامى تدميرا .

١١ — أوربا لا تزال حتى اليوم تحارب الانبعاث الإسلامى ، وموقفها اليوم فى حرب القومية العربية أصدق شاهد على ما نقول . بل إن موقفها من مأساة فلسطين وصنعها هى لهذه المأساة لهو أوضح دليل على ما نقول . . ومن قبل طرد المسلمون من الأندلس عام ٨٩٧ هجرية ، ثم أنهى الإنجليز الحكم الإسلامى فى الهند عام ١٨٥٧ ميلادية وقبضوا على آخر الملوك المسلمين فى الهند من الأسرة المغولية ، وهو الملك بهادور شاه ، وقتلوا كل أعوانه وأنصاره وأهل بيته ، وأقاموا المذابح العامة فى الشوارع والميادين ، وقتلوا أولاده أمامه ، ونفوه إلى رانجون عاصمة بورما ، حيث توفى وحيدا فيها فى ٧ نوفمبر ١٨٦٢م وكتب فى مذكراته قبل وفاته بقليل يقول : « من يوقد الشمع على قبرى ؟ ومن يأتى إليه بالورود ؟ نعم لا ورود ولا شموع حتى لا تأتى فراشة تحوم حولى ، ولا يصدح بلبل غريد فوق قبرى » . وكتب أيضاً يقول : « يا رسول الله ، كانت أمنيتى أن يكون بيتى فى المدينة بجوارك ، ولكنه أصبح فى رانجون ، وبقيت أمنياتى مدفونة فى صدرى . يا رسول الله ، كانت أمنيتى أن أمرغ عينى فى تراب أعتابك ، ولكن ها أنذا أتمرغ فى تراب رانجون ، وبدلا من أن أشرب من ماء زمزم بقيت هنا أشرب الدموع الدامية ، فهل تنجدنى يا رسول الله ولم يبق من حياتى غير عدة أيام » . !!

إن القومية الإسلامية التى كان أساسها المجتمع الإسلامى الصغير الذى أنشأه الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، وآخى فيه بين الأنصار والمهاجرين ، وألف فيه الله بين قلوب المسلمين حتى اجتمع الأوس والخزرج وغيرهم على توحيد الله وطاعته ، هى القومية الإسلامية التى صنعت المعجزات

خلال الأجيال ، وقاومت المغول التتار والصليبيين وغيرهم خلال عصور التاريخ ، وكانت الخلافة الإسلامية تجمع شمل المسلمين فى كل مكان . والآن لما نجح الاستعمار فى هدم الخلافة الإسلامية ، ولما وزع سياسات الدول الإسلامية ، أخذنا فى الدعوة من جديد إلى قومية عربية تعمل لوحدة شعوب العرب ، ولمجد أمة العرب ، ولخدمة تاريخها وتراثها ، ومن يدرى فقد تسير القومية العربية بالمسلمين وجهة جديدة ، تجمع شملهم وتلم شعثهم ، وتعيد وحدتهم الكبرى ، وفى التاريخ الإسلامى خلال العصور معجزات ليست فى حسبان أحد .

صمود الإسلام أمام العلم :

ولقد دل الإسلام على مناعة لاترام فى جميع أدوار تاريخه ، فاحتك بالأديان التى سبقته ، وقد كان يتولاها رجال بلغوا من الثقافة العلمية ما لم يكن له ظل فى البيئة التى ظهر فيها الإسلام ، ومرنوا على الجدل مرانا طويل الأمد فى مجادلة الخصوم ، ومجالدة المبتدعة ، فلو لم يكن فى الإسلام من عناصر الغلب إلا ما تسمح به الأمية التى كانت عليها الأمة العربية ، والجاهلية التى كانت ضاربة بجرانها فيهم ، لظهر ضعفه من أول مصادمة ، ولما اجتذب من صميم الديانات التى كانت عليها الأمم المتمدينة إذ ذاك ، رجالا كانوا فى الذؤابة من ذويهم . وقد أبان الإسلام أيضا عن مرونة بحيث كان يؤثر حتى فى عقول الجماعات البدائية ، فيجد طريقه إلى نفوسها من خلال حجب كثيفة من العادات والتقاليد والوراثات ، فيخلعها عنها بلباقة لايعرف لها سر ، ويحولها إلى درجة العقيدة الراسخة به ، على حين أنها كانت اعصى قيادا على دعاة الملل من الشعوب المتعلمة . ألم يتبار دعاة الإسلام ، وكلهم من التجار والمرتزقة ، ودعاة الأديان الأخرى ، فى مجاهل أفريقيا ، فكانت النتيجة أن دخل فى الإسلام عشرات الملايين من النفوس ، وخاب مزاحموه خيبة أصبحت مضرب الأمثال إلى اليوم ؟ واليوم يدعى الإسلام ليجرب نفسه مع

العلم ، العلم الذى نعته دعاة الملل بأنه جبار عات ، ما صاول دينا إلا تغلب عليه ، وأجلاه عن أرضه ؛ فيقول الذين افتتنوا بالقشور العلمية : إن هذا الدور هو الذى سينتقم العلم فيه من الإسلام ، ويذيقه من الانحلال ما أذاقه للأديان التى نافسها وتغلب عليها ، واتخذ من أهلها شيعة له ، على الرغم من أنه أجنبى عنها، وكتابه عربى ولغتها أعجمية . سيخيب فأل هؤلاء الدعاة كما خاب فأل أسلافهم ، حين احتك الإسلام بالإسرائيلية والمسيحية ، والنحل الفارسية والسوريانية والكلدانية ؛ لأن العلم الذى يزعجوننا به اليوم ، ليس هو علم الأمس العاتى المتغطرس الذى كان يخيل إليه أنه كشف مكنونات الخليقة ومساتيرها ، وسرى فى سرائر الوجود ، فحكم عليه حكما لا يقبل النقض ؛ ولكنه علم القرن العشرين الوادع المتواضع ، الذى يملؤنا يقينا بأنه لم يلم بعد طول مراسه للكائنات ، إلا بقشورها وعلاقات بعضها ببعض ؛ أما حقائقها فلم تزل تتأبى عليه ، وتخفى فى صميمها سرا لو انكشف له لتغير فهمه فى الوجود كل التغير ، ولرأى أنه فى اشتغاله بظواهرها، ووقوفه عند حدودها ، وبنائه المذاهب عليها، كان يخوض فى أوهام متراكبة بعضها فوق بعض ، إن العلم سيكون من أقوى أعوان الإسلام ، لأن الأصول الإسلامية ، والمبادىء القرآنية ، تتفق وأمثالها من التى أوجدها العلم كل الاتفاق ، فلن يكون بينهما موطن نزاع على شىء من الأشياء . ولئن وجد فإن الإسلام بما قرره من مبدأ التأويل متى أثبت العقل والعلم صحة شىء ، يخرجه من هذه المآزق مرفوع الرأس . وقد احتك آباؤنا الأولون بالعلم ، تحت حماية هذا المبدأ الأصولى الجليل ، فلم يصادفوا منه خطرا على عقائدهم ، ومضوا حيث مضى قدما ، فبلغوا منه غاية لم يبلغها واضعوه أنفسهم ، واستفادوا من وسائله على أوسع ما تسمح به ، فكانوا السابقين إلى أسرار الصناعات ، وأساليب الإبداعات ، مما جعل مدنيتهم المادية من الرفعة ، فى مستوى عقائدهم الدينية من المنعة ، وخلفوا وراءهم من الآثار مالا يزال المؤرخون يكتشفون من غرائبه ما يطرفون به معاصريهم . نعم إن آباءنا هؤلاء قد عادوا الفلسفة ، ولهم فى ذلك تاريخ لا يستطاع إنكاره ،

ولكن هذه المعاداة فضلا عن أنها لا تشين سمعتهم ، فهي تستنزل العجب من حكمتهم ؛ ذلك لأن الفلسفة ضرب من الخيالات التصورية ، وأنت خبير بقيمة الخيالات من الفلسفة العصرية ، وبما تصف به الآخذ بها من انحطاط القوى العقلية ؛ فيكون استعصاء أئمة المسلمين على سلطان تلك الخيالات ، في عهد كان فيه سلطانها على العقول لا يستطاع دفعه ، من أقوى الدلالات على سعة عقولهم ، وسمو مداركهم ، وعلى حكمة التعاليم التي كانت تمنعهم من التزامي عليها كما ترامت عليها أكثر الأمم . إن مناعة الإسلام التي ضربت بها الأمثال ، بعد أن خرج فائزاً من جميع ما صادفه من الخصومات في تاريخه الطويل ، ستتكلل بانتصار جديد على المذهب المادى الذى يحاول فلوله اليوم في بلاد المسلمين أن ينشئوا له دار هجرة يأوى إليها ، بعد أن لفظته الأقطار الغربية حين ثبت لها أنه قائم على إيمان تقليدى راسخ ، بخلو الوجود من غير المادة وقواها ؛ لا على بحث قيم ، ولا تجربة حسية . والعلم بعد أن شابت ناصيته في التطور ، ورأى خطر التحكم الوهمى على كماله ، يأبى أن ينقاد بعد اليوم لمن يصف بالوجود أو بالعدم ما ليس له به علم ثابت . وهذا هو الأصل الأول للفلسفة الحسية . ويقول العلامة (ليتريه) في كتابه « كلمات في الفلسفة الحسية » : « بما أننا نجهل أصول الكائنات ومصائرها ، فلا يجوز لنا أن ننكر وجود شيء سابق عليها أو لاحق لها ، كما لا يجوز لنا أن نثبت ذلك » . ويقول الفيلسوف روبينيه في كتابه « الفلسفة الحسية » : « يريد الفلاسفة الحسيون أن يبعدوا عنهم كل خيال أو توهم ، وأن لا يعتمدوا إلا على المشاهدة المحسوسة ، وان يحذفوا من أقوالهم كل الافتراضات التي لا يمكن تحقيقها » .
هذه هي أصول فلسفة العصر الحاضر ، فهل الماديون منها في شيء ؟ هل منها حكمهم البات بقدم المادة وأبديتها ، وبعدم وجود عالم أرفع من عالمها ؟ لا ، ليس منها هذا ولا ذاك ، ولكن إذا وفق رجال من أهل العلم إلى البحث في منحى جديد من مناحى الوجود ، فأكدوا لنا عثورهم على آثار عالم فوق هذا العالم ، وبقيام عقول كعقولنا فيه مجردة عن المادة ، ودعوا إخوانهم من كل جنس لشهوده ؛ فلبوا الدعوة وأيدوهم فيها ، وما زالوا يكثرون حتى بلغوا

الألوف فى تسعين سنة متوالية ، فبأى حق ننكر عليهم مايقولون وهو خاضع للتجربة ؟ إذا كنا ننكر ذلك العالم العلوى بحجة أنه مما لا ندركه بأبصارنا ولا نحس به بمشاعرنا ، فإن فى الوجود الذى نعيش فيه ظواهر مادية كشفها العلم المحسوس وقررها ، ونحن لا نحلم بوجودها ، فهل فى الأرض من يقول بوجوب نكرانها ؟ قال كاميل فلامريون فى كتابه «الموت وغامضته» : «الإنسانية تعيش فى جهالة بعيدة الغور ، وهى لا تدرى أن تركيبنا الجثمانى الطبيعى لا يعرفنا بكل ما يقع فيه ، فإن حواسنا تخدعنا فى كل شىء ، والتحليل العلمى وحده هو الذى يؤتينا ببصيص من النور عنه . ومن أمثال ذلك أننا لا نشعر بالحركات الهائلة للكوكب الذى نحن عليه ، فهو يسبح فى الفضاء بسرعة ١٠٧٠٠٠ كيلومتر فى الساعة ليتم دورته السنوية حول الشمس . ولا نشعر بثقل الهواء علينا مع أن سطح كل جسم إنسانى يحمل منه ما زنته ١٦٠٠٠ كيلوجرام معادلة بمثلها من الضغط الداخلى . وهذا الهواء مخترق بتيارات مختلفة نجهلها كل الجهل . والشمس ترسل لنا على الدوام بإشعاعات مغناطيسية تؤثر عن بعد ١٥٠ مليون كيلومتر على الإبرة المغناطيسية . وحواسنا العادية تشعر بروائح وأصوات وأنوار ، والحقيقة أن ليس فى الكون خارج حواسنا غير حركات صامتة ، فالنور والحرارة والصوت حركات ساكنة . وفى الكون على الدوام ذبذبات أثيرية ، تخترق هذه اللانهاية السماوية فى أثناء الليل ، كما هى وقت الظهيرة ، ولكننا لا نحس بالضوء إلا فى أثناء النهار . ويوجد حولنا من الحركات والذبذبات الأثيرية أو الهوائية ، ومن القوى والأشياء غير المرئية ، مالا نراه ولا نحس به . هذه حقائق علمية مطلقة ، وبداهة لا يمكن النزاع فيها . وعليه فيمكن أن يوجد حولنا أشياء بل كائنات حية ، لا ترى ولا تلمس ، تعجز حواسنا أن تصلنا بها . فإذا تقرر أن حواسنا لا تكشف لنا كل ما هو موجود ، وأنها قد تعطينا شعورات كاذبة أو ضالة عن الكون المحيط بنا ، فلسنا نكون فى شىء من التثبت إن ظننا أن ما نشاهده فى هذا الكون هو كل ما فيه .

نقول بعد هذا كله : إن أعلن رجال من أهل العلم الجديرين بالثقة أن بحثهم قد أداهم من طريق الحس إلى آثار عالم أعلى من عالم الطبيعة ، فبأى حق نرفع عقيرتنا فى وجوههم مكذبين ؟

هذا النزق لا يصدر إلا من رجل جاهل ، يتوهم أن ما يراه هو كل الواقع ، وأن كل ما ليس بموجود لحواسه فليس بموجود .

إن الله قضى أن يحتك الإسلام بالعلم فى عهد أدرك العلم فيه أنه كان مخدوعا بالقشور ، وأن جماهير من أقطابه هدوا إلى عالم ما فوق الطبيعة من طريق التجربة ، فهل تتصور بعد هذا أن الإسلام يصادف من العلم خصما لا يلين ؟

فإذا كنا نلح فى وجوب الاستفادة من هذا الاكتشاف الروحى الجديد فى هدم سلطان المذهب المادى فلسنا بدع فى ذلك ، فإن أمة مسيحية قد سبقتنا إلى ذلك ، وهى الأمة الإنجليزية ، فقد اجتمع فيها مؤتمر دينى كما ذكرت ذلك المجلة العالمية الفرنسية فى عددها الصادر فى ١٥ يناير سنة ١٩٢١ ، فقالت : « إن مؤتمر الأساقفة الأنجليكانيين اجتمع فى قصر لامبيث من ٥ يوليو إلى ٧ أغسطس من سنة ١٩٢٠ ، وحضره ٢٥٢ من رؤساء الكنيسة منهم مطارنة كنتربورى ويورك وسدنى وكبتاون والهند الغربية وملبورن وإمارة بلاد الغال الخ ، هذا عدا أكثر من مائة أسقف آخرين ، ونظر فى أمر المباحث الروحية ، فاعترف بقيمتها فى مكافحة المادية بنجاح عظيم » .

فإذا كانت الكنيسة المسيحية بعد أن أبلت بلاء عظيما فى مكافحة المباحث النفسية من أول نشوئها قد اضطرت ـ بعد جهاد نحو ثمانين سنة ضدها ـ أن تعترف بضرورتها ، وتستعين بها لمكافحة المادية ، فهل يهمل أمرها المسلمون ؟ إن هذه المباحث النفسية قد ادخرت لمثل هذه الشبهات ، وقد سخر قيم الوجود العلم الرسمى فى الاشتغال بها على أسلوبه ، لأن ذلك هو الطريق الوحيد للاعتقاد بصحتها .

فإذا بقيت تحديات المذهب المادى قائمة ، ولم تقابل بما يدحضها من الطريق العملى . ظلت ثابتة قوية ، وظل الدين حيالها ضعيف الحجة ، ليس له من عاصم غير التسليم . ولم نرضى هذا الضيم ، والفرصة أمامنا سانحة للحصول على الدليل المحسوس ، وقد سبقتنا أمة مسيحية إليه ؟

وإذا كانت الكنيسة المسيحية قد اعتدت بالمباحث النفسية ، تفادياً من خطر التحديات الإلحادية ، فقد اعتدت بها أيضا أعظم الجامعات الأوربية ، كجامعتى كمبردج وأكسفورد ، وفاء بحق العلم ؛ ومدا لسلطانه على ما نرى وما لا نرى من هذا الوجود العظيم .

ويقول أميل بوترو من أعضاء المجمع العلمى الفرنسى فى كتابه « تقلب النواميس الطبيعية » : « من الخطأ أن يقال إن النواميس هى التى تدبر الظواهر الطبيعية ، لأنها لم تكن موجودة قبل الكائنات ، ولكن الكائنات هى التى اقتضتها ، وهى لا تبين إلا العلاقات التى تحدث من تأثير طبائع تلك الأشياء بعضها فى بعض ، وهى سابقة فى الوجود على النواميس . والعالم يرينا فى كل مكان - بجانب الدوام والاستقرار ، وهو مما يوجب القول باستقرار النواميس - حالات أخرى من التغير والارتقاء والانحطاط ، وهى تقتضى القول بتقلبها ، وليس هذا فى النواميس الجزئية فحسب ، ولكن فى النواميس الكلية أيضا . أكان هذا النظام العالى — نظام العالم — مما يمكن أن يوجد ، إذا كان الثبات المطلق هو الناموس السائد فى الكون ، وكان الأصل الذى مؤداه أنه لا يتلاشى شىء ولا يتجدد شىء ، ساريا بدقة على الكائنات ؟ أكانت توجد فى العالم قيم متفاوتة ، أى صفات ومزايا بعضها أسمى من بعض ؟ أكان يوجد ترق وتكمل بين ثمرات قوة واحدة ثابتة لا تتغير ؟ . إن وجود الإنسان ، وهو كائن شاعر بذاته ، لا يمكن تفسيره بمحض فعل النواميس الطبيعية والفيزيولوجية ، فإن وجوده وأعماله تقتضى من الطبيعة إحداث ترقيات لا تستطيع إحداثها . . ويقول وليم كروكس الانجليزى : إن ما نسميه ناموسا طبيعيا هو فى حقيقته وجه من وجوه الاتجاه الذى يعمل على موجبه

شكل من أشكال القوة . فأى ضرب من ضروب الارادة والفكر موجود خلف الحركات الذرية للمادة ليجبرها على اتباع طريق مرسوم لها من قبل ؟ . وأى ازدواج من الإرادة والفكر يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات المادية ، خارجا عن النواميس الطبيعية ، بحيث يحملها على هذا العالم الذى نعيش فيه ، ويقول أيضا : متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية ، نبدأ بإدراك : إلى أى حد تنحصر هذه النتائج ، أو كما نسميها النواميس ، فى دائرة نواميس أخرى ليس لنا عليها أقل علم . . وهذا كلام صريح من رجل يعتبر من أعلم الناس بالنواميس ، لأنه كيمائى ورياضى معا ، بأن الناموس فى حقيقته لا يعدو كونه وجها من اتجاه قوة تعمل فى التكوين ، لا أنه عامل مستقل ، وأن خلفه إرادة وفكرا هما العاملان الحقيقيان فى الواقع . ويقول إدوار لوروا ، ونقله عنه العلامة الرياضى هنرى بوانكاريه ، مؤيدا له ، فى كتابه قيمة العلم : العلم لم يتألف إلا من تواضع العلماء على أصوله ، وهو لكونه على هذه الحالة يظهر لنا على ما هو عليه من الاستقرار . فالحوادث الطبيعية بل النواميس ليست إلا من مخترعات العلماء أنفسهم . فالعلم لا يستطيع ، وهذه حالته ، أن يكشف لنا عن وجه الحقيقة المطلقة ، وكل ما يرجى منه أن يخدمنا كقاعدة للعمل .

عظمة الإسلام فى تشريعاته :

والتشريعات الإسلامية التى ذكر بعضها فى هذه السورة ، مما هو خاص بالقتال والحروب والغنائم ومعاملة الأسرى ، وعلاقات الدول فى الحرب والسلم ، تشريعات خصبة صالحة لكل زمان ومكان ، ومن الخطأ ما يتصوره بعض الناس من أنها تشريعات جامدة لا تصلح للعصر الحديث ، وحسبكم ما قاله سانتيلانا فى بعض مؤلفاته : إن فى الفقه الاسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى إن لم نقل إن فيه ما يكفى للإنسانية كلها . ونشرت جريدة (وقت) التركية الصادرة فى يوم أول رجب سنة ١٣٤٣ هـ عبارة للأستاذ فيرى

خاطب بها أحد أدباء الأتراك قائلا : إن فقهكم الإسلامى واسع جدا إلى درجة أنى أقضى العجب كلما فكرت فى أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لزمانكم وبلادكم . وقديما قال « سولون » المشرع اليونانى القديم كلمة رددتها من بعده الألسنة إلى اليوم : أنا لم أشرع لأهل أثينا شريعة كاملة مصدرها الخيال ، وإنما وضعت لهم قوانين توافق حاجتهم وتلائم استعدادهم . أليست البلاد الإسلامية أولى وأحق بالشريعة الإسلامية ، وهى الشريعة التى أنس بها المسلمون ومازجت أرواحهم مدة ثلاثة عشر قرنا أو تزيد ؟

ولما ألف الدكتور محمود فتحى رسالته «فى مذهب الاعتساف فى استعمال الحق والخروج عن حدود الحق فى غير ماشرع له الحق وذلك عند فقهاء الإسلام» كتب « كهلر » العالم القانونى الألمانى يقول : إن الألمان كانوا يتيهون عجبا على غيرهم فى ابتكار نظرية « الاعتساف » والتشريع لها فى القانون المدنى الألمانى الذى وضع سنة ١٧٨٧ . أما وقد ظهر كتاب الدكتور فتحى وأفاض فى شرح هذا المبدأ عند رجال التشريع الإسلامى ، وأبان أن رجال الفقه الإسلامى تكلموا عنه طويلا ابتداء من القرن الثامن للميلاد ، فإنه يجدر بالعلم القانونى الألمانى أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون . وأهله هم حملة الشريعة الإسلامية . ويقول ليفى أولمان : يجب اعتبار الشريعة الإسلامية فى المعاملات مصدرا حيا للقانون العصرى ، ومناطا للحق فى أدواره المختلفة . ولقد عقد البحاثة الأمريكى « هوكنج » أستاذ الفلسفة بجامعة هارفرد فصلا مستفيضا عن «مصير الثقافة الإسلامية » فى كتابه « روح السياسة العالمية » المطبوع سنة ١٩٣٢ فبعد أن تكلم بإسهاب عن أصول الفقه الإسلامى وعن المذاهب الأربعة ، قال : إن سبيل تقدم الممالك الإسلامية ليس فى اتخاذ الأساليب الغربية التى تدعى أن الدين ليس له أن يقول شيئا عن حياة الفرد اليومية ، وعن القانون والنظم السماوية ، وإنما يجب أن يجد المرء فى الدين مصدرا للنمو والتقدم . وأحيانا يتساءل البعض عما إذا كان نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة وإصدار

أحكام مستقلة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية . فالجواب عن هذه المسألة هو أن فى نظام الإسلام كل استعداد داخلى للنمو ، لا بل إنه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيرا من النظم المماثلة ، والصعوبة لم تكن فى وسائل النمو والنهضة فى الشرع الإسلامى ، وإنما فى انعدام الميل إلى استخدامها ؛ وإنى أشعر بكونى على حق حين أقدر أن الشريعة الإسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض .

ويقول شيرل : إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها ، إنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتى بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفى سنة .

القرآن وثيقة التحرر والمدنية والحضارة :

يقول الله عز وجل فى هذه السورة الكريمة : « ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » ، وهنا يخاطب الله عز وجل المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بثمار إجابة الدعوة ، لأنهم المؤمنون العاملون بها .. ثم نجد لفظة «دعاكم» بدل « دعواكم» لأن دعاء الرسول هو دعاء الله ، ودعاء الرسول المؤمنين لما يحييهم هو دعاؤه لهم إلى الإيمان والعمل بالقرآن الكريم ، دستور الإسلام الخالد ، وكتابه الحكيم ، وفرقانه المبين ، ووثيقة الحرية والإخاء والمساواة التى نزلت من السماء على محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم.

إن القرآن الكريم كتاب الله الخالد ، ودستور الإسلام الإلهى الحكيم ، وهو معجزة محمد الباقية على أمد العصور والدهور ، وهو كتاب الله المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . نزل فى آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا ، وانتظمت سعادة الأولى والآخرة ، وكانت هدى ونوراً للبشر كافة ، حيث قضت على الأوهام الباطلة والأساطير الكاذبة والعبادات الضالة ، والأديان المنحرفة ، وأحالت الظلام ضياء والشقاء سعادة ، واليأس أملا ، والضلال هدى ، والهمجية مدنية والجهل علما ومعرفة وثقافة ، نبع من معينها الزاخر كل من رغب فى الخير

وطمح إلى السلام والنور ، ونقلت الإنسانية من عصر تسوده الفوضى ، وتنتشر فيه مبادىء الطغيان والعبودية وسفك الدماء ونهب الأموال والأعراض ، إلى حياة فيها رضى وأمن ، وطمأنينة وسلام ، وحرية وعدل وإخاء ، وعمران وحضارة ، وحدود محدودة ، وضعت لسعادة الناس والجماعات والشعوب والإنسانية قاطبة . كان الرسول الأعظم ، محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، يتعبد فى غار حراء فى يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده الكريم ، وسنه أربعون سنة ، وستة أشهر وثمانية أيام ، أى فى السادس من شهر أغسطس عام ٦١٠م . فنزل عليه جبريل بالرسالة الإلهية العظمى التى اصطفاه الله من بين الخلق لأدائها للبشر كافة : هدى ونورا وشفاء لما فى الصدور . قال جبريل : يا محمد اقرأ ، قال : ماأنا بقارىء ، قال : اقرأ ، قال : ماأنا بقارىء ، قال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » . فكانت أول سورة نزلت من القرآن الكريم . وقد نزل الذكر الحكيم فى أسلوب لايضارعه أسلوب . فلا هو شعر ولا هو سجع ولا هو مزاوجة ولا هو نثر مرسل ولا خطابة . إنما هو نظم رائع وألفاظ عذبة ومعان سامية حصيفة ، وجلال وروعة . جمع بلاغة جميع أساليب البيان ، وفصاحة شتى خصائص النظم ، واستوفى كل عناصر الاعجاز . والمفكرون من الغرب يقفون أمام القرآن الكريم مذهولين مشدوهين متحيرين ، مقرين بعظمته وجلاله ، وعبقرى أثره على الحياة والانسانية .

يقول الدكتور موريس الفرنسى : « لقد قلقت نفسى ، واضطربت حواسى لقول المسيو رينان : إن القرآن غير فصيح ولا بليغ . إذ لو جاز لامرىء غير مسلم أن يرتاب فى صدق القرآن وصحة دعواه ، فلا يجوز له أبدا أن يرتاب فى صحة عبارته ، وكونه فى الذروة والسنام من الفصاحة والبلاغة ؛ بل لنا أن نقول : إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الأزلية لبنى البشر . فهو قد تضمن أناشيد لاسعادهم خيرا من أناشيد فلاسفة اليونان ، وقد استوعب بين دفتيه الثناء على مبدع السموات والأرض ، وتمجيد الله سبحانه . إن مزايا

القرآن الأولية ، وأركانه الأساسية ، إنما هى فى صحته وحقيقة مبانيه ، وأنه كتاب لاريب فيه . ويقول هنرى دى كاسترى : لو لم يكن فى القرآن غير بهاء معانيه ، وجمال مبانيه ، لكفى بذلك أن يستولى على الأفكار ، ويأخذ بمجامع القلوب . ولقد نزل على محمد دليلا على صدق رسالته ، وهو لايزال إلى يومنا هذا سرا من الأسرار ، التي يتعذر فك طلاسمها ، ولن يسبر غور هذا السر المكنون ، إلا من يصدق بأنه منزل من الله . وقال جيبون : القرآن مسلم بأنه الدستور الأساسى ، ليس لأصول الدين فحسب ، بل وللأحكام الجنائية والمدنية ، وللشرائع التى عليها مدار حياة النوع الانسانى ، وترتيب شئونه ، وبعبارة أخرى هو القانون العام للعالم الاسلامى ، فهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية ؛ وقال بوروث سميث : من حسن حظ التاريخ أن محمداً أسس فى وقت واحد ثلاثة أشياء من عظائم الأمور ، وجلائل الأعمال . فإنه مؤسس لأمة وامبراطورية وديانة .. ومع أنه أمى فقد أتى بكتاب هو آية فى البلاغة ، ودستور للشرائع وللصلاة والدين فى آن واحد ، فهو كتاب مقدس إلى هذا اليوم عند سدس العالم ، وهو معجزة محمد القوية ، وحقا إنه لمعجزة ، وقال المسيوليون : حسب هذا الكتاب جلالة ومجدا أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطع أن تجفف ـ ولو بعض الشىء ـ من أسلوبه الذى لايزال غضا ، كأن عهده بالوجود أمس . يقول جوستاف لوبون : إن القرآن وما اشتق منه هو إلى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الشعوب الأولية ، حتى إن قبوله آخذ حكمه على مر الأيام ، لايعوقه عائق . وقال جوته : إن هذا الكتاب سيحافظ على تأثيره إلى الأبد ، لأن تعاليمه عملية مطابقة للحاجات الفكرية ، لقوم معتزين بتقاليدهم ، متمسكين بعاداتهم القديمة . وقال كارليل : إن علوية القرآن فى حقيقته العالية ، فهو حافل بالعدل والإخلاص ، والدعوة التى بلغها محمد إلى العالم حق وحقيقة . ويقول مانويل كنبج من محاضرة له : إذا كان فى عالم الالهام أمر يدعى وحيا ، وكان للوحى وجود كامل ، فلن يشك فى أن القرآن كتاب منزل . وقال سديو فى كتابه «تاريخ بلاد العرب» : القرآن جامع لكل أسس الأخلاق والفلسفة .

وقال الفيلسوف الفرنسى آلكسى لوازون : خلف محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة ، وسجل الأخلاق ، وهو كتاب مقدس . وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية ، فالانسام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعة . وقال الكاتب الأمريكى واشنطن أيروينج : يحوى القرآن أسمى المبادىء وأكثرها فائدة وإخلاصاً .

ولقد طبع القرآن المسلمين الأولين على مكارم الخلق ، ونبل النفس ، وقوة الإيمان ، وجلال التضحية ، وجمال الإيثار ، وبث فيهم الشعور بالمسئولية ، ونأى بهم عن الرذائل والمنكرات والشبهات ، وسار بهم إلى طاعة الله ومرضاته ، وحبب إليهم العدل والانصاف ، حتى لقد قتل عمر بن الخطاب خليفة المسلمين بيد خائن غادر لئيم ، فتكالب المسلمون على ابن ملجم ، فقال لهم عمر وهو فى الرمق الأخير : أطيبوا طعامه ، وألينوا فراشه ، فإن أعش فأنا ولى دمه ، إما عفوت وإما قصصت ، وإن أمت فألحقوه بى ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .. فلم يصيخوا لكلامه فنادى فى أهله : يابنى عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون فى دماء المسلمين خوضا ، انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه ، فاضربوه ضربة بضربة ، ولا يمثل بالرجل ؛ فإنى سمعت رسول الله يقول: « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » .

هكذا كان المسلمون الأولون ؛ ولو وازنت بين ماقاله عمر ، وبين مافعلوه فى أمريكا من القضاء على أربعمائة نفس ، انتقاما من أجل جزيرة حاول اثنان من أهلها قتل ترومان لاستبداد حكامه بأهل الجزيرة ، ولو رأيت ما يفعله الحكام بالمحكومين حين يقتل منهم واحد ، لهالك الفرق بين عدالة الإسلام والشرائع الوضعية الحديثة ، ولقد مجد المؤتمر الدولى الذى اجتمع فى لاهاى منذ أعوام الشريعة الإسلامية التى قامت على أصول القرآن ، وأشاد بفضلها ، فسجل فى قراراته أن الشريعة الإسلامية تحمل العناصر الكافية ، التى تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمن » .

هدى القرآن الإنسانية كلها بما أذاعه من مبادىء سامية ، حاربت الفوضى والطغيان والوحشية والظلم والرق ، ونشرت فى العالم كله راية الأمان والسلام والإخاء والحرية والمساواة والديمقراطية والتعاون والمحبة بين الناس كافة . . اعترف القرآن للمرأة بحريتها وحقها فى الحياة ومساواتها للرجل فى شئون الدين والمال والحقوق والواجبات ، واعترف بحرية الإنسان وكرامته فى الحياة ، وبحرية الجماعات والأمم والشعوب ، وحارب العصبية وحمية الجاهلية حربا لا هوادة فيها ، وساوى بين الناس كافة ، وجعل الناس إخوة ، تجمعهم صلات قوية فى الله : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ، وحرم الخمر والزنا والبغى والعدوان والظلم والسرقة ونهب أموال الناس بالباطل ، والمنكرات والرذائل ما ظهر منها وما بطن ، والميتة والدم ولحم الخنزير ، وأعلن حرية الرأى والعقيدة ، « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

ورفع علم الشورى والديمقراطية والتعاون فى خدمة المجتمع والسلام والإنسانية . وحارب الترف الذى هو ألد أعداء الحضارة والتقدم ، والذى سجل بيتان خطره على كيان الأمم بعد هزيمة فرنسا فى الحرب العالمية الثانية بيد الألمان ، فقال : لقد أتت الهزيمة من الانحلال ، فدمرت روح الملذات واللهو ما شيدته روح التضحية . . وقد حافظ الإسلام على كرامة الأسرة وعفاف المرأة وشرفها ، فأقام الأسرة على أسس سليمة قوية لا يعتريها وهن أو انحلال . . . وحث على الإيثار وأن ينصب الفرد نفسه فى خدمة الجماعة . وأتى بأحدث المعارف فى خلق العالم وشئون الاجتماع وقوانين الصحة ، ونظم الاقتصاد وفى السياسة . وحرر الفكر الإنسانى من جموده ، وكشف مجاهل التاريخ وأحداثه ، ووضع أصول المدنية الفاضلة . وحث على العلم والمعرفة وعدم الشرك والوثنية ، والأهواء والأضاليل والأوهام الفاسدة ، والأساطير الكاذبة ، ووضع أصول العبادات والمعاملات الحسنة بين الناس ، وشرع الصلاة والزكاة والصوم والحج ، ودعا إلى الطهارة والنظافة

وجمال المظهر وكمال المخبر . . وبعث الطموح والأمل والحياة فى النفوس الإنسانية ، لتعمل وتكد ، فى سبيل بناء الحضارة وعمران الدنيا . . وغرس الزهد والقناعة وحب الخير والحق والعدل والإنصاف فى كل قلب ، فهل وراء ذلك غاية لطامح ، وأمل لإنسان أو مصلح ؟ حقا إن القرآن دستور الإسلام ، وهادى الإنسانية الأمين ، ومنقذها من الضلال والظلام .

* * *

القرآن الكريم آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا وانتظمت سعادة الأولى والآخر ، ونزلت هدى ونور للبشر كافة . وقضت على هذه الأوهام الباطلة ، والأساطير الكاذبة ، والعبادات الضالة ، والأديان المنحرفة ؛ وأحالت الظلام ضياء والشقاء سعادة واليأس أملا ، والضلال هدى ، والهمجية مدنية والجهل ، علما ومعرفة وفنا وأدبا وثقافة ، نهل من معينها الزاخر كل من رغب فى الخير وطمح إلى السلام والنور ؛ ونقلت الإنسانية من عصر تسوده الفوضى وتذاع فيه مبادىء الطغيان والعبودية وسفك الدماء ونهب الأموال والأعراض ، إلى حياة فيها رضى وأمن ، وطمأنينة وسلام ، وحرية وعدل وإخاء ، ومعرفة وعمران وحضارة ، وحدود محدودة وضعت لسعادة الناس والجماعات والشعوب والإنسانية قاطبة . قبس من الهدى والنور ، نزل به جبريل من السماء إلى الأرض ، على سيد الخلق . وأكرم الرسل ، وأشرف من فى الوجود ، محمد صلوات الله عليه . فبلغه الناس ، وبشر بدعوته العرب والبشر كافة ، وأذاع مبادئه فى كل مكان ، فحملت إلى العالم السلام والعدل والحرية ، وفتحت صفحة جديدة فى تاريخ الإنسانية ، وأنقذت الناس من ضلال الجاهلية الأولى . . ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، وإذا هى لانت فأنفاس الحياة الآخرة ، ومعان بيناهى عذوبة ترويك من ماء البيان ، ورقة تستروح منها نسيم الجنان ، إذا هى بعد ذلك إطباق السحاب ، توهموا السحر ما توهموه ، فلما أنزل الله كتابه قالوا هو السحر المبين ، وتصوروا الشعر ما تصوروه ، فلما سمعوا آياته البينة ، وبلاغته المتدفقة ، ورأوا هدايته النادرة ، وفصاحته الباهرة ، وما فيه من روعة

التصوير ودقة التعبير وشدة التأثير ، قالوا : أي والله إنه لشعر شاعر ، وسحر ساحر ، إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، كلا والقمر ، والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر ، إنها لإحدى الكبر ، وما هو بقول بشر ، إن هو إلا وحي يوحى ، ومعجزة تتحدى ، وبلاغة تتلى وتروى ، أشرقت بنوره السماء والأرض ، واهتدت بهديه الملائكة والبشر أجمعون .

وقد تم نزول القرآن الكريم قبل وفاة الرسول صلوات الله عليه فى ثلاثة وعشرين عاما ، ما بين بعثته إلى وفاته ، كان فى ثلاث عشرة سنة منها يقيم بمكة ، وطنه الذى ولد وربى ونشأ فيه ، وفى عشر السنين الأخرى يقيم بالمدينة بعد هجرته صلوات الله عليه من مكة ، حيث نشر الدعوة وحماها وأيدها . ومجموع سور القرآن الكريم أربع عشرة ومائة سورة ، منها الطويل والقصير ، ومنها ما نزل فى الموعظة والهداية ، وما نزل فى التوحيد ومحاربة الشرك والأهواء، وما نزل فى التشريع ونظم العبادات والمعاملات وقوانين الأسرة والجماعة والحكومة الإسلامية ، وما نزل فى أمور الآخرة والغيب وشرح تطور الإنسانية وقصص الأمم الماضية وبغيها ومصيرها المحتوم ، أو نزل فى شرح أسرار الوجود ومظاهر الغيب وأمور الآخرة . وتشتمل السور على كثير من هذه الأغراض الموحدة . . والسور قسمان : مكى ومدنى . . فالمكى منها على أرجح الآراء هو ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعدها[1] والسور المدنية اثنتان وعشرون سورة تبلغ نحو ثلث القرآن الكريم وهى : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والنور والأحزاب والقتال والفتح والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون

(١) راجع ١٣/١ الإتقان للسيوطى ، وقيل : المكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدنى ما نزل بالمدينة . وقيل : المكى ما كان خطابا لأهل مكة ، والمدنى ما كان خطابا لأهل المدينة (١٣ و ١٤ / ١ الإتقان) . هذا وتسمى السورة مكية إذا كان أغلبها مكيا وتسمى مدنية إذا كان أكثرها مدنيا .

والتغابن والطلاق والتحريم والعصر . . . وما عدا هـذه السور وهى اثنتان وتسعون سورة فهو مكى .

وأظهر موضوعات السور المـكية هى :

١ — الدعوة إلى توحيد الله ومحاربة الشرك والأوثان .

٢ — تأييد رسالة محمد صلوات الله عليـه وتحدى العرب بهذه المعجزة الخارقة ، ألا وهى القرآن الـكريم .

٣ — إثبات البعث والحساب والنشور واليوم الآخر ، والرد على من ينكر ذلك فى إفاضة وقوة حجة وتأثير .

٤ — قص قصص الأمم القديمة وعنادها وحجاجها مع الرسل والأنبياء ، وإصرارها على الضـلال ، وما حل بها من المثلات ، تبصرة وذكـرى لقوم يؤمنون .

٥ — محاربة التقليد ودعوة العقل البشرى إلى الاستقلال بالتفـكير واتباع الحق من العقائد والطاعات ، ونبذ الأوهام والأساطير والخرافات ، والتفكير فى نواميس الله فى الـكون .

وأما أهم موضوعات السور المدنية فهى :

١ — تشريع النظم والقوانين للفرد والأسرة والجماعة والأمة ، لتسير الإنسانية إلى حياة كريمة مهذبة ، تليق بكرامة الإنسان خليفة الله فى الأرض ، إلى الفضيلة والخير والعدل والحق والأمن والسلم والعمران والحضارة .

٢ — الدعوة إلى الفضائل ومحاربة الرذائل بكل سلاح وكل وسيلة .

٣ — تقرير وحدة الإنسانية والأخوة البشرية العامة وتعزيز الصلات الإجتماعية بين الإنسان والإنسان ، وإلغاء الفروق بين الطبقات والجماعات

والشعوب ، ورفع كرامة الإنسان وإيضاح رسالته ورسم الأهداف الكريمة التى يجب أن يسير إليها ويعمل لها فى الحياة .

٤ — وضع شرائع الحرب والسلام ، التى تسير مع الإنسانية العالمية ، وتوافق مصالح البشر فى الحياة الدنيا على اختلاف الزمان والمكان .

وعلى العموم فالسور المدنية احتوت على أكثر التشريع الإسلامى وأودعت أعظم الآداب الإجتماعية والسياسية ، التى تؤلف القلوب ، وتحوط الملك وتصون الشعوب ، وقصارى الكلام أن القرآن كتاب هدايه ونور ودين ودنيا وخير عام ، وهو دستور الإنسانية المهذبة ، ووثيقة الحرية والمساواة والإخاء ، التى نالها الإنسان على طول الأيام والأحقاب .

والقرآن الكريم رسالة محمد صلوات الله عليه ، وهى رسالة جديدة حقا ، غيرت مجرى التاريخ ، وبدلت نظام الحياة ، وسمت بالإنسانية التى كان يهوى بها الجهل والفاقة والذل والاستبداد ، وارتفعت بكرامة الفرد والمجتمع والأمم إلى المكان اللائق بها ، حيث السمو فى العقيدة والعظمة فى النظام وروح الجماعة ، ووأدت الكثير من المبادىء الضالة الضارة ، سواء فى العقيدة أم فى التفكير أم فى الاجتماع ؛ وبعثت شعوراً جديداً فى العالم كافة ، يقوم على إيمان وطيد بمبادىء الحق والعدالة والحرية والمساواة والأخوة العامة والزمالة الإنسانية المشتركة؛ وقادت العالم إلى مجالى الطهر والفضيلة؛ والشرف والكرامة والصفاء الروحى ، والطمأنينة النفسية ، والثقة بأن الانسان خليفة الله فى الأرض ، وأن عليه واجبا أدبيا محتوما : أن ينشر الأمن والسلام والحب والرحمة والتعاون والاحسان بين الناس جميعا ، وأن يعمل على النهوض بالحياة والبشرية ، ليسعد الفرد ، وتحيا الجماعة ، وترقى الأمة وتتقدم الانسانية ، لأنه مسئول عن ذلك كله أمام ضميره وأمام خالق الأرض والسموات ، وما تكون هذه الرسالة غير رسالة محمد صلوات الله عليه ، رسالة الايمان ، ودعوة القرآن التى أشرقت بنورها الأرض ، واهتزت لعظمتها السماء ، وكانت حدا فاصلا بين عهود بغيضة من الهمجية والوحشية والظلام والاستعباد ، وعصور كريمة

سمتها الايمان والعلم والحضارة ، وتقديس كل ما هو حق وخير وجميل ؟

لقد كان بدء نزول هذه الرسالة حدثا تاريخيا عالميادوى صداه فى الآفاق ، فبدأ نزول القرآن منذ نحو أربعة عشر قرنا ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، نزول للتحرير الانسانى العام . فقد حرر الانسان من الأوهام ، والجماعة من الهوان والذلة والاضطهاد وبطش الطغاة ، والبشرية من الخرافات والضلالات والجمود ، ومعاداة النظام وكراهية التقدم ، ومحاربة الفضائل والأخلاق الكريمة .

وأخذت روح الفردية تتضاءل لتخلفها روح الجماعة ، ومبادىء الطغيان الدينى والاجتماعى والمادى تتلاشى لتقوم على أشلائها مبادىء الايمان بالعدالة والمساواة ، وحريات الناس وكرامتهم ، فانتهى إلى غير رجعة عهد الكهان والمتكهنين ، وعهد الضلال والمضللين وانقضت التقاليد المرذولة التى كانت تحل الخمر والميسر والربا ، وترى القتل والاسراف فى الثأر عملا مجيدا ، وتبيح وأد البنات وعقوق الأمهات وارتكاب المنكرات ، وتنظر إلى الظلم والغش ونقض العهود ، وإلى النفاق والرياء والوشاية والنميمة والافساد بين الناس كأنها أعمال مألوفة معروفة .. وبدأت الدعوة تسرى إلى الآفاق ، فارتمت فى أحضانها الناس والجماعات والأمم ، واكتسح أبطال هذه الدعوة الحصون والمعاقل والممالك ، ونشروا راية الاسلام والسلام فى شتى الأرجاء والبقاع ، وبدأت مواكب الحضارة والعلوم والفنون والآداب تسير ، ويسير وراءها الخير والرفاهية والمجد والعزة والعظمة للإسلام والمسلمين وللناس كافة .

رسالة جديدة هى رسالة الايمان والروح والإنسانية الكريمة .. فلينهض قادتها ودعاتها لنشرها من جديد ، بعد أن شقيت الحياة والأحياء برسالات الكفر والطغيان والاستعمار ، والجشع المادى الذى بعث الفوضى ، وقضى على النظام والأمن والسلام ، وأشعل الحرب فى الأرض ؛ وأورث العدوان بين الأمم « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » .

وفى القرآن الكريم دعوات عالية ، وأحكام مثلى لتخليص الإنسانية من الشرك والظلم والاستبداد والطغيان ، إذ يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم: « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ، ويصور القرآن الطغاة المفسدين فى الأرض تصويرا صادقا فيقول : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على مافى قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم ، فحسبه جهنم ولبئس المهاد » .. ويدعو إلى أخوة الجماعات الانسانية لتعيش فى ظلال السلام والوئام ، فيقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » ، ويؤكد أخوة المؤمنين فيقول : « إنما المؤمنون إخوة » ، ويطالب بالوفاء بالعهد واحترام الحقوق والجنوح إلى السلام ، إلا إذا نكث غير المسلمين عهدهم فيقاتلون ويشردون فى الأرض : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم ، لعلهم ينتهون » .. ولم يحارب الرسول اليهود فى خيبر وغيرها إلا لأنهم خانوا عهده ، وأرادوا قتله ، وحزبوا الأحزاب عليه . وكان الرسول صلوات الله عليه مثلا أعلى فى المحافظة على حريات الناس وحمايتها ، وكان يأمر عماله باحترام حقوق الناس فى الحياة والأمن والكرامة ، ولو كانوا مخالفين لهم فى الدين ، حتى قال صلوات الله عليه : « من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة » .

لقد قامت على مبادىء الاسلام دولة عظيمة ، ونمت على أساسها حضارة مشرقة هى نواة الحضارة الأوربية الحديثة ، ولها الفضل كل الفضل فى نقل حضارات الأمم القديمة إلى العالم الحديث . ولولا جهود المفكرين المسلمين لضاعت آثار المدنيات والحضارات القديمة وعلومها ومعارفها . قامت هذه

الدولة وتلك الحضارة ، على المعرفة والحرية ، وعلى الديمقراطية النبيلة التى بلغت على يد الفاروق عمر بن الخطاب أسمى ماتبلغه الانسانية الراقية ، وقامت على تقديس حرية الفكر ... ومبادىء محمد ودعوته ورسالته ما هى إلا صدى لهذا الدستور الخالد ، والكتاب الحى الباقى : « القرآن الكريم » . وتقرأ فى القرآن فتجد حربا لا هوادة فيها على الشرك والوثنية . وتحرير العقل الانسانى من أوهام التعصب والجمود والضلال ، وتجد إيمانا لا يشوبه شك بقيمة المعرفة والثقافة . وغرسا للفضائل الانسانية والمثل العليا فى نفوس الناس كافة . ومحاربة الرذائل والمنكرات والشرور والآثام والفوضى الاجتماعية فى كل شىء وكل ناحية ، وتجد أول هدف له هو نشر التعاون بين البشر جميعاً ، فلا فرق بين جنس وجنس ، ولا فضل لأمة على أمة أو قبيلة على قبيلة ، أو إنسان على إنسان ، إلا بالأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة ، وتقوى الله وطاعته « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وهكذا قبر الاسلام ورسوله الجمود والتعصب القبلى والوطنى المحدود ، وأحل محل ذلك الانسانية والعالمية بأوسع معانيها ، ولقد بدأت أوربا بعد أن ضلت الطريق تعمل لهذه الغاية التى عمل لها الاسلام منذ أربعة عشر قرنا من الزمان .

وهكذا غرس محمدا صلوات الله عليه بيديه الكريمتين شجرة الحرية والتعاون والانسانية والمساواة والاخاء ، ووضع أساس حضارة روحية من أعظم الحضارات التى شهدها التاريخ وعاش فى ظلها العالم أجيالا وقرونا ، ينعمون بعدلها وحكمها ، ويشاهدون آثارها الخالدة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والآداب والفنون . وهل الحضارة إلا آثار الرقى الانسانى ومظاهر التقدم البشرى فى شتى نواحى الحياة ؟ وإذا قست ذلك بآثار محمد ورسالته فى الحياة على الناس والانسانية كافة ، وجدت أياديه العظيمة ، لايكاد يعيها العد ، ويبهت الفكر حين يجد أن هذا النبى الأمى العربى قد بدل سير التاريخ ، وحول مجرى الحضارة ، ويقف العقل والبيان حائرين لا يدريان

وكيف يشكران فضل هذا الرسول العظيم ؟ ولا تجد دينا يدعو إلى الأهداف الكريمة ، والغايات السامية ، والأغراض الشريفة ، والمثل العليا ، مثل دين الاسلام وشريعة محمد خاتم الرسل عليه السلام ، ولا عجب فالاسلام دين البشرية الخالد ، وخلاصة المثل الانسانية العالية ، وعقيدة الفكر الحر ، التى ترنو إليها البشرية ، وتهدف نحوها الحياة ، وتتلاقى مع أصول الحضارات والمذاهب الحقة ، وتجتمع مع شتى تيارات التفكير الحديث المنزه عن الهوى والغرض .

ولقد جاء الاسلام والعالم يعيش فى ظلام دامس ، وجهل مطبق ، ونظم عتيقة فاسدة وعقائد محرفة مضللة . فبدل ظلام الحياة نورا ، والجهل ثقافة وعلما وعرفانا ، ومحا تلك النظم البالية ، والتقاليد الباطلة الزائفة ، وجاء بأصول اجتماعية وإنسانية هى أسمى ما عرف فى الأديان والمذاهب من مقومات وعناصر . دعا إلى عقيدة تجمع بين أصول العقائد والأديان السماوية الصحيحة ، وتسير بالانسان إلى حياة مهذبة كريمة ، توفق بين المادة والروح ، والدين والدنيا ، والأولى والآخرة . وجه الاسلام الناس جميعا إلى عبادة إله واحد لا شريك له ، له مقاليد السموات والأرض ، يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، والأرض جميعا فى قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه . وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر . كما دعا الناس إلى دين واحد ، يصدق به العقل والروح ، ويجمع بين خيرى الدنيا والآخرة ويرشد إلى أمثل مافى الحياة من عدالة وخير ورحمة . وجمعهم على كتاب واحدة ، ودستور خالد ، هو القرآن ، كتاب الله العظيم . . وعلى رسالة واحد ، هى رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وهى الرسالة التى تتفق مع دعوات الأنبياء ، وشرائع المرسلين « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . . فلم لا يكون الاسلام بذلك كله مثلا أعلى فى العقيدة والايمان .

وسن الاسلام القوانين الصالحة لكل العصور والجماعات ، والكفيلة برقى الفرد والأسرة وتقدم المجتمع والأمة والانسانية ، على نحو يرضاه العقل؟ ويطمئن إليه القلب والوجدان . فلم لا يكون بذلك الداعى إلى المثل الأعلى فى النظام والتشريع .

وحارب الإسلام العصبيات وأفكار الجاهلية الأولى ، التى تفضل جنساً على جنس أو جماعة على جماعة ، أو فردا على فرد . يقول الله عز وجل : « إنما المؤمنون إخوة » ويقول رسوله صلوات الله وسلامه عليه : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » . حاربها الاسلام لأنها تنادى بالتنابز والبغضاء ، وتفرق بين الناس وقد جمعهم أصل واحد : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

محا الاسلام ماكان بين الطبقات من تلك الفوارق الاجتماعية الواسعة ، التى كثيراً ما تستند إلى الحسب أو الجاه أو المال ، وجعل الفقير أخا للغنى ، والغنى أخا للفقير ودعا الأغنياء إلى البذل والجود والاحسان وأداء الزكاة وإنفاق المال فى كل حق وخير ومعروف . كما دعا الفقراء إلى الأمانة والعمل والزهد والقناعة والرضا بما قسم الله ، « أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون » . وقرر أن المال فى أيدى الأغنياء إنما هو مال الله استخلفهم فيه ، « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . وما ينفقونه على الفقراء من مال إنما هو قرض لهم عند الله يجزيهم عليه خيراً وثوابا كبيرا ، « وأنفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم . والله غفور حليم » . فكيف لا يكون الاسلام بذلك كله دينا عاما هو المثل الأعلى فى الاجتماع والروح الانسانى الكريم .

والأصول الأولى فى الاسلام تدعو إلى الحق والخير والعدل والمساواة

والحرية ، وإلى التعاون والوحدة والشورى ، وإلى الأخوة العامة ، والزمالة البشرية ، والحضارة والرقى والثقافة ، وإلى محاربة الأهواء والتقاليد الضارة ، وإلى المحافظة على الشرف والكرامة وروح الانسانية فى الفرد والجماعة والأمة . كما تدعو إلى السلام ، وإلى أن يقوم هذا السلام على الحق ، وفى سبيل خدمة المثل العليا التى يدعو إليها الاسلام وهى فوق ذلك فطرة الله التى فطر الناس عليها . « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟ » وحسبك أنها تقوم على رعاية شئون الدنيا وأمور الآخرة « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة . ولا تنس نصيبك من الدنيا . وأحسن كما أحسن الله إليك . ولا تبغ الفساد فى الأرض . إن الله لا يحب المفسدين » . إلى غير ذلك من الأهداف والمثل التى يجمعها ويدعو إليها الاسلام وكتابه الكريم .

وبعد، فقد حرر الإسلام الإنسان من الوهم والتقليد والجمود والجهل والفاقة والاضطهاد والاستبداد .. وحرر المرأة من استبداد الرجل : فجعل لها حقها فى الحياة وسواها به فى الحقوق والواجبات المشروعة ، واعترف بأهليتها للتصرف والتملك وتدبير شؤون المنزل والأسرة ، والمساهمة فى أعمال الخير والبر والطاعات ، وفى شتى النواحى الاجتماعية التى لاغنى للمجتمع عن نشاط المرأة فيها . وحرر الطبقات من طغيان العصبيات والثروة والحسب . وحرر المجتمعات من الخرافات والأضاليل وأوهام الكهان والمتزعمين ، وحرر الأمم فجعل أمرها شورى بينها ، وساسها بالعدل والقسطاس المستقيم ، وبالرحمة والإيثار وحب الخير العام ومصلحة الجماعة المشتركة والشعور الصحيح بالمسئوليات ، وقضى على الرذائل والمنكرات والشهوات التى تضعف الروح، وتهدم البنيان ، وتفسد نزعات الخير ، وتقف بالجماعة عن السير والنضال فى الحياة .. وحرر الإنسانية عامة من ربقة الجهل والوحشية والتأخر والفوضى والاثرة ، ومن جموح الشهوات ، وتقديس الماديات ، والجنوح إلى الشر والفساد فى الأرض ، ومن التقليد الضار ، والايمان بما كان يؤمن به الآباء

والأجداد دون تحكيم للعقل ، أووزن للأمور بميزان التفكير السليم .. ورفع مع ذلك كله الانسان ومكانته فى الحياة ، فجعله خليفة الله فى الأرض ، ودعاه إلى أن يسير إلى أمثل ما فى الحياة من حق وخير وسمو ، وإلى أن يعمل على تقدم الحياة الانسانية بأوسع معانيها .

ولقد أتت الروحية الاسلامية الأولى بالمعجزات : فى الاجتماع والسياسة ، وفى الأدب والعلم والفن ، وفى التفكير والتنظيم ، وفى شتى نواحى الحياة والحضارة ، ومن أولى بذلك من الإسلام ، دين الله ، وشريعة رسوله صلوات الله عليه . ودستوره القرآن ، ومنطقه العقل والحجة والبرهان ، وأساسه الفضيلة والإيثار والخير وروح الجماعة والإنسانية العالية ، والتجرد من الأوهام والرذائل والمادية القاتلة ، ومن كل ماهو منكر وقبيح وباطل . فما أروع الاسلام وما أجل شريعة تقوم على هذه المبادىء المثلى ، وتدعو إليها ، وتدفع البشر والبشرية نحوها !.

هذه هى دعوة القرآن الكريم التى دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإنسانية كافة ، والتى دعا إليها المؤمنين ليعملوا بها ، لأن فيها حياتهم وتقدمهم ونهضتهم وحريتهم وكرامتهم ومجدهم ، وقد عمل بها المسلمون الأولون ، فكسبوا المجد والعزة والسيادة ، وما أجدرنا اليوم بأن نفىء إلى ظلها الظليل ، ونؤمن قولا وعملا بمبادئها السامية ، ليرشدنا الله إلى الخير والحق والقوة فى طريق الحياة الشاق .

خاتمة هذا الجزء

(١)

هذا هو الجزء العاشر ، الذى تحدثنا فيه عن سورة الأنفال حديثا طويلا مفصلا ، وسوف يتلوه الجزء الحادى عشر ، وسيكون فى تفسير سورة التوبة . . وليس لنا من غرض إلا استجلاء حقائق القرآن الكريم وأصوله ، واستنباط المبادىء والمثل التى قامت عليها عقيدة الإسلام ديننا الخالد الكريم.

ولقد فتح الاسلام صفحة جديدة فى تاريخ البشرية ، وكتب سفرا خالدا حافلا بأروع جهاد عرفته الانسانية وبأعظم دعوة وصلت إلى الأرض من السماء . وأكبر ثورة لم يعرف التاريخ لها مثيلا . ثورة على الجمود البشرى واضطهاد الانسان لأخيه الانسان ، واستعباد القوى للضعيف ، ثورة أنقذت العالم من حياته الذليلة البدائية ، وأحالت ظلام الحياة نورا ، وخوفها أمنا وسلاما ، وظلمها عدلا وإنصافا وحرية ، مما شهد به أفذاذ المفكرين والمؤرخين ودعاة الاصلاح . ومن أولى من محمد بن عبد الله صلوات الله عليه بأن يرفع فى العالم منارة السلام ، وراية المدنية ، وأن يصل الأرض بالسماء . ويسعى بالإنسان ليبلغ ما كان ينتظره من حياة زاهرة ، وحرية نادرة ، وحضارة باهرة ، فيها الأمن والأمل والاطمئنان والرجاء ؟ . لقد كانت رسالة محمد صلوات الله عليه ، أول إعلان عالمى لحقوق الإنسان ، وأكبر حركة لتأييد كرامته وشخصيته فى الحياة ، وإصلاحا شمل جميع ميادين الاصلاح . صلوات الله عليه ، ورفعه إلى أعلى عليين ، وأكرمه فى أمته كما أكرم أمته به . إنه على ما يشاء قدير .

جاء الاسلام والعرب قبائل موزعة ، وأحياء متخاصمة ، لا يجمعهم دين ولا سلطان ولا شريعة اجتماعية عادلة منظمة . فبدلهم من ذلك كله نظاما موحدا ، وحياة كريمة مهذبة ، فى الاجتماع والسياسة ، وفى الدين والدنيا . واعترف

الاسلام للإنسان : بحريته ، واستقلاله الفكرى والاجتماعى والمالى ، وجعله حرا طليقا من كل قيد ؛ إلا من الخضوع لدين الله ؛ وللحاكم الأعلى الذى يحكم بشريعة الله ، ويسهر على حفظ الأمن والنظام بين الناس فرفع بذلك من كرامة الانسان ومعنويته ، وجعله خليفة له فى الأرض يعمرها ، ويمحو منها الظلام والفوضى والجهل والجمود ، بما وهبه الله من عقل ، وما حث عليه من العلم والعمران والاخاء ، التى هى أسباب وثيقة للمدنية والحضارة . ولا يزال الاسلام كما كان وكما صوره أبو سفيان بن حرب عدوه اللدود حين سأله هرقل عن دعوة محمد فقال : « يقول اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف وصلة الرحم » ولم يكن رسوله الأكبر زعيما دينيا متعصبا ، بل كان ملكا رحيما بالناس والحياة ، فأنقذ البشرية ودعا إلى تحررها وتجديدها ، وكان كما يقول حتى خصومه فى وصفه : « يصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويعين على نوائب الدهر » .

(٢)

هذا هو الاسلام ، وهذه هى دعوات كتابه الحكيم ، الذى نزل من السماء على خاتم الأنبياء ، محمد صلى الله عليه وسلم ، هاديا موجها ، وبشيرا ونذيرا للإنسانية كلها .

ولقد كان القرآن فى كل عصر معجزة المعجزات ، وكان هو الذى يبهر المشركين ويحاجهم ويخرسهم ، وكان هو الذى يدعو الناس إلى الدين الجديد وينطق بالحجة عليهم . فهذا الوليد بن المغيرة يمر بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن فيأتى قومه ويقول : « قد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه » . فقالت قريش : صبأ الوليد . فقال ابن أخيه أبو جهل : أنا أكفيكموه . فقعد إليه حزينا وكلمه بما أحماه فما كان من الوليد إلا أن قام وناداهم فقال : « تزعمون أن محمدا شاعر ، فهل رأيتموه

يتعاطى شعرا ؟ فقالوا : لا ، فقال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ » ففرحوا بقوله بعد أن كانوا غاضبين وتفرقوا عنه معجبين بعد أن كانوا عليه ساخطين . ولكن قريشاً لم تهدأ لها ثائرة ، وخشيت هذا السحر الحلال الذى ينفذ إلى أعماق القلوب ، فأخذوا يجتمعون ويتشاورون فيما يفعلون إزاء هذا السيل الجارف الذى لا قبل لهم به . فعن لهم أن ينتدبوا أحد كبرائهم عتبة بن ربيعة ليذهب إلى محمد يغريه بمختلف العروض ، فقال له : « يا ابن أخى . إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تريد به شرفا ، سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك . وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . وإن كان هذا الوحى الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه » . حتى إذا فرغ عتبة من عروضه لم يجد محمد ردا أبلغ من أن يوجه إليه سيفه البتار وحجته التى لا تضارع، فسلط عليه جبروت القرآن الذى يحطم كل ما يعترضه فتلا: بسم الله الرحمن الرحيم « حم : تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا ؛ فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين » . ثم استمر يتلو من سورة فصلت حتى إذا انتهى إلى قوله تبارك وتعالى « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » سجد لربه سجودا طويلا ، ثم رفع رأسه واستوى فى مجلسه وأخذ يكمل السورة ، فلما وصل إلى « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » أمسك عتبة على فيه وناشده الرحم، وما إن فرغ من السورة حتى نظر إلى عتبة فإذا هو ملق يديه وراء ظهره يصغى فى هدوء ، وقد بلغت الآيات من نفسه مبلغا عظيما؛ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « سمعت يا أبا الوليد »؟

قال : أنت وذاك . وصمت عتبة وذهب مطرقا برأسه يغمره جلال وتحتويه هيبة ، حتى إذا أتى قريشا قالوا : « ما وراءك يا أبا الوليد » فتحقق حدسهم وصدقت فراستهم حينما قالوا لبعضهم البعض وقد رأوا عتبة قادما : « نحلف بالله لقد جاءنا أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به » قال أبو الوليد : سمعت قولا ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ؛ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . فبهتت قريش وقالت : « سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه » فرد عليهم « هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم » .

وهذا النضر محدث القوم يتطوع فيحدثهم ، فيعرض عنه الناس وتصم دونه الآذان . وهكذا هزمت قريش ، ولكن قريشاً أبت أن تقر بالهزيمة « فلنمتنع عن سماع القرآن » .. وتعاهدوا على ذلك ولكنهم أيضاً فشلوا . إذ لا مندوحة لمن يسمعه مرة من أن يحن إلى استماعه مراراً ؛ فهؤلاء قوم منهم يسترقون السمع دونهم فرقاً وخشية حتى كبراؤهم والمحرضون الأولون لهم : أبو جهل وأبو سفيان والأخنس بن شريق . كانوا يفعلون ما يفعله الآخرون ، يستخفون ليسمعوا ، ولقد ظلوا كذلك ثلاث ليال متتابعة يستمعون حتى الفجر ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وظلوا كذلك حتى تعاهدوا آخر ليلة ألا يعودوا ..

وهذا عمر بن الخطاب الذى كان من أشد قريش غلظة على رسول الله وأتباعه ، قد خرج يوما متوشحا بسيفه يريد رسول الله ورهطا من أصحابه الذين تخلفوا معه بمكة ليقتل محمدا عليه الصلاة والسلام : هذا الصابىء الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها ، فلقيه نعيم بن عبد الله فسأله أين يذهب فقال : لأقتل محمداً ، فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتى ؟ قال :

زوج أختك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما . رجع عمر مغضبا وقصد بيت أخته وقرع الباب فقيل : من هذا ؟ قال : ابن الخطاب . ففزع من فى البيت خاصة وأنه كان بيدهم صحيفة فيها سورة طه يقرؤها خباب بن الأرث لسعيد وفاطمة ؛ فاختفى خباب ، وأخفت فاطمة الصحيفة تحت فخذها حتى إذا دخل ابن الخطاب قال : ما هذه الهيمنة التى سمعت ؟ قالا له : ما سمعت شيئا ، قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد ابن زيد فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك . فقال عمر لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرؤونها آنفاً أنظر ما هذا الذى جاء به محمد ، فأخذت أخته منه ميثاقا أن لا يتلفها وناولته الصحيفة فإذا فيها : بسم الله الرحمن الرحيم : « طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى » فقال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، وعندئذ خرج إليه خباب لما أنس تحوله بالقرآن من الغلظة إلى اللين ، ولما أحس منه الايمان ، فسأله عمر أن يدله على مكان محمد صلى الله عليه وسلم ، فقصد توا إلى أعدى أعدائه ينطق بالشهادتين خاشعا ، وصار للإسلام أعز نصير، لايعرف فى الحق لومة لائم . ولا يخشى أو يرهب أحداً

(٣)

ويلاحظ أننا حين تكلمنا عن الأصول الحضارية التى تشتمل عليها سورة الأنفال ، كنا موجزين غاية الإيجاز ، ولم نتناول إلا القليل جدا من النظريات العامة ، ولو أننا كنا قد تناولنا بالتفصيل والإبانة كل مااشتملت عليه السورة من أصول حضارية لما وسعتنا مئات الصحف ، ومع ذلك فإن هذا يكفينا فى ذلك المقام ..

وفى ختام هذا الجزء نثبت هذا التسبيح الذى ناجى به المرحوم الشاعر محمد الأسمر الذات العلية ، وهو منشور فى عدد رجب ١٣٥٤ هـ من مجلة الأزهر، وهذا

هو التسبيح : «تعاليت يارب ماأجلك ! خلقت الخلق ، وأجريت الرزق . بك ينمو الزرع ويدر الضرع . سبحانك اللهم ماأوسع ملكك ، وماأعظم سلطانك السماء والأرض لك ، والملائكة الأطهار جندك ، والملوك المتوجون عبيدك . تباركت وتعاليت ، صنعت فأعجزت ، وصورت فأحسنت ، الجن والإنس خلقك والجسم والروح عملك . لاإله إلا أنت ، منحتنا بصائر لاتنكرك ، وأبصارا لاتدركك . يسبح الرعد بحمدك ، ويترنم الطائر بمجدك . البحار لاتقر من خشيتك ، والجبال جامدة من هيبتك . ولقد جرى النسيم بلطفك ، وتقلب كل مخلوق فى رحمتك . تباركت تباركت ! لا أول قبلك ، ولا آخر بعدك ، كيف تخفى والشمس بعض بيناتك ؟ وكيف تدرك والروح بعض أسرارك ؟! فأنت الأول والآخر ، والظاهر والباطن . تعاليت تعاليت ! آمن بك المؤمن ولم يرك ، وجحدك الجاحد ووجوده شاهد بوجودك !!. سبحانك سبحانك ! بهرتنا آلاؤك ، وغاب عنا لألاؤك . ماء وحجر ، وأرض وقمر ، وزاحف وطائر ، وصادح وباغم ، وأنبت لنا من الأرض عجبا : نخيلا وأشجارا ، وأزاهير وثمارا . رب : من أين للورد شذاه ؟! ومن أين للغصن عوده ولحاه؟! ومن أين للثمار طعومها المختلفة وأشكالها المتباينة ؟! من أين كل هذا يارب ؟! سائغ وغير سائغ ، وناصع وفاقع ، تباركت مخرج الخضراء من الغبراء ، وخالق العجب من طين وماء ! سبحانك سبحانك ! جلت عظمتك ، أعجزت الإنسان بالجبال والتلال ، بل أعجزت الإنسان بذات الانسان ، عظم ولحم ، وعروق ودم ، وظفر وشعر . وسمع وبصر ، قلت للسان ذق ، وهو فلذة لحم ، فذاق ، وقلت للعين أبصرى فأبصرت وهى ماء . سبحانك اللهم وهذا القلب الخافق بم يخفق ؟! أشهد أن لاإله إلا أنت ، عجزت عقولنا عن الاحاطة ببعض ماخلقت ، فكيف تحيط بك ؟ ! سبحانك اللهم سبحانك ! هذه دنياك فكيف آخرتك ؟! وهذا شأن آثارك ، فكيف شأنك؟! تقدست من إله صدق ، وتعاليت من رب حق !»

وإنى لأبتهل إلى الله عز وجل ، أسأله التوفيق ، وأطلب منه الهداية والسداد ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ؟

المؤلف

فهرست الجزء العاشر

للمؤلف

قصـــة الأدب في مصر	ـ ٥ أجزاء
« « المعاصر	ـ ٤ «

ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان ـ طبعة ثانية ٨٠٠ صفحة

الحيـاة الأدبيـة فى العصر الجاهلى ـ طبعة ثانية ٥١٠ «

الشـعر والتجـديد

مواكب الحرية فى مصر الاسلامية

فى ظلال الاسلام ـ بالاشتراك

التراث الروحى للتصوف الاسلامى فى مصر

تفسير القرآن الحكيم ـ ٣٠ جزءاً

بين الشيوعية والاسلام

محمد عبد المنعم خفاجي



أحدث التفاسير ، وأجمعها للفكرة الإسلامية ،
ولفهم العصر الحاضر لكتاب الله

(١١)

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح ـ ت : ٥٠٨٥٢

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد خاتم المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أجمعين . . وبعد :

فهذا هو الجزء الحادى عشر ، من تفسيرى لكتاب الله ، الذى ضمنته شرحا جديداً للقرآن ، وأسلوبا طريفا فى فهمه وتذوقه ، وإدراك مراميه ، وتمثل معانيه ، والكشف عن حقائقه وأصوله .

والقارىء يدرك مدى ما يأخذه كتابة هذا التفسير ونشره : من جهد مبذول ، وعمل موصول ؛ وهو وحده حرى بأن يقف على مميزات هذا التفسير ، الذى يجعل القرآن الكريم وكل سورة منه وحدة واحدة ، متصلة الحلقات ، مباركة الهداية .

وسوف يصدر هذا التفسير بعون الله ورعايته فى ثلاثين جزءاً ، أرجو أن تظهر فى أمد قريب .

ومن الله التوفيق ، وأسأله العون والسداد ، إنه أكرم مأمول ، وأفضل مسئول وما توفيقى إلا بالله ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

تمهيد

(١)

هذا الجزء من التفسير ، كالأجزاء السابقة ، ينطق عما بذل فيه من جهود، تهدف إلى الكشف عن روح القرآن الكريم ومراميه وأسراره ومبادئه ومثله وأفكاره .

وليس من عادتنا النظر إلى كتاب الله آية آية ، ومعنى معنى . وإنما ننظر إليه فكرة فكرة ، وموضوعا موضوعا ، نصل اللاحق بالسابق ، ونتمم السابق باللاحق ؛ ونعرف أن وراء كل سورة هدفا وغاية ومرمى ترمز إليه ، وتدل عليه . . وهذا هو الفرق بيننا وبين سائر المفسرين الذين يتناولون كتاب الله كلمة كلمة ، وجملة جملة ، وآية آية ، ومعنى معنى من المعانى الجزئية ، بينما نتناوله جملة من الآيات تدل على موضوع واحد ، وننتقل منها إلى جملة أخرى ذات موضوع جديد آخر . .

نعرف بمعنى كل جملة من الآيات ، وما يكمن فيها من إشارات وأسرار ولطائف عديدة ، وما ترشد إليه من أحكام وأخلاق وآداب ، وما توحى به من مبادىء ومثل وقيم ، ناظرين فى ذلك كله بروح العلم الحديث ، والمدنية الماثلة فى كل شيء . . مع العناية بتصوير الجو الروحى الذى نزلت فيه الآيات ،وأسباب نزولها ، وصلتها بما قبلها وما بعدها ، ومع شديد الاهتمام بالجوانب الفنية العامة فى أسلوب القرآن ، والبعد ما أمكن عن الاصطلاحات والمصطلحات ؛ لأن القرآن هداية عامة ، فيجب أن يكون تفسيره بأسلوب حديث سهل ، يدركه الناس كافة ، لا فرق بين عامتهم وخاصتهم على حد سواء .

إن القرآن الكريم يجب أن تخلو تفاسيره من الغموض والإبهام ، ومن الاصطلاحات فى النحو والبيان وسواهما ، ومن كل مايعوق دون الفهم والإفهام وهذا هو صنيعنا فى هذا التفسير ، الذى نرجو أن يكون خالصاً لوجهه الكريم .

(٢)

وماذا نقول والموضوع كتاب الله ، والمقصود خدمة هذا الكتاب وتقريب هدايته للناس ، هذه الهداية التي هي آخر الرسالات ، ونهاية النبوات ، وخاتمة الدعوات السماوية التي نزل بها جبريل من السماء إلى الأرض.

في سبيل ذلك يكون من الحظ الأوفى أن يعمل العاملون ، ويكدح الكادحون ، ويجتهد المجتهدون . ولي من هذا الحظ ما يملأ لساني ثناء ونداء وقلبي تفرغا ودعاء إلى الله ، بأن يجعل هذا العمل المبرور خالصا لوجهه الكريم ، وأن يوفق لإكماله وإتمامه ، بقدرته ومشيئته ، إنه على مايشاء قدير.

(٣)

وعندما يكمل هذا التفسير وتنتهي أجزاؤه الثلاثون ، سوف يدرك الناس بعون الله وفضله أنهم أمام موسوعة إسلامية ضخمة ، تتناول القرآن الكريم ، ومبادئه ، والإسلام وأصوله ، والحياة الإنسانية وأطوارها وتشريعات الرسالة المحمدية وأحكامها ، بالتفصيل والشرح والبيان . بما ليس بعده بيان .

وأسلوب العصر الحديث وروحه في الفهم والكتابة والبيان واضحان كل الوضوح في هذا التفسير ، مما يعد ميزة جديدة أخرى له .

(٤)

وإني لأضرع إلى الله عز وجل أن يؤيد هذا المسعى ، ويبارك تلك الخطى ، إنه سميع الدعاء ، وولي العاملين ، ونصير الطائعين المخلصين .. وما توفيق إلا بالله ؟

المؤلف

(٩)

ســـــورة التوبة

فاتحة سورة التوبة

(١)

سورة التوبة مدنية ، إلا الآيتين الأخيرتين ، فهما مكيتان ، وقد نزلت بعد سورة المائدة ، وتبلغ جملة آياتها ١٢٩ آية .

وجاءت هذه السورة بعد سورة الأنفال فى الترتيب لما اشتملت عليه من تفصيل كثير للإجمال الذى جاءت به سورة الأنفال ؛ والأنفال والتوبة يعدان كسورة واحدة تتمم السبع الطوال ، ورأى كثير من الصحابة أنهما سورة واحدة ، وعللوا ترك التسمية فى أول التوبة بهذا .

ونلاحظ أن سورة الأنفال قد جاء فيها ذكر العهود ، وجاء فى سورة التوبة ذكر نبذ العهود ، وختمت سورة الأنفال بذكر فرض الموالاة بين المؤمنين ، وقطعها بينهم وبين الكفار ، وافتتحت سورة التوبة بهذا ، وكل من سورتى الأنفال والتوبة نزل فى القتال .

(٢)

ويلاحظ أن سورة التوبة قد نزلت فى ذى القعدة ، أو فى ذى الحجة من السنة التاسعة للهجرة ، وقد سميت باسم التوبة لأنه قد ذكرت فى الآيتين ١١٧ و١١٨ توبة الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا فى غزوة تبوك .

(٣)

وفى سورة التوبة تحديد لعلاقة المسلمين بأعدائهم فى آخر عهد النبوة . وكان أعداء الإسلام ثلاث طوائف :

١ ـ أولاها مشركو العرب ، وقد نبذت فى هذه السورة عهود الذين لم يوفوا بعهودهم منهم ، وأمهلوا فيها أربعة أشهر يسيحون فى الأرض ، وأتم فيها عهد من وفى بعهده إلى مدته لتخلص جزيرة العرب للمسلمين وحدهم .

٢ ـ من حاربهم الرسول من اليهود والنصارى ، وقد أمر الرسول بقتالهم إلا إذا دفعوا الجزية .

٣ ـ المنافقون ، وقد فضحوا فى هذه السورة وكشفت أسرارهم ، وأمر المسلمون بمقاطعتهم والبعد عنهم .

وهذه السورة تنقسم إلى قسمين :
أولهما : فى الكلام على المشركين وأهل الكتاب .
وثانيهما : فى الكلام على المنافقين .

وقد استطرد فى أثناء ذلك إلى بعض الحوادث التى وقعت فى تاريخ نزول هذه السورة ، كغزوة حنين ، وغزوة تبوك .

وهذه السورة هى من آخر ما نزل من القرآن الكريم ، ولها عدة أسماء : التوبة ، براءة ، المشقشقة ، المبعثرة ، المنفرة ، المخزية ، الفاضحة ، المنكلة ، المشردة ، سورة العذاب . وإنما سميت بذلك لما فيها من التوبة للمؤمنين ، والشقشقة من النفاق ، وهى التبرى منه ، والبحث عن حال المنافقين ، والتنفير منها ، وبيان ما يخزيهم ويفضحهم وينكلهم ، ولم تكتب فيها البسملة لأنه صلى الله عليه وسلم لم يأمر بذلك كما يؤخذ من حديث رواه الحاكم ، وأخرج فى معناه على أن البسملة أمان ، وهى نزلت لدفع الأمن بالسيف ، وعن حذيفة: إنكم تسمونها سورة التوبة وهى سورة العذاب ، وروى البخارى عن البراء أنها آخر سورة نزلت ، وقيل : كان صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه سورة أو آية بين موضعها فتوفى ولم يبين موضعها ، وكانت قصتها تشابه قصة الأنفال وتناسبها ؛ لأن فى الأنفال ذكر العهود ، وفى براءة نبذها ، فضمت إليها ، ولكن يبعد أن يقال إنه عليه الصلاة والسلام لم يبين كون هذه السورة

تالية لسورة الأنفال ، لأن القرآن مرتب من قبل الله تعالى ، ومن قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى نقل ، ولو جوزنا فى بعض السور أن لا يكون ترتيبها من الله تعالى على سبيل الوحى لجوزنا مثله فى بعض السور وفى آيات من السورة الواحدة ، وذلك يخرجه عن كونه حجة ، بل الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الأنفال وحياً ، وأنه عليه الصلاة والسلام حذف «بسم الله الرحمن الرحيم» من هذه السورة وحياً ، والقول بأن قصتها تشابه قصتها وتناسبها فضمت إليها إنما يتم إذا قلنا إنهم إنما وضعوا هذه السورة من قبل أنفسهم لهذه العلة .. وقيل : إن الصحابة رضى الله عنهم اختلفوا فى أن سورة الأنفال وسورة براءة سورة واحدة أم سورتان ، فقال بعضهم : هما سورة واحدة لأن كلتيهما نزل فى القتال ، ومجموعهما هو السورة السابعة من الطوال وهى سبع ، وهما معا مائتان وست آيات فهما بمنزلة سورة واحدة ؛ وفيهم من قال : إنهما سورتان ؛ فلما ظهر الاختلاف من الصحابة فى هذا تركوا بينهما فرجة تنبيها على قول من يقول : هما سورة واحدة ، وقال بعض أصحاب الإمام الشافعى : لعل الله لما علم من بعض الناس أنهم ينازعون فى كون « بسم الله الرحمن الرحيم » من القرآن أمر أن لا تكتب ها هنا ليدل ذلك على كونها آية من كل سورة ، وقيل غير ذلك .

والصحيح من هذه الأقوال أن القرآن مرتب من قبل الله ومن قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى نقل ، وأنه صلى الله عليه وسلم حذف « بسم الله الرحمن الرحيم » من هذه السورة وحيا .

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة براءة

١ — بَرَآءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ .

٢ — فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِى الْكَٰفِرِينَ .

٣ — وَأَذَٰنٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

٤ — إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ .

٥ — فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٦ — وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ .

٧ — كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ .

٨ — كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ .

٩ — ٱشْتَرَوْا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

١٠ — لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ .

١١ — فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

١٢ — وَإِن نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ .

١٣ — أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

١٤ — قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ .

١٥ — وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

١٦ — أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

ست عشرة آية ذكر فيها الله عز وجل موقف الإسلام من المشركين وغيرهم فى جزيرة العرب ، وطلب اعتبار الجزيرة دار إسلام ، وبين للرسول وجوب تطهيرها من الشرك والمشركين ، وكيف يعامل من بينه وبينهم عهد من المشركين . إلى آخر ماتناولته هذه الآيات مماسنذكره بتفصيل وتوضيح .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « براءة » أى هذه براءة « من الله ورسوله » أى واصلة من الله ورسوله « إلى الذين عاهدتم » أى أوقعتم العهد بينكم وبينهم « من المشركين » أى وإن كانت معاهدتم لكم إنما كانت بإذن من الله ورسوله ، فكما فعلتم المعاهدة بإذنهما فافعلوا النقض تبعا لهما ، ودل سياق الكلام وما حواه من بديع الانتظام أن العهد إنما هو لأجل المؤمنين ، وأما الله ورسوله فغنيان عن ذلك ، وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف ، وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى بنقض عهودهم ، وذلك قوله تعالى « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » الآية ، وكذلك فى قوله تعالى : « فسيحوا » أى سيحوا آمنين أيها المشركون « فى الأرض أربعة أشهر » لا يتعرض لكم فيها ولا أمان لكم بعدها ، وكان ابتداء هذه الأشهر يوم الحج الأكبر ، وانقضاؤها إلى عشرين ربيع الآخر ، وقال الأزهرى : هى شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لأنها نزلت فى شوال ، وقيل : فى ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من

شهر ربيع الآخر ، وكانت حرما لأنهم أومنوا فيها وحرم قتلهم وقتالهم ، وقيل : العشر من ذى القعدة إلى عشر من شهر ربيع الأول ، لأن الحج فى تلك السنة كان فى ذلك الوقت للنسىء الذى كان فيهم ، ثم صار فى السنة الثانية من ذى الحجة ، وكان نزولها فى سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان ، وكان الأمر فيها عتاب ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر على الموسم سنة تسع ثم اتبعه عليا راكبا العضباء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقرأها على أهل الموسم ، فقيل له : لو بعثت بها إلى أبى بكر فقال : لا يؤدى عنى إلا رجل منى ، فلما دنا على من أبى بكر سمع أبو بكر الرغاء[1] فوقف ، وقال : هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما لحقه قال : أمير أو مأمور ، وروى أن أبا بكر لما كان ببعض الطريق هبط جبريل عليه السلام وقال : يا محمد لا يبلغن رسالتك إلا رجل منك فأرسل علياً ، فرجع أبو بكر ، فقال يا رسول الله : أشىء نزل ؟ قال : نعم فسر أنت على الموسم ، وعلى ينادى ، بالآى فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر وحدثهم ، وقام على يوم النحر عند جمرة العقبة فقال : أيها الناس إنى رسول رسول الله إليكم ، فقالوا : بم ؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ، وعن مجاهد : ثلاث عشرة آية ، ثم قال : أمرت بأربع إنى أنادى بها أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ولا يطوف به عريان ، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة ، وأن يتم إلى كل ذى عهد عهده فقالوا عند ذلك : أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف ، ثم حج صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع .

هذا وقد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكى يؤدى عنه ، كما بعث كثيرا من الصحابة ولم يكونوا من عترته ، فيكون هذا ليس على العموم بل مخصوص ،

---

(١) هو صوت الناقة وذوات الخف . والعضباء : المشقوقة الأذن ، ولم تكن ناقته صلى الله عليه وسلم كذلك ، ولكن كان ذلك علما عليها ..

بالعهود . لأن العرب من عادتها أن لا يتولى العهد ونقضه على القبيلة إلا رجل من الأقارب ، فلو تولاه أبو بكر لجاز أن يقولوا : هذا خلاف ما يعرف فينا من نقض العهد ، فربما لم يقبلوا ، ويدل على ذلك أن فى بعض الروايات لاينبغى لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلى ، وقيل : لما خص أبو بكر بتولية الموسم وبعث عليا خليفة لتبليغ هذه الرسالة حتى يصلى خلف أبى بكر ويكون ذلك جاريا مجرى تنبيه على على إمامة أبى بكر ، فإن قيل : ماوجه إطباق أكثر العلماء على جواز مقاتلة المشركين فى الأشهر الحرم وقد صانه الله عن ذلك ؟ أجيب بأنهم قالوا : قد نسخ وجوب الصيانة وأبيح قتال المشركين فيها « واعلموا أنكم غير معجزى الله » أى لاتفوتونه وإن أمهلكم « وأن الله مخزى الكافرين » أى مذلهم فى الدنيا بالقتل والأسر وفى الآخرة بالعذاب « وأذان » أى إعلام واقع « من الله ورسوله إلى الناس » الأذان فى اللغة الإعلام ، ومنه الأذان للصلاة فإنه إعلام بوقتها ، وقد علقت البراءة بالذين عاهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم ، وأما الأذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث « يوم الحج الأكبر » أى يوم عيد النحر لأن فيه معظم أفعاله من طواف ونحر وحلق ورمى يقع فيه ، ولأن الإعلام كان فيه ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات فى حجة الوداع فقال : أى يوم هذا ؟ فقالوا : يوم النحر ، فقال : هذا يوم الحج الأكبر ، وروى أن عليا خرج يوم النحر على بغلة بيضاء ، فجاءه رجل فأخذ بلجام دابته وسأله عن يوم الحج الأكبر فقال : يومك هذا ، خل سبيلها ، وقيل : يوم عرفة لقوله صلى الله عليه وسلم : الحج عرفة ، وقيل : أيام منى كلها ؛ لأن اليوم قد يطلق ويراد به الحين والزمان ، كقوله : يوم صفين ويوم الجمل ؛ لأن الحرب دامت فى هذه الأيام ، ويطلق عليها يوم واحد ، وقيل : هو للذى حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود وعيد النصارى وعيد المشركين ، ولم يجتمع مثل ذلك قبله ولا بعده ، ووصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الأصغر ، وإنما

قيل لها : الأصغر لنقصان أعمالها عن الحج . وقيل: وصف بذلك لموافقته جمع النبي حجة الوداع وكان ذلك اليوم يوم الجمعة. وودع الناس فيه وخطبهم وعلمهم مناسكهم ، وقيل: وصف بذلك لاجتماع أعياد الملل فى ذلك اليوم ، وقيل:لأنه ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين . . « إن الله برىء من المشركين » أى من عهودهم ، والمعنى : وأذان من الله ورسوله بأن الله برىء من المشركين « ورسوله» مرفوع على أنه مبتدأ حذف خبره أى ورسوله كذلك ، وحكى أن أعرابيا قدم فى زمن عمر فقال: من يقرئنى مانزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم؟ فاقرأه رجل براءة فقال : إن الله برىء من المشركين ورسوله ـ بالكسر ، فقال الأعرابى أو قد برىء الله من رسوله ؟ إن يكن الله برىء من رسوله فأنا برىء منه ، فبلغ عمر مقالة الأعرابى ، فدعاه فسأله فأخبر الأعرابى بذلك ، فقال عمر : ليس هكذا ياأعرابى ، فقال : فكيف هى ياأمير المؤمنين ؟ فقال : إن الله برىء من المشركين ورسوله بالرفع ، فقال : وأنا والله برىء مما برىء الله ورسوله منه ، فأمر عمر أن لايقرأ القرآن إلا عالم باللغة ، إلى ان وضع أبو الأسود الدؤلى النحو « فإن تبتم » أى عن الكفر والغدر « فهو » أى ذلك الأمر العظيم وهو المتاب « خير لكم » أى من الإقامة على الشرك ، وهذا ترغيب من الله فى التوبة والإقلاع عن الشرك « وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله » وذلك وعيد عظيم وإعلام بأن الله تعالى قادر على إنزال العذاب بهم ، كما قال تعالى « وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » أى مؤلم، وهو القتل والأسر فى الدنيا والنار فى الآخرة ، ولفظ البشارة هنا ورد على سبيل الإخبار أو على سبيل الاستهزاء « إلا الذين عاهدتم من المشركين » استثناء من المشركين ، وهم بنو ضمرة ، حى من كنانة ، أمر الله تعالى رسوله بإتمام عهدهم إلى مدتهم وكان قد بقى من مدتهم تسعة أشهر ، وكان السبب أنهم لم ينقضوا كما قال تعالى « ثم لم ينقصوكم شيئا » أى من عهودكم التى عاهدتموهم عليها « ولم يظاهروا » أى ولم يعاونوا « عليكم أحدا » من عدوكم « فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم » أى إلى انقضائها « إن الله يحب المتقين » تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من

باب التقوى « فإذا انسلخ » أى انقضى وخرج « الأشهر الحرم » التى حرم الله عليهم فيها قتالهم وضربت أجلا لسياحتهم ، والمراد بكونها حرما أن الله تعالى حرم القتل والقتال فيها ، وقيل : هى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، قال البيضاوى : وهذا يخل بالنظم أى نظم الآية ، إذ نظمها يقتضى توالى الأشهر المذكورة « فاقتلوا المشركين » أى الناكثين الذين ضربتم لهم هذا الأجل أى بالأسر « حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم » أى بالحبس عن إتيان المسجد الحرام والتصرف فى بلاد الإسلام فى القلاع والحصون ، حتى يضطروا إلى الإسلام أو الجزية « واقعدوا لهم » أى لأجلهم خاصة ، فإن ذلك من أفضل العبادات « كل مرصد » أى كل طريق يسلكونه « فإن تابوا » أى عن الكفر بالإيمان « وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » تصديقا لتوبتهم وإيمانهم فوصلوا ما بينهم وبين الخالق وما بينهم وبين الخلائق « فخلوا سبيلهم » أى فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشىء من ذلك ، وفى هذه الآية دليل على أن تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلى سبيله ؛ لأنه إن كان جاحدا لوجوبها فهو مرتد وإلا عوقب بترك الصلاة ، وأخذت منه الزكاة قهرا وقوتل على ذلك ، كما نقل عن أبى هريرة أنه قال : لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر ، كفر من كفر من العرب ، قال عمر لأبى بكر رضى الله تعالى عنهما : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فمن قال : لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقها وحسابه على الله ، فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها ، فقال عمر : والله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر إلى القتال فعرفت الحق « إن الله غفور » أى بليغ المحو للذنوب الذى تاب صاحبها عنها « رحيم » به « وأن أحد من المشركين » أى الذى أمرت بقتالهم « استجارك » أى إن استجار بك بعد انقضاء مدة السياحة « فأجره حتى يسمع كلام الله » أى فأمنه حتى

يبلغه الإسلام « ثم » إن أراد الانصراف ولم يسلم « أبلغه مأمنه » أى الموضع الذى يأمن فيه وهو دار قومه لينظر فى أمره ، ثم بعد ذلك يجوز لك قتلهم وقتالهم من غير غدر ولا خيانة ، قال الحسن رضى الله عنه : هذه الآية محكمة إلى يوم القيامة «ذلك » أى الأمر بالإجارة للغرض المذكور « بأنهم » أى بسبب أنهم « قوم لا يعلمون » أى لا علم لهم لأنهم لا عهد لهم بنبوة ولا رسالة ولا كتاب ، فإذا علموا أوشك أن ينفعهم العلم « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله » استفهام معناه النفى ، أى لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله ، وهم يغدرون وينقضون العهد « إلا الذين عاهدتم » من المشركين « عند المسجد الحرام » يوم الحديبية وهم المستثنون قبل « فما استقاموا لكم » أى أقاموا على العهد ولم ينقضوه « فاستقيموا لهم » أى على الوفاء ، وهو كقوله تعالى : « فأتموا لهم عهدهم إلى مدتهم » ، « إن الله يحب المتقين » أى من اتقى يوفى بعهده لمن عاهده وقد أقام صلى الله عليه وسلم على عهدهم حتى نقضوه بإعانة بنى بكرة على خزاعة « كيف » تكرار للاستبعاد بثبات المشركين على العهد وحذف الفعل لكونه معلوما أى كيف يكون لهم عهد ثابت « وإن » أى والحال أنهم مضمرون لكم الغدر والخيانة فهم إن « يظهروا عليكم » أى يعلو أمرهم على أمركم بأن يظفروا بكم بعد العهد والميثاق « لا يرقبوا » أى لا يرعوا « فيكم » أى فى أذاكم بكل جليل وحقير « إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم » أى بكلامهم كلام مبتدأ فى وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن وقوله عز وجل بعد ذلك : « وتأبى قلوبهم » أى تأبى الوفاء به لمخالفة ما فيها « وأكثرهم فاسقون » الموصوف بهذه الصفة كفار. والكفر أقبح وأخبث من الفسق ، فكيف يحسن وصفهم بالفسق فى معرض المبالغة فى الذم ؟ وأيضاً الكفار كلهم فاسقون فلا يبقى لقوله «وأكثرهم» فائدة .. الجواب أن الكافر قد يكون عدلا فى دينه فلا ينقض العهد وقد يكون فاسقاً خبيث النفس فى دينه فينقضه ، فالمراد بالفسق هنا نقض العهد ، وكان فى المشركين من وفى بعهده ، فلهذا قال : وأكثرهم أى إن هؤلاء الكفار الذين من عادتهم نقض العهد أكثرهم فاسقون فى دينهم

وعند أقوامهم ، وذلك يوجب المبالغة فى الذم ، وقال ابن عباس : لا يبعد أن يكون بعض أولئك الكفار قد أسلم وتاب ،فلهذا السبب قال: « وأكثرهم فاسقون» حتى يخرج عن هذا الحكم أولئك الذين دخلوا فى الإسلام «اشتروا» أى استبدلوا « بآيات الله » أى القرآن « ثمنا قليلا » أى عرضاً يسيرا من الدنيا وهو اتباع الهوى والشهوات مع مصاحبة الكفر ، وذلك أن أبا سفيان بن حرب أطعم حلفاءه وترك حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم فنقض العهد الذى بينه وبينهم بسبب ذلك « فصدوا » أى فسبب لهم ذلك وأداهم إلى أن صدوا « عن سبيله » أى منعوا الناس من الدخول فى دينه « إنهم ساء ما كانوا يعملون ، لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة » هو تفسير لا تكرير ، وقيل : الأول عام فى المنافقين وهذا خاص بالذين اشتروا وهم اليهود والأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم « وأولئك » أى هؤلاء البعداء من كل خير « هم المعتدون » الذين تعدوا ما حد الله لهم فى دينه وما يوجبه العقد والعهد .

ولما بين تعالى حال من لا يرقب فى الله إلا ولا ذمة وينقض العهد وينطوى على النفاق ويتعدى ما حد الله تعالى له ، بين ما يصيرون به من أهل دينه بقوله تعالى: « فإن تابوا » أى رجعوا عن الشرك إلى الإيمان ونقض العهد إلى الوفاء به « وأقاموا الصلاة » أى المفروضة عليهم بجميع حدودها وأركانها « وآتوا الزكاة » المفروضة عليهم طيبة بها نفوسهم « فإخوانكم » أى فهم إخوانكم « فى الدين » لهم ما لكم وعليهم ما عليكم « ونفصل الآيات لقوم يعلمون » اعتراض للحث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين وخصال التائبين «وإن نكثوا » أى نقضوا « أيمانهم » أى عهودهم « من بعد عهدهم » الذى عاهدوكم عليه أن لا يقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم أحداً من أعدائكم « وطعنوا فى دينكم » أى عابوا دينكم الذى أنتم عليه وقدحوا فيه «فقاتلوا أئمة الكفر» أى الكفار بأسرهم ، وإنما خص الأئمة منهم بالذكر لأنهم هم الذين يحرضون الأتباع منهم على هذه الأعمال الباطلة ، وقال ابن عباس : نزلت فى أبى سفيان والحارث ابن هشام وأبى جهل وسائر قريش، وهم الذين نقضوا عهودهم وهموا بإخراج

الرسول ، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر « إنهم لا أيمان لهم » قرأ ابن عامر بكسر الهمزة أى لا تصديق لهم ولا دين ، وليس فى ذلك دلالة على أن توبة المرتد لا تقبل .. وقرأ الباقون بالفتح جمع يمين أى لا أيمان لهم على الحقيقة وأيمانهم ليست بأيمان ، وإلا لما طعنوا فى دينكم ولم ينكثوا ، وفيه دليل على أن الذمى إذا طعن فى الإسلام فقد نكث عهده أى إن شرط ذلك عليه كما هو مذهبنا وتمسك به أبو حنيفة رحمه الله تعالى بهذا على أن يمين الكافر لا تكون يمينا ، وعند الشافعى رحمه الله تعالى : يمينهم منعقده ، ومعنى هذه الآية عنده أنهم لما لم يؤمنوا بها صارت أيمانهم كأنها ليست بأيمان ، والدليل على أن يمينهم منعقدة أن الله تعالى وصفها بالنكث فى قوله تعالى : « وإن نكثوا أيمانهم » ولو لم تكن منعقدة لما صح وصفها بالنكث « لعلهم ينتهون » متعلق بقاتلوا ، أى ليكون غرضكم فى مقاتلتهم بعدما وجد منهم ما وجد من العظائم أن ينتهوا عما هم عليه من الكفر والطعن فى دينكم والمظاهرة عليكم ؛ وهذا فى غاية كرم الله تعالى وفضله على الإنسان . . ولما قال تعالى : « فقاتلوا أئمة الكفر » تبعه بذكر ثلاثة أسباب تبعث على مقاتلتهم ، كل واحد منها يوجب مقاتلتهم لو انفرد فكيف بها حال الاهتمام :

أحدها ما ذكره تعالى بقوله : « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم » أى نقضوا عهودهم وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية وأعانوا بنى بكرة على خزاعة ، وهذا يدل على أن قتال الناكثين أولى من قتال غيرهم من الكفار ليكون ذلك زجرا لغيرهم .

وثانيها قوله تعالى : « وهموا بإخراج الرسول » من مكة حين اجتمعوا فى دار الندوة على ما ذكره فى قوله تعالى : « وإذيمكر بك الذين كفروا » ، وقيل : هم اليهود نكثوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهموا بإخراجه من المدينة ، وهذا من أوكد ما يجب القتال لأجله .

وثالثها قوله تعالى : « وهم بدأوكم » أى بالقتال « أول مرة » أى هم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم بالكتاب

المنير وتحداهم به ، فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها إلى القتال ؛ فهم البادئون بالقتال والبادىء أظلم. فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم ، وبخهم الله تعالى بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ، ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها . . والمعنى : أن من كان فى مثل صفاتهم من نكث العهد وإخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب حقيق بأن لا يترك مصادمته وأن يوبخ من فرط فيها « أتخشونهم » أى أتخافونهم أيها المؤمنون فتتركون قتالهم « فالله أحق أن تخشوه » فقاتلوا أعداءه « إن كنتم مؤمنين» أى مصدقين بوعد الله ووعيده . لأن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه ، ولا يبالى بما سواه كقوله تعالى : « ولا يخشون أحداً إلا الله » .

« قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم » أى بالقتل والأسر واغتنام الأموال ، فإن قيل : قد قال الله تعـالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » فكيف قال تعالى : « يعذبهم الله بأيديكم » ؟ والجواب أن المراد بالعذاب فى الآية الأولى عذاب الاستئصال.. «ويخزهم» أى بالذل والفضيحة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة « وينصركم عليهم » أى يمكنكم من قتلهم وإذلالهم «ويشف صدور قوم مؤمنين» أى طائفة من المؤمنين وهم خزاعة ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى شديداً فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلموا إليه فقال : أبشروا فإن الفرج قريب « ويذهب غيظ قلوبهم » أى كربها ووجدها وقد وفى الله تعالى بما وعد . . والآية من المعجزات « ويتوب الله على من يشاء » أى إن الله يهدى من يشاء إلى الإسلام كما فعل بأبى سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو فهؤلاء كانوا من أئمة الكفر ورؤساء المشركين ، ثم من الله عليهم يوم فتح مكة فأسلموا وحسن إسلامهم « والله عليم » أى يعلم ما قد كان ، فهو عليم بكل شىء، فيعلم من يصلح للتوبة ومن لا يصلح لها، ويعلم ما فى قلوبكم من الإقدام

«والإحجام» حكيم » أى أحكم جميع أموره « أم حسبتم » أى ظننتم «أن تتركوا» فلا تؤمروا بالجهاد ولا تمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب ، والخطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال ، وقيل : للمنافقين ، وأم بمعنى همزة الإنكار « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » أى علما ظاهرا تقوم به الحجة عليكم بأن يقع الجهاد فى الواقع بالفعل « ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة » عطف على جاهدوا ؛ داخل فى غير الصلة لأنه قيل : ولما يعلم الله المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذى وليجة من دون الله ، والوليجة من ولج وهى البطانة من المشركين يتخذونهم يفشون إليهم أسرارهم ، وقال قتادة : هى الخيانة ، وقال عطاء : هى الأولياء « والله خبير بما تعملون » من سؤال المشركين وغيره فيجازيكم عليه .

١٧ — مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ .

١٨ — إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ .

هاتان الآيتان الكريمتان هما فى الرد على المشركين الذين عدوا إشرافهم على الكعبة وقيامهم بخدمتها فخرا لهم على غيرهم ، وعملا عظيما يقومون به ويستحقون عليه الثواب العظيم ، قال ابن عباس : لما أسر العباس فى يوم بدر عيره بالكفر وأغلظ على رضى الله عنه عليه القول ، فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا ، فقال له على : وهل لكم محاسن ؟ قال : نعم ، نحن أفضل منكم ، إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب

الكعبة ونسق الحجيج ونفك العانى — أى الأسير — فأنزل الله تعالى رداً على العباس : « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله » أى ماينبغى للمشركين أن يعمروا مسجد الله بدخوله والقعود فيه وخدمته ، فإذا دخل بغير إذن مسلم عذر، وإن دخل بإذن لم يعذر، لكن لا بد من حاجة ، فيشترط للجواز الإذن والحاجة ، ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالإذن أن النبى صلى الله عليه وسلم شد ثمامة بن أثال إلى سارية من سوارى المسجد وهو كافر ، وذهب جماعة إلى أن المراد منه العمارة المعروفة من بناء المسجد وترميمه عند خرابه فيمنع منه الكافر ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : مسجدا ـ بالإفراد ، وفى هذا دلالة على أن المراد المسجد الحرام ، وقيل : المراد على القراءتين المسجد الحرام ، وإنما جمع لتعظيمه لأنه قبلة المساجد وإمامها « شاهدين على أنفسهم بالكفر » أى استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين : عمارة مساجد الله مع الكفر بالله وبعبادته ، ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر : ظهور كفرهم ، قال الحسن : لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام ، وذلك أن كفار قريش كانوا نصبوا أصنامهم حول البيت. وكانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون: لا نطوف بثياب قد عملنا فيها المعاصى وكلما طافوا أسبوعا سجدوا للأصنام فلم يزدادوا من الله تعالى إلا بعداً ، وقيل : هو قولهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك ، وقال السدى : شهادتهم على أنفسهم بالكفر : هو أن النصرانى يسأل : من أنت؟ فيقول: نصرانى، واليهودى يقول: يهودى ، والمشرك يقول : مشرك ، « أولئك حبطت أعمالهم » أى الأعمال التى عملوها وظنوها مثوبة لهم عند الله وافتخروا بها مثل عمارة البيت وحجابته وسقايته ، « وفى النار هم خالدون » أى لجعلهم الكفر مكان الإيمان ، واحتج جماعة بهذه الآية على أن مرتكب الكبيرة من أهل الإيمان لا يبقى مخلدا فى النار ، لأن قوله تعالى « وفى النار هم خالدون » يفيد معنى : هم فيها خالدون لا غيرهم ، والآية فى حق الكافرين فثبت أن غيرهم من أهل الإيمان لا يخلدون فى النار .

ولما بين الله تعالى أن الكافر ليس له أن يعمر مسجد الله بين المستحق لعمارتها بقوله تعالى « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش » أحداً « إلا الله » أى إنما يطلب عمارتها لهؤلاء الجامعين بين الكمالات العملية والعلمية ولم يذكر الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم مع أن الإيمان به شرط فى صحة الإيمان لأن الإيمان بالله تعالى لابد فيه من الإيمان برسول الله . وقيل : لأنه تعالى إنما لما ذكر الصلاة ، والصلاة لا تتم إلا بالتشهد وهو مشتمل على ذكره كان ذلك كافياً ، وقيل : إن المشركين كانوا يقولون : إن محمداً إنما ادعى رسالة الله تعالى طلبا للرئاسة والملك فلذلك ترك ذكر النبوة ، فكذلك يقول : مطلوبى من تبليغ الرسالة ليس إلا الإيمان بالمبدأ والمعاد فذكر المقصود الأصلى وحذف ذكر النبوة تنبيها للكافر على أنه لا مطلوب له من الرئاسة ، وقال الله تعالى « ولم يخش إلا الله » مع أن المؤمن يخاف الظلمة والمفسدين ؛ لأن المراد من هذه الخشية الخوف والتقوى فى أبواب الدين ، وأن لايختاروا على رضاء الله عنه رضاء غيره لتوقع مخوف ، وإذا اعترضه أمران أحدهما حق لله تعالى والآخر حق نفسه آثر ما فيه حق الله تعالى ، وقيل : كانوا يخشون الأصنام ويرجونها فأريد بذلك نفى الخشية عنهم ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : يأتى فى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد فيقعدون حلقا ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لا تجالسوهم فليس لله فيهم حاجة ، وفى الحديث : الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيشة ، وفى الكشاف أنه صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى إن بيوتى فى أرضى المساجد ، وإن زوارى فيها عمارها ؛ فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى ؛ فحق على المزور أن يكرم زائره ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم : من ألف المساجد ألفه الله تعالى ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان ، وعن أنس رضى الله عنه : من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام فى ذلك المسجد ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : من غدا إلى المسجد وراح

أعد الله له نزلا من الجنة كلما غدا أو راح « فعسى أولئك » أى الموصوفون بهذه الصفات « أن يكونوا من المهتدين » أى الذين وصلوا إلى منزلة الهدى والاهتداء عاقبتها . فإنه تعالى بين أن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع ، وضموا إليه الخشية من الله تعالى ، فهؤلاء صار حصول الاهتداء لهم دائراً بين لعل وعسى ، فما بال هؤلاء المشركين يقطعون بأنهم مهتدون .

* * *

وبذلك ينتهى الربع الأول من هذه السورة ، سورة التوبة ، الذى تضمن ما تضمن من محاربة الشرك والمشركين فى الجزيرة العربية والقضاء على الوثنية فيها ، وإعلان دين الله فى أرجائها ، وجعل الجزيرة مركزا للتوحيد والإسلام ، ومن ثم برىء الله عز وجل ورسوله من الشرك والمشركين ، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالتبرؤ منهم ، ونبذ عهودهم إليه ، وطلب الإيمان منهم ، وقتالهم إن أبوا ، حتى يتوبوا ويؤمنوا ويدخلوا فى الإسلام وشرائعه ، وقد رد الله عز وجل على المشركين ردا بليغا ، فى قولهم : إننا سدنة بيت الله وخدمته ، وبين لهم بوضوح أنه لا يجتمع إيمان وكفر ، وأن عمارتهم للمسجد الحرام لا يغنى عنهم من الله شيئاً ماداموا على الشرك ، وماداموا مشركين بالله .

الربع الثانى من سورة التوبة

١٩ — أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ .

٢٠ — ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ .

٢١ — يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ .

٢٢ — خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ.

أربع آيات كريمة فى نفى المساواة بين الشرك والإيمان وفى تعظيم شأن الإيمان والمؤمنين ، وبيان ثوابهم العظيم عند الله فى الدنيا والآخرة .. يقول الله تعالى فى هذه الآيات الكريمة : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله » فى سبب نزول هذه الآية أقوال: فعن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل : إنى لا أعمل عملا بعد أن أسقى الحاج ، وقال آخر: ما بالى أن لا أعمل عملا بعد أن أعمر المسجد الحرام ، وقال آخر : الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم؛ فزجرهم عمر رضى الله تعالى عنه وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فأستفتيه فيما اختلفتم فيه ، فنزلت .. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : قال العباس حين أسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام وبالهجرة والجهاد ، لقد كنا نعمر المسجد الحرام، فنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟ فقالت لهم اليهود : أنتم أفضل، فنزلت . . وقيل: إن عليا قال للعباس رضى الله تعالى عنه : ياعم ألا تهاجرون ألا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ألست فى أفضل من الهجرة ؟ أسقى حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام ، فلما نزلت قال العباس : ما أرانى إلا تارك سقايتنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيراً ، وكان العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم بيده سقاية الحاج ، فلما جاء الإسلام وأسلم العباس ، أقره صلى الله عليه وسلم على ذلك ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم جاء السقاية واستسقى فقال له : يارسول الله يجعلون أيديهم فيه ، قال : اسقنى ، فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال : اعملوا فإنكم على عمل صالح ، وعن أبى بن عبد الله المزنى رضى الله تعالى عنهما قال : كنت جالسا مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابى فقال له : مالى أرى بنى عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ، أمن حاجة لكم أم من بخل ، فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: الحمد لله

ما بنا من حاجة ولا بخل ، إنما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلة وخلفه أسامة فاستسقى فأتيناه بإناء من نبيذ فشربه وسقى فضله أسامة وقال : أحسنتم وأجملتم ، كذا فاصنعوا فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنبيذ : تمر ينقع فى الماء وهو حلال فإن غلا وخمر حرم .. هذا والسقاية والعمارة مصدران من سقى وعمر كالصيانة والوقاية، والتقدير: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله « لا يستوون عند الله » أى لا يستوى حال هؤلاء الذين آمنوا بالله وجاهدوا فى سبيله بحال من سقى الحاج وعمر المسجد الحرام وهو مقيم على كفره ، لأن الله لا يقبل عملا إلا مع الإيمان به « والله لا يهدى القوم الظالمين» أى الكفرة ، وظلمهم بالشرك ومعاداة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم منهمكون فى الضلالة فكيف يساوون الذين عاهدهم الله تعالى ووفقهم للحق والصواب ؟ وقيل : المراد بالظالمين الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين «الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله » أى أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن يستجمع هذه الصفات ، والمراد من كون العبد عند الله الاستغراق فى عبوديته وطاعته ، وقيل : أعظم درجة عند الله ممن افتخر بالسقاية وعمارة المسجد الحرام ، والتفضيل هنا ليس على بابه « وأولئك » الذين هذه صفتهم « هم الفائزون » أى بسعادة الدنيا والآخرة « يبشرهم » أى يخبرهم « ربهم » والبشارة الخبر السار الذى يفرح الإنسان عند سماعه وتستبشر بشرة وجهه عند سماع ذلك الخبر السار ، ثم ذكر سبحانه وتعالى الذى يبشرهم به بقوله تعالى: « برحمة منه ورضوان » فهذا أعم البشارات ، لأن الرحمة والرضوان من الله تعالى على العبد نهاية مقصوده « وجنات » أى بساتين كثيرة الأشجار والثمار « لهم فيها » أى الجنات « نعيم مقيم » أى غير منقطع « خالدين فيها أبدا » أى دون خروج منها ، بل يبقون فيها دائما « إن الله عنده أجر عظيم » وناهيك بما يصفه الله تعالى بالعظيم ، وخص هؤلاء المؤمنين بهذا الثواب المعبر عن دوامه بهذه العبارات الثلاث المقرونة بالعظم والاسم الأعظم ، وكان ذلك أعظم الثواب ؛ لأن إيمانهم أعظم الإيمان .

٢٣ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوٓا ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ .

٢٤ — قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ .

آيتان جليلتان فيهما دعوة إلى إيثار حب الله على كل حب ، وتقديم طاعة الله على كل طاعة ، وتفضيل رضائه على كل رضاء . . يقول الله عز وجل فى هاتين الآيتين : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء » الخ ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء » أقوالا ؛ فقال مجاهد: هذه الآية متصلة بما قبلها ، نزلت فى العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لما أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة فمنهم من تعلق به أهله وولده يقولون : ننشدك الله أن لا تضيعنا فيرق لهم فيقيم عندهم ويدع الهجرة فنزلت ، فهاجروا، فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقربائه فلا يلتفت إليهم ولا ينزله ولا ينفق عليه حتى رخص لهم بعد ذلك ، وقال مقاتل: نزلت فى التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة ، أى لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان ويصدونكم عن الطاعة لقوله تعالى إن « استحبوا » أى اختاروا « الكفر عن الإيمان » أى أقاموا عليه وتركوا الإيمان بالله ورسوله « ومن يتولهم منكم » أى ومن يختار المقام معهم على الهجرة والجهاد « فأولئك هم الظالمون»

أى قد ظلم نفسه بمخالفة أمر الله واختيار الكفار على المؤمنين ، ولما نزلت هذه الآية قال الذين أسلموا ولم يهاجروا : إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا ، فنزل قوله تعالى « قل » يامحمد لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة « إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم » أى أقرباؤكم « وأموال اقترفتموها » أى اكتسبتموها « وتجارة تخشون كسادها » أى عدم نفاقها بفراقكم لها « ومساكن ترضونها » أى تستوطنونها راضون سكناها « أحب إليكم من الله ورسوله » أى الهجرة إلى الله ورسوله « وجهاد فى سبيله » فقعدتم لأجل ذلك عن الهجرة والجهاد ، أى إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة فى سبيل الله « فتربصوا » أى انتظروا متربصين ، وهذا تهديد بليغ « حتى يأتى الله بأمره » قال مجاهد : بقضائه ، أى عقوبة عاجلة أو آجلة ، وقال مقاتل : بفتح مكة « والله لا يهدى القوم » أى لا يخلق الهداية فى قلوب القوم « الفاسقين » أى الخارجين عن طاعته ، وفى هذا دليل على أنه إذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا .

٢٥ — لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ .

٢٦ — ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ .

٢٧ — ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

فى هـذه الآيات الثلاث تذكير وأى تذكير بنعمة الله على المسلمين ، ونصره لهم على أعدائهم الكافرين ؛ على الرغم من ذلتهم وقلتهم .. وفى هذه الآيات الكريمة يقول الله عز وجل : « لقد نصركم الله » النصرة المعونة على الأعداء إظهار المسلمين عليهم « فى مواطن » أى أماكن للحرب « كثيرة » كبدر وقريظة والنضير ، والمراد بذلك غزواته صلى الله عليه وسلم وسراياه وبعوثه ، وكانت غزواته صلى الله عليه وسلم على ما ذكره فى الصحيحين من حديث زيد بن أرقم تسع عشرة غزوة ، وسراياه وبعوثه سبعون ، وقيل : ثمانون «ويوم» أى واذكر يوم «حنين» وهو واد بين مكة والطائف ، أى يوم قتالكم فيه هوازن « إذ أعجبتكم كثرتكم » بدل من يوم حنين، وكانت قصة حنين على ما نقله الرواة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة ـ وقد بقى من شهر رمضان عدة أيام ـ خرج متوجها إلى حنين لقتال هوازن وثقيف ، واختلفوا فى عدد عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما: كانوا ستة عشر ألفا ، وقال الكلبى رضى الله تعالى عنه : كانوا اثنى عشر ألفا، عشرة آلاف الذين حضروا مكة وألفان انضموا إليهم من الطلقاء، وهم الأسرى الذين أخذوا يوم فتح مكة وأطلقوا ، وبالجملة كانوا عدداً كثيراً ، وكان هوازن وثقيف أربعة آلاف ، فلما التقوا قال رجل من المسلمين : لن نغلب اليوم من قلة ـ إعجابا بكثرتهم ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه ووكلوا إلى كلمة الرجل . وقيل : قائلها أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، وقيل : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول بعيد جداً ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان فى أحواله كلها متوكلا على الله تعالى منقطع القلب عن الدنيا وأسبابها، ثم اقتتلوا قتالا شديداً فانهزم المشركون ولكنهم رجعوا ، وانكشف المسلمون حتى بلغوا مكة وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مركزه آخذا بلجام فرسه وابن عمه أبو سفيان بن الحارث ، وناهيك بهذا شهادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على تناهى شجاعته . وكانت هوازن رماة، فلما حمل المسلمون عليهم انكشفوا واستقبلوا المسلمين بالسهام فانكشف المسلمون

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبق معه إلا العباس وأبو سفيان بن الحارث قال البراء : والذى لا إله إلا هو ما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم دبره قط، ولقد رأيته وأبو سفيان بن الحارث آخذ بالركاب والعباس آخذ بلجام الدابة وهو يقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » فطفق يركض بفرسه نحو الكفار لا يلوى ، فنادى : يا عباد الله يا أصحاب الشجرة - وهم أصحاب بيعة الرضوان ، الوارد ذكرهم فى قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » يا أصحاب سورة البقرة ، قال الطيبى : وهم المذكورون فى قوله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون » ، وقيل : الذين أنزل عليهم سورة البقرة فرجعوا جماعة واحدة يقولون : لبيك لبيك ، ونزل الملائكة فالتقوا مع المشركين ، فقال عليه الصلاة والسلام حين هذا : حمى الوطيس أى اشتد الحرب ، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الفرس ، ثم أخذ قبضة من تراب الأرض ، ثم استقبل بها وجوههم ، ثم قال : شاهت الوجوه ، قال سلمة بن الأكوع : فما خلف الله تعالى منهم إنسانا إلا ملأت عينيه ترابا بتلك القبضة ، فولوا مدبرين فهزمهم الله تعالى « فلم تغن » أى الكثرة « عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت » أى رحبتها ، أى سعتها لا يجدون عنها مفرا تطمئن إليه نفوسكم من شدة الرعب ، ولا تثبتون فيها لمن لا يسعه مكانه « ثم وليتم مدبرين » أى وليتم الكفار ظهوركم مدبرين أى منهزمين ، والإدبار : الذهاب إلى خلف ، خلاف الإقبال « ثم أنزل الله سكينته » أى رحمته التى سكنوا إليها وآمنوا « على رسوله وعلى المؤمنين » أى على الذين انهزموا فردوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم لما ناداهم العباس بإذنه صلى الله عليه وسلم ، وقيل : هم الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقع الحرب « وأنزل جنودا » أى الملائكة « لم تروها » بأعينكم ، قال سعيد ابن جبير : مد الله نبيه صلى الله عليه وسلم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، وقيل : بثمانية آلاف ، وقيل : ستة عشر ألفا ،

« وعذب الذين كفروا » بالقتل والأسر والسبي وسلب المال « وذلك جزاء الكافرين » أي ما فعل بهم ، فهو جزاء كفرهم فى الدنيا ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما قسم ما أفاء الله على رسوله يوم حنين فى الناس وفى المؤلفة قلوبهم لم يعط الأنصار شيئا ، فكأنهم وجدوا إذا لم يصبهم ما أصاب الناس ، فخطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى وكنتم عالة فأغناكم الله بى ، وكلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله ، آمين ، قال : ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله . لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا ، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادى الأنصار وشعبهم ، الأنصار شعار والناس دثار ، إنكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض . وعن رافع بن خديج أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصين والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل ، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك ، فقال عباس بن مرداس شعراً فى ذلك ، فأتم رسول الله صلى الله عليه له مائة « ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء » منهم بالتوفيق للإسلام « والله غفور رحيم » فيتجاوز عنهم ويتفضل عليهم ، روى أن ناسا منهم جاءوا فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، وقالوا : يا رسول الله أنت خير الناس وقد سبى أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا ، قيل : سبى يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من النساء مالا يحصى ، فقال : إن عندى ما ترون ، إن خير القول أصدقه ، اختاروا لها ذراريكم ونساءكم وأموالكم ، قالوا : ما كنا نعدل بالإحسان شيئا ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن هؤلاء جاءوا مسلمين وإنا خيرنا هم بين الذرارىء والأموال فلم يعدلوا بالإحسان شيئاً ، فمن كان بيده شيء وطابت نفسه أن يرده فشأنه ، أى فيلزم شأنه وأمره ، ومن لم تطب نفسه فليعطنا ، وليكن قرضا علينا ، أى بمنزلة القرض ، فقالوا : رضينا وسلمنا ، فقال : إنى لا أدرى لعل

فيكم من لا يرضى ، فروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا فرفعت إليه العرفاء أن قد رضوا . .

٢٨ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

٢٩ — قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ .

هاتان الآيتان فيهما عود إلى أمر المشركين ، ووجوب إخراجهم من الحجاز بالقتال والتشريد ، حتى تصير خالصة لعقيدة التوحيد ودين الإسلام ، وفيها تهديد ووعيد لليهود والنصارى أيضاً ، على ما كانوا يدأبون عليه من مقاومة الإسلام والمسلمين ، وفى هذه الآيات الكريمة يقول الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس » أى ذو نجس ؛ لأن معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس أو أنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يتجنبون النجاسات ، فهى ملابسة لهم ، أو جعلوا كأنهم النجاسات بعينها مبالغة فى وصفهم بها ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أعيانهم نجسة ، وعن الحسن رحمه الله تعالى : من صافح مشركا توضأ ، وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين . والنجس مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع « فلا يقربوا المسجد الحرام » أى لنجاستهم ، وإنما نهى عن الاقتراب للمبالغة والمنع من دخول الحرم .

قال العلماء : وجملة بلاد الإسلام فى حق الكفار على ثلاثة أقسام :

أحدها الحرم ، فلا يجوز للكافر أن يدخل المسجد بحال ذميا كان أو مستأمنا لظاهر هذه الآية . وإذا جاء رسول من دار الكفر إلى الإمام ، والإمام فى الحرم لا يؤذن له فى دخول الحرم ، بل يخرج الإمام أو يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم .

القسم الثانى من بلاد الإسلام وهو جزيرة العرب فيجوز للكافر دخوله بالإذن ولا يقيم فيه أكثر من ثلاثة أيام ، روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما ، وأجلاهم عمر فى خلافته وأحل لمن قدم منهم تاجرا ثلاثا ، وجزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق طولا ، وأما العرض فمن جدة وما والاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام .

والقسم الثالث سائر بلاد الإسلام يجوز للكافر أن يقيم فيها بذمة أو أمان ، لكن لا يدخل المساجد إلا بإذن مسلم وحاجة « بعد عامهم هذا » إشارة إلى العام الذى حج فيه أبو بكر رضى الله عنه ونادى على رضى الله تعالى عنه ببراءة وهى سنة تسع من الهجرة ، وقيل سنة حجة الوداع ، ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا أن يقرأ على مشركى مكة براءة وينبذ إليهم عهدهم وأن الله برىء من المشركين ورسوله ، قال اناس : يا أهل مكة ستعلمون ما تلقون من الشدة ، لانقطاع السبيل وفقد التجارة ، وذلك أن أهل مكة كانت معايشهم من التجارات ، وكان المشركون يأتون مكة بالطعام ويتجرون ، فلما امتنعوا من دخول الحرم خافوا الفقر وضيق العيش . فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى « وإن خفتم عيلة » أى فقرا وحاجة بانقطاع تجارتهم عنكم «فسوف يغنيكم الله من فضله» أى من إعطائه وتفضله من وجه آخر ، وقد أنجز الله تعالى وعده بأن أرسل المطر عليهم مدرارا ، فكثر خيرهم وأسلم أهل جدة وصنعاء وتبالة[1] وجاءت الأطعمة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله تعالى ما كانوا يخافون « إن شاء » لتنقطع الآمال إليه تعالى ،

(١) قرية من اليمن .

وليفيه على أنه متفضل فى ذلك ، وأن الفناء الموعود يكون لبعض دون بعض، وفى عام دون عام « إن الله » أى الذى له الإحاطة الكاملة « عليم » أى بوجوه المصالح « حكيم » أى فيما يعطى ويمنع ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : ألقى الشيطان فى قلوبهم الخوف وقالوا : من أين تأكلون ؟ فأمرهم الله تعالى بقتال أهل الكتاب ، كما قال تعالى: « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » فإن قيل : اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، فكيف أخبر الله تعالى عنهم بذلك ؟ أجيب بأن من اعتقد أن العزير بن الله وأن المسيح بن الله فليس بمؤمن بل هو مشرك ، وبأن من كذب رسولا من الرسل فليس بمؤمن ، واليهود والنصارى يكذبون أكثر الأنبياء ، ويصح أن يكون المراد بهذا هم المشركون وحدهم أيضا « ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله» من الشرك وأكل الأموال بالباطل وتبديل التوراة والإنجيل وغير ذلك «ولا يدينون دين الحق» أى الثابت الذى هو ناسخ لسائر الأديان وهو الإسلام، كما قال تعالى: «إن الدين عند الله الإسلام من الذين أوتوا الكتاب » أى اليهود والنصارى بيان للذين لا يؤمنون « حتى يعطوا الجزية» وهى الخراج المضروب على رقابهم فى نظير سكناهم فى بلاد الإسلام آمنين ، وقيل : من الجزاء بمعنى القضاء ، قال تعالى : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئاً » ، أى لا تقضى « عن يد » أى منقادين مقهورين ، يقال لكل من أعطى شيئاً كرها من غير طيب نفس : أعطى عن يد ، وقال ابن عباس : رضى الله تعالى عنهما : يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم، « وهم صاغرون » أى أذلاء منقادون لحكم الإسلام ، وأقل الجزية دينار لكل واحد فى كل سنة ، لقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن: خذ من كل حالم - محتلم - دينارا ، وقال أبو حنيفة : على الغنى ثمانية وأربعون درهما ، وعلى المتوسط نصفها ، وعلى الفقير المكسوب ربعها ، ولا شىء على فقير غير كسوب ، ولا بد أن يكون المأخوذ منه حرا ذكرا غير صبى ولا مجنون .

٣٠ — وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ .

٣١ — ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

٣٢ — يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ .

٣٣ — هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ .

٣٤ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

٣٥ — يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ .

ست آيات كريمة فيها بيان لسوء عقائد أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين كانوا فى زمن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وفيها ذكر لعداوتهم

للإسلام ، دين الهدى والحق والنور ، ومحاولاتهم أن يطفئوا نوره ، وفيها بيان لحب كثير منهم ومن أحبارهم ورهبانهم للمال يجمعونه من حرام ، ولصدهم عن سبيل الله ، ولامتناعهم عن إخراج زكاة أموالهم ، ويذكر الله عز وجل ما أعده لهم من العذاب الشديد فى الآخرة . كما يذكر الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة عزيرا الذى كان من حكماء بنى إسرائيل وعلمائهم ، والذى جعله اليهود ابنا لله عز وجل . .

وفى العهد القديم سفر يسمى باسم « عزرا » وعزرا الكاهن الكاتب كان كاتب كلام الله إلى موسى وحافظ وصاياه وفرائضه على إسرائيل ، وفى الإصحاح السابع من سفر عزرا أنه كان كاتبا ماهرا فى شريعة موسى التى أعطاها الرب إله إسرائيل ، وأن ملك فارس « ارتحشتا » أعطى عزرا كل ماطلبه منه لشعب إسرائيل ، وأنه سمح له بأن يقود الأسرى من اليهود فى ملك فارس إلى أورشليم عائدين إليها من الأسر ، وذلك فى السنة السابعة من حكم الملك الفارسى « ارتحشتا » ، منها جروا من بابل إلى أورشليم حسب يد الله الصالحة على عزرا ، لأن عزرا هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها ، وليعلم إسرائيل فرائض الرب ووصاياه إلى بنى إسرائيل .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة . . « وقالت اليهود عزير ابن الله » قال هذا القول رجل من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء ، وهو الذى قال : « إن الله فقير ونحن أغنياء » ، وقال ابن عباس فى رواية سعيد ابن جبير وعكرمة : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود فيهم سلام بن مشكم ونعمان بن أبى أوفى وشاس بن قيس ومالك بن العفيف ، فقالوا : كيف نتبع دينك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزير ابن الله ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وعلى هذين القولين القائل إنما هو بعض اليهود إلا أن الله تعالى نسب ذلك إلى اليهود بناء على عادة العرب فى إطلاق اسم الجماعة على اسم الواحد ، يقال : فلان ركب الخيول ، ولعله لم يركب إلا واحداً

منها، وفلان يجالس السلاطين، ولعله لم يجالس إلا واحداً، وقيل: إن هذا مذهب طائفة من طوائف اليهود ثم انقطع ، فحكى الله تعالى فى ذلك عنهم ، واختلف المفسرون فى السبب الذى قالوا ذلك لأجله .

فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : إن اليهود أضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق، فأنساهم الله التوراة ونسخها من صدورهم، فتضرع عزير إلى الله تعالى وابتهل إليه أن يرد إليه الذى نسخ من صدورهم ، فبينما هو يصلى مبتهلا إلى الله تعالى نزل نور من السماء وعادت إليه التوراة ، فأذن فى قومه وقال يا قوم : قد آتانى الله التوراة وردها إلى فعلقوا به يعلمهم ، ثم مكثوا ما شاء الله تعالى ، ثم أن التابوت نزل بعد ذهابه عنهم ، فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذى كان يعلمهم عزير فوجدوه مثله ، فقالوا : ما أوتى عزير هذا إلا أنه ابن الله تعالى .

وقيل : لما رفع الله تعالى عنهم التوراة خرج عزير وهو غلام يسيح فى الأرض، فأتاه جبريل عليه السلام فقال له : إلى أين تذهب ؟ قال : لطلب العلم فحفظه التوراة فى قلبه وهو غلام . . وهاتان الروايتان من الأساطير .

وقال الكلبى -وفى روايته بعض من الصحة يؤيده ماسبق أن ذكرناه- : إن بختنصر لما ظهر على بنى إسرائيل وقتل إسرائيل وقتل من قرأ التوراة ، وكان عزير إذ ذاك صغيرا ، فاستصغره فلم يقتله ، فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة ، بعث الله عزيراً ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية بعدما أماته الله مائة عام ، وأرسل إليه ملكا بإناء فيه ماء فسقاه ، فمثلت التوراة فى صدره ، فلما أتاهم وقال لهم : أنا عزير كذبوه ، وقالوا : إن كنت كما تزعم فأملِ علينا التوراة ، فكتبها لهم من صدره ، ثم أن رجلا منهم قال : إن أبى حدثنى أن نسخة من التوراه كانت مدفونة فى مكان كذا ، فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوا بها ما كتبه عزير فلم يجدوه غادر حرفا ، فقالوا : إن الله تعالى لم يقذف التوراة فى قلب عزير إلا لأنه ابنه ، فعند ذلك قالت اليهود : عزير ابن الله . « وقالت النصارى المسيح » عيسى « ابن الله » . قالوا ذلك لاستحالة ان يكون ولد بلا أب ، قال الرازى : والأقرب

عندى أن يقال :ورد لفظ الإبن فى الإنجيل على سبيل التشريف، ثم أن القوم بالغوا وفسروا لفظ الإبن بالبنوة الحقيقية، وفشا هذا المذهب الفاسد فى أتباع عيسى عليه السلام « ذلك قولهم بأفواههم » أى لا سند لهم عليه إذ كل قول يقال بالفم، فمعنى قولهم هذا الكلام بأفواههم أنه قول لا يعضده برهان ، وقيل : إن ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم، لأنه لا حجة معه . « يضاهون » أى يشابه قولهم قول الذين كفروا ، وقال مجاهد رضى الله تعالى عنه : يواطئون ، وقال الحسن رضى الله تعالى عنه : يوافقون « قول الذين كفروا من قبل » أى من قبلهم، أى يضاهى قولهم قول الذين كفروا ، والمعنى إن الذين كانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى إنما كان قولهم قول قدمائهم، فالكفر قديم فيهم غير مستحدث ، أو يضاهى قول المشركين : الملائكة بنات الله ، وقيل : الضمير للنصارى ، أى يضاهى قولهم أن المسيح بن الله قول اليهود عزير بن الله لأنهم أقدم « قاتلهم الله » دعاء عليهم بالهلاك، فإن من قاتله الله تعالى هلك ، أو تعجب من شناعة قولهم ، كما يقال لمن فعل فعلا تعجب منه : قاتله الله ما أعجز فعله ، وقيل : لعنهم الله تعالى ، « أنى يؤفكون » أى كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل مع قيام الدليل بأن الله تعالى واحد أحد ، فجعلوا له ولدا ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وهذا التعجب راجع إلى الخلق لأن الله تعالى لا يتعجب من شىء ، ولكن هذا الخطاب على عادة العرب فى مخاطبتهم ، فالله تعالى عجب نبيه صلى الله عليه وسلم من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم » أى اتخذ اليهود أحبارهم أى علماءهم ، والحبر فى الأصل : العالم من أى طائفة كان، واختص فى العرف بعلماء اليهود من ولد هارون ، واتخذ النصارى رهبانهم أى عبادهم أصحاب الصوامع، والراهب فى الأصل من تمكنت الرهبة فى قلبه فظهر آثارها على وجهه ولباسه ، واختص فى العرف بعلماء النصارى أصحاب الصوامع « أربابا من دون الله » لأنهم أطاعوهم فى تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله كما تطاع الأرباب فى أوامرهم « والمسيح بن مريم » أى

اتخذوه كذلك لكونهم جعلوه ابنا فأهلوه للعبادة بذلك مع كونه ابن مريم ، فهو لا يصلح للألوهية بوجه لمشاركته للآدميين فى أحوال البشر الموجبة للحاجة المنافية للألوهية « وما أمروا » فى التوراة والإنجيل « إلا ليعبدوا » أى ليطيعوا على وجه التعبد « إلهاً واحدا » لا يقبل القسمة بوجه لا بالذات ولا بالمماثلة ، وهو الله تعالى ، وأما طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعة من أمر الله تعالى بطاعته ، فهى فى الحقيقة طاعة الله تعالى « لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » أى تعالى وتنزه عن أن يكون له شريك فى العبادة والأحكام، وأن يكون له شريك فى الهيبة يستحق التعظيم والإجلال «يريدون» أى يريد رؤساء اليهود والنصارى « أن يطفئوا نور الله » أى شرعه وبرهانه وأدلته الدالة على وحدانيته وتقديسه ، أو القرآن أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم « بأفواههم » أى بأقوالهم الكاذبة وشركهم ، وفى تسمية دينه أو القرآن أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم نورا ، وحصر همتهم فى إطفائه بأفواههم تمثيل لحالهم فى طلبهم أن يبطلوا نور الله تعالى بالتكذيب بالشرك بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم ثبت فى الآفاق يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى فى الإشراق والإضاءة ليطفئه بنفخة « ويأبى الله » أى لا يرضى « إلا أن يتم نوره » بإعلاء التوحيد وإعزاز الإسلام « ولو كره الكافرون » أى ولو كرهوا غلبته « هو الذى أرسل رسوله » محمدا صلى الله عليه وسلم « بالهدى » أى القرآن الذى أنزل عليه وجعله هاديا « ودين الحق » أى دين الإسلام « ليظهره » أى ليعليه « على الدين كله » أى جميع الأديان المخالفة له، وهذا كالبيان لقوله تعالى : ويأبى الله إلا أن يتم نوره « ولو كره المشركون » وضع (المشركون) موضع (الكافرون) للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله تعالى ، وقد أشرق نور الإسلام فعلا فى كل مكان وفى أقل وقت ، وصار للإسلام دولة شاسعة ممتدة الأطراف ، وصار المسلمون ملوك العالم وسادة الدنيا، فقهروا اليهود وأخرجوهم من بلاد العرب وغلبوا الروم على بلاد الشام وما والاها إلى ناحية الروم والمغرب ، وغلبوا

المجوس على ملكهم ، وغلبوا عباد الأصنام على كثير مما يلى الهند والترك ، وما أخبر الله تعالى عنه فى هذه الآية قد وقع وحصل ، فكان ذلك إخبارا عن الغيب، وكان ذلك معجزة .. وقيل : إن هذا وعد من الله تعالى بأن يكون الإسلام غالبا على جميع الأديان ، وتمام هذا إنما يخرج عند خروج عيسى عليه السلام ، فإنه لا يبقى أهل دين إلا دخلوا فى الإسلام ، وقيل : إن المراد إظهاره فى جزيرة العرب وقد حصل ذلك ، فإنه تعالى ما أبقى فيها أحدا من الكفار ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : إن الهاء فى (ليظهره) إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمعنى ليعلمه شرائع الدين كلها ويظهره عليها حتى لا يخفى عليه شىء منها « يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار » أى علماء اليهود « والرهبان » أى عبادالنصارى « ليأكلون » أى يتناولون «أموال الناس بالباطل » كالرشوة ، وإنما عبر بالأكل لأنه معظم المراد من المال ، وإشارة إلى تحقير الأحبار والرهبان بأن يفعلوا ما ينافى مقامهم الذى أقاموا أنفسهم فيه بإظهار الزهد والمبالغة فى التدين ، قال الرازى : ولعمرى من تأمل من أحوال الناس فى زماننا وجده فى هذه الآيات كأنها أنزلت فى شأنهم وشرح أحوالهم ؛ فترى الواحد منهم كأنه لا يلتفت إلى الدنيا ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات ، وأنه فى الطهارة والعظمة مثل الملائكة المقربين ، حتى إذا أدى الأمر إلى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ويتحمل فى سبيله نهاية الذل «ويصدون» الناس « عن سبيل الله » أى دينه ، ولما كان هدف الخلق فى الدنيا هو المال والحياة ، بين الله تعالى فى صفة الأحبار والرهبان كونهم مشغولين بهذين الأمرين ، أما المال فهو المراد بقوله تعالى « ليأكلون أموال الناس بالباطل» ، وأما الجاه فهو المراد بقوله « ويصدون عن سبيل الله » فإنهم لو أقروا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم على الحق لزمهم متابعته ، وحينئذ كان يبطل حكمهم وتزول حرمتهم ، ولأجل الخوف من هذا المحذور كانوا يبالغون فى المنع من متابعته صلى الله عليه وسلم ، ويبالغون فى إلقاء الشبهات فى استخراج وجوه المكر والخديعة وفى منع الخلق من قبول دينه الحق « والذين

يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله » يحتمل أن يراد بقوله الأحبار والرهبان فيكون مبالغة فى وصفهم بالحرص الشديد على أخذ أموال الناس بالباطل ، ووصفهم أيضا بالبخل الشديد والامتناع عن إخراج الواجبات من أموال أنفسهم بقوله تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة » ، وإن يراد: المسلمون الذين يجمعون المال ولا يؤدون حقه، ويكون اقترانهم بالمرتشيين من اليهود والنصارى تغليظا ودلالة على أن من يأخذ منهم المال من غير وجوهه المشروعة له العذاب العظيم ، وإن يراد : كل من كنز المال ولم يخرج منه الحقوق الواجبة سواء كان من الأحبار والرهبان أو كان من المسلمين ، قال معاوية : ما هذا فينا، ما هذه الآية إلا فى أهل الكتاب، فقال له أبو ذر: إنها فيهم وفينا، فصار ذلك سببا فى الوحشة بينهما ، فكتب إلى عثمان أن أقبل إلى، فلما قدمت المدينة انحرف الناس عنى كأنهم لم يرونى من قبل، فشكوت ذلك إلى عثمان وقلت: إنى والله لن أدع ما كنت أقول .. وأصل الكنز فى كلام العرب : الجمع، وكل شىء جمع بعضه فهو مكنوز ، يقال: هذا جسم مكتنز الأجزاء: إذا كان مجتمع الأجزاء ، واختلف علماء الصحابة فى المراد بهذا الكنز المذموم على قولين :

الأول ـ وهو ما عليه الأكثر ـ أنه المال الذى لا تؤدى زكاته، لما روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا[1] أقرع يطوقه يوم القيامة، ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك ، ثم تلا « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » الآية ، وروى لما نزلت هذه الآية كبر على المسلمين، فذكر عمر رضى الله تعالى عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله تعالى لم يفرض الزكاة إلا ليطلب بها ما بقى من أموالكم ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى « ولا ينفقونها فى سبيل الله » يريد الذين لا يؤدون زكاة أموالهم ، قال القاضى عياض : تخصيص هذا المعنى بمنع

(١) أى حية رقطاء ، وهى أخبث الحيات .

الزكاة لا سبيل إليه ، بل الواجب أن يقال : الكنز هو الذى لم يخرج منه ما وجب إخراجه ، ولا فرق بين الزكاة وبين ما يجب من الكفارات ، وبين ما يلزم من نفقة الحج ، وبين ما يجب إخراجه فى الدين أو الحقوق والإنفاق على الأهل والعيال ، فيجب على كل هذه الآثام وأن يكون داخلا فى الوعيد .

والقول الثانى أنه المال الكثير فهو الكنز المذموم ، واحتج الذاهبون إلى هذا القول بعموم الآية ، وبما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه الآية : تبا للذهب تبا للفضة ، قالها ثلاثا ، فقالوا له : أى مال نتخذ ؟ قال : لسانا ذاكراً وقلبا خاشعا وزوجة تعين أحدكم على دينه ، وقال عليه الصلاة والسلام : من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها . وأجاب القائلون بالأول : إن هذا كان قبل فرض الزكاة ، فأما بعد فرض الزكاة فالله أعدل وأكرم أن يجمع عبده مالا من حيث أذن فيه ويؤدى ما أوجبه عليه فيه ثم يعاقبه ، وقد روى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه سئل عن هذه الآية فقال : كان قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت جعلها الله تعالى طهرة للأموال ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : نعم المال الصالح للرجل الصالح ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما أدى زكاته فليس بكنز ، وكان فى زمانه صلى الله عليه وسلم جماعة معهم الأموال كعثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وكان صلى الله عليه وسلم يعدهم من أكابر الصحابة ، وما عابهم أحد ممن أعرض عن التملك ، والاقتناء مباح لا يذم صاحبه .

وقوله تعالى « ولا ينفقونها » مع أنه ذكر الذهب والفضة ، لأن الضمير راجع إلى المعنى دون اللفظ لأن كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم ، وقيل : الضمير راجع إلى الأموال ، وقيل : التقدير ولا ينفقون الفضة وحذف الذهب؛ لأنه داخل فى الفضة؛ ولأن ذكر أحدهما يغنى عن الآخر ، كقوله تعالى « وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها » فجعل الضمير للتجارة ، وقيل التقدير: والذهب كذلك، وخصهما بالذكر من بين سائر الأموال لأنهما اللذان يقصدان بالكنز، فكان ذكر كنزهما دليلا على سواهما،

ثم أنه تعالى لما بين من يكنز الذهب والفضة قال تعالى « فبشرهم » أى أخبرهم « بعذاب أليم » أى مؤلم ، وعبر بالبشارة على سبيل التهكم «يوم يحمى عليها» أى الكنوز بأن تدخل « فى نار جهنم » فيوقد عليها « فتكوى » أى تحرق « بها » أى بهذه الأموال « جباههم وجنوبهم وظهورهم » وسئل أبو بكر الوراق رضى الله تعالى عنه : لم خصت الجباه والجنوب والظهور بالكى ؟ قال : لأن الغنى صاحب الكنز إذا رأى الفقير قبض جبهته . وإذا جلس الفقير تباعد ، عنه وولى عليه ظهره ، وقيل : المعنى يكوون على الجهات الأربع .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مامن صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره ، كلما بردت عليه أعيدت له حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله ، إما فى الجنة ، وإما إلى النار «هذا ما كنزتم» على إرادة القول ، أى يقال لهم : هذا ما كنزتم « لأنفسكم » أى لمنفعتها « فذوقوا ما كنتم تكنزون » أى تمنعون حقوق الله تعالى فى أموالكم ، وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : انتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل الكعبة ، فلما رآنى قال : هم الأخسرون ورب الكعبة، فقلت: يارسول الله فداك أبى وأمى من هم؟قال:هم الأكثرون أموالا إلا من قال : هكذا وهكذا من بين يديه وعن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ماهم .

* * *

وبذلك ينتهى الربع الثانى من سورة التوبة وقد تضمن ماتضمن من الأصول الجليلة ، وفى مقدمتها أن الشرك لايجتمع مع الإيمان . وأن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام لاتغنى عن الإيمان بالله شيئا ، ولا تستوى معه بأية حال من الأحوال ، فالمؤمنون المهاجرون المجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم لهم الدرجات العلى عند الله ، وهم الفائزون برضوانه وجنته ، يبشرهم

الله برحمة منه ورضوان ونعيم مقيم وعز لايحول ولا يزول ، ثم ينهى الله عز وجل المؤمنين عن أن يؤثروا آباءهم وأبناءهم وإخوانهم بالصداقة والولاية إن اختاروا الكفر على الإيمان ، فالآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة لايصح أن تكون عند المسلم أحب إليه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله .. ويمتن الله على المسلمين بنصره لهم فى مواطن كثيرة ، وفى يوم حنين خاصة ، إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئا ، وولوا مدبرين حتى أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأيدهم بملائكته البررة ، وخذل الذين كفروا وأورثهم ذل الهزيمة .. ثم ينهى الله عز وجل المؤمنين عن أن يسمحوا للمشركين بعد عامهم هذا أن يقربوا المسجد الحرام ، والله عز وجل هو الذى يغنى من يشاء من فضله .. ويأمر الله عز وجل المؤمنين أن يقاتلوا المشركين أواليهود والنصارى الذين يصدون عن سبيل الله ودينه الحق ،ويبين كفرهم وشركهم وشرك اليهود والنصارى مثلهم ، وعداوتهم للإسلام ومقاومتهم له ومحاولتهم إطفاء نوره ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .. ويبين الله عز وجل صنيع كثير من الأحبار والرهبان هذا الصنيع المادى العجيب ، من حبهم للمال ، وجمعه من طرق الحرام . ومن صدهم عن سبيل الله ، ومن كنزهم الأموال وعدم إنفاقها فى سبيل الله ، ويهددهم بعذاب أليم ، وغضب من الله شديد .

الربع الثالث من سورة التوبة

٣٦ — إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

٣٧ — إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

فى هاتين الآيتين الكريمتين اللتين هما مطلع الربع الثالث من سورة التوبة يبين الله عز وجل ضلال ما كان عليه المشركون من أمر النسيء ، ومن تغييرهم الشهور وفق أهوائهم وشهواتهم ، ويذكر أن الله جعل السنة اثنى عشر شهرا منها أربعة حرم ، وينهى عن النسيء نهيا قاطعا . . وعن ابن عباس أن أهل الجاهلية كانوا يرون أن العمرة فى أشهر الحج من أفجر الفجور فى الأرض ، ويجعلون المحرم صفرا ، ويقولون : إذا برا الدبر ، وعفا الأثر ، وانسلخ صفر ، حلت العمرة لمن اعتمر .

وكان أول من أنسأ الشهور من مضر : مالك بن كنانة وكانت النساءة قبل ذلك فى كندة ، وتولى بعده النساءة الحرث بن مالك بن كنانة .. ثم صارت النساءة فى بنى فقيم من بنى ثعلبة حتى جاء الإسلام ، وكان آخر من نسيء منهم أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية بن عبد الله بن فقيم ، وجاء جنادة إلى الركن الأسود فى عصر عمر بن الخطاب ، فلما رأى الناس يزدحمون عليه قال : أيها الناس أناله جار ، فأخروا . فخفقه عمر بالدرة ، ثم قال : أيها الجلف الجافى قد أذهب الله عزك بالإسلام ، وقيل : أول من أنسأ الشهور هو القلمس حذيفة بن عبد الله بن فقيم ، ثم ابنه عباد بن حذيفة ، ثم قلع بن عباد ، ثم امية بن قلع ، ثم عوف بن أمية ، ثم جنادة بن عوف ، وكان آخرهم وعليه قام الإسلام .

وكان الذى ينسيء لهم إذا أرادوا أن يحلوا المحرم ، يقوم بفناء مكة فيقول : أيها الناس ، لا تحلوا حرمانكم ، وعظموا شعائركم ، فإنى أجاب ولا أعاب لقول

قلته ، فهنالك تحرمون المحرم ذلك العام ، فكان ينسىء الإنساء سنة ويترك سنة ، ليحلوا الشهور المحرمة ، وليحرموا الشهور التى ليست بمحرمة ، فإذا أراد النسيء قام فخطب بفناء الكعبة ويجتمع إليه الناس يوم الصدر فيقول : أيها الناس ، قد انسأت العام صفر الأول[1] ـ يعنى المحرم ـ فيطرحونه من الشهور ولا يعتدون به ، فيقولون لصفر وشهر ربيع الأول : صفرين ، ويقولون لشهر ربيع الآخر ولجمادى الأولى شهرى ربيع ، ويقولون لجمادى الآخرة ولرجب : جمادين ، ولشعبان ورمضان : شعبان ، ولشوال رمضان، ولذى القعدة شوال ، ولذى الحجة ذا القعدة ، ولصفر الأول وهو المحرم الشهر الذى أنسأه ذا الحجة ، فيحجون تلك السنة فى المحرم ، ويبطل من هذه السنة شهر تنسئه ، ثم يخطب فى السنة الثانية فى وجه الكعبة فيحرم المحرم وهو صفر الأول ، ثم ينسأ فى السنة التالية فينسأ صفراً الأول ، وهكذا يستدير الحج كل أربع وعشرين سنة إلى المحرم الذى ابتدأوا منه الإنساء وفى هاتين الآيتين يقول الله عز وجل . . . « إن عدة الشهور » أى عدها « عند الله اثنى عشر شهرا » ، وهو المحرم وصفر وشهر ربيع الأول وشهر ربيع الثانى وجمادى الأول وجمادى الثانى ورجب وشعبان وشهر رمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة . . هذه شهور السنة القمرية التى هى مبنية على سير القمر فى المنازل ، وهى شهور العرب التى يعتد بها المسلمون فى صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم . وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوما ، والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس فى الفلك دورة تامة وهى ثلثمائة وستون يوما وربع يوم ، فتنقص السنة الهلالية فيقع الصوم والحج تارة فى الشتاء وتارة فى الصيف . قال المفسرون : وسبب نزول هذه الآية من أجل النسيء الذى كانت العرب تفعله فى الجاهلية ، فكان حجهم يقع تارة فى وقته وتارة فى المحرم وتارة فى صفر وتارة فى غيره من

(١) كانت العرب فى جاهليتهم يسمون المحرم صفر الأول ، وصفرا صفر الآخر .

الشهور ، فأعلم الله تعالى أن عدة الشهور سنة المسلمين التى يعتدون بها اثنى عشر شهراً على منازل القمر وسيره فيها ، وهو قوله تعالى « إن عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهراً » فى علمه وحكمه « فى كتاب الله » أى فى اللوح المحفوظ الذى كتب فيه أحوال مخلوقاته بأسرها على التفصيل . وهو أصل للكتب التى أنزلها على جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقيل: فيما أثبته وأوجبه من حكمه ورآه حكمة وصوابا « يوم خلق السموات والأرض » أىأن هذا الحكم حكم به وقضاه يومئذ أن السنة اثنى عشر شهراً « منها » أى من الأشهر « أربعة حرم » ثلاثة سواء ذو القعدة بفتح القاف وذو الحجة بكسر الحاء على المشهور فيها ـ وسميا بذلك لقعودهم عن القتال فى الأول ولوقوع الحج فى الثانى، والمحرم ـ وسمى بذلك لتحريم القتال فيه كأنه قيل: هذا الشهر الذى ابتدأ أول السنة ، وواحد فرد وهو رجب هو الصواب كما قاله النووى فى شرح مسلم، ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنى عشر شهراً منها أربعة حرم : ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان » ، وعده الكوفيون من سنة واحدة ، فقالوا المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة ، ومعنى الحديث أن الأشهر رجعت إلى ما كانت عليه وعاد الحج فى ذى الحجة، وبطل النسىء الذى كان فى الجاهلية وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة . وكانت حجة أبى بكر رضى الله عنه قبلها فى ذى القعدة ، ومعنى المحرم أن المعصية فيها أشد عقابا والطاعة فيها أكثر ثوابا ، والعرب كانوا يعظمونها جداً حتى لو لقى الرجل أباه لم يتعرض له ، ولا استبعاد فى تخصيص بعض الأشهر بمزيد فضل وحرمة « ذلك » أى تحريم الأشهر الأربعة « الدين القيم » أى المستقيم وهو دين إسمعيل وإبراهيم عليهما السلام ، والعرب ورثوه منهما ، وقيل : المراد بالدين الحساب ، يقال: الكيس من دان نفسه أى حاسبها ، والقيم معناه المستقيم ، فتفسير الآية على هذا التقدير : هذا الحساب المستقيم الصحيح والعدد المستوى ، وقال الحسن : ذلك للدين القيم

الذى لا يبدل ولا يغير ، فالقيم هنا بمعنى القائم الدائم الذى لا يزول وهو الدين الذى فطر الناس عليه « فلا تظلموا فيهن » أى الأشهر الحرم « أنفسكم » بالمعاصى، فإنها فيها أعظم وزر ، لأن الله تعالى خص هذه الشهور بمزيد احترام فى آية أخرى وهو قوله تعالى « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » فهذه الأشياء غير جائزه فى غير الحج أيضاً ، إلا أنه تعالى أكد فى المنع منها فى هذه الأيام تنبيها على زيادتها فى الشرف ، وقال ابن عباس : إن المراد : فلا تظلموا فى الشهور الإثنى عشر أنفسكم . والمقصود منع الإنسان من الإقدام على الفساد مطلقاً فى جميع العمر ، قال الفراء : والأول أولى ، لأن العرب تقول فيما بين الثلاثة إلى العشرة (فيهن)، فإذا جاوزوا هذا العدد قالوا (فيها) ، والجمهور على أن حرمة المقاتلة فى الأشهر الحرم منسوخة ، وعن عطاء : لا يحل للناس أن يغزوا فى الحرم والأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا ، ويؤيد الأول ماروى أنه صلى الله عليه وسلم حاصر الطائف وغزا هوازن بحنين فى شوال وذى القعدة « وقاتلوا المشركين كافة » أى جميعا فى كل الشهور « كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين » بالعون والنصرة، ومن كان الله معه نصره لا محالة « إنما النسيء » أى التأخير لحرمة شهر إلى آخر كما كانت الجاهلية تفعل ، فكانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر ورفضوه خصوصا الأشهر ، واعتبروا مجرد العدد فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر فيحرمون صفراً ويستحلون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير صفر أخروه إلى ربيع وهكذا شهر بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها ، وكانوا يحجون فى كل شهر عامين، فحجوا فى ذى القعدة عامين ثم حجوا إلى المحرم عامين ثم حجوا إلى صفر عامين، وكذا باقى شهور السنة فوافقت حجة أبى بكر رضى الله عنه فى السنة التاسعة فى ذى القعدة قبل حجة الوداع بسنة ، ثم حج النبى صلى الله عليه وسلم فى العام المقبل حجة الوداع، فوافق حجه فى شهر ذى الحجة وهو شهر الحج المشروع ، فوقف بعرفة فى اليوم المشروع

التاسع وخطب الناس فى اليوم العاشر ، وأعلمهم أن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض وأمرهم بالمحافظة على ذلك لئلا يتبدل فى مستأنف الأيام ، وقد رجع المحرم إلى وضعه الذى وضعه الله فيه . وروى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبته لنا : أى شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: أليس الشهر الحرم ؟ قلنا : بلى، قال : فأى بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال : أليس البلد الحرام ؟ قلنا : بلى ، قال : فأى يوم هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا : بلى . قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ، ألا هل بلغت، ألا هل بلغت ، قلنا نعم ، قال:اللهم اشهدوا. واختلفوا فى أول من سأل النبى صلى الله عليه وسلم : فقال ابن عباس : بنو مالك بن كنانة ، وكان يليه أبو ثمامة وجنادة بن عوف بن أمية الكنانى ، وكان يقوم على جمله من الموسم فينادى : عليكم المحرم فحرموه ، وقال الكلبى : أول من فعل ذلك رجل من بنى كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة ، وقيل : أول من فعل ذلك عمرو بن لحى ، وهو أول من سيب السوائب ، وقال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فى النار « زيادة فى الكفر » حكى الله عنهم أنواعا كثيرة فى الكفر فإنما ضموا تحريم ما أحل الله تعالى وتحليل ما حرم الله تعالى وهو كفر ، فكان ضم هذا العمل إلى تلك الأنواع المتقدمة من الكفر زيادة فى الكفر ، لان الكافر كلما أحدث طاعة ازداد بها كفرا ، كما أن المؤمن كلما ازداد طاعة ازداد بها إيمانا ، لقوله تعالى «فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون » ، « يضل به » أى بهذا التأخير الذى هو النسىء « الذين كفروا

يحلونه ، أى يحلون النسىء من الأشهر الحرم « عاما » ويحرمون مكانه شهرا آخر « ويحرمونه عاما » فيتركونه على حرمته ، وإنما فعلوا ذلك « ليواطئوا » أى ليوافقوا « عدة » أى عدد « ماحرم الله » الأشهر ، فلا يزيدون على تحريم أربعة ولا ينقصون عنها ولا ينظرون إلى أعيانها « فيحلوا ما حرم الله » بمواطأة العدة من غير مراعاة الوقت الذى يحلون إليه الأشهر الحرم « زين لهم سوء أعمالهم » قال ابن عباس : زين لهم الشيطان هذا العمل الذى عملوه حتى حسبوا هذا القبيح حسنا « والله لا يهدى القوم الكافرين » أى هداية موصولة إلى الاهتداء لما سبق لهم فى الأزل أنهم من أهل النار .

٣٨ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَـٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ .

٣٩ — إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

٤٠ — إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

٤١ — انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

٤٣ — لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

فى هذه الآيات الكريمة حث على القتال فى سبيل الله والإسلام ، وتوبيخ على التثاقل وكراهية الحرب والقتال ، وفيها اعتداد بنعمة الله عز وجل على محمد وعلى المسلمين ، بنصره لهم ، وتأييده إياهم ، ورعايته للرسول وصاحبه أبى بكر فى هجرة الرسول من مكة إلى المدينة .

ويؤكد الله عز وجل أمر المسلمين بالجهاد فى سبيل الله وبالخروج للقتال دون وناة أو إبطاء ، ويبالغ فى توبيخهم على ترددهم وبطئهم.. وفى سبب نزول هذه الآيات يروى أنه لما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من الطائف إلى المدينة وحث على غزوة تبوك ،وكان ذلك الوقت زمان عسرة وشدة حر ، وطابت ثمـار المدينة ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلاورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز ، فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا أهبة غزو ، فشق عليهم الخروج وتثاقلوا ، فنزل قوله : « يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم » أى تثاقلتم وتباطأتم « إلى الأرض » والمقصود فيها الاستفهام للتوبيخ ، قال المحققون : وإنما تثاقل الناس من وجوه : الأول شدة فى الضيق والقحط ، والثانى بعد المسافة والحاجة إلى الاستعداد الكثير الزائد على ما جرت به عادتهم فى سائر الغزوات ، والثالث إدراك الثمار بالمدينة فى ذلك الوقت ، والرابع شدة الحر . . ثم قال لهم الله تعالى : « أرضيتم بالحياة الدنيا » وغرورها « من الآخرة » ونعيمها « فما متاع الحياة الدنيا فى » جنب متاع « الآخرة إلا قليل » أى حقير لأن متاع الدنيا يفقد عن قليل ونعيم الآخرة باق على الدوام ، فلهذا

السبب كان متاع الدنيا بالنسبة إلى نعيم الآخرة قليلا . وفى هـذا دليل على وجوب الجهاد فى كل حال وفى كل وقت ، لأن الله تعالى نص على أن تثاقلهم فى الجهاد أمر منكر، فلو لم يكن الجهاد واجبا لما عابهم فى التثاقل ، ويؤكد هذا الوعيد المذكور فى قوله تعالى : « إلا تنفروا » أى تخرجوا مع النبى صـلى الله عليه وسلم للجهاد «يعذبكم عذابا أليما » أى مؤلما فى الآخرة ، لأن العذاب الأليم لا يـكون إلا فيها أو بالإهلاك بسبب قطيع كحفظ وظهور عدو ، وقيل : باحتباس المطر عنهم ، قال ابن عباس : استنفر رسول الله صـلى الله عليه وسلم حيا من أحياء العرب فتثاقلوا ، وأمسك الله عنهم المطر فـكان ذلك عذابهم « ويستبدل قوما غيركم » أى يأت بهم بدلكم « ولا تضروه شيئاً » أى ولا تضروا الله ، أو لا تضروا رسول الله شيئاً قليلا فضلا عن الـكثير « والله على كل شىء قدير » أى فيقدر على نصر الضعفاء وعلى ذلة الأقوياء .

وقول الله تعالى فى كتابه الحـكيم : إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصـاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سـكينته عليه ؛ وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ؛ وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حـكيم » . يشير إلى الهجرة ونصرة الله عز وجل لرسوله فيهـا ، وهى معجزة وعاها الزمن ، ورددتها الأجيال ؛ ووقف التاريخ حيالها معجباً مشدوهاً ، يتدبر ليفهم آياتها الـكبرى ؛ يمعن ليدرك أسرارها الخالدة ؛ وآثارها العظيمة على الحياة والإنسانية . . هذا الرسول النبى الأمى يتلق الدعوة من الله ؛ فيصدع بما يؤمر ، ويجاهد فى سبيل نشر كلمة التوحيد ؛ ويكافح قوى الشرك والوثنية والجمود والطغيان، كفاحا لم تر الدنيا له مثيلا ، طيلة ثلاثة عشر عاما ، دعا فيها الناس كافة إلى الهدى والنور والرحمة والخير والحرية والإخاء والسلام ، ولـكن آذان الشرك لم تتفتح لسماع كلمة الحق والعدل . وامتدت يد الطغيان بالإيذاء والبطش والتهديد والوعيد إلى محمد صلى الله عليه وأصحابه ، وحاولوا أن يكموا أفواه دعاة الرسول حتى لا يفتتن الناس عن دين آبائهم وأجدادهم ، وتوعدوا من أسلم بالامتهان والعذاب الأليم ،

ووقفوا يحولون بين محمد صلوات الله عليه وتبليغ رسالته بكل مايستطيعون ، منعوه بالقوة أن يلق القبائل ويقرأ عليهم القرآن ، ونشر المشركون دعايات أثيمة لتنفر الناس منه ، فقالوا . هو شاعر وساحر وبه جنة وهى أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، وائتمرت قريش بالرسول وهددوا عمه أبا طالب بالحرب ، وضيقوا عليه وعلى عشيرته وقاطعوهم أعواما ثلاثة ، واضطهدوا أنصارهم وشردوهم ولاحقوهم فى البلاد ؛ وصدوا الناس عنه وفرقوهم من حوله ، ومحمد صامد فى جهاده سائر إلى غايته ؛ يضحى بنفسه لإنقاذ البشرية وتغيير مجرى الحياة ؛ وهو يقول لعمه : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ؛ والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

وأخذ الرسول يصدف عن قريش والمشركين إلى أهل المدينة من حجاج بيت الله العتيق ، يبلغهم الدعوة ، فآمن به من آمن ، ثم عقد معهم حلفا ، وبايعهم على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم ، ولو كان فى ذلك هلاك الأموال وقتل الأشراف ولهم الجنة ، وأذن لأصحابه والمضطهدين من المسلمين بالهجرة إلى المدينة ، حتى لم يبق منهم إلا القليل . لكن قريشا والمشركين لم يكفوا ، فأجمعوا أمرهم على قتل الرسول ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه رابط الجأش ، مطمئن الإيمان ، ينشر على من حوله السكينة والطمأنينة ، ويقول : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وتملكوا بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، فإذا فعلتم كنتم ملوكا ، لكم الجنة » . ونبأه الله بالشر المدفون فى قلوب رؤساء المشركين ، فذهب إلى أبى بكر فى حر الظهيرة اللافح ، يعلمه الأمر ، وأن الله تعالى قد أذن له بالهجرة ؛ وأنه اختار أبا بكر صاحبه فى هجرته ، فبكى أبو بكر رضى الله عنه من الفرح ، وأخذ للأمر أهبته ، وبات على فى مكان الرسول الأعظم فى الليلة الموعودة ، وخرج محمد صلوات الله وسلامه عليه وصاحبه فى ظلمات الليل من مكة مهاجرا إلى المدينة . وأحاطه الله بتأييده ورعايته ونصرته وحفظه ، وأيده بالملائكة يذودون عنه ويحمونه وهو فى الغار ، كما أيده بهم من بعد فى بدر والأحزاب وحنين . .

ولقد أذن الله تعالى له بالهجرة والخروج من مكة بعد أن جعل المشركون الدعوة إلى الإسلام ضربا من المحال ، وصدوا الناس عن سبيل الله ، ولكن الله لم يتركه ، بل كان معه ، ينصره وينصر دينه ، ويحمى دعوة السلام والحق والإيمان ، ويذود المشركين عن محمد هو وصاحبه فى الغار ، ثم وهما سائران فى الطريق إلى المدينة . وأنزل عليه وعلى صاحبه السكينة والأمن والطمأنينة ، وحفه بجنود الله من الملائكة ، وجعل كلمة الذين كفروا وما أجمعوا عليه من الشرك والكفر والطغيان والإثم ، وما دبروه من كيد لقتل محمد وخنق رسالته ، جعل كلمتهم هى السفلى ، وكلمة الله ودعوة التوحيد ورسالة الحرية والسلام والإسلام دائما أبدا هى العليا ، لا يخفت لها صوت ولا ينطفىء لها نور ، ولا تنكس لها راية ، ومهما ارتفع صوت الكافرين والماديين من أولى الحضارات التى تتنكر للإسلام ، فإلى أمد وحين ، والغلبة والعزة لله ورسوله وللمؤمنين . ولقد بنى لها محمد صرح الخلود والعزة والمجد والجلال ، من يوم أن خلصه الله من أيدى الكفار ، ونجاه فى هجرته إلى المدينة . . فالهجرة كانت المبدأ فى إعزاز كلمة الله ونشر دعوة الإيمان والإسلام ، وهى نصر من السماء ما بعده نصر ، وتأييد ليس يعلوه تأييد ، والله عزيز فى حكمه لا يغلبه غالب ، وحكيم فى تدبيره لا ينقضه إنسان . فكيف بكم أيها المسلمون تتأخرون ، إذا دعا الرسول للجهاد فى ساعة العسرة . حين عزم على غزو الروم فى تبوك عام عشرة من الهجرة ، وقت قحط وقيظ ، ومع بعد الشقة وكثرة العدو وأخطار الجهاد ؟ كيف بكم لا تلبون داعى الله ، وتخلدون إلى الأرض والهوان : أ آثرتم الدنيا وزينتها على حب التضحية والكفاح فى سبيل الله والدين ؟ إلا تنصروا الله ودينه ورسوله حينئذ ، فإنه ناصره ومؤيده وراعيه ، وقد نصره فى مواطن كثيرة : يوم هجرته ، ويوم بدر ، والأحزاب ، وحنين ، حتى أدى الرسالة وبلغ الأمانة ، وأعز الإسلام ، وكتب المجد والفخار والخلود والعزة للمسلمين .

ولنترك عائشة أم المؤمنين ، تحدثنا حديث يوم الهجرة الخالد ، وما سبقه

من أيام عظيمة خالدة ، قالت عائشة فيما رواه البخارى عنها : لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله طرفى النهار بكرة وعشية ، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة ، فلقيه ابن الدغنة ـ وهو سيد من سادات العرب ـ فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ قال: أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى ، فقال ابن الدغنة : فإن مثلك لا يخرج ولا يخرج ، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف الرجل عشية فى أشراف قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الدهر؟ فلم تكذب قريش بجواره ، وقالوا له : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، فليصل فيها ، وليقرأ ماشاء ، ولا يؤذنا بذلك ولا يستعلن به ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا .. فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره ، ولا يستعلن بصلاته ، ولا يقرأ فى غير داره ، ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجداً بفناء داره ، وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه ، وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلا بكاء ، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم ، فقالوا : إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره ، فأعلن الصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا كرهنا أن نخفرك[1] ، ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان ، فأتى ابن الدغنة إلى أبى بكر فقال : قد علمت الذى عاقدت لك عليه ؛ فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إلىّ ذمتى ، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت

---

(١) أى ننقض عهدك

له ، فقال أبو بكر : فإنى أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل.. والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة ؛ وقد هاجر من هاجر قبل المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة ـ للهجرة إليها ـ فقال له رسول الله : على رسلك ، فإنى أرجو أن يؤذن لى ـ أى بالهجرة إلى المدينة ـ فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه » .

قالت عائشة : فبينما نحن يوم جلوس فى بيت أبى بكر فى نحو الظهيرة ، قال قائل لأبى بكر : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعاً ، فى ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداء له أبى وأمى ، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر . فجاء رسول الله ، فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال لأبى بكر : أخرج من عندك ، فقال أبو بكر : إنما هم أهلك ، بأبى أنت يا رسول الله ، قال : فإنى قد أذن لى فى الخروج ، فقال أبو بكر : الصحبة بأبى يا رسول الله ، قال رسول الله : نعم ، قال أبو بكر : فخذ بأبى أنت يارسول الله إحدى راحلتى هاتين ،. قالت عائشة : فجهزناهما أحث الجهاز ـ أى أسرعه ـ وصنعنا لهما سفرة ـ أى زاداً ـ فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها ـ أى حزامها ـ فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاقين .

بات على فى تلك الليلة الموعودة مكان رسول الله ، وخرج محمد صلوات الله عليه وصاحبه فى ظلمات الليل من مكة على خفية ، بين العيون والأرصاد ، والسيوف والأحقاد ، والفتيان المتراصين حول بيته الشريف لسفك دمه فى آخر الليل . وسار معه أبو بكر حتى وصلا غارا بجبل ثور ـ وهو قرب مكة على مسيرة ساعة ـ فدخلاه ومكثا فيه ثلاث ليال وقريش يكاد يذهلها الجنون ؛ ويقتلها الغيظ ، وقصاصو الأثر فى كل مكان وطريق ، يبحثون عن محمد وصاحبه ليردوهما إلى مكة سالمين أو مقتولين ، حتى وصلوا إلى الغار ، والصديق يقول : إن أحدهم لو نظر إلى قدميه لرآنا ، ويقول للرسول . لست أخاف الموت ، فأنا رجل واحد ، ولكنى أخاف عليك ، فانك إن قتلت هلكت الأمة ، وإن تصب اليوم ذهب دين الله . فقال له الرسول : لا تحزن إن الله معنا ، وما ظنك باثنين الله ثالثهما ، ويقول : اللهم

أعمى أبصارهم . . قالت عائشة : وكان يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر وهو غلام شاب ، فيدلج ـ أى يخرج ـ من عندهما بسحر . فيصبح مع قريش بمكة فلا يسمع أمرا إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث .

وبعد أن خف طلب المشركين لهما جاءهما رجل أمناه ، براحلتيهما ، صبح ثلاث ليال ، وأخذ طريق الساحل إلى المدينة . وكان كفار قريش قد جعلوا فى رسول الله وأبى بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره ، فخرج سراقة بن خثعم بفرسه ورمحه سائرا فى الصخر يبحث عن الرجلين ، حتى سمع قراءة رسول الله وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، فساخت يدا فرسه فى الأرض فنزل من فوقها وأقامها ، ثم ركبها ، حتى جاء رسول الله وأبا بكر ، فقال : يا محمد إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وقص عليهما قصص الناس وما يريدونه بهما ، وعرض سراقة عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا شيئا وقالا له : اكتم عن الناس خبرنا ، وكتب له الرسول كتاب أمن ، وسار رسول الله ، فلقى الزبير بن العوام فى ركب من المسلمين كانوا قافلين من الشام بتجارتهم ، فكسا الزبير رسول الله وأبا بكر ثيابا بيضا ، وسمع المسلمون بالمدينة خروج محمد من مكة ، وهجرته إلى بلدتهم الطيبة ، فكانوا يخرجون كل يوم ينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فرجعوا يوما إلى بيوتهم بعد ما أطالوا انتظارهم ، فلما أووا إلى بيوتهم اطلع رجل من اليهود من فوق حصن من حصونهم لأمر من أموره ، فشاهد محمدا وصاحبه قادمين نحو المدينة فصاح بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا رسولكم وجدكم ـ أى حظكم ـ الذى تنتظرون ؛ فهب المسلمون وأخذوا السلاح يتلقون رسول الله خارج المدينة ؛ فوصل إليها يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الأول ، وأقام رسول الله فى حى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذى أسس على التقوى ؛ وصلى فيه رسول الله ؛ ثم ركب راحلته وسار يمشى معه الناس حتى بركت عند مكان يصلى فيه رجال من المسلمين ، فقال رسول الله : هذا إن شاء الله المنزل ؛ واشترى الأرض من صاحبيها وكانت لغلامين يتيمين ، وبنى فوقها مسجده

النبوى الشريف ؛ وما فرح أهل المدينة بشىء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأخذ يؤلف القلوب ويؤاخى بين المهاجرين والأنصار، ويحالف سكان المدينة من اليهود . ليفرغ لبناء أول دولة إسلامية قامت على ظهر الأرض ، فأعزه الله وأيده بروح من عنده . وهكذا صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم المشركين والمفسدين والمتآمرين وحده ، إذ نجى محمدا فى هجرته ، وحاطه بتأييده ورعايته، وأيده بالملائكة لحمايته ، وصدق الله العظيم حين يقول : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » . عاش محمد بعد الهجرة كما كان ، رسول رب العالمين ، ومثال الإنسانية الرفيعة ، ومطلع العلم والمعرفة والحكمة ، ومشرق النور الإلهى العظيم ، ورئيس الدولة الإسلامية العادل الحكيم ، والمثل الكامل للناس جميعا ، يعلم العلماء أسمى نظام الكون ، والمصلحين أكمل نظم الاجتماع ، والمشرعين أصلح قواعد التشريع ، ويضع أساس دولة ليس لها نظير بين الدول على وجه الأرض ؛ كان هو قائدها المحنك المدرب العظيم ، وبطلها المرجى المحبوب الشجاع .

ولقد صنع محمد المعجزة التى لم يصنعها أحد قبله : بهجرته . وبما تلا . هجرته : من جهاده الخالد العظيم فى سبيل الله ، لبعث يقظة روحية جديدة تغمر العالم كله ، وللدعوة إلى مبادىء حية لم يسمع بمثلها سمع الزمان . والتبشير بحياة مثلى تسودهم المساواة والعدالة والمحبة والتعاون والإخاء والاشتراكية الحقة والديمقراطية الصحيحة والشعور بالمسئولية فى الحياة . وكانت هجرة الرسول صلوات الله عليه من مكة إلى المدينة ، إيذانا ببدء عصر جديد فى تاريخ العالم ، وعاملا قويا فى رقى الإنسانية ونهضتها ، وحدا فاصلا بين الوحشية والمدنية ، والعبودية والحرية ، والجهل والمعرفة ، والظلام والنور .. ففى المدينة بعد الهجرة بقليل ، بدأ الرسول يبشر بحقوق الإنسان ، ويرفع من كرامته فى الحياة ، ويعمل على تحرير الطبقات والأجناس من الرق والاضطهاد

والاستعباد والاستغلال ، ويفتح الأبواب أمام المتنافسين من ذوى الكفاية من كل أمة ولون ، ويشرع أصول الحكم العادل ، ويضع مناهج التقدم الروحى والاجتماعى ، ويعلن أن للمحكومين ما للحاكمين ، وأن الدولة إنما وجدت لخدمة الفرد .. ووجد الرسول نفسه أمام ثلاث طوائف فى المدينة :

أولاها — طائفة المهاجرين الفقراء ، الذين ضحوا بوطنهم ومالهم وتجارتهم طلبا للحرية ، وفرارا من الطغيان ، فهاجروا من مكة إلى المدينة ، فرادى وجماعات بعد هجرة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان أغلبهم يعمل بمكة فى التجارة يكسب منها الأموال الطائلة ويصفهم الله تعالى فى القرآن بقوله : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » ، ويصف الطبقة التى تلتهم فى الهجرة بقوله : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم » .

والطائفة الثانية — هم الذين أحبوا الرسول ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه : من الأوس والخزرج سكان المدينة ، وكانت مهنة أكثرهم الزراعة وتعهد الثمار والأشجار والفاكهة ، وكانوا ذوى عدد وثروة ، ووصفهم الله تعالى بقوله : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون » .

والطائفة الثالثة — يهود المدينة ، الذين طالما أشعلوا نار الخصومة والحرب بين الأوس والخزرج ، وسخروا برسالة محمد وبأصحابه .

مجتمع كهذا المجتمع ، فيه الفقراء والأغنياء ، والمفسدون والمتآمرون ، لا بد فيه من بناء جديد ، وحركة بعث وتجديد ، فماذا فعل محمد صلوات الله عليه ؟ بدأ الرسول يعالج هذه المشكلات بإلهام سديد ، وعقل حصيف ، وسياسة حكيمة . واطمأن اليهود على حرياتهم الدينية والشخصية ، وتعهد

بحمايتهم والدفاع عنهم فى وثيقة سياسية بارعة ، وادع فيها اليهود وعاهدهم وحذرهم ، ليضمن سلامة الدولة وأمنها ، والتفت إلى علاج مشكلة التفاوت الشديد فى الثروة ، بين الأغنياء والفقراء ، وبين الأنصار والمهاجرين ، فآخى بينهم إخاء فريدا فى تاريخ الإنسانية ، إخاء مودة وتعاون وإخلاص ، فكان يأخذ بيدى المهاجرى والأنصارى ويقول : تآخيا فى الله أخوين أخوين » . قال ابن هشام : آخى رسول الله بين المهاجرى والأنصارى فقال : تآخوا فى الله أخوين أخوين ، فكان الرسول وعلى بن أبى طالب أخوين ، وأبو بكر وخارجة بن زهير أخوين ، وحمزة أسد الله وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين ، وجعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل أخوين ، وسوى بين هؤلاء وهؤلاء .

كان الرجل من المهاجرين يرتبط برباط الأخوة بآخر من الأنصار ، وصار لكل أنصارى أخ من المهاجرين يشاطره داره وماله وإبله وتجارته ، لهذا نصف ولهذا نصف ، وكان إذا توفى أحدهما ورثه أخوه ـ فى العقيدة لا فى النسب ـ إلى أن نزلت آية الميراث ، فجعل الإرث بين ذوى الأرحام والقرابة . وهكذا تنازل الأنصار الأغنياء ، بوازع من دينهم وضميرهم وحبهم وطنهم ، لإخوانهم المهاجرين الفقراء عن نصف ما يملكون من ثروة وعقار وأرض ، دون تردد أو إبطاء . وجدت مشكلة اخرى ، فقد كان الأنصار أصحاب زراعة ، بينما المهاجرون اهل تجارة لاعهد لهم بسواها من الحرف ، فماذا يفعلون بالأرض التى اصابتهم ؟ هنا تجلت عظمة إيمان الأنصار ، وجلال اخلاقهم ، وإيثارهم على أنفسهم . فقد أصروا على أن يزرعوا أرضهم وأرض المهاجرين بأنفسهم ، ويقسموا محصولها مناصفة فيما بينهم ، ويكفوهم العمل والمؤونة ، تعاونا منهم فى بناء الأمة والمجتمع ، ومع ذلك فقد عمل كثير من المهاجرين فى الزراعة ، كأبى بكر وعمر وعلى وسواهم ، وعمل آخرون فى التجارة ونجحوا فيها نجاحا عجيباً ، كعبد الرحمن بن عوف الذى عرض أخوه الأنصارى سعد بن الربيع أن يشاطره ماله فأبى ، وطلب

إليه أن يدله على السوق فتاجر وربح ، ولما توفى وترك ثروة واسعة قال أناس من أصحاب رسول الله : إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك . فقال كعب : سبحان الله ولم تخافون عليه ؟ كسب طيبا وأنفق طيبا وترك طيبا . ولم يكن هذا هو العلاج الوحيد الذى عالج به الرسول الكريم مشكلة الفقر فى المدينة ، بل خص المهاجرين ببعض الغنائم كأموال بنى النضير ، فلم يعط الأنصار منها شيئا ، إلا ثلاثة نفر محتاجين ، وقال لهم : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة ، فقال الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها . وهكذا كانت يد الأنصار جليلة على المهاجرين ؛ حتى قالوا فيهم : ما رأينا مثل أنصار المدينة . لقد أحسنوا مواساتنا ، وبذلوا الكثير ، وأشركونا فى المهنة ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . وحض الرسول على المحبة والتعاون والرحمة ، وعلى البذل والسخاء والإيثار والصدقة والإحسان وإطعام الجائع ومساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف ، وشرع فريضة الزكاة ، وجعل بيت المال فى خدمة الفقراء ، وكان الرسول يضرب فى ذلك أروع الأمثال ، ويؤثر على نفسه . قالت عائشة : ماشبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، لوشئنا لشبعنا ، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا . وذهب الرسول يعود ابنته فاطمة فى بيت زوجها على بن أبى طالب ، فقال : السلام عليك يا بنتاه كيف أصبحت ؟ قالت : أصبحت والله وجعة ، وزادنى وجعا أنى لست أقدر على طعام آكله ؛ حتى أجهدنى الجوع ، فبكى رسول الله ، وقال : لاتجزعى يابنتاه فوالله ماذقت طعاما منذ ثلاث ، وإنى لأكرم على الله ، ولو سألت ربى لأطعمنى ، ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا ، أبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة . وحمل إليه صلوات الله عليه فى يوم تسعون ألف درهم ، فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها ، فما رد سائلا حتى فرغ منها ، وعاد لايمسك منها درهما . وكان المسلمون من الأنصار والمهاجرين يضربون المثل رائعا كريما فى فضيلة

الإيثار ، نزل برسول الله ضيف ، فلم يجد عند أهله شيئا ، فدخل عليه رجل من الأنصار ، فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام ، وأمر امرأته أن تطفىء السراج ، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل حتى أكل الضيف الطعام ، فلما أصبح قال رسول الله : لقد عجب الله من صنعكم الليلة إلى ضيفكم، وأهديت لعبادة بن الصامت هدية ، وإن معه فى الدار اثنى عشر من أهل بيته فقال عبادة ، اذهبوا بها إلى آل فلان فهم أحوج إليها منا ، قال الوليد بن عبادة : فأخذتها فكنت كلما جئت أهل بيت يقولون : اذهبو إلى آل فلان فهم أحوج منا إليها ، حتى رجعت الهدية إلى عبادة . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة الجليلة : « إلا تنصروه » أى إلا تنصروا محمدا صلى الله عليه وسلم أيها المؤمنون « فقد نصره الله » فإنه المتكفل بنصر رسوله صلى الله عليه وسلم فى إعزاز دينه وإعلاء كلمته ، أعنتموه أم لم تعينوه ، فإنه قد نصره عند قلة الأولياء وكثرة الأعداء فكيف به اليوم وهو فى كثرة من العدد . وقد نصره الله « إذ » أى حين « أخرجه الذين كفروا » من مكة حين مكروا به وتشاوروا فى قتله أو إخراجه أو إثباته فى دار الندوة . فكان ذلك لإذن الله له فى الخروج من بينهم حالة كونه « ثانى اثنين » أحدهما أبو بكر رضى الله عنه لا ثالث لهما ، لم ينصرهما إلا الله تعالى « إذ » بدل من إذ قبله « هما فى الغار » غار ثور بأسفل مكة على بعد ساعة منها « إذ » بدل ثان « يقول » صلى الله عليه وسلم « لصاحبه » أبى بكر الصديق رضى الله عنه ـ وثوقا بربه غير منزعج من شىء ، وقد قال له أبو بكر لما رأى أقدام المشركين ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا « لاتحزن » الحزن هم شديد بتوجع يرق له القلب ، وإنما كان خوفه على رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا يحدث ما يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما طلب المشركون الأثر وقربوا بكى أبو بكر خوفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له صلى الله عليه وسلم : لاتحزن « إن الله معنا » فقال له أبو بكر : وإن الله لمعنا ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : نعم ، فجعل يمسح الدموع عن خده .. وروى أنه لما طلع المشركون فوق الغار وأشفق

أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن تصب اليوم ذهب دين الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما ظنك باثنين ثالثهما الله تعالى . وروى أنهما لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين باضتا فى أسفله والعنكبوت نسجت عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم أعم أبصارهم ، فجعلوا يترددون حول الغار ولا يشهدون أحدا .. وقد دلت هذه الآية على ما يأتى :

١ — أن الهجرة كانت بإذن الله تعالى ، وكان فى خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من المخلصين ، وكانوا فى النسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرب من أبى بكر رضى الله عنه ، فلولا أن الله أمره بأن يستصحبه فى تلك الوقعة الصعبة الهائلة لكان الظاهر أنه لا يخصه بهذه الصحبة ، وتخصيص الله تعالى له بهذه التشريف دل على منصب عال له فى الدين .

٢ — قوله صلى الله عليه وسلم « لاتحزن إن الله معنا » لاشك أن المراد من هذه المعية الحفظ والنصر والحراسة والمعونة ، وقد جمع صلى الله عليه وسلم بين نفسه وبين أبى بكر فى هذه المعية وكفى بها شرفا .

٣ — قوله : « لا تحزن » نهى عن الحزن مطلقا ، والنهى يوجب الدوام والتكرار ، وذلك يقتضى أنه لايحزن أبو بكر رضى الله تعالى عنه بعد ذلك البتة ، قبل الموت وعند الموت وبعده .

هذا وقد أطبق الكل على أن أبا بكر هو الذى اشترى الراحلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أن عبد الله بن أبى بكر وأسماء بنت أبى بكر هما اللذان كانا يأتيانهما بالطعام . وروى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبى بكر : أنت صاحبى فى الغار وصاحبى فى الحوض ، قال الحسن بن الفضل : من قال إن أبا بكر رضى الله تعالى عنه لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو جائر لإنكاره نص القرآن ..

« فأنزل الله سكينته » أى طمأنينته « عليه » ، والضمير للنبى صلى الله عليه وسلم أو لأبى بكر رضى الله عنه ورجح الثانى بوجوه :

الأول : أن الضمير يجب عوده إلى أقرب مذكور ، وأقرب المذكور المتقدم فى هذه الآية هو أبو بكر لأنه تعالى قال «إذ يقول لصاحبه لاتحزن»، والتقدير إذ يقول محمد صلى الله عليه وسلم لصاحبه أبي بكر رضى الله تعالى عنه : « لاتحزن » .. وعلى هذا التقدير فأقرب المذكورات السابقة هو أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فوجب عود الضمير إليه .

الثانى : أن الحزن والخوف كانا حاصلين لأبى بكر لا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان آمنا ساكن القلب فيما وعده الله أن ينصره على قريش ، فلما قال لأبى بكر : لا تحزن صار آمنا ، فصرف السكينة لأبى بكر ليصير ذلك سببا لزوال خوفه أولى من صرفها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع أنه كان قبل ذلك ساكن النفس قوى القلب .

الثالث : أنه لو كان المراد إنزال السكينة على الرسول صلى الله عليه وسلم لوجب أن يقال: إن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل ذلك كان خائفا ولو كان الأمر كذلك لما أمكنه أن يقول لأبى بكر رضى الله تعالى عنه : « لاتحزن إن الله معنا » .. فمتى كان خائفا لا يمكنه أن يزيل الخوف عن قلب غيره ، ولو كان راجعا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لوجب أن يقال: فأنزل الله سكينته عليه فقال لصاحبه لاتحزن ، فيكون ذلك مما يدل على فضيلة أبى بكر رضى الله تعالى عنه .

ولما قربا من المدينة وصل الخبر إلى الأنصار فخرجوا مسرعين فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة ونزلوا بهم فى بنى عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول ، فقام فى بنى عمرو بضع عشرة ليلة ، وأسس رسول الله المسجد الذى أسس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة .. وكان مكانه مربد تمر لسهيل وسهل ، فساومهما صلى الله عليه وسلم ليتخذه مسجدا ، فقالا : بل نهبه لك يارسول الله ، ثم بناه مسجدا وصار صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن فى بنائه . . هذا وإظهار خروجه صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله عنه مما يدل على فضيلته وفضائله رضى الله عنه .. وقوله تعالى « وأيده » الضمير للنبى صلى الله عليه وسلم وهو معطوف

على قوله تعالى « فقد نصره الله » ، « بجنود لم تروها » أى من الملائكة الكرام فى الغار ويوم بدر والأحزاب وحنين وجميع مواطن قتاله « وجعل كلمة » أى دعوة « الذين كفروا » أى الكفر « السفلى » أى المقلوبة « وكلمة الله » أى الإسلام «هى العليا» أى الغالبة الظاهرة ، وقيل: كلمة الذين كفروا ما كانوا قدروها بينهم من الكيد بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وكلمة الله هى ماوعده بالنصر والظفر بهم ، فكان ماوعده الله حقا وصدقا « والله عزيز » فى ملكه « حكيم » فى أمره وتدبيره لايمكن أن ينتقض شىء من مراده فلا محيص عن نفوذ ماأراده « انفروا خفافا وثقالا » أى على الصفة التى يخف عليكم الجهاد فيها وعلى الصفة التى يثقل عليكم ، وهذان الوصفان يدخل تحتهما أقسام كثيرة ، ولهذا اختلفت عبارات المفسرين فيها . فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما نشاطا وغير نشاط ، وقال الهمدانى : أصحاء وأصحاب مرض ، وعن صفوان ابن عمرو : كنت واليا على حمص فلقيت شيخا كبيرا قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو ، قلت : يا عم قد تجاوز الله عنك ، فرفع حاجبيه ، وقال : استنفرنا الله خفافا وثقالا لأن من يحبه الله يبتليه ، وعن الزهرى : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقال : إنك عليل صاحب مرض فقال : استنفرنا الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكننى الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع ، وعن ام مكتوم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم . أعلى أن أنفر ؟ قال : ماأنت إلا خفيف أو ثقيل ، فرجع إلى أهله ولبس سلاحه ووقف بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى: ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ، الآية فهى منسوخة بذلك ، وقال ابن عباس : نسخت : بقوله تعالى « ليس على الضعفاء ولا على المرضى » الآية : وقال السدى : لما نزلت اشتد شأنها على المسلمين فنسخها الله تعالى وأنزل « ليس على الضعفاء ولا على المرضى » . وقال عطاء الخراسانى : إنها منسوخة بقوله تعالى « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » ، « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » أمر إيجاب للجهاد « ذلكم »

أى هذا الأمر العظيم « خير لكم إن كنتم تعلمون » أى تعرفون ثواب الجهاد فى سبيل الله. ونزل فى المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك « لوكان » أى ماتدعون « عرضا » أى متاعا من الدنيا يقال : الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر « قريبا » أى سهل المأخذ « وسفرا قاصدا » أى وسطا ، فحذف اسم كان وهو ماقدرته ، قال الزجاج : وحذفه لدلالة ماتقدم عليه ، وإنما سمى السفر قاصدا ، لأن المتوسط بين الإفراط والتفريط يقال له تقصد ، لأن المتوسط بين الكثرة والقلة يقصده كل واحد ، وقوله تعالى (قاصدا) أى ذو قصد «لاتبعوك» أى رافقوك فى طلب الغنيمة « ولكن بعدت عليهم الشقة » أى المسافة التى تقطع بمشقة « وسيحلفون » أى المتخلفون « بالله » إذا رجعت من تبوك معتذرين « لواستطعنا » أى لو كان استطاعة بالبدن أو العدة « لخرجنا » أى فى هذه الغزوة « معكم يهلكون أنفسهم » أى بسبب هذه الأيمان الكاذبة « والله يعلم أنهم لكاذبون » فى ذلك ، لأنهم كانوا مستطيعين الخروج .

٤٣ — عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَٰذِبِينَ .

٤٤ — لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ .

٤٥ — إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ .

فى هذه الآيات الثلاث عتاب للرسول صلى الله عليه وسلم على إذنه بالتخلف لهؤلاء المترددين والمتخلفين عن رسول الله ، وتقرير لحقيقة الأمر ، وهو أن المؤمنين بالله حق الإيمان لا يستأذنون من رسول الله فى التخلف عنه فى معركة من المعارك ، إنما يستأذن منه ضعاف الإيمان بالله ورسوله ، ممن ملأت الحيرة والنفاق قلوبهم.. « عفا الله عنك لم أذنت لهم » أى عفى الله

تعالى عنك يا محمد ما كان منك فى ذلك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك فى ترك الخروج معك إلى تبوك ، واختلفوا هل فى ذلك معاتبة للنبى صلى الله عليه وسلم أم لا ؟ فقال عمرو بن ميمون : اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بهما : إذنه للمنافقين ، وأخذه الفداء من أسارى بدر . فعاتبه الله تعالى كما تسمعون ، وقال سفيان بن عيينة : بدأ الله تعالى بالعفو قبل أن يعيره ، وقال القاضى عياض فى الشفاء : إن هذا لم يتقدم للنبى صلى الله عليه وسلم فيه من الله تعالى نهى فيعد معصية ولا عده الله تعالى معصية عليه فلم يعده أهل العلم معاتبة ؟ وغلط من ذهب إلى ذلك ، وليس عفا بمعنى غفر بل كما قال صلى الله عليه وسلم : « عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق » ولم يجب عليهم قط أى لم يكن يلزمكم ذلك ونحوه ؛ قال : وإنما يقول : العفو لا يكون إلا عن ذنب من لا يعرف كلام العرب ، وقال مكى : هو استفتاح كلام مثل : أصلحك الله وأعزك ، وقال السمرقندى : إن معناه عافاك الله ، وقال الرازى : إن ذلك يدل على مبالغة الله فى توقيره وتعظيمه كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظما عنده : عفا الله عنك ما جوابك عن كلامك ، ورضى الله ما صنعت فى أمرى ، فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا مزيد التبجيل والتعظيم أى كما كانت عادة العرب فى مخاطبتهم لأكابرهم بأن يقولوا : أصلح الله الأمير أو الملك أو نحو ذلك « حتى يتبين لك الذين صدقوا » أى فى اعتذارهم « وتعلم الكاذبين » أى فيما أظهروا من الإيمان باللسان لو لم يأذن لهم لقعدوا بلا إذن غير مراعين ميثاقهم الذى واثقوك عليه بالطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، قال ابن عباس : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين يومئذ حتى نزلت براءة « لا يستأذنك » أى لا يطلب إذنك بغاية الرغبة فيه « الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر » أى الذى يكون فيه الخبر بالثواب والعقاب « أن » أى فى أن « يجاهدوا » وإنما حسن هذا الحذف لظهوره « بأموالهم وأنفسهم » بل يبادرون إلى الجهاد عند إشارتك إليه فضلا عن أن يستأذنوك فى التخلف

عنه ، فإن قيل : الخلص من المهاجرين والأنصار كانوا يقولون : لا نستأذنه صلى الله عليه وسلم فى الجهاد فإن ربنا ندبنا إليه مرة بعد مرة ، فأى فائدة إلى الاستئذان ولنجاهد معه بأموالنا وأنفسنا ، وكانوا بحيث لو أمرهم صلى الله عليه وسلم بالقعود لشق عليهم كما وقع لعلى رضى الله تعالى عنه فى غزوة تبوك لما أمره صلى الله عليه وسلم بأن يبقى فى المدينة شق عليه ولم يرض ، حتى قال له صلى الله عليه وسلم : ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى « والله عليم بالمتقين » أى الذين يتقون مخالفته صلى الله عليه وسلم ويسارعون إلى طاعته « إنما يستأذنك » يا محمد فى التخلف عن الجهاد معك من غير عذر « الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر » وهم المنافقون لأنهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا « وارتابت » أى شكت « قلوبهم » فى الدين ، وإنما أضاف الشك والارتياب إلى القلب لأنه محل المعرفة والإيمان ، فإذا دخله الشك والارتياب كان ذلك نفاقا « فهم » أى فثبت عن ذلك أنهم « فى ريبهم يترددون » لأن المنافقين متحيرون ، فهم لا مع الكفار ولا مع المؤمنين . . وقد اختلف علماء الناسخ والمنسوخ فى هذه الآيات ، فقيل : إنها منسوخة بالآية التى فى سورة النور وهو قوله : « إنما يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر » فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، وقيل : إنها محكمات كلها ، ووجه الجمع بين هذه الآيات أن المؤمنين كانوا يسارعون إلى طاعة الله تعالى وجهاد عدوهم من غير استئذان ، فإذا عرض لأحدهم عذر استأذن فى التخلف من غير عذر فعيرهم الله تعالى بذلك .

* * *

وبذلك ينتهى الربع الثالث من سورة التوبة . . وخلاصة ما تضمنه من أصول هى :

١ — تثبيت التقويم القمرى وتحريم النسىء .

٢ — الأمر بقتال المشركين لدفع شرهم واجتناب أحقادهم ومقاومتهم للإسلام والمسلمين . .

٣ — النهى عن التباطؤ فى الخروج لقتال المشركين ، وتوبيخهم على ذلك توبيخا شديداً .

٤ — امتنان الله عز وجل على المسلمين وعلى الرسول بنصره لهم فى هجرة محمد بن عبد الله ، وبتأييد الله لهم ، وإنقاذه هو وصاحبه أبى بكر من أيديهم الطاغية الباغية .

٥ — الدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس وعتاب الرسول صلى الله عليه وسلم على إذنه لهم بالتخلف عن المعركة .

ولم يؤذن الله له بالهجرة إلا بعد أن صبر الرسول ثلاث عشرة سنة على ذلك الاضطهاد البالغ أقصى حدود الوحشية ، إذا لم يكن فوق الطاقة البشرية ، فإنه يشف عن عقيدة راسخة فى رسالته . ولو كان هذا الصبر منه وهو فى ميعة السن ، وريق الصبا ، لأمكن تعليله بأنه من فتوة الشبيبة ، ومجازفاتها فى سبيل الشهرة ، ولكنه كان فوق الخمسين حيث تهدأ ثوائر النفس ، وتسكن جيشات الأهواء ، وتهيب الطبيعة بصاحبها إلى الهدوء والسكينة . ولو كانت مجرد مشادات كلامية ، ومناظرات مذهبية ، لهان أمرها على التعليل ، فإن من الناس من يأنسون إلى مثل هذه الحياة الحافلة بالمجادلات ؛ ولكنها مشادات عدوانية امتدت معها أيدى المشركين على أصحابه وعليه بالأذى، حتى اضطر عدد كبير منهم إلى المهاجرة مرتين ، ضنا بأنفسهم على الهلاك ، وليس الاضطهاد الذى يحمل الأسر برمتها على الهجرة إلى البلاد القاصية ، بالأمر الذى يستهان به . . ناهيك بالمخاوف التى تحمل أصحاب النبى على تركه يدفع أذاهم وحده ، بل التى تحمل مثل عمر فى شدته على النجاة بنفسه والمهاجرة إلى يثرب ، وتدفع بأبى بكر فى تفانيه فى حب نبيه على أن يستأذنه فى أن يهاجر كغيره ، وما أخره إلا منع رسول الله له ليهاجر فى صحبته . فالداعية الذى يرى أخلص أصحابه وأشجعهم يتفرقون من

حوله ، ويدعونه وحده إزاء أعدائه ، ولا تتزعزع ثقته بفوزه ، لا يعقل أن يكون مفتريا فى نبوته ، ولا متكلفا لما هو بصدده ، ولكن الذى يعقل هو أنه كان يعتقد بأن أعداءه لن يصلوا إليه بسوء ، اعتمادا على ما وعده ربه به عند أول عهده بالنبوة فى قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدى القوم الكافرين » . وهذه الثقة من النبى صلى الله عليه وسلم فى وعد ربه له بالعصمة ، تتجلى على أتم وجه فى بقائه بمكة إلى الليلة التى تآمر فيها المشركون على قتله ، وكان فى وسعه أن ينجو بنفسه قبل ذلك بأيام بل بأسابيع ، حين لم يبق أمل فى كسر شرة خصومه ؛ وهل كان مثل عمر يضن بنفسه عن هذا الموقف ، وأبو بكر يستأذن النبى ليلحق به ، إلا والخطر محدق ولا يمكن دفعه ؟ وأعظم ما تجلت ثقة النبى صلى الله عليه وسلم بربه كان فى غار ثور ، وقد احتوشه من أرسلتهم قريش للحاق به ، وأبو بكر يرى أرجلهم تحوم حوله ، ويسمع أصواتهم وهم يتآمرون على اقتحامه ، فكان من أثر ذلك على الصديق أن بكى من هول ما رأى وما سمع ، فالتفت إليه رسول الله وهدأ روعه قائلا له : لا تحزن إن الله معنا ؛ وقد جاء ذكر ذلك فى القرآن الكريم . فهذا الثبات المحير للعقل فى وسط هذه المخاوف الموجبة لليأس ، لا يمكن أن يعزى لفضيلة الشجاعة فحسب ، لأنها جاءت مصاحبة لثقة تامة بالخلاص والفلج ، وهذا لا يكون بغير وحى . . ومن يتأمل فى انصراف المشركين عن الغار وقد انتهى إليه الأثر ، يأخذه العجب ولا يستطيع أن يعلل ذلك بعلة يثلج عليها الصدر . فلقد كان القرشيون أحرص الناس على أن يقبضوا على رسول الله ويقتلوه تخلصا مما عسى أن يجره عليهم من الحروب والمنازعات القبيلية ، وقد دلهم قائفهم على أن آثار الأقدام انتهت عند ذلك الغار ، وكان للعرب ثقة مطلقة فى قافتهم ، فيكون عدم تعويلهم على قوله : مع وجود الغار فاغراً فاه ، ومع عدم استحالة الولوج فيه ، من أعجب ما

يروى عن قوم كالعرب شديدى الكلب على أعدائهم ! رضينا أن نظن أن يكونوا قد تهيبوا النزول إلى الغار لتفتيشه ، وأن يكونوا قد تخيلوا أن من ينزله تنوشه أفاعيه وترديه ، ولكننا لا نرضى ولا نقبل أن نتخيل أنهم يتركونه ويرجعون أدراجهم دون أن يحاصروه أياما وليالى حتى يتحققوا من خلوه . ولا اضطررنا أن نتهمهم بالإهمال فى أمر خطير فى نظرهم إلى أبعد حدود الخطورة . ولسنا نكتفى بهذا ، ولكننا نقول . كان يجب عليهم أن يقيموا فى كل الطرق التى يمكن أن يتسرب منها إلى يثرب كوكبة من الفرسان ، تقطع الطرق على خصمهم كما هى عادة من يهمهم القبض على خصم . فاذا لم يفعلوا مع تحليهم بأرفع صفات الحيطة الحربية ، فإن إغفالهم له قد فسر بأن الله قد صرفهم عنه ، ولو كان لدى دليل على هذا الصرف لقلت به ، ولكنى التزمت فى هذه السيرة أن لا أتجاوز أصول الدستور العلمى ، فلا ألجأ إلى الظن فى موطن يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية ، وحياة النبى صلى الله عليه وسلم حافلة بالآيات الدامغة ، فلا حاجة بها الى ما يمكن الخصوم من تجريحه . لذلك فأنا أفسره بأنه تغابى من قريش عما هم بصدده ، كما تغابوا عن هجرة كبار الصحابة إلى يثرب ، كأنهم اكتفوا بأن يبعد عنهم النبى إلى حيث لا يراه العرب فى مواسم الحج فيفتتن بعضهم ببيانه وشدة عارضته . ولقد كانت الهجرة فاصلا بين الذلة والعزة ، وبين الضعف والقوة . خرجت بها من دار عفن جوها بالشرك والضلال ، وفسد هواؤها بالجور والظلم ، والكفر والفجور ، إلى دار عبق فيها عطر الحرية ، ويملأ جوها نسيم التوحيد والطهر وذكر الله ، ووجدت بيئة صالحة ترقى فيها التعاليم الإلهية ، والنظم القدسية ، وترتل الكتاب ،وتعد العدة لنشره على الناس ، ووضعت سياستك الحكيمة لإصلاح الأمم ، وتقويم الخلق ، ورفعهم إلى المستوى الذى أحببته ، واطمأنت إليه نفسك ، ورضيه الله للعباد ولهذا اختار المسلمون يوم الهجرة ، وجعلوه مبدأ التاريخ . فهو رمز إلى ما احتملته فى سبيل الله ، ورمز إلى انتصار الحق على الباطل ، ومذكر بمبدأ العزة للمسلمين .

وعند ما يشرق على الكون هلال العام الهجرى يذكر المسلمون حادثا من أبسط الحوادث فى صوره ، لكنه من أجل الحوادث خطرا فى مغزاه وفى أثره ؛ حادث هجرة النبى الكريم محمد صلى الله عليه وسلم من مكة موطن آبائه وعشيرته ، وأول أرض مس جسده ترابها واستقبله هواؤها . وأول مكان اتصل فيه بعالم القدس وبالملأ الأعلى وتلقى رسالة ربه على يد ملائكته .. يذكرون هذا وما أحاط به ثم يحمدون الله على فضله ؛ فقد وجهته العناية الإلهية هذه الوجهة لينجو من الشرك وأهله ، ومن ظلم ذوى القربى ، وليجد حرية الرأى والعقيدة فى مكان أرحب ، وعند قوم أشربت قلوبهم حبه ، وملأ أفئدتهم جلاله ، واستعدوا للذود عن حياض الإيمان ومحاربة الباطل ، وباعوا أنفسهم فى سبيل الله ، وهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، ؛ ويثير حادث الهجرة تصور معركة عنيفة بين الحق والباطل ، والنور والظلمة ، والحلم والجهل والإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، والرشد والغى ، والاستقامة والفجور ، وبين عدد قليل سلاحه الحجة والبرهان ، واليقين والإيمان ، وعدد كثير يعتمدون على تقليد الآباء ، ويضعون أصابعهم فى آذانهم لئلا تنفذ إليها الحجة ، والأغطية على عيونهم لئلا تبصر نور الحق ، ويعتمدون على القوة ؛ وتتمثل أمام النفس صورة الحق يكاد يخنقه الباطل ويتركه على الأرض صريعا لا يقوى على النضال ، وإذا بنفحة من قبل الحق تهب ، وإذا به ينهض فيصرع الباطل ويهزمه ، ويعلو عليه ويقتلع سلطانه .

الربع الرابع من سورة التوبة

٤٦ — وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ .

٤٧ — لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ .

٤٨ — لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ .

٤٩ — وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ .

٥٠ — إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ .

٥١ — قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

٥٢ — قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ .

٥٣ — قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ

كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ .

٥٤ — وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ .

٥٥ — فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ .

٥٦ — وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ .

٥٧ — لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ .

هذه الآيات الكريمة الإثنتى عشرة هى فى شأن الذين تخلفوا عن الذهاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك ، وبيان فظاعة أمرهم ، وفداحة شأنهم ، وعظم جرمهم ، وشدة نفاقهم ، وكذب اعتذاراتهم، وباطل احتجاجهم . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة الإثنتى عشرة : « ولو أرادوا الخروج » أى الغزو معك « لأعدوا له » أى قبل حلوله « عدة » أى قوة وأهبة من السلاح وغيره بحيث يكونون كالحاضرين فى صلب الحرب الواقفين فى الصف قد استعدوا لها بجميع عدتها . ولما كان قوله تعالى : « ولو أرادوا الخروج » يعطى معنى نفى خروجهم واستعدادهم للغزو، أتى تعالى بحرف الاستدراك فقال تعالى : « ولكن كره الله انبعاثهم » أى لم يرض خروجهم معك إلى الغزو « فثبطهم » أى حبسهم بالجبن والكسل . « وقيل » لهم « اقعدوا مع القاعدين » أى مع النساء والصبيان والمرضى وأهل الاعتذار .

ومعنى « قيل لهم » أى قدر الله تعالى عليهم ذلك بأن ألقى فى قلوبهم العقود لما كره الله انبعاثهم مع المؤمنين ، وقيل : القائل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استأذنوه بالقعود فقال لهم : اقعدوا مع القاعدين . وخروج المنافقين مع النبى صلى الله عليه وسلم إما إن يكون فيه مصلحة أو مفسدة فلم قال : لنبيه صلى الله عليه وسلم « عفا الله عنك لم أذنت لهم » فى ترك الخروج ؟ أجيب بأن خروجهم فيه مفسدة عظيمة بدليل قوله تعالى : « لوخرجوا فيكم » أى معكم « مازادوكم » بخروجهم « إلا خبالا » أى فسادا أو شرا بتخذيل المؤمنين « ولأوضعوا خلالكم » أى أسرعوا بينكم فيما يخل بكم بالمشى بالنميمة « يبغونكم الفتنة » أى يطلبون منكم ما تفتنون به ، وذلك أنهم يقولون للمؤمنين : لقد جمعوا لكم كذا وكذا ، ولا طاقة لكم فيهم وأنكم مهزومون بهم ، ويظهرون عليكم ، ونحو ذلك من الأحاديث الكاذبة التى تبعث فيهم الجبن « وفيكم » أى والحال أن فيكم « سماعون لهم » أى عيون لهم يؤدون لهم أخباركم وما يسمعون منكم وهم العيون والأرصاد ، أو مطيعون لهم يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم ؛ وذلك أنهم يلقون إليهم أنواعا من الشبهات الموجبة لضعف القلب فيقبلونها منهم ، ويقولون قولا يؤثر فى قلوب ضعفة المؤمنين فى ضعف عزائمهم « والله عليم بالظالمين » وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين « لقد ابتغوا الفتنة » أى الفساد والسعى فى تشتيت شملك وتفريق أصحابك عنك كما فعل عبد الله بن أبى يوم أحد وحنين إذ انصرف بمن معه ، وعن ابن جريج : وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة وهم اثنى عشر رجلا ليفتكوا به « من قبل » أى قبل غزوة تبوك « وقلبوا لك الأمور » أى ودبروا لك الحيل والمكائد وتداولوا الآراء بينهم فى إبطال أمرك « حتى جاء الحق » أى تأييدك ونصرك « وظهر أمر الله » أى غلب دينه « وهم كارهون » له وإنما دخلوا فيه ظاهرا . . ولما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك قال للحارث بن قيس وكان من المنافقين : يا أبا وهب هل لك فى جلاد بنى الأصفر يعنى الروم تتخذ منهم سرارى

وخدما ؟ فقال الحارث بن قيس : يارسول الله لقد علم قومى أنى مغرم بالنساء وأنى أخشى إن رأيت بنات بنى الأصفر أن لا أصبر عنهن ، ائذن لى بالقعود ولا تفتنى وأعنك بمالى ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : اعتل الحارث ابن قيس ولم يكن له علة إلا النفاق، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى فيه « ومنهم » أى من المنافقين « من يقول ائذن لى » أى فى القعود فى المدينة « ولا تفتنى » أى ببنات بنى الأصفر ، وقيل : لا توقعنى فى المدينة فى الإثم بأن لا تأذن لى ، فإنك إن منعتنى من القعود وقعدت بغير إذنك وقعت فى الإثم ؛ وقيل : لا تلقنى فى الهلاك ، فإن الزمان زمان شدة الحر ولا طاقة لى بها .. وقيل : لا تفتنى بسبب ضياع المال والعيال إذ لا كافل لهم بعدى .. قال الله تعالى : « ألا فى الفتة سقطوا » أى فى الفتنة التى سقطوا فيها وهى فتنة التخلف وظهور النفاق « وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » أى جامعة لهم لامحيص لهم عنها يوم القيامة ، أو هى محيطة بهم فكأنهم فى وسطها « إن تصبك » يا محمد فى بعض الغزوات « حسنة » أى نصرة وغنيمة «تسؤهم» « أى تحزنهم لما فى قلوبهم من الضغن والمرض «وإن تصبك مصيبة» أى نكبة وإن صغرت فى بعض الغزوات كما وقع يوم واحد « يقولوا » أى سروراً ويحتجوا بحسن رأيهم « قد أخذنا أمرنا » أى بالجد والحزم فى القعود عن الغزو « من قبل » أى قبل هذه المصيبة « ويتولواوهم فرحون » أى مسروورن بما نالك من المصيبة وسلامتهم منها . . قال الله تعالى : « قل » يا محمد لهؤلاء الذين فرحوا بما يصيبك من المصائب والمكروه « لن يصيبنا إلا ما كتب الله » أى قدره « لنا » فى اللوح المحفوظ ، فلا يقدر أحد أن يدفع عن نفسه مكروها نزل به أو يجلب لنفسه نفعا إن أراده مالم يقدر له الله « هو » أى الله «مولانا» أى ناصرنا وحافظنا وهوأولى بنا من أنفسنا فى الموت والحياة ، ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » فى جميع أمورهم لأن حقهم أن لا يتكلوا على غيره فليفعلوا ماهو حقهم « قل » يامحمد لهؤلاء المنافقين « هل تربصون »

أى تنتظرون أن يقع « بنا » أى المنافقين « إلا إحدى الحسنيين » تثنية حسنى وتأنيث أحسن، إلا إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هى حسنى العواقب وهو النصر والشهادة ، وذلك أن المسلم إذا ذهب إلى الجهاد فى سبيل الله تعالى إما أن يسلم ويغنم فيحصل له المال وإما أن يقتل فى سبيل الله تعالى فتحصل له الشهادة ، وهى العاقبة القصوى ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : تكفل الله تعالى لمن جاهد فى سبيل الله لايخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيل الله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه على ما نال من أجر أو غنيمة « ونحن نتربص بكم » أى إحدى السوأتين من العواقب إما « أن يصيبكم الله بعذاب من عنده » أى لاسبب لنا فيه كأن ينزل عليكم قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود « أو » بعذاب « بأيدينا » أى بسببنا من قتل ونهبٍ وأسر وغير ذلك « فتربصوا » بنا ماذكرنا من عواقبنا « إنا معكم متربصون » ماهو عاقبتكم ، ولا بد أن يلقى كلنا ما يتربصه لايتجاوزه « قل » يامحمد لهؤلاء المنافقين « انفقوا طوعا أو كرها » أى من غير إلزام من الله ورسوله ، أو ملزمين، وسمى الإلزام إكراها لأنهم منافقون، فكان إلزامهم بالإنفاق شاقا عليهم كالإكراه ، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائهم ، لأن رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه ، أو مكرهين من جهتهم « لن يتقبل منكم » أى لم تقبل منكم نفقاتكم على أى حال كان.. وأمرهم بالإنفاق ثم قال : لن يتقبل منكم ، لأن هذا الأمر فى معنى الخبر كقوله تعالى : « قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً » .. وروى أنها نزلت فى الحارث بن قيس فى تخلفه عن غزوة تبوك ، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا مالى أعينك به فاتركنى، ثم علل تعالى سبب منع القبول بقوله تعالى: « إنكم » أى لأنكم « كنتم قوما فاسقين » والمراد بالفسق هنا الكفر ، ويدل عليه قوله تعالى « وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله » أى وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم « ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى » أى متثاقلون لا يأتونها قط بنشاط « ولا ينفقون » أى نفقة من

واجب أو غيره « إلا وهم كارهون » أى فى حال الكراهة وإن ظهر خلاف ذلك ، وذلك كله لعدم النية الصالحة . وهـذا لا ينافى طوعا ، لأن ذلك بحسب الظاهر وهذا بحسب الواقع « فلا تعجبك » يامحمد « أموالهم » أى وإن أنفقوها فى سبيل الله وجهزوا بها الغزاة فإن ذلك من غير إخلاص منهم ولا حسن نية ولا جميل طوية « وأولادهم » الذين يتجملون بهم ، فإن ذلك استدراج ووبال، كما قال الله تعالى « إنمـا يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا » وإن كان يتراءى أنها لذيذة ، لأن ذلك من شأن الحياة، وتعذيبهم بها بسبب ما يكابدون من جمعها وحفظها من المتاعب ، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب .. وهذا لا يختص بالمنافق؛ ففائدة تخصيصه به أن المؤمن قد علم أنه مخلوق للآخرة وأنه يثاب بالمصائب الحاصلة له فى الدنيا ، فلم يكن المال والولد فى حقه عذابا ، والمنافق لا يعتقد ذلك، فبقى ما يحصل له فى الدنيا ، من التعب والمشقة والغم والحزن على المال والولد عذابا عليه فى الدنيا « وتزهق » أى تخرج « أنفسهم » بسببها « وهم » أى والحال أنهم « كافرون » أى يموتون على الـكفر ، فتـكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة ، وهكذا كل من أراد الله تعالى استدراجه فى الغالب كثر ماله وولده فـكثر إعجـابه بماله وولده فيبطر ، والإعجاب السرور بالشىء مع الافتخار به مع اعتقاد أنه ليس لغيره مايساويه ، وهذه الحالة تدل على استغراق النفس بذلك الشىء وانقطاعه عن الله تعالى ، فإنه لا يبعد فى حكم الله تعالى أن يزيل ذلك الشىء عن ذلك الإنسان ويجعله لغيره ، والإنسان متى كان متذكرا لهذا المعنى زال إعجابه بذلك الشىء ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : هلك المـكثرون، وقال: مالك من مالك إلا ما أكلت فشبعت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت ، وروى : من كثر ماله اشتد حسابه ومن ازداد من السلطان قربا ازداد من الله بعدا . والأخبار الواردة فى هذا الباب كثيرة ، والمقصود منها الزجر عن الإطناب إلى الدنيا والمنع من التهالك فى حبها والافتخار بها ، فينبغى أن لا يشتد عجب الإنسان بالدنيا ، وأن لا يميل قلبه إليها بصورة

تخرجه عن حدود الله وتبعده عن الطاعة وتدنيه من العذاب المقيم فى الآخرة...
ولما بين تعالى كون المنافقين مستجمعين لكل مضار الدنيا والآخرة خائنين عن جميع منافع الآخرة والدنيا عاد إلى ذكر فضائحهم وقبائحهم: فمنها إقدامهم على الأيمان الكاذبة كما قال تعالى «ويحلفون» أى المنافقون «بالله» للمؤمنين إذا جاءوا معهم «إنهم لمنكم» أى على دينكم وملتكم «وما هم منكم» أى لكفر قلوبهم «ولكنهم قوم يفرقون» أى يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين فيظهرون الإسلام تقية «لو يجدون ملجأ» أى حصنا يلجأون إليه، وقيل: لو يجدون قوما يأمنون عندهم على أنفسهم منكم لصاروا إليهم ولفارقوكم «أو مغارات» أى سراديب، جمع مغارة وهو الموضع الذى يغور فيه الإنسان أى يستتر «أو مدخلا» أى موضعا يدخلونه «لولوا إليه» والمعنى أنهم لو وجدوا مكانا على أحد هذه الوجوه الثلاثة ـ مع أنها شر الأمكنة ـ لدخلوا إليه وتحرزوا فيه «وهم يجمحون» أى يسرعون فى دخول ذلك المكان إسراعا لا يردهم شيء، ومن هذا يقال: جمح الفرس وهو فرس جموح ـ وهو الذى إذا جمح لا يرده اللجام.

٥٨ — وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ.

٥٩ — وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ.

هاتان الآيتان الكريمتان هما فى تصوير طعن الطاعنين من العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والرد عليهم فى زعمهم الكاذب بأن الرسول الأعظم لم يعدل بين الناس فى قسمة الغنائم، ففى هاتين الآيتين ذكر لطائفة من المنافقين، عابوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمته للغنائم، ورموه بالجور، ونسبوه إلى الظلم، فرد الله عليهم أبلغ رد، وفند مزاعمهم أبلغ تفنيد، وبين

الطريق السوى التى لو اتبعوها لكان خيرا لهم .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات : « ومنهم من يلمزك » أى يعيبك « فى الصدقات » قال أبو على الفارسى : ها هنا محذوف والتقدير : يعيبك فى تقسيم الصدقات ، واختلف فى سبب نزول هذه الآية ، فقال أبو سعيد الخدرى : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم مالا إذ أتاه ذو الخويصرة - وهو رجل من بنى تميم رأس الخوارج، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين واستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم ، فقال يارسول الله : اعدل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويلك إن لم أعدل فمن يعدل ؟ وقال : خبت وخسرت إن لم أكن أعدل، فقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله ائذن لى أضرب عنقه ، فقال له صلى الله عليه وسلم : دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . وقال الكلبى : قال رجل من المنافقين يقال له الجواظ المنافق : ألا ترون إلى صاحبكم يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أبا لك إنما كان موسى راعياً ، وإنما كان داود راعيا ، فلما ذهب قال صلى الله عليه وسلم : احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون ، وقال ابن زيد : قال المنافقون : والله ما يعطيها محمد إلا من أحب ولا يؤثرها إلا هواه فنزلت ، وروى أبو بكر الأصم فى تفسيره أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل من أصحابه : ما علمك بفلان ؟ فقال : مالى به علم إلا أنك تدينه فى المجلس وتجزل له العطاء ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنه منافق أخاف أن يفسد على غيره ؛ فقال : لو أعطيت فلانا بعض ما تعطيه ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنه مؤمن أكل إيمانه وأما هذا فمنافق أداريه خوف فساده « فإن أعطوا منها » أى من الصدقات « رضوا » أى رضوا عنك فى قسمتها « وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » أى وإن لم تعطهم عابوا عليك وسخطوا ، قال أهل المعانى : إن هذه الآية تدل على ركاكة أخلاق المنافقين ودناءة طباعهم ، وذلك لأنه لشدة شرههم إلى أخذ الصدقات

عابوا الرسول صلى الله عليه وسلم ونسبوه إلى الجور فى القسمة مع أنه كان أبعد خلق الله تعالى عن الميل إلى الدنيا ، وقال الضحاك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بينهم ما آتاه الله من قليل فى المال وكثيره ، وكان المؤمنون يرضون بما أعطوا ويحمدون الله تعالى ، وأما المنافقون فإن أعطوا كثيراً فرحوا وإن أعطوا قليلا سخطوا ، وذلك يدل على أن رضاءهم وسخطهم من أجل المال وحده ، وكلمة إذا للمفاجأة أى وإن لم يعطوا منها فاجأوا بالسخط « ولو أنهم » أى المنافقين « رضوا ما آتاهم الله ورسوله » أى أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنائم والصدقات أو غيرها ؛ وذكر الله تعالى للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بأمره « وقالوا » أى مع الرضا « حسبنا الله » أى كافينا الله من فضله « سيؤتينا الله من فضله ورسوله » أى من غنيمة أو صدقة أخرى ما يكفينا « إنا إلى الله » أى فى أن الله يغنينا عن الصدقة وغيرها من أموال الناس ويوسع علينا من فضله « راغبون » أى عريقون فى الرغبة ، ولذلك نكتفى بما يأتى من قبله كائنا ما كان ، والتقدير لكان خيرا لهم ، نقل عن عيسى عليه السلام أنه مر بقوم يذكرون الله تعالى فقال : ما الذى حملكم عليه ؟ فقالوا : الرغبة فى الثواب ، فقال : أصبتم . ومر على قوم يشتغلون بالذكر فسألهم فقالوا : لا نذكره للخوف من العقاب ولا للرغبة فى الثواب بل لإظهار ذلة العبودية وعزة الربوبية ، وتشريف القلب بمعرفته وتشريف اللسان بالألفاظ الدالة على صفات قدسه ، فقال : أنتم المحقون .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الرابع من سورة التوبة الذى اشتمل على ما اشتمل عليه من تصوير للجبناء الذين قعدوا عن المعارك وآثروا الدعة والأمن ، وأخذوا يعتذرون لرسول الله بالأعذار الكاذبة لئلا يخرجوا معه للحرب . والقرآن الكريم يصور فى بلاغة وإعجاز مداخل الشك فى قلوبهم ، ونفوسهم المريضة ، وعقولهم الواهنة ، وتفكيرهم الفاسد ، تصويرا بليغا رائعا . وما إن ينتهى القرآن الكريم

من شأن هؤلاء المعتذرين الذين يدعون الإيمان نفاقا ورياء ، وهم فى أعماق نفوسهم منطوون على الكفر ، حتى يذكر طبقة أخرى رمت الرسول الأكرم بالجور فى قسمة الغنائم وضلوا وأضلوا كثيرا عن سواء السبيل .

الربع الخامس من سورة التوبة

٦٠ — إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

فى هذه الآية الكريمة بيان لمصارف الزكاة ومستحقيها .، يقول الله عز وجل يبين مصارف الصدقات تحقيقا لما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم «إنما الصدقات» ، أى الزكوات مصروفة «للفقراء» .. والفقير هو الذى لا يجد ما يقع موقعا من كفايته كأن يحتاج إلى عشرة دراهم ولا يجد إلا درهمين ، من الفقار كأنه أصيب فقاره «والمساكين» .. المسكين هو الذى لا يجد ما يقع موقعا من كفايته ولا يكفيه ، كأن يحتاج إلى عشرة وهو يجد سبعة أو ثمانية ، مأخوذ من السكون كأن العجز أسكنه ، والمسكين أعلى من الفقير ، ويدل عليه قوله تعالى : «أما السفينة فكانت لمساكين» ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم تعوذ من الفقر . وقيل : المسكين هو الفقير لقوله تعالى «أو مسكينا ذا متربة» ... «والعاملين عليها» أى الزكاة ، فيعطى العامل وإن كان غنيا ويدخل فى «العاملين» الساعى وهو الذى يبعثه الإمام لأخذ الزكاة ، والكاتب والحاسب والحافظ للأموال والكيال والوزان وكل من لهم عمل فيها «والمؤلفة قلوبهم» ، وهم إما ضعيف النية فى الإسلام فيعطى ليقوى إسلامه ، أو شريف فى قومه يتوقع بإعطائه إسلام غيره ، أو كاف لشر من يليه من الكفار . وأما المؤلفة فهم الكفار لترغيبهم فى الإسلام ، فلا يعطون من الزكاة ولا من غيرها للإجماع ، ولأن الله تعالى أعز الإسلام وأهله وأغنى عن التأليف «وفى الرقاب» ، وهم المكاتبون الأرقاء الذين اشتروا رقابهم وحريتهم بمال معلوم يؤدونه لمالكى رقابهم «والغارمين» ، وهم من لزمتهم

الديون فى سبيل الله والحق والخير والإسلام والمعروف « وفى سبيل الله » وهم الغزاة المتطوعون « وابن السبيل » أى الطريق ، وهو المسافر الذى أبعده السفر عن ماله وأهله فاحتاج إلى المال بعينه على الوصول إلى غايته « فريضة من الله » منصوب بفعله المقدر، أى فرض لهم الصدقات فريضة « والله عليم » أى بالغ العلم بما يصلح الدين والدنيا ويؤلف بين قلوب المسلمين « حكيم » يضع الأشياء فى مواضعها ، وإنما أضيفت الصدقات إلى الأصناف الأربعة الأولى بلام الملك ، وإلى الأربعة الأخيرة بفى الظرفية للإشعار بإطلاق الملك فى الأربعة وتقييده فى الأخيرة، حتى إذا لم يحصل الصرف فى مصارفها استرجع، بخلافه فى الأولى ، والظاهر أن الآية سواء فى زكاة الفطر وزكاة المال. وشرط أخذ الزكاة من هذه الثمانية : الحرية، والإسلام، وأن لا يكون هاشميا ولا مطلبيا ولا مولى لهما كما بينته السنة ، هذا مذهب الشافعى رضى الله عنه ، وقال الرازى وغيره : لا دلالة فى الآية على قول الشافعى فى أنه لا بد من صرفها إلى جميع الأصناف ، ولأنه تعالى جعل جملة الصدقات لهؤلاء الأصناف ، وأما أن صدقة زيد بعينها يجب توزيعها على الأصناف كلها فلا ، كما أن قوله تعالى « واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه » الآية توجب قسم الخمس على الطوائف من غير توزيع بالاتفاق ، وما ذهب إليه الشافعى رضى الله تعالى عنه هو قول عكرمة، وما ذهب إليه الأئمة الثلاثة من جواز صرفها إلى صنف واحد هو قول عمر وحذيفة وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين ، وكل على هدى من ربه . وجاءت هذه الآية فى تضاعيف ذكر المنافقين وكيدهم ، لأنه تعالى ذكر ذلك ليدل على أن هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم ، وعلى أن هؤلاء المنافقين ليسوا منهم حسما لأطماعهم وإشعارا باستحقاقهم الحرمان وأنهم بعدوا عنها وعن مصارفها ، فمالهم ومالها ؟ وما سلطهم على التكلم فيها ؟ وعلى قاسمها؟

فى هذه الآية الكريمة بين الله عز وجل مصارف الزكاة ، وجعلها للفقراء والمساكين والموظفين الذين يقومون على جمعها أو على صرفها لمستحقيها ، وللمؤلفة قلوبهم ، وفى فك رقاب العبيد ليصيروا أحرارا ، وفى معاونة أصحاب

الديون على سداد ديونهم ، وفى سبيل الله مما يتناول كل عمل يعود بالخير على الأفراد والجماعات الإسلامية ، وكل مشروع يقصد به خدمة الشعب ، وكل إصلاح يرجع على المسلمين بالرخاء والخير ، ولابن السبيل المنقطع عن ماله . وقد أبانت الآية أن الزكاة فريضة فرضها الله عز وجل على كل مسلم ومسلمة ، والله عليم بما فيه مصلحة عباده ، حكيم فيما يضع لهم من تشريعات .. وإذا كان أحد مصارف الزكاة هو فك رقاب العبيد ، فإننى أقول : إن الإسلام قد حارب الرق ، وأعلن عليه الحرب الشديدة ، ووجه كثيرا من نظامه المالى لتحرير الأرقاء ، ومع ذلك لم يعلن إلغاء الرق إلغاء كاملا ، لأن سبيل الحروب ضد الإسلام كانت لا تزال موجودة .

٦١ — وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

٦٢ — يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ .

٦٣ — أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْىُ الْعَظِيمُ .

فى هذه الآيات الثلاث الكريمة بيان لشأن طائفة من المنافقين كانت تكره الإسلام وتحاربه ، وتتناول الرسول بالإيذاء والسب ثم تنفصل من كل ماقالت ، وقد فضح الله أمرهم ، وهددهم تهديدا شديدا ، وأنذرهم عذابا عظيما .. يقول الله عز وجل : « ومنهم » أى المنافقين « الذين يؤذون النبى » هذا نوع آخر من جهالات المنافقين وهو أنهم كانوا يؤذون النبى صلى الله عليه وسلم ويعيبونه

«وينقلون حديثه «ويقولون» إذا نهوا عن ذلك لئلا يبلغه « هو أذن » أى يسمع كل مايقال له ويصدقه ، سموه أذنا للمبالغة، كأنه من فرط أسماعه صارت جملته آلة السماع، كما يسمى الجاسوس عينا لذلك.. واختلف فى سبب نزول هذه الآية :

فقال ابن عباس نزلت فى جماعة من المنافقين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم لبعض: لاتفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه مانقول فيوقع بنا ، فقال الجلاس بن سويد ـ وهو من المنافقين: بل نقول ماشئنا ثم نأتيه فننكر ماقلنا ونحلف له فيصدقنا فيما نقول ، فإن محمدا أذن ، أى أذن سامعة كل مايقال له ، يصدقه ويقبله .

وقال محمد بن إسحق نزلت فى رجل من المنافقين يقال له نبيل بن الحارث، وكان رجلا ثائر الشعر أحمر العينين مشوه الخلقة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبيل بن الحارث ، وكان ينم حديث النبى صلى الله عليه وسلم إلى المنافقين ، فقيل له : لاتفعل ذلك فقال: إنما محمد أذن فمن حدثه شيئا صدقه، فنقول ماشئنا ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا فنزلت ، وقال الحسن : كان المنافقون يقولون : ماهذا الرجل إلا من شاء صرفه حيث شاء ، لاعزيمة له ، ومقصود المنافقين بقولهم هذا أذن ليس له ذكاء : بلى هو سليم القلب سريع الاغترار بكل ما سمع ، فلهذا السبب سموه بأذن وقوله تعالى « قل » يامحمد لهؤلاء المنافقين « أذن خير لكم» تصديق لهم بأنه أذن لكن لا على الوجه الذى ذموه به ، بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله ، ثم فسر تعالى ذلك بقوله « يؤمن بالله » أى يصدق به لما قام عنده من الأدلة « ويؤمن للمؤمنين » أى ويصدقهم ويقبل قولهم ولا يقبل قول المنافقين « ورحمة » أى وهو رحمة « للذين آمنوا منكم » لمن أظهر الإيمان حيث يقبله ولايكشف سره ، وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلا بحالكم بل رفقا بكم وترحما عليكم . ولما بين سبحانه وتعالى كونه سببا للخير بين أن كل من أذاه استوجب العذاب الأليم بقوله تعالى « والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » أى مؤلم ، لأنه إذا كان يسعى فى إيصال الخير والرحمة إليهم مع كونهم فى غاية الخبث والخزى ،

ثم إنهم مع ذلك يقابلون إحسانه بالإساءة وخيراته بالشرور ، فلا شك أنهم يستحقون العذاب الشديد من الله تعالى ، ثم ذكر نوعا آخر من قبائح أفعال المنافقين بقوله تعالى «يحلفون بالله لكم ليرضوكم» أى لترضوا عنهم، واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل والكلبى : نزلت فى رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم أتو يعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم ؛ وقال قتادة والسدى: اجتمع ناس من المنافقين فيهم ابن سويد ووديعة بن ثابت فوقعوا فى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقالوا: إن كان ما يقول محمد حقا فنحن أشر من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس ، فحرفوه وقالوا هذه المقالة ، فغضب الغلام وقال : والله ما يقول محمد حق وأنتم شر من الحمير ، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فدعاهم فسألهم فحلفوا أن عامرا كذب، وحلف عامر أنهم كذبة فصدقهم النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعل عامر يدعو: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فنزلت «والله ورسوله أحق أن يرضوه» أى بالإرضاء بالطاعة والوفاق، وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضاء الله ورضاء رسوله لتلازمهما ، أو أن العالم بالأسرار والضمائر هو الله تعالى وإخلاص القلب لا يعلمه إلا الله تعالى ، وبهذا السبب خص الله تعالى نفسه بالذكر ، ولأن الكلام فى إيذاء الرسول « إن كانوا » أى هؤلاء المنافقين « مؤمنين » أى مصدقين بوعد الله ووعيده فى الآخرة « ألم يعلموا » قال أهل المعانى: هذا خطاب لمن علم شيئا ثم نسيه وتركه، فيقال له : ألم تعلم أنه كان كذا وكذا، ولما طال مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهر المؤمنين والمنافقين وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون إليه خاطب المنافقين بقوله تعالى « ألم تعلموا » .. « أنه » أى الشأن « من يحادد الله » أى من يخالف الله « ورسوله » ، وأصل المحادة فى اللغة المخالفة والمجانبة والمعاداة ، واشتقاقه من الحد، يقال: حاد فلان فلانا أى صار فى حد غير حده كقولك : شاقه أى صار فى شق غير شقه ، ومعنى « يحادد الله » أى يصير فى حد غير حد أولياء الله تعالى بالمخالفة « فإن له نار جهنم » أى فحق أن له نار

جهنم. قال الرازى : أو أن معناه : فله نار جهنم وأن تكريره للتوكيد ، أو التقدير : ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك ، فإن له نار جهنم « خالدا فيها » أى دائما من غير انقضاء لما كانت نيته المحادة أبدا ، ثم نبه على عظم هذا الجزاء بقوله تعالى « ذلك » أى الأمر البعيد الوصف العظيم الشأن « الخزى العظيم » أى الهلاك الدائم .

٦٤ — يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ .

٦٥ — وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ .

٦٦ — لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ .

فى هذه الآيات الثلاث تصوير للمنافقين ودخيلة نفوسهم المريضة ، وما كانوا يثرثرون به فى مجالسهم من كفر وبهتان ، ويهددهم الله عز وجل بأن لهم العذاب لأنهم كانوا مجرمين . . يقول الله عز وجل فى هـذه الآيات الثلاث الكريمة . . « يحذر » أى يخاف « المنافقون أن تنزل عليهم » أى المؤمنين « سورة تنبئهم » أى تخبرهم « بما فى قلوبهم » أى فى قلوب المنافقين من النفاق والحسد والعداوة للمؤمنين ، كانوا يقولون فيما بينهم ويستهزئون ويخافون الفضيحة بنزول القرآن فى شأنهم ، قال قتادة : هـذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة ـ أثارت مخازيهم ، قال ابن عباس : أنزل الله تعالى ذكر سبعين رجلا من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ، ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضاً لأن أولادهم كانوا مؤمنين « قل » يا محمد لهؤلاء المنافقين « استهزئوا » أمر تهديد « إن الله مخرج » أى مظهر

« ما تحذرون » إخراجه من نفاقكم ، قال ابن كيسان : نزلت هذه الآية فى اثنى عشر رجلا من المنافقين ، وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها ومعهم رجل مسلم يخفيهم شأنه وتنكروا له فى ليلة مظلمة ، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بما قدروا وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم وعمار بن ياسر يقود ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذيفة يسوقها ، فقال لحذيفة : اضرب وجوه رواحلهم فضربها حذيفة حتى نحاها عن الطريق ، فلما نزل قال لحذيفة : من عرفت من القوم ؟ قال : لم أعرف منهم أحداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنهم فلان وفلان حتى عدهم كلهم ، فقال حذيفة : ألا تبعث إليهم فتقتلهم ؟ فقال : أكره أن تقول العرب : لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم ، بل يكفيناهم الله « ولئن » اللام لام القسم « سألتهم » أى المنافقين عن استهزائهم بك والقرآن وهم سائرون معك إلى تبوك «ليقولن» معتذرين « إنما كنا نخوض ونلعب » فى الحديث لنقطع به الطريق ولم نقصد ذلك ، قال ابن قتادة : كان النبي صلى الله عليه وسلم يسير فى غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان يستهزئان بالنبى صلى الله عليه وسلم والقرآن والثالث يضحك ، قيل: كانوا يقولون : إن محمداً يريد أن يغلب الروم ويفتح مدائنهم ما أبعده من ذلك ، وقيل : كانوا يقولون : إن محمداً يزعم أنه نزل فى أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن وإنما هو قوله وكلامه فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال : احبسوا الركب على ، فدعاهم وقال لهم : قلتم كذا وكذا فقالوا : إنما كنا نخوض ونلعب أى كنا نتحدث ونخوض فى الكلام كما يفعل الركب لنقطع الطريق بالحديث واللعب ، قال الله تعالى : « قل » يا محمد لهؤلاء المنافقين « أبالله » أى بفرائضه وحدوده وأحكامه « وآياته » أى القرآن وسائر ما يدل على الدين الذى لا يمكن تبديله ولا يخفى على بصير، وبنصره « ورسوله » محمد صلى الله عليه وسلم الذى جاءكم بالبينات ، وهو مجتهد فى إصلاحكم وتشريفكم وإعلامكم « كنتم تستهزئون » توبيخا وتقريعا

لهم على استهزائهم بما لا يصح الاستهزاء به ، وإلزاما للحجة عليهم باعتقادهم الكاذب . . ولما كان الاستهزاء بذلك كفرا قال الله تعالى : « لا تعتذروا » أى لا تشتغلوا باعتذاراتكم الباطلة « قد كفرتم » أى أظهرتم الكفر بقولكم هذا « بعد إيمانكم » أى بعد إظهار الإيمان ؛ فإن قيل : المنافقون لم يكونوا مؤمنين فكيف قال تعالى : قد كفرتم بعد إيمانكم ؟ فالجواب إنهم كانوا يكتمون الكفر ويظهرون الإيمان ، فلما حصل ذلك الاستهزاء منهم وهو كفر ، فقد أظهروا الكفر بعدما أظهروا الإيمان « إن يعف عن طائفة منكم » أى بإحداثهم التوبة وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق ، تعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين » أى مصرين على النفاق والاستهزاء ، قال محمد بن إسحاق الرضى : رجل واحد وهو ابن حمير الأشجعى يقال هو الذى كان يضحك ولا يخوض ، وكان يمشى مجانبا لهم ، وكان ينكر بعض ما يسمع ، والعرب توقع لفظ الجمع على الواحد فتقول : خرج فلان إلى مكة على الخيل أو على الجياد ، والله تعالى يقول : « الذين قال لهم الناس » يعنى نعيم بن مسعود ، فلما نزلت هذه الآية تاب من نفاقه ، وقال : اللهم إنى لا أزال أسمع آية تقرأ تقشعر منها الجلود وتخفق منها القلوب ، اللهم اجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لا يقول أحد : أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت ، فأصيب يوم اليمامة فلم يعرف أحد من المسلمين مصرعه .

٦٧ — ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ .

٦٨ — وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ .

٦٩ — كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا

وَأَوْلَـٰدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَـٰقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا
اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓا
أُولَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ
الْخَـٰسِرُونَ .

٧٠ — أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ
إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَـٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِالْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ .

٧١ — وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰٓئِكَ
سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

٧٢ — وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ
مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

٧٣ — يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ جَـٰهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَـٰفِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

٧٤ — يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا

بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَٰهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ.

فى هذه الآيات تصوير بعد تصوير بعد تصوير لنفاق المنافقين وشركهم ، وللعذاب الشديد الذى كتبه الله لهم ولأمثالهم .. فقد بين الله تعالى نوعا آخر من أنواع نفاقهم وفضائحهم وقبائحهم ، والمقصود منه بيان أن إناثهم كذكورهم فى تلك الأعمال المنكرة والأفعال الخبيثة .. يقول الله تعالى: «المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض» أى متشابهون فى النفاق والبعد عن الإيمان «يأمرون بالمنكر» أى يأمر بعضهم بعضاً بالشرك والمعصية وتكذيب النبى صلى الله عليه وسلم «وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم» عن الإنفاق فى كل خير من زكاة وصدقة وإنفاق فى سبيل الله . والأصل فى هذا أن المعطى يمد يده ويبسطها بالعطاء ، فقيل لمن منع وبخل: قد قبض يده ؛ فقبض اليد كناية عن الشح . وقوله: «نسوا الله فنسيهم» لا يمكن إجراؤه على ظاهره لأنا لو حملنا النسيان على الحقيقة لما استحقوا عليه ذما ، لأن عدم النسيان ليس فى وسع البشر ، والخبر «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان» ، وأيضاً فوقوع النسيان فى حق الله تعالى محال فلابد من التأويل ، وهو من وجهين: الأول: معناه أنهم تركوا أمره حتى صار بمنزلة المنسى من ثوابه ورحمته ، وجاء هذا من مزاوجة الكلام كقوله تعالى : «وجزاء سيئة سيئة مثلها» .. الثانى : النسيان ضد الذكر ، أى فلما تركوا ذكر الله بالعبادة والثناء عليه تعالى ترك الله تعالى ذكرهم بالرحمة والإحسان ، وإنما حسن جعل النسيان كناية عن ترك الذكر لأن من نسى شيئاً لم يذكره فجعل اسم الملزوم كناية عن اللازم .. «إن المنافقين هم الفاسقون» أى الكاملون فى الفسق الذى هو التمرد فى الكفر والانسلاخ عن كل خير ، وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الإسم الفاحش الذى وصف الله تعالى به المنافقين حين بالغ فى ذمهم ، وقد كره

رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلم أن يقول: كرهت، كسلت، لأن المنافقين وصفوا بالكسل فى قوله تعالى : « إلا وهم كسالى » فما ظنك بالفسق ؟ ولما بين سبحانه وتعالى كثيراً من أحوال المنافقين والمنافقات وأنه نسيهم أى جازاهم على تركهم التمسك بطاعة الله تعالى ، أكد هذا الوعيد وضم المنافقين إلى الكفار فيه بقوله تعالى : « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار » أى المجاهدين فى عنادهم يقال : وعدهم بالخير وعداً وأوعده بالشر وعيداً « نار جهنم خالدين فيها » أى مقدرين الخلود ، ولا شك أن النار المخلدة من أعظم العقوبات « هى حسبهم » أى كافيتهم فى العذاب « ولعنهم الله » أى أبعدهم من رحمته ، ولما كان الخلود قد يتجوز به عن الزمن الطويل فيكون بعده فرج ، نفى ذلك بقوله تعالى : « ولهم عذاب مقيم » أى دائم لا ينقطع وقوله تعالى : « كالذين من قبلكم » رجوع من الغيبة إلى الخطاب والكاف فى (كالذين) للتشبيه ، والمعنى : فعلتم كأفعال الذين من قبلكم - شبه فعل المنافقين بفعل الكافرين الذين كانوا من قبلهم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف وقبض الأيدى عن فعل الخير والطاعة ، ثم إنه تعالى وصف الكفار بأنهم كانوا أشد منهم أى من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر أموالا وأولاداً بقوله تعالى « كانوا أشد منكم قوة » أى بطشا ومنعا « وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم » أى تمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا بها عوضاً عن الآخرة ، والخلاق النصيب ، وهو ما خلق الإنسان وقدر له من خير وشر كما يقال : قسم له « فاستمتعتم بخلاقكم » أى فتمتعتم أيها المنافقون والكافرون بخلاقكم ، فهو خطاب للحاضرين « كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم » ذم الأولين باستمتاعهم بما أوتوا من حظوظ الدنيا العاجلة وحرمانهم من سعادة الآخرة بسبب استغراقهم فى تلك الحظوظ العاجلة ؛ تمهيدا لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم .

ولما بين سبحانه وتعالى مشابهة هؤلاء المنافقين لأولئك المتقدمين فى طلب الدنيا وفى الإعراض عن طلب الآخرة - بين حصول المشابهة بين

الفريقين فى تكذيب الأنبياء وفى المكر والخديعة بقوله تعالى «وخضتم» أى ودخلتم فى الباطل والكذب على الله تعالى، وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين «كالذى خاضوا» أى كالذين خاضوا وكالفوج الذى خاضوه، هذا كله إذا جعلنا الذى موصولا اسميا، ويصح أن يكون موصولا حرفيا فيؤول هو مع صلته بمصدر، أى كخوضهم، والفوج الجماعة، وفائدة قوله تعالى «فاستمتعوا بخلاقهم» وقوله «كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم» مغن عنه كما أغنى قوله «كالذى خاضوا»، هو أن فائدة ذلك أن يذم الأولين بما مر، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم فيكون ذلك غاية فى المبالغة. كما تريد أن تنبه ظالما على قبح ظلمه بقولك: أنت مثل فرعون كان يقتل بغير جرم ويعذب من غير موجب. وأما «وخضتم كالذى خاضوا» فمعطوف على ما قبله مستند إليه مستغن بإسناده إليه عن تلك المقدمة «أولئك» أى هؤلاء الأشقياء حبطت أى بطلت «أعمالهم فى الدنيا» أى بزوالها عنهم ونسيان لذاتها «والآخرة» أى فى الدار الآخرة لأنهم لم يسعوا لها سعيها فلم تنفعهم أعمالهم فى الدارين بل يعاقبون عليها، وزاد فى التنبيه على بعدهم مما تمنوا لأنفسهم من النفع بقوله تعالى «وأولئك هم الخاسرون» أى الذين خسروا الدنيا والآخرة، والمعنى: أنه كما بطل أعمال الكفار الماضين وخسروا تبطل أعمالكم أيها المنافقون وتخسرون، وفى الالتفات إلى مقام الخطاب إشارة إلى تحذير كل سامع من مثل هذه المقالة، قال بعض كبراء التابعين: أدركت سبعين ممن أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه، وذكر أن مالكا رحمه الله تعالى دخل المسجد بعد العصر وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر فجلس ولم يركع، فقال له صبي: ياشيخ قم فاركع، فقام وركع ولم يحاججه بما يراه مذهبا، فقيل له فى ذلك، فقال: خشيت أن أكون من الذين قيل لهم: اركعوا لا يركعون، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال: بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما، وقال تعالى: «لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى» ينظر المنافق إلى ما يسقط فضائل أهل الفضل ويتعامى عن محاسنهم، لما روى أن الله تعالى يبغض التارك لحسنة المؤمن

الآخذ لسيئته والمؤمن الصادق يتغافل عن مساوئ أهل المساوئ فكيف بمعايب أهل المحاسن ، والمنافق يأخذ من الدين ما ينفع فى الدنيا ولا يأخذ ما ينفع فى العقبى ، ويجتنب فى الدين ما يضر فى الدنيا . «ألم يأتهم» فيه رجوع من الخطاب إلى الغيبة أى ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير أى قد أتاهم «نبأ» أى خبر «الذين من قبلهم» من الأمم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف أهلكناهم حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا ، ولما شبه الله تعالى المنافقين بالكفار المتقدمين فى الرغبة فى الدنيا فى تكذيب الأنبياء والمبالغة فى إيذائهم لرسلهم، بين منهم ستة طوائف: الطائفة الأولى «قوم نوح» أهلكوا بالطوفان ، «و» الثانية «عاد» وهم قوم هود أهلكوا بالريح «و» الثالثة «ثمود» وهم قوم صالح أهلكوا بسلب النعمة «و» الخامسة «أصحاب مدين» وهم قوم شعيب ويقال: إنهم من ولد مدين بن إبراهيم أهلكوا بعذاب يوم الظلة «و» السادسة «المؤتفكات» وهي قوم لوط أى أهلها ، أهلكوا بأن جعل الله تعالى أعالى أرضهم سافلها وأمطر عليهم الحجارة ، وإنما ذكر الله تعالى هذه الطوائف الستة لأن آثارهم باقية وبلادهم بالشام والعراق واليمن ، وكل ذلك قريب من بلاد العرب ، فكانوا يمرون عليهم ويعرفون أخبارهم ، وقوله تعالى «أتتهم رسلهم» راجع إلى كل هؤلاء الطوائف «بالبينات» أى المعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم ، فكذبوهم وخالفوا أمرنا كما فعلتم أيها الكفار والمنافقون ، فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فتعجل لكم النقمة كما عجلت لهم «فما كان الله ليظلمهم» باستعجال العقوبة لهم «ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب ، ولما ذكر سبحانه وتعالى وصف المنافقين بعضهم من بعض بالأعمال الفاسدة والآخرة ذكر بعده صفات المؤمنين بقوله «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض» فى الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة ؛ هذا فى مقابلة قوله تعالى «المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض» ، وقال فى وصف المؤمنين «بعضهم أولياء بعض» لأنه لما كان نفاق الأتباع حصل بسبب التقليد لأولئك الأكابر لسبب مقتضى الهوى

والطبيعة والعادة قال فيهم «بعضهم من بعض» ، ولما كانت الموافقة الخالصة بين المؤمنين بتوفيق الله تعالى وهدايته لا بمقتضى الطبيعة وهى النفس ، وصفهم بأنهم بعضهم أولياء بعض « يأمرون بالمعروف » أى بالإيمان بالله ورسوله واتباع أمره ، والمعروف كل ما عرف من الشرع من خير وطاعة « وينهون عن المنكر » أى الشرك والمعاصى ، والمنكر كل ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع ، فى مقابلة قوله تعالى فى المنافقين « يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف » « ويقيمون الصلاة » أى المفروضة ويتمون أركانها وشروطها « ويؤتون الزكاة » أى الواجبة عليهم، مقابلة قوله تعالى فى المنافقين « نسوا الله فنسيهم » ولما ذكر تعالى ما أوعد به المنافقين من العذاب فى نار جهنم ذكر ما وعد به المؤمنين من الرحمة المستقبلة وهى ثواب الآخرة بقوله تعالى « ويطيعون الله ورسوله أولئك » أى المؤمنون والمؤمنات الموصوفون بهذه الصفات «سيرحمهم الله» بوعد لا خلف فيه « إن الله عزيز » أى غالب على كل شىء لا يمتنع عليه ما يريده « حكيم » أى لا يقدر واحد على نقض ما يحكمه وحل ما يبرمه .. ولما ذكر سبحانه وتعالى الوعد على سبيل الإجمال ذكره على سبيل التفصيل بقوله تعالى « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار » فذكر فى هذه الآية أن الرحمة هى هذه الأنواع المذكورة فى هذه الآية : أولها قوله تعالى « جنات تجرى من تحتها الأنهار » أى البساتين التى يحير فى حسنها الناظر ؛ لأنه تعالى قال « ومساكن طيبة فى جنات عدن » أى إقامة وخلود ، وهذا هو النوع الثانى ؛ فتكون جنات عدن هى المساكن التى يسكنونها والجنان الأخر هى البساتين التى يتنزهون فيها ، فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه ، وقد كثر كلام أصحاب الآثار فى صفة جنات عدن ، وعن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عدن دار الله التى لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر ، أى دار الله التى أعدها لأوليائه وأهل طاعته والمقربين من أوليائه وعباده ؛ وقال الرازى : حاصل الكلام أن فى جنات عدن قولين :

أحدهما أنه اسم علم لموضع معين فى الجنة ، وهذه الأخبار والآثار تقوى

هذا القول ، قال الكشاف « وعدن علم بدليل قوله تعالى «جنات عدن التى وعد الرحمن عباده » .

والقول الثانى أنه صفة الجنة ، قال الأزهرى : مأخوذ من قولك : عدن بالمكان ، إذا أقام به ـ يعدن عدونا ، فبهذا الاشتقاق قالوا : الجنان كلها جنات عدن.. « ورضوان من الله » روى عن أبى مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك وسعديك والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى ؟ وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ، فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون : وأى شىء أفضل من ذلك ؟ قال : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا ، وهذا هو النوع الثالث ، « ذلك » أى الرضوان أو جميع ما تقدم « هو الفوز العظيم » الذى يستصغر دونه الدنيا وما فيها .

ولما وصف سبحانه وتعالى المنافقين بهذه الصفات الخبيثة وأوعدهم بأنواع العقاب ، وكانت عادة الله تعالى فى هذا الكتاب الكريم جارية بذكر الوعد مع الوعيد ، لذلك عقبه بوصف المؤمنين بالصفات الشريفة الطاهرة الطيبة ، ووعدهم بالثواب الرفيع والدرجات العالية ... ثم عاد إلى شرح أحوال الكفار والمنافقين بقوله تعالى « يا أيها النبى جاهد الكفار » أى المجاهرين « والمنافقين » أى الساترين كفرهم بظهور الإسلام .. والآية تدل على وجوب مجاهدة المنافقين وهو غير جائز ، فإن المنافق كما مر هو من يستر كفره ، ومن كان كذلك لم تجز محاربته ومجاهدته ، وجواب ذلك أنه ليس فى الآية ما يدل على أن ذلك الجهاد بالسيف أو باللسان أو بطريق آخر ، وإنما يدل على وجوب الجهاد مع الفريقين ، وكيفية تلك المجاهدة إنما تعرف بدليل آخر ، وقد دلت الدلائل المنفصلة على أن المجاهدة مع الكفار يجب أن تكون بالسيف ، ومع المنافقين بالحجة والبرهان . . وحمل الحسن جهاد المنافقين على إقامة الحدود

عليهم إذا تعاطوا أسبابها ، قيل : هذا ليس بشيء لأن إقامة الحدود واجبة على من ليس بمنافق فلا يكون لها تعلق بالنفاق ، ولما كان صلى الله عليه وسلم مطبوعاً على الرفق وحسن الخلق قال تعالى « وأغلظ عليهم » الغلظة الشدة ، والمراد بالشدة عليهم عدم التهاون معهم ، ومعاملتهم معاملة فيها إظهار للقوة والعنف ، حتى يتوبوا إلى الله ويتوبوا عن النفاق « ومأواهم » أى مسكنهم فى الآخرة « جهنم وبئس المصير » أى المرجع هى « يحلفون » أى المنافقون « بالله ما قالوا » أى ما بلغك عنهم من السب ، والمفسرون ذكروا فى أسباب نزول هذه الآية وجوها :

الأول : روى أنه عليه الصلاة والسلام أقام فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المتخلفين ، فقال الجلاس بن سويد : لئن كان ما يقول محمد فى إخواننا الذين خلفناهم بالمدينة حقا لنحن شر من الدواب ، فقال عامر بن قيس الأنصارى للجلاس : والله إن محمداً صادق وأنت شر من الدابة ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضره ، فحلف بالله عز وجل ما قاله ، فرفع عامر يده ، وقال : اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب ، فنزلت ، فقال الجلاس : لقد ذكر الله تعالى التوبة فى هذه الآية ، ولقد قلت هذا الكلام وصدق عامر ، ثم تاب وحسنت توبته .

الثانى : أنها نزلت فى عبد الله بن أُبَى لما قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ـ وأراد به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فسمع زيد بن أرقم ذلك فبلغه للنبى صلى الله عليه وسلم ، فهم عمر رضى الله عنه بقتل عبد الله بن أبى ، فحلف أنه لم يقل .

الثالث : روى قتادة أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار ، وكانت جهينة حلفاء الأنصار ، فظهر الجهنى على الغفارى ، فقال عبد الله بن أبى للأوس : انصروا أخاكم فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك ، فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأرسل

إليه فسأله . فحلف بالله ما قال فنزلت « ولقد قالوا كلمة الكفر » وهى سب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل: هى كلمة جلاس بن سويد ، وقيل: هى كلمة عبدالله ابن أبى « وكفروا بعد إسلامهم » أى وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام « وهموا بما لم ينالوا » أى من قتل النبي صلى الله عليه وسلم عند رجوعه من تبوك ، حيث توافق خمس عشرة منهم إذا تسنم العقبة أى علاها بالليل ، فأخذ عمار بن ياسر بخطام ناقته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها ، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة وقع أخفاف الإبل وصوت السلاح، فالتفت فإذا قوم ملثمون فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا ، وقيل : هم المنافقون هموا بقتل عامر حين رد على الجلاس، وقيل: أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبى وإن لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم « وما نقموا » أى وما أنكروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم « إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » فإن أكثر أهل المدينة كانوا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فى ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة ، وبعد قدومه أخذوا الغنائم وفازوا بالأموال وصاروا آمنين ، وذلك يوجب أن يكونوا محبين له مجتهدين فى بذل النفس والمال لأجله، وقتل للجلاس مولى فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدية فاستغنى ، فالمنافقون عملوا بضد الواجب فوضعوا موضع شكره صلى الله عليه وسلم أن نقموا منه ، وقال ابن قتيبة : معناه ليس هناك شىء ينقمون منه «فان يتوبوا» أى من كفرهم ونفاقهم «يك خيراً لهم» فى العاجل والآجل من إصرارهم على ذلك ، وهذا الذى حمل الجلاس على التوبة ، والضمير فى يك للتوبة «وإن يتولوا» أى يعرضوا عن الإيمان ويصروا على النفاق والكفر « يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا » بالقتل والأسر والإذلال « والآخرة » بالعذاب الأكبر الذى لاخلاص لهم منه وهو خلودهم فى النار « ومالهم فى الأرض » أى التى لا يعرفون غيرها « من ولى » يحفظهم منه « ولا نصير » يمنعهم ، وأما السماء فهم أقل أن يطمعوا منها فى شىء وأغلظ أكبادا من أن يرتقى فكرهم إلى مابها من العجائب وما بها من الجنود ، واعلم أن هذه السورة أكثرها فى شرح

أحوال المنافقين ، ولا شك أنهم أقسام وأصناف ، فلهذا السبب يذكرهم الله تعالى على التفصيل فيقول تعالى : «ومنهم الذين يؤذون النبي ، ومنهم من يلمزك في الصدقات ، ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني » .

* * *

وبهذا ينتهي هذا الربع الخامس ، وخلاصة موضوعاته وأصوله ما يلي :

١ — بيان مصارف الزكاة ، ومن هذه المصارف تحرير رقاب العبيد ، وذلك يدل على أن الإسلام قد كفل الحرية للناس عامة ، واعتز بحرية الأفراد ، كما اعتز بحرية الجماعات والأمم والشعوب . . . وطبقة العبيد حصرهم الإسلام في طبقة الأسرى الذين أسروا في حرب منظمة ضد الإسلام والمسلمين والوطن الإسلامي ؛ ومن المعروف في قوانين الحرب الحديثة أن الجيش المنظم يجوز له إعدام الأسرى ، وهذا الحق ثابت في الإسلام أيضاً ، ولكن الله عز وجل أمر بالعطف على الأسرى ، وضمن لهم حق الحياة والاحترام والعمل ، وجعلهم جزءا من المجتمع الإسلامي ، وأوصى بمعاملتهم أحسن معاملة ، وحبب في تحريرهم ، بل أوجبه وحث عليه ، كما جعل تحريرهم مصرفا من مصارف الزكاة .. ولو بحثنا عما تتبعه أمم الغرب في العصر الحديث مع طبقات تعدها من المنبوذين اجتماعيا ، كما تصنع روسيا مع أعداء الشيوعية ، وكما تصنع أمريكا مع الزنوج ، وكما كانت تصنع ألمانيا في معسكرات الاعتقال الذين ملأت بهم اليهود ، وكما تصنع كثير من دول الغرب مع الأسرى ؛ لهالنا الأمر ، ولرأينا سماحة الإسلام جلية ظاهرة للعيان .

ومع ذلك فإنني أؤكد هنا أن دعوة الإسلام إلى تحرير الرقاب وعمله في هذا السبيل أكبر دليل على ما أذهب إليه من أن الإسلام حارب الرق وأعطى حق الحرية للناس جميعاً ، وأحاديث الرسول وأعماله ومبادىء القرآن وأصوله ،

فيها الدليل كل الدليل على أن الإسلام هو أول من ألغى الرق ، ودعا إلى تحرير الرقيق وحض عليه .

٢ — التنديد بمواقف المنافقين الذين وقفوا حياتهم ومالهم على محاربة الإسلام ورسوله الكريم ، وبيان مصيرهم الأسود فى الدنيا والآخرة ، وتقرير أن عذاب الله قريب منهم ، وأنهم لا يعجزون الله ، وأن شأنهم فى ذلك شأن من قبلهم من الأمم التى أهلكها الله ، من مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ، ممن ظلموا أنفسهم ولم يظلمهم الله ، واستحقوا العذاب بذنوبهم ، وبما كانوا يفسدون .

٣ — بيان فضل المؤمنين على المنافقين ، والتنويه بأخلاقهم الكريمة ، وذكر ما سوف يلقونه من رحمة الله ورضوانه ونعيمه وثوابه المقيم .

٤ — دعوة الرسول إلى جهاد الكافرين والمنافقين ، وإلى الشدة فى معاملتهم ، وإلى الاحتراس من مكائدهم ، وتحبيب التوبة إليهم ، فإن يتوبوا يك خيراً لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليما فى الدنيا والآخرة ، وما لهم فى الأرض من دون الله من ولى ولا نصير .

الربع السادس من سورة التوبة

٧٥ — وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ .

٧٦ — فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا بِهِۦ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ .

٧٧ — فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

٧٨ — أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ .

هذه الآيات الأربع فى تصوير نفسية طبقة من البخلاء الذين يعطيهم الله من فضله الكثير ، ثم يبخلون بما لهم على الفقراء واليتامى والمساكين ، ويظنون أن المال هو مالهم ، قد جاء من كدهم وتعبهم ، وأنهم لا يمكن أن ينفقوا منه قليلا أو كثيراً ، ولو فى الأبواب التى يدعو الإسلام إلى الإنفاق فيها ، ويضنون بمالهم ، فلا يخرجون زكاته ، ولا يتصدقون بشىء منه على فقير أو مسكين ... يقول الله عز وجل فى هذه الآيات : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن» أى لنتصدقن « ولنكونن من الصالحين » قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن ثعلبة بن حاطب أبطأ عنه ماله بالشام فلحقته شدة، فحلف بالله وهو واقف فى بعض مجالس الأنصار : لئن أتانى الله من فضله لأصدقن ولأؤدين منه حق الله ، والمشهور فى سبب نزول هذه الآية أن ثعلبة بن حاطب الأنصارى قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه ، فراجعه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما لك فى رسول الله أسوة حسنة، فوالذى نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت ، ثم أتاه بعد ذلك ، وقال: يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارزق ثعلبة مالا ، فاتخذ غنما فنمت كما تنمى الدود حتى كثرت ونزل بها واديا من أودية المدينة واشتغل بها حتى صار يصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر، ويصلى فى غنمه باقى الصلوات، ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة ، فصار لا يشهد إلا الجمعة ، ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضا فصار لا يشهد جمعة ولا جماعة ، فكان إذا حان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الأخبار ، فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، فقال : ما فعل ثعلبة ؟ فقالوا : يا رسول الله اتخذ غنما ما يسعها واد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ويح ثعلبة ثلاثا ، فنزلت آية الصدقة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين لأخذ الصدقة ، وكتب

لهما أصناف الصدقة وكيف يأخذان وقال لهما، مرا بثعلبة وخذا صدقاته: فأتياه وسألاه الصدقة وقرآ عليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ماهذه إلا جزية أو أخت الجزية ، انطلقا حتى تفرغا ، ثم عودا إلى ، فانطلقا ، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ثم رجعا إلى ثعلبة ، فقال كمقالته الأولى ولم يدفع إليهما شيئا ، فرجعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبراه بالذى صنع ثعلبة، فأنزل الله تعالى هذه الآية . عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقاربه ثعلبة، فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك ياثعلبة قد أنزل الله تعالى فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم وسأله أن يقبل صدقته ، فقال : إن الله تعالى منعنى أن أقبل صدقتك ، فجعل يحثو على رأسه التراب ، فقال صلى الله عليه وسلم : قد قلت لك فما أطعتنى فرجع إلى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء بها إلى أبى بكر فلم يقبلها، ثم جاء بها إلى عمر أيام خلافته فلم يقبلها ، فلما ولى عثمان أتاه بها فلم يقبلها ، وهلك ثعلبة فى خلافة عثمان رضى الله عنه . . وقد يقال : إن العبد إذا تاب تاب الله عليه فلماذا منع الله تعالى من قبول صدقته ؟ والجواب أن الله تعالى لما قال : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وكان هذا المقصود غير حاصل فى ثعلبة مع نفاقه ، امتنع لهذا السبب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ تلك الصدقة .

وقوله تعالى «فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون» أى منعوا حق الله تعالى « فأعقبهم » أى صير عاقبتهم « نفاقا » متمكنا « فى قلوبهم إلى يوم يلقونه » أى الله يوم القيامة « بما أخلفوا الله ما وعدوه » أى بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدق والصلاح ، لأن الجزاء من جنس العمل « وبما كانوا يكذبون» أى يجددون الكذب دائما مع الوعد أو منفكا عنه، فقد استكملوا النفاق فغدروا وأخلفوا وحدثوا فكذبوا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان « ألم يعلموا » أى المنافقون « أن الله يعلم سرهم ونجواهم » أى ما أسروا

فى أنفسهم من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه « ونجواهم » أى ما تناجوا بينهم من المطاعن فى الدين وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها ، فكيف يتجرأون على النفاق الذى الأصل فيه الاستمرار والتناجى فيما بينهم ، مع علمهم بأن الله تعالى يعلم ذلك من حالهم كما يعلم الظاهر ، وأنه تعالى يعاقب عليه « وأن الله علام الغيوب » والعلام مبالغة فى العلم والغيب ما كان غائبا عن الخلق .

٧٩ — ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

٨٠ — ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ .

فى هاتين الآيتين رد على المنافقين الذين يسخرن من المؤمنين المتصدقين ، وبيان لعذابهم الشديد عند الله، وفيهما تذكير للرسول الأكرم بأن مثل هؤلاء لا يخفف من مسئوليتهم استغفار أحد لهم ، ولو كان الذى يستغفر لهم هو الرسول نفسه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وذلك كله بسبب كفرهم ، وما دل عليه ناموس السماء من أن الفاسقين لايهديهم الله طريقا إلى الخير والعزة ، ولا ينير لهم سبيلا إلى المجد والكرامة ، لأنهم مشغولون بفسقهم ولذاتهم عن عظائم الأمور . قال الله تعالى : « الذين يلمزون » أى يعيبون « المطوعين » أى المتصدقين « من المؤمنين » أى الراسخين فى الإيمان « فى الصدقات والذين لايجدون إلا جهدهم » أى طاقتهم فيأتون به « فيسخرون منهم » أى يستهزئون بهم « سخر الله منهم » أى جازاهم على سخريتهم « ولهم عذاب أليم » على كفرهم، وهذا نوع آخر من أعمال المنافقين القبيحة وهو لمزهم

لمن يأتى بالصدقات ، روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم وحث على الصدقة ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم ، وقال : يا رسول الله مالى ثمانية آلاف جئتك بأربعة آلاف درهم فأجعلها فى سبيل الله ، وأمسكت أربعة آلاف لعيالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله فيما أعطيت وفيما أمسكت، فبارك الله تعالى فى مال عبد الرحمن ابن عوف حتى إنه خلف امرأتين يوم مات ، فبلغ ثمن ماله لهما مائة وتسعين ألف درهم ، وجاء عاصم بن عدى الأنصارى بمال كثير ، وجاء عثمان بن عفان بصدقة عظيمة ، وكذلك فعل أبو عقل الأنصارى ، فلمزهم المنافقون ، وقالوا : ما تصدق عبد الرحمن وعثمان إلا رياء ، وإن الله ورسوله لغنيان عن صالح بن عقيل ، ولكن أحب أن يذكر نفسه ليعطى من مال الصدقات فنزلت « استغفر لهم » أى يا محمد « أولا تستغفر لهم » تخيير للنبى صلى الله عليه وسلم فى الاستغفار وتركه ، قال صلى الله عليه وسلم : إنى خيرت فاخترته ـ يعنى الاستغفار ـ رواه البخارى « إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبى ـ وكان من المخلصين ـ سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض أبيه أن يستغفر له ففعل فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: سأزيد على السبعين ؛ وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم فهم من السبعين العدد المخصوص ، لأنه الأصل لجواز أن يكون ذلك حداً يخالفه حكم ماروزاه، فبين تعالى أن المراد التكثير دون التحديد ، وإنما خص السبعين من العدد بالذكر لأن العرب كانت تستكثر السبعين ، ولهذا كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة رضى الله عنه سبعين تكبيرة ، ولأن آحاد السبعين سبع وهو عدد شريف ، فإن السموات سبع والأرضين سبع والأيام سبع والأقاليم سبع والبحار سبع والنجوم سبع ، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها فى التكثير « ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله » إشارة إلى أن اليأس من المغفرة وعدم قبول استغفار الرسول فى شأنهم ليس لبخل من الله ولا قصور فى الرسول ، بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها « والله

لا يهدى القوم الفاسقين » أى المتمردين فى كفرهم وهو كالتنبيه على عذر النبى صلى الله عليه وسلم فى استغفاره ، وهو عدم يأسه عن إيمانهم ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلال ، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم لقوله تعالى : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » .

٨١ — فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ .

٨٢ — فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ .

٨٣ — فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ .

٨٤ — وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ .

٨٥ — وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ .

٨٦ — وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ

ٱلْقَاعِدِينَ .

٨٧ — رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ .

٨٨ — لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَٰتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ .

٨٩ — أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

فى هذه الآيات التسع الكريمة ذكر لصنيع هؤلاء الذين تخلفوا عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتحلوا شتى المعاذير ليجلسوا فى بيوتهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه يجابهون نار المعركة وشدتها وحدهم ، وقد عظم الله من جريمة التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحرب ، وندد بصنيع هؤلاء المتخلفين ، واستحقاقهم لغضب الله ولعذابه الشديد . . ثم وازن بينهم وبين المؤمنين الصادقين المخلصين فى إيمانهم ، وأشار إلى عظم شأن المؤمنين وإلى جزائهم الكريم وثوابهم العظيم فى الآخرة عند الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « فرح المخلفون » عن غزوة تبوك « بمقعدهم » أى بقعودهم فهو اسم للمصدر « خلاف رسول الله » هذا نوع آخر من قبائح أعمال المنافقين وهو فرحهم بالقعود وكراهتهم الجهاد ، والمخلف : المتروك ممن مضى وهم قد احتالوا حتى تخلفوا ، فكانوا متخلفين لا مخلفين ؛ ولكنهم لما تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خروجه إلى الجهاد مع المؤمنين يوصفون بأنهم تخلفوا حيث لم ينهضوا وأقاموا.. وفى قوله تعالى: « خلاف » قولان : الأول وهو قول الزجاج ، بمعنى مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين ساروا وأقاموا ، قال : وهو منصوب لأنه مفعول له والمعنى : بأن قعدوا لمخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثانى قال الأخفش : إن خلاف

بمعنى خلف ومعناه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم « وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » تعريض للمؤمنين بتحملهم المشاق لوجه الله تعالى بما فعلوا من بذل أنفسهم وأموالهم، وإيثارهم ذلك على السكون والراحة، وكره ذلك المنافقون ، وكيف لا يكرهون وما فيهم ما فى المؤمنين من باعث الإيمان وداعى الإيقان ؟ « وقالوا » أى قال بعض المنافقين لبعض ، أو قالوا : للمؤمنين تثبيطا « لا تنفروا » أى لا تخرجوا إلى الجهاد « فى الحر » وكانت غزوة تبوك فى شدة الحر ، فأجاب الله تعالى عن هذا بقوله تعالى : « قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون» أى يعلمون أن بعد هذه الدار دار أخرى، وأن بعد هذه الحياة حياة أخرى وأن هذه المشقة منقضية وتلك مشقة باقية ما تخلفوا «فليضحكوا قليلا» أى فى الدنيا « وليبكوا كثيراً » أى فى الآخرة ، ورد بصيغة الأمر ومعناه الإخبار بأن ستحصل لهم هذه الحالة . وقليل ذلك «جزاء بما كانوا يكسبون» أى أن ذلك البكاء فى الآخرة جزاء لهم على ضحكهم وأعمالهم الخبيثة فى الدنيا . روى أن أهل النفاق يبكون فى النار عمر الدنيا ، لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم ففرحهم وضحكهم طول أعمارهم فى الدنيا قليل بالنسبة إلى الآخرة ، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية ، روى عن أنس أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا أيها الناس ابكوا فإن لم تستطيعوا فتباكوا ، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء . قال البيضاوى : ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كنايتين عن السرور والغم، والمراد من القلة العدم « فإن رجعك » أى ردك « الله » من غزوه تبوك « إلى طائفة منهم » أى من تخلف بالمدينة من المنافقين، وإنما قال : إلى طائفة منهم ، لأن منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف واعتذر بعذر صحيح ، وقيل : لم يكن المخلفون كلهم منافقين، وأراد بالطائفة المنافقين منهم « فاستأذنوك للخروج » معك إلى غزوة أخرى بعد تبوك « فقل » يا محمد لهؤلاء الذين طلبوا الخروج معك وهم مقيمون على نفاقهم « لن تخرجوا معى أبداً » أى فى سفر من الأسفار ، إن الله تعالى قد

أغنانى عنكم وأحوجكم إلى « ولن تقاتلوا معى عدوا» إخبار بمعنى النهى للمبالغة وقوله تعالى : « إنكم رضيتم بالقعود أول مرة » تعليل لهم ، وأول مرة هى الخرجة إلى غزوة تبوك « فاقعدوا مع الخالفين » أى المتخلفين من الغزو من النساء والصبيان وغيرهم ، قال الرازى : واعلم أن هـذه الآية تدل على أن الرجل إذا ظهر له من بعض إخوانه مكر وخداع ورآه متشدداً فيه مبالغا فى تقرير موجباته فإنه يجب عليه أن يقطع علاقته به وأن يحترز عن مصاحبته .. ولما أمر الله تعالى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنع المنافقين من الخروج معه إلى الغزوات إذلالا لهم، أمره بمنع الصلاة على من مات منهم إذلالا لهم أيضاً لقوله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً » روى أن ابن أبى رأس المنافقين دعا النبى صلى الله عليه وسلم فى مرضه، فلما دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم سأله أن يصلى عليه ، وإذا مات أن يقوم على قبره، ثم أرسل النبى صلى الله عليه وسلم يطلب منه قميصه ليكفن فيه ، فقال عمر رضى الله عنه : لم تعط القميص للرجس النجس؛ فقال صلى الله عليه وسلم : إن قميصى لا يغنى عنه من الله شيئاً ، وإنى أؤمل من الله أن يدخل فى الإسلام ، وأسلم كثير بهذا السبب ، فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما طلب الاستشفاء بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما مات جاء ابنه يعرفه ،وكان ابنه صحابيا مسلما خالصا صالحا ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: صل عليه وادفنه فقال: إن لم تصل عليه يارسول الله لم يصل عليه مسلم ، فقام عليه الصلاة والسلام ليصلى عليه ، فقام عمر رضى الله عنه بينه وبين القبلة . فنزلت هذه الآية.. وأخذ جبريل عليه السلام بثوب النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ ، وهذا يدل على منقبة عظيمة من مناقب عمر رضى الله عنه ، وذلك أن الوحى ينزل وفق قوله فى آيات كثيرة : منها آية أخذ الفدية من أسارى بدر ، ومنها آية تحريم الخمر ، ومنها آية تحويل القبلة ، ومنها آية الحجاب، ومنها هذه الآية؛ فصار نزول الوحى على مطابقة قول عمر منصبا عالياً ودرجة رفيعة له فى الدارين ، ولهذ قال فى حقه عليه الصلاة والسلام : لو لم أبعث لبعثت ياعمر نبيا ، وإنما لم ينه رسول

الله صلى الله عليه وسلم عن التكفين فى القميص ونهى عن الصلاة عليه ؛ لأن الضن بالقميص كانت تخل بالكرم. وكان الله تعالى أمره أن لا يرد سائلا بقوله تعالى : « وأما السائل فلا تنهر » ؛ ولأن ابنه كان بالوصف المتقدم، فأكرمه النبى صلى الله عليه وسلم لأجل ابنه ، ولأن الرأفة والرحمة كانت غالبة عليه صلى الله عليه وسلم، ولأنها كانت مكافأة لإلباسه العباس قميصه حين كان أسر ببدر ، والمراد من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له ، وهو ممنوع فى حق الكافر ، قال البيضاوى : مات أبدا يعنى الموت على الكفر، فإن إحياء الكافر للتعذيب لا للتمتع ، ولا تقم على قبره ، قال الزجاج : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مشى فى جنازة ودفن الميت وقف على قبره ودعاله ، فمنع ههنا منه ، قال الكلبى: لا تقم لإصلاح مهمات قبره ، وهو من قولهم: قام فلان بأمر فلان إذا كفاه أمره وتولاه ، وقيل : لا تقم عند قبره أو زيارة قبره والأول أولى ، لأن النهى للتحريم ؛ ثم أنه تعالى علل المنع من الصلاة عليه والقيام على قبره بقوله تعالى « إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » أى كافرون، يعنى لم يتوبوا قبل موتهم عن كفرهم ، والكافر قد يكون عدلا فى دينه وقد يكون فاسقا ؛ فوصف الله تعالى المنافق بالفسق بعد أن وصفه بالكفر تنبيها على أن طريقة النفاق طريقة مذمومة عند كل أهل العلم، فإن قيل : كيف وقد هم صلى الله عليه وسلم أن يصلى على هذا المنافق مع قيام الكفر فيه ؟ أجيب بأن التكاليف مبنية على قوله صلى الله عليه وسلم : نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ، فلما أعلمه الله تعالى بذلك امتنع فلم يصل على منافق بعد ذلك ولا قام على قبره حتى قبض. « ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » سبق ذكر هذه الآية فى هذه السورة بعينها ، ولكن حصل بينهما تفاوت فى ألفاظ أربعة :

أولها أن فى الآية المتقدمة «فلا تعجبك أموالهم» بالفاء وههنا بالواو، لأن الآية الأولى ذكرت بعد قوله تعالى « ولا ينفقون إلا وهم كارهون» وصفهم بكونهم كارهين للإنفاق وإنما كرهوا ذلك الإنفاق لكونهم معجبين بكثرة

تلك الأموال والأولاد ، فلهذا المعنى نهاه الله تعالى عن ذلك الإعجاب بفاء التعقيب وأما ههنا فلا تعلق لهذا الكلام بما قبله فجاء بحرف الواو .

ثانيها : أنه قال تعالى فى الآية الأولى «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم» وههنا كلمة (لا) محذوفة لأن مثل هذا الترتيب يبدأ فيه بالأقل ثم يترقى إلى الأشرف فيقال : لايعجبنى أمر الأمير ولا أمر الوزير ، وهذا يدل على أنه كان إعجاب أولئك الأقوام بأولادهم فوق إعجابهم بأموالهم . وهذه الآية تدل على عدم التفاوت بين الأمرين عندهم .

ثالثها : أنه تعالى قال هناك : إنما يريد الله ليعذبهم وههنا قال: إنما يريد الله أن يعذبهم ؛ فالفائدة فيه التنبيه على أن التعليل فى أحكام الله تعالى محال وأنه إنما ورد حرف التعليل ، ومعناه أنه كقوله تعالى « وما أمروا إلا ليعبدوا الله » أى وما أمروا إلا بأن يعبدوا الله .

رابعها : أنه ذكر فى الآية الأولى «فى الحياة الدنيا» ، وههنا سقط لفظ «الحياة» تنبيها على أن الحياة الدنيا بلغت فى الخسة إلى أنها لاتستحق أن تسمى حياة ، بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ (الدنيا) تنبيها على كمال دناءتها .

قال الرازى : فهذه وجوه فى الفرق بين هذه الألفاظ ، والعالم بتحقيق القرآن هو الله تعالى، والحكمة فى التكرير أنه أشد الأشياء جذبا وطلبا للخواطر، إلا أن الاشتغال بالدنيا هو الأموال والأولاد ، وما كان كذلك يجب التحذير عنه مرة بعد أخرى ، كما أعاد تعالى قوله فى سورة النساء « إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء» مرتين ، وقيل: إنما كرر هذا المعنى لأن الآية الأولى فى قوم منافقين لهم أموال وأولاد فى وقت نزولها ، وهذه الآية فى قوم آخرين، والكلام الواحد إذا احتيج إلى ذكره مع أقوام كثيرين فى أوقات مختلفة لم يكن ذكره مع بعضهم مغنيا عن ذكره مع آخرين « وإذا أنزلت سورة » يحتمل أن يراد بالسورة سورة براءة لأن فيها الأمر بالإيمان والجهاد «أن آمنوا بالله» أى بأن آمنوا ويجوز أن تكون أن المفسرة «وجاهدوا مع رسوله » أمر المؤمنين بالإيمان يقتضى الأمر بتحصيل الحاصل وهو محال،

وأجيب بأن معناه الدوام على الإيمان والجهاد فى المستقبل ، وقيل : هذا الأمر وإن كان ظاهره العموم لكن المراد به الخصوص وهو المنافقون، أى اخلصوا الإيمان بالله وجاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما قدم الأمر بالإيمان على الأمر بالجهاد. لأن الجهاد بغير إيمان لا يفيد شيئا، ثم حكى الله تعالى أن عند نزول هذه السورة ماذا يقولون فقال تعالى « استأذنك أولو الطول منهم » وقال ابن عباس : يعنى أهل الغنى وهم أهل القدرة والثروة والسعة من المال ورؤساء المنافقين وكبرائهم ، وقالوا » أى أولو الطـــول « ذرنا نكن مع القاعدين » أى الذين قعدوا لعذر كالمرضى والزمنا ، وقيل : مع الصبيان والنساء .. ثم ذمهم الله تعالى بقوله « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف » جمع خالفة أى النساء اللاتى تخلفن فى البيوت ، وقيل: الخوالف صغار الناس وسفلتهم يقال : فلان خالفه قومه إذا كان دونهم ، وإنما خص أولو الطول بالذكر لأن الذم لهم لازم لأجل كونهم قادرين على السفر والجهاد ، وأما من لا مال له ولا قدرة له على السفر فلا يحتاج إلى الاستئذان قال المفسرون : كان يصعب على المنافقين تشبيهم بالخوالف « وطبع » أى وختم « على قلوبهم » أى هؤلاء المنافقين «فهم لا يفقهون » أى لا يعلمون ما فى الجهاد من الفوز والسعادة وما فى التخلف من الشقاوة والهلاك ، ولما شرح الله سبحانه وتعالى حال المنافقين من الفرار عن الجهاد بين حال الرسول والذين آمنوا معه بالضد منه بقوله تعالى « لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم» أى بذلوا المال والنفس فى طلب رضوان الله تعالى والتقريب إليه ، وفى قوله تعالى « لكن » فائدة وهو التقدير أن يخلف هؤلاء المنافقون عن الغزو ، فقد توجه إليه من هو خير منهم وأخلص نية واعتقادا ، كقوله تعالى « إن يكفر بها هؤلاء ، فقد وكلنا بها قوما» ولما وصفهم الله تعالى بالمسارعة إلى الجهاد وصف ماله من الفوائد والمنافع وهو أنواع : أولها ما ذكره الله تعالى بقوله « وأولئك لهم الخيرات » أى منافع الدارين : النصرة والغنيمة فى الدنيا والجنة والكرامة فى الآخرة وقيل: الخيرات الحور العين . لقوله تعالى فيهن «خيرات حسان» ثانيها ما ذكره

الله تعالى بقوله « وأولئك هم المفلحون » أى الفائزون بالمطالب المتخلفون من العقاب والعتاب ، وثالثها ماذكره تعالى بقوله « أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم » هذا بيان ما لهم من الخيرات الأخروية .

٩٠ — وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

٩١ — لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٩٢ — وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ .

فى هذه الآيات الثلاث الكريمة موازنة بين المنافقين المتخلفين عن المعارك وبين المؤمنين الصادقين ، والمعتذرين من المرضى ، وهنا يؤكد الله عز وجل أن الضعفاء والمرضى وغير القادرين على دفع ثمن السلاح والعتاد الذى يذهبون به إلى المعركة لا حرج عليهم فى تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة :

« وجاء المعذرون » أى المعتذرون بمعنى المعذورين من الأعراب إلى النبى صلى الله عليه وسلم « ليؤذن لهم فى القعود لعذرهم فأذن لهم ، واختلف فى هؤلاء المعذرون فقيل : هم أسد وغطفان قالوا : إن لنا عيالا وإن بنا جهداً فأذن لهم فى التخلف ، وقيل : هم رهط عامر بن الطفيل قالوا : إن غزونا معك غارت

أعراب طىء على أهالينا ومواشينا ، فقال صلى الله عليه وسلم : سيقينى الله عنكم ، وقيل : نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله . . وعن قتادة . . اعتذروا بالكذب . والاعتذار فى كلام العرب على قسمين : يقال اعتذر : إذا كذب فى عذره ، ومنه قوله تعالى « يعتذرون اليكم إذا رجعتم إليهم » فرد الله تعالى عليهم بقوله « قل لا تعتذروا » فدل ذلك على فساد عذرهم وكذبهم فيه ، ويقال : اعتذر إذا أتى بعذر صحيح كما فى قول لبيد : ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر ، يريد فقد جاء بعذر صحيح .. وقيل : هو التعذير الذى هو التقصير يقال عذر يعذر إذا حضر ولم يبالغ ، فعلى هذا المعنى يحتمل أنهم كانوا صادقين فى اعتذارهم وأنهم كانوا كاذبين ، ومن المفسرين من قال : إنهم كانوا صادقين بدليل ما يلى: « وقعد الذين كذبوا الله ورسوله » من منافق الأعراب ، قعدوا عن المجىء للاعتذار ، فلما فصل بينهم وميزهم عن الكاذبين دل ذلك على أنهم ليسوا كاذبين ، ويروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه لما قيل له هذا الكلام قال : إن أقواما تكلفوا عذرا بباطل،وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله « وجاء المعذرون » وتخلف آخرون لا لعذر ولا لشبه عذر، جرأة على الله ، وهم المرادون بقوله تعالى:«وقعد الذين كذبوا الله ورسوله..«سيصيب الذين كفروا منهم » أى من الأعراب أو من المعذرين، فان منهم من اعتذر بكسله لا لكفره «عذاب أليم» فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار، ولما بين سبحانه وتعالى الوعيد فى حق من توهم العذر مع أنه لا عذر له ذكر أصحاب الأعذار الحقيقية ، وبين أن تكليف الله تعالى بالغزو والجهاد عنهم ساقط بقوله تعالى « ليس على الضعفاء » كالشيوخ ومن خلق فى أصل الفطرة ضعيفا نحيفا « ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون » فى الجهاد حرج أى إثم فى التخلف عنه ، فنفى سبحانه وتعالى عن أصحاب هذه الأقسام الثلاثة الحرج ؛ فيجوز لهم أن يتخلفوا عن الغزو ، وليس فى الآية بيان أنه يحرم عليهم الخروج ، لأن الواحد من هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بقدر قدرته إما لحفظ متاعهم أو لتكثير سوادهم بشرط أن لا يجعل نفسه كلا ووبالا

عليهم ، كأن ذلك طاعة مقبولة ثم إنه سبحانه وتعالى شرط فى جواز هذا التأخر عن الغزو شروطاً بقوله ، « إذا نصحوا لله ورسوله » فى حال قعودهم بالإيمان والطاعة فى السر والعلانية ، وأن يحترزوا عن إلقاء الإرجافات وعن إثارة الفتن ويسعوا فى إيصال الخير إلى المجاهدين الذين سافروا ، إما أن يقوموا بإصلاح المهمات ، وإما أن يسعوا إلى إيصال الأخبار السارة من بيوتهم إليهم ، فان جملة هذه الأمور جارية مجرى الإعانة على الجهاد ، وقوله تعالى : « ما على المحسنين » هو لبيان إحسانهم وأنه ليس عليهم مسئولية مع إحسانهم « من سبيل » أى طريق إلى ذمهم أو لومهم ، والمعنى أنه سد باحسانه طريق العتاب ، ومن أعظم الإحسان من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مخلصا من قلبه ، فان ما عليه من سبيل فى نفسه وماله لإباحة الشرع بدليل منفصل ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والمحسن هو الآتى بالإحسان ، ورأس أبواب الإحسان ورئيسها هو قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله « والله غفور » أى للذنوب « رحيم » أى بجميع عباده ، وفى ذلك إشارة إلى أن الإنسان محل التقصير وإن اجتهد فلا يسعه إلا العفو . ولما ذكر الله سبحانه وتعالى الضعفاء والمرضى والفقراء ، وبين أنه يجوز لهم التخلف عن الجهاد بشرط أن يكونوا ناصحين لله ورسوله ، وهو كونهم محسنين ، وإنه ليس لأحد عليهم سبيل ، ذكر قسما رابعاً من المعذورين بقوله تعالى « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم » إلى الغزو وهم البكاءون سبعة من الأنصار : معقل بن يسار وصخر ابن خنساء ، وعبد الله بن كعب ، وسالم بن عمير ، وثعلبة بن غنمة ، وعبد الله بن مغفل ، وعلية بن زيد ، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : نريد الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة لنغزو ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أجد ما أحملكم عليه ـ تولوا وهم يبكون ، ولذلك سموا بالبكاءين . وقيل : هم بنو مقرن بن مزينة وكانوا ثلاثة إخوة : معقل وسويد والنعمان ، وقيل : أبو موسى وأصحابه ، وقيل : نزلت فى العرباض بن سارية ويحتمل أنها نزلت فى كل ما ذكر « قلت لا أجد ما أحملكم عليه » حال من

الكاف فى أنوك بإضمار قد ، وقوله تعالى «تولوا» جواب إذا «وأعينهم تفيض» أى تسيل «من الدمع» أى دمعها فاض. ومن للبيان كقولك : أفداك من رجل وهو أبلغ من يفيض دمعها، لأنه يدل على أن العين صارت دمعا فياضا ، وقوله تعالى «حزنا» منصوب على العلة «أن لا يجدوا» أى لئلا يجدوا «ماينفقون» فى الجهاد .

* * *

وبهذا ينتهى الربع السادس من سورة التوبة ، وقد تضمن هذا الربع من الأصول العالية فى الإسلام مايلى :

١ — النعى على طبقات كثيرة من المنافقين وضعاف الإيمان ، ممن يؤمنون بأفواههم ، ولا يتجاوز إيمانهم هذه المنزلة إلى القلب وموطن العقيدة فى نفس الإنسان .

٢ — التنديد بشأن البخلاء الذين يأبون إعطاء الفقراء مالهم من حقوق فيما أعطاهم الله عز وجل من ثراء وغنى : وقد وصف الله عز وجل هؤلاء الأشحاء بأسوأ الأوصاف ، بيانا لنفسيتهم المريضة ، ولشحهم العجيب ، ولحبهم للمال وعبادتهم له من دون الله ، ولانصرافهم المطلق عن الله عز وجل وعن تقواه حق تقاته ، ولجهلهم بأن الله يعلم السر والنجوى ، ويعلم ما تنطوى عليه جوانحهم من كفر وعصيان ، وشح وبخل وتقتير .

٣ — التنديد كذلك بطبقة من المسلمين تعيب على المنفقين فى سبيل الله إنفاقهم وتهون من شأن صنيعهم ، وتدعى تارة أنهم إنما يفعلون ذلك حمقا ، وتارة أنهم إنما يفعلون هذا سفها ، وتارة أخرى أنهم إنما يصنعون ذلك لعدم تقديرهم للمسئولية التى عليهم نحو أبنائهم ، إلى غير ذلك من وجوه العيب التى يلصقونها بهؤلاء المنفقين المتصدقين من الأغنياء والفقراء على حد سواء .

٤ — التنديد أيضا بطبقة من الناس تفر من الجهاد فى سبيل الله ، وتقعد فى بيوتها والناس يتوافدون على ميدان المعركة من كل حدب وصوب ، وتكره

الجهاد بالنفس أو بالمال فى سبيل عزة الإسلام ومجده . وتنتحل شتى الأعذار لعدم الخروج مع قائدهم صلى الله عليه وسلم إلى الميدان ، وإلى ملاقاة أعداء الإسلام وخصومه ، فتارة كانوا يعتذرون بالحر ، وتارة كانوا يدعون المرض وأخرى كانوا ينتحلون شتى الأعذار ليبتعدوا عن مكاره الحرب وشدتها . . صور القرآن الكريم سوء صنيع هؤلاء ، وندد بهم ، وبين سوء مصيرهم فى الآخرة ، وطلب من الرسول عدم قبولهم فى جيش المسلمين المناضل فى سبيل الله والإسلام ، لأنهم دعاة هزيمة ، ومصدر شر وبلاء على الإسلام والمسلمين .. وهنا يصفهم القرآن الكريم بالكفر والفسق والجبن ، والفرار من الحرب ، وليت ذلك كان عن ضعف أو مرض أو عذر صحيح من الأعذار ، بل إنهم كانوا يعتذرون عن طول وقوة وغنى ومال ، راضين بأن يجلسوا فى بيوتهم مع النساء ، فى الوقت الذى كان مصير الإسلام ودعوته يقرر فى ميدان المعركة بين الرسول والمشركين .. شتان بينهم وبين المؤمنين المجاهدين الباذلين أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وممن كتب الله لهم الفوز والخير والنعمة فى الدنيا والآخرة ، وممن كانت الجنة مصيرهم يوم القيامة . . وشتان بين هاتين الطبقتين : طبقـــة المؤمنين بقلوبهم ، وطبقة المؤمنين بألسنتهم ، وانظروا إلى الفرق واضحا جليا ، يجىء أصحاب الأعذار الصحيحة إلى رسول الله ليأذن لهم فى الاشتراك فى المعركة ، ويقعد عن الحرب أمثال هؤلاء المنافقين الكاذبين الذين يكذبون فى ادعائهم الإسلام والإسلام براء منهم .. إن الإسلام يبيح لكل صاحب عذر مقبول من الضعفاء والمرضى ، والذين لا يجدون الأداة اللازمة للاشتراك فى المعركة ، أو لا تجد الدولة لهم مكانا فى الجيش المحارب .. مع بقائهم فى الصفوف الخلفية للمعركة داعين إلى الخير ناصحين لأولى الأمر ، متعاونين مع الدولة فى تقوية الروح المعنوية فى الأمة .

الربع السابع من سورة التوبة

٩٣ — إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَئْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

٩٤ — يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

٩٥ — سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

٩٦ — يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ .

فى هذه الآيات الأربع الكريمة التى يبتدىء بها الربع السابع من سورة التوبة ـ يبين الله عز وجل مسئولية الذين يفرون من الجهاد فى سبيل الله ، ويرضون لأنفسهم القعود مع النساء والأطفال والعجزة والمرضى فى البيوت ونار الحرب مشتعلة من حولهم ، ويحاولون الاعتذار بشتى الأعذار لعدم الاشتراك فى الحرب . . ومثل هؤلاء جدير بالقائد الأكبر أن لا يسمع لهم كلمة ولا يقبل منهم عذرا ، ولا يرضى عن إثم اقترفوه ، وجريمة اكتسبوها ، وشر أقدموا عليه ؛ إن هؤلاء رجس من عمل الشيطان ، ومصيرهم إلى النار ، جزاء لهم على ما اقترفوه من سيئات ، وهم موضع غضب الله ، لأنهم عاصون له

فاسقون خارجون عن رضاته ، والله عزوجل لا يرضى عن القوم الفاسقين . .
يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة الأربع ..

«إنما السبيل» أى إنما يتوجه الطريق بالعقوبة ، والمراد بالسبيل المسئولية « على الذين يستأذنونك » يا محمد فى التخلف عنك والجهاد « وهم أغنياء » أى قادرون على أهبة الخروج معك « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف » استئناف كأنه قيل مالهم: استأذنوا وهم أغنياء ، فقيل : رضوا بالدناءة والضعة والانتظام فى جملة الخوالف وهم النساء والصبيان « وطبع الله على قلوبهم » فلأجل ذلك الطبع وصفهم الله تعالى بقوله « فهم لا يعلمون » أى ما فى الجهاد من منافع الدارين : أما فى الدنيا فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو ، وأما فى الآخرة فالثواب والنعيم الدائم الذى لا ينقطع « يعتذرون » أى هؤلاء المنافقون « إليكم » أى فى التخلف « إذا رجعتم » من الغزو « إليهم » بالأعذار الباطلة ، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له ، ويحتمل أن يكون له وللمؤمنين ، يروى أن الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من المنافقين كانوا بضعة وثلاثين رجلا ، فلما رجع النبى صلى الله عليه وسلم جاءوا يعتذرون إليه بالباطل « قل » لهم يا محمد « لا تعتذروا » بالمعاذير الباطلة « لن نؤمن لكم » أى لن نصدقكم فيما اعتذرتم به « قد نبأنا » أى أعلمنا « الله من أخباركم » أى بعض أحوالكم التى أنتم عليها من الشر والفساد ، لأن الله تعالى إذا أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم يعلمه بأحوالهم وما فى ضمائرهم من الشر والفساد لم يستقم مع ذلك تصديقهم فى معاذيرهم « وسيرى الله عملكم ورسوله » أى أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه « ثم تردون » أى بالبعث « إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » أى الله المطلع على ما فى ضمائركم من الخيانة والكذب وإخلاف الوعد ، وغير ذلك من الخبائث التى أنتم عليها « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم » أى رجعتم « إليهم » من تبوك أنهم معذورون فى التخلف «لتعرضوا عنهم» أى لتصفحوا عنهم فلا تعاتبوهم « فأعرضوا عنهم » أى فدعوهم وما اختاروا لأنفسهم من

النفاق ، قال ابن عباس : يريد ترك الكلام والسلام ، قال مقاتل : قال النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة : لا تجالسوهم ولا تكلموهم ؛ ثم ذكر الله تعالى علة الإعراض عنهم بقوله تعالى «إنهم رجس» أى قذر لخبث باطنهم يجب الاحتراز عنهم وعن رجسهم المعنوى خوفا من سريانه إلى الإنسان ، وحذرا من أن يميل طبعه إلى تلك الأعمال «ومأواهم جهنم» من تمام العلة «جزاء بما كانوا يكسبون» من الأعمال الخبيثة فى الدنيا . . واختلف فيمن نزلت فيه هذه الآية ، فقال ابن عباس : نزلت فى الجد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما ، كانوا ثمانين رجلا من المنافقين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة : لا تجالسوهم ولا تكلموهم ؛ وقال مقاتل: نزلت فى عبدالله بن أبى ، حلف للنبي صلى الله عليه وسلم بالله الذى لا إله إلا هو لا يتخلف عنه بعدها ، وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يرضى عنه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ونزل «يحلفون لكم لترضوا عنهم» أى يحلف لكم هؤلاء المنافقون لترضوا عنهم بحلفهم فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم «فإن ترضوا عنهم» أى فإن رضيتم أيها المؤمنون بما حلفوا لكم وقبلتم عذرهم «فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين» لأنه تعالى يعلم ما فى قلوبهم من النفاق والشك فلا يرضى عنهم ، والمقصود من الآية عدم الرضاء عنهم ، والاغترار بمعاذيرهم ، بعد الأمر بالإعراض عنهم وعدم الالتفات نحوهم .

٩٧ — الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

٩٨ — وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

٩٩ — وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ

لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

١٠٠ — وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

١٠١ — وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ .

فى هذه الآيات الخمس بيان لشأن جماعات من الأعراب ، آمنت بالإسلام نفاقا ، ودخلت فى عقيدته رياء ، وهم أشد الناس جهلا بالإسلام وشرائعه وعقيدته ، بل هم أضن الناس بمالهم عن أن ينفقوه فى سبيل الله والفقراء ، حتى ليعدون أداء الزكاة مغرما ، والصدقة خسارة لا ربحا ، وحتى إنهم ليتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين ، يتمنون من قرارة نفوسهم لله ولدينه ولرسوله وللمسلمين الخذلان والفشل ، وبئسما يتمنون من شر ووبال .. وشتان بين هؤلاء وبين أقوام من المسلمين آمنوا بالله واليوم الآخر ، وأنفقوا من أموالهم فى سبيل الله تقربا إلى الله وإلى رسوله الكريم ، وبين أقوام آخرين آمنوا بالله حق الإيمان ، وأخلصوا له حق الإخلاص ، فكانوا السابقين الأولين إلى الإسلام ، وتبعهم آخرون ورثوا عنهم الإخلاص والإيمان والتقوى والطاعة وورثوا عنهم علمهم وأخلاقهم .. فهؤلاء السابقون من مهاجرين وأنصار ، ومن تبعهم بإحسان ، لهم عند الله الرحمة والرضوان وجنة النعيم ، ولهم الفوز فى الدنيا والآخرة ، وذلك الذى أعده الله لهم فى الدنيا والآخرة هو الفوز العظيم . . شتان بين هؤلاء حقا ، وبين المنافقين من

الأعراب ، والمردة من أهل المدينة على الإسلام ورسوله الكريم ، ممن كانوا أمثلة حية للنفاق ، وممن لم يعلم بجرائمهم الرسول ، وإنما أحاط الله بكل شيء أضمروه فى أنفسهم ، وممن كتب الله لهم العذاب فى الدنيا والآخرة . .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات التى نزلت فى سكان البادية: « الأعراب » أى أهل البدو « أشد كفرا ونفاقا » أى من أهل الحضر لجفائهم وغلظ طباعهم وبعدهم عن أهل العلم ، وقلة استماعهم للكتاب والسنة واستيلاء العاطفة عليهم ، وذلك يوجب مزيد التيه والتكبر والنخوة والفخر والطيش عليهم ، وليسوا تحت سياسة سائس ولا تأديب مؤدب ولا ضبط ضابط فنشأوا كما نشأوا ، ومن كان كذلك كان أشد الناس نفاقا ، وفى اللغة يقال : رجل عربى إذا كان له نسب فى العرب ، وجمعه عرب . ورجل أعرابى بالألف إذا كان بدويا يطلب مساقط الغيث والكلأ وسواء كان من العرب أم من مواليهم ويجمع الأعرابى على الأعراب والأعاريب ؛ والأعرابى إذا قيل له : يا عربى فرح ، والعربى إذا قيل له : يا أعرابى غضب ؛ ومن استوطن القرى العربية فهم عرب ومن نزل البادية فهم أعراب ، والذى يدل على الفرق بينهما أنه صلى الله عليه وسلم قال : حب العرب من الإيمان ، وأما الأعراب فقد ذمهم الله تعالى فى هذه الآية .. وقيل : سموا بالعرب لأن ألسنتهم معربة عن ضمائرهم ، ولا شك أن اللسان العربى مختص بأنواع الفصاحة والجزالة لا يوجد فى سائر الألسنة . قال الرازى : ورأيت فى بعض الكتب عن بعض الحكماء قال : حكمة الروم فى أدمغتهم ، وذلك لأنهم يقدرون على التركيبات العجيبة ، وحكمة الهند فى أذهانهم ، وحكمة اليونان فى أفئدتهم، وذلك لكثرة مالهم من المباحث العقلية ، وحكمة العرب فى ألسنتهم ، وذلك لحلاوة ألسنتهم وعذوبة عباراتهم ، ثم حكم الله تعالى على الأعراب بحكم آخر فقال تعالى : « وأجدر » أى أحق وأولى « أن » أى بأن « لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » من الأحكام والشرائع فرائضها وسننها « والله عليم » بما فى قلوب عباده « حكيم » فيما فرض من فرائضه وأحكامه « ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق » فى سبيل

الله تعالى « مغرما » أي غرامة وخسرانا ، والغرامة ما ينفقه الرجل وليس يلزمه لأنه لاينفقه إلا تقية من المسلمين ورياء ، لا لوجه الله تعالى وابتغاء المثوبة عنده ، وهم أسد وغطفان « ويتربص » أي ينتظر « بكم الدوائر » أي دوائر الزمان أن تنقلب عليكم ، فيموت النبي صلى الله عليه وسلم ويظهر المشركون ، قال الله تعالى : « عليهم دائرة السوء » دعاء عليهم وهو اعتراض بين كلامين : دعاء عليهم بنحو ما دعوا به ، قال الله تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم » . . . أي يدور عليهم البلاء والحزن ولا يرون في محمد صلى الله عليه وسلم ودينه وأصحابه إلا ما يسوؤهم ويكيدهم « والله سميع » لأقوالهم « عليم » بما في ضمائرهم ؛ ولما بين سبحانه وتعالى أنه حصل في الأعراب من يتخذ إنفاقه في سبيل الله مغرما ، ذكر أيضاً من يتخذ إنفاقه في سبيل الله تعالى مغنما في قوله تعالى « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر » كبعض جهينة ومزينة ، فوصفهم الله تعالى بوصفين : كونهم مؤمنين بالله وباليوم الآخر ، ولا بد في جميع الطاعات من تقديم الإيمان ، والثاني ما ذكره بقوله تعالى « ويتخذ ما ينفق قربات » جمع قربة أي يقربه « عند الله وصلوات » أي دعوات « الرسول » صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان يدعو للمصدقين عنده بالخير والبركة ، ويستغفر لهم ، كقوله صلى الله عليه وسلم: اللهم صل على آل أبي أوفى ، قال تعالى : وصل عليهم أي ادع لهم . ولما كان ما ينفق سبباً لذلك ، قيل : يتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول « ألا إنها » أي نفقاتهم « قربة لهم » عند الله ، وهذه شهادة من الله تعالى للمؤمن المتصدق الواثق بصحة ما اعتقد من كون نفقاته قربات عند الله وصلوات الرسول .. وقد أكد تعالى هذه الشهادة بحرف التنبيه ، وهو قوله تعالى « ألا » وبحرف التحقيق وهو قوله تعالى « إنها » ، ثم زاد في التأكيد فقال تعالى « سيدخلهم الله في رحمته » فإن دخول السين توجب مزيد التأكيد ، وهذه النعمة هي أقصى مرادهم « إن الله غفور » أي بليغ الستر لمعاصي من تاب « رحيم » بهم .

ولما ذكر تعالى فضائل الأعراب الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله ، وما أعد لهم من الثواب ، بين تعالى أن فوق منزلتهم منازل أعلا وأعظم بها بقوله تعالى « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » أما من المهاجرين فقال سعيد بن المسيب : هم الذين صلوا إلى القبلتين ، وقال عطاء بن رباح : هم أهل بدر ، وقال الشعبي : هم أهل بيعة الرضوان ، وقال محمد بن كعب : هم جماهير الصحابة ، وقيل : هم الذين أسلموا قبل الهجرة ، واختلف في أول الناس إسلاما ، وأول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعض العلماء : أول من أسلم بعد خديجة علي بن أبي طالب ، وهذا قول جابر ، واختلفوا في سنه وقت إسلامه : فقيل : كان ابن عشر سنين ، وقيل: أقل من ذلك ، وقيل : أكثر ، وقيل : كان بالغا ، والأكثرون على أنه لم يكن بالغا وقت إسلامه ، وقال بعضهم : أول من أسلم بعد خديجة أبو بكر الصديق ، وهذا قول ابن عباس ، وقال بعضهم : أول من أسلم بعد خديجة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا قول عروة بن الزبير ، وكان إسحق بن إبراهيم يجمع بين هذه الروايات فيقول : أول من أسلم من الرجال أبو بكر ، ومن النساء خديجة ، ومن الصبيان علي ، ومن الموالي زيد ابن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهؤلاء الأربعة هم السباقون في الخلق إلى الإسلام ، وأما من الأنصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الأولى وكانوا ستة نفر ، ثم العقبة الثانية من العام المقبل ، وكانوا اثنى عشر رجلا ، ثم أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلا ، فهؤلاء هم السباقون إلى الإسلام من الأنصار ، وقيل : المراد بالسابقين الأولين من سبق إلى الهجرة والنصرة ، ويدل على هذا أنه تعالى ذكر كونهم سابقين ولم يبين أنهم سابقون بأى شيء ، فبقي اللفظ مجملا ، فوجب صرف ذلك اللفظ إلى ما وضع له إجمالا ، وما به قد صاروا مهاجرين وأنصاراً ، وهو الهجرة والنصرة ، فوجب أن يكون المراد منه السابقين الأولين في الهجرة والنصرة إزالة للإجمال عن اللفظ . وأيضا فإن الهجرة طاعة عظيمة ومرتبة عالية ومنقبة شريفة ؛ لأنهم نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه

وآووه وواسوه وآووا أصحابه وواسوهم ؛ فلذلك أثنى الله تعالى عليهم ومدحهم « والذين اتبعوهم » أى الفريقين إلى يوم القيامة « بإحسان » أى فى اتباعهم فلم يحولوا عن شىء من طريقتهم ، وقال عطاء : هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار ويترحمون عليهم ويدعون لهم ويذكرون محاسنهم ، وقيل : بقية المهاجرين سوى السابقين الأولين ، وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسبوا أصحابى ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، والمد ربع الصاع ، والنصيف نصفه ، والمعنى لو أن أحداً عمل ما قدر عليه من أعمال البر والإنفاق فى سبيل الله ما بلغ هذا القدر الصغير من عمل الصحابة وإنفاقهم لأنهم أنفقوا وبذلوا المجهود فى وقت الحاجة .. وعن عمران بن حصين أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، قال عمران : فلا أدرى أذكر بعده قرنين أم ثلاثا ، والقرن الأمة من الناس يقارب بعضهم بعضا ، واختلفوا فى مدته من الزمان ، فقيل : من عشر سنين إلى عشرين سنة ، وقيل : ثلاثون وقيل : أربعون ، وقيل : من مائة إلى مائة وعشرين سنة . ثم جمعهم الله تعالى فى الثواب فقال « رضى الله عنهم » والسابقون مرفوع بالابتداء وخبره « رضى الله عنهم » أى رضى عنهم بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم « ورضوا عنه » بما أفاض عليهم من نعمه الجليلة فى الدنيا والآخرة « وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » أى هى كثيرة المياه فكل موضع أردته نبع منه ما يجرى منه نهر « خالدين فيها » وقد أكد المراد من الخلود بقوله تعالى « أبدا » ثم استأنف مدح هذا الذى أعده لهم بقوله تعالى « ذلك » أى الأمر العالى الرتبة « الفوز العظيم » أى الذى ليس هناك فوز مثله ..

ولما شرح تعالى أحوال منافقى المدينة ثم ذكر بعده أحوال منافقى الأعراب ، ثم بين أن فى الأعراب من هو مؤمن صالح مخلص ، وبين رضاءه على رؤساء المؤمنين منهم ، وهم السابقون من المهاجرين والأنصار ، ذكر جماعة من حول المدينة موصوفون بالنفاق بقوله تعالى « وممن حولكم » أى أهل بلدتكم

وهى المدينة « من الأعراب منافقون » وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها « ومن أهل المدينة » عطف على « ممن حولكم » ويجوز أن يكون جملة مستأنفة أى ومن أهل المدينة قوم « مردوا على النفاق » . . .

وقال الزجاج : فى الآية تقديم وتأخير ، والتقدير : وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق ، أى ثبتوا واستمروا فيه ولم يتوبوا عنه ، « لاتعلمهم » بأعيانهم أى يخفون عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق فراستك ، لفرط توقيهم ما يشكك فى أمرهم ، ثم هددهم وبين خسارتهم بقوله تعالى « نحن نعلمهم » أى لايعلمهم إلا الله تعالى ولا يطلع على سرهم غيره ؛ لأنهم يبطنون الكفر فى قلوبهم إبطانا ويبرزون لك ظاهرا كظاهر المخلصين من المؤمنين لاتشك معه فى إيمانهم . وذلك أنهم مردوا على النفاق ومرنوا عليه فلهم فيه اليد الطولى ، واختلفوا فى تفسير قوله تعالى « سنعذبهم مرتين » فقال الكلبى والسدى : قام النبى صلى الله عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة فقال: اخرج يافلان فإنك منافق، اخرج يافلان فإنك منافق ، اخرج يافلان فإنك منافق ، فأخرج من المسجد جماعة من المنافقين وفضحهم ، فهذا هو العذاب الأول ، والثانى عذاب القبر ، فالله تعالى أعلم بهم ؛ وقال مجاهد : الأول : القتل والسبى ، والثانى : عذاب القبر ، وقال ابن زيد : الأول المصائب فى الأولاد والثانى عذاب الآخرة ، وقال ابن عباس : الأول إقامة الحدود عليهم والثانى عذاب القبر ، وقيل: عذبوا بالجوع مرتين،وقيل : الأول ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم ، والثانى عذاب القبر ، وقيل: الأول إحراق مسجدهم مسجد الضرار ، والثانى إحراقهم بنار جهنم ، كما قال تعالى « ثم يردون » أى فى الآخرة « إلى عذاب عظيم » هو النار ؛ وقد يصح أن تقول: إن العذاب الأول هو فضح أسرارهم وكشف نفاقهم أمام الناس ، والعذاب الثانى هو نصر الله عز وجل للإسلام وخذلانه لهم .

١٠٢ — وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

١٠٣ — خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

١٠٤ — أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

١٠٥ — وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

١٠٦ — وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

فى هذه الآيات الخمس الكريمة يتحدث الله عز وجل عن طبقتين من الناس فى عهد الرسالة ؛ طبقة أخطأت ثم أقرت بالخطأ وتابت منه ، نافقوا واعتذروا عن القتال والحرب ، ولكنهم ندموا على مافعلوا وتابوا وأنابوا ورجعوا إلى الله ، وخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، وهؤلاء قبول توبتهم مرجعه إلى الله عز وجل ، والله غفور رحيم ، وقد أمروا بالصدقة تكفيرا لذنوبهم ، وتطهيرا لنفوسهم ، وتزكية لقلوبهم ، وأمر الرسول العظيم بأن يستغفر لهم ، ويدعو لهم بالمغفرة والرحمة والرضوان ؛ ومثل هؤلاء جديرون بالتفاؤل والأمل وبرضاء الله عنهم ، وتوبته عليهم ، وعفوه عن جرائمهم ؛ وجديرون أيضا بالعمل بالإسلام وشريعته ووفق مبادئه ، مما يؤدى بالمسلم إلى الخير والفوز فى الآخرة والأولى .

أما الطبقة الثانية فهى التى لم تتب إلى الله ، فأمرهم بيد الله عز وجل ، إما أن يعذبهم أو يتوب عليهم ، والله عليم حكيم . .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة :

« وآخرون » أى وقوم آخرون « اعترفوا بذنوبهم » أى ولم يعتذروا

من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة « خلطوا عملا صالحا » أى وهو جهادهم قبل ذلك واعترافهم بذنوبهم ، أو غير ذلك « وآخر سيئا » أى وهو تخلفهم « عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم » يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه . وقد نزلت هذه الآية فى طائفة من المتخلفين عن غزوة تبوك ، واختلف فى عددهم : فعن ابن عباس أنهم كانوا ثلاثة عشر ، وروى عنه أنهم كانوا خمسة، وقال سعيد بن جبير : كانوا ثمانية ، وقيل : كانوا ثلاثة ، ندموا لما بلغهم نبأ المتخلفين وتابوا ، وقالوا : نكون فى الظلال ومعنا النساء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الجهاد واللواء ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره وقرب من المدينة قالوا : والله لنوقعن أنفسنا بالسوارى فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقها ويعذرنا ، فربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد على عادته فى رجوعه من سفره ، فصلى ركعتين فرآهم فسأل عنهم فذكر له أنهم أقسموا لايحلوا أنفسهم حتى تحلهم وترضى عنهم- فقال:وأنا أقسم أن لاأحلهم حتى أؤمر بإطلاقهم ، رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين ، فأنزل الله هذه الآية ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وأطلقهم وعذرهم، فلما أطلقوا قالوا : يارسول الله هذه أموالنا وإنما تخلفنا عنك بسببها خذها فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : ماأمرت أن آخذ من أموالكم شيئا، فأنزل الله تعالى: « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم» من الذنوب وحب المال المؤدى إلى مثله ،وتجرى لهم مجرى الكفارة ، هذا قول الحسن كان يقول : ليس المراد من هذه الآية الصدقة الواجبة وإنما هى كفارة الذنب الذى صدر ، ويدل عليه أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلث أموالهم ، والصدقة الواجبة لايؤخذ منها ثلث المال « وتزكيهم » أى وتنمى « بها » حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين « وصل عليهم » أى واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم ، والسنة أن يدعو عند أخذ الصدقة : آجرك الله فيما أعطيت وجعله لك طهورا وبارك لك فيما أبقيت « إن صلاتك سكن لهم »

اى تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم لأن روحه صلى الله عليه وسلم كانت روحا قوية مشرقة صافية باهرة . فاذا دعا صلى الله عليه وسلم لهم وذكرهم بالخـــير فاضت آثار من قوة روحه على أرواحهم ، وصفت أسرارهم ، وانتقلوا من الظلمة إلى النور ، ومن الجسمانية إلى الروحانية ، فحصل لهم بذلك غاية الطمأنينة وقيل : إن هذه الآية كلام مبتدأ والمقصود منها إيجاب أخذ الزكاة من الأغنياء، وعليه أكثر الفقهاء إذ استدلوا لهذه الآية على إيجاب الزكاة « والله سميع» لأقوالهم واعترافهم ودعائك لهم «عليم» بندامتهم ونياتهم..

* **

وقد تعرضت هذه الآيات لأحداث غزوة تبوك ، وكان الرسول الكريم أمر الناس أن يتهيأوا لغز الروم ، وكانت أيام عسرة وضيق وشدة من الحر وجدب فى البلاد ، وكان النبي إذا هم بمباشرة حرب لم يصرح بذكر المكان الذى يقصده ، أما فى هذه الحرب ضد الروم ، فإنه قد بينها صراحة للناس ، ليعرفوا طريقهم ، ويعدوا عدتهم لمواجهة عـدوهم الكثير العدد ، واجتمع المنافقون قبل مسير الجيش فقالوا لأنفسهم : لاتخرجوا فى هذه الحرب لشدة الحر علينا ، وكان ذلك منهم زهدا فى الجهاد وشكا فى الحق ، فنزلت آيات كريمة فى لعنهم ومقتهم . . وحض النبي أغنياء المسلمين على معاونة المجاهدين، فبذل المسلمون أموالهم وحملوا المقاتلين على رواحلهم احتسابا لوجه الله ، وجاء عثمان بن عفان فوضع فى حجرة رسول الله ألف دينار لينفقها على المجاهدين ويجهز بها من كان منهم فى عسرة ، فقال النبي : اللهم ارض عن عثمان فإنى راض عنه . وجاء إلى النبي سبعة رجال من المجاهدين يبكون إذ لم يجدوا الدواب التى تحملهم إلى ميدان القتال وكانوا فى شدة وحاجة ، فقال لهم النبي : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون ؛ فنزل فيهم القرآن ثناء عليهم كما نزل بشأن الذين تخلفوا عن الجهاد من المنافقين ؛ وترك النبي على بن أبى طالب فى المدينة ليرعى أهله ، وأمره بالإقامة بينهم فتكلم فيه المنافقون ، وقالوا : إن النبي تركه استثقالا له وتخفيفاً عن نفسه ، فتألم على من هذا الإرجاف ، فحمل سلاحه ولحق برسول الله ،

وكان على ثلاثة أميال من المدينة فقال له : يا رسول الله، زعم المنافقون أنك خلفتني لأنك أردت أن تخفف عن نفسك عبئي ، فقال له : لقد كذبوا ولكنني خلفتك لمن تركت ورائي ، فارجع فاخلفني فى أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا على أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى ، فعاد على إلى المدينة راضياً . ورجع من الطريق رجل من كبار المسلمين أسمه أبو خيثمة فقد عاد إلى أهله فى يوم شديد الحر، فوجد زوجين له فى عريشين لهما داخل بستان وقد رشت كل واحد منهما عريشها وبردت لزوجها فيه الماء وهيأت له طعاما ، فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى زوجتيه وما صنعتا له ، فداخله الحياء من الله وقال : أيكون رسول الله يعاني لهيب الحر وقسوته وتلفحه الريح برمضائها وأقيم أنا فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء ، ما هذا بحلال ، والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله . . ثم ركب راحلته وسار حتى جاس بين يدى رسول الله وقص عليه ما وقع منه ومارآه فدعا له بخير ، وتخلف عن ركب النبي كثيرون أعوزتهم الحاجة إلى ما يركبونه لشدة الضيق والعنت ، فكان الناس يقولون : يارسول الله ، لقد تخلف فلان فيقول : دعوه فإن يك به خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه . . وكان من أصحاب النبي رجل من صلحاء المسلمين اسمه أبو ذر فقال الناس : يا رسول الله قد تخلف أبو ذر فقال : دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه، وكان أبو ذر قد ركب بعيراً ضعيفا فأبطأ به عن الناس ؛ فخاف أن يفوته الجهاد فترك البعير وحمل متاعه على ظهره ثم خرج يتبع أثر النبي ماشيا ، فنظر بعض الناس فرأوا رجلا يمشي على الطريق وحده فخبروا به النبي ، فقال : كن أبا ذر ، فلما قرب وتأمله الناس ، قالوا : هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده . فحدث للرجل ما قاله النبي .

فلما بلغ النبي تبوك وهى من بلاد شرق الأردن قدم عليه يوحنا بن رؤبة

حاكم مدينة أيله ، وهي ثغر العقبة فصالح رسول الله وأعطاه الجزية. وقدم عليه أهل جرباء وأذرح فأعطوا الجزية، فكتب النبي لهم عهداً بذلك . ودخلت على المسلمين السنة التاسعة للهجرة ، وقد عاد النبي من قتال الروم بتبوك واستقر بالمسلمين الأمر . قال أبو موسى رضي الله عنه : أرسلني أصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله أن يحملهم إذ هم معه في جيش العسرة وهي غزوة تبوك ، فقلت : يا نبي الله إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم ، فقال : والله لا أحملكم على شيء، ووافقته وهو غضبان ولا أشعر، ورجعت حزيناً من منع النبي صلى الله عليه وسلم، ومن مخافة أن يكون النبي وجد في نفسه علي فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالا ينادي: أي عبد الله بن قيس فأجبته ، فقال : أجب رسول الله يدعوك. فلما أتيته قال: خذ هذين القرينين لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد ، فانطلق بهن إلى أصحابك فقل : إن الله ، أو قال: إن رسول الله ، يحملكم على هؤلاء فاركبوهن، فانطلقت إليهم بهن فقلت : إن النبي يحملكم على هؤلاء ، ولكني والله لا أدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ، لا تظنوا أني حدثتكم شيئاً لم يقله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا لي: والله إنك عندنا لمصدق ولنفعلن ما أحببت ، فانطلق أبو موسى بنفر منهم حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله منعه إياهم ثم إعطاءهم بعد ، فحدثوهم بمثل ما حدثهم به أبو موسى .

وممن تخلف عن الغزوة كعب بن مالك رضي الله عنه ، قال : لم أتخلف عن رسول الله في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك ، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها . وكان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى

كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله فى حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدوا كثيرا. فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذى يريد، والمسلمون مع رسول الله كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له مالم ينزل فيه وحى الله، وغزا رسول الله تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئا، فأقول فى نفسى: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بى حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله والمسلمون معه، ولم أقض من جهازى شيئا، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل بى حتى أسرعوا، وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتنى فعلت فلم يقدر لى ذلك، فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله فطفت فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق، أو رجلا ممن عذر الله تعالى من الضعفاء، ولم يذكرنى رسول الله حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بنى سلمة: يا رسول الله حبسه برداه ونظره فى عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئس ماقلت والله يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا، فسكت رسول الله، قال كعب بن مالك: فلما بلغنى أنه توجه قافلا حضرنى همى فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا؟ واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى، فلما قيل: إن رسول الله قد أظل قادما، زاح عنى الباطل، وعرفت أنى لن أخرج منه أبدا بشىء فيه كذب، فأجمعت صدقه وأصبح رسول الله قادما، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى فجئته، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: تعال، فجئت أمشى حتى جلست

بين يديه فقال لى: ما خلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟فقلت: بلى والله يارسول الله ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه إنى لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لى من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك ، فقمت ، وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به المتخلفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ، فوالله مازالوا يؤنبونى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى أحد ؟ قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمرى وهلال بن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لى، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا ، حتى تنكرت فى نفسى الأرض ، فما هى التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله صلى الله عليه سلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى فسلمت عليه ، فوالله ما رد على السلام ، فقلت : يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله فسكت ، فعدت له فنشدته

فسكت، فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار ، قال : فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلنى على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له ، حتى إذا جاءنى دفع إلى كتابا من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد فقد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسيك ، فقلت لما قرأتها : وهذا أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرته بها ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى فقال : إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال : لا بل اعتزلها ولا تقربها ، وأرسل إلى صاحبى مثل ذلك ،فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ، قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ، فقالت يا رسول الله : إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا ، ولكن لا يقربك، قالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء ، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، فقال لى بعض أهلى: لو استأذنت رسول الله فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ، وما يدرينى ما يقول رسول الله إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ؛ فلبثت بعد ذلك عشر ليال ، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله عن كلامنا ، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال الذى ذكر الله تعالى قد ضاقت على نفسى ، وضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، قال فخررت ساجدا ، وعرفت أن قد جاء فرج وأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبى مبشرون ، وركض إلى رجل فرساً وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته

يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلقانى الناس فوجا فوجا يهنونى بالتوبة ، يقولون : لتهنك توبة الله عليك ، قال كعب : حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنانى ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا ، بل من عند الله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرفه ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول : إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ، قلت : فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر ، فقلت يا رسول الله إن الله إنما أنجانى بالصدق ، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت ؛ فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلانى ، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا كذباً ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت ، وأنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم «لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار - إلى قوله - وكونوا مع الصادقين » ، فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى الله للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد ، فقال الله عز وجل : «سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم - إلى قوله - فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين» ».

ذكر الله سبحانه وتعالى حديث القوم الذين تقدم ذكرهم وأنهم تابوا عن

ذنوبهم وأنهم تصدقوا ، ولم يذكر إلا قوله « عسى الله أن يتوب عليهم » ، وما كان ذلك صريحا فى قبول توبتهم ، ومن أجل ذلك ذكر بعد ذلك أنه يقبل التوبة وأنه سبحانه وتعالى يأخذ الصدقات ترغيبا لكل العصاة فى الطاعة بقوله تعالى « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ » أى يقبل « الصدقات » والضمير إما للمتوب عليهم ، والمراد أن يمكن فى قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقاتهم ، وإما لغيرهم ، والمراد به التخصيص عليها ، والآية وإن وردت بصيغة الاستفهام إلا أن المراد بها التقرير فى النفس . ومن عادة العرب فى إفهام المخاطب وإزالة الشك عنه أن تقول : أما علمت أن من علمك يجب عليك خدمته ؟ أما علمت أن من أحسن إليك يجب عليك شكره ؟ فبشر الله تعالى هؤلاء التائبين ، أما الذين لم يتوبوا من المتخلفين فهؤلاء كانوا لا يكلمون ولا يجالسون ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ترغيبا لهم فى التوبة ، ثم زاد أمرهم تأكيدا بقوله تعالى « وأن الله هو التواب الرحيم » أى وأن من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم ؛ وفى هذا تعظيم أمر الصدقات وتشريفها وأن الله يقبلها من عبده . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من عبد يتصدق بصدقة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا طيبا ولا يصعد إلى السماء إلا الطيب ، إلا يضعها فى يد الرحمن عز وجل فيربيها له كما يربى لأحدكم فلوه ، حتى إن اللقمة لتأتى يوم القيامة وإنها كمثل الجبل العظيم ، ثم قرأ « إن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات » ، « وقل اعملوا » أى وقل لهم أو للناس يا محمد : اعملوا ما شئتم « فسيرى الله عملكم » فإنه لا يخفى عليه شىء خيراً كان أو شراً .. وفيه ترغيب عظيم للمطيعين ووعيد عظيم للمذنبين ، فكأنه قال : اجتهدوا فى العمل فإن الله تعالى يرى أعمالكم ويجازيكم عليها «و» يرى أيضا «رسوله والمؤمنون» أعمالكم .. وأما رؤية النبى صلى الله عليه وسلم فباطلاع الله تعالى إياه على أعمالكم ، وأما رؤية المؤمنين فبما يقذف الله تعالى فى قلوبهم من محبة الصالحين وبغض المفسدين «وستردون إلى عالم الغيب والشهادة» أى وسترجعون يوم القيامة إلى من يعلم سركم

وعلانيتكم ولا يخفى عليه شيء من أعمال بواطنكم وظواهركم « فينبئكم » أى فيخبركم « بما كنتم تعملون » من خير وشر فيجازيكم على أعمالكم ، واعلم أن الله تعالى قسم المتخلفين عن الجهاد ثلاثة أقسام : أولهم المنافقون الذين مردوا على النفاق، والثانى: التائبون وهم المرادون بقوله تعالى «وآخرون اعترفوا بذنوبهم» وبين أنه تعالى قبل توبتهم ، والقسم الثالث: الذين بقوا موقوفين وهم المذكورون فى قوله تعالى : « وآخرون » أى من المتخلفين « مرجون » أى مؤخرون عن التوبة « لأمر الله » أى لحكم الله تعالى فيهم ، والفرق بين القسم الثانى وبين هذا أن أولئك سارعو إلى التوبة وهؤلاء لم يسارعوا إليها ، قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى كعب بن مالك ومرارة بن ربيع وهلال بن أمية تخلفوا كسلا وميالا إلى الراحة لا نفاقا ، ولم يعتذروا إلى النبى صلى الله عليه وسلم « إما يعذبهم » بأن يميتهم من غير توبة « وإما يتوب عليهم » إن تابوا ، وقد يقال : إن كلمة أما وإما للشك والله تعالى منزه عن ذلك ، والجواب أن الترديد بالنسبة للعباد ، أى ليكن أمرهم عندكم على هذا فى الخوف والرجاء ، فإن الله تعالى لا يخفى عليه خافية ، وفى هذا دليل على أن كلا الأمرين بإرادة الله تعالى « والله عليم » بأحوال عباده « حكيم » فيما يفعل بهم وقد مضت قصة كعب وزميليه ، وسيأتى ذكر لها عند قوله تعالى : « وعلى الثلاثة ، الذين خلفوا » .

١٠٧ — وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

١٠٨ — لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ

أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ .

١٠٩ — أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

١١٠ — لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

يندد الله عز وجل فى هذه الآيات الأربع الكريمة بطبقة من المسلمين فى عهد الرسالة اتخذوا مسجداً لهم وأخذوا يعقدون فيه الاجتماعات لشن الإشاعات ضد الرسول والمؤمنين ، والطعن فى الرسالة والرسول ، وللفرقة بين المسلمين ، ولتدبير الدسائس والمكائد ، ولإعلان الحرب الداخلية فى صفوف المجتمع الإسلامى الجديد . . وقد أمر الرسول الأعظم بأن يتجنب هؤلاء ، ويتجنب الذهاب إلى مسجدهم هذا ، فإنما يسعى الرسول إلى المساجد التى أقيمت على الخير ، وبنيت لجمع كلمة المسلمين ، وأسست على التقوى . . وهنا يضرب الله عز وجل المثل واضحا جليا ، رائعا بليغا لهؤلاء وهؤلاء ، للمؤمنين والمنافقين ، للذين بنوا بيوت الله عالية للعبادة ولنشر الإسلام ، ولتمكن كلمة المسلمين ، وللذين بنوها لتفريق كلمة المسلمين ، وتمزيق وحدتهم ، وبث الفرقة والعداء والخصومة فى صفوفهم ، وللدس للإسلام والمسلمين ولصاحب الرسالة ، فالأولون بناؤهم مؤسس على تقوى من الله ورضوان ، وعملهم لهم منه الثمرة الطيبة المرجوة ، ولهم منه الخير والفوز والفلاح ، والآخرون بناؤهم قد أسس على الرمال فلا يلبث أن ينهار ، وأن يقذف بهم فى نار جهنم حيث العذاب الشديد ، وسوء المصير ، والعاقبة الأليمة الدامية . . .

ولما ذكر تعالى أصناف المنافقين وطرائقهم المختلفة قال تعالى « والذين

اتخذوا مسجدا ، قال ابن عباس : هم اثنا عشر رجلا من المنافقين بنوا مسجدا، ضرارا ، أى مضارة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ، وكفرا ، أى وتقوية للنفاق ، وقال ابن عباس : يريد به ضرارا للمؤمنين وكفرا بالنبي صلى الله عليه وسلم والإسلام ، وتفريقا بين المؤمنين ، لأنهم كانوا جميعاً يصلون بمسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم ، فيؤدى ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة ، وإرصادا ، أى ترقبا ، لمن حارب الله ورسوله ، وهو أبو عامر ولد أبي حنظلة الذى غسلته الملائكة ، وكان قد ترهب فى الجاهلية وتنصر ولبس المسوح ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة عاداه لأنه زالت رياسته ، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما هذا الذى جئت به ؟ قال : جئت بالحنيفية دين إبراهيم عليه السلام ، قال له أبو عامر : أنا عليها ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : إنك لست عليها ، فقال له أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً غريباً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : آمين ، وسماه من الفاسقين ، فلما كان يوم أحد قال أبو عامر : لاأجد قوما يقاتلون إلاقاتلتك معهم ، ولم يزل يقاتله إلى يوم حنين ؛ فلما انهزمت هوازن خرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من القوة والسلاح ، وابنوا لى مسجدا فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه ، فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء وانتظروا مجيء أبي عامر ليصلي بهم فى ذلك المسجد ، من قبل ، أى حارب من قبل أن يسافر هؤلاء بالتخلف ، ولما وصف تعالى هذا المسجد بهذه الصفات الأربعة قال تعالى ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، أى وليحلفن ما أردنا ببنائه إلا الغاية الحسنى وهى الرفق بالمسلمين فى التوسعة على أهل الضعف والقلة والعجز عن المصير إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المظلمة والشاتية ، والله يشهد إنهم لكاذبون ، فى قولهم .

ولما بنى المنافقون ذلك المسجد للأغراض الفاسدة عند ذهاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك . وقالوا يارسول الله : بنينا مسجدا لذى العلة والليلة المطيرة والشاتية، ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو لنا فيه بالبركة، فقال صلى الله عليه وسلم: إنى على جناح سفر وحال شغل، وإذا قدمنا إن شاء الله تعالى صلينا فيه؛ فلما رجع صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد نزل قوله تعالى « لا تقم فيه أبدا » قال ابن عباس معناه : لا تصلى فيه أبدا ، وقال الحسن : هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذهب إلى ذلك المسجد فنادى جبريل : لا تقم فيه أبدا ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشى فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه ، فخرجوا جميعا سريعا ، حتى أتوا بنى سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك : أنظرونى حتى أخرج لكم بنار من أهلى ، فدخل إلى أهله فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجوا يشتدون حتى دخل المسجد وفيه أهله فهدموه وأحرقوه وتفرق عنهم أهله ، وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ ذلك الموضع كناسة تلقى فيه الجيف والقمامة ، ومات أبو عامر الراهب بالشام وحيداً فريداً غريباً ، وقيل: كل مسجد بنى لرياء أو سمعة او لغرض سوى ابتغاء وجه الله تعالى أو بمال غير طيب فهو ملحق بمسجد الضرار ، وعن عطاء : لما فتح الله تعالى الأمصار على عهد عمر رضى الله عنه أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأن لا يتخذوا فى مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه «لمسجد» أى والله لمسجد على تقدير قسم « أسس » أى وضع أساسه وقواعده « على التقوى » أى تقوى الله تعالى « من أول يوم » أى من أول أيام وجوده . لأن « من » تعم الزمان والمكان أى فأحاطت به التقوى ؛ لأنها إذا أحاطت بأوله أحاطت بآخره « أحق » اى أولى ان تصلى فيه « أن » أى بأن « تقوم » أى تصلى « فيه » واختلف فى هذا المسجد الذى أسس على التقوى ، فقيل : هو مسجد المدينة ، قاله زيد بن ثابت وأبو سعيد الخدرى ، قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت

بعض نسائه فقلت : يا رسول الله أى المسجد أسس على التقوى قال : فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض ، ثم قال : هو مسجدكم هذا مسجد المدينة ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى . . وقيل : هو مسجد قباء ، قاله سعيد بن جبير وقتادة ، أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام قيامه بقباء وهو يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وخرج يوم الجمعة ، ويدل على هذا القول قوله تعالى : « فيه رجال يحبون أن يتطهروا » أى من المعاصى والخصال المذمومة طلبا لمرضاة الله تعالى عليهم « والله يحب المطهرين » أى يثيبهم ويرضى عنهم ويدينهم من جنابه ، روى أنها لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء ، فإذا الأنصار جلوس ، فقال المؤمنون : أنتم ، فسكت القوم ثم أعادها ، فقال عمر : يارسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : أترضون بالقضاء ؟ فقالوا : نعم ، قال : أتصبرون على البلاء ؟ قالوا نعم ، قال عليه الصلاة والسلام : مؤمنون ورب الكعبة ، فجلس ثم قال : يا معشر الأنصار إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فى الذين تصنعون ، وروى ابن خزيمة فى صحيحه عن ابن ساعدة أنه صلى الله عليه وسلم أتاهم فى مسجد قباء فقال : إن الله تعالى قد أحسن إليكم الثناء فى الطهر ، وفى قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذى تطهرون به ؟ قالوا : يا رسول الله ، والله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون فغسلنا كما غسلوا ، وقيل : كانوا لا ينامون الليل على الجنابة ، ويتبعون الماء أثر البول ، وعن الحسن : هو التطهر من الذنوب بالتوبة ، « فمن أسس بنيانه » أى بنيان دينه « على تقوى من الله ورضوان » أى على قاعدة قوية محكمة وهى الحق الذى هو تقوى الله ورضوانه « خير أم من أسس بنيانه شفا » أى طرف « جرف » أى جانب « هار » أى على قاعدة هى أضعف القواعد وأقلها بقاء ، وهو الباطل والنفاق الذى مثله مثل شفا جرف هار أى مشرف على السقوط « فانهار به » أى سقط

بيانيه « فى نار جهنم » وهذا تمثيل للبناء على ضد التقوى بما يؤول إليه ، والاستفهام للتقرير .. والأول خير ، وهو مثال مسجد قباء ، والثانى مثال مسجد الضرار ، قال الرازى : ولا ترى فى العالم مثالا أحسن مطابقة لأمر المنافقين من هذا المثال ، وحاصل الكلام أن أحد البناءين قصد بانيه ببنيانه تقوى الله ورضوانه ، والبناء الثانى قصد بانيه المعصية والكفر فكان البناء الأول شريفا واجب الإبقاء وكان الثانى خسيسا واجب الهدم ؛ قيل : حفرت بقعة فى مسجد الضرار فرؤى الدخان يخرج منها « والله لا يهدى القوم الظالمين » أى إلى ما فيه صلاح ونجاح « لا يزال بنيانهم الذى بنوا » أى بناؤهم الذى بنوه ، وهو مصدر كالغفران والمراد هنا المبين ، وإطلاق لفظ المصدر على المفعول مجاز مشهور يقال : صنعة الفنان ونسج العامل ، أى مصنوعه ومنسوجه « ريبة » أى شكا «فى قلوبهم» والمعنى : إن بناء ذلك البنيان صار سببا لحصول الريبة فى قلوبهم ، فجعل نفس ذلك البنيان ريبة ، وإنما جعل سببا للريبة لأن المنافقين فرحوا ببناء مسجد الضرار ، فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه عظم خوفهم فى كل الأوقات ، وصاروا مرتابين فى أنهم هل يتركهم على ما هم فيه أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم ؛ وقال الكلبى : صار حسرة وندامة لأنهم ندموا على بنائه ، وقال السدى : لا يزال هدم بنائهم ريبة أى حرارة وغيظا فى قلوبهم « إلا أن تقطع قلوبهم » قطعا إما بالسيف وإما بالموت أو ندما وأسفا « والله عليم » بأحوالهم وأحوال عباده « حكيم » فى الأحوال التى يحكم بها عليهم وعلى غيرهم . .

* * *

وبهذا ينتهى الربع السابع من سورة التوبة ، وهو مطلع الجزء الحادى عشر من القرآن الكريم .. وقد تضمن هذا الربع من الأصول ما يلى :

١ — الإعفاء من الاشتراك فى الجيش الإسلامى المحارب يكون للمرضى ، وللذين لا يليقون للعمل الحربى الشاق من الضعفاء ، وللذين لا يجدون المال أو العتاد اللازم لهم وهم فى المعركة ، عندما كانت الدولة لا تتكفل بنفقات

المحاربين وعتادهم ، أما اليوم فالدولة هى المسئولة عن كل ذلك . أما القادرون الأقوياء الذين يطيقون للعمل العسكرى ، فإن اشتراكهم فى الأعمال الحربية واجب ، كل حسب طاقته واستعداده ، فلا إعفاء لهم ، إنما عليهم واجب الدفاع عن الوطن الإسلامى ، فإذا حاولوا الاعتذار والتخلف عن الانضمام لجيش المسلمين فإن عليهم مسئولية كبرى ، أمام الله والملائكة والناس ، وأمام الحاكم الإسلامى العام . . واعتذارهم قبل المعركة أو بعد المعركة شىء لا يؤبه به ، فهو اعتذار كاذب ، لا يعول عليه . . ومثل هؤلاء موضع غضب الله فى الدنيا ، وعذابه الشديد فى الآخرة ، وهم غير أهل لرضاء الله ورسوله والمسلمين عنهم .

٢ — التنديد بروح الجاهلية التي كانت ـ وما زالت ـ مسيطرة على الأعراب فى عهد الرسالة ، وبما كانوا عليه من نفاق وكفر ؛ وبروح الشر والفهم الخاطىء للإسلام ، مما كان مسيطرا عليهم من مثل ذهابهم إلى أن الزكاة مغرم لا فائدة له ، ومن مثل تربصهم الدوائر بالإسلام العظيم وبرسوله الكريم ، وهم الذين سوف تحل بهم الدائرة . . فأين هؤلاء من الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر ، وآمنوا بالبعث والحساب والنشور ، وآمنوا بأن ما ينفقون من مال فى سبيل الله فهو قربات لهم عند الله ورحمته ، ولهم عليه الثواب الكريم ؛ وأين هؤلاء من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن الذين اتبعوهم بإحسان ، ممن كتب لهم الرحمة والمغفرة ، وأعد لهم الجنة ثوابا من عند الله ، خالدين فيها أبداً ، وذلك هو الفوز العظيم .

٣ — كشف القناع عن وجوه المنافقين من الأعراب حول المدينة ، ومن أهل المدينة ، ممن لهم العذاب الشديد فى الدنيا ، عذابهم بفضيحتهم وفضيحة نفاقهم وكشف أسرارهم أمام الناس ، وعذابهم بإظهار الإسلام وبخذلانهم هم خذلانا شديداً وهزيمتهم هزيمة منكرة ، وبانقطاع آمالهم فى انتصار خصوم الإسلام ومحاربيه ومقاومى دعوته التحررية العظمى .

٤ — الرحمة بالذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، ممن اعترفوا بذنبهم

وتقصيرهم ، وأقروا بالمسئولية عليهم ، وعسى الله أن يتوب عليهم ، وواجب عليهم أن يعملوا على تطهير أنفسهم وأرواحهم ، وعلى تزكية قلوبهم وجوارحهم ، بإخراجهم الزكاة والصدقات للفقراء والمساكين ؛ ودعوات الرسول لهم بالرحمة والمغفرة سبب خير وصلاح فى الدنيا والآخرة ، ووسيلة اطمئنان وهدوء لأنفسهم القلقة المتعبة المكدودة . . والله غفور رحيم ، وهو الذى يقبل عن عباده ، وهو التواب الغفور .. إن هؤلاء قد سكن القرآن من قلقهم ، ودعاهم إلى التوبة ، وإلى إخراج الصدقات تطهيراً وتزكية ، وإلى العمل ، العمل الخالص لوجه الله ، فسيرى الله ورسوله والمؤمنون عمل العاملين ، وسيردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئهم بما كانوا يعملون .

٥ — ذكر طائفة من المتخلفين عن رسول الله فى غزوة تبوك ، أمرهم مفوض إلى الله ، إما أن يعذبهم ، وإما أن يتوب عليهم ، والله عليم بأمرهم ، حكيم فى وضع الجزاء لهم ، وهؤلاء ممن لم يبادروا إلى التوبة ، ولم يسرعوا إلى الإنابة ..

٦ — التنديد مرة أخرى بفريق من المنافقين بنوا مسجدا وجعلوه مركزاً لمقاومة الإسلام ودعوته ، والدس على الرسول ورسالته ، وشتان بين هؤلاء وبين الذين بنوا المساجد للعبادة وشيدوها على التقوى ، وقاموا فيها للعبادة ، مخلصين لله ، منيبين إليه ، مطيعين لرسوله صلى الله عليه وسلم ..

الربع الثامن من سورة التوبة

١١١ — إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

١١٢ — ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

هاتان الآيتان الكريمتان هما مطلع الربع الثامن من سورة التوبة ، وفيهما حث على الجهاد فى سبيل الله ، وتعظيم أمره ، وأمر المجاهدين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله ، وكتب الله لهم الجنة ، جزاء استشهادهم فى سبيل نشر الإسلام ، ورد كيد خصومه .. لقد باعوا الله أنفسهم وأموالهم، ومنحهم الله الجنة ، جزاء قتالهم فى سبيله، والجنة أغلى جزاء، وقد وعد الله بها الشهداء فى جميع الكتب السماوية المقدسة ؛ والشهداء أهل لهذا الجزاء الكريم ، فاستشهادهم ينطوى على معان جليلة : من التوبة والعبادة والحمد والإخلاص لله ، ولا شك أن هؤلاء الذين أقدموا على الاستشهاد فى سبيل الله هم من التوابين العابدين الحامدين السائحين الراكعين الساجدين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، والحافظين لحدود الله ، وهؤلاء لهم البشرى ، فهم مؤمنون حقا ، والبشرى للمؤمنين ...

ولما تقدم الإنكار على المتثاقلين عن الجهاد فى سبيل الله فى قوله تعالى : « مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله» الآية ثم الجزم فى الجهاد بالنفس والمال فى قوله تعالى « انفروا خفافا وثقالا » الآية .. ذكر فضيله الجهاد وحقيقته فى قوله تعالى « إن الله اشترى » أى بعهود أكيدة ومواثيق غليظة شديدة « من المؤمنين » بالله ورسوله وبما جاء من عند ربه «أنفسهم» التى تفرد بخلقها « وأموالهم » التى تفرد برزقها وهو يملكها دونهم ، وقدم النفس إشارة إلى أهمية بيع النفس والتضحية بها .. ولما ذكر البيع أتبعه الثمن بقوله تعالى « بأن لهم الجنة » روى أن الأنصار لما بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفسا قال عبد الله بن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ماشئت ، فقال : اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، ولنفسى أن تمنعونى بما تمنعون به أنفسكم

وأموالكم قالوا :فإذا فعلنا ذلك فمالنا ؟ قال: الجنة، قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل، فنزلت . ومر أعرابى على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرؤها ، فقال الأعرابى: كلام من؟ قال عليه الصلاة والسلام: كلام الله عز وجل، فقال الأعرابى: والله بيع مربح لا نقيله ولا نستقيله ، فخرج إلى الغزو فاستشهد .. وقال الحسن : واسمعوا الله بيعة رابحة وكفة راجحة ، بايع الله تعالى بها كل مؤمن والله ما على الأرض مؤمن إلا وقد دخل فى هذه البيعة ، والمراد بالأموال إنفاقها فى سبيل الله وعلى أنفسهم وأهليهم وعيالهم فى جميع وجوه البر والطاعة ، والمراد على أية حال من الأحوال هو بذل النفس والتضحية بها فى سبيل الله ودينه « يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون » هـذا بيان لحالهم ولعظمة بذلهم «وعدا عليه حقا» أخبر الله تعالى بأن هذا الوعد الذى وعده للمجاهدين فى سبيله وعد ثابت « فى التوراة » كتاب موسى عليـه السلام « والإنجيل » كتاب عيسى عليه السلام « والقرآن » أى قد أثبته فيهما كما أثبته فى القرآن ، الـكتاب الجامع لـكل ما قبله « ومن أوفى بعهده من الله » أى لا أحد أوفى منه سبحانه ، لأن الإخلاف لا يقدم عليه الـكرام من الناس فكيف بخالقهم الذى له الغنى المطلق « فاستبشروا » أى فافرحوا غاية الفرح « ببيعـكم الذى بايعتم به » فإنه أوجب لـكم أعظم الغايات وهو دخول الجنة « وذلك هو الفوز العظيم » .. و هذه الآية مشتملة على أنواع من التأكيدات :

أولها قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » بكون المشترى هو الله المقدس عن الـكذب والخيانة ، وذلك من أجل الدلائل على تأكيد هذا العهد .

ثانيها أنه تعالى عبر عن إيصاله هـذا الثواب بالبيع والشراء ، وذلك حق مؤكد .

وثالثها قوله تعالى : « وعد الله » ووعد الله تعالى حق .

ورابعها قوله تعالى : « عليه » وكلمة (على) للوجوب .

خامسها قوله تعالى : « حقا » وهو لتأكيد التحقيق .

سادسها قوله تعالى : «فى التوراة والإنجيل والقرآن» وذلك يجرى مجرى إشهاد جميع الكتب الإلهية وجميع الأنبياء والرسل على هذه المبالغة .

سابعها قوله تعالى : «ومن أوفى بعهده من الله» ؟ وهو غاية فى التأكيد .

ثامنها قوله تعالى : «فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به» وهو أيضاً مبالغة فى التأكيد .

تاسعها قوله تعالى : «وذلك هو الفوز» .

وعاشرها قوله تعالى : «العظيم» ، فثبت اشتمال هذه الآية على هذه الوجوه العشرة فى التأكيد والتقرير والتحقيق .

ولما بين الله تعالى فى هذه الآية أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بين أن أولئك المؤمنين هم الموصوفون بهذه الصفات التسعة الآتية : «التائبون» مرفوع على المدح أى هم التائبون ، أى المذكورون فى قوله تعالى : «إن الله اشترى من المؤمنين» أى التائبون عن الكفر هم الجامعون لهذه الخصال ، والتائبون هنا تشمل التوبة من كل المعصية ، والتوبة إنما تحصل عند أربعة أمور : أولها احتراق القلب عند صدور المعصية ، ثانيها الندم على ما مضى ، ثالثها العزم على الترك فى المستقبل ، رابعها أن يكون الحامل له على هذه الأمور الثلاثة طلب رضوان الله تعالى وعبوديته ، فإن كان غرضه منها دفع مذمة الناس وتحصيل مدحهم أو لغرض من الإغراض الدنيوية فليس صاحبها بتائب ، ولا بد من من رد المظالم إلى أهلها إن كانت .. «العابدون» أى الذين أخلصوا العبادة لله ، وقال الحسن : هم الذين عبدوا الله فى السراء والضراء ، «الحامدون» هم الذين يقومون بحق شكر الله تعالى على نعمه دينا ودنيا ويجعلون إظهار ذلك عادة لهم ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم : أول من دعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله السراء والضراء «السائحون» اختلف فى المراد منهم فقال ابن عباس : هو الصوم ، قال صلى الله عليه وسلم : سياحة أمتى الصيام ؛ وعن الحسن : إن هذا صوم الفرض ؛ وقيل : الذين يديمون الصيام ، قال الأزهرى : قيل للصائم سائح

لأن الذى يسيح فى الأرض متعبدا لا زاد معه كان ممسكا عن الأكل والصيام ممسك عن الأكل ، فلهذه المشابهة يسمى الصائم سائحا، وقال عطاء : السائحون الغزاة فى سبيل الله ، وروى عن عثمان بن مظعون أنه قال يا رسول الله : إئذن لنا فى السياحة فقال : إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله ، وقال عطاء : السائحون هم طلاب العلم ، والسياحة أمر عظيم فى تكميل النفس لأنه يلقى أفاضل مختلفين فيستفيد من كل واحد فائدة مخصوصة ، وهى تنمى من ثقافة الإنسان وعقله ، وتوسع مداركه وتجاربه فى الحياة ؛ فالسياحة لها أثر قوى فى الدين «الراكعون الساجدون» أى المصلون ، وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأن بهما يتميز المصلى عن غيره بخلاف حالة القيام والقعود، لأنهما حالة المصلى وغيره ، ولأن القيام أول مراتب التواضع لله تعالى، والركوع وسطها والسجود بالذكر لدلالتها على غاية التواضع والعبودية ، تنبيها على أن المقصود من الصلاة نهاية الخضوع والتعظيم «الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر» أى الآمرون بالإيمان والطاعة والناهون عن الشرك والمعصية ، ودخول الواو فى «والناهون» عن المنكر للدلالة على أنه بما عطف عليه فى حكم صفتين لا صفة واحدة ، فكأنه قال : الجامعون بين الوصفين «والحافظون لحدود الله» أى لأحكامه بالعمل بها، والمقصود أن تكاليف الله تعالى كثيرة وهى محصورة فى نوعين : أحدهما ما يتعلق بالعبادات ، والثانى ما يتعلق بالمعاملات ، فإن قيل : ما الحكمة فى أن الله تعالى ذكر تلك الصفات الثمانية على التفصيل ، ثم ذكر عقبها سائر أقسام التكاليف على سبيل الإجمال فى هذه الصفة الأخيرة ؛ فالجواب عن ذلك أن التوبة والعبادة والاشتغال بتحميد الله والسياحة والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمور لا ينفك المكلف عنها فى أغلب أوقاته ؛ فلهذا ذكرها الله تعالى على سبيل التفصيل ، وأما البقية فقد ينفك المكلف عنها فى أكثر أوقاته مثل أحكام البيع والشراء مثلا «وبشر المؤمنين» حذف الله تعالى المبشر به للتعظيم ، فكأنه قيل : وبشرهم بما يجل عنه إحاطة الأفهام وتعبير الكلام :

١١٣ — مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ.

١١٤ — وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ.

١١٥ — وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

١١٦ — إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ.

فى هذه الآيات الأربع الكريمة بيان لعظم جريمة الشرك والمشركين ، وأنهم ليسوا أهلا لرضاء الله ولا لرحمته ، ولا لدعاء الرسول لهم بالمغفرة والرضوان ، مهما بلغت منزلتهم من قلب الرسول ومن القرابة له . . . وهنا يرشد الله ورسوله الكريم بأن الكفار ليسوا أهلا لاستغفاره هو ولا لاستغفار المؤمنين ، ويرد على الشبهة التى يمكن أن تعترض هذا الإرشاد وذلك النهى الإلهى ، وهى استغفار إبراهيم لأبيه وقد كان مشركا ، فبين الله عز وجل أن استغفاره لأبيه كان عن موعدة وعدها إياه . . ويقرر الله عز وجل أن مثل هذا الإرشاد لابد منه للرسول وللمؤمنين ، لأن الله لا يترك المسلمين بعد إذ هداهم إلى الإسلام حتى يبين لهم وجوه المشكلات وصواب الرأى فيها ، وما أعظم قدرة الله ، وما أجل ملكه ، فله ملك السموات والأرض ، وبيده الحياة والموت ، وليس لأحد من دون الله من ولى ولا نصير . . .

واختلف فى سبب نزل قوله تعالى : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى » عن سعيد بن المسيب عن أبيه أن هـذا نزل فى شأن أبى طالب ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء لعمه أبى طالب لما حضرته الوفاة فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية ، فقال : أى عم ، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل ، وعبد الله بن أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان عليه إلى تلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : أنا على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، قال صلى الله عليه وسلم: لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك ، فنزلت هذه الآيات ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال سول الله صلى الله عليه وسلم لعمه : قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة ، قال : لو لا إنى أخاف أن تعيرنى قريش ، يقولون : إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك ، فأنزل الله تعالى : «إنك لا تهدى من أحببت» الآية ، وقال بريدة : لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف عليه حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له يستغفر لها ، فنزل قوله تعالى « ما كان » الآية ، وقال أبو هريرة: زار النبى صلى الله عليه وسلم قبر أمه آمنة فبكى وأبكى من حوله ، وقال : استأذنت ربى أن أستغفر لها فلم يأذن لى ، واستأذنته أن أزورها فأذن لى ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت ؛ وقال قتادة : قال النبى صلى الله عليه وسلم : لأستغفرن لأبى كما استغفر إبراهيم لأبيه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت له : تستغفر لهما وهما مشركان ؟ فقال : استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه وهو مشرك ، فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ، وروى الطبرانى بسنده عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجالا قالوا يا نبى إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الرحم ويفك العانى ، أفلا نستغفر لهم؟ فقال صلى الله عليه وسلم : والله لأستغفرن لأبى كما استغفر إبراهيم لأبيه ، فأنزل الله تعالى :

« ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى » .. « من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » أى بأن ماتوا على الكفر ، قال البيضاوى : وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم فإنه طلب توفيقهم للإيمان ، وبهذا دفع النقض باستغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه الكافر فقال « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه » أى وعدها إبراهيم إياه بقوله « لأستغفرن لك » أى لأطلبن المغفرة لك بالتوفيق للإيمان فإنه يقطع ويمحو ما قبله ، وقرىء : وعدها أباه « فلما تبين له أنه عدو لله » بأن مات على الكفر أو أوحى إليه أنه لن يؤمن « تبرأ منه » أى قطع استغفاره « إن إبراهيم لأواه » أى كثير التطوع والدعاء « حليم » أى صبور على الأذى ، والجملة بيان لسر ما حمله على الاستغفار لأبيه مع صعوبة خلق أبيه عليه « وما كان الله ليضل قوما » أى يفعل بهم ما يفعل بالضالين من العقوبة لأجل ارتكابهم المنهى عنه « بعد إذ هداهم » أى للإسلام « حتى يبين لهم » بيانا شافيا « ما يتقون » أى ما يجب اتقاؤه « إن الله بكل شيء عليم » أى بالغ العلم فهو يبين لكم ما تأتون وما تذرون مما يتوقف عليه الهدى ، وما يتركه الله تعالى فإنما يتركه رحمة لهم ، لا يضل ربى ولا ينسى « إن الله له ملك السموات والأرض » فلا يخفى عليه شيء ، فهو خبير بكل ما ينفعكم أو يضركم « يحيى ويميت » أى يحيى من يشاء على الكفر أو الإيمان ويميته عليه لا اعتراض لأحد عليه فى حكمه وعبيده « وما لكم » أيها الناس « من دون الله » أى غيره « من ولى » يحفظكم منه « ولا نصير » يمنع عنكم الضر .

١١٧ — لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

١١٨ — وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ

بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

فى هاتين الآيتين الكريمتين يبين الله عز وجل أنه قد شمل برحمته ومغفرته رسوله الصادق الأمين ، ومن آمن به وأخلص لدعوته من المهاجرين والأنصار ، الذين وقفوا مع الرسول فى الشدة ، واتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد الزيغ يصل إلى قلوب فريق منهم ، ومن بعد ما شكوا فى عون الله ونصره ، كما شمل كذلك برحمته ومغفرته هؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، وضاقت عليهم الأرض بسبب جرمهم وذنبهم وتخلفهم عن الجهاد فى سبيل الله ، فتاب الله عليهم ، وغفر لهم ذنبهم ، وكتب لهم رحمته .. يقول الله عز وجل فى هاتين الآيتين : « لقد تاب الله » أى أدام توبته « على النبى والمهاجرين والأنصار » وافتتح الله تعالى الكلام بذكر توبته على النبى صلى الله عليه وسلم لأنه كان سبب توبتهم ، فذكره معهم ، كقوله تعالى : « فإن لله خمسه وللرسول » ونحوه ، وقيل : هو بعثه على التوبة ؛ والمعنى : ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة حتى النبى صلى الله عليه وسلم والمهاجرون والأنصار لقوله تعالى : وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ، وفى هذا إظهار لفضل التوبة وأنها مقام الأنبياء والصالحين من عباده « الذين اتبعوه فى ساعة العسرة » أى فى وقت العسرة ، لم يرد ساعة بعينها ، وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة ، والجيش المشترك فيها يسمى جيش العسرة ، والعسرة الشدة ، فكانت عليهم عسرة فى الزاد والماء والعتاد ، قال الحسن : كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يتعقبونه ، يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك ، وكان زادهم التمر والشعير ، وكان النفر يخرجون ما معهم إلا التمرات اليسيرة بينهم ، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه فيمصها ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى

يأتى على آخرهم ولا يبقى من التمرة إلا النواة ، فمضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم على صدقهم ويقينهم رضى الله عنهم وأرضاهم ورضى عنا بهم ، وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك فى قيظ شديد ، فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد ، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع ، حتى إن الرجل كان يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع ، فقال أبو بكر : يا رسول الله إن الله تعالى قد عودك بالدعاء خيراً فادع الله تعالى ؛ قال : أتحب ذلك ؟ قال نعم ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فلم يرجعا حتى أظلت السماء ثم سكبت فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر « من بعد ما كاد تزيغ » أى قرب أن تميل « قلوب فريق منهم » أى هم بعضهم عند تلك الشدة أن يفارق النبي صلى الله عليه وسلم لكنه صبر واحتسب ، ولم يرد الميل عن الدين ولا الهرب من المعركة ، فلذلك قال الله تعالى « ثم تاب عليهم » لما صبروا وثبتوا وندموا على ذلك الأمر العسر ، وقد ذكر الله تعالى التوبة أولا ثم ذكرها ثانيا ، لأن الله تعالى ذكر التوبة أولا قبل ذكر الذنب تفضلا منه وتطييبا لقلوبهم ، ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى تعظيما لشأنهم وليعلموا أنه تعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم « إنه بهم رءوف رحيم » هاتان صفتان لله تعالى ومعناهما متقارب ، فالرأفة هى رقة القلب والسعى فى إزالة الضر ، والرحمة هى تشبع عواطف الإنسان بحب الخير والمثل الشريفة وسعيه فى إيصال المنفعة للناس « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » أى عن غزوة تبوك ، وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع ، وهذه الآية معطوفة على الآية الأولى ، والتقدير: لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ؛ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، وفائدة هذا العطف بيان قبول توبتهم ، وهؤلاء الثلاثة كلهم من الأنصار ، وهم المذكورون فى قوله تعالى « وآخرون مرجون لأمر الله » . « حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت » أى مع رحبها أى سعتها فلا يجدون مكانا يطمئنون إليه « وضاقت عليهم أنفسهم » أى قلوبهم

بالغم والوحشة أى بتأخير توبتهم ، فلا يسعهم سرور ولا أنس « وظنوا » أى أيقنوا « أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم » أى وفقهم للتوبة « ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » وعن أبى بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح ، فقال : أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه ، كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه .

١١٩ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ .

١٢٠ — مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ .

١٢١ — وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

فى هذه الآيات الثلاث دعوة للمؤمنين بتقوى الله وبصدق الإيمان ، بل بالصدق فى كل شىء ، ودعوة لأهل المدينة بالوقوف بجانب الرسول العظيم صفا واحداً فى سبيل نشر الإسلام وحمايته والتمكين له ، ومقاومة خصومه ، فكل ما ينالهم فى هذا السبيل من تعب ونصب وتضحية ومشقة فأجره على الله ، والله يجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون ، وهم المحسنون ، والله لا يضيع أجر المحسنين . الجهاد فى سبيل الإسلام فرض محتوم ، وواجب مقدس ، لأنه جهاد فى سبيل تقدم الإنسانية وحضارتها وازدهارها ، وجهاد فى سبيل المثل العليا الشريفة فى الحياة ، وجهاد فى سبيل المبادىء الجليلة التى ينطوى عليها

معنى خلافة الإنسان لله فى الأرض ، وجهاد فى سبيل العقيدة الصالحة التى هى صرح سعادة وأمن وسلام للبشر وللإنسان وللعالم جميعا ؛ والجهاد فى سبيل حماية الإسلام واستمرار دعوته ، والمحافظة على شرف رايته ، هو جهاد من أجل الله ورسوله ، ومن أجل الخير والحق والعدل والسلام ، ومن أجل دين الله الحق ، دين المرحمة ، ودين القيمة ، ودين الحرية والإخاء والمساواة . .

ولما حكم الله بقبول توبة هؤلاء الثلاثة ذكر ما يكون كالزاجر عن مثل فعل ما مضى وهو التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد بقوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله » بترك معاصيه « وكونوا مع الصادقين » أى مع النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة رضى الله عنهم أجمعين فى الغزوات ولا تكونوا متخلفين عنها وجالسين مع المنافقين فى البيوت ، وقيل : كونوا مع الذين صدقوا فى الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالأعذار الباطلة الكاذبة ، وقيل (مع) بمعنى (من) أى وكونوا من الصادقين .. وفى الآية دلالة على فضيلة الصدق وكمال درجته ، ويدل عليه أيضا أشياء كثيرة منها ما روى عن بن مسعود أنه قال : عليكم بالصدق فانه يقرب إلى البر والبر يقرب إلى الجنة ، وإن العبد ليصدق فيكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يقرب إلى الفجور والفجور يقرب إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا ، ألا ترى أنه يقال : صدقت وبررت وكذبت وفجرت . . ومنها ما روى أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال: أريد أن أؤمن بك إلا أنى أحب الخمر والزنا والسرقة والكذب ، والناس يقولون : إنك تحرم هذه الأشياء ولا طاقة لى على تركها فإن قنعت منى بترك واحدة منها ، فقال صلى الله عليه وسلم : أترك الكذب فقبل ذلك ثم أسلم ، فلما خرج من عند النبى صلى الله عليه وسلم عرضوا عليه الخمر فقال : إن شربت وسألنى النبى صلى الله عليه وسلم وكذبت فقد نقضت العهد ، وإن صدقت أقام على الحد فتركها ، ثم عرضوا عليه الزنا فجاء ذلك الخاطر فتركه وكذا فى السرقة ، فعاد إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : ما أحسن ما فعلت ، لما

منعتنى عن الكذب انسدت أبواب المعاصى على .. ومنها ما قيل فى قوله تعالى حكاية عن إبليس : فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، لأن إبليس إنما ذكر هذا الاستثناء ، لأنه لولم يذكره لصار كاذبا فى ادعاء إغواء الكل، فكأنه استنكف عن الكذب فذكر هذا الإستثناء ، وإذا كان الكذب شيئاً يستنكف منه إبليس لعنه الله تعالى فالمسلم أولى أن يستنكف منه . . ومنها قول ابن مسعود : الكذب لا يصلح فى جد ولا هزل ولأن لا يعد أحدكم أخاه خير له من أن يعده ثم لا ينجز له .. اقرأوا إن شئتم : وكونوا مع الصادقين » ما كان « أى ما صح وما يبقى بوجه من الوجوه « لأهل المدينة » أى دار الهجرة ومعدن النصرة « ومن حولهم » أى فى جميع نواحى المدينة الشريفة « من الأعراب » أى سكان البوادى ، وهم مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار، وقيل : عام فى كل الأعراب لأن اللفظ عام وحمله على العموم أولى « أن يتخلفوا عن رسول الله » أى عن السير معه إلى المعركة وقوله تعالى « ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » أى بأن يصونوها عما رضيه لنفسه عليه الصلاة والسلام من الشدائد . . « ذلك » أى النهى عن التخلف « بأنهم » أى بسبب أنهم « لا يصيبهم ظمأ » أى عطش « ولا نصب » أى تعب « ولا مخمصة » أى مجاعة « فى سبيل الله » أى فى طريق دينه « ولا يطأون » أى يدوسون موطئاً مصدر وطأ أى مكان وطء « يغيظ » أى يغضب الكفار أى وطؤهم له بأرجلهم ودوابهم « ولا ينالون من عدو نيلا » أى قتلا أو أسرا أو غنيمة أو هزيمة أو نحو ذلك قليلا كان أو كثيراً « إلا كتب لهم به » أى بذلك « عمل صالح » أى ثواب جزيل عند الله تعالى يجازيهم به « إن الله لا يضيع أجر المحسنين » أى لا يترك ثوابهم ، ولم يقل الله عز وجل : لا يضيع أجرهم ، تنبيها على أن الجهاد إحسان. وفى هذه الآية دلالة على أن من قصد طاعة الله تعالى كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة له عند الله تعالى ، وكذا القول فى طرف المعصية فان حركة العاصى كلها سيئات. فما أعظم بركة الطاعة وما أكبر ذل المعصية ، إلا أن يغفرها الله تعالى . وعن

أبي عيسى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله تعالى على النار « ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة » مثل ما أنفق عثمان رضى الله عنه فى جيش العسرة « ولا يقطعون » أى يجاوزون « واديا » أى أرضا فى سيرهم مقبلين أو مدبرين « إلا كتب لهم » ذلك من الإنفاق وقطع الوادى « ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » أى يجزيهم الله جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وأفضل وهو الثواب . . هذا والوادى كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل ، وقد شاع فى استعمال العرب بمعنى الأرض ، يقولون : لا تصل فى واد غير واديك ، وفى الآية دليل على فضل الجهاد والإنفاق ، ويدل عليه أشياء : منها ما روى عن ابن مسعود قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه فى سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة . ومنها ما روى عن زيد ابن خالد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ، ومنها ما روى عن سهل ابن سعد الساعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، ومنها ما روى عن أبي سعيد الخدرى أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الناس أفضل ؟ ، قال : مؤمن مجاهد بنفسه فى سبيل الله ، قال : ثم أى ؟ قال : ثم رجل فى شعب من الشعاب يعبد الله تعالى .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الثامن من سورة التوبة ، وقد تضمن من الأصول الجليلة ما يلى :

١ — بيان أهمية الجهاد فى سبيل الله ، والاستشهاد من أجل نشر دينه ؛ وذكر ما للشهداء من ثواب كريم عند الله فى الدنيا والآخرة ، والتنويه بمنزلة الشهداء وأخلاقهم الفاضلة الكريمة التى هى سر إقبالهم على الاستشهاد فى سبيل الله . .

٢ — النهى عن استغفار الرسول والمؤمنين للمشركين ولو كان هؤلاء

المشركون أولى قربى ، فالشرك مع وجود الرسالة لا شبهة فى أن صاحبه من أصحاب السعير . . ثم دفع الشبهة حول هذا المبدأ بما يمكن أن يعترض به من استغفار إبراهيم لأبيه .

٣ — الله عز وجل برسالات الرسل يبين للناس كل شىء حتى لا يضلوا بعد إذ هداهم بإرسال الرسل وبعثة الأنبياء ، والله عز وجل هو القادر على هداية الضالين ، وبعثة الأنبياء والمرسلين ، فله ملك السموات والأرض ، وهو الذى يحي من يشاء بهدايته ، ويميت من يشاء بإضلاله .

٤ — بيان فضل المهاجرين والأنصار الذين وقفوا مع الرسول فى الشدة ، واتبعوه فى ساعة العسرة ، ورضاء الله عنهم وتوبته عليهم .

٥ — إعلان توبة الله عز وجل على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه . .

٦ — بيان أنه لا يصح لمؤمن ولو كان ضعيف الإيمان أن يتخلف عن شهود المعارك والغزوات ، ولا أن يعتذر عن حضور معركة مع رسول الله ، ولا أن يرغب بنفسه عن خاتم الأنبياء ... لأن كل شدة تنالهم ، وكل نصب يلحق بهم ، فلهم عليه الثواب العميم ، وكل مال ينفقونه ، أو واد يقطعونه ، فلهم به الخير والنعيم ورضاء الله ، والجزاء الحسن الكريم . .

الربع التاسع من سورة التوبة

١٢٢ — وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ .

فى هذه الآية الكريمة تقرير لأصل كبير من أصول الإسلام الضخمة ، وقواعده الجليلة فى بناء الحضارة ، وفى النهوض بالبشرية ، وفى خدمة المجتمع

الإسلامى ، ذلكم هو العناية بالعلم والتعليم ، وبنشر الثقافة الإسلامية الصحيحة ، وجعل طلب العلم فرض كفاية على المسلمين ، وحث المسلمين على الهجرة فى طلب العلم ، وعلى الخروج فى سبيل تحصيله ، كما فرض عليهم الخروج فى سبيل الدفاع عن الوطن الإسلامى وحمايته ، إن ترك الوطن الأصغر فى سبيل الدفاع عن الإسلام يتحقق إما بالخروج للاشتراك فى الحرب ، وإما بالخروج لطلب العلم ، ففى الاشتراك فى الحرب دفاع عن الإسلام بالسيف ، وفى طلب العلم والخروج من أجله دفاع عن الإسلام بالمنطق والحجة والعقل..

يقول الله عز وجل . . « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » فيه احتمالان : الأول أنه كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد . والثانى أن يكون من بقية أحكام الجهاد ، فعلى الأول يقال : وما استقام لهم أن ينفروا جميعا لنحو غزو وطلب علم كما لا يستقيم أن لا ينفروا جميعا فإنه يخل بأمر المعاش « فلولا » أى فهلا « نفر من كل فرقة » أى قبيلة « منهم طائفة » أى جماعة ومكث الباقون « ليتفقهوا » أى ليتعلموا الفقه « فى الدين » ويتجشموا مشاق تحصيل الشريعة ليعرفوا الحلال من الحرام ويعودوا إلى أوطانهم « ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » أى وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من التفقه إرشاد القوم وإنذارهم، وتخصيص الإنذار بالذكر لأنه أهم ، وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية ، وأنه ينبغى أن يكون غرض المتكلم فيه أن يستقيم ويقيم ، لا الترفع عن الناس وصرف وجوههم إليه ، والتبسط فى البلاد : ليدخل فى قوله صلى الله عليه وسلم : من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، وفى قوله صلى الله عليه وسلم : من سلك طريقا يلتمس فيها علما سهل الله تعالى له طريقا إلى الجنة « لعلهم يحذرون » عقاب الله تعالى بامتثال أمره ونهيه ؛ وعلى الاحتمال الثانى يقال : إنه لما نزل فى المتخلفين ما نزل سبق المؤمنون إلى النفير وانقطعوا عن التفقه ، فأمروا بأن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ويمكث الباقون يتفقهون حتى لا ينقطع التفقه الذى هو الجهاد .

الأكبر ، لأن الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة ، قال ابن عباس : فهذه مخصوصة بالسرايا والتي قبلها بالنهي عن تخلف أحد فيما إذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم .

١٢٣ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ .

فى هذه الآية حث للمؤمنين على قتال الكفار ، وعلى الشدة عليهم ، وعلى مقاومة تجمعاتهم ، وعلى رد مكائدهم ، وعلى التفطن لدسائسهم والعمل على محاربتها ؛ فيها أمر بالجهاد فى سبيل الله للقضاء على أعداء الإسلام وعلى خصوم الدين ، وعلى الذين يحشدون كل عزائمهم لإطفاء نور الإسلام ولصد زحفه ، ولوقف تياره المتدفق ، ولمنع هدايته أن تصل إلى عقول الناس . .

يقول الله تعالى فى هذه الآية الكريمة .. « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » أمروا بقتال الأقرب منهم فالأقرب ، كما أمر صلى الله عليه وسلم أولا بالإنذار ، إنذار عشيرته الأقربين ، وقد حارب رسول الله قومه ، ثم غيرهم من عرب الحجاز ، ثم غزا الشام .. وقيل : هم قريظة والنضير وفدك وخيبر ، وقيل : الروم لأنهم كانوا يسكنون الشام ، والشام أقرب إلى المدينة من العراق وغيره ؛ وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم .. « وليجدوا فيكم غلظة » أى شدة وصبرا على القتال ، والغلظة : ضد الرقة أى أغلظوا عليهم « واعلموا أن الله مع المتقين » بالعون والنصر والحراسة والتأييد ، وهو معهم بالإكرام والتسديد ، وهو معهم برضائه ورحمته . وبمغفرته ومثوبته ؛ وهو معهم بجلاله وعظمته وقوته ومعونته ، إن الله مع المتقين فى كل شدة ، وفى كل محنة ، وفى كل بلاء ، بل فى الشدة والرخاء على السواء .

١٢٤ — وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ .

١٢٥ — وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ .

١٢٦ — أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ .

١٢٧ — وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ .

فى هذه الآيات الكريمة يبين الله عز وجل أثر القرآن فى قلوب المسلمين، وأثر هدايته فى نفوس المؤمنين ، إذا أنزلت سورة من سورالقرآن ، فمنهم من تزيده إيمانا بما تحتوى عليه من حكم وآداب ، ومن شرائع وتوجيهات ، ومن بيان لسبب رضاء الله على العبد ، وللطريق الموصل إلى رضائه الكريم ، وهؤلاء هم المؤمنون حق الإيمان ، الذين يستبشرون برحمة الله ورضوانه ؛ ومنهم من تزيده ضلالا وطغيانا وكفرا وشركا وإلحادا ، وعدم اعتبار بآيات الله ، ولا إيمان بشريعته ، وإن منظر هؤلاء وسور القرآن تنزل من السماء على خاتم الأنبياء ، لمنظر عجيب فريد غريب ينظر بعضهم إلى بعض فى تعجب وحسرة وخيبة أمل ، ومحاولة للهرب والفرار من مجلس الرسول ، ورغبة فى التسلل، حتى لا يجلسوا فى مجلس لا تطمئن له قلوبهم ولا تستريح له أفئدتهم ، ولا يسمعون فيه إلا كل ما يكرهون ..

يقول الله عز وجل .. « وإذا ما أنزلت سورة » من القرآن « فمنهم » أى المنافقين « من يقول » لأصحابه إنكارا واستهزاء بالمؤمنين « أيكم زادته هذه » السورة « إيمانا » بزيادة العلم الحاصل من تدبر السورة ومن الإيمان بها ، ولما فيها من أسباب تدعو إلى إيمانهم « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم

يستبشرون » أى يفرحون بنزولها ، لأنه سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم « وأما الذين فى قلوبهم مرض » أى شك ونفاق ، سمى الشك فى الدين مرضا لأنه فساد فى القلب يحتاج إلى علاج ، كالمرض فى البدن إذا حصل يحتاج إلى علاج « فزادتهم » أى السورة أى نزولها « رجسا إلى رجسهم » أى كفرا بها مضموما إلى الكفر بغيرها « وماتوا » أى مات هؤلاء المنافقون « وهم كافرون » أى وهم جاحدون لما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال مجاهد : فى هذه الآية دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ، وكان على رضى الله عنه يأخذ بيد الرجل والرجلين من الصحابة ويقول : تعالوا حتى نزداد إيمانا « أولا يرون » قرأ حمزة بالتاء أى أيها المؤمنون وقرأ الباقون بالياء على الغيبة أى المنافقون « أنهم يفتنون » أى يبتلون « فى كل عام مرة أو مرتين » بالأمراض والقحط والحرب « ثم لا يتوبون » إلى الله تعالى من نفاقهم ونقض عهودهم « ولا هم يذكرون » أى ولا يتعظون بما يرون من نصرته صلى الله عليه وسلم وتأييده « وإذا ما أنزلت سورة » فيها عيب المنافقين وتوبيخهم ، وقرأها صلى الله عليه وسلم « نظر بعضهم إلى بعض » أى يتغامزون بالعيون إنكارا وسخرية ، أوغيظا لما فيها من إظهار عيوبهم ، ويريدون الهرب يقولون : « هل يراكم من أحد » أى من المؤمنين إذا قمتم ، فإن لم يرهم أحد قاموا وخرجوا من المسجد ، وإن علموا أن أحدا يراهم ثبتوا على تلك الحالة ، « ثم انصرفوا » على كفرهم ونفاقهم ، وقيل : انصرفوا عن مواضعهم التى يسمعون فيها ما يكرهون « صرف الله قلوبهم » أى عن الهدى ، وهذه الجملة تحتمل الإخبار والدعاء ، ذلك « بأنهم » أى بسبب أنهم « قوم لا يفقهون » أى لسوء فهمهم وعدم تدبرهم ..

١٢٨ — لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

١٢٩ — فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .

فى هاتين الآيتين تبشير للعرب برسالة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعث لهم على الفرح والطمأنينة ، وعلى الرضاء الروحى ، وعلى البشرى بهذه الرسالة ، التى تعد فخرا للأمة العربية ومجدا وسبب سعادة .. فلقد بعث الله إليهم رسولا من أنفسهم ، عربيا مثلهم ، يتكلم بلغتهم ، ويشعر بشعورهم ، ويحس إحساسهم ، ويتألم لما يتألمون له ، ويفرح بما هم به يفرحون ، يحزنه كل مايحزنهم ، ويسوؤه كل مايسوؤهم ، وهو شديد الرغبة فى كل مايؤدى إلى خيرهم ومنفعتهم ، وتحقيق المصلحة لهم ، بل هو شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين ، عظيم العطف والحنان والرعاية على المسلمين ، جاء العرب رسول منهم ، ونزل عليه كتاب هو معجزة العصور ، وآية الدهور ، وأوحى إليه بشريعة هى خلاصة حلم الأجيال ، وهى الدواء لعلل الإنسانية وأمراضها ، وهى سبب الخير والتقدم لكل مسلم ، أفلا يؤمنون بها ، ويخلصون لها ، ويحيون من أجلها ؟ فإن تولوا فقل حسبى الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .. نعم لقد جاء العرب رسول من عند الله ، جاءهم محمد بالهدى والنور ، وبالكتاب المنير ، وبالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالشريعة السمحة ، وبالحنيفية البيضاء ، وبناموس التقدم والارتقاء ، وبدستور النهوض والعزة والمجد والكبرياء ، جاءهم الحق ، وجاءتهم الهداية ، جاءتهم رسالته ، أظلتهم هدايته ، أدركهم زمانه ، أظلهم فرقانه ، أتتهم معجزاته ، وأتتهم الحظوظ الطيبة التى لا أطيب منها لمن نزلت عليهم آياته .. إنه لإعلان سماوى للعرب ، وبيان إلهى لأهل مكة والمدينة والطائف والحجاز ، بل لسكان جزيرة العرب ، بأن يكونوا من أنصار الرسالة وأعوانها والمدافعين عنها ، لا أن يكونوا من خصومها ومقاوميها والمحاربين لها .. والعرب كانوا ولازالوا أول الناس الذين يجب أن يؤمنوا إيمانا صحيحا برسالة الإسلام ، وبشريعة محمد خاتم الأنبياء ، وبالقرآن

الذى نزل عليه ، وبالكتاب الحكيم الذى أرسل إليه .. يقول الله عز وجل : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » أى من جنسكم عربى مثلكم ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم تعرفون حسبه ونسبه ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس قبيلة من العرب إلا وولدت النبى صلى الله عليه وسلم وله فيها نسب ، وقال جعفر الصادق رضى الله عنه : لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية من زمن آدم عليه السلام ، وعن الطبرانى قال صلى الله عليه وسلم: إنى خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، وعن ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ماولدنى من سفاح أهل الجاهلية شىء ماولدنى إلا نكاح كنكاح الإسلام ، وعن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم « عزيز عليه » أى شديد شاق « ماعنتم » أى عنتكم ولقاؤكم المكروه ، وقيل إن المعنى : يشق عليه ضلالتكم « حريص عليكم » أى أن تهتدوا أو على إيصال الخير إليكم «بالمؤمنين » أى منكم ومن غيركم « رؤوف » أى شديد الرحمة بالمطيعين « رحيم » بالمذنبين .. وقدم الأبلغ وهو الرؤوف للمبالغة فى تصوير المعنى ، وعن الحسن بن الفضل : لم يجمع الله تعالى لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبى صلى الله عليه وسلم ، فسماه رؤوفا رحيما ، وقال تعالى : إن الله بالناس لرؤوف رحيم « فإن تولوا » أى فإن أعرض هؤلاء الكفار والمنافقون عن الإيمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وناصبوك الحرب « فقل حسبى الله » أى الله يكفينى وينصرنى عليكم . وإنما كان كافيا لأنه « لا إله إلا هو » فلا مكافىء له ولا راد لأمره ولا معقب لحكمه « عليه توكلت » أى فلا أرجو إلا إياه ولا أخاف إلا منه ، لأن أمره نافذ فى كل شىء « وهو رب العرش » أى الكرسى « العظيم » وخصه بالذكر تشريفا له ولأنه من أعظم مخلوقاته سبحانه وتعالى ، وروى عن أبى بن كعب قال : آخر مانزل من القرآن هاتان الآيتان : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى آخر السورة ، وقال : هما أحدث الآيات بالله عهدا .

نظرة عامة فى سورة التوبة

(١)

سورة التوبة هى السورة التاسعة من سور القرآن الكريم ، وهى إحدى السور المدنية ، والسورة كلها حديث عن الشرك والمشركين ، والنفاق والمنافقين؛ وهى براءة من الشرك وأهله ، والنفاق وذويه ، ودعوة إلى إعلان الحرب على الوثنية فى جزيرة العرب ، وإلى تطهيرها تطهيراً كاملا شاملا من أدران الإشراك بالله ، ومن ثم لم تصدرهذه السورة بالبسملة ، لأن فى البسملة تذكيراً بالرحمة تتنافى مع التهديد والوعيد الذى اشتملت عليه السورة .

وقد سميت السورة باسم « براءة » وهو اسم لا يبلغ مبلغه فى القوة اسم « سورة الشرك » ، أو « سورة المشركين » ، أو « سورة المنافقين » مثلا .

(٢)

وقد احتوت السورة على كثير من الأصول الجليلة ، التى يمكن إيجازها فيما يلى :

ا — فى الربع الأول : اشتمل هذا الربع الكريم على إعلان الحرب على الشرك والوثنية فى جزيرة العرب ، وإعلان نقض العهود المعطاة للمشركين فيها ، فى نهاية أربعة أشهر ، لا يصير لهم بعدها إل ولا ذمة ، ثم طلب الله من رسوله الكريم أن يعلن فى الناس يوم الحج الأكبر براءة الله ورسوله من المشركين ، ووجوب إسلام كل مشرك ، وإلا عرض نفسه للعذاب والإثم الشديد ، واستثنى الله عز وجل من بينهم وبين الرسول عهد من المشركين ممن لم ينقضوا العهد ، ولم يخونوا الميثاق ، ولم ينضموا لأعداء الرسالة ، فإن هؤلاء يعاملون بمقتضى ما معهم من عهود ، حتى تنتهى المدة التى لهم ، فإذا انسلخت المدة المقررة لهم وجب قتال كل مشرك لا يؤمن بالله ورسوله وبالإسلام

شريعة خاتم النبين ، فإن تابوا وأنابوا ودخلوا فى الإسلام ، فأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، فلا سبيل للسلمين عليهم ، ويفصل القرآن الكريم تفصيلا كثيراً فى هذا المقام ، فيبين كيف يعامل المشرك الذى يستجير بمسلم ، وأنه يجب أن يجار حتى يسمع كلام الله ثم يبلغ مأمنه . . . ويبين القرآن الكريم أن المشركين لاعهد لهم ، وأنه يجب أن تراعى العهود المعقودة بين المسلمين وقريش ، وبين المسلمين وغيرهم ممن عاهدهم الرسول عند المسجد الحرام ، بشرط أن يكون أصحاب هذه العهود ممن لم يؤلبوا على الإسلام ورسوله ، وممن وفوا بعهودهم والتزاماتهم للمسلمين . . ويحذر الله عز وجل من المشركين ومكرهم وكيدهم للإسلام ولرسوله ، ويبين أنهم أشد الناس عداوة للمسلمين ، وأن ما يبدو منهم فى بعض الأحيان من لين إنما هو نفاق لا يصح أن يؤبه له ، وقد آثر هؤلاء المشركون الدنيا على الآخرة ، والمال على الدين ، وصدوا عن سبيل الله ، وهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، وهم المعتدون على حرية المسلمين وعلى الحق وعلى الله ورسوله ، وأنه لا سلام بين الإسلام والشرك إلا أن يؤمن المشركون ويتوبوا وينيبوا ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة. وإن نكث هؤلاء المشركون العهود والمواثيق ، وأخذوا يقاومون رسالة الإسلام ورسوله الكريم ، فهم حينئذ أحرياء بإعلان الحرب عليهم ، وبقتالهم حتى ينتهوا إلى الحق ، ويرجعوا إلى الله ، وهم أحرياء بإعلان الحرب عليهم لأنهم نكثوا العهود ، ونقضوا الأيمان والمواثيق ، وهموا بإخراج الرسول من مكة ، ولأنهم هم الذين بدأوا بإعلان الحرب على المسلمين ، وأن المسلمين لا يصح أن يخشوهم فالله أحق أن يخشوه إن كانوا مؤمنين . . . ووعد الله عز وجل المؤمنين بأن يخزى المشركين على أيديهم ، وأن ينصرهم عليهم ويشفى صدور قوم مؤمنين . . وهنا ينبه الله عز وجل المسلمين إلى ضرورة التضحية فى سبيله ، وإلى أن هذه التضحية هى وسيلة إلى التمييز بين المؤمنين الصادقين ، وبين المنافقين وضعاف الإيمان والعزيمة . . ويرد الله عز وجل رداً بليغا على المشركين الذين يتعللون بأنهم سدنة البيت الحرام وحجابه

والمعمرون له ، فيؤكد أنه ما يكون للمشركين أن يعمروا مساجد الله وهم يشهدون على أنفسهم بالكفر ، إنما يعمر مساجد الله المؤمنون الصادقون . . ومن هذا كله نجد أن هذا الربع قد احتوى على إعلان براءة الله ورسوله من الشرك والمشركين فى موضعين ، وعلى إمهال المشركين الذين بينهم وبين رسول الله عهود ومواثيق أربعة أشهر ، فإن أسلموا بعدها فهو خير لهم ، وإن أصروا على الشرك والضلال، فهم غير معجزى الله ، ولهم عذاب أليم.. وتؤكد ذلك الآية الرابعة من السورة التى لم تحدد موعدا تلغى بعده العهود والمواثيق المعقودة بين المسلمين والمشركين .

ب — وفى الربع الثانى يفرق الله عز وجل بين عمارة المسجد الحرام وبين مسائل الإيمان فعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج لا تصل إلى منزلة الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد فى سبيل الله ، فللمؤمنين المهاجرين المجاهدين فى سبيل الله ودينه بالمال والنفس الدرجات العلى ، والفوز العظيم ، والبشريات الطيبات ، والرحمة والرضوان والجنة والنعيم المقيم الذى يخلدون فيه دائما أبداً ، وهنا يقدم الله عز وجل الجهاد فى سبيل الله بالمال على الجهاد بالنفس ، لأهمية المال فى بناء الدول وفى نصر المبادىء والعقائد الصالحة ، وفى الدفاع عن دين الله وعن المثل العليا الشريفة فى الحياة . وهنا ينهى الله عز وجل المؤمنين عن أن يتخذوا آباءهم وإخوانهم المشركين أولياء من دون الله والمؤمنين ، ويؤكد القرآن الكريم أن من كان حبه للآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والمال والتجارة أكثر من حبه لله ورسوله ، وأكثر من حبه للجهاد فى سبيل الله ، فإن له النار والعذاب الشديد ، ويذكر الله عز وجل المؤمنين بنعمه عليهم ، فإن مثل هذه النعم جديرة بالشكر ، والتقدير ، ومن بين هذه النعم الجليلة التى أنعم الله بها عليهم نصره لهم فى بدر التى كانت حدا فاصلا بين الحق والباطل والإيمان والشرك والهدى والضلال والتوحيد والوثنية . . . ويعود القرآن الكريم إلى الحديث عن الشرك والمشركين ، فيقرر أن المشركين نجس ، وأنهم لا يصح أن يقربوا المسجد الحرام

بعد عامهم هذا ، وأن خوف المسلمين من الفقر وضعف التجارة ومن مقاطعة المشركين الاقتصادية لهم لامبرر لها ، فإن الغنى غنى الله ، وإن فضل الله عظيم ، ورزقه واسع ، والله عليم حكيم .. ويدعو الله عز وجل المسلمين إلى قتال المشركين ، ويعلل الأمر بقتالهم بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، وأنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، وأنهم لايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، ويوضح أنه لامنجاة لهم من حرب المسلمين لهم ، إلا بدفع الجزية ، وبأن يعطوها للرسول عن يد وهم صاغرون . . ويبين الله عز وجل فى هذا المقام ضلال اليهود والنصارى وشركهم ، بقول اليهود : عزير ابن الله ، وبقول النصارى : المسيح عيسى بن مريم ابن الله ، وهم إنما يقولون ذلك قولا لاحقيقة له ، قولا كأنه صادر من أفواههم ، لأن قلوبهم تعتقد أن هذا القول خلاف الحق ، وأن نصوص كتبهم السماوية على خلاف ذلك ، وهم يضاهون بذلك قول الكافرين والمشركين ، ولكن لا منجاة لهم من العذاب الأليم ، إنهم اتخذوا الأحبار والرهبان أربابا من دون الله ، واتخذوا المسيح ابن مريم ابنا لله ، وماأمروا فى كتابهم المقدس إلا بعبادة الله وحده لا شريك له . . إنهم يريدون إطفاء نور الله ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون والمشركون .. ويعد الله عز وجل رسوله الكريم بالنصر وبإظهار دينه ، على الرغم من مقاومة المشركين واضطهادهم .

حـ — وفى الربع الثالث : يذكر الله عز وجل ضلال الكثيرين من الأحبار والرهبان وجشعهم وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وصدهم عن سبيل الله .. وينذر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بعذاب أليم ، حيث يحمى عليها فى نار جهنم فى اليوم الآخر ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، ويقال لهم : هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون . . وقد كانت هذه الآية الكريمة هى التى استشهد بها أبو ذر فى تأييد مذهبه الاشتراكى الإسلامى ، الذى دعا به إلى وجوب قسمة الأموال بين المسلمين ، وإلى حرمة كنزها أو ادخار أكثر مما زاد على قدر الحاجة . وجمهور المسلمين

على أن الآية منصبة على الذين لايخرجون زكاة أموالهم ، فهمهم جمع المال والشح به وعدم إنفاق شيء منه فى سبيل الله . ويعلن الله عز وجل فى هذا الربع إلغاء النسيء ، ويدعو مرة أخرى إلى وجوب قتال المشركين ، ويحذر من التثاقل والإبطاء والتسويف فى تلبية أمر الله ورسوله بقتال المشركين ، ويحذر المسلمين وينذرهم عذابا أليما إن سوفوا وأهملوا وأبطأوا فى تلبية أمر الله ؛ ويؤكد أنه عز وجل قادر على نصر الرسول وإعزاز رسالته كما نصره فى هجرته صلى الله عليه وسلم ، هذه الهجرة التى أعز الله بها الإسلام والمسلمين وجعل بها كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى .. ويؤكد الله عز وجل الأمر بقتال المشركين ويحذرهم من أن تفتنهم الأموال وعرض الحياة الدنيا عن الجهاد فى سبيل الله . ويذكر الله عز وجل بعض صفات المنافقين والمترددين التى يتعللون بها فى ترك القتال والجهاد فى سبيل الله ، ويرد عليهم ردا بليغا ، ويؤكد الله عز وجل أن الذين يستأذنون من الرسول فى التخلف عن الغزو إنما هم الكافرون والمنافقون والمترددون والحائرون ، ويعاتب الرسول على إذنه لمن أذن لهم من المسلمين بالتخلف عن الغزو .

د — وفى الربع الرابع يؤكد الله عز وجل ضلال هؤلاء المترددين الحائرين المتخلفين عن الغزو ، ويذكر جانباً من أعذارهم ويرد عليهم رداً بليغاً قوياً ، ويبين الله عز وجل أنهم شر ووبال على أنفسهم ، وأن ما يفعلونه من خير لن يغنى عنهم من الله شيئا ، وأن صدقاتهم لن يقبلها الله منهم ، لأنهم كفروا بالله ورسوله وعاشوا على النفاق والكفر ، وهم يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان ، وأن أموالهم وأولادهم لن تغنى عنهم من الله شيئا كذلك .. ويقرن الله عز وجل بهم فى نفاقهم جماعة أخرى من المنافقين عابوا الرسول ولمزوه فى تقسيم الصدقات ، وقالوا فيما صنعه : إنما هو جور لا عدل فيه ، وهم بذلك يحكمون موازينهم الجائرة ، ويجعلون المصالح الشخصية أساسا لحكمهم فى المسائل العامة ، فتعسا لهم ، وبئس ما كانوا يصنعون .

٥ — وفى الربع الخامس : يذكر الله عز وجل مصارف الزكاة تقريراً لأحقية الرسول فى صنع ما صنع ، وتبرئة له من تهمة الجور ، ورداً على المنافقين .. ويعود القرآن الكريم إلى الدفاع عن الرسول ، وإلى الرد على الذين رموه بأنه أذن .. وهنا يصف القرآن الكريم رسول الله بأنه أذن خير وأنه يؤمن بالله ، ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا . . ويؤكد عظم جرم هؤلاء فيقول عنهم : والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم .. ويستمر القرآن الكريم فى تحذير هؤلاء المنافقين وفى الكشف عن قناعهم ، وفى الرد على افتراءاتهم وتصوير حالهم فى خوفهم من زوال الآيات ، وفى اعتذاراتهم الباطلة . . ويصور القرآن الكريم المنافقين فى صورة واضحة كل الوضوح لا لبس فيها ولا خفاء ، فيصفهم بأن بعضهم من بعض : أخلاقاً وأهدافاً ووسائل ، وبأنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويبخلون بما آتاهم الله من فضله ، وبأنهم نسوا الله فنسيهم ، وأخيرا يصفهم بصفة جامعة ، هى أنهم هم الفاسقون ، ويبين أن جزاءهم النار ، ومصيرهم إلى جهنم وبئس القرار ، ويحذرهم من مصير الأمم الماضية ، التى هلكت بذنوبها ، ويقرأن هؤلاء المعاصرين قد صنعوا مثل ما صنعته الأمم البائدة من الشرك والوثنية ، وأنهم صاروا أهلا لغضب الله وعذابه . وقصة نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ، أمثلة ظاهرة لهلاك الأمم ، حين ترضى بالشرك وتحارب رسالات السماء ؛ وفى مقابل ذلك يرسم القرآن صورة زاهية مشرقة مشرقة للمؤمنين وأخلاقهم وصفاتهم ، فيصفهم بأن بعضهم أولياء بعض : آدابا وأخلاقا وحكمة وتدينا وإرضاء لله والرسول ، وبأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، وبأنهم أهل لرحمة الله ورضوانه ، ولجنانه ونعيمه . . ويعود إلى تقرير ضرورة جهاد الكافرين والمنافقين وحربهم حربا لاهوادة فيها ، وإلى وجوب الغلظة عليهم ، فمأواهم جهنم وبئس المصير مصيرهم ، ويذكر هوانهم على أنفسهم وعلى الله ، ويحذرهم منذرا لهم بعذاب أليم فى الدنيا والآخرة .

و — وفى الربع السادس يصف بخل طائفة من المنافقين وكذبهم وهوانهم ، ويرد على الذين يعيبون على المؤمنين فى وجوب الصدقات ، وينهى الرسول عن أن يستغفر للمنافقين ولو كانوا أولى قربى ، بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، ويحذر المتخلفين من العذاب الشديد ، ويأمر الرسول بعدم أخذهم معه فى آية معركة من المعارك ، وبعدم الصلاة على أحد منهم مات أبداً ، وبعدم القيام على قبره ، لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ، وما أموالهم ولا أولادهم إلا سبب عذاب لهم .. ويذكر القرآن الكريم ما دأب عليه هؤلاء المنافقون من التخلف عن رسول الله فى الغزوات ، ومن الهرب من الاشتراك فى المعارك ، ومن الاعتذار بالأعذار الواهنة ، والاحتجاج بالأسباب الواهية ، وشتان بينهم وبين المؤمنين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، ممن لهم الخيرات ، وممن سلكوا طريق الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة ، ويوضح القرآن الكريم الفرق بين المنافقين وبين المؤمنين ، وهو فرق يبدو واضحا جليا ؛ فأصحاب الأعذار الحقيقية من المؤمنين حقا يطلبون الاشتراك فى المعارك والغزوات ، والقادرون من المنافقين يقعدون متخلفين عن رسول الله ، وحبذا لو كان لهم عذر فى القعود ، إنما يعذر المرضى والضعفاء ، والذين لا يجدون الآلات التى يشتركون بها فى الحرب ، ممن يملكهم الحزن ، وتفيض من أعينهم الدموع ، لعدم وجود الوسائل التى تمكنهم من الاشتراك فى الحرب بجانب إخوانهم المؤمنين .

ز — وفى الربع السابع من سورة التوبة يذكر الله عز وجل مسئولية المتخلفين عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم قادرون أغنياء ، فمثل هؤلاء الذين يرضون لأنفسهم بالقعود عن نصرة الله ورسوله ودينه القويم لا بد أن تكون قلوبهم قد طمس الله عليها ، وطبع على أفئدتهم ، فهم لا يعلمون شيئاً ، وهم لا يعقلون مسئولية ، وهم لا يدرون أنهم بموقفهم هذا يجلبون لأنفسهم الخزى والعار والعذاب الأليم ، ويحاربون الله ورسوله .

ويشاقون المؤمنين ويعرضونهم للمواقف الحرجة ، إنهم قد تخلفوا قادرين ، ومع ذلك يعتذرون كذبا وزورا بشتى الأعذار الباطلة ، ولا يدرون أن الله ورسوله لا يمكن أن يخدعا بالكذب من القول ، والزور من المعاذير ، وهب أن أعذارهم نفعتهم فى الدنيا ، فهل تنفعهم كذلك فى الآخرة ؟ وهل تنطلى معاذيرهم يوم القيامة على الله جل جلاله ، إن حسابهم فى الآخرة بيد الله عالم الغيب والشهادة ، فينبئهم بما كانوا يعملون . . إنهم مهما أقسموا وألحوا فى طلب المغفرة وقبول عذرهم فلا يمكن لرسول الله أن يقبل عذر منافق ، ولا أن يستجيب لطلب كافر أو فاسق ، إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . إنهم يحلفون للرسول ليرضى عنهم ، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين ، ويعود القرآن الكريم فيتحدث عن بعض الأعراب ، وكفرهم ونفاقهم وجهلهم ، وقلبهم لحقائق الأمور ، واعتقادهم أن الإنفاق فى سبيل الله غرم كبير ، وتربصهم الدوائر بالإسلام والمسلمين ، والله سميع لأقوالهم ونفاقهم ، عليم ببواطن قلوبهم ، وبدخائل نفوسهم . . إنهم عكس جماعات أخرى من الأعراب آمنوا بالله واليوم الآخر ، واتخذوا ما أنفقوا قربات لهم عند الله لا يرجون إلا وجهه الكريم ، وثوابه العظيم ، فأولئك لهم الرحمة والمثوبة والجنة ونعيمها المقيم .

وكما أشاد الله عز وجل بهذه الطبقة من الأعراب أشاد بطبقة أخرى ؛ هى أثبت قدما فى الخير ، وأهدى طريقا إلى الجنة ، طبقة السابقين الأولين إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، ممن استحقوا رضاء الله ، وممن جزاهم الله أكرم الجزاء ، فرضوا عنه ، وممن كتب الله لهم الجنة والرحمة والخير والفوز العظيم .. ويقص الله عز وجل قصة جماعة من الأعراب كانوا نازلين حول المدينة ، وبعض أهل المدينة ، ممن مردوا على النفاق ، والله عز وجل هو العليم بأسرارهم ، والخبير بدخائل نفوسهم ، وسوف يرجعون إليه ، فينبئهم بما عملوا ، ويعذبهم عذابا عظيما فى الآخرة ، كما عذبهم فى الدنيا مرتين : مرة بكشف أستارهم ، ومرة بانتصار الإسلام وخزيهم وهزيمتهم .

أما الذين تخلفوا عن الغزو وتابوا وأنابوا إلى الله ، فالله عز وجل بيده التوبة عليهم ، وبيده وحده أمرهم ، والله يقبل التوبة عن عباده ، والله هو التواب الرحيم ، ويطالب الله عز وجل رسوله أن يأخذ منهم صدقة يطهرهم بها ويزكيهم ويجعلهم أهلا لقبول الله عز وجل توبتهم .

ويطالبهم الله عز وجل بالعمل وباستمرار البذل والتضحية والجهاد ، وليعوضوا أنفسهم ما فاتهم ، ليرضى الله عنهم ورسوله ، فى الأولى والآخرة يوم يردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئهم الله بما كانوا يعملون .

ويذكر الله عز وجل كعب بن مالك وطبقته ، ممن أمرهم كان معلقا بأمر الله ، إن يشأ يعذبهم ، وإن يشأ قبل توبتهم ، والله عليم حكيم . . ويندد الله عز وجل بأصحاب مسجد الضرار من المنافقين والمتربصين بالإسلام والرسول ، منوها بشأن أصحاب مسجد قباء ـ مسجد الرسول ـ الذين أسس مسجدهم على التقوى وعلى رضوان من الله . .

ح — وفى الربع الثامن : ينوه الله عز وجل بالشهداء الذين باعوا أنفسهم رخيصة فى سبيل الله ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى طلب رحمته ومثوبته ، إن الله وعد الشهداء فى سبيله فى جميع الكتب السماوية المقدسة بالجنة والرحمة والمغفرة والرضوان ، ويصفهم الله عز وجل بأجل الأوصاف وأشرفها ، ويضع فى طبقتهم طبقة أخرى من المؤمنين ، ذكرهم الله كذلك بأجمل النعوت وأروع الصفات : من التوبة والعبادة والحمد والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والمحافظة على حدود الله ، إن لهم البشرى .. والبشرى للمؤمنين ، يستحقونها كما استحقها الشهداء ، جماعتان أو طبقتان ، رضى الله عنهم ورضوا عنه :الشهداء ، وهؤلاء المؤمنون الصادقون ، الذين بلغوا منزلة الشهداء عند الله . ويعود القرآن الكريم إلى المشركين ، فينهى الله عز وجل رسوله عن الاستغفار لهم ، ولو كانوا أولى قربى ، ويقطع الشبهة التى ترد باستغفار إبراهيم لأبيه .. ويعلن الله عز وجل توبته على المؤمنين من

المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوا الرسول فى ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ؛ ويعلن كذلك توبته على كعب بن مالك وزميليه ، هؤلاء الثلاثة الذى تخلفوا عن الغزو ، دون ما عذر وطلبوا التوبة من الله ورسوله فانصرف عنهم رسول الله ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه ، فتاب الله عليهم والله هو التواب الرحيم .. ويدعو الله عز وجل المؤمنين إلى تقوى الله ، وإلى طاعته ، ليحشروا أنفسهم مع الصادقين المخلصين من عباده . ويقرر القرآن الكريم أخيرا حقيقة هى من الوضوح بمكان كبير ، وهى أنه لايصح لأهل المدينة ومن حولها ومجاورى رسول الله أن يتخلفوا عن رسول الله فى شهود المعارك ، ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، وهم يعلمون أنهم لا يصيبهم ظمأ ولانصب ولاجوع ولامشقة فى سبيل الله ، إلا ولهم عليها الجزاء الكريم من الله ، ولهم بها الثواب العظيم من خالق الخلق الرحمن الرحيم . . إنهم لا ينفقون نفقة صغيرة أو كبيرة ، ولا يقطعون واديا إلا كان ماعملوه معدودا فى صحائف حسناتهم .

ط ــ وفى الربع التاسع : يحث الله عز وجل على طلب العلم ، ويحض عليه ، ويدعو إليه ، والعلم فريضة مقدسة فى الإسلام ، وطلبه واجب محتوم ، لأن الإسلام دين الثقافة والتهذيب والعلم والمعرفة ، والقرآن الكريم يكثر من الدعوة إلى طلب العلم وتعلمه ، والعلم فى الإسلام هدفه إنسانى ، وليس من أهدافه جمع المال ولا الربح ولا الجاه ، وأعظم ماوصف به العلماء هو وصف القرآن الكريم لهم : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .. ثم يأمر الله عز وجل بقتال الكفار والمشركين ، وبالشدة عليهم ، وينعى على المنافقين نفاقهم ، ويصور مظاهر هذا النفاق ، ويحذر منه .. ثم يخاطبهم الله عز وجل بأنه شرفهم إذ اختار رسوله المصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم منهم ، ووصفه بصفات كريمة : منها أنه عربى ، وأنه يشق عليه عنت المسلمين ووقوعهم فى المشقة ،

وأنه حريص على كل مايعود بالخير عليهم ، وأنه رؤوف بهم ، رحيم لهم . فمن آمن به فله الفوز ، ومن تولى منه ، فالرسول غنى عنه ، فحسبه الله ، لا إله إلا هو ، عليه يتوكل المتوكلون ، وهو القادر على كل شيء ، وهو رب العرش العظيم .

(٣)

وجملة القول أن سورة التوبة هو السورة التى أعلن فيها الله عز وجل وجوب انتهاء الشرك من الجزيرة العربية ، ووجوب حرب المشركين وقتالهم إن لم يؤمنوا أو يدفعوا الجزية ، وفيها فضح الله المنافقين ونياتهم وأسرارهم وكشف عن أعمالهم ، وسوآتهم ، وتحدث عن الذين جاهدوا مع رسول الله ومنزلتهم فى الدنيا والآخرة ، وعن الذين تخلفوا عن الغزو مع رسول الله وجريمتهم ، وحارب النفاق حربا شديدة ، تعادل حربه للشرك . . وقد كانت الأنفال التى سبقت هذه السورة كذلك حديثا عن الشرك والمشركين وعن الجهاد والمجاهدين ، وعن نصر الله لرسوله فى بدر ، وعن الغنائم وطريق قسمتها ، وعن الدعوة إلى الإسلام وأصوله ، من تحمل المسئولية وأداء الأمانة ، وقد قرر الله عز وجل فى القرآن الكريم حرص الإسلام على السلام ودعوته إليه،وأبان للرسول وللمسلمين وسائل النصر وأسبابه ، وأمرهم بالاستعداد العسكرى لنزال الأعداء والقضاء عليهم ؛ ثم جاءت سورة التوبة تعلن هزيمة الشرك والمشركين ، ووجوب القضاء على الوثنية فى جزيرة العرب، وتندد بالمشركين ، وتدعو الرسول والمؤمنين إلى قتالهم ، وتذكر الناس بنصر الله للرسول فى بدر ، وتبين مطاعن المنافقين على رسول الله ، وذمهم له بأنه أذن ، وبالجور فى قسمة الصدقات ، ثم تبين مصارف الزكاة ، وتفضح أعمال المنافقين وأسرارهم ، وتكشف مكنون أنفسهم ، ودخيلة جوانحهم ، وتتحدث عن غزوة تبوك ، وتنوه بشأن الذين نهضوا إليها مع رسول الله ، وتذم الذين تخلفوا عن الاشتراك فيها ، وتبين منزلة الشهداء ومكانتهم عند الله ، وتوبة

الله على التائبين من المتخلفين ، ومنزلة السابقين الأولين إلى الإسلام ، وتدعو إلى العلم وتحث عليه وتجعله فريضة مقدسة .. وفى ختام السورة يجيء هذا الإعلان السماوى الكريم إلى العرب برسالة محمد العربى ، وبفضله وجليل أخلاقه وغيرته على أمته ، ويدعو الله عز وجل إلى الإيمان به ، وينذر المعرضين والكافرين بانتقامه الشديد .

إن سورتى الأنفال والتوبة هما دعامتا النظام العسكرى فى الإسلام ، وفيها تقرير لأصول كثيرة من أصول الإسلام ، وعمل جاد حازم على تكوين المجتمع الإسلامى ، وشرح لأسباب هذا التكوين : من القوة والاستعداد العسكرى ، والحرص على أداء المسئولية ، والمحافظة على الأمانة ، ومن العلم والطاعة والإيمان الصحيح ، والإخلاص لله ومن العلم والدعوة إليه ، ومن الحث على أداء الزكاة ، ومن محاربة النفاق والمنافقين ، وشرح أضرار النفاق وآثاره على المجتمع الإسلامى .. إلى غير ذلك من الأصول الجليلة ، التى دعا إليها القرآن الكريم وشريعته المطهرة .

---

(١٠)

ســـورة يونس

تمهيد

جاء ذكر يونس بعد سورة التوبة ، لأن سورة التوبة قد ختمت بترغيب العرب فى الإيمان برسول جاءهم من أنفسهم ، وبدئت سورة يونس بإنكار تعجبهم من أن يوحى إلى رجل منهم ، وأن يصطفى رسول من بينهم .

وقد نزلت سورة يونس بعد سورة الأعراف ، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، فتكون سورة يونس من السور التى نزلت بين الإسراء والهجرة ، وهى السورة العاشرة من سور القرآن الكريم ، وتبلغ آياتها تسعا ومائة آية .

وفى السورة إثبات لنزول القرآن الكريم من الله عز وجل ، وتحد لهم بالقرآن ، ودعوة لهم إلى تصديقه والإيمان به عن طريق الترغيب والترهيب .. وسورة يونس مكية إلا هذه الآيات الكريمة التى هى آيات مدنية على ما يروى ، وهى :

١ — « ومنهم من يؤمن به ، ومنهم من لا يؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين » الآية ٤٠ .

٢ — « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك ، فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين » الآية ٩٤ :

٣ — « ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله ، فتكونن من الخاسرين » الآية ٩٥

٤ — « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون » الآية ٩٦ .

وقد سميت السورة باسم يونس عليه السلام ، وهو أحد الأنبياء الذين قص القرآن الكريم قصتهم ، ويذكر العهد المقدس قصة يونس ، وله فى العهد القديم سفر سمى باسمه هو « سفر يونان » . ففى الإصحاح الأول منه ما نصه : « وصار قول الرب إلى يونان بن أمتاى قائلا : قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد عليها لأنه قد صعد شرهم أمامهم ، فقام يونان ليهرب من وجه الرب إلى ترشيش ، فنزل إلى يافا ، ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش ، فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب

معهم إلى ترشيش من وجه الرب .. ثم يذكر أن الرب أرسل ريحا شديدة إلى البحر ، وكادت السفينة تنكسر ، فطرحوا الأمتعة ، ونزل يونان إلى جوف السفينة ونام نوما ثقيلا ، وعملوا قرعة ليعرفوا سبب هذه البلية ، فوقعت القرعة على يونان ، فسألوه عن نفسه فقال : أنا عبرانى ، وأنا خائف من الرب إله السماء الذى صنع البحر والبر ، وعرفوا أنه هارب من وجه الرب ، فاقترح يونان عليهم أن يرموه فى البحر ليسكن ، ففعلوا فهدأ البحر ، وأرسل الرب حوتا عظيما فابتلع يونان ، فكان فى جوفه ثلاثة أيام وثلاث ليال ، وفى الإصحاح الثانى يذكر أن يونان صلى إلى ربه فى جوف الحوت ، فأمر الرب الحوت فقذف يونان إلى البر ، وفى الإصحاح الثالث يذكر أمر الرب ليونان بالذهاب إلى نينوى ، وأنه ذهب إليها وحذرهم ليرجع كل واحد منهم عن طريقه الرديئة وعن الظلم ، فتابوا وأنابوا وعفا الله عنهم . . وفى الإصحاح الرابع يذكر ندم يونان لأنه كان أنذر أهل نينوى أن تنقلب مدينتهم عليهم بعد أربعين يوما ، والآن قد عفا الله عنهم لأنه إله رؤوف رحيم ، وأنه خرج حزينا من المدينة ، وجلس شرقيها ، وصنع لنفسه ظلة ، وجلس تحتها فى الظل ، فأنبت الله شجرة يقطين فارتفعت حتى صارت فوقه كالظلة ، ثم أعد الله دودة ، فضربت اليقطينة فيبست ، فحزن يونان وطلب لنفسه الموت ، فقال الله تعالى له : الآن أنت قد اغتظت بالصواب حتى الموت من أجل اليقطينة التى لم تتعب فيها ولا ربيتها ، أفلا أشفق أنا على المدينة العظيمة التى يوجد فيها أكثر من اثنتى عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة . .

وسورة يونس ترد على المنكرين لرسالة محمد ، وعلى المتعجبين من أن ينزل عليه الوحى بكتاب مبين ، وتستدل على إمكان الوحى بقدرة الله العظيم فى السماء والأرض ، وتحذر الكافرين ، وتبشر بالثواب الكريم المؤمنين الصادقين ، وتنذر الذين يصدفون عن الحق ، ويصدون عن سبيل الله ، وتؤكد السورة صدق رسالة محمد وصدق ما يتلوه من القرآن ، مؤكدة أن

هذا وحى الله إليه ، وأنه ليس فى طبع الرسول ولا فى خلقه أن يفترى على الله ، فالمفترون على الله وفى مقام دعوى النبوة والرسالة هم الظالمون ، وتندد السورة بالمشركين ، وتنفى أن يكون رسول الله كاذبا فيما يبلغه عن ربه من القرآن ، وتؤكد صدق رسالته ، وأحقية دعوته ، وعظمة شريعته ، وتقص قصص شركهم ، وقولهم : اتخذ الله ولدا ، وسوى ذلك من أباطيلهم وأساطيرهم المفتراة . .

ثم تقص السورة قصة نوح مع قومه ، وقصة موسى مع فرعون وملئه ، ويؤكد القرآن الكريم صدق القرآن بدليل مادى محسوس ، هو أن أهل الكتب السماوية السابقة لا بد أن يشهدوا بصدقه ، وبأن ما تضمنه القرآن الكريم من قصص الأمم البائدة ، ومن أخبار الخليقة ، حق وصدق لا ريب فيه ، بل لا بد لهم أن يشهدوا ببشارة كتبهم بمحمد وبالقرآن الكريم .

ويشير القرآن الكريم إلى قصة يونس فى الآية الثامنة والتسعين ، وهى « فلولا كانت قرية آمنت ، فنفعها إيمانها ، إلا قوم يونس ، لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ومتعناهم إلى حين » . . وتتحدث السورة بعد ذلك حديثا عاما عن الرسل والرسالات ، وعن رسالة الله الصادقة إلى محمد عليه السلام ، وتختتم السورة بدعوة الرسول إلى الصبر حتى يحكم الله بينه وبين قومه ، والله خير الحاكمين . .

ومن العجيب أن تسمى السورة باسم يونس ، وليس فيها إلا آية واحدة ورد فيها ذكره ، بينما جاء فيها ذكر نوح وقصته مع قومه فى ثلاث آيات ، وذكر موسى ورسالته وقصته فى نحو عشرين آية . . وهذا من غرائب أسماء سور القرآن الكريم ، التى تسمى بأسماء عجيبة تلفت النظر ، وتسترعى الانتباه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة يونس

١ — الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ .

٢ — أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ .

٣ — إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

٤ — إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ .

٥ — هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

٦ — إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ .

٧ — إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ .

٨ — أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

ثمان آيات كريمة افتتح بهن سورة يونس ، السورة العاشرة من القرآن كتاب الله الكريم .. وهذه الآيات تصل هذه السورة بما قبلها بصلات قوية، وتجعل سورة يونس امتداداً لما بينه الله عز وجل فى ختام التوبة ، ففى آخر التوبة إعلان إلى العرب برسالة محمد ووجوب الإيمان بها ، وفى مطلع هذه السورة تعجب من تعجب المشركين من أن يوحى إلى رسول من العرب برسالة من السماء . وهذه الآيات الثمان فيها تمجيد للقرآن الكريم ، وسخرية ممن يتعجبون من أن يصطفى الله من العرب رسولا يبلغهم ويبلغ الإنسانية كلها رسالة الله ، ويبشر المؤمنين برضاء الله ؛ ومن عجب أن يرمى المشركون والكافرون محمدا بالسحر لأنه يبلغ رسالة من الله إلى عباده ، وكأنهم ينكرون قدرة الله ، ومن الذى يستطيع أن يجحدها ، أفليست مظاهر قدرة الله ماثلة أمام الإنسان فى السماء والأرض ، بل إن من قدرة الله أن يكون مرجع الخلق جميعا إليه ، لأنه يبدأ الخلق ثم يعيده مرة أخرى ، لينال كل إنسان جزاء عمله ، المؤمن له الجنة والنعيم ، والكافر له العذاب الأليم . . ثم من ذا الذى ينكر قدرة الله ، أليس فيما خلقه الله من الشمس وما فيها من ضياء ، والقمر وما فيه من نور ومن معرفة بالمواقيت ، ومن اختلاف الليل والنهار : تعاقبهما أو اختلافهما بالزيادة والنقصان ، ومما خلق الله فى السموات والأرض؛ أليس فى ذلك كله آيات لقوم يتقون ويتعظون ويؤمنون بالله ، أما المكذبون الكافرون والجاحدون والذين لا يرجون لقاء الله ، والذين يرضون بالحياة

الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آيات الله غافلون ، فأولئك مأواهم النار جزاء لهم بما كانوا يكسبون . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الثمان الكريمة : « الر » قال ابن عباس والضحاك : الر معناها : أنا الله أعلم وأرى، وقيل : معناها : أنا الرب لا رب غيرى . وقال سعيد بن جبير : الر وحم ونون حروف اسم الرحمن ؛ واتفقوا على أن «الر» وحده ليس آية ، واتفقوا على أن قوله تعالى : « طه » وحده آية ، والفرق : أن قوله تعالى : « الر » لا يشاكل تقاطع الآى التى بعده ، بخلاف قوله تعالى : طه ، فإنه يشاكل مقاطع الآى التى بعده « تلك » أى الآيات العظيمة البالغة التى اشتملت عليها هذه السورة أو هذه الحروف المقطعة المشيرة إلى أن القرآن كلام الله ، «آيات الكتاب » أى الذكر الجامع لكل خير ، وهو هذا القرآن الذى وافق كل ما فيه من القصص كل ما فى التوراة والإنجيل من ذلك ، فدل ذلك على صدق الآتى به قطعا ، لأنه لم يكن يعرف شيئا من الكتابين ، ولا جالس أحدا يعلمه « الحكيم » أى المحكم « أكان للناس » أى أهل مكة - استفهام إنكار للتعجب « عجبا » العجب تغير النفس بما لا تعرف سببه مما خرج عن العادة . وقد ذكر القرآن الكريم الحامل على العجب بقوله تعالى : « إنا أوحينا » أى إيحاؤنا « إلى رجل منهم » أى من العرب أهل مكة ومن قريش ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يعرفون صدقه ونسبه وأمانته ، قيل: كانوا يقولون : العجب أن الله تعالى لم يجد رسولا يرسله للناس إلا يتيم أبى طالب ، وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم عن الأمور المعاجلة وجهلهم بحقيقة الوحى والنبوة ، وهو لم يكن صلى الله عليه وسلم يقصر عن عظمائهم فى شىء إلا فى المال ، والمال أهون شىء فى هذا الباب ، ولذلك كان أكثر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك ، وقد قال تعالى « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى » « أن أنذر الناس » عامة أى أعلمهم مع الخوف ما أمامهم من البعث وغيره « وبشر الذين آمنوا » إنما عمهم فى الإنذار لأنه قل أن يسلم أحد من كبيرة أو صغيرة أو هفوة جليلة أو حقيرة على اختلاف الرتب وتباين المقامات

وخصص البشارة بالمؤمن إذ ليس للكافر مايصح أن يبشر به « أن » أى بأن « لهم قدم » أى منزلة « صدق عنـد ربهم » اختلف المفسرون وأهل اللغة فى معنى « قدم صدق » : فقال ابن عباس أجرا حسنا بمـا قدموا من أعمالهم ، وقال مجاهد : الأعمال الصالحة من صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم ، وقال الحسن : عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه ، وقال عطاء : مقام صدق لازوال له ولا بؤس فيه ، وقال زيد بن أسلم : هو شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأضيف القدم إلى الصدق وهو صفته ، وقال أبو عبيدة : كل سابق فى خير أو شر فهو عند العرب قدم ، وهو مؤنث فيقال : قدم حسنة أو قدم صالحة « قال الـكافرون إن هـذا لساحر مبين » قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر بكسر السين وسكون الحاء على أن الاشارة للقرآن المشتمل على ذلك ، وقرأ الباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء على أن الإشارة للنبى صلى الله عليه وسلم « إن ربكم » الموجد لـكم والمربى والمحسن هو « الله الذى خلق » أى قدر وأوجد « السموات والأرض » على عظمتهمـا وعلى اتساعهما وكثرة مافيهما من المنافع « فى ستة أيام » من أيام الدنيا أى فى قدرها ، لأنه لم يكن ثم شمس ، ولوشاء لخلقهما فى لمحة واحدة ، والعدول عنه ، وإنما هو لتعليم خلقه التثبت ، واليوم يراد به اليوم مع ليلته ، وقد يراد به النهار وحده ، والغالب فى اللغة أنه مراد باليوم اليوم بليلته ، وقد يكون المراد باليوم هنا الطور والمدة والحين ، لا مقدار اليوم المعروف ، ولمـا أوجد سبحانه وتعالى هـذا الخلق الـكبير المتباعد الأقطار الواسع الانتشار المفتقر إلى عظيم التدبير ولطيف التصريف والتقدير ، عبر سبحانه وتعـالى عن عمله فيه عمل الملوك فى ممالـكهم بقوله مشيرا إلى عظمته « ثم استوى » أى عمل فى تدبيره وإتقان مافيه وإحكامه « على العرش » وقد تقدم وصفه فى سـورة الأعراف بالعظمة وليست ثم للترتيب بل كناية عن علو الرتبة وبعد منازلها ، ثم بين ذلك الاستواء بقوله « يدبر الأمر » كله فلا يخفى عليه خافية أمر من الأمور ، لأن التدبير أعدل أحوال الملك ، فالاستواء كـناية عنه « ما من شفيع إلا من بعد إذنه » جل وعلا ، وهذا رد على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله ، وفيه

إثبات الشفاعة لمن أذن له « ذلكم الله » أى الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية « ربكم » أى الذى يستحق العبادة منكم « فاعبدوه » أى وحدوه ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع ، فإن عبادتكم مع الشريك ليست عبادة « أفلا تذكرون » المستحق للربوبية والعبادة لا ماتعبدون « إليه » تعالى « مرجعكم » أى أى رجوعكم بالموت والنشور حالة كونكم « جميعا » لا يتخلف منكم أحد فاستعدوا للقائه « وعد الله » مصدر منصوب بفعله المقدر مؤكد لنفسه ، لأن قوله تعالى « إليه مرجعكم » وعد من الله « حقا » أى صدقا لا خلف فيه مصدر آخر منصوب بفعله المقدر مؤكد لغيره ، وهو مادل عليه وعد الله « إنه يبدأ الخلق » أى يحييهم ابتداء « ثم يعيده » أى ثم يميتهم ثم يحييهم ، وفى هذا دليل على الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ، ورد على منكرى البعث ووقوعه لأن القادر على خلق هذه الأجسام المؤلفة والأعضاء المركبة على غير مثال سبق ، قادر على إعادتها بعد تفريقها بالموت والبلاء ، فيركب تلك الأجزاء تركيباً ثانيا ويخلق الإنسان الأول مرة أخرى ، فإذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه إيصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصى « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط » أى بالعدل لا ينقص من أجورهم شيئا « والذين كفروا لهم شراب من حميم » وهو ماء حار قد انتهى حره « وعذاب أليم » أى بالغ فى الإيلام « بما كانوا يكفرون » أى بسبب كفرهم « هو الذى جعل الشمس ضياء » أى ذات ضياء « والقمر نورا » أى ذا نور ، وخص الشمس بالضياء لأنه أقوى وآكد من النور ، وخص القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء ، لأن الشمس نيرة فى ذاتها والقمر نير بمقابلته الشمس « وقدره منازل » الضمير يرجع إلى الشمس والقمر ، أى قدر مسير كل واحد منهما منازل ، أو قدره ذا منازل ، أو يرجع الى القمر فقط ، وتخصيصه بالذكر لقربه ولمعاينة منازله وإناطة أحكام الشرع به « لتعلموا عدد السنين والحساب » أى حساب الأوقات من الأشهر والأيام فى معاملتكم وتصرفاتكم ، لأن الشهور المعتبرة فى الشريعة مبنية على رؤية الأهلة والسنة المعتبرة فى الشريعة هى السنة

القمرية ، كما قال تعالى « إن عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهرا فى كتاب الله » .
وانتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر عظيم ، والشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل ، وبحركة الشمس تنفصل السنة إلى هذه الفصول الأربعة ، وبالفصول الأربعة ينتظم مصالح هذا العالم « ماخلق الله ذلك » وهو ماسبق ذكره « إلا بالحق » أى لم يخلق ذلك باطلا ولا عبثا ، تعالى الله عن ذلك ـ اظهاراً لقدرته ودلائل وحدانيته ، ونظيره قوله تعالى فى سورة آل عمران « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا » ، وقال تعالى فى سورة أخرى « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا »... « يفصل » أى يبين « الآيات » أى الدلائل الباهرة واحدة فى إثر واحدة بيانا شافيا « لقوم يعلمون » فانهم المنتفعون بالتأمل فيها .

ولما استدل سبحانه وتعالى على إثبات الألوهية والتوحيد بقوله تعالى « إن ربكم الذى خلق السموات والأرض » وثانياً أحوال الشمس والقمر ، استدل ثالثاً بقوله تعالى « إن فى اختلاف الليل والنهار » أى بالمجىء والذهاب والزيادة والنقصان ، ورابعها قوله تعالى « وما خلق الله فى السموات » من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك « والأرض » أى ما خلق الله فى الأرض من حيوان وجبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك « لآيات » أى دلالات على قدرته تعالى « لقوم يتقون » الله فإنه يحملهم على التفكر والتذكر ، وخصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بها ، ومن تدبر فى هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لسعى الناس فيها وأن خالقها وخالقهم ما أهملهم بل جعلها دار عمل لهم ، وإذا كان كذلك فلابد من أمر ونهى ثم من ثواب وعقاب ، ليتميز المحسن عن المسيء ، وهذه الأحوال فى الحقيقة دالة على صحة القول بإثبات المبدأ وإثبات المعاد ، ولما أقام الله سبحانه وتعالى الدلائل القاهرة على وجوب الإيمان بالله وقدرته وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر ، شرع فى شرح أحوال من يكفر بها ، وشرح أحوال من يؤمن بها ، وقد ابتدأ بأولها ووصفه بأربع صفات ، أما الصفة الأولى فقوله تعالى : « إن الذين لا يرجون لقاءنا » أى لا يخافونه لإنكارهم البعث وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها فهم مكذبون

بالثواب والعقاب ، والرجاء يكون بمعنى الخوف وبمعنى الطمع : فمن الأول قول العرب : فلان لا يرجو فلانا بمعنى لا يخافه ، ومنه قوله تعالى « مالكم لا ترجون لله وقارا » ، ومن الثانى قولهم : فلان يرجو فلانا ، أى يطمع فيه ، والمعنى لا يطمعون فى ثوابنا ، والصفة الثانية والثالثة قوله تعالى « ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها » أى فيعملون لها عمل المقيم فيها مع ما يشاهدونه من سرعة زوالها منهمكين فى لذاتها وزخارفها وسكنوا فيها سكون من لا ينزعج عنها ، والصفة الرابعة قوله تعالى « والذين هم عن آياتنا » أى دلائل وحدانيتنا « غافلون » أى تاركون النظر فيها بمنزلة الغافل عن الشىء الذى لا يخطر بباله طول عمره ذكره ذلك الشىء ؛ وبالجملة فهذه الصفات الأربع دالة على شدة بعدهم عن طلب السعادة الأخروية ، ويحتمل أن الصفة الأخيرة لفريق آخر ، ويكون المراد بالأولين من أنكر البعث ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، وبالآخرة من ألهاه حب العاجل عن التأمل فى الآجل والإعداد له ، ولما وصفهم الله بتلك الصفات قال « أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » من الشرك والمعاصى ، ولما شرح أحوال المنكرين الجاحدين ذكر تعالى شرح من يؤمن بها فقال ..

٩ — إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ .

١٠ — دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

فى هاتين الآيتين الكريمتين يذكر الله عز وجل ثواب المؤمنين برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وجزاءهم الكريم عند الله فى الآخرة ..

ففى هاتين الآيتين الكريمتين اللتين وعد المؤمنين فيهما بالهداية ، ووعدهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، واللتين ذكر فيهما أن دعوة المؤمنين فى الجنة يوم القيامة : أن سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ..

ولما شرح الله أحوال المنكرين الجاحدين ذكر تعالى من يؤمن بها فقال : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ، والأعمال الصالحة عبارة عن الأعمال التى تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة ، والأعمال المذمومة ما يكون بالضد من ذلك « يهديهم » أى يرشدهم « ربهم بإيمانهم » أى بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيل يؤدى إلى الجنة ، أو لما يريدونه فى الجنة ، أو لإدراك الحقائق ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » ، وقال مجاهد : المؤمنون يكون لهم نور يمشى بهم إلى الجنة ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة حسنة فيقول : أنا عملك ، فيكون له نورا وقائدا إلى الجنة ، والكافر إذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة سيئة فيقول : أنا عملك ، فينطلق به حتى يدخله النار : ومفهوم ترتب الهداية على الإيمان والعمل الصالح قد دل على أن سبب الهداية هو الإيمان والعمل الصالح ، لكن دل منطوق قوله جل وعلا (إيمانهم) على استقلال الإيمان وأن العمل الصالح كالتتمة ، ثم إنه تعالى لما وصفهم بالإيمان والأعمال الصالحة ذكر بعد ذلك درجات كراماتهم ومراتب سعاداتهم وهى أربعة : الأولى قوله تعالى « تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » أى يكونون جالسين على سرر مرفوعة فى البساتين والأنهار تجرى من بين أيديهم ينظرون إليها من أعالى أسرتهم وقصورهم ، ونظيره قوله تعالى « قد جعل ربك تحتك سريا » ، الثانية قوله تعالى « دعواهم فيها » قال بعض المفسرين : أى طلبهم لما يشتهون فى الجنة أن يقولوا « سبحانك » أى ننزهك من كل سوء ونقيصة « اللهم » أى يا الله ، فالمراد بقوله « سبحانك اللهم » اشتغال أهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله تعالى والثناء عليه بما هو أهله . وفى هذا الذكر سرورهم وابتهاجهم وكمال لذاتهم ويدل على هذا ما روى عن جابر رضى الله تعالى عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس ، الثالثة قوله تعالى : « وتحيتهم » أى فيما بينهم وتحية الملائكة لهم « فيها » أى فى الجنة « سلام » أى وتأتيهم الملائكة أيضا من عند ربهم

بالسلام ، قال تعالى : والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ، وقال تعالى : سلام قولا من رب رحيم ، الرابعة قوله تعالى « وآخر دعواهم » أى وآخر دعائهم « أن الحمد لله رب العالمين » أى أن يقولوا ذلك ، وقال الزجاج : اعلم أن أهل الجنة يفتتحون بتعظيم الله تعالى وتنزيهه ويختمون بشكره والثناء عليه ، وقال البيضاوى : المعنى أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ، ثم حيتهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بألوان الكرامات ، أو حياهم الله فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الجلال ...

* * *

وبذلك ينتهى الربع الأول من سورة يونس ، وهو فى الحقيقة ليس بربع كامل ، إنما هو تكملة للربع الذى كان ابتداؤه فى آخر سورة التوبة قوله تعالى « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » . . وقد اشتمل مطلع سورة يونس هذا على تمجيد لله عز وجل ما بعده من تمجيد ، فقد بدأت السورة :

١ — بتمجيد شأن القرآن الحكيم ، وبنفى عجب الكافرين من رسالة محمد ، واستغراب المشركين لأن يوحى إلى رجل منهم برسالة سماوية ليبلغها للناس ، ينذرهم ويبشرهم ، وأى عجب فى رسالة محمد ؟ أليس قد أرسل إلى رسل وأنبياء من قبله ، إن الإنسانية كلها وتاريخ العالم جميعه سوف يذكران محمدا ورسالته الهادية بالفخر والإعجاب .

ولقد مضى على انتقال رسول البشرية محمد صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى نحو أربعة عشر قرنا ، ولا تزال عظمته ملء القلوب والأسماع ، وذكراه نشيد الحياة الظامئة إلى نبع هذا الإلهام الكريم ، وإلى فيض هذه البطولة الفذة ، والعظمة الكاملة ، إذا ذكر المسلمون هذا النبى الأمى تقديسا للرسالة التى حملها ، وبلغها عن الله ، ونشرها فى الخافقين ، وإيمانا بسمو ما جاء به من عقيدة وتشريع . . . فإن الإنسانية كلها لتذكر أنه رسولها الفذ الكريم ، وأبوها

البر الرحيم ، والعلم المفرد فى تاريخها الحافل المديد ، إن عظمته عليه السلام ليست مستمدة من عصبية أو جاه أو مال ، ولا من عظمة الأمة التى ظهر فيها ، ولا من سمو حسبه وشرفه ، وجلال شخصيته ، وكمال خلقه ، وسعة أفقه ، وأنه المثل الأعلى للإنسان الكامل ، وأنه عاش مجاهداً ، ومات مجاهداً ، فى سبيل الله والحق والهدى والنور ، فحسب . وإنما ترجع مع ذلك إلى أنه الرسول المبعوث الذى اختارته العناية الإلهية من بين الخلق ، ليبلغ رسالة الله إلى العالم ، على فترة من الرسل . ضل فيها الناس وجهلوا هداية السماء . التى بشر بها الأنبياء والمرسلون . وترجع إلى أنه جاء بآخر الرسالات لتكون دين البشرية عامة ، وعقيدة الناس قاطبة وهى الفطرة التى فطر الناس عليها ، فقد دعت إلى التوحيد المطلق ، وقررت مبادىء العدالة والحرية والمساواة والإخاء بين الناس كافة ، وكانت دين البشرية بسمو روحها ، وجلال نزعاتها ونبل أهدافها ، ورفعها من كرامة الإنسان فى الحياة ، وديمقراطيتها الحقة وما سنته من حب ورحمة وتعاون ، وبما تدعو إليه من إيقاظ للضمير ، وشعور بالمسئولية ، وتقدير للعهود والحرمات ، ونشر للعلم والعمران والمدنية ، وحرب على الوثنية والشرك ، والضلال والفساد ، والرذائل والمنكرات ، والأهواء الضالة ، والأوهام الضارة ، والشهوات الجامحة ، والخرافات الكاذبة ، والتقاليد البالية . وبحسب محمد عظمة أنه أول داع إلى الأخوة الإنسانية ، والزمالة البشرية ، وأنه منع حرب العصبيات والتقاليد الفاسدة ، وجمع الناس تحت لواء واحد من هدى الله وفى ظل رسالة كاملة هى شريعة الله . ثم لم يمض إلى جوار ربه ، إلا وقد جمع العرب عليها ودعا الملوك والأمراء إليها ، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، إلى كسرى ، وملك البحرين والحبشة ، وحاكم مصر ، وهرقل قائد الدولة الرومانية الشرقية ، وما أجل ما يقول فى رسالته إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم » . من محمد عبد الله ورسوله ، إلى هرقل عظيم الروم — سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، إسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما

عليك إثم الأريسيين — عامة الشعب — يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون » .

وحمل خلفاؤه من بعده عبء هداية الأمم ، وتحرير الإنسانية ، فوصلت هذه الرسالة إلى أطراف الدنيا ، وقامت عليها حضارة مشرقة ، ولم تزل عقيدة كثير من الأمم والشعوب ، ولن تزال حية بما فيها من حرارة وحياة ونمو وتجدد ، ولقد اعترف أفذاذ مفكرى الغرب بفضل محمد على الحياة ، وبأياديه الجليلة على الحضارة ، يقول تولستوى : « مما لا ريب فيه أن النبي محمداً من أعظم الرجال المصلحين ، الذين خدموا الحياة خدمة جليلة ، ويكفيه فخرا أنه هدى أمة إلى الحق ، وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام » ، ويقول توماس كارليل فى كتابه الأبطال : « إن الرسالة التى أداها ذلك الرسول الكريم مازالت السراج المنير مدة ثلاثة عشر قرنا لأكثر من مائتى مليون من البشر ، وإن رجلا كاذبا لا يستطيع أن يوجد دينا وينشره ، عجباً والله . وعجيب وأيم الله أمية محمد ، فلم يقتبس من نور أى إنسان آخر ، ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يك إلا كجميع الأنبياء ، أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية . . وصدق الله فيما يقول : « يا أيها النبي : إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً » .

وعندما نذكر محمدا ورسالته نذكر ذكريات المجد التليد والعظمة الخالدة ، ويذكر الناس معنا قصة هذه العبقرية الحقة ، والزعامة الصحيحة ، فيستبد بهم الإعجاب ، ويزدهيهم الفخار ، ويقولون سبحان الله ! ! إن هذه أيادى محمد الكريمة على الإنسانية لا يكاد يعيها العد ، وتنوء الحياة بدين محمد الفادح عليها ، ويبهت الفكر حين يجد أن هذا الأمى العربى قد بدل سير التاريخ ، وحول مجراه ، وغير مجرى الحضارة ، ونهج للإنسانية مناهج لم تعرفها من قبل ولا من بعد ، لأنها خلاصة المثل العليا فى الأخلاق والفضائل والآداب ، وفى الاجتماع والسياسة

والاقتصاد ، وفى جميع شئون الحياة والتفكير ، وبحق إن محمداً لرسول الإخاء الإنسانى ، ونبى البشرية كافة ، والعبقرى المفدى الذى لم يلد التاريخ له مثيلا طول الأجيال والقرون التى تعاقبت على الحياة والناس . . .

وبحق كانت رسالة محمد ميلاد الحضارة والثقافة والمدنية والنور والهدى والخير والرحمة والحرية والإخاء والمساواة والتعاون بين الناس كافة. يقول « بوسورث سميث » : كان محمد موفقا توفيقا فريداً فى بابه لم يحدثنا التاريخ عن مثله ، فقد جمع بين زعامات ثلاث ، هى زعامة الشعب وزعامة الدين وزعامة الدولة ، وبرغم أنه كان أميا ، فقد جاء بكتاب جمع بين البلاغة والتشريع والعبادات ، وهو الآن موضع احترام أكثر من سدس العالم ، كمعجزة هى دليل العقل والحكمة أكثر من أى معجزة سواها . . ويقول لامرتين الشاعر الفرنسى المشهور : أترون محمدا كان أخا خداع وتدليس ، وصاحب باطل ومين ؟ كلا بعدما وعينا تاريخه ودرسنا حياته ، فإن الخداع والتدليس والباطل والمين : كل أولئك من نفاق العقائد ، وليس للنفاق قوة العقيدة ، وليس للكذب قوة الصدق ، وإذا كانت قوة الصعود والرمى فى علم الطبيعة والحركات الآلية هى المقياس الصحيح لقوة المصدر الرسمى التى تنفذ منه الرمية وتظهر فى الأفق من القذيفة ، فإن العمل والفعل الذى يحدثه المحدث ، فى علم التاريخ وسجل الخلود وكتاب الإنسانية ، هو المقياس الصحيح لمقدار الوحى وقوة القلب والوجدان والفكر السامية العالية التى تنفذ إلى مكان بعيد ، وتبقى زمناً طويلا ، وتمشى فى الحياة أبدا . وهى بلا ريب فكرة قوية صدرت عن وجدان قوى ، ولكى تكون تلك الفكرة قوية ينبغى أن يكون ظاهرها وباطنها الإخلاص ، وعلمها الأكبر الحق والصدق . ولا بد أن تكون معقولة يقبلها اللب ويعتمدها الذهن . ولا ريب أن ذلك ينطبق على محمد ورسالته والوحى الذى تنزل عليه . فإن حياته وقوة وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته ، وشهامته وجرأته وبأسه فى لقاء مالقيه من عبدة الأوثان ، وثباته وبقاءه ثلاثة عشر عاما يدعو

دعوته فى وسط أعدائه وخصومه فى قلب مكة ونواديها ومجامع أهلها . وتقبله سخرية الساخرين ، وهزؤه بهزء الهازئين ، وحميته فى نشر رسالته ، وتوافره على السعى فى إظهار دعوته ، وحروبه التى كان جيشه فيها أقل من عدوه ، ووثوقه بالنجاح وإيمانه بالظفر . وإعلاء كلمته واطمئنانه ورباطة جأشه فى الهزائم . وأناته وصبره حتى يحرز النصر وطماعيته وتطلعه إلى إعلاء الكلمة الإلهية وتأسيس العقيدة الإسلامية ، لافتح الدولة وإنشاء الإمبراطورية وإقامة القيصرية ، ونجواه التى لاتنقطع مع الله ، وقبض الله إياه إلى جواره مع نجاح دينه بعد موته . كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل ومين ، بل كان وراءه عقيدة صادقة ويقين مضىء فى قلبه . وهذا اليقين الذى ملأ روحه هو الذى وهبه القوة على أن يرد إلى الحياة فكرة عظيمة وحجة قائمة ومبدأ مزدوجا ، وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة : الأولى تدل على من هو الله؟ والثانية تنفى ماألصق الوثنيون به ، الأولى حطمت آلهة كاذبة ونكست معبودات باطلة . والأخرى فتحت طريقا جديدا إلى الفكر ومهدت سبيلا للنظر . فالفيلسوف والخطيب والرسول والمشرع والقائد ومسعر الحروب وفاتح أقطار الفكر ، ورائد الإنسان إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ، ومؤسس دين لاوثنية فيه ولا صور ولا رقيات ، ومنشىء عشرين دولة فى الأرض ، وفاتح دولة واحدة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد ؛ ذلكم هو محمد ، فأى رجل لعمركم قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الإنسانية وكان أعظم منه ؟ وأى إنسان صعد هذه المراقى كلها فكان عظيما فى جميعها غير محمد بن عبد الله ؟ ولم يختر الله رسوله الكريم إلى جواره إلا بعد أن أنشأ أمة ، وأسس دولة ، ونشر شريعة الله ودينه الحق فى العالم كله . صلوات الله وسلامه عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيا ، وصلوات الله عليه كلما ذكره الذاكرون ، وحمده الحامدون .

ولقد خفقت أعلام الإسلام وبنوده فى كل مكان ، وانطلق هداته ودعاته

فى كل قطر ، يبشرون الإنسانية بهدى الله ، ويحررون العقول من جمود التقليد والجهل والخرافات ... يبشرون بحريات الناس والشعوب ، ويطلقون الأمم من اسارها ، ويرفعون عنها الأغلال التى قيدها بها الملوك المستبدون ، والقياصرة المتكبرون . ويمحون ظلال الاستعمار والاضطهاد من الأرض ، ويبطلون ما تعارفت عليه الأجيال من آراء زائفة ، وأفكار باطلة ، وتقاليد ضالة ، فليس الحاكم ظل الله فى الأرض ، وليست الأمم ملكا لملك ، وليس الحكم مغنما لأمير ، وليست هناك وصاية على أمة ، ولا حجر على جماعة ، ولا استغلال أو نهب لمرافق طائفة من الناس لحساب طائفة أخرى .. الحكم شورى ، ولا يجوز أن يستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا . . العدالة والإنصاف والمساواة والإخاء والحرية حق لكل إنسان فى الحياة .. وبعد قليل كانت الجامعات الإسلامية فى قرطبة وطليطلة ، وغرناطة ، وفى القيروان والمهدية ، وفى الفسطاط والقاهرة ، وفى دمشق وحلب ، وفى بغداد والبصرة والكوفة ، وفى بخارى وخوارزم وقزوين ، وفى كل مكان . . كانت تعج بالطلاب والأساتذة ، وتنشر العلم والثقافة والنور فى كل ناحية ، وتقوم على حرية البحث والفكر والرأى ، وعلى الإخلاص فى خدمة الحقيقة ، وعلى التعاون الإنسانى بين شتى العناصر والألوان والأجناس والشعوب ، لخدمة الإنسانية والرقى بالحياة . بينما كانت أوربا تنام فى الظلام ، وتعيش على الأوهام ، وتحيا على الجهل والجمود والقذارة والحجر على الحريات ، وتنتقل من عصور الرق البائدة إلى عهود الإقطاع القاسية المستبدة . فمن مثل محمد فى عظمته وجليل أثره على الدنيا ، وعظيم أياديه على الحياة ؟ ومن مثله من الدعاة والمصلحين والزعماء والفاتحين ، نجح فى رسالته ذلك النجاح المنقطع النظير ؟ ومن مثله كان يعمل لأغراض إنسانية عالية ، فينسى نفسه وأهله وقومه ، ويجاهد لتحطيم رؤوس الضلال ، وشياطين الظلام فى كل مكان ؟ ومن مثله كان مع هذا السلطان العظيم

والنفوذ الضخم ، يعيش مع الفقراء ، ويحيا مع المساكين ، ويعمل فى مهنة أهله ، ويأكل التمر ، ويقنع بالخبز ، مع حسن العشرة والأدب والتواضع والرحمة والرأفة والوفاء وحسن العهد وصلة الرحم والعدل والعفة ، والأمانة والصدق ، والإخلاص لله رب العالمين ؟ ومن مثله حطم رؤوس الاستعمار فى كل مكان ، وهدم الاستبداد فى شتى صوره وأشكاله ، وأقام للحرية منارا عاليا يفىء إلى ظله كل إنسان ؟ إنه لرسول الله إلى الناس كافة ، ونبى البشرية الذى أنقذ الدنيا من ظلمات الجاهلية الأولى ، وقائد العالم إلى النور والعدالة والخير والمساواة . وخاتم الأنبياء والمرسلين . . وصدق الله العظيم : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما » .

٢ — ولقد استدل الله عز وجل فى مطلع هذه السورة الكريمة على صحة رسالة محمد بقدرة الله على كل شىء ، ولم يستدل برسالات الأنبياء من قبل ، لأن السورة مكية ، وهى فى خطاب المشركين ، والمشركون كانوا أميين لا يعرفون رسالة ولا رسلا ، وقد أبان الله عز وجل أنه قادر على إرسال محمد ، لأنه قادر على كل شىء ، وهذه مظاهر قدرته فى السماء والأرض واضحة ظاهرة للعيان .. خلق السموات وخلق الأرض فى ستة أطوار . . ثم استوى على عرش هذا الكون العجيب إلها معبودا ، وخالقا موجودا ، وواحدا أحدا فردا صمدا . . استوى على العرش بسلطانه وهيمنته ونفوذه وإرادته وقدرته ، استوى على العرش ملكا مدبرا ، وإلها مريدا قادرا ، سبحانه وتعالى عما يشركون . . أليس هو الذى يدبر الأمر فى الأرض والسماء ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه ، يشفع لأحد عنده ، ولم يأذن لأحد بهذه الشفاعة ، ولم يعط تلك الشفاعة العظمى لأحد إلا لمحمد صلى الله عليه وسلم . . ذلك الله الذى هذه قدرته ، وتلك إرادته وحكمته ، وهذا نفوذه وسلطانه ، وذلك مجده وكبرياؤه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ، إليه مرجع الناس جميعا بالبعث والنشور والحساب . . وهنا يؤكد الله عز وجل أمر البعث الذى ينكره المشركون ،

ولا يقر به الجاحدون ، فيقول : , وعد الله حقا ، ولماذا ؟ وبأى دليل ؟ قال تعالى : إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، حقا إنه بدأ الخلق ، وسوف يعيده كما بدأه ؛ والقادر على البدء قادر على الإعادة أيضاً . ولماذا يعيد الخلق ؟ يعيدهم ليجزيهم بما عملوا : للمؤمنين الصالحين الجنة والخير، وللكافرين النار والعذاب الأليم . . وبهذا قرر الله عز وجل أمر البعث عرضاً ، كما قرر من قبل صحة القرآن وصحة رسالة محمد عليه السلام ، مستدلا على قدرة الله عز وجل على ذلك بمظاهر قدرته فى الأرض والسماء .

٣ – ويؤكد الله عز وجل فى مطلع هذه السورة كذلك قدرته الباهرة ، هذه القدرة التى صنعت المعجزات ؛ أفتعجز عن رسالة رسول إلى الله . . وما هى شواهد قدرة الله الأخرى ؟ نعم . . إنها شواهد كثيرة . . جعل الشمس ضياء ، والقمر نوراً ، وقدر القمر منازل ، ليعلم الناس عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون . . ثم ماذا ؟ يقول الله تعالى : إن فى اختلاف الليل والنهار . . . لآيات لأولى الألباب ، نعم ، إن فى خلف النهار لليل وخلف الليل للنهار ، وفى زيادة هذا ونقص ذاك ، وفيما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون الله ، أما الذين يجحدون ولا يؤمنون ، والذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين لا يعتبرون بآيات الله ، فأولئك مأواهم النار جزاء بما عملوا وما كانوا يكسبون .

٤ – وكما أن للكافرين النار فللمؤمنين الذين يعملون الصالحات هداية الله لهم بسبب إيمانهم ، ولهم الجنات تجرى من تحتها الأنهار ، ولهم منازل النعيم والثواب ، دعاؤهم لله تنزيه الله وتسبيحه ، وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعائهم لله : الحمد لله رب العالمين ، على ما منحهم من نعيم ، وعلى ما وهبهم من خير ، وعلى ما جزاهم جزاء جميلا بأحسن ما كانوا يعملون .

هذا هو مطلع سورة يونس : تقرير لصدق القرآن ، ولصدق رسالة محمد عليه السلام ، ولأمر البعث ، واستشهاد على إمكان ذلك بقدرة الله الباهرة فى

السماء والأرض ، ثم تقرير لجزاء الناس على أعمالهم : للكافرين غضب الله وعذابه ، وللمؤمنين رضاء الله ونعيمه ، وصدق الله العظيم ، ومن أصدق من الله حديثا ؟

الربع الثانى من سورة يونس

١١ — وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ .

١٢ — وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ .

١٣ — وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ .

١٤ — ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

لما وصف الله تعالى الكفار بأنهم لا يرجون لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وكانوا عن آياته سبحانه غافلين ، بين أن من غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب ، جهلا منهم ، وسفها ، فقال تعالى : « ولو يعجل الله للناس الشر » أى ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم بالشر فيما لهم فيه مضرة ومكروه « استعجالهم بالخير » أى كما يحبون أن يعجل لهم إجابتهم

بالخير « لقضى إليهم أجلهم » أى لأهلكهم . ولكن الله عز وجل يمهلهم ؛ نزلت هذه الآية فى النضر بن الحارث حين قال : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ؛ ويدل عليه قوله تعالى « فنذر » أى نترك « الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم » أى فى تمردهم وعتوهم « يعمهون » أى يترددون متحيرين ، وقيل : هذا فى قول الرجل عند الغضب لأهله وولده : لعنكم الله ، لا بارك الله فيكم ، وقال قتادة : هو دعاء الرجل على نفسه وأهله وماله بما يكره أى يستجاب له فيه ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم إنى أتخذ عندك عهداً لن تخلفنيه ، إنما أنا بشر فأى المؤمنين أذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إلى يوم القيامة . . وقد قوبل التعجيل فى الآية بالاستعجال وكان مقتضى النظم أن يقابل التعجيل بالتعجيل والاستعجال بالاستعجال ، وكأن تقدير الكلام : ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالا كاستعجالهم بالخير، فحذف منه ما حذف لدلالة الباقى عليه ، وقال فى الكشاف : أصل هذا الكلام : ولو يعجل الله الشر تعجيله لهم بالخير، إلا أنه وضع استعجالهم بالخير ، موضع تعجيله لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم . .

ولما حكى الله تعالى عنهم أنهم يستعجلون فى نزول العذاب بين أنهم كاذبون فى ذلك الطلب والاستعجال بقوله تعالى : « وإذا مس الإنسان » أى الكافر « الضر » أى المرض والفقر « دعانا لجنبه » أى على جنبه « أو قاعدا أو قائما » فائدة التردد تعميم الدعاء لجميع الأحوال أو لأصناف المضار ، والمعنى أنه لو نزل بالإنسان أدنى شىء يكرهه ويؤذيه تضرع إلى الله تعالى فى إزالته عنه وفى دفعه عنه ، وذلك يدل على أنه ليس صادقا فى طلب الاستعجال « فلما كشفنا عنه ضره » أى أزلنا عنه ما نزل به « مر » أى مضى على ما كان عليه من الكفر « كأن لم يدعنا » أى كأنه ، فأسقط الضمير على سبيل التخفيف ،

ونظيره قوله تعالى « كأن لم يلبثوا إلى ساعة من نهار » .. « إلى ضر مسه » قال الحسن : نسى ما كان دعا الله فيه وما صنع الله به فى إزالة ذلك البلاء عنه ، وإنما حمل الإنسان فى هذه الآية على الكافر لأن العمل المذكور لا يليق بالمسلم البتة ، وقول بعضهم : كل موضع ورد فيه ذكر الإنسان فالمراد هو الكافر مردود . فقد قال تعالى : هل أتى على الإنسان حين من الدهر . وقال تعالى : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، وقال تعالى : ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ـ وأما المؤمن إذا ابتلى ببلية أومحنة وجب عليه رعاية أمور :

أولها : أن يكون راضياً بقضاء الله تعالى غير معترض بالقلب واللسان عليه ، وإنما وجب عليه ذلك لأنه تعالى مالك على الإطلاق وملك بالاستحقاق ، فله أن يفعل فى ملكه ما شاء ، ولأنه تعالى حكيم على الإطلاق وهو منزه عن فعل العبث ، فكل ما فعله فهو حكمة وصواب ، فيجب عليه الصبر وترك النطق ، فإن أبقى عليه تلك المحنة فهو عدل ، وإن أزالها عنه فهو فضل ..

وثانيها : أنه فى ذلك الوقت إن اشتغل بذكر الله تعالى والثناء عليه بأى دعاء كان ذلك أفضل لقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى : من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، ولأن الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق ، والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظ النفس ، ولا شك أن الأول أفضل ..

وثالثها : أنه تعالى إذا أزال عنه تلك البلية وجب عليه أن يبالغ فى الشكر وأن لا يخلو عن ذلك الشكر فى السراء والضراء وأحوال الشدة والرخاء ، فهذا هو الطريق الصحيح عند نزول البلاء ، وحينئذ يكون المؤمن على الضد من الكافر ؛ لأن الكافر منهمك فى الشهوات والإعراض عن العبادات ، كما قال تعالى « كذلك » أى مثل ما زين لهؤلاء الكافرين هذا العمل القبيح « زين للمسرفين » أى المشركين « ما كانوا يعملون » من القبائح لإعراضهم عن الذكر

واتباعهم الشهوات ، وإنما سمى الكافر مسرفا لأنه أتلف نفسه بتضييعها فى عبادة الأوثان وأتلف ماله فى البحيرة والسائبة والوصيلة ، وكأنه نسى أن الله تعالى مالك الملك ، والخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف شاء ، وقيل : هو الشيطان وذلك بإقدار الله تعالى إياه على ذلك ، وإلا فهو أخس وأحقر « ولقد أهلكنا القرون » أى الأمم الماضية « من قبلكم » يا أهل مكة « لما ظلموا » أى أشركوا « وجاءتهم رسلهم بالبينات » أى الحجج الدالة على صدقهم « وما » أى والحال أنهم ما « كانوا ليؤمنوا » أى وما استقام لهم أن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية ، لعلمه تعالى بأنهم يموتون على كفرهم ، واللام لتأكيد النفى « كذلك » أى مثل ذلك الجزاء العظيم وهو إهلاكهم لما كذبوا رسلهم « نجزى القوم المجرمين » أى نجزيكم يا أهل مكة بتكذيبكم محمدا صلى الله عليه وسلم ، فوضع المظهر موضع المضمر للدلالة على كمال جرمهم وأنهم أعلام فيه « ثم جعلناكم » أى أيها المرسل إليهم أشرف رسلنا « خلائف » جمع خليفة « فى الأرض من بعدهم » أى استخلفناكم فيها بعد القرون التى أهلكناها استخلاف من يمتحنكم « لننظر كيف تعملون » من خير أو شر والله عز وجل أعلم بهم من أنفسهم ، فالشهادة إنما هى لإقامة الحجة ، وهو مثل قوله تعالى : « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » ، وقال رسول الله صلوات الله عليه : إن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، وقال قتادة : صدق الله ربنا ما جعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا ، فأروا الله من أعمالكم خيرا بالليل والنهار ...

١٥ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآءِى نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

١٦ — قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

١٧ — فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ .

فى هذه الآيات الثلاث رد على المشركين الذين كذبوا محمدا فيما بلغه عن ربه من آيات وسور اشتمل عليها القرآن الكريم ، وقالوا : هو كلام محمد ، وهو سحر ، وهو أساطير الأولين ، وقال بعضهم لمحمد : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، فرد عليهم ردا بليغا ، قال لهم : إنه ليس له أن يبدله من تلقاء نفسه ، إن يتبع إلا ما أوحى إليه من ربه ، إنه يخاف بطش الله وعذابه إن لم يبلغ كتاب الله إلى الناس كافة ، ويقول لهم الرسول أيضا : لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به ، ولقد لبثت فيكم عمرا طويلا من قبل نزوله فلم أفتر لكم آية أو سورة ، إنما بلغت ما نزل على من ربى ، ولو كان عند المشركين تدبر لفهموا واعتبروا وارعووا . . ويؤكد القرآن الكريم أنه ليس هناك أحد أظلم ممن يختلق على الله الكذب ، ويفترى عليه الباطل من القول ، وينسب إليه شيئا لم ينزل الله به من سلطان ، وليس كذلك أظلم ممن كذب بآيات الله ، فأولئك هم المجرمون ، ولا يفلح المجرمون أبدا بإذن الله ، وإن أفلحوا فى جمع المال والثروة فلن يفلحوا فى جلب رضاء الله ومثوبته ، ولن يفلحوا فى كسب ثقة أنفسهم بأنفسهم ، ولن يفلحوا فى مستقبل حياتهم ، ولن يفلحوا فى إرضاء ضمائرهم ولا فى خدمة أممهم ومجتمعاتهم . . . إنهم الفاشلون وهم المهزومون المخذولون بإذن الله ...

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « وإذا تتلى عليهم » أى وإذا قرىء على هؤلاء المشركين « آياتنا » أى القرآن الذى أنزلناه إليك يا محمد حالة كون تلك الآيات « بينات » أى ظاهرات تدل على وحدانيتنا وصحة

نبوتك « قال الذين لا يرجون لقاءنا » أى لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لأنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت ، وكل من كان منكرا للبعث بعد الموت فإنه لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا « ائت » أى من عندك « بقرآن » أى كلام مجموع جامع لما يريد « غير هذا » فى نظمه ومعناه « أو بدله » بألفاظ أخرى والمعانى باقية ، وقد كانوا عالمين بأنه صلى الله عليه وسلم مثلهم فى العجز عن ذلك ، ولكنهم قصدوا أن يأخذوا فى التغيير حرصا على إجابة مطلوبهم فيبطل مدعاه أو يهلك ، واختلف فى هذا القائل : فقال قتادة : هم مشركو أهل مكة ، وقال مقاتل : هم خمسة نفر : عبد الله بن أمية الجمحى والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبى قيس العامرى والعاصى بن عامر بن هشام ، قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : إن نؤمن بك فائت بقرآن ليس فيه ترك لعبادة اللات والعزى ومناة ، وليس فيها عيبها ، وإن لم ينزلها الله فقل أنت من عند نفسك ، أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة أو مكان حرام حلالا أو مكان حلال حراما ؛ ولما كان كأنه قيل : فماذا أقول لهم ؟ قال الله تعالى « قل » لهم « ما يكون » أى ما يصح « لى » ولا يتصور بوجه من الوجوه « أن أبدله من تلقاء » أى قبل « نفسى » وإنما اكتفى بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع الإتيان بقرآن آخر « إن » أى ما « أتبع إلا ما يوحى إلى » فيما آمركم به أو أنهاكم عنه ، أى لا آتى بشيء ولا أذر شيئا من نحو ذلك إلا متبعا لوحى الله تعالى وأوامره ، إن نسخت آية تبعت التبديل وليس إلى تبديل ولا نسخ « إنى أخاف إن عصيت ربى » أى بتبديله « عذاب يوم عظيم » فإنى مؤمن به غير مكذب ، ولا شاك كغيرى ممن يتكلم الهذيان بما لا يخاف عاقبته فى ذلك اليوم الذى تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت « قل » يا محمد لهؤلاء المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله « لو شاء الله ما تلوته عليكم » أى لو شاء الله لم ينزل هذا القرآن ولم يأمرنى بقراءته عليكم « ولا أدراكم به » أى ولا أعلمكم به على لسانى ، أو لا أعلمكم به على لسان غيرى « فقد لبثت » أى مكثت « فيكم عمرا » سنين أربعين

« من قبله » أى قبل أن يوحى إلى هذا القرآن لا أتلوه ولا أعلمه ، ففى ذلك إشارة إلى أن هذا القرآن معجز خارق للعادة ، وتقريره أن أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول عمره إلى ذلك الوقت، وكانوا عالمين بأحواله ، وأنه ماطالع كتابا ولا تتلمذ لأستاذ ولا تعلم من أحد ، ثم بعد أربعين سنة على هذا الوجه جاءهم بهذا الكتاب العظيم ، المشتمل على أصول الدين وفلسفة الحياة وقوانين المدنية ، وعلى لطائف من علم الأخلاق وأسرار قصص الأولين ؛ وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء ؛ وكل من له عقل سليم فإنه يعرف أن مثل هذا لا يحصل إلا بالوحى والإلهام من الله تعالى .. « أفلا تعقلون » أى أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر، لتعلموا أن مثل هذا الكتاب العظيم - على من لم يتعلم ولم يتتلمذ ولم يطالع كتابا ولا يمارس مجادلة - لا يكون إلا على سبيل الوحى من الله تعالى ، وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم : ائت بقرآن غير هذا ، من إضافة الافتراء إليه .. وقد أقام صلى الله عليه وسلم بعد أن أوحى إليه بمكة ثلاث عشرة سنة ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين ، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة ..

ولما أقيمت الدلائل على أن هذا القرآن من عند الله وجب أن يقال : إنه ليس فى الدنيا أحد أجهل ولا أظلم على نفسه من منكر ذلك، كما قال تعالى « فمن » أى لا أحد « أظلم ممن افترى » أى تعمد « على الله كذبا » أى كذب كان من شريك أو ولد أو غير ذلك ، وكان الأصل مبنياً على تقدير أن لا يكون هذا القرآن من عند الله ، ولكنه وضع هذا الظاهر مكانه تعميما وتعليقاً للحكم بالوصف « أو كذب بآياته » أى دلائل توحيده فكفر بها كما فعلتم أنتم، وذلك من أعظم الكذب « إنه » أى الشأن « لا يفلح » بوجه من الوجوه « المجرمون » أى المشركون ، تأكيد لما سبق من هذين الوضعين ...

١٨ — وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

١٩ — وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

٢٠ — وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ .

٢١ — وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ .

أربع آيات كريمة جاءت عقب الآيات السابقة ، التى دار مغزاها حول القرآن رسالة الله الخالدة ، وتناولت الآية الأولى من هذه الآيات الأربع التى معنا بيان سفه المشركين وحمقهم وجهلهم ، لأنهم يعبدون من دون الله أصناما لا تنفعهم ولا تضرهم ، ويدّعون أنها تشفع لهم يوم القيامة عند الله ، وقد رد الله عز وجل عليهم ردا بليغا وأنكر ما يزعمون ، وبين كذبهم فيما يدعون ؛ فقال ساخرا منهم بأسلوب الاستفهام : أتعلمون الله بأشياء لا يعلم عنها ؟ وإذا كان الله لا يعلم عن أشياء ، فى أى مكان فى الأرض والسماء ، فإن هذه الأشياء تكون مما لا حقيقة لها ، وتكون مختلقة مفتراة ، وتكون مزعومة كاذبة لا وجود لها ، ولا حقيقة لمغزاها ، والله عز وجل منزه عن الشريك وهو مبرأ مما يشركون .. ويقرر الله عز وجل فى الآية الثانية أن الناس كانوا على عقيدة واحدة ، وكانوا على اتفاق فى الدين والعبادة ، ولكن زاغت بهم الأهواء ، وزاغت بهم الشياطين ، وغووا وضلوا واختلفوا ، ففريق استمر على التوحيد ، وآخرون عبدوا الأوثان ، وآخرون

عبدوا بعض مظاهر الطبيعة ، وآخرون عبدوا معبودات أخرى لا حقيقة لها ، ولا يصح للعقل الإنسانى أن ينحرف إلى عبادتها . ولولا قضاء الله وحكمته لحكم عز وجل بينهم فيما اختلفوا فيه ، بإهلاكهم أو بسبق إرادته للوحدة بينهم ، وأن يكونوا أمة واحدة . . وفى الآية الثالثة يرد الله عز وجل على بعض مزاعمهم الباطلة ، من قولهم : لن نؤمن بمحمد إلا إذا نزلت عليه آية من الله تكون معجزة واضحة ، ودليلا على صدق رسالته ، وكأنهم لم يعترفوا بالقرآن الكريم معجزة من الله ، ولم يصدقوا أنه أضخم معجزة شهدتها الإنسانية ، ويقول الله عز وجل لهم : إن كون الله ينزل آية أو لا ينزلها من أمور الغيب ، والغيب بيد الله ، وعليهم أن ينتظروا هذا الغيب ، ومحمد رسول الله معهم من المنتظرين . أسلوب من أساليب التهكم والسخرية ليس له مثيل فى روعته وبلاغته . . وفى معنى الآية الثانية قوله تعالى فى سورة البقرة :

١ — « ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعده من بعد ما جاءتهم البينات ، ولكن اختلفوا ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد » - آية ٢٥٣ .

٢ — « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » - آية ٢١٣ ، وقد سبق أن أفضنا فى بيان ذلك فى موضعه من الجزء الثانى إفاضة واسعة ...

والآية الأخيرة ترشد إلى طبيعة الإنسان من الكفر حين ينزل به الخير والرحمة ، والإيمان فى الشدة والمحنة ...

يقول الله عز وجل : « ويعبدون » أى يعبد هؤلاء المشركون « من دون الله » أى غيره « ما لا يضرهم » أى إن لم يعبدوه « ولا ينفعهم » أى إن

عبدوه .. وهو الأصنام ، وكونها لا تنفع ولا تضر لأنها حجارة وجماد ، والكفار قادرون على التصرف فيها بالإصلاح وبالإفساد ، وإذا كان العابد أصلح حالا من المعبود كانت العبادة باطلة ؛ لأن العبادة أعظم أنواع التعظيم ، فلا تليق إلا بمن يضر وينفع ، بأن يثيب على الطاعة ويعاقب على المعصية . وكان أهل الطائف يعبدون اللات ، وأهل مكة يعبدون العزى ومناة وهبل ، وأسافا ونائلة . . « ويقولون هؤلاء » أى الأصنام التى نعبدها « شفعاؤنا عند الله » نظير هذا قوله تعالى إخبارا عنهم : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وقيل : إنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم . وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر يكونون شفعاء لهم عند الله ، قال الرازى : ونظيره فى هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الصالحين على اعتقادهم أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله ... ولكن تعظيمهم لهؤلاء ليس كتعظيم الكفار ، وفى هذه الشفاعة قولان :

أحدهما : أنهم يزعمون أنها تشفع لهم فيما يهمهم من أمور الدنيا فى إصلاح معائشهم ، قال الحسن : لأنهم كانوا لا يعتقدون بعث الموتى .

والثانى : أنهم يزعمون أنها تشفع لهم فى الآخرة إن يكن بعث ؛ وكأنهم كانوا شاكين فيه ، وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة موجدهم الضار النافع إلى عبادة ما يعلم قطعا أنه لا يضر ولا ينفع . على توهم أنه ربما يشفع لهم ؛ قال النضر بن الحارث : إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى « قل » يا محمد لهؤلاء المشركين « أتنبئون » أى تخبرون « الله » وهو العالم بكل شىء المحيط بكل محيط « بما لا يعلم » أى لا يوجد له به علم فى وقت من الأوقات والاستفهام إنكار تهكم بهم وبما ادعوا من المحال الذى هو شفاعة الأصنام ، وإعلامه بأن إنباءهم به باطل غير منطو تحت الصحة ، فكأنهم يخبرون بشىء لا يتعلق به علمه « فى السموات ولا فى الأرض » تأكيد لنفيه ، لأن ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم ، وهذا على طريق الإلزام ، والمقصود نفى علم الله

بذلك الشفيع وأنه لا وجود له البتة ، لأنه لو كان موجودا لكان معلوما لله تعالى ، وحيث لم يكن معلوما لله تعالى وجب أن لا يكون معلوما موجوداً ، وهذا مثل مشهور فى العرب ، فإن الإنسان إذا أراد نفى شىء عن نفسه يقول : ما علم الله ذلك منى ، ومقصوده أنه ما حصل ذلك الشىء منه قط ولا وقع « سبحانه » أى تنزيها له عن كل شىء فيه شائبة نقص « وتعالى عما يشركون » أى عن إشراكهم أو عن الشركاء الذين يشركونهم به ، وقرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب بقوله «أتنبئون الله» والباقون بالياء على الغيبة فكأنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : قل أنت: سبحانه وتعالى عما يشركون ، ويجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى هو الذى نزه نفسه عما قالوه ، فقال : سبحانه وتعالى عما يشركون ، ولما أقام الله تعالى الدلالة القاهرة على فساد القوم بعبادة الأصنام بين السبب فى كيفية حدوث هذا المذهب الفاسد بقوله : « وما كان الناس إلا أمة واحدة » أى جميعاً على الدين الحق وهو دين الإسلام ، وقيل : على الضلال فى فترة الرسل ، واختلف القائلون بالأول أنهم متى كانوا كذلك ، فقال ابن عباس ومجاهد : كانوا على دين الإسلام من لدن آدم إلى أن قتل قابيل هابيل ، وقال قوم : إلى زمن نوح أى عشرة قرون ، ثم اختلفوا فى عهد نوح ، فبعث الله تعالى إليهم نوحا ، وقال آخرون : كانوا على دين الإسلام من زمن نوح بعد الغرق ، حيث لم يذر الله على الأرض من الكافرين دياراً إلى أن ظهر الكفر فيهم ، وقال آخرون : من عهد إبراهيم عليه السلام إلى زمن عمرو بن لحى ، وهذا القائل قال : المراد من الناس فى قوله تعالى : « وما كان الناس إلا أمة واحدة » العرب خاصة « فاختلفوا » بأن ثبت بعض وكفر بعض « ولولا كلمة سبقت من ربك » وهو تأخير العذاب إلى يوم القيامة ، وتلك الكلمة هى قوله سبحانه : سبقت رحمتى غضبى ، فلما كانت رحمته غالبة اقتضت تلك الرحمة الغالبة إسبال الستر على الجاهل الضال وإمهاله إلى وقت الوجدان «لقضى بينهم» أى الناس بنزول العذاب فى الدنيا دون يوم القيامة « فيما فيه يختلفون » من الدين بإهلاك المبطل

وإبقاء المحق ، وكان ذلك فصلا بينهم « ويقولون » أى كفار مكة « لولا » أى هلا « أنزل عليه » أى محمد صلى الله عليه وسلم « آية من ربه » أى غير ما جاء به كما كان للأنبياء من الناقة والعصاة واليد « فقل » يا محمد لهؤلاء الكفرة المعاندين « إنما الغيب » أى ما غاب عن العباد أمره « لله » أى هو المختص بعلمه ومنه الآيات ، فلا يأتى بها إلا هو ؛ وإنما علىّ التبليغ « فانتظروا » أى نزول ما اقترحتموه ، وقيل : نزول العذاب إن لم يؤمنوا « إنى معكم من المنتظرين » أى لما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجحودكم الآيات ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة فى الآيات مع عجزكم عن معارضته بتبديل أو غيره ، فأى عناد أعظم من هذا « وإذا إذقنا الناس » أى كفار مكة « رحمة » أى صحة وسعة « من بعد ضراء » أى شدة وبلاء « مستهم » سلط الله تعالى القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون ، ثم رحمهم فأنزل عليهم المطر الكثير حتى أخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك فلم يتعظوا بل رجعوا إلى العناد والكفر ، كما قال تعالى : « إذا لهم مكر فى آياتنا » بالاستهزاء والتكذيب ، وقيل : لا يقولون : هذا من رزق الله ، إنما يقولون : سقينا بنوء كذا ، وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها فيصبح طائفة منهم كافرين يقولون : مطرنا بنوء كذا ، والنوء عند العرب هى منازل القمر إذا طلع نجم سقط نظيره « قل الله » أى قل لهم يا محمد « الله أسرع مكرا » منكم أى أعجل عقوبة وأشد أخذا وأقدر على الجزاء ، أو معنى الوصف بالأسرعية أنه قضى بعقابهم قبل تدبيرهم مكائدهم ، والمكر إخفاء الكيد وهو من الله تعالى إما الاستدراج أو الجزاء على المكر ، فإنهم لما قابلوا نعمة الله بالمكر قابل مكرهم بأشد منه وهو إمهالهم إلى يوم القيامة « إن رسلنا » أى الحفظة الكرام الكاتبين « يكتبون ما تمكرون » لأنهم وكلوا بكم لا يكتبون مكرهم إلا بعد إطلاعهم عليه ، وأما هو سبحانه وتعالى فإنه إذا قضى قضاء لا يمكن أن يطلع عليه رسله إلا

بإطلاعه فكيف بغيرهم ، وإذا تبين أنه عالم بأمورهم وهم جاهلون بأموره علم أنه لا يدعهم يدبرون .

٢٢ — هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ .

٢٣ — فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

٢٤ — إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

ثلاث آيات كريمة تناولت ما تناولت من بيان طبيعة الإنسان ، وما جبلت عليه نفسه من الكفر واللجاج . وقد سبق أن ذكر الله عز وجل أن الإنسان إذا أصابه الله عز وجل برحمة منه ، وإذا أذاقه أفاويق من الخير بعد شدة وجهد أصابته أسرع إلى الكفر واللجاج والمعصية والمكر ، ونسى أن مكر الله أشد من مكره ، وأن الملائكة تحصى على الإنسان كل معصية

يعملها ، وأنه سوف يعاقب على ما اقترفت يداه من سيئات ؛ وهناك يذكر أن الإنسان بعصيانه كأنه نسى أن الله هو القادر على كل شىء ، وهو رب الأرض والسماء ، والبر والبحر ، وهو الذى يسير الناس فى البر والبحر وينجيهم كلما عصف بهم وبسفينتهم عاصف وأحاط بهم الموج من كل مكان ، وبعد أن شاهدوا الموت عيانا ، ولمسوه بأيديهم ، ومع إنجاء الله إياهم إذا هم يعودون إلى الكفر والبغى والعصيان . نسوا نعمة الله عليهم كأنهم لم ينقذهم الله من الغرق ، ولم ينعم عليهم بالنجاة .. ومع ذلك فإن بغيهم على أنفسهم ، وإن ما ينعمون به من ملذات إنما هو متاع الحياة الدنيا ، ثم إلى الله عز وجل مرجعهم ، فيحاسبهم على أعمالهم ، ويجزيهم بها ، ويعاقبهم على سوء ما كانوا يصنعون .. أما الآية الرابعة ، فهى مثل رائع من أمثلة القرآن البليغة ، التى يمثل الله عز وجل فيها الدنيا : فى زهرتها وبهجتها ونضرتها ، فإذا حل بها عذاب الله صارت قاعا صفصفا ، بالماء ينزل من السماء ، فينبت عليه الشجر والزرع والحدائق الفيح ، وبعد قليل تذهب كل هذه النضرة ، وتعود إلى ذبول وفناء ، كما تعود الأرض حين يحل بها عذاب الله إلى خراب يباب لا أثر فيها للحياة ، كأن لم تغن الأمس . ومثل هذه الأمثال يفصل الله الآيات لقوم يتفكرون ..

وقد أخذ الله سبحانه وتعالى يبين ما يتضح به سرعة مكره فى مثال على ما فى الآية قبلها ؛ لأن المعنى لا يصل إلى إفهام السامعين إلا بذكر مثال جلى واضح يكشف حقيقة ذلك المعنى ؛ فقال « هو الذى يسيركم » أى يحملكم على السير فى كل وقت تسيرون فيه لا تعذرون على الفكاك عنه ويمكنكم منه « فى البر والبحر » أى يسبب لكم أسبابا توجب سيركم فيهما « حتى إذا كنتم فى الفلك » أى السفن ، ولفظ الفلك يطلق على الواحد وعلى الجمع ، والمراد هنا الجمع لقوله تعالى « وجرين بهم » أى بمن فيها ، وعدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة ، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الإنكار . والالتفات فى الكلام عن الغيبة إلى الحضور والعكس فى فصيح كلام العرب « بريح طيبة » أى لينة الهبوب « وفرحوا بها » أى بتلك الريح وبالفلك الجارية بها « وجاءهم

الموج ، أى وجاء ركاب السفينة الموج ، وهو ما ارتفع وعلا من ضرب الماء فى البحر ، وقيل : هو شدة حركة الماء واختلاطه « من كل مكان » أى يعتاد مجىء الموج منه فأرجف قلوبهم « وظنوا أنهم أحيط بهم » أى فظنوا الهلاك قد أحاط بهم ، وسدت عليهم مسالك الخلاص كمن أحاط بهم العدو « دعوا الله مخلصين » أى من غير إشراك به « له الدين » أى الدعاء ، لأنهم لا يدعون حينئذ غيره ، لأن الإنسان فى هذه الحالة لا يطمع إلا فى فضل الله ورحمته ، ويصير منقطعا عن جميع الخلق ، ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرعا إلى الله تعالى « لئن أنجيتنا من هذه » الشدائد التى نحن فيها ، وهى الريح العاصفة والأمواج الشديدة « لنكونن من الشاكرين » أى لنكونن من الشاكرين لك بالإيمان والطاعة على إنعامك علينا بإنجائنا مما نحن فيه من هذه الشدة « فلما أنجاهم » أى هؤلاء الذين ظنوا أنهم أحيط بهم من الشدة التى كانوا فيها إجابة لدعائهم « إذا هم يبغون » من البغى وهو الفساد ، كأنهم سارعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصى « فى الأرض » أى جنسها « بغير الحق » البغى لا يكون بحق فما معنى قوله (بغير) ؟ أجيب بأنه قد يكون بحق كاستيلاء المسلمين على أرض الكفر والشرك وهدم دورهم كما فعل المسلمون ببنى قريظة لما نقضوا العهد ، فان ذلك إفساد بحق ، قال صاحب المفردات البغى على ضربين أحدهما : غير محمود وهو مجاوزة الحق إلى الباطل وإلى الشبهة ، والآخر كفعل المسلمين ما ذكر « يأيها الناس إنما بغيكم » أى « ظلمكم على أنفسكم » لعود وباله عليها خاصة ، قال صلى الله عليه وسلم : أسرع الخير ثوابا صلة الرحم ، وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة ، وروى : ثنتان يعجلهما الله فى الدنيا : البغى وعقوق الوالدين ، وعن ابن عباس : لو بغى جبل على جبل لاندك الباغى .

وعن محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه كن عليه : البغى والنكث والمكر ، وعلى تقدير الانتفاع بالبغى هو عرض زائل « قال تعالى : « متاع الحياة الدنيا » ، أى يتهيأ لكم بغى بعضكم على بعض إلا أياما قليلة وهى مدة حياتكم مع قصرها

وسرعة انقضائها « ثم إلينا مرجعكم » يوم القيامة « فننبئكم بما كنتم تعملون » في الدنيا من البغي والمعاصي فنجازيكم عليها . ولما قال تعالى : « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا » . أتبعه بمثل عجيب ضربه لمن يبغي في الأرض ويغتر بالدنيا ويشتد تمسكه بها ، ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة والتأهب بقوله تعالى « إنما مثل الحياة الدنيا » أي حالها العجيبة في في سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها ، والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بالأول « كماء أنزلناه من السماء فاختلط به » أي بسببه « نبات الأرض » أي اشتبك بعضه ببعض ، والاختلاط : تداخل الأشياء بعضها في بعض « مما يأكل الناس » من الحبوب والثمار ونحو ذلك ومما يأكل « الأنعام » من الكلأ والحشائش ونحوه « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها » أي حسنها وبهجتها من النبات « وازينت » بألوان زهرها من أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من ألوان الزهور ، وأنواعها ، وازينت بالناس وعلومهم ، ونتائج قرائحهم من توفير وسائل الرفاهية والرخاء والجمال « وظن أهلها » أي أهل تلك الأرض « أنهم قادرون عليها » أي متمكنون منها بالعلم والعمل « أتاها أمرنا » أي قضاؤنا « ليلا أو نهاراً » أي في الليل أو في النهار « فجعلناها » أي زرعها « حصيدا » أي كالمحصود بالمناجل « كأن » أي كأنها « لم تغن » أي لم تكن « بالأمس » تلك الزروع والأشجار قائمة على ظهر الأرض ، وتشبيه الحياة الدنيا بهذا النبات يحتمل وجوها :

الأول : أن عاقبة هذه الحياة الدنيا التي ينفقها المرء في باب الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه ، وهو معنى قوله تعالى : « حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » أي خاسرون الدنيا وقد أنفقوا أعمارهم فيها ، وخاسرون الآخرة مع أنهم توجهوا إليها .

الثاني : أنه تعالى بين أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة محمودة ، فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل على عاقبة تحمد ؛ فإن سعادة الدنيا غير خالصة من الآفات بل هي ممزوجة بالبلاء ، والاستقراء يدل عليه .

الثالث : أن مالك ذلك البستان لما عمره بالتعب والجهد والمشقة ، وعلق أمله على الانتفاع به ، فإذا حصل ذلك السبب المهلك صار العناء الشديد الذى تحمله فى الماضى سببا لحصول الشقاء الشديد له فى المستقبل ، وهو ما يشعر به قلبه من الخسران ، فكذلك حال من وضع قلبه على الدنيا وأتعب نفسه فى تحصيلها ، فاذا مات وفاته كل ما فاته صار العناء الذى تحمله فى تحصيل أسباب الدنيا سببا لحصول الشقاء العظيم له فى الآخرة .

الرابع : وهو ما أرجحه ـ أن المراد تمثيل الدنيا ، وقد أخذت زخرفها ، ووصل العلم إلى مداه ، وبلغ العقل الإنسانى إلى حد الجبروت ، وكثر العمران وانتشر الرخاء وفاضت مباهج الحياة ، وظن الناس أنهم قادرون عليها ، ثم قامت القيامة فجأة وانتهت الدنيا من إنسان ونبات ، ومباهج وملذات . وينتقل الناس إلى حياة أخرى يخسر فيها من يخسر ويكسب فيها من يكسب ، كل بما قدمت يداه ، ولا يظلم ربك أحدا . . « كذلك نفصل الآيات » أى مثل هذا التفصيل الذى ذكرناه نبين الآيات « لقوم يتفكرون » لأنهم المنتفعون بها .

٢٥ — وَاللهُ يَدْعُوٓا إِلَىٰ دَارِ السَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

٢٦ — لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ .

٢٧ — وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ الَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ .

٢٨ — وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ .

٢٩ — فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ .

٣٠ — هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

ست آيات كريمة فيها تقرير لدعوة الله عز وجل فى القرآن الكريم وأنها دعوة إلى الجنة والهدى ، وأن المؤمنين بها لهم النعيم والكرامة ، ولهم البشر والفرح والسرور ، وهم أصحاب الجنة ، وهم فيها خالدون ، أما الذين كفروا برسالة القرآن فلهم الذل والهوان ، والخزى والعذاب ، والبؤس والشقاء ، ولهم السوء ، وهم فى النار هم فيها خالدون . . ويذكر الله عز وجل موقف الشركاء والمشركين ، موقف المعبودين والعابدين فى الآخرة ، يوم يأتى الله عز وجل بهم فى الحشر ، فيفرق بينهم ، ويتبرأ منهم هؤلاء الشركاء ، قائلين : ما كانوا إيانا يعبدون ، ويشهد الله عز وجل عليهم جميعا ، وكفى بالله شهيدا بين هؤلاء وهؤلاء ، فما كان الله غافلا عما كانوا يعبدون . ويقرر الله عز وجل أن موقف الحساب هو أشد موقف على الناس ، موقف ينتظر فيه الناس جزاء أعمالهم ويعرف كل واحد ثمرة عمله ، وهل كان على حق أم على باطل ، بل إن المبطلين والمشركين تغيب عنهم آلهتهم ، لا تنفعهم ولا تشفع لهم ، لأنها عبادة باطلة مفتراة ، لا حقيقة لها ولا كيان ، وليس لها وجود . . . يقول الله عز وجل : « والله يدعو » أى يعلق دعاءه سبيل التجدد والاستمرار « إلى دار السلام » قال قتادة : السلام هو الله وداره الجنة ، وسمى سبحانه وتعالى بالسلام لأنه واجب الوجود لذاته ؛ فقد سلم من الفناء والتغير ، وسلم فى احتياجه فى ذاته وصفاته من الافتقار إلى الغير ، وهذه الصفة ليست إلا له سبحانه . كما قال تعالى: والله هو الغنى وأنتم الفقراء ، وقال تعالى : يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، وقيل : السلام بمعنى السلامة ، وقيل : المراد بالسلام الجنة ، سميت الجنة دار السلام لأن أهلها يحيى بعضهم بعضا بالسلام والملائكة تسلم عليهم . قال الله

تعالى : والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ، ومن كمال رحمته وجوده وكرمه على عباده أن دعاهم إلى الجنة التى هى دار السلام ، وفيه دليل على أن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر، لأن العظيم لايدعو إلا إلى عظيم ولا يرجو إلاعظيما ، وقد وصف الله تعالى الجنة فى آيات كثيرة من كتابه ، وعن جابر قال : جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلا ، مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مائدة وبعث داعيا فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل من المائدة ، ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة ، والدار الجنة والداعى محمد صلى الله عليه وسلم « و» الله يهدى من يشاء ، من عباده بما لم يخلق فى قلبه من الهداية « إلى صراط مستقيم » وهو دين الإسلام ، عم سبحانه وتعالى بالدعوة أولا لإظهار الحجة ، وخص بالهداية ثانيا ، إظهاراً للقدرة لأن الحكم له فى خلقه . وقال الجنيد : الدعوة عامة والهداية خاصة بل الهداية عامة والصحبة خاصة ، بل الصحبة عامة والانقياد خاص ، وقيل : يدعو بالآيات ويهدى للحقائق والمعارف ، وقيل : الدعوة لله والهداية من الله ، وقال بعضهم : لاتنفع الدعوة لمن لم يستقبل من الله الهداية « للذين أحسنوا » أى بالإيمان « الحسنى » وهى الجنة « وزيادة » وهى النظر اليه تعالى فى الآخرة كما فى الحديث الصحيح : إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا : يا أهل الجنة . فيكشف الحجاب فينظرون اليه ، فوالله ما أعطاهم شيئا هو أحب إليهم منه ، والزمخشرى قال فى كشافه : وزعمت المشبهة والمجبرة خلاف ذلك، لأن المعتزلة ينكرون الرؤية. ويرد عليهم قول الله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » ، فأثبت الله لأهل الجنة أمرين : أحدهما النضارة وهى حسن الوجوه وذلك من نعيم الجنة ، والثانى النظر إلى الله تعالى ؛ وعن ابن عباس رضى عنهما : الحسنى الجنة والزيادة عشرة أمثالها ، وعن الحسن : عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ، وعن مجاهد الزيادة مغفرة من الله ورضوان ؛ « ولا يرهق » أى يغشى « وجوههم قتر » أى سواد « ولا ذلة » أى كآبة وغم يظهر منه الانكسار والهوان

« أولئك » أى هؤلاء الذين وصفهم الله هم « أصحاب الجنة هم فيها خالدون » إشارة إلى كونها دائمة آمنة من الانقطاع لا زوال فيها ولا انقراض بخلاف الدنيا وزخارفها . ولما بين الله تعالى حال الفضل فيمن أحسن بين حال العدل فيمن أساء بقوله تعالى « والذين كسبوا السيئات » أى الشرك « جزاء سيئة » منهم « بمثلها » بعدل الله من غير زيادة . وفى ذلك إشارة إلى الفرق بين السيئات والحسنات ؛ لأن الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحد إلى العشرة إلى السبعمائة إلى أضعاف كثيرة تفضلا منه تعالى وتكرما ، وأما السيئات فإنه يجازى عليها بمثلها عدلا منه تعالى « وترهقهم » أى تغشاهم « ذلة » عكس أهل الجنة « مالهم من الله من عاصم » أى مانع يمنعهم من العذاب إذا نزل بهم « كأنما أغشيت » أى ألبست « وجوههم قطعاً من الليل مظلما » لفرط سوادها وظلمتها « اولئك » أى هؤلاء الأشقياء هم « أصحاب النار هم فيها خالدون » لا يتمكنون من مفارقتها « و » أى اذكر « يوم نحشرهم » أى الفريقين: الناجين والهالكين، العابدين منهم والمعبودين من كل جانب وناحية ـ إلى موقف الحساب حال كونهم « جميعا » لا يتخلف منهم أحد وهو يوم القيامة ، والحشر الجمع بكره إلى موقف واحد « ثم نقول للذين أشركوا مكانكم » أى الزموا مكانكم لا تبرحوا منه حتى تنظروا ما يفعل بكم « أنتم » تأكيد للضمير المستتر فى الفعل المقدر « وشركاؤكم » أى من كنتم تعبدونهم من دون الله « فزيلنا » أى فرقنا « بينهم » أى بين المشركين وشركائهم وقطعنا ما كان بينهم من الفواصل فى الدنيا، وذلك حين تبرأ كل معبود من دون الله ممن عبده ، وقيل : فرقنا بينهم وبين المؤمنين كما فى آية « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » والأول أنسب بقوله تعالى « وقال شركاؤهم » لهؤلاء المشركين « ما كنتم إيانا تعبدون » أى إنما كنتم تعبدون الشياطين ، حيث أمروكم أن تتخذوا لله أندادا فأطعتموهم . واختلفوا فى المراد بهؤلاء الشركاء فقال بعضهم : الملائكة ، واستشهدوا بقوله تعالى « ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون » ، ومنهم من قال : هى الأصنام

والدليل عليه أن هذا الخطاب مشتمل على الوعيد والتهديد وذلك لايليق بالملائكة المقربين ، وسموا شركاء لأنهم جعلوا نصيبا من أموالهم لتلك الأصنام فصيروهم شركاء لأنفسهم فى تلك الأموال ، ثم اختلفوا فى هذه الأصنام كيف ذكرت هذا الكلام ؟ فقال بعضهم : إن الله تعالى خلق الحياة والعقل والنطق فيها فقدرت على ذكر هذا الكلام ، وقال آخرون : إن الله تعالى خلق فيها الكلام من غير أن يخلق فيها الحياة حتى سمع منها ذلك الكلام ، والأول أظهر ؛ لأن ظاهر قوله تعالى : وقال شركاؤهم ـ يقتضى أن يكون فاعل ذلك القول هو الشركاء ، فإن قيل : إذا أحياها الله تعالى هل يبقيها أو يفنيها ؟ أجيب بأن الكل محتمل ، فإن الله يفعل فى خلقه ما يشاء ، وأحوال القيامة غير معلومة إلا القليل الذى أخبر الله تعالى عنه فى القرآن وعلى لسان أنبيائه ؛ وقال بعضهم: المراد بهؤلاء الشركاء من عبد من دون الله، من إنس وملك وجن وشمس وقمر وصنم ، وهذا أظهر. وعلى هذا فالأول سموا شركاء ، لأن الله تعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله تعالى « مكانكم » صاروا شركاء فى هذا الخطاب ، ولما قال شركاؤهم ذلك قالوا : بل كنا نعبدكم ، فقال شركاؤهم : « فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم » . فإنه تعالى العالم بكنه الحال « إن كنا عن عبادتكم لغافلين » أى لم نأمر بها ولم نعلم بها ، وعلى القول بأنها الأصنام، فتقول: ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل فإنها جمادات لاحس لها بشىء ولا شعور البتة « هنالك » أى فى هذا الوقت من المكان العظيم الأهوال ، المتوالى الزلزال « تبلو » أى تختبر « كل نفس » طائعة وعاصية « ما أسلفت » أى ماقدمت من عمل متعين نفعه وضره يؤدى إلى سعادة أو شقاوة « وردوا إلى الله » أى إلى جزائه عما أسلفوا ؛ فلم يكن لهم قدرة على قصد غيره « مولاهم الحق » أى ربهم ومتولى أمرهم على الحقيقة ولا التفات إلى سواه من كل الأباطيل ، بل انقطع رجاؤهم من كل مايدعونه فى الدنيا وهو المراد بقوله تعالى « وضل عنهم » أى ذهب وبطل وضاع « ماكانوا يفترون » أى يختلفون من أن معبوداتهم شركاء ، وتيقنوا فى ذلك المقام أن عبادتهم غير الله باطل وزور وكذب وافتراء على الحقيقة .

وبهذا ينتهى الربع الثانى من سورة يونس وخلاصته :

١ — النفس الإنسانية من شأنها أن تترقب الخير وتستعجله ، وتنأى عن الشر وتحذره ، فلو أن الله عز وجل عجل للمشركين العذاب ، بمقدار حرصهم على تعجل الخير لهم ، لأماتهم الله جميعا ، وقضى إليهم آجالهم ، ولكن الله عز وجل يمهل الكافرين والمشركين ليزيدوا طغيانا وشراً وآثاماً ، ولتتبين لهم حقائق الأمور ، وليقطع الله عذرهم لو قالوا : لو أن الأجل امتد بنا لأدركنا الحق إدراكا صحيحاً ، ولآمنا إيمانا عميقا بالله ورسوله وكتابه المبين . ومن شأن النفس الإنسانية أن تفزع للضر والمحنة ، وأن تعرف الله فى الخطوب والشدة ، ولكن الله عز وجل عندما يفرج كروبهم وخطوبهم يعودون إلى الكفر به ، وإلى الشرك وإلى الضلال ، وإلى سابق ما كانوا يعملون ويقترفون . . .

٢ — الأمم التى سبقت أمة العرب لما ظلمت وجارت واستبدت وكذبت بآيات الله ، من بعد أن جاءتهم رسل الله ، واستمروا على الكفر والمعصية ، أهلكهم الله بعذابه ، ثم جعل الله عز وجل العرب خلفاء لهم فى الأرض لينظر الله عز وجل : كيف يعملون ، ونظر الله عز وجل هنا على سبيل المجاز ، أى ليعاملهم معاملة المنتظر المرتقب : إن رآهم آمنوا وأطاعوا كافأهم على إيمانهم وطاعتهم خير المكافأة ، وإن رأى خلاف ذلك كتب عليهم العذاب والخزى الشديد . . . وكان لهم فى الأمم السابقة عبرة وعظة بليغة لو تدبروا وعرفوا .

٣ — تسجيل تكذيب المشركين لمحمد صلى الله عليه وسلم وللقرآن الكريم ، وما قالوه من أكاذيب وأباطيل ، والرد عليهم ، وإلحامهم ، وتقرير أن محمدا ما كان له أن يفترى شيئاً على الله ، لأنه يعرف أنه لا أحد أشد ظلما ممن يفترى الكذب على الله ، وممن يكذب بآياته ، لأنه يضل بذلك الكلام المفترى الناس والجماعات ، بل يضل شعوبا بأسرها .

٤ — تسجيل شرك المشركين من العرب عليهم ، وأن شركهم وما يقدمونه من علل بين يدى هذا الشرك ، وقولهم : إنما نعبد الأوثان لتكون شفعاء لنا عند الله ، كل ذلك مما لا يجوز على عقل ، ولا يصح أن يصدقه إنسان ؛ إن هم إلا كاذبون ، وإن هم إلا ضالون ومضلون ، وإن خلافهم فى الدين لواضح الخطأ ، ظاهر الباطل ، فما كان الناس من قبل إلا أمة واحدة ، ودينا واحداً ، حتى اختلفوا . ولولا سبق قضاء الله بالانتظار عليهم ، وعدم تعجيل العذاب للكافرين لأهلكهم الله .

٥ — تسجيل بعض ما كان يقوله المشركون للرسول صلى الله عليه وسلم ، من طلبهم نزول الآيات البينات عليه من السماء ، وكأنهم لجهلهم وغباءهم نسوا أن القرآن الكريم هو أعظم آية نزلت من السماء . . وقد طلب الله عز وجل من رسوله أن يدعهم وغيهم وأن يتركهم لجهلهم ، وأن يدعهم إلى أمر الله ، لأن أمور الغيب بيده ، والرسول معهم من المنتظرين .

٦ — بيان أن الناس قد جبلوا على نسيان الله فى الرخاء ، فإذا أصابهم خير ورحمة من بعد جهد وشدة وبلاء أصابتهم ، أسرعوا فى المكر وفى العصيان والكفر ، وفى الشرك واللجاج ، وقد حذرهم الله عز وجل بأن ملائكته تكتب مكرهم ، وسوف يجازيهم الله عليه : مكراً بمكر ، وشراً بشر . .

٧ — ذكر مثل من أمثلة لجاج الناس وكفرهم ؛ الله عز وجل علم الناس ركوب البحر والسير فيه كما يسيرون فى البر ، سواء بسواء ، وكثيرا ما يركب الناس السفن ، والريح رخاء طيبة ، فلا يلبثون أن يجيئهم ريح عاصف ، وأن يجيئهم الموج من كل مكان ، فيعرفون الموت ويشاهدونه عيانا ، فيقبلون على الله يدعونه ويتضرعون إليه ويتوبون ويعلنون الإيمان ، ولكنهم لا يلبثون أن ينجيهم الله حتى يعودوا إلى كفرهم ومعاصيهم وشرورهم وباطلهم . . . والله عز وجل ينذر الناس ويحذرهم ، ويؤكد لهم أن بغيهم إنما هو على

أنفسهم ، لهم متاع الحياة الدنيا ، ثم إلى الله عز وجل مرجعهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون . ويضرب الله عز وجل المثل واضحا جليا لسرعة فناء الدنيا وزوالها بسرعة ذبول الأزهار والأشجار ، وها نحن أولاء نعيش فى حضارة عجيبة وبين مدنية غريبة ؛ العقل وصل إلى كثير من أسرار الله ، حتى حاول أن يصل إلى الكواكب والنجوم والأقمار . . . والأرض أخذت زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها . . فهل قد جاء موعد قيام الساعة ؟ هل وقعت الواقعة ؟ هل اقتربت القيامة ؟

٨ — تقرير أن الله عز وجل ورسوله وكتابه الحكيم إنما يدعون إلى الخير والرشاد وإلى النعيم والجنة ، وإلى صراط مستقيم . إن دين الإسلام دعوة إلى سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة وإلى كرامته ، هذا النور الإلهى العظيم ، الذى انبثق من السماء ، وأضاءت شعلته الأرض ، وحمل رسالته محمد ابن عبد الله ، ونشرها فى الخافقين خلفاؤه وأصحابه ؛ هذا النور هو شريعة الإسلام المطهرة ، ودين الإنسانية الخالد ، وعقيدة الأحرار والأبرار من كل جنس ولون : وما أجل الإسلام شريعة رفيعة الأركان ، وعقيدة كتابها المنزل هو القرآن ، ودينا إنسانيا عاما ، دان به المشرق والمغرب ، وسعدت به الحياة أحقابا طوالا .والإسلام ليس دين رهبنة وكهانة وطلاسم ومعميات ،ورسوم وألغاز ، ولكنه قبل وبعد كل شىء دين الحياة والحضارة والنهضة ، دين شعاره العمل ، ودعوته الجهاد من أجل تقدم الإنسانية وارتقاء الحضارة ، وأصوله الحق والحرية والعدل والإخاء والمساواة والسلام ، وجميع شعائره تهدف إلى خير الحياة والإنسان والمجتمعات والشعوب ، وفى كل عمل من أعماله ، وواجب من فروضه ، تذكير بالله ، وإيقاظ للضمير ، وتمجيد للمثل العليا ، والمبادىء الكريمة ، والأخلاق الفاضلة ، والآداب المهذبة . دين يوحد بين الناس ، ويجمع بين الشعوب ، وينظر إلى البشرية كافة نظرته إلى أمة واحدة ، وجماعة متحدة ، دين يسع كل رأى ، وتحترم أصوله كل فكرة ، ويوفر لكل إنسان كرامته وحريته ، وحقوقه

الطبيعية فى الحياة . كان الإسلام ولا يزال ثورة عامة على الجمود والرجعية والفساد والجور والاضطهاد والاستعباد ، وشهابا ثاقبا يرمى به أعداء التقدم والرقى والإنسانية ، وخصوم الإيمان والسلام ، وأعوان الشر والظلم والظلام . نزلت رسالته المقدسة على أشرف إنسان فى الوجود ، وفى أرض الصحراء العربية البعيدة عن الحضارة والعمران والمعرفة ، ودعى إليه ـ أول مادعى إليه ـ قوم كانوا يعيشون فى ظلمات الجاهلية الأولى وأوثانها وأباطيلها ، وبعد قليل ، حينما امتلأت نفوس المسلمين بآدابه وشريعته وأصوله وأحكامه ، إذا البركان ينفجر والثورة تشتعل . وهذا العربى القح الذى كان يعيش فى عزلة تامة عن الحياة ، يحمل فى يمناه الرسالة ، وفى قلبه حرارة الإيمان ، وفى روحه ثورة الحرية ، ثم يندفع ليخلص الشعوب من جور الحكام ، وليحرر العبيد من رق أبدى لا مسوغ له ، وليعلى كرامة المرأة فى الحياة ، ويعتبرها إنسانا ذا روح له إرادته وكرامته ورأيه فى المجتمع ، وليرتفع بالفقير إلى مصاف الغنى ، وبالعامل إلى مستوى صاحب العمل ، وبالفلاح والخادم وأمثالهما إلى نطاق من الكرامة الإنسانية وحق الحياة . ثم إذا هذا العربى الذى انطلق من الصحراء ، يؤثل للحضارة والمعرفة الصروح السامقة ، ويبنى للمدينة أركانا قوية ، يدعمها الفكر والعقل والروح والبدن ، وإذا هو الذى تستعز به الشعوب المغلوبة على أمرها ، لينقذها من الجور والظلام ، وإذا هو منشىء الجامعات ، ومحرر العقول ، وواضع أصول المدنية ، والداعى إلى الإنسانية الرفيعة فى كل شىء ، ثم يصير سيد الدنيا ، وحاكم الأرض ، ومدمر عروش الطغاة من الملوك والقياصرة . الإسلام وما أعز الإسلام فى الأرض ، وأعذب لفظه فى الأفواه وأجمل معناه فى القلوب ، هو هو الدين الخالد ، وخاتم الرسالات إلى الأرض .

٩ — بيان جزاء الناس على اختلافهم وعلى اختلاف موقفهم من محمد ورسالته : للذين أحسنوا وآمنوا الحسنى وزيادة ، ولهم النعيم والخير ، وللكافرين والعاصين الشر والوبال والنكال والعذاب الشديد ، وسوف يحشر الناس جميعا إلى الله يوم القيامة ، فيقف المشركون صاغرين أذلاء ، يتجادلون

هم وآلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ، فيفرق الله عز وجل بينهم ، لأنه ليس فى حاجة إلى أن يشهد أحد على أحد ، فكفى بالله شهيدا على كل شىء . ويوم القيامة تختبر كل نفس عملها الذى قدمته فى الدنيا ، فالعمل الصالح المقبول عند الله هو الذى ينفع صاحبه ، والعمل الباطل يرفضه الله ويعذب عليه ، يوم القيامة يغيب عن المشركين افتراؤهم ومزاعمهم وأكاذيبهم وضلالهم ، وتغيب عنهم قدرتهم على الجدل والحجاج ، وضل عنهم ما كانوا يفترون .

الربع الثالث من سورة يونس

٣١ — قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

٣٢ — فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ .

٣٣ — كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

٣٤ — قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ... فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ .

٣٥ — قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .

٣٦ — وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ .

ست آيات كريمة فى الرد على المشركين وتسفيه عقولهم ، ولفت أنظارهم إلى مدبر الأرض والسماء ، وخالق الكون والحياة ورازق الناس ، وواهب السمع والبصر ، ومخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ، ومدبر الأمر ؛ إلى الله المعبود الحق ، إلى بادىء الخلق ومعيده ، إلى الهادى ، إلى الحق . وإلى سواء السبيل . . لعلهم يؤمنون ويعتبرون .. ويقرر الله عز وجل فى الآية الأخيرة أن عبادة المشركين ما هى إلا ظنون وأوهام ، ولا تستند على حقائق ثابتة .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة .

« قل من يرزقكم من السماء » بالمطر « والأرض » بالنبات ، والأولى التعميم ، فكل أنواع الثروة النازلة من السماء أو المستخرجة من الأرض كالثروة البترولية والثروة المعدنية وسواها ، هى رزق من الله يرزق به عباده « أم من يملك السمع » أى الأسماع « والأبصار » أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سويا عليه من الفطرة العجيبة ، وعن على رضى الله تعالى عنه كان يقول : سبحان من أبصر بشحم وأسمع بعظم وأنطق بلحم « ومن يخرج الحى من الميت » كأن يخرج الإنسان من النطفة والطير من البيضة « ويخرج الميت من الحى » كأن يخرج النطفة من الإنسان والبيضة من الطائر ، وقيل : المراد أن يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن « ومن يدبر الأمر » أى ومن يلى تدبيرا من الخلائق ، وهو تعميم بعد تخصيص ، والمراد تدبير أمور الكون والوجود والخلق فى السماء والأرض ؛ ثم بين الله تعالى أن الرسول صلى الله عليه وسلم إذا سألهم عن مدبر هذه الأحوال « فسيقولون الله » أى لا يقدرون على المكابرة والعناد فى ذلك لفرط وضوحه ، وإذا كانوا يقرون « فقل » لهم يا محمد « أفلا تتقون » الشرك ، مع اعترافكم بأن كل الخيرات فى الدنيا والآخرة إنما تحصل بفضل الله تعالى وإحسانه « فذلكم الله ربكم

الحق ، أى الثابت ربوبيته ثباتا لاريب فيه ، وإذا ثبت أن هذا هو الحق وجب أن يكون ما سواه ضلالا ، لأن النقيضين يمتنع أن يكونا حقين وأن يكونا باطلين ، فإذا كان أحدهما حقا وجب أن يكون ما سواه باطلا ، كما قال تعالى « فماذا بعد الحق إلا الضلال » إذ لا واسطة بينهما ، فهو استفهام تقريرى أى ليس بعده غيره ، فمن أخطأ الحق وهو عبادة الله تعالى وقع فى الضلال وهو الكفر أو الشرك بالله تعالى وارتكاب المعاصى. ولذلك سبب عنه قوله تعالى «فأنى» أى وكيف ومن أى جهة « تصرفون » أى تعدلون عن عبادته وأنتم تقرون بأن الله هو الحق «كذلك» أى كما حققت الربوبية لله تعالى أو أن الحق بعد الضلال أو أنتم منصرفون عن الحق « حقت كلمة ربك» فى الأزل « على الذين فسقوا » أى تمردوا فى كفرهم وخرجوا على حد الاستصلاح « أنهم لا يؤمنون » بدل من (الكلمة) أى حق عليهم انتفاء الإيمان وعلم الله منهم ذلك ، والمراد بكلمة الله العدة بالعذاب وهو «لأملأن جهنم» الآية وأنهم لا يؤمنون تعليل بمعنى : لأنهم لا يؤمنون ، أو ذلك تفسير لكلمته التى حقت « قل » أى قل يا محمد لهؤلاء « هل من شركائكم » الذين زعمتموهم شركاء وأشركتموهم فى أموالكم من أنعامكم وزرعكم « من يبدأ الخلق » كما بدأ به ليصح لكم ما ادعيتم من الشركة «ثم يعيده» كما كان ، فإن قيل: هم غير معترفين بالإعادة فكيف احتج عليهم الله تعالى بها كالابتداء فى الإلزام بها ، فالجواب أنها لظهور برهانها وإن لم يقروا بها وضعت موضع ما إن دفعه دافع مكابراً ، رادا للظاهر البين الذى لا مدخل للشبهة فيه ، دلالة على أنهم فى إنكارهم لها منكرون أمرا مسلما معترفا بصحته عند العقلاء ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينوب عنهم فى الجواب بقوله تعالى : « قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده » لأن لجاجهم لا يدعهم أن يعترفوا بها « فأنى » أى فكيف «تؤفكون» عن عبادته مع قيام الدلائل ، والفائدة فى ذكر هذه الحجة على سبيل السؤال والاستفهام أن الكلام إذا كان ظاهراً جليا وذكر على سبيل الاستفهام ـ كان ذلك أبلغ وأوقع فى القلب . .

والحجة الثالثة قوله تعالى : « قل » أى قل يا محمد لهم « هل من شركائكم من

يهدى إلى الحق » بنصب الحجج وخلق الاهتداء وإرسال الرسل ، ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق فى ذلك أو معاندين ـ أمر الله تعالى رسوله أن يجيب بقوله تعالى « قل الله » أى الذى له الإحاطة الكاملة « يهدى للحق » من يشاء لا أحد ممن زعمتموهم شركاء ، فالاشتغال بشىء منها بعبادة أو غيرها جهل محض، قال الزجاج : يقال : هديت إلى الحق وهديت للحق بمعنى واحد ، وقوله تعالى « أفمن يهدى إلى الحق » أى وهو الله تعالى « أحق أن يتبع أمن لا يهدى » أى يهتدى « إلا أن يهدى » أحق أن يتبع ، استفهام تقرير وتوبيخ، أى الأول أحق « فما لكم كيف تحكمون » هذا الحكم الفاسد من اتباع من لا يستحق الاتباع ، وقوله تعالى: « وما يتبع أكثرهم » فى تفسيره وجهان : الأول : وما يتبع أكثرهم فى إقرارهم بالله تعالى « إلا ظنا » لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم بل سمعوه من أسلافهم ؛ الثانى : وما يتبع أكثرهم إلا ظنا فى قولهم للأصنام آلهة وأنها شفعاء عند الله إلا الظن ، حيث قلدوا فيه آباءهم ، قال الرازى : والقول الأول أقوى ، لأنا فى القول الثانى نحتاج إلى تفسير الأكثر بالكل « إن الظن لا يغنى من الحق » فيما المطلوب فيه العلم « شيئاً » من الإغناء ، فدلت هذه الآية على أن كل من كان ظانا فى مسائل الأصول وما كان قاطعا لا يكون على الحق ، وقول أهل السنة: أنا مؤمن إن شاء الله؛ يمنع من القطع فوجب أن يلزمهم الكفر، وقد أجاب الرازى بأن هذا ضعيف من وجوه :

الأول: أن مذهب الشافعى رضى الله عنه أن الإيمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والإقرار والعمل، فالشك حاصل فى أن هذه الأعمال هل هى موافقة لأمر الله تعالى،

الثانى: أن الغرض من قوله : إن شاء الله بقاء الإيمان عند الخاتمة .

الثالث: الغرض هضم النفس وكسرها « إن الله عليم » أى بالغ العلم « بما يفعلون » أى من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين فيجازيهم عليه .

وهذه الآية الكريمة « وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » ترشد إلى وجوب ابتناء العقائد على أصول قوية واضحة ثابتة ، وإلى وجوب قيام العلم على اليقين لا على الشك ، وإلى أن الظن لا قيمة له فى

العلم ، ولا يغنى من الحق شيئا ؛ والآية تضع أصلا جبارا من أصول الإسلام ، هو وجوب بناء العقائد على اليقين العلمى لا على الشكوك والأوهام ، وهذا من شأنه لو طبق تطبيقا كاملا فى جميع الأمم أن يوحد بينهم فى العقيدة ، وأن يقرب بينهم فى موازين العلم ، وأن ينفى الكثير من الأوهام والظنون التى دخلت إلى العقل من باب العلم ..

أما الآية الكريمة الأولى من هذه الآيات « ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » الخ فهى دليل معجزة إلهية عجيبة ، ويقول الدكتور عبد العزيز إسماعيل فى ذلك : قيل فى التفسير : إنشاء الحى من النطفة والنطفة من الحيوان ، ولكن النطفة هى حيوانات حية ، وكذلك خلق الحيوان من النطفة فهو خلق حى من حى ، فلا تنطبق عليه الآية الكريمة على هذا التفسير ، والتفسير الحقيقى هو أن (إخراج الحى من الميت) كما يحصل من أن الحى ينمو بأكل أشياء حية يحصل بأكل أشياء ميتة ، فالصغير مثلا يكبر جسمه بتغذية اللبن أو غيره والغذاء شىء ميت ، ولا شك فى أن القدرة على تحويل الشىء الميت الذى يأكله إلى عناصر ومواد من نوع جسمه بحيث ينمو جسمه هى أهم علامة تفصل الجسم الحى من الجسم الميت الخ .. إلا أننا نلاحظ أن ما فسر به الآية الكريمة يبتعد عما يتبادر إلى الذهن من لفظ (يخرج) ، فإن الظاهر أن هذا الذى أخرج شىء جديد مستقل الوجود . لا أنه نمو وكبر لشىء موجود فى الأصل ، وأن المشار إليه فى الآية الكريمة هو قانون التوالد السارى فى الحيوان . وإن شئت فقل : قانون التوالد فى الحيوان والنبات . ذلك أن الحيوان المتولد قد تولد من شىء ولا بد أن تنتهى سلسلة التوالد فيه إلى خلقة ميتة ، فإذن لم يصح أنها النطفة ـ لأن النطفة حيوانات حية أو فيها حيوانات حية ـ فليكن هو الغذاء الذى نشأت عنه النطفة ، ولا شك أنه شىء ميت كما قرره . فإذا قيل: إن الغذاء حيوان أو نبات وكل منهما فيه معنى الحياة فى الجملة ، قلنا: فلنرجع إلى ما امتصه النبات حتى نما ، فلا بد من الوصول البتة إلى شىء ميت خرج منه هذا الحى ، ويشاهد ذلك كل يوم . فالحياة تتجدد فى الأحياء وتستمد مادتها فى ماضى

سلسلتها حتى تصل إلى شيء ميت ، ولو كان هو التراب الذى يمد النبات .

إن مزية القرآن الكريم أنه صالح فى الفهم والفائدة لكل الطبقات ، لا يتوقف فهمه على متعمق فى العلم . فإذا ما كشف العلم حقيقة كانت غائبة تجلى فهم القرآن العظيم بمظهر أرقى ، وهكذا لا تنقضى عجائبه . وما يدريك فلعل قائلا يقول : إن التراب الذى يغذى النبات يحتوى على جراثيم فيها نوع حياة تهتز وتربو حين ينزل عليها الماء فتغذى النبات فيخرج منها خروج حى من حى ، فنقول له حينئذ : وهذه الجراثيم خارجة من تراب ميت ، فلابد أن تصل إلى إخراج الحى من الميت . فالحياة البتة طارئة بعد موت . وكما تطرأ الحياة بعد الموت يطرأ الموت بعد الحياة ، فتتعاقب الأطوار على المادة الواحدة بقدرة القادر المختار . وأطوارها متلاحقة ، ودرجات التفضيل بينها خفية ، فتفهم منها كل طبقة بحسب مقدارها .

٣٧ — وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

٣٨ — أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ .

٣٩ — بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ .

٤٠ — وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ .

٤١ — وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ

مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ .

٤٢ — وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ .

٤٣ — وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ .

٤٤ — إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

فى هذه الآيات الثمان رد على مزاعم المشركين فى القرآن الكريم ، وعلى ما اقترفوه من أن محمداً هو صاحب القرآن ، وهو الذى افترى نسبته إلى رب السماء ، يقول الله عز وجل فى الآية الأولى : إن القرآن ما كان له أن يفترى من أحد دون الله ، ما كان لأحد أن يؤلفه غيره ، أو يكتبه سواه ، إنه معجزة ضخمة ، وآية كبيرة ، وموسوعة لم يحط بها أحد ، وأفكار جديدة لها قيمتها الإنسانية والروحية والفكرية .. إن ما اشتمل عليه القرآن من روعة وحق وصدق جدير بأن يؤكد أنه كتاب الله وأنه ليس كتاب أحد من الناس ، إنه تصديق للذى بين يديه من الكتب السماوية ، وهو تفصيل لما سبقه من كتب ، وهو لا ريب فيه ، وهو تنزيل من رب العالمين . . وفى الآية الثانية ، رد على المشركين على وجه التحدى ، كان الرد الأول تمجيداً للقرآن وبيانا لخصائصه وأوصافه ، أما الرد الثانى فهو التحدى بالقرآن ، هو الطلب من المشركين أن يأتوا بسورة مثله ، وقد سبق التحدى بسورة من القرآن فى الآية الثالثة والعشرين من سورة البقرة أيضا ، وفى هذه الآية الثامنة والثلاثين من سورة يونس يقول الله عز وجل : وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، وفى آية البقرة : وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . . أما الآية الثالثة فهى تسجيل على المشركين بأنهم كذبوا بالقرآن

العظيم ، بهذا الكتاب السماوى الكريم ، بهذا البحر الخضم الذى لم تحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم بعد تأويله ، كذبوا بذلك كما كذب الذين من قبلهم ، بالأنبياء والرسل والكتب السماوية . . فتعجب أيها الإنسان كيف كان عاقبة الظالمين . وفى الآية الرابعة تسجيل للحقيقة كاملة . . إن من الناس من يؤمن بالقرآن ، ومنهم من لا يؤمن به ، والله أعلم بالكافرين وبالمفسدين ؛ إن عليك يا محمد إذا كذبوك أن تقول لهم : لى عملى ، ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا برىء مما تعملون . . إن من المشركين من يستمعون إلى القرآن ولكن آذانهم صماء لا تسمع الحق ولا تهتدى به ، ومنهم من ينظرون إلى الرسول ولكن نظرة حيرة وإشفاق ، ولكن محمدا لا يهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ، إن الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون . .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « وما كان هذا القرآن » أى المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، اسم موصول أتى به للتعظيم ، وكان كفار مكة زعموا أن محمداً صلى الله عليه وسلم أتى بالقرآن من عند نفسه ، فأخبر الله تعالى أن هذا القرآن وحى أنزله عليه ، وأنه مبرأ عن الافتراء والكذب وأن لا يقدر عليه أحد إلا الله . . . ثم ذكر ما يؤكد هذا بقوله تعالى « ولكن » أنزل « تصديق الذى بين يديه » أى قبله من الكتب الذى أنزلها على أنبيائه كالتوراة والإنجيل ، فثبت بذلك أنه وحى من الله أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم وأنه معجزة له ، فإنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يجتمع بأحد من العلماء ، ثم أنه صلى الله عليه وسلم أتى بهذا القرآن العظيم المعجز ، وفيه أخبار الأولين وقصص الماضين ؛ وقيل : تصديق الذى القرآن بين يديه من القيامة والبعث « وتفصيل الكتاب » أى تبيين ما كتب الله من الأحكام وغيرها « لاريب » أى لاشك « فيه » وقوله تعالى « من رب العالمين » خالق الأرض والسماء « أم » أى بل « يقولون افتراه » أى اختلقه محمد ، ومعنى الهمزة فيه للإنكار « قل » أى قل لهم يامحمد : إن كان الأمر كما يقولون « فأتوا بسورة مثله » فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم ، فأنتم عرب مثله فى البلاغة والفطنة ، وهل يتناول ذلك جميع السور الصغار والكبار أو يختص بالسور

الكبار ؟ الجواب أن هـذه الآية فى سورة يونس وهى مكية فيكون المراد مثل هذه السورة ، لأنها أقرب ما يمكن أن يشار إليه هكذا أجاب الرازى.. والأولى التناول لجميع السور فانهم لا يقدرون أن يأتوا بأقصر سورة ، وقال فى سورة البقرة : سورة من مثله ، وقال هنا : بسورة مثله ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ ولم يكتب ولم يتتلمذ لأحد ، فقيل فى سورة البقرة : فأتوا بسورة من مثله ـ بناء على أن الضمير يرجع للنبى صلى الله عليه وسلم ، أى فليأت إنسان يساوى محمداً صلى الله عليه وسلم فى عدم مطالعة الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوى هذه السورة ، وحيث ظهر العجز ظهر المعجز ، فهذا لا يدل على أن السورة فى نفسها معجزة ، ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمد صلى الله عليه وسلم فى عدم التعلم والتلمذة معجزة ، ثم بين تعالى فى هـذه السورة أن السورة فى نفسها معجزة ، فإن الخلق وإن تتلمذوا وتعلموا وطالبوا وتفكروا لا يمكنهم الإتيان بمعارضة سورة واحـدة من هذه السور، وهو المراد من قوله تعالى « وادعوا من استطعتم » أى فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به « من دون الله » أى غيره ، فإنه تعالى وحده قادر على ذلك « إن كنتم صادقين » أى فى أنى أتيت به من عندى ، لأن العاقل لا يجزم بشىء إلا إذا كان عنده مخرج ، وذلك لا يكون إلا عن دليل ظاهر وسلطان قاهر باهر . . هذا ومراتب تحدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة :

أولها : أنه تحداهم بكل القرآن كما قال تعالى « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

ثانيها : أنه تحداهم بعشر سور ، فقال تعالى : « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » . كما فى سورة هود .

ثالثها : أنه تحداهم بسورة واحدة قال تعالى : « فأتوا بسورة من مثله » .

رابعها : أنه تحداهم بحديث مثله .

خامسها : أن فى تلك المراتب الأربعة كان يطلب منهم أن يأتى بالمعارضة رجل يساوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدم التلمذة والتعلم ، ثم فى هذه

السورة طلب منهم معارضة سورة واحدة من أى إنسان ، سواء تعلم العلوم أم لم يتعلم .

سادسها : أن فى المراتب المتقدمة تحدى واحد من الخلق ، وفى وهذه المرتبة تحدى جميعهم ، وجواز أن يستعين البعض بالبعض فى الإتيان بهذه المعارضة كما قال تعالى « وادعوا من استطعتم من دون الله » .

وههنا آخر المراتب؛ فهذا مجموع الدلائل التى ذكرها الله فى إثبات القرآن وإعجازه .

ثم إن الله تعالى ذكر السبب الذى لأجله كذبوا بالقرآن فقال تعالى « بل كذبوا » أى أوقعوا التكذيب الذى لا تكذيب أشنع منه ، مسرعين فى ذلك « بما لم يحيطوا بعلمه » أى القرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته من غير شبهة أصلا بل عنادا أو طغيانا ونفورا مما يخالف دينهم؛ فهو من باب من جهل شيئا عاداه ، والإحاطة إدارة ما هو كالحائط حول الشىء ، وإحاطة العلم بالشىء العلم به من جميع وجوهه « ولما يأتهم » أى إلى زمن تكذيبهم « تأويله » أى تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب وعاقبة ما فيه من الوعيد حتى تبين لهم أنه صدق أم كذب . . ومعنى التوقع فى « لما » أنه قد ظهر لهم بالآخرة إعجازه لما كرر عليهم التحدى ، فجربوا قولهم فى معارضته فصغرت وضعفت دونها ، ومع هذا لم يقلعوا عن التكذيب تمردا وعنادا « كذلك » أى مثل تكذيبهم هذا التكذيب العظيم فى الشناعة قبل تدبر العجز « كذب الذين من قبلهم » أى من كفار الأمم الماضية فظلموا فأهلكناهم بظلمهم « فانظر » يا محمد « كيف كان عاقبة الظالمين » بتكذيب الرسل أى آخر أمرهم من الهلاك . فكذلك يهلك من كذبك من قومك ، وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم .

ويحتمل أن يكون الخطاب لكل فرد من الناس ، والمعنى : فانظر أيها الإنسان كيف كان عاقبة من ظلم ، فاحذر أن تفعل مثل فعله « ومنهم » أى من قومك يا محمد « من يؤمن » أى بالقرآن ، أى يصدق « به » فى نفسه ويعلم أنه حق ولكنه يعاند بالتكذيب « ومنهم من لا يؤمن به » فى نفسه لغباوته وقلة تدبره ، أو منهم من يؤمن به فى المستقبل بأن يتوب عن الكفر ويبدله بالإيمان ، ومنهم من يصر ويستمر على الكفر ، وإنما فسرت

هذه الآية بهذين التأويلين لأن كله يؤمن تصلح للحال والاستقبال « وربك أعلم بالمفسدين » أى المعاندين على التفسير الأول والمصرين على التفسير الثانى ، وفى ذلك تهديد لهم « وإن كذبوك » أى وإن يكذبوك يا محمد بعد إلزام الحجة « فقل لهم لى عملى » من الطاعة وجزاء ثوابها « ولكم عملكم » من الشرك وجزاء عقابه ، أى فتبرأ منه ، فإن قلت ذلك فقد أعذرت ، والمعنى : لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم حقا كان أو باطلا « أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون » لا تؤاخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم . واختلف فى معنى ذلك ، فقيل : معنى الآية الزجر والردع ، وقيل معناها : استمالة قلوبهم . وقال مقاتل والكلبى : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، وقال الرازى : وهذا بعيد ، لأن الشرط الناسخ أن يكون رافعا لحكم المنسوخ ، ومدلول هذه الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب ، وذلك لا يقتضى حرمة القتال ، وآية القتال ما رفعت شيئا من مدلول هذه الآية ، فكان القول بالفسخ باطلا .

ولما قسم الله تعالى الكفار قسمين : منهم من يؤمن به ، ومنهم من لا يؤمن به ، قسم من لا يؤمن قسمين : منهم من يكون فى نهاية البغض والعداوة له ونهاية النفرة عن قبول دينه ، ومنهم من لا يكون كذلك ، فوصف القسم الأول فى قوله تعالى : « ومنهم » أى من هؤلاء المشركين « من يستمعون إليك » أى إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع بأسماعهم الظاهرة ، ولا ينفعهم لشدة عداوتهم وبغضهم لك ، فإن الإنسان إذا قوى بغضه لشىء وعظمت نفرته منه صارت نفسه معرضة عن جميع جهات محاسن كلامه « أفأنت تسمع الصم » أى أتقدر على إسماعهم « ولو كانوا » مع الصمم « لا يعقلون » لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع فى سمعه دوى الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الأمر ، فكما أنك لا تقدر على إسماع الأصم الذى لا يعقل لا تقدر على إسماع من أصم الله تعالى قلبه ، فإن الله تعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما يستمعون ، ولم يوفقهم لذلك فشبههم بالصم فى عدم الانتفاع بما يتلى عليهم ، ثم وصف القسم الثانى فى قوله تعالى : « ومنهم من ينظر إليك » أى يعاينون دلائل نبوتك ولا يصدقونه « أفأنت تهدى العمى » أى أتقدر على هدايتهم

« ولو كانوا » مع العمى « لايبصرون » أى لا بصيرة لهم، لأن الأعمى الذى فى قلبه بصيرة قد يحسن ويتفطن ، فأما الأعمى مع الحمق فجهد البلاء فلا تقدر على على هداية من أعمى الله تعالى بصيرته ؛ فهؤلاء اليأس منهم من أن يقبلوا ويصدقوا أولى ، فالصم والعمى الذين لا عقول لهم ولا بصائر لايقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله تعالى .. واختلف فى أن السمع أفضل أو البصر فمنهم من قال : السمع ، واحتج على ذلك بأمور منها : تقدمه فى الآية ، ومنها أن القوة السامعة تدرك المسموع من جميع الجوانب ، والقوة الباصرة لاتدرك المرئى إلا من جهة واحدة وهى المقابل ، ومنها أن الإنسان إنما يستفيد العلم من التعلم من الأستاذ ، وذلك لا يكون إلا بقوة السمع ، ومنها أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام رآهم الناس وسمعوا كلامهم ، فنبوتهم ماحصلت بسبب ما معهم من الصفات المرئية ، إنما حصلت بسبب ما معهم من الأحوال المسموعة وهو الكلام وتبليغ الشرائع وبيان الأحكام ؛ ومنهم من قال : البصر أفضل ، واحتج بأمور ، منها أن القوة الباصرة هى النور وأن القوة السامعة هى الهوى ، والنور أشرف من الهوى ، ومنها أن جمال الوجه يحصل بالبصر وبذهابه يصبح معيبا ، وذهاب السمع لايورث الإنسان عيبا فى جمال وجهه ، والعرب تسمى العينين الكريمتين ، ولا تصف السمع بمثل هذا ، وفى الحديث يقول الله تعالى : من أذهبت كريمتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابا دون الجنة ، ومنها أنهم قالوا فى المثل المشهور : ليس وراء العيان بيان ، وذلك يدل على أن أكمل وجوه الإدراكات هو الإبصار ، ومنها أن كثيراً من الأنبياء سمعوا الله . واختلفوا فى : أنه هل رآه منهم أحد منا أم لا ؟ وأيضاً فإن موسى عليه السلام أسمعه الله تعالى كلامه من غير سبق سؤال والتماس ، فلما طلب الرؤيا ، قال له الله تعالى : لن ترانى ، وهذا هو الظاهر .. ولما حكم الله تعالا على أهل الشقاوة بالشقاوة بقضائه وقدره السابق فيهم أخبر تعالى أن تقدير الشقوة عليهم ما كان ظلما منه بقوله تعالى : « إن الله لا يظلم الناس شيئاً » أى أنه تعالى فى جميع أحواله متفضل وعادل ، فيتصرف فى ملكه

كيف يشاء والخلق كلهم عبيده وكل من تصرف فى ملكه بالفضل والعدل لا يكون ظالما ، وإنما قال تعالى : « ولكن الناس أنفسهم يظلمون » لأن فعلهم منسوب إليهم بسبب الكسب ، وإن كان قد سبق قضاء الله تعالى وقدره فيهم ففى ذلك دليل على أن للعبد كسبا ؛ وأنه ليس مسلوب الاختيار كما زعمت المجبرة .

فى هذه الآيات الثمان رد الله عز وجل على المشركين أبلغ رد ، وكشف عن عقولهم الصغيرة ، وعن نفوسهم الحقيرة ، وعن منطقهم الأعوج ، وعن تفكيرهم الأحمق ، وعن كذبهم فى نسبتهم القرآن إلى محمد ، وقد فند الله عز وجل قولهم هذا وآراءهم عامة فى القرآن الكريم ، ورد عليهم بحجج منطقية معقولة وأبان عن سفههم وجهلهم ، وجعلهم مسئولين عن عملهم ، وعاقبة تصرفهم لهم أو عليهم ؛ وهم بذلك وبالشرك الذى انغمسوا فيه قد ظلموا أنفسهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

٤٥ — وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

٤٦ — وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ .

٤٧ — وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

٤٨ — وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .

٤٩ — قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ

أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

٥٠ — قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ .

٥١ — أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ .

٥٢ — ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ .

ثمان آيات كريمات فيها تذكير للمشركين بمصيرهم يوم القيامة ، يوم يجمعهم الله للحساب ، فيخسر المكذبون بلقاء الله ، والمنكرون لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه الحكيم . . يوم يرجعون إلى الله ، فينبئهم بما عملوا ، والله شهيد على ما يفعلون . . وقد هدد الله عز وجل المشركين فى الآية الثانية بإنزال العذاب عليهم وإهلاكهم إن استمروا على ماهم عليه ، وفى الآية الثالثة يذكر الله عز وجل أن لكل أمة رسولا من عند الله يذكرهم بالدين الحق ، ويرشدهم إليه ، فإذا جاءهم رسولهم ، فلا يلبث الناس أن يقوموا للحساب الحق ، وللقضاء القسط ، فيفصل الله بينهم بموازين إلهية عادلة ، لا يظلمون شيئاً . . والآية الرابعة تشير إلى تعجل الكافرين والمشركين للعذاب ، ولقيام الساعة ، وقد رد الله عز وجل عليهم فى الآية الخامسة ، بأن الرسول لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا ، وبأنه لا يملك استعجال يوم القيامة ، وبأن لكل أمة أجلا لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون . . . والآية السادسة تشير إلى سفه المشركين باستعجالهم عذاب الله ، وإلى أن هذا الاستعجال لا يفيدهم شيئاً ، وفى الآية السابعة بيان لطبيعة النفس الإنسانية من معرفة الله عند الشدة ، وأن المشركين لو وقع عليهم عذاب الله الذى يستعجلونه لدفعوا إلى الإيمان دفعا ، حيث لا يجدى إيمان ولا ينفعهم حينئذ رجوع إلى الله ؛ ولو أنهم آمنوا الآن لكان

ذلك أجدى لهم من أن يؤخروا الإيمان إلى حين نزول العذاب ، فلا ينفعهم ، ويقول الله عز وجل لهم : ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ؟ كما تذكره الآية الثامنة .

يقول الله عز وجل فى هـذه الآيات الكريمة : « يوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار » ، نعم إن جمع الله الناس جميعا فى صعيد واحد للحساب والجزاء يوم القيامة ، لن يكون لأمد طويل ولا لسنين وأعوام ، ولـكنه ساعة من نهار ، لا يقضى الناس فى الحساب إلا هذا المقدار الزمنى المحدود ، وقد يكون تصور ذلك غريبا على العقل ، وبعيدا عن التصور ، ولـكنها قدرة الله وعظمته وجلاله وهيمنته وسلطانه وجبروته . . إن حساب الخلق كلهم لن يستغرق عند الله أكثر من ساعة من النهار . . يالها من معجزة إلهية جليلة ، ومن أمر عجيب غريب ، لا يمكن أن يفهم حقيقته عقـل إنسانى محدود ، لا يستطيع أن يتصور الـكثير من أمر نفسه وأمور الحياة ، فكيف يتصور قدرة الله وعظمته ؟ . . « يتعارفون بينهم » أى يعرف الناس بعضهم بعضا ، يوم يجمعهم للحساب فى الآخرة . . « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين » أى قد لقى المـكذبون والمشركون والـكافرون يوم الحساب الخسران والفشل والهزيمة والبوار لأنهم لم يؤمنوا فى الدنيا ، ولم يصدقوا برسالة محمد وما كانوا على هدى ولا على نور ولا على بينة من الله . . « وإما نرينك بعض الذين نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم » أى لو أريناك يا محمد فى الدنيا بعض ما وعدنا المشركين والكافرين به من عـذاب لرأيت أمرا عظيما لا يمكن أن يتحمله إنسان ، ولو توفيناك فشاهدت ذلك فى الآخرة لما تحملت رؤية الآلام التى تنزل بهم . وقد حذف جواب لو وهو لرأيت أمرا عظيما ، وقد أقيم مقامه قوله تعالى « فإلينا مرجعهم » أى رجوعهم للحساب والجزاء . . أى لو أريناك فى الدنيا عذابهم أو أريناك إياه فى الآخرة ، لرأيت أمراً عظيما فادحا ، فإلينا رجوعهم ومصيرهم وعودتهم للحساب والجزاء ، ثم لا يشهد

عليهم أحد إلا الله ، الذى يشهد على مافعلوا فى الدنيا من ذنوب وآثام ومن كفر وشرك . . وفى هـذا الأسلوب تهديد ووعيد لهم ، أى أنه تعالى شهيد على أفعالهم الذى فعلوها فى الدنيا وسيجازيهم عليها يوم القيامة : إن خيراً فخير ، وإن شرا فشر . . ولما بين الله عز وجل حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه ، بين كذلك أن حال كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم كذلك . فقال تعالى « ولكل أمة رسول » أى لكل أمة من الأمم التى خلت من قبلك يامحمد رسول يدعوهم إلى الله تعالى ، ويرشدهم إلى الدين الحق .. على أن كل ما قرأناه عن الرسل محصور فى الذين أرسلوا إلى الأمم القائمة فيما بين الفرات والرين ، وفيما بين بحر قزوين والنيل ، وقد يقال : ولماذا لم يرسل الله تعالى رسلا إلى أمريكا ، وإلى أطراف قارات العالم القديم كجنوب أفريقيا وشمال أوربا ، وشرق الروسيا ؟ هل ذلك لأن هذه البقاع هى التى ازدهرت فيها الحضارة ، وعمرت بالخلائق ، فانتشروا منها فى كل بقعة حاملين معهم الموسوية والعيسوية إليها ، إنى لأقول : إنه إذا رئى توجيه هـذا السؤال إلى دين قائم ، فلا محل لتوجيهه إلى الإسلام ، لأن فى كتابه الجواب الشافى عليه ، قال تعالى فى هذه الآية : « ولكل أمة رسول » وقال كذلك : « إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وإن هنا بمعنى ما ؛ والمعنى : ما من أمة إلا قام فيها نذير . وقال تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك » . وهـذا كلام صريح فيما نحن بصدده ، مؤداه أن الله لم يحرم أمة من نصيبها فى هداية الرسل ، فأرسل اليهم رسله تترى ليعلموهم مايجب عليهم أن يعلموه ويعملوه ، ولكنه لم يقص سيرهم أجمعين ، والحكمة فى هذا الأمر ظاهرة أجلى ظهور ، فان عدد الرسل الذين أرسلوا من لدن وجود الإنسان على الأرض يجب أن يكون من الكثرة بحيث لاتسع أسماءهم وحدها عدة أسفار . وقد جاء الكلام عنهم إجمالا فى آيات كثيرة ، قال الله تعالى : ثم أرسلنا رسلا تترى - أى تتوالى - كلما جاء أمة رسولها كذبوه ، فأتبعنا بعضهم بعضا ، وجعلناهم أحاديث ،

فبعداً لقوم لا يؤمنون » ومعنى هذا أنهم كذبوا رسل الله واتبعوا أهواءهم ، وهذا هو الذى حدث خلال التاريخ ،

أما سبب اقتصار القرآن الكريم على ذكر الرسل المعروفين لأتباع الدينين اللذين سبقاه ، فلأن فى ذكر غيرهم إطالة لا محل لها ، يغنى عنها الإجمال الذى أتى به فى هذا الموضوع ، وهو من معجزات القرآن ، فقد علم سبحانه وتعالى أنه سيأتى زمان تتصل فيه الأمم اتصالا وثيقا بما يكتشف من وسائل الانتقال ، فيتسائل الناس : ألم يرسل الله رسلا إلى الأمم التى لم يكن بيننا وبينها اتصال ؟ ولم حرموا ذلك ؟ وربما تولدت من هذه المسألة شبهة على القرآن وفيه قوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » ، فالإلمام بهذه المسألة فى الكتاب على هذا النحو الشافى المعجز يعتبر آية يوجب الدهش لدى علماء الاجتماع ، الذى يعرفون أن الأمم على عهد نزول القرآن كانوا يتخيلون أن العالم ينتهى عند الحدود التى وصلوا اليها ، وأما ما عداهم من الجماعات فهمج رعاع ، لا يعنى بهم الله إلا بقدر ما يعنى بالحيوانات .

ومما يزيد فى عظم شأن هذه الآية ، أن الكتاب الشريف بعد أن ألم بذكر الأمم ، قرر أن الله كان يبعث بالرسل اليهم فكانوا لا يرفعون بهدايته رأسا ، وكانوا منهم يسخرون ، فقال تعالى : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون » وقال تعالى : يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » . فهذه الآيات ، ومثلها كثير فى القرآن الكريم ، تدفع شبهة لم تكن قد وجدت إلى العهد الذى كان ينزل فيه القرآن ، وهى قولهم: إن أديان الجماعات الإنسانية فى جميع أدوار التاريخ لم تكن إلا مجموعات من أضاليل ، فلو كانوا حظوا برسل يهدونهم لكانوا أحسن مذاهب مما هم عليه الآن ، فكان فى تأكيد الكتاب أن الله ساوى بينهم وبين سواهم فى الإرسال إليهم ، ولكنهم آثروا أن يحافظوا على أساطيرهم ، وأن ينبذوا ما أتاهم من الوحى ظهريا ، دافع حاسم

لهذه الشبهة ، ولا تزال أحوالهم تشهد بصحة هذا الدفع ، فإن جميع الشعوب التى احتك بها الأوربيون فى فتوحاتهم الأمريكية والأقيانوسية والإفريقية ، لاتزال محافظة على أوهامها رغما عما جاءوهم به من التعاليم النصرانية ، وليس بخفى أنهم حاولوا تنصيرهم على أساليب شتى ، فلم يصلوا إلى ما أرادوا بعد صرفهم قناطير مقنطرة من الأموال فى هذه السبيل . فلا يصح أن يقال بعد هذا : إن الله لم يرسل إليهم رسلا .
« فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط » فيه إضمار تقديره فإذا جاء رسولهم وبلغهم ما أرسل به إليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون (قضى) أى حكم وفصل بينهم بالقسط أى بالعدل ؛ وفى وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان: أحدهما أنه فى الدنيا ، بأن يهلك الكافرين وينجى رسوله والمؤمنين، لقوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » والثانى أنه فى الآخرة ، وذلك أن الله تعالى إذا جمع الأمم يوم القيامة للحساب والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصى جىء بالرسل لتشهد عليهم لقوله تعالى : وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم ، والمراد منه المبالغة فى إظهار العدل وهو قوله تعالى : « وهم لا يظلمون » فى جزاء أعمالهم شيئا بل يجازى كل واحد على قدر عمله فكذلك يفعل بهؤلاء « ويقولون متى هذا الوعد » الذى تعدنا به يا محمد من نزول العذاب ومن قيام الساعة ، وأيضا قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد « إن كنتم صادقين » أى فيما تعدنا به ، وإنما قالوا ذلك بلفظ الجمع على سبيل العظيم أو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وإن كان كل أمة قالوا لرسولهم مثل ذلك وهو الموافق لقوله تعالى : « ولكل أمة رسول » قال الله تعالى «قل» أى قل لهم يا محمد « لا أملك لنفسى ضرا » من مرض أو فقر أدفعه « ولا نفعا » من صحة أو غنى أجلبه « إلا ما شاء الله » عليه ؛ فكيف أملك لكم حلول العذاب أو قيام الساعة ، ولا يقدر على ذلك أحد إلا الله تعالى « لكل أمة أجل » أى مدة مضروبة « إذا جاء أجلهم » أى انقضت مدة أعمارهم « فلا يستأخرون » أى لا يتأخرون عنه « ساعة » . وقد عطف على هذه الجملة

الشرطية بكمالها جملة أخرى هى قوله تعالى « ولا يستقدمون » أى ولا يتقدمون، أى ولا يستعجلون فان الوفاء بالوعد لا بد منه والسين ، فيهما بمعنى الوجدان ، ويجوز أن يكون المعنى : لا يجدون التأخر ولا التقدم وإن اجتهدوا فى الطلب ، فيكون فى السين معنى الطلب ، ونزول الآية على أن أحدا لا يموت إلا بانقضاء أجله وكذا المقتول لا يقتل إلا على هذا الوجه « قل » لهم يا محمد أيضا « أرأيتم إن أتاكم عذابه » الذى تستعجلون به « بياتا » فى الليل بغتة كما يفعل العدو « أو نهارا » أى وقتا أنتم فيه مشتغلون بطلب المعاش والكسب «ماذا» أى أى شىء « يستعجل منه » أى من عذابه وعذاب كل مكروه لا يحتمل شىء منه « المجرمون » أى المشركون وضع المجرمون موضع المضمر للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغى أن يفزعوا من مجىء الوعيد لا أن يستعجلوه وجواب الشرط (إن) محذوف تقديره : (تندموا على الاستعجال) ، أو : (تعرفوا وجه الخطأ فيه) . وقد وضع مكان الجواب المحذوف قوله تعالى : (ماذا يستعجل منه المجرمون) .

وقوله تعالى : « أثم إذا ما وقع » أى إذا ما حل بكم العذاب « آمنتم به » أى بالله أو بالعذاب وقت نزوله وهو وقت اليائس .. والهمزة فى (ثم) لإنكار التأخير ، والمعنى أنه لا يقبل منكم الإيمان حينئذ « الآن » أى قيل لهم إذا آمنوا وقت نزول العذاب : الآن « وقد كنتم به » أى بالعذاب «تستعجلون» أى تكذيباً واستهزاء . . « ثم قيل للذين ظلموا » عطف على القول المقدر ، أى : قيل لهم الآن ، ثم قيل للذين ظلموا « ذوقوا عذاب الخلد » أى الذى تخلدون فيه ، والإتيان بثم إشارة إلى تراخى ذلك عن الإهلاك فى الدنيا بالمكث فى البرزخ مدة طويلة ، أو إلى أن عذابه أرقى من عذاب يوم القيامة . . والمعنى على هذا أنهم إذا وقع بهم ما كانوا يستعجلونه من العذاب فأشرفوا على الموت آمنوا ، حيث لا ينفع إيمان ، وقيل لهم وقت موتهم : آلان ؟ ثم قيل لهم يوم القيامة : ذوقوا عذاب الخلد . . فجاءت (ثم) لذلك

« هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون » أى ما تجزون إلا بما كنتم تعملون فى الدنيا من الكفر والمعاصى . .

وبهذا ينتهى الربع الثالث من سورة يونس . وخلاصة هذا الربع هى :

١ — الاستدلال على قدرة الله من مظاهر قدرته فى السماء والأرض ، ومن كان كذلك لا يستغرب أن يرسل رسولا ، ولا أن ينزل كتابا على نبى ، ولا أن يعيد الخلق للحساب والجزاء كما بدأهم ، فعلام يضج المشركون ، ويكذب المكذبون ، وينكر المنكرون ؟ إن المشركين لو تأملوا لاهتدوا إلى صدق محمد فيما بلغ به عن ربه ، وإلى صدق القرآن الذى نزل عليه ، وإلى صدق ما أخبر به القرآن من البعث والحساب والجزاء .

٢ — العرب لا يتبعون فى عقائدهم ، أو قل لا يتبع أكثرهم إلا الظن ، والظن لا يغنى من الحق شيئاً ، أما الباقون فهم موزعون بين أديان سماوية آمنوا بها ، وبين ترقب الدين الجديد ليؤمنوا .

٣ — تأكيد معجزة القرآن الكريم وصحته وصدق الرسول فيما أخبر به من أن القرآن منزل عليه من السماء ، وتحدى العرب بالقرآن إن كانوا صادقين فيما قالوه ، تحداهم بأن يأتوا بسورة مثله فى بلاغته وفصاحته وإعجازه. فإن استمروا على الكفر والعناد مع علمهم بصدق الرسول وصدق القرآن فلهم عملهم ، وللرسول والمؤمنين عملهم ، لا يضر المؤمن شرك مشرك ولا تكذيب مكذب ؛ إن هؤلاء المشركين لصم عن الحق ، وعمى عن رؤية الآيات الواضحات الداعية إلى الإيمان ، وسوف يلقون جزاءهم ، والله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

٤ — إنذار المشركين بقرب الحشر . وبأنهم سوف يلقون جزاءهم ، على ما اقترفوا من سيئات ، كاملا غير منقوص .

٥ — تأكيد أن الكفار متشابهون فى الإثم وفى المصير ، وقد أرسل الله عز وجل إلى كل أمة رسولا ، وعند ما يبلغهم الرسول رسالته ، يقضى الله بينهم بالقسط ، فإن آمنوا فلهم البقاء ، وإن كذبوا فلهم الدمار .

٦ – الرد على المشركين الذين يستعجلون عذاب الله لينزل بهم ، ويستعجلون يوم القيامة ليحاسبوا فيه ، بأن الرسول لا يملك أن يتعجل شيئاً ، لأنه لا يملك لنفسه من دون الله ضرا ولا نفعاً ، وبأن لكل أمة أجلا ، وبأنه لا فائدة من استعجالهم العذاب ، لأنهم لن يلقوا بعد وقوعه إلا الشر والشقاء ، فإذا جاء العذاب لهم فى الدنيا أهلكهم الله ، فلا ينفع إيمان أحد ، ثم يقضى الناس مدة البرزخ فى القبر ، وبعد ذلك يقومون ليستكملوا عذابهم المقدر لهم فى الآخرة جزاء على ما كانوا يكسبون من عمل ، وما كانوا يقترفون من سيئات .

الربع الرابع من سورة يونس

٥٣ — وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ .

٥٤ — وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

٥٥ — أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

٥٦ — هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

٥٧ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .

٥٨ — قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ .

ست آيات كريمة هن مطلع الربع الرابع من سورة يونس ، وفيها يؤكد الله عز وجل حيرة المشركين وضلالهم ، إنهم حائرون بين عقائد آبائهم وبين الإسلام دين الله العظيم ؛ يسمعون تحذير الله وإنذاره لهم فيقفون فزعين يسألون محمدا : أحق هذا الوعيد وذلك الإنذار ، فيؤكد لهم أنه حق ، وأنهم لا يعجزون الله فى الأرض ولا فى السماء ، وأنهم لو كانوا يملكون كنوز السماء والأرض لافتدوا بهم أنفسهم فى الآخرة من الله ، وأنهم حين يرون العذاب يقعون فى الندم الشديد ، ولا يلبثون إلا أن يقضى الله بين الناس قضاءه العادل الحكيم : للمشركين النار وللمؤمنين الجنة .. وهل فى ذلك ريب ؟ إن الله مالك ملك السموات والأرض لا يعجزه شىء من ذلك ، إن وعده حق ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .. إنه يحى ويميت وإليه المرجع والمصير .. وأخيراً ينادى الله عز وجل فى مشركى مكة بأنهم جاءهم الرسول وجاءهم القرآن موعظة من الله ، وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ، وبأنهم كان الجدير بهم أن يفرحوا برسالة محمد ، لأنها مجد لهم وشرف وعزة ، وبأن الإيمان بها والدفاع عنها والكفاح من أجلها خير لهم مما يجمعون من مال وثروة ..

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة . . « ويستنبئونك » أى يستخبرونك يا محمد « أحق هو » أى ما وعدتنا به من نزول العذاب وقيام الساعة ، وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء ، قاله حيى بن أحطب لما قدم مكة « قل » لهم فى جوابهم « إى وربى إنه لحق » أى كائن ثابت لا بد من نزوله بكم .. « وإى » بمعنى نعم وهو من لوازم القسم « وما أنتم بمعجزين » أى بفائتين العذاب لأن من عجز عن شىء فقد فاته « ولو أن لكل نفس ظلمت » أى أشركت « ماقى الأرض » من الأموال « لافتدت به » من عذاب يوم القيامة ، ثم لم ينفعها هذا الفداء لقوله تعالى : « ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » . « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب » أى عاينوه وأبصروه صاروا مبهوتين متحيرين ، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا ، سوى إسرار

الندم ، كالحال فيمن ذهب به ليصلب فإنه يبقى مبهوتا متحيرا لا ينطق بكلمة ، وقيل : إنهم أخلصوا لله فى تلك الندامة ومن أخلص فى الدعاء أسره ، وفيه تهكم بهم وبإخلاصهم ؛ لأنهم إنما أتوا بهذا الإخلاص فى غير وقته ، بل كان من الواجب عليهم أن يأتوا به فى دار الدنيا وقت التكليف ؛ وقيل : أراد بالإسرار الإظهار وهو من الأضداد ، لأنهم إنما أخفوا الندامة على الكفر والفسق فى الدنيا لأجل حفظ الرياسة ، ويوم القيامة يبطل هذا فوجب الإظهار ، ولفظ (أسروا) جاء على لفظ الماضى ، والقيامة من الأمور المستقبلة ، لأنها لما كانت واجبة الوقوع جعل الله مستقبلها كالماضى « وقضى بينهم » أى بين الخلائق « بالقسط » أى بالعدل « وهم لا يظلمون » ليست هذه الآية مكررة لأن الأولى فى القضاء بين الأنبياء وتكذيبهم وهذه عامة ، وقيل : بين المؤمنين والكفار ، وقيل : بين الرؤساء والأتباع ؛ فإن الكفار وإن اشتركوا فى العذاب فلا بد أن يقضى الله تعالى بينهم لأنه لا يمتنع أنه قد ظلم بعضهم بعضا فى الدنيا أو خانه ، فيكون فى ذلك القضاء تخفيف عذاب بعضهم وتثقيل لعذاب الباقين ؛ لأن العدل يقتضى أن ينصف المظلومين من الظالمين ، ولا سبيل إليه إلا أن يخفف من عذاب المظلومين ويثقل فى عذاب الظالمين « ألا إن لله ما فى السموات والأرض » تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب « ألا إن وعد الله » أى ما وعد به على لسان نبيه « حق » لا شك فيه « ولكن أكثرهم » أى الناس « لا يعلمون » أى جاهلون عن حقيقة ذلك . فهم باقون على الجهل معدودون مع البهائم لقصور عقلهم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا « هو » أى الذى يملك ما فى السموات والأرض « يحى ويميت » أى قادر على الإحياء والإماتة لا يتعذر عليه شىء مما أراد « وإليه ترجعون » بعد الموت للجزاء « يا أيها الناس » خطاب عام ، وقيل لأهل مكة : « قد جاءتكم موعظة من ربكم » أى كتاب فيه ما لكم وما عليكم وهو القرآن « وشفاء » أى دواء « لما فى الصدور » أى القلوب من داء الجهل والحيرة ، لأن داء الجهل أضر للقلب من المرض للبدن ، وأمراض القلب هى الأخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة ،

والقرآن مزيل لهذه الأمراض كلها ، لأن فيه المواعظ والزواجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير ، فهو الشفاء لهذه الأمراض القلبية ، وإنما خص الله تعالى الصدر بالذكر لأنه موضع القلب وغيره ، وهو أعز موضع في الإنسان لمكان القلب فيه « وهدى » من الضلالة « ورحمة » أي إكرام عظيم « للمؤمنين » لأنهم هم الذين انتفعوا به دون غيرهم ، واختلف في تفسير قوله تعالى « قل بفضل الله وبرحمته » ، فقال مجاهد وقتادة : فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلنا من أهله ، وقال ابن عباس والحسن : فضل الله الإسلام ورحمته القرآن ، وعن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا « قل بفضل الله وبرحمته » فقال : بكتاب الله والإسلام ، وقال ابن عمر : فضل الله الإسلام ورحمته تزيينه في قلوبنا ، وقيل : فضل الله الإسلام ورحمته الجنة ، وقيل : فضل الله القرآن ورحمته السنن ؛ ولا مانع أن تفسير الآية بجميع ذلك ، إذ لا تنافي بين هذه الأقوال ؛ والباء في « بفضل الله » متعلقة بمحذوف يفسره ما بعده تقديره: قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته « فبذلك فليفرحوا » والتكرير للتأكيد والتقرير ، « هو » أي المحدث عنه من الفضل والرحمة « خير مما يجمعون » أي من حطام الدنيا ولذاتها الفانية .

٥٩ — قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ .

٦٠ — وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ .

٦١ — وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا

يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ .

٦٢ — أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

٦٣ — ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ .

٦٤ — لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

٦٥ — وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .

٦٦ — أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .

٦٧ — هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

٦٨ — قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

٦٩ — قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ .

٧٠ — مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ .

اثنتا عشرة آية تضمنت ما تضمنت من الوعد والوعيد والإنذار والتهديد للمشركين ؛ ومن بيان قدرة الله فى الأرض والسماء ، ومن تسجيل شرك المشركين وقولهم : اتخذ الله ولدا ، ومن بيان منزلة المؤمنين الصالحين عند الله والبشارة التى كتبها لهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وفى تسجيل كذب المشركين وافترائهم واتباعهم الظنون والأوهام والأباطيل . . إلى غير ذلك مما تضمنته هذه الآيات الكريمة . . يقول الله عز وجل . « قل » يا محمد لكفار مكة . . « أرأيتم » أى خبرونى « ما أنزل الله » أى خلق « لكم من رزق » أى ثروة ترزقون بها وتعيشون عليها . وجعل الرزق منزلا من السماء لأن سبب كل ثروة هو الماء النازل من السحاب . « فجعلتم فيه » أى من ذلك الرزق « حراما وحلالا » أى جعلتم بعضه حلالا ، لكم الانتفاع به ، وبعضه حراما عليكم لاتنتفعون به ، بل تجعلونه لآلهتكم ، من مثل تحريم السائبة والوصيلة والحام ، ومن مثل قولهم : هذه أنعام وحرث حجر ، ومن مثل قولهم: هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا . ومثل قولهم : ثمانية أزواج من الضأن اثنين « قل » لهم يا محمد « آلله أذن لكم » فى هذا التحريم والتحليل « أم » أى بل « على الله تفترون » أى تكذبون على الله بنسبة ذلك اليه « وما ظن الذين يفترون » أى يتعمدون « على الله الكذب » أى أى شيء ظنهم به « يوم القيامة » أيحسبون أن لايؤاخذهم ولا يجازيهم على أعمالهم ، فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والتهديد والوعيد العظيم لمن يفترى على الله الكذب « إن الله لذو فضل على الناس » بنعم كثيرة ، ومنها إنزال الكتب مفصلا فيها مايرضيه ومايسخطه ، ومنها إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام لبيانها بما يحتمله قلوب الخلق منها ، ومنها طول إمهالهم على سوء أفعالهم ، ومنها إنعامه عليهم بالعقل ، فكان شكره واجباً عليهم « ولكن أكثرهم » أى الناس « لا يشكرون » هذه النعم ولايستعملون العقل فى دلائل الله تعالى ، ولا يقبلون دعوة أنبيائه ، ولا ينتفعون باستماع كتب الله ، وقوله تعالى « وما تكون » خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم « فى شأن » أى عمل من

الأعمال وجمعه شئون « وما تتلو منه » أى من القرآن أو من الشأن « من قرآن » كل جزء منه قرآن ، والإضمار قبل الذكر تفخيم له ، ويصح أن يكون الضمير لله تعالى ، والمعنى وما تتلو من الله من قرآن نازل ، وقوله تعالى « ولا تعملون من عمل » أى أى عمل كان ، تعميم للخطاب بعد تخصيص بمن هو رئيسهم وهو النبى صلى الله عليه وسلم ، ولذلك ذكر حيث خص بما فيه فخامة وهو الشأن، وذكر حيث عم بقوله تعالى : من عمل ، ثم بما يتناول الجليل والحقير ، وقيل : إن الكل داخلون فى الخطابين الأولين أيضا ، لأنه من المعلوم أنه إذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين فى ذلك الخطاب كما فى قوله تعالى: « يا أيها النبى إذا طلقتم النساء » .. « إلا كنا عليكم شهودا » أى رقباء نحصى عليكم أعمالكم ، لأن الله تعالى رقيب على كل شىء ، إذ لا محدث ولا خالق ولا موجد إلا الله تعالى . فكل مايدخل فى الوجود من أحوال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة داخل فى علمه وشاهد عليه « إذ تفيضون » أى الله شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون « فيه » أى ذلك العمل ، وقيل : الإفاضة الدفع بكثرة ، وقال الزجاج : إذ تنتشرون فيه ، يقال : أفاض القوم فى الحديث إذا انتشروا فيه « ومايعزب » أى يغيب « عن ربك » يامحمد « من مثقال » أى وزن «ذرة» هى أصغر مايرى من الهباء فى ضوء الشمس ، وهو الشىء المنبث الذى تراه فى ضوء الشمس « فى الأرض ولا فى السماء » ذكر هذا القيد تقريبا لعقول العامة « وقدم ذكر الأرض على السماء هنا ، وقدم ذكر السماء على الأرض فى سورة سبأ حيث قال تعالى « ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض » لأن الكلام هنا فى حال أهلها ، والمقصود منه هو البرهان على إحاطة علمه « ولا أصغر من ذلك » أى الذرة « ولا أكبر » أى منها « إلا فى كتاب مبين » أى بين وهو اللوح المحفوظ « ألا إن أولياء الله » أى الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة « لا خوف عليهم » أى من لحوق مكروه « ولا هم يحزنون » بفوات مأمول ، وأولياء الله هم « الذين آمنوا وكانوا يتقون » الله بامتثال أمره ونهيه ، وهذا الذى فسر الله تعالى به الأولياء

لا مزيد عليه ، وعن على رضى الله عنه : هم قوم صفر الوجوه من السهر ، عمش العيون من العبر ، خمص البطون من الخوى ، وعن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : من أولياء الله ؟ فقال : هم الذين يذكرون الله برؤيتهم بعين السمت والهيئة ، وعن ابن عباس : الإخبات والسكينة ، وعن عمر رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن من عباد الله عباداً ماهم بأنبياء ولا شهداء ، تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله ، قالوا يا رسول الله : أخبرنا من هم وما أعمالهم ؟ فلعلنا نحبهم ، قال : هم قوم تحابوا فى الله بغير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، ولا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ الآية الكريمة . . ونقل النووى فى مقدمة شرح المهذب عن الإمامين الشافعى وأبى حنيفة رضى الله تعالى عنهما أن كلا منهما قال : إذا لم تكن العلماء أولياء فليس لله ولى ، وذلك فى العالم العامل بعلمه ، وقال القشيرى : من شرط الولى أن يكون معصوماً ، فكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخادع ، فالولى هو الذى توالت أفعاله على الموافقة . . ولما نفى عنهم الخوف والحزن زادهم ؛ فقال تعالى مبينا لتوليته لهم بعد أن شرع بتوليتم له « لهم البشرى » أى الكاملة « فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » أما البشرى فى الدنيا ففسرت بأشياء : منها الرؤيا الصالحة ، فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال : البشرى هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له ، وقال صلى الله عليه وسلم : ذهبت النبوة وبقيت المبشرات ، وقال : الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان ، فإن حلم أحدكم حلما يخافه فليتعوذ منه ، فإنه لا يضره ، وقال : الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة . . ومنها محبة الناس له وذكرهم إياه بالثناء الحسن ، وعن أبى ذر ، قال : قلت يا رسول الله : إن الرجل ليعمل العمل لله ويحبه الناس ، فقال : تلك عاجلة بشرى المؤمن ، ومنها البشرى لهم عند الموت ، قال تعالى : تتنزل عليهم

الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة ، وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ، وما يرونه من بياض وجوههم ، وإعطاء الصائف بأيمانهم ، وسلام الله تعالى عليهم ، كما قال تعالى : سلام قولا من رب رحيم ، وغير ذلك من المبشرات بما بشر الله تعالى به عباده المتقين فى كتابه ، وعلى ألسنة أنبيائه من جنته وكريم ثوابه ، فإن لفظ البشارة مشتق من خبر سار يظهر أثره فى بشرة الوجه ، فكل ما كان كذلك دخل فى هذه الآية ، ثم إنه تعالى لما ذكر صفة أوليائه وشرح أحوالهم قال تعالى «لا تبديل» أى بوجه من الوجوه «لكلمات الله» أى لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده ، والكلمة والقول سواء ، ونظيره قوله تعالى «ما يبدل القول لدى» وقوله تعالى «ذلك» إشارة إلى كونهم مبشرين فى الدارين «هو الفوز العظيم» هذه الجملة والتى قبلها اعتراض لتحقق المبشر به وتعظيم شأنه ، وليس من شرطه أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله «ولا يحزنك» يا محمد «قولهم» أى هؤلاء المشركين ، لا يهمنك تكذيبهم وتهديدهم ومشيهم فى تدبير هلاكك وإبطال أمرك وسائر ما يتكلمون فى شأنك ، وقوله تعالى «إن العزة لله جميعا» استئناف بمعنى التعليل ، كأنه قيل : مالى لا أحزن ؟ فقال : إن العزة لله جميعا ، أى إن الغلبة والقهر فى مملكة الله لله جميعا ، لا يملك أحد شيئا منها لاهم ولا غيرهم ، فهو يغلبهم وينصرك عليهم ، قال تعالى : كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ، وقال تعالى : إنا لننصر رسلنا ، وقيل : إن المشركين كانوا يعتذرون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم ، فأخبر الله تعالى أن جميع ذلك فى ملكه ، فهو قادر على أن يسلب جميع ذلك ويذلهم بعد العز «هو السميع» أى البليغ السمع لأقوالهم «العليم» أى المحيط العلم بضمائرهم وجميع أحوالهم ، فهو البالغ القدرة على كل شىء ، فيجازيهم ، وهو تعليل لتفرده بالعزة لأنه انفرد بهذين الوصفين فانتفيا عن غيره ، ومن انتفيا عنه كان دون الحيوانات العجم ، فأنى يكون له العزة ، فإن قيل : قوله تعالى : إن العزة لله جميعا ، يضاد قوله تعالى : ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ـ أجيب بأن عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله فهى لله «ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض» ملكا وخلقا . وقد

ذكر الله تعالى فى الآية المتقدمة «ألا إن لله ما فى السموات والأرض» بلفظ (ما)، وقال هنا بلفظ (من)، وفائدة ذلك أنه تعالى غلب فى الآية الأولى ما لا يعقل على من يعقل لكثرته، وفى هذا غلب العاقل على غيره لشرفه، وقيل: مجموع الآيتين دال على أن الكل خلقه وملكه، وقيل: إن المراد بمن فى السموات الملائكة وبمن فى الأرض الثقلان، وإنما خصهم بالذكر لشرفهم، وإذا كان هؤلاء فى ملكه وتحت قهره فما لا يعقل منها أحق أن لا يكون له ند وشريك. فهو كالدليل على قوله تعالى: «وما يتبع الذين يدعون» أى يعبدون «من دون الله» أى غيره أصناما «شركاء» على الحقيقة وإن كانوا يسمونها شركاء، تعالى الله عن ذلك «إن» أى ما «يتبعون» فى ذلك «إلا الظن» أى ظنها أنها آلهة تشفع لهم وأنها تقربهم إلى الله تعالى. ثم بين تعالى أن هذا الظن لا حكم له بقوله تعالى «وإن» أى ما «هم إلا يخرصون» أى يكذبون فى ذلك، ويجوز أن يكون «وما يتبع» فى معنى الاستفهام، أى وأى شىء يتبعون، وشركاء على هذا نصب بيدعون «هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه» أى ليزول عنكم التعب والكلال فيه بما تقاسون فى نهاركم من تعب التردد فى المعاش «والنهار مبصرا» أى مضيئا تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم، وفيه تنبيه على كمال قدرته وعظيم نعمته المتوحد هو بهما ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة، وإضافة الإبصار إلى النهار مع أنه يبصر فيه على طريق نقل الإسم من المسبب إلى السبب كقولهم: ليل نائم، لأن الليل سبب السكون، قال قطرب. تقول العرب: أظلم الليل أى صار ذا ظلمة، وأضاء النهار أى صار ذا ضياء «إن فى ذلك» المذكور «لآيات» أى دلالات على وحدانيته تعالى «لقوم يسمعون» سماع اعتبار وتدبير فيعلمون بذلك أن الذى خلق الأشياء كلها هو الإله المعبود المنفرد بالوحدانية فى الوجود. ثم ذكر تعالى نوعا من أباطيل الكفار بقوله تعالى «قالوا» أى اليهود والنصارى، ومن زعم أن الملائكة بنات الله «اتخذ الله ولدا» قال الله تعالى «سبحانه» أى تنزيها له عن الولد «هو الغنى» عن كل أحد، وإنما يطلب الولد من يحتاج اليه، ثم بين تعالى غناه بقوله تعالى «له ما فى السموات

وما فى الأرض » من ناطق وصامت ملكا وخلقا « إن » أى ما « عندكم من سلطان » أى حجة « بهذا » أى بالذى تقولون به ، ثم بالغ تعالى فى ذلك الإنكار بقوله تعالى « أتقولون على الله ما لا تعلمون » حقيقته وصحته وتضيفون اليه مالا يجوز إضافته اليه تعالى ، جهلا منكم ، والاستفهام للتوبيخ « قل » يا محمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون عليه الباطل ويزعمون أن له ولدا « إن الذين يفترون » أى يعتمدون « على الله الكذب لا يفلحون » أى لا ينجون فى سعيهم ولا يفوزون بمطلوبهم بل خابوا وخسروا ؛ فإنهم لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة، ومن الناس من إذا فاز بشىء من المطالب العاجلة والمقاصد الحسنة ظن أنه قد فاز بالمقصد ، والله سبحانه وتعالى أزال هذا الخيال بأن قال «متاع فى الدنيا» أى لهم متاع فى الدنيا ، أو التقدير: افتراؤهم فى الدنيا وهو أيام يسيرة بالنسبة إلى طول بقائهم فى العذاب « ثم إلينا مرجعهم » بعد الموت « ثم نذيقهم العذاب الشديد » بعد الموت « بما » أى بسبب ما « كانوا يكفرون » .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الرابع من سورة يونس ، وقد تضمن من الأصول الجليلة فى بناء عقيدة التوحيد وبناء الفكرة الإسلامية الهادفة ما يلى :

١ — قدرة الله لا يعجزها شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ولو شاء عز وجل لأهلك المشركين وسحق الظالمين ودمر الكافرين . إن وقوع العذاب بالأمم الضعيفة وقيام الذل والخزى بالوثنيين ، وهلاك الخارجين على الحق ونواميس الحياة ، أمر لا يعجز الله فى شىء ، إنه منطق الحياة ومنطق العدالة ولغة القوة . وما استفهام المشركين من الرسول عن نزول العذاب بساحتهم إلا كالشك فى موضع اليقين ، وكالحيرة حيث يجب أن تنتفى الريبة ، إى وربى إنه لحق ، إن دمار الذين خرجوا على دين الله وعلى النواميس الإلهية التى فصلنا الحديث فيها ، أمر لا يدعو إلى العجب ولا إلى التساؤل فى شىء . إن

العذاب لا بد أن يلحق كل عاص متمرد على شريعة السماء . ولو ملك الكافرون يوم القيامة كل خزائن الأرض ، لافتدوا به من هول اليوم الآخر، ولكنهم لا يقبل منهم فداء حيث لا يجدى الفداء . يومئذ يظهرون الندم والحسرة حين يرون العذاب ، ويحكم الله بينهم بالعدل والقسطاس المستقيم : للكافرين النار وسوء المصير ، وللمؤمنين الجنة والنعيم ، لا يظلم أحد مثقال ذرة ، وكيف يظلم الله عبدا من عباده وهو مالك السماوات والأرض ووعده الحق ، وإن جهل الجاهلون ، وضل عن دينه الضالون .

٢ — تبشير العرب والناس أجمعين برسالة محمد صلوات الله وسلامه عليه وبنزول القرآن من السماء ، هذا الكتاب السماوى الحكيم الذى نزل موعظة من الله وشفاء لما فى صدور الناس من حيرة وضلال ، ونزل كذلك هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، إن العرب كان من الخليق بهم أن يفرحوا برسالة محمد وبعثته ، وبنزول القرآن ودعوته ، لأن ذلك كله مجد لهم وأى مجد ، وذكر لهم فى العالمين وعزة لهم بين البشر أجمعين . . إن رسالة محمد ونزول القرآن عليه فضل ورحمة وخير ونعمة ومال وثراء ، وبهما يكون فخر العرب ، لا بما جمعوا من مال كثير ، وما كنزوا من ذهب نضار .

٣ — النعى على المشركين فيما ذهبوا إليه من عقائد وتقاليد وعادات وأخلاق امتزجت بالوثنية ، وتغلغلت فيها روح الشر — وفيما جعلوه من الأموال لآلتهم التى أشركوها مع الله فى العبادة وجعلوها ندا له فى الطاعة ، ومن أذن لهم بذلك ؟ إن الله لا يأذن لأحد بالشرك ولا يبيح له عبادة الأوثان . والذين اتخذوها آلهة وعبدوها مع الله وقالوا : إنها شفعاء ، وإنها زلفى إلى الله ، وإنا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وإن الله قد أذن لنا بذلك ، هم الضالون المضلون ، والله لم يأذن لأحد بالشرك ، ولم يبح له الضلال والبهتان ، فالله لم يأذن لأحد بشىء من ذلك ، والذين يتقولون على الله هذا هم المفترون ، وهم الذين سوف يعذبهم الله عذابا أليما فى الآخرة ، من حيث

يغدق من فضله ورحمته على المؤمنين الصادقين ، والله ذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون .

٤ — الله عز وجل مهيمن على عباده ، محيط بهم ، مطلع على أعمالهم ، شاهد على أفعالهم . ولا عجب فعلم الله وقدرته وهيمنته تحيط بكل شيء فى الأرض والسماء . وما ظنك بالذرة الصغيرة وبما هو أكبر منها وبما هو أصغر منها كذلك ، إن كل شيء من ذلك لا يغيب عن علم الله ولا يستعصى على قدرته. والقرآن وقد أثبت أن هناك ما هو أصغر من الذرة يؤكد تركب الذرة ، وتركبها دليل على إمكان تجزئتها ، وهذا هو ما وصل إليه العقل فى العصر البشرى الراهن ، مما نجم عنه نظرية تفتيت الذرة التى أثبتها اينشتاين عليا ، وأثبتها العلماء الأمريكيون عام ١٩٤٥ م ، حيث قاموا بتفجير أول قنبلة ذرية أطلقت على العالم العصرى الذرى العجيب الذى نعيش فى حضارته اليوم ، والذى توصل بعد ثلاثة عشرة عاما من تفجير أول قنبلة ذرية إلى نظرية الصواريخ وعلم الفضاء الكونى .. الذى سوف يقودنا إلى حياة جديدة .

٥ — المؤمنون الصادقون هم أولياء الله ، وهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وهم لهم البشرى فى الدنيا وفى الآخرة ، وهذا هو الفوز العظيم ، الذى يتطلع إليه الفضلاء والجديرون بشرف الحياة والإنسانية .

٦ — أما المشركون فحسبهم غضب الله عليهم ، ومهما استعزوا بأنفسهم وبأموالهم وبكثرتهم فلن يغلبوا المسلمين وفيهم الرسول ، ولن تكون لهم عزة فى الأرض ماداموا على شركهم ، فالعزة لله جميعاً ، والعزه به لرسوله وللمؤمنين ، وهو السميع لأقوال المشركين العليم بماضى المشركين وحاضرهم ومستقبلهم .. إن الله فى غنى عنهم . فله من فى السموات ومن فى الأرض ، والذين يشركون بالله إنما يتبعون الظن وعقائد مبنية على الأوهام والخيالات والخرافات والأباطيل ، وإنما يعتمدون على الأهواء والأغراض والشهوات

لا على الحقائق وعلم اليقين ، إن المشركون فى شركهم وفيما يزعمون إن هم إلا مبطلون ، يتقولون على الله الأكاذيب ويقولون على الله غير الحق .

٧ — إن قدرة الله تنفى عنه الشريك والولد ، قدرته التى جعلت الليل هدوءا وسكنا للناس ، وجعلت النهار ضياء وسعيا للحياة . هذه القدرة العظيمة هى قدرة إله واحد أحد فرد صمد . وفى ذلك وفى غيره عبر وعظات ودلائل وآيات لقوم يسمعون ويبصرون ويعقلون ويتفكرون ويهتدون — ضلة لهؤلاء الذين ضلوا وأضلوا ، الذين أشركوا وكفروا ، الذين ساءت أقوالهم وأفعالهم ، الذين خابت عقائدهم وشعائرهم ، الذين قالوا : اتخذ الله ولدا . سبحانه ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء ، إن الله هو الغنى عن عبادة العابدين وعن طاعة الخلق أجمعين ، إن له ما فى السموات وما فى الأرض ، هم له عبيد ، وهم له أبناء ، وهم له طائعون مخلصون . ومن أين هذا الإثم وهذا البهتان العظيم ؟ ومن أين لهم ما افتروه على الله وما كذبوا به على الناس ، هل عندهم من حجة وبرهان على هذا ؟ هل لديهم كتاب منزل من السماء ، أو وحى أوحى به الله إليهم ، أو عقيدة ورثوها عن الرسل والأنبياء ، أو علم صحيح بنوه على الحق الصراح ، بأن اتخذ الله ولدا ، وأنه أمر بعبادة شريك له فى ملكه — إن المشركين لا يقولون على الله شيئاً له حقيقة ، والله عز وجل والعقل والعلم لا يمكن أن يثبتوا شيئاً من ذلك ، فالله لا يعلم له صاحبة ولا ولدا ، والحقيقة تشهد بذلك ، والفكر الإنسانى السليم يؤيد أن الله منزه عن ذلك كله . وإذا كان ذلك كذلك فإن المشركين لا يقولون على الله قولا له نصيب من الحق ولا من الصدق . إنهم يقولون عليه ما لا يعلمون ، إنهم يفترون ويظنون الظنون ، وهم يعلمون أن عقائدهم باطلة وأن كلامهم هراء وأن مايذهبون إليه إن هو إلا وهم وخبال . وبعد ، فماذا يكون مصيرهم ، وماذا يكون مآلهم ؟ إن هو إلا زمن وجيز يقضونه فى الحياة الدنيا ، ومتاع قليل يتمتعونه ، ثم يتوفاهم الله ويرجعون إليه فإليه مرجعهم ، ثم يبعثهم فيحاسبهم فيجازيهم بما كانوا يشركون ، ونذيقهم العذاب الشديد بما كانو يكفرون .

الربع الخامس من سورة يونس

٧١ — وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ .

٧٢ — فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ .

٧٣ — فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ .

هذه الآيات الثلاث فى ذكر رسالة نوح عليه السلام وقصته مع قومه ، وقد عرضت الآيات الثلاث لموقفه من قومه بعد لجاجهم وعنادهم ، وفيها عبرة للمعتبرين ، وعظة للمتعظين .

وقد جاءت قصة نوح عليه السلام فى القرآن الكريم فى مواضع عدة ، وذكرت فى العهد القديم . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الثلاث . « واتل » يا محمد « عليهم » أى على كفار مكة وقريش « نبأ » أى خبر « نوح » نبى الله عليه السلام ، وذلك للعظة والاعتبار بهذه القصص ، ليعتبر محمد فلا ييأس ولا يحزن ، وليعتبر المشركون فيؤمنوا . . ومن العجب أنه ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يتعلم علما ، ولم يطالع كتابا ، ثم ذكر هذه القصص من غير تفاوت ومن غير زيادة ومن غير نقصان ، فدل ذلك على أنه صلى الله عليه وسلم إنما عرفها بالوحى والتنزيل « إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر » أى شق وعظم « عليكم مقامى » أى لبثى فيكم ألف سنة إلا خمسين عاما « وتذكيرى »

أى وعظى إياكم « بآيات الله » أى بحجته وبيناته فعزمتم على قتلى وطردى « فعلى الله توكلت » أى فهو حسبى وثقتى .. ويصح أن يكون المراد بقوله تعالى قيامى : قيامه على الدعوة ، لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بينا وكلامهم مسموعا ، كما يحكى عن عيسى عليه السلام أنه كان يعظ الحواريين قائما وهم قعود « فأجمعوا أمركم » أى فاعزموا على على أمر تفعلونه بى « وشركاءكم » أى وادعوا شركاءكم ، أو الواو بمعنى مع أى مع شركائكم وهى الأصنام ، وإنما حثهم على الاستعانة بها على مذهبهم الفاسد واعتقادهم الباطل أنها تضر وتنفع ، مع اعتقاد نوح أنها جماد لا تضر ولا تنفع تبكيتا وتوبيخا لهم « ثم لا يكن أمركم » أى الذى تقصدونه به « عليكم غمة » أى مستورا ، من غمه إذا ستره ، بل أظهروه ، وجاهرونى بمجاهرة ، فإنه معارضة لى بغير الله الذى يستوى عنده السر والجهر « ثم اقضوا إلى » أى امضوا ما فى نفوسكم وافرغوا منه ، يقال : قضى فلان إذا مات ومضى ، وقضى دينه إذا فرغ منه ، وقيل : معناه توجهوا إلى بالقتل والمكروه ، وقيل : فاقضوا ما أنتم قاضوه ، وهذا مثل قول السحرة لفرعون : « فاقض ما أنت قاض » أى اعمل ما أنت عامل « ولا تنظرون » أى ولا تؤخرون بعد إعلامكم إياى ما أنتم عليه ، وإنما قال ذلك إظهارا لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته ، وأنهم لن يجدوا سبيلا « فإن توليتم » أى أعرضتم عن تذكيرى « فما سألتكم من أجر » أى من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فينفركم عنى وتتهمونى لأجله ، من طمع فى أموالكم وطلب أجر على عظتكم ، ومتى كان الإنسان فارغا من الطمع كان قوله أقوى تأثيرا فى القلب « إن أجرى إلا على الله » وهو الثواب الذى يثيبنى فى الآخرة ، أى ما أنصحكم إلا لوجه الله ، لا لغرض من أغراض الدنيا وهذا ينبغى لكل من ينفع الناس بعلم أو إرشاد إلى طريق الله تعالى « وأمرت أن أكون من المسلمين » أى إنى مأمور بالاستسلام لكل مكروه يصل إلى منكم لأجل هذه الدعوة ، وقيل : بدين الإسلام وأنا ماض فيه تارك له ، قبلتموه أو لم تقبلوه « فكذبوه » أى أصروا على تكذيبه بعد ما لزمتهم الحجة ، وبين أن توليتهم ليس إلا لعنادهم وتمردهم

لاجرم حقت عليهم كلمة العذاب « فنجيناه » من الغرق « ومن معه فى الفلك » أى السفينة وكانوا ثمانين « وجعلناهم » أى الذين أنجيناهم معه فى الفلك « خلائف » فى الأرض يخلفون الهالكين بالغرق « وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا » بالطوفان « فانظر » أى أيها الإنسان أو يا محمد « كيف كان عاقبة المنذرين » تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله وتسلية له . . وهذه القصة إذا سمعها من صدق محمداً صلى الله عليه وسلم ومن كذب به ، كان زجرا للمكلفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح ، وتكون داعية للمؤمنين إلى الثبات على الإيمان ، ليصلوا إلى مثل ما وصل اليه قوم نوح ، وهذه الطريقة فى الترغيب والترهيب والتحذير ، إذا جرت على سبيل الحكاية والقصة كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ، ولهذا الوجه كثرت قصص الأنبياء فى القرآن الكريم .

٧٤ — ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ .

فى هذه الآية الكريمة ذكر لرسالات الرسل من بعد نوح إلى موسى على وجه الإجمال ، وإشارة إلى سوء عقائد الأمم ، وكفرها بأنبيائها ، وتكذيبها لهم ، وأنهم استلهموا الكفر لا الإيمان ... وقد طبع الله على قلوبهم وختم عليها بخاتم الشرك والعناد والتمرد ، يقول الله عز وجل : « ثم بعثنا من بعده » أى نوح « رسلا إلى قومهم » لم يسم القرآن الكريم هنا أسماء هؤلاء الرسل من بعد نوح ، وقد بعث بعده هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين .. « فجاءوهم بالبينات » أى بالمعجزات الدالة على صدقهم فيما بلغوا به عن ربهم ، معجزات واضحات تدل على صدق هؤلاء الرسل .. « فما كانوا ليؤمنوا » أى فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة عنادهم وكفرهم

وخذلان الله عز وجل لهم « بما كذبوا به من قبل » أى أنهم كانوا قبل بعثة الرسل إليهم أهل جاهلية مكذبين بالحق ، فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها كأن لم يبعث إليهم أحد « كذلك » أى مثل ما طبعنا على هؤلاء لسبب تكذيبهم الرسل « نطبع » أى نختم « على قلوب المعتدين » أى الظالمين المتجاوزين الحد ، فى كل زمن ، لكل من تعمد الكذب والعدول عن شريعة التوحيد ..

٧٥ — ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ .

٧٦ — فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ .

٧٧ — قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ .

٧٨ — قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ .

٧٩ — وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ .

٨٠ — فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ .

٨١ — فَلَمَّآ أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ .

٨٢ — وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ .

٨٣ — فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ

وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ .

٨٤ — وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ .

٨٥ — فَقَالُوا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ

٨٦ — وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ .

٨٧ — وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

٨٨ — وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ .

٨٩ — قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

٩٠ — وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ .

٩١ — ءَآلْئَٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ .

٩٢ — فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ .

٩٣ — وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

تسعة عشر آية من آيات الذكر الحكيم ، من سورة يونس الرائعة ، تناول الله عز وجل فيها ذكر موسى ورسالته ، وقيادته لقومه ، وقصته مع فرعون وملئه ، وكيف نجاه الله وأغرق آل فرعون ، وما من الله عز وجل على بنى إسرائيل بعد ذلك من منزلة رفيعة بين الشعوب ، ومن خيرات كثيرة ورزق طيب واستقامة على شريعة موسى ، حتى اختلفوا ودب بينهم الشقاق ، وكثرت فرقهم ، وبعدوا عن العقيدة الصحيحة إلى الكفر الصراح ، وقد هددهم الله عز وجل ، فذكر أنه سيفصل بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه ..

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة . « ثم بعثنا من بعدهم » أى من بعد هؤلاء الرسل « موسى وهارون إلى فرعون وملئه » أى أشراف قومه ، وغيرهم تبع لهم ، فهو مرسل إلى الجميع « بآياتنا » التسع « فاستكبروا » عن اتباعها والإيمان بها وهو أعظم الكبر أن يتهاون الناس برسالة ربهم بعد تبيينها ويستعظموا عن قبولها « وكانوا مجرمين » أى كفارا ذوى آثام عظام ، فلذلك استكبروا عنها واجترأوا على ردها « فلما جاءهم الحق » أى جاء فرعون وقومه « من عندنا » أى الذى جاء به موسى من عند ربه وعرفوا أنه ليس من عند موسى وهارون لتظاهر المعجزات الظاهرات المزيلة للشك « قالوا » أى غير متأملين له ولا ناظرين فى أمره لفرط تمردهم « إن هذا لسحر مبين » أى بين ظاهر يعرفه كل أحد ، وهم يعلمون أن الحق أبعد شىء من السحر الذى لا يظهر إلا على كافر أو فاسق « قال موسى : أتقولون للحق

لما جاءكم : أسحر هذا ؟ » فيه حذف تقديره : أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر أسحر هذا ؟ فحذف السحر الأول اكتفاء بدلالة الكلام عليه ثم قال : أسحر هذا ؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار بمعنى أنه ليس بسحر ، ثم احتج على صحته بقوله تعالى « ولا يفلح الساحرون » فإنه لو كان سحراً لاضمحل ولم يبطل سحر السحرة ، فقلب العصى حية وفلق البحر معلوم بالضرورة أنه ليس من باب التمويه والتخييل فثبت أنه ليس بسحر «قالوا» أى قال قوم فرعون لموسى «أجئتنا لتلفتنا » أى لتصرفنا واللفت والفتل أخوان «عما وجدنا عليه آباءنا» أى من الدين وعبادة الأصنام ، ثم قالوا لموسى وهارون «وتكون لكما الكبرياء» أى الملك والعز « فى الأرض » أى أرض مصر ، قال الزجاج: سمى الملك كبرياء لأنه أكبر مايطلب من أمر الدنيا ، وأيضاً : الملوك موصوفون بالكبر ، ويجوز أن يقصدوا بذلك ذمهما وأنهما إن ملكا أرض مصر تجبرا وتكبرا ؛ كما قال القبطى لموسى عليه السلام : إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض « وما نحن لكما بمؤمنين» أى مصدقين فيما جئتما به « وقال فرعون » لقومه وإرادة للمناظرة لما أتى به موسى عليه السلام « إئتونى بكل ساحر عليم » أى أى بالغ فى علم السحر لئلا يفوت شىء من السحر بتأخر البعض « فلما جاء السحرة » أى كل من فى أرض مصر من السحرة ، قالوا لموسى : إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين « قال لهم موسى ألقوا » جميع «ما أنتم ملقون » وأمره لهم بالكفر والسحر مع أن الأمر بالكفر كفر ، لأنه إنما أمرهم بإلقاء مامعهم من الحبال والعصى التى معهم ليظهر للخلق أن ما أتوا به ما هو إلا عمل فاسد وسعى باطل ، لا على طريق أنه عليه السلام أمر بالسحر « فلما ألقوا » ما معهم من الحبال والعصى وخيلوا بسحرهم أعين الناس أنهى تسعى « قال موسى » منكرا عليهم «ماجئتم به السحر» أى الذى جئتم به هو السحر لاماسماه فرعون وقومه سحرا ، ثم اخبر موسى عليه السلام بقوله « إن الله سيبطله » أى يهلكه ويظهر فضيحة صاحبه ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين » أى لايثبته ولايقويه ، وقول البيضاوى: وفيه دليل على أن السحر إفساد وتمويه لاحقيقة محمول على مايفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والأدوية ، وإلا فله حقيقة « ويحق » أى يثبت ويظهر

« الله الحق بكلماته » أى بقضائه ووعده الصادق لموسى عليه السلام وقد أخبر الله تعالى فى غير هذه السورة كيف أنه أبطل ذلك السحر، وذلك بسبب أن ذلك الثعبان قد تلقف تلك الحبال والعصى « ولو كره المجرمون» ذلك، ولما بين تعالى أن قوم موسى شاهدوا تلك المعجزات ومع ذلك لم يؤمن إلا قليل كما قال تعالى « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه » وإنما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه كان يغتم لإعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر، بين تعالى أن له فى هذا الباب من سائر الأنبياء أسوة، لأن الذى ظهر من موسى عليه السلام من المعجزات كان أمراً عظيما، ومع ذلك فما آمن به إلا ذرية من قومه، والذرية اسم يقع على القليل من القوم، قال ابن عباس: الذرية القليل والهاء التى فى قومه راجعة إلى موسى، أى فما آمن من قومه إلا طائفة من ذرارى بنى إسرائيل كأنه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه، وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون وإجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف وقيل: الهاء راجعة إلى فرعون والذرية امرأته آسية ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه « على خوف من فرعون وملئهم » أى خوف منه لأنه كان شديد البطش وكان قد أظهر العداوة لموسى، وإذا علم ميل القوم إلى موسى كان لا بد أن يبالغ فى إيذائهم، فلهذا السبب كانوا خائفين منه ومن أشراف قومه، والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد فى ضمير العظمة لأنه ذو أصحاب يأتمرون به، « أن يفتنهم » أى يصرفهم ويصدهم عن الإيمان « وإن فرعون لعال » أى متكبر قاهر « فى الأرض » أى أرض مصر « وإنه لمن المسرفين » أى المجاوزين الحد، وكان كثير القتل والتعذيب لبنى إسرائيل « وقال موسى» لقومه «يا قوم إن كنتم آمنتم بالله » أى صدقتم به وبآياته « فعليه توكلوا » أى ثقوا به واعتمدوا عليه فإنه ناصر أوليائه ومهلك أعدائه « إن كنتم مسلمين » أى مسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له، وقيل: إن كنتم آمنتم بالقلب وأسلمتم بالظاهر « فقالوا » مجيبين له « على الله توكلنا » أى عليه اعتمدنا لا على غيره، ثم دعوا ربهم فقالوا « ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين » أى لا تسلطهم علينا

فيفتنونا « ونجنا ، أى خلصنا « برحمتك من القوم الكافرين ، أى من أيدى قوم فرعون لأنهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم فى الأعمال الشاقة ، وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا مخلصين ، ولا جرم أن الله تعالى قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء فى الأرض ، وفى تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعى ينبغى أن يتوكل أولا لتجاب دعوته .

ولما شرح الله تعالى خوف المؤمنين من الكافرين وما ظهر فيهم من التوكل على الله تعالى أتبعه بأن أمر موسى وهارون عليهما السلام باتخاذ البيوت بقوله تعالى: « وأوحينا إلى موسى وأخيه » أى الذى طلب مؤازرته ومعاضدته « أن تبوآ » أى اتخذا « لقومكما بمصر بيوتا » تسكنون فيها أو ترجعون إليها للعبادة « واجعلوا » أنتما وقومكما « بيوتكم » أى تلك البيوت « قبلة » مصلى أو مساجد كما فى قوله تعالى : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » ، موجهة نحو القبلة أى الكعبة ، وكان موسى عليه السلام يصلى إليها « وأقيموا الصلاة » ذكر المفسرون فى كيفية هذه الواقعة وجوها ثلاثة :

الأول : أن موسى عليه السلام ومن معه كانوا فى أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا فى بيوتهم خفية من الكفار ، لئلا يظهروا عليهم ويؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم ، كما كان المؤمنون على هذه الحالة فى أول الإسلام بمكة .

الثانى أنه قيل : إنه تعالى لما أرسل موسى إليهم أمر فرعون بتخريب مساجد بنى إسرائيل ومنعهم من الصلاة ، فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا مساجد فى بيوتهم ويصلون فيها خوفا من فرعون .

الثالث أنه تعالى لما أرسل موسى إليهم فأظهر فرعون تلك العداوة الشديدة أمر الله تعالى موسى وهارون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الأعداء ، وقد خص الله تعالى موسى وهارون فى أول هذه الآية بالخطاب بقوله تعالى : « أن تبوآ لقومكما » ، لأن موسى وهارون هما رؤساء القوم ، والرئيس يخاطب

حين يخاطب المرءوس أيضاً ، ثم عم هذا الخطاب فقال: «واجعلوا بيوتكم قبلة» لأن جعل البيوت مساجد للصلاة مما ينبغي أن يفعل كل أحد ، ثم خص موسى عليه السلام فى آخر الكلام بالخطاب فقال تعالى : «وبشر المؤمنين» أى بالنصر فى الدنيا والجنة فى العقبى ، لأن الغرض الأصلى فى جميع العبادات حصول هذه البشارة ، فخص الله تعالى موسى بها ، ليدل بذلك على أن الأصل فى الرسالة هو موسى عليه السلام، وأن هارون عليه السلام تبع ، ثم إن موسى عليه السلام لما بالغ فى إظهار المعجزات الظاهرة ورأى القوم مصرين على الحجة والعناد والإنكار أخذ يدعو عليهم ، ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولا سبب إقدامه على الجرائم ، وكأن جرمهم هو لأجل حبهم الدنيا «وقال موسى ربنا إنك أتيت فرعون وملأه» أى أشراف قومه على ما هم عليه من الكفر والكبر «زينة» أى عظيمة يتزينون بها من الحلية واللباس، وغيرهما من الدواب والغلمان ، ومن الأثاث الفاخر ونحو ذلك «وأموالا» أى كثيرة من الذهب والفضة وغيرهما «فى الحياة الدنيا» هذا يدل على ثراء مصر فى عهد الفراعين ، وعلى مدى الخير والرخاء الذى كان يعم البلاد آنذاك «ربنا» أى يا ربنا آتيتهم ذلك «ليضلوا» أى فى عاقبة أنفسهم ويضلوا غيرهم «عن سبيلك» أى دينك واللام للعاقبة وهى متعلقة بآتيت كقوله تعالى : «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا» ، وقيل : لام كى أى آتيتهم كى تفتنهم ، وقيل : هو دعاء عليهم بما علم من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غير ذلك «ربنا اطمس على أموالهم» أى امسخها وغيرها عن هيئتها ، قال قتادة : صارت أموالهم وحرثهم وزراعتهم وجواهرهم حجارة ، وقال محمد ابن كعب : جعل سكرهم حجارة ، وقال ابن عباس : بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا وأرباعا ، قال السدى : مسخ الله أموالهم حجارة والنخيل والثمار والدقيق والأطعمة ، فكانت إحدى الآيات التسع «واشدد على قلوبهم» أى اطبع عليهم واستوثق حتى لا تنشرح للإيمان «فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم»

جواب للدعاء ، أو دعاء بلفظ النهى ، أو عطف على (ليضلوا) وما بينهما دعاء معترض « قال قد أجيبت دعوتكما » فيه وجهان .

الأول قال ابن عباس : أن موسى كان يدعو وهارن كان يؤمن فلذلك قال : دعوتكما ، وذلك أن من يقول عند دعاء الداعى « آمين » فهو أيضاً داع لأن قوله آمين تأويله : استجب يارب ، فهو سائل كما أن الداعى سائل أيضاً .

الثانى أن يكون كل منهما ذكر هذا ، غاية ما فى الباب أن يقال : إنه تعالى حكى هذا الدعاء عن موسى بقوله تعالى : وقال موسى ربنا ، وهـذا لاينافى أن يكون هارون قد ذكر الدعاء أيضاً ، وأما قوله تعالى : « فاستقيما » فمعناه اثبتا على الدعوة والرسالة ، والزيادة فى إلزام الحجة ، فقد لبث نوح فى قومه ألف عام إلا خمسين عاما فلا تستعجلا ، قال ابن جريج : إن فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة « ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » أى الجاهلين الذين يظنون أنه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا فى الحال ، فربما أجاب الله دعاء الإنسان فى مطلوبه إلا أنه ربما يوصله إليه فى وقته المقدور ، والاستعجال لايصدر إلا من الجهال ، وهـذا كما قال تعالى لنوح عليه السلام : إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ، وهذا النهى لايدل على أن ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما أن قوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك لايدل على صدور الشرك منه صلى الله عليه وسلم ، وقرىء بتخفيف النون وبتشديدها ، ولما أجاب الله دعاءهما أمر بنى إسرائيل وكانوا ستمائة ألف بالخروج من مصر فى الوقت المعلوم ، ويسر لهم أسباب ذلك وفرعون كان غافلا عن ذلك ، فلما سمع أنهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته خرج فى عقبهم كما قال تعالى « وجاوزنا » أى قطعنا « ببنى إسرائيل » أى عبدنا المخلص لنا « البحر » حتى بلغوا الشاطىء حافظين لهم « فأتبعهم فرعون وجنوده » أى لحقهم وأدركهم يقال : تبعه وأتبعه إذا أدركه ولحقه « بغيا وعدوا » أى ظلما وعدوانا ، وقيل : بغيا فى القول وعدوانا فى الفعل ، فلما أدركهم فرعون قالوا لموسى : أين

المخلص والمخرج ، البحر أمامنا وفرعون وراءنا، قد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم ، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه فانفلق لموسى وقومه ، فكان كل فرق كالطود العظيم ، وكشف وجه الأرض ، وانتشر لهم البحر،فلما وصل فرعون إلى البحر هابوا دخوله وكان معه فى عسكره ثمانية آلاف فارس،ولم يملك فرعون من أمره شيئا،فنزل البحر وأتبعه جنوده حتى إذا كملوا جميعا فى البحر وهم أولهم بالخروج التطم البحر عليهم ، فلما أتاه الغرق أتى بكلمة الإخلاص كما قال تعالى « حتى إذا أدركه » أى لحقه « الغرق قال آمنت أنه » أى بأنه « لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين » آمن فرعون ثلاث مرات أولها قوله : آمنت ، وثانيا قوله : لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وثالثها قوله : وأنا من المسلمين ؛ فما السبب فى عدم القبول ؟ أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة :

منها : أن الإيمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبول ، ويدل عليه قوله تعالى: « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » .. «الآن» تؤمن «وقد عصيت قبل » وضيعت التوبة فى وقتها وآثرت دنياك الفانيـة على الآخرة الباقية . « وكنت من المفسدين » بضلالك وإضلالك عن الإيمان والتوبة حتى أغلق بابها بحضور الموت ومعاينة الملائكة،وإنما قال له : وكنت من المفسدين فى مقابلة قوله : وأنا من المسلمين .

ومنها أن فرعون إنمـا قال هذه الكلمة ليتوصل بها إلى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة،ولم يكن قصده الإقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية ، فلم ينفعه ما قال فى ذلك الوقت .

ومنها أن فرعون كان من المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى، ولذلك قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ؛ فلم ينفعه ذلك لحصول الشك فى إيمانه ، ومثل هذا الاعتقاد الفاسد لا تزال ظلمته إلا بنور الحجة القطعية والدلائل اليقينية .

ومنها : ماروى فى بعض الكتب أن بعض أقوام بنى إسرائيل لما جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل ، فلما قال فرعون: آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ـ انصرف ذلك إلى العجل الذى آمنوا بعبادته فى ذلك الوقت ، فكانت هذه الكلمة فى حقه سببا لزيادة الكفر .

ومنها أن الإيمان إنما كان يتم بالإقرار بوحدانية الله تعالى وبالإقرار بنبوة موسى عليه السلام ، وفرعون لم يقر بالنبوة فلم يصح إيمانه ، ونظيره أن الواحد من الكفار لو قال ألف مرة : أشهد أن لا إله إلا الله ؛ فإنه لا يصح إيمانه إلا إذا قال معه « وأشهد أن محمدا رسول الله » فهكذا هنا « فاليوم ننجيك » أى نخرجك من البحر « ببدنك » أى جسمك الذى لا روح فيه كاملا سويا لم يتغير ، أو نخرجك من البحر عريانا من غير لباس ، أو أن المراد بالبدن الدرع، قال الليث: البدن هو الدرع الذى يكون قصير الكمين، وهذا منقول عن ابن عباس ، قال : كان عليه درع من ذهب يعرف ، فأخرجه الله من الماء مع ذلك الدرع ليعرف « لتكون لمن خلفك » أى بعدك « آية » أى عبرة فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك ، وعن ابن عباس : أن بعض بنى إسرائيل شكوا فى موته فأخرج لهم ليروه ويشاهده الخلق على الذل والمهانة بعد ما سمعوا منه قوله « أنا ربكم » فعلموا أن دعواه كانت باطلة « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » أى لا يعتبرون بها ، وهذا الكلام ليس إلا كلام الله تعالى . والقول الأول مشهور « ولقد بوأنا » أى أنزلنا « بنى إسرائيل مبوأ صدق » أى منزلا صالحا مرضيا وهو مصر والشام ، وإنما وصف المكان بالصدق ، لأن عادة العرب إذا مدحت شيئا أضافته إلى الصدق، تقول العرب: هذا الرجل صدق وقدم صدق، والسبب فيه أن الشىء إذا كان كاملا صالحا لا بد أن يصدق الظن فيه ، وقيل : أرض الشام والأردن لأنها بلاد الخير والبركة والخصب « ورزقناهم من الطيبات » أى الحلال المستلذ من الفواكه والحبوب والألبان والأعسال وغيرها ، فأورث الله تعالى بنى إسرائيل جميع ما كان تحت أيدى فرعون وقومه من الناطق والصامت والحرث والنسل ، كما قال تعالى :

وأورثنا القوم الذين يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها « فما اختلفوا » أى هؤلاء الذين فعلنا بهم هـذا الفعل من بنى إسرائيل « حتى جاءهم العلم » أى جاءهم ما كانوا به عالمين ؛ وذلك أنهم كانوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم مقرين به مجمعين على نبوته مختلفين فيه لما يجدونه مكتوبا عندهم، وكانوا يخبرون بمبعثه وصفته ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه ، فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وكفر بعضهم بغيا وحسدا وإيثارا لبقاء الرياسة فيهم ، وأنهم ما اختلفوا فى دينهم إلا بعد ما قرأوا التوراة وعلموا أحكامها « إن ربك » يا محمد « يقضى بينهم يوم القيامة » أى الذى هو أعظم الأيام « فيما كانوا » أى بأفعالهم الجبلية « فيه يختلفون » أى فيتميز الحق من الباطل والضلال من الهدى ،

* * *

وبهذا ينتهى الربع الخامس من سورة يونس ، وأربع آيات من الربع السادس أيضا ، كانت تكملة لقصة موسى عليه السلام ، وقد تضمن هذا الربع والآيات الأربع التى تلته ذكر قصه نوح ورسالته ، والإشارة إجمالا إلى رسالات الرسل بعد نوح ، وذكر قصة موسى مع قومه ومع فرعون ، وفى ذكر قصص الأنبياء ورسالاتهم ، عبرة وعظة للمشركين ، وقدوة وأسوة حسنة للمؤمنين ، وإرشاد وتعليم من الله عز وجل للناس ، مع ما فى ذلك من الإشارة إلى تطور الإنسانية الفكرى ، وإلى عدم استساغتها عقيدة التوحيد فى طفولتها ، وإلى ما كان يتكبده الأنبياء عليهم السلام من مشاق فى سبيل تبليغ رسالة الله ومن تضحيات جسام أيضا .

الربع السادس من سورة يونس

٩٤ — فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ .

٩٥ — وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِئَايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ .

٩٦ — إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ .

٩٧ — وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ .

٩٨ — فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ .

٩٩ — وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ .

١٠٠ — وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ .

١٠١ — قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ .

١٠٢ — فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ .

١٠٣ — ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

عشر آيات كريمة تناولت تقرير رسالة محمد وإثباتها بما تضمنته الرسالات السابقة من تبشير بها وتأييد لها ، كما تناولت تحذير أمة محمد من الكفر والعناد ، وبيان أن الإيمان هو الذى ينجى من غضب الله وعذابه ، والإشارة إلى ما حدث لقوم يونس لما آمنوا كشف الله عز وجل عنهم العذاب ، وذكر اختلاف الناس فى العقائد ، وأنهم لا يؤمنون جميعا ولا يكفرون جميعا ، ولو شاء الله لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ... إلى سوى ذلك مما تضمنته من بيان مصير المكذبين وعاقبة المرسلين ...

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب » أى التوراة « من قبلك » أى فإنه ثابت عندهم يخبرونك بصدقه ؛ وقد اختلف المفسرون فى المخاطب بهذه الآيات : فقيل : هو النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر ، والمراد أمته ، كقوله تعالى : « يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين » ، وقوله : « لئن أشركت ليحبطن عملك » ، ويدل على ذلك وجوه :

الأول : قوله فى آخر السورة : يا أيها الناس ، فبين أن المذكور فى أول الآية على سبيل الرمز هم المذكورون فى هذه الآية على سبيل التصريح .

الثانى : أنه صلى الله عليه وسلم لو كان شاكا فى نبوة نفسه لكان شك غيره فى نبوته أولى ، وهذا يوجب سقوط الشريعة .

الثالث : إذا تم أن يكون شاكا فى نبوة نفسه ، فكيف يزول ذلك الشك بإخبار أهل الكتاب عن نبوته ، مع أنهم فى الأكثر كفار .

فثبت أن الخطاب وإن كان فى الظاهر معه صلى الله عليه وسلم ، إلا أن المراد هو الأمة ، ومثل هذا معتاد ، فإن السلطان إذا كان له أمير وتحت رأيه ذلك الأمير الذى جعله أميرا عليهم ليكون ذلك أجمع ، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فإنه لا يوجه خطابه عليهم بل يوجه ذلك الخطاب على

ذلك الأمير الذى جعله أميرا عليهم ليكون لذلك تأثير فى قلوبهم ..

وقيل : الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم على حقيقته، ولكن الله تعالى علم أنه صلى الله عليه وسلم لا يشك فى ذلك ، إلا أن المقصود أنه متى سمع هذا الكلام فإنه يصرح ويقول: يا رب لا أشك ولا أطلب الحجة من قول أهل الكتاب، بل أكتفى بما أنزلت على من الدلائل الظاهرة ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: لا أشك ولا أسأل أحدا منهم ، ونظير هذا قوله للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ، والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن ، وكما قال لعيسى عليه السلام : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، والمقصود منه أن يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة عن ذلك فكذلك هنا .

وقيل : الخطاب لكل من يسمع، أى إن كنت أيها السامع فى شك مما أنزلنا على لسان نبينا إليك ، وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة فى الدين فينبغى أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم .

وأظهر هذه الأقوال أولها ، وهذه الأقوال تجرى فى قوله تعالى « لقد جاءك الحق من ربك» أى بالآيات القاطعة ، فلا مدخل للمرية فيه « فلا تكونن من الممترين » أى الشاكين فيه وفى قوله تعالى « ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين » أى الذين خسروا أنفسهم « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك » أى ثبت عليهم قوله تعالى الذى كتب فى اللوح المحفوظ وأخبرت به الملائكة أنهم « لا يؤمنون » أى يموتون كفارا فلا يكون غيره، إذ لا يكون كلامه ولا يكون قضاؤه ، « ولو جاءتهم كل آية » فإن السبب الأصلى لإيمانهم ـ وهو تعلق إرادة الله تعالى به مفقود ، فإن الدليل لا يهدى إلا بإعانة الله ، وإذا لم تحصل تلك الإعانة ضاعت تلك الدلائل « حتى يروا العذاب الأليم » فحينئذ لا ينفعهم الإيمان كما لا ينفع فرعون ، وقد سبق كما علمنا قصتان ، وبقيت ثالثة وهذه القصة الثالثة هى قصة يونس

عليه السلام ، وقد ذكرت على سبيل الإجمال فى قوله تعالى « فلولا » أى فهلا « كانت قرية » واحدة من قرى الأمم الماضية التى أهلكناها « آمنت » أى من أهلها عند إتيان الآيات أو عند رؤية أسباب العذاب « فنفعها » أى فتسبب عن إيمانها ذلك أنه نفعها « إيمانها » بأن تقبله الله تعالى منها وكشف العذاب عنها ، وقوله تعالى « إلا قوم يونس » استثناء منقطع بمعنى : ولكن قوم يونس « لما آمنوا » أى لما أخلصوا الإيمان أول ما رأوا آية العذاب ولم يؤخروه إلى حلوله « كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا » ، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا والجملة فى معنى النفى لتضمن حرف التحضيض معناه ، كأنه قيل: ما آمن أهل قرية من القرى الهالكة نفعهم إيمانهم إلا قوم يونس « ومتعناهم إلى حين » أى إلى انقضاء آجالهم ، روى عن ابن مسعود وغيره أن قوم يونس كانوا بأرض نينوى من أرض الموصل ، فأرسل الله تعالى إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإيمان فدعاهم فأبوا ، فقيل له : إن العذاب مصبحهم إلى ثلاثة أيام ، فأخبرهم بذلك فقالوا : إنا لم نجرب عليك كذبا فانظروا له فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشىء وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم ، فلما كان فى جوف تلك الليلة خرج يونس عليه السلام من بين أظهرهم ، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب ، قال وهب : غامت السماء غيما عظيما أسود هائلا يدخن دخانا شديدا ، فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت سطوحهم ، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك ، فطلبوا يونس بينهم فلم يجدوه ، وقذف الله تعالى فى قلوبهم التوبة ، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من النساء والدواب ، فحن بعضها إلى بعض وعلت أصواتها واختلطت بأصواتهم ، وعجوا وتضرعوا إلى الله تعالى وقالوا : آمنا بما جاء به يونس عليه السلام ، فرحمهم الله تعالى واستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب بعد ما كاد يتغشاهم .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : بلغ من توبتهم أن ردوا المظالم ، حتى إن الرجل كان يقلع الحجر ، وكان قد وضع أساس بنيانه فيرده .

وعن الفضيل بن عياض : كان دعاؤهم : اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل ، افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله ، فإن قيل : قد حكى الله تعالى عن فرعون أنه تاب فى آخر الأمر ولم يقبل توبته ، وقد حكى عن قوم يونس أنهم آمنوا وقبل توبتهم ، فما الفرق بين الحالين؟ أجيب بأن فرعون إنما تاب بعد أن شاهد العذاب وهو وقت اليأس من الحياة ، وأما قوم يونس فإنهم تابوا قبل ذلك ؛ فإنهم لما ظهرت أمارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل أن ينزل بهم ولم يباشرهم ، فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية ، وأن الله تعالى قد علم صدق نياتهم فى التوبة قبل توبتهم ، بخلاف فرعون ؛ فإنه لم يصدق فى إيمانه ولا أخلص فلم يقبل منه « ولو شاء ربك » يا محمد « لآمن » بك وصدقك « من فى الأرض كلهم » بحيث لم يشذ منهم أحد « جميعا » أى مجتمعين على ذلك فى آن واحد لا يختلفون فى شىء منه ، ولكن لم يشأ أن يصدقك ويؤمن بك إلا من سبقت له السعادة فى الأزلية فلا تتعب نفسك على إيمانهم ، وهو قوله « أفأنت تكره الناس » أى الذين لم يرد الله إيمانهم « حتى يكونوا مؤمنين » أى ليس إيمانهم فى يدك حتى تكرههم عليه وتحرص عليه ، إنما إيمان المؤمن وضلال الكافر بمشيئة الله تعالى وقضائه ، وليس لأحد ذلك سواه كما قال تعالى : « وما كان » أى وما ينبغى وما يتأتى « لنفس » أى واحدة فما فوقها « أن تؤمن » أى يقع منها إيمان فى وقت ما « إلا بإذن الله » أى بإرادته لها بالإيمان ، فإن هدايتها إلى الله ، هو المهدى والمضل ، وقال ابن عباس : بأمر الله ، وقال عطاء : بمشيئة الله « ويجعل » الله « الرجس » أى العذاب والخذلان فإنه سببه « على الذين لا يعقلون » أى لا يتدبرون فى آيات الله فينتفعون بها وهم يدعون أنهم أعقل الناس ، فيتساقطون فى مساوىء الأخلاق وهم يدعون أنهم أبعد الناس عنها ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

ولما بين الله تعالى فى الآيات السابقة أن الإيمان لا يحصل إلا بإذن الله تعالى ومشيئته أمر بالنظر والاستدلال فى الدلائل بقوله تعالى : « قل انظروا » أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات : « ماذا » أى الذى

« فى السموات والأرض » من الآيات وواضح الدلالات من عجائب صنعه لديكم على وحدته وكمال قدرته ، ففى العالم العلوى الشمس والقمر وهما دليلان على الليل والنهار ، والنجوم وحركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها ، والكواكب وما يختص بذلك من المصانع ، وفى العالم السفلى الجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان ، وأخصها حال الإنسان كل ذلك من الآيات الدالات على وحدانية الله تعالى وأنه خالقها كما قال الشاعر :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

وقوله تعالى : «وما تغنى الآيات» أى وإن كانت فى غاية الوضوح «والنذر» جمع نذير أى الرسل « عن قوم لا يؤمنون » فى علم الله وحكمه « فهل » أى ما « ينتظرون » أى أهل مكة بتكذيبك « إلا » أياما أى وقائع « مثل أيام » أى وقائع « الذين خلوا من قبلهم » أى مثل قوم نوح ومن طوى من الأمم أى مثل وقائعهم من العذاب « قل » أى قل يا محمد « فانتظروا » أى أى العذاب « إنى معكم من المنتظرين » أى لنزول العذاب بكم ، وقوله تعالى « ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا » عطف على محذوف دل عليه قوله تعالى «إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم » ، كأنه قيل : لنهلك الأمم ثم ننجى رسلنا ومن آمن بهم على حكاية الأحوال الماضية « كذلك » أى نجينا رسلنا والذين آمنوا معهم من الهلاك كذلك « حقا علينا ننجى المؤمنين » أى ننجيك يا محمد ومن آمن معك وصدقك من الهلاك والعذاب ، وقوله تعالى « حقا » يقتضى الوجوب مع أن الله تعالى لا يجب عليه شىء ، والجواب أن ذلك حق بسبب الوعد والحكم ، أى أنه حق بحسب الاستحقاق ، ولما ثبت أن العبد لا يستحق على خالقه شيئا ، وهو اعتراض بين المشبه والمشبه به ، ولما ذكر الله الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإظهار دينه فى الآيات التالية .

١٠٤ — قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ

الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

١٠٥ — وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

١٠٦ — وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّٰلِمِينَ .

١٠٧ — وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

١٠٨ — قُلْ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ .

١٠٩ — وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَٰكِمِينَ .

هذه الآيات الكريمة الست فيها تقرير أن القرآن الكريم وشريعة محمد عليه السلام تخاصم الشرك والمشركين ، وتتجه إلى عبادة الله رب العالمين ، وإلى الإيمان والإخلاص لخالق الخلق ومدبر الأمر وحده .. وفيها كذلك بيان لأهم أصل من أصول الإسلام ، وهو وجوب نبذ الشرك ، وعبادة الله وحده ، الله الذى بيده وحده النفع والضر ، الله الخالق البارىء المصور ، كاشف الضر ، ومقدر الأمر ، يصيب بفضله من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم ، وفى الآية الخامسة من هذه الآيات يكرر الله عز وجل إعلانه السماوى إلى الناس جميعا ، ويطلب إلى محمد إبلاغ هذا الإعلان إلى

الناس جميعا ، وهو أن شريعة الإسلام قد نزلت عليهم من السماء ، والحق قد جاءهم من ربهم ، والخير قد وصل إليهم ، وعهد الله برسالته إلى خير رسله ، محمد صلوات الله وسلامه عليه . . يا أيتها الإنسانية المعذبة الضالة الحيرى ، قد جاءك الحق من الله ، جاءتك البشرى من السماء ، جاءك الإنقاذ الإلهى العظيم ، جاءتك رسالة محمد وشريعته ، جاءك النور والحق والهدى والخير والأمن والأمان والسلام .

فالفيلسوف والخطيب والرسول والمشرع والقائد ومسعر الحرب وفاتح أقطار الفكر ، ورواد الإنسان إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ، ومؤسس دين لا وثنية فيه ولا صور ولا رقيات ، ومنشىء عشرين دولة فى الأرض ، وفاتح دولة واحدة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد ؛ ذلكم هو محمد ، فأى رجل لعمركم قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الإنسانية وكان أعظم منه ؟ وأى إنسان صعد هذه المراقى كلها فكان عظيما فى جميعها غير هذا الرجل ؟ . إنه محمد صلى الله عليه وسلم نبى الحرية ، ونبى السلام أيضا ، والمؤمنون بالحرية هم أكثر الناس إيمانا بالسلام ، وحرصاً عليه ؛ لأنه سبيل الطمأنينة والكرامة الإنسانية ، وليس يقدره إلا من قدر الحرية وأحبها ، وعرف أنها سبب العزة والحياة ؛ وباب التجديد والأمل والتقدم والمدنية . وما أروع مواقف سيدنا محمد صلوات الله عليه فى تقرير هذه المبادىء الكريمة والدفاع عنها . ومع أنه ولد فى أرض خضبتها الدماء ، فقد كان بطل السلام ، وداعيته الكريم ، حتى رأيناه يشترك صغيراً فى حلف الفضول : مع بنى هاشم وزهرة وتيم ، يتعاهدون بالله المنتقم « ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه » ، وكان يقول : « لقد شهدت مع عمومتى حلفاً فى دار ابن جدعان ، ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت » ، ورأيناه يقف حكما بين قبائل قريش ، حاسما للنزاع الذى نشب حول بناء الكعبة ، وأيها يكون له شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه ، فيسود السلام مكة برأيه وحكمته .

وكانت سياسته ـ صلوات الله عليه ـ اللين والشفقة والتواضع ، وتحيته « السلام عليكم ورحمة الله » ، عاش مؤمنا بالرحمة والمحبة والتعاون والإخاء ، آخى بين المسلمين فى المدينة ، وقرر أن المؤمنين إخوة فى الدين ، وأن البشر جميعاً إخوان فى الإنسانية ، وألغى الحواجز والفواصل بين الأمم ، ونزل القرآن الكريم يؤكد أن هدفه تعارف الشعوب : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل ، لتعارفوا » . وكان السلام النفسى شعاره فى أشد المواقف وأحرج الأزمات ، أرأيته حين طارده المشركون فى الطائف ، وقد أقبل يدعوهم لدينه ، كيف يجلس إلى ظهر بستان ، ويتوجه إلى ربه قائلا : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وهوانى على الناس ؛ يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى » . لم يمش محمد إلى الحرب إلا دفعا للعدوان ، ودفاعا عن المظلومين ، وتأكيداً للسلام والحرية ، حتى وقف وهو حدث السن . يذود عن حرية قومه فى حرب الفجار . وحرم شن الحرب للسيطرة وبسط النفوذ والسلطان . أو الفساد والاستغلال والطغيان ، ولم يجعلها وسيلة لنشر الدين ، بل اتخذ سبيله الإقناع والبرهان وقال له ربه : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » . وشريعة محمد صلوات الله عليه ، وهى الإسلام اشتق اسمها من السلام ، وغايتها اليسر والسهولة والتخفيف على النفس ، ويلخصها لقومه فى كلمة واحدة حين مشى أشراف قريش إلى عمه أبى طالب ؛ يشكون ويضجون ، فقال له : ياعم كلمة واحدة يعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ، تقولون : « لا إله إلا الله » ، وتخلعون ما تعبدون من دونه ، فسخروا منه وقالوا : أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحداً ؟ إن هذا لشىء عجاب .

هذا هو محمد المبشر بالسلم ، والمشرع لمبادئه : فى الأسرة والمجتمع والأمة والإنسانية وبين الإنسان ونفسه ، أما محمد المدافع عن الحريات فإن أمره لعجب : أحب الحرية ، منذ طفولته ، ورثها عن قومه وبيئته ، ورباه الله

عليها ، ونماها فى نفسه طبيعة الحياة فى وطنه ، فولد ونشأ كريما أبياً وفتى حرا عربيا ، يتجلى تقديسه لها فى إبائه للضيم ، وغضبه للحق ، وإسراعه لنصفة الضعيف ، وفرضه الدفاع عن الوطن ومقاومة المعتدين والغاصبين ، وزياده عن شخصية الإنسان وحقوق المستضعفين ، والذين كان الناس فى عصره ينكرون أن يكون لهم حق فى الحياة ، كان إذا جلس فى المسجد لجلس إليه خباب وعمار وبلال ويسار وأشباههم ، هزأت بهم قريش ، وقالوا : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟ لو كان ما جاء به خيرا ما سبقونا إليه ، ولو طردهم عنه لجلسنا إليه ، فأنزل الله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، يريدون وجهه » .. قرر محمد وحمى الحرية الشخصية . وحرية الملك والمسكن والعمل والقول والاجتماع والفكر والعقيدة، ووصاياه فى رعاية حريات الناس والجماعات والأمم ، وتهذيبه للضمير الإنسانى ليراقب سلوك صاحبه حتى لا يظلم أحدا أو يعتدى على أحد ، مضرب الأمثال . وجاءت معاهدته الأولى مع المخالفين له من يهود يثرب خير تقرير لحرية العقيدة والرأى . وحرمة المسكن والمال كما يقرر الباحثون . حمى محمد حرية المرأة والرجل والعامل والخادم والرقيق . وحرر هو وخلفاؤه الأمم من العبودية والاستكانة . وطالب الطغاة بأن يطلقوا لرعاياهم المروعين حريتهم، كما طالب المستضعفين بأن ينفروا من الذلة والهوان فقال : « من أعطى الذلة من نفسه طائعا غير مكره فليس منى » . وحرم الاستبداد والاستعمار واستغلال الشعوب ، وألغى العصبيات والامتيازات والفروق الطائفية والعنصرية ، فالناس سواء كأسنان المشط . لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى . ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر ، إلا بالتقوى والعمل الصالح . وليس هناك شعب له حقوق فى السيادة على غيره من الناس . هذا هو محمد الداعى إلى السلم والحرية . والذى لم يلبس مسوح السلام ليخدع الناس ويغرر بالشعوب . والذى حطم الشرك والوثنية ، وهدم عروش الطغيان والجبروت . وألغى الرق البشرى ، وأبقى أسرى الحرب المشروعة

فى نطاق واسع من الشرف والكرامة . والذى دعا إلى عالم واحد ، وحكومة واحدة تخضع لأسمى المبادىء ، وتؤمن بأكرم الأهداف وتطبقها ، والذى نفخ فى أرواح المستعبدين : أن هبوا ، فهذا عصر جديد من الحرية والكرامة ، ليس هناك سيد ومسود . إنما السيادة لله ولرسوله ، ولمبادىء الحق والعدالة والمساواة .

وبعد ذلك كله يعلن الله عز وجل لرسوله فى آخر هذه الآيات الكريمة أن الذين يؤمنون برسالة محمد إنما يؤمنون بها لأنفسهم ، والذين يصدفون عنها إنما يصدفون عنها لأنهم لا يفهمون ما يجب عليهم نحو أنفسهم ، ولا يفهمون أن أثر ضلالهم راجع إليهم وحدهم ... إن الرسول ليس وكيلا عليهم ، وليس ملزما لهم ، وليست رسالته لإلزامهم بالإيمان ، بل هم موكولون إلى أنفسهم . والرسول ليس مطالبا إلا بإبلاغ الرسالة ، وبالعمل بها ، وبالصبر على أذى المشركين ، حتى يحكم الله بينه وبينهم وهو خير الحاكمين .

* * *

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « قل » يا محمد « يا أيها الناس » أى الذين أرسلت إليهم فشكوا فى أمرك ولم يؤمنوا بك « إن كنتم فى شك من دينى » أى الذى أدعوكم إليه وإلى أنه حق وأصررتم على ذلك وعبدتم الأصنام التى لا تضر ولا تنفع « فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله » أى غيره وهى الأصنام التى لا قدرة لها على شىء « ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم » بقبض أرواحكم التى لا شىء عندكم بعدها ، فإنه الذى يستحق العبادة ، وإنما خص الله تعالى بهذه الصفة للتهديد ، وقيل : إنهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله : ولكن أعبد الله الذى هو قادر على إهلاككم « وأمرت أن » أى بأن « أكون من المؤمنين » أى المصدقين بما جاء من عند الله ، وقيل : إنه لما ذكر العبادة وهى أعمال الجوارح أتبعه بذكر الإيمان لأنه من أعمال القلوب ، وقال تعالى هنا (فى شك) وهم كفار يعتقدون بطلان ما جاء به ، لأنه كان فيهم

الشاكون، أو أنهم لما رأوا الآيات اضطربوا وشكوا فى أمره صلى الله عليه وسلم ، أو أن الشك هنا معناه الكفر الصريح ، وقوله تعالى : « وأن أقم وجهك للدين » عطف على « أن أكون » وأن صلة والمقصود وصلها بما تضمن معنى المصدر ليدل معه عليه ، وصيغ الأفعال كلها كذلك سواء الخبر منها أو الطلب ، والمعنى: وأمرت بالاستقامة فى الدين والاستقامة والاشتداد فيه بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح ، أو فى الصلاة باستقبال القبلة « حنيفا » حال من فاعل أقم أو من الدين أو من الوجه ، ومعناه : مائلا مع الدليل غير معوج عنه إلى دين آخر « ولا تكونن من المشركين » أى ممن يشرك بالله فى عبادته غيره فتهلك .. خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد غيره ، أى ولا تكونن أيها الإنسان.. « ولا تدع » أى لا تعبد « من دون الله » أى غيره « ما لا ينفعك » أى إن « عبدته ولا يضرك » إن لم تعبده « فإن فعلت » ذلك « فإنك إذا من الظالمين » لنفسك ، لأنك وضعت العبادة فى غير موضعها ، والظلم وضع الشىء فى غير موضعه ، فيكون ظلما ، ولما ذكر الله تعالى الأوثان ، وبين أنها لا تقدر على ضر ولا نفع ، بين تعالى أنه القادر على كل شىء وأنه ذو الجود والكرم والرحمة بقوله تعالى « وإن يمسسك » أى يصبك « الله بضر » أى كفقر ومرض « فلا كاشف له » أى دافع له « إلا هو » لأنه الذى أنزله بك « وإن يردك بخير » كرخاء وصحة « فلا راد » أى دافع « لفضله » أى الذى أراد به « يصيب به » أى الخير « من يشاء من عباده » وهو الغفور » أى البليغ الستر للذنوب « الرحيم » أى البالغ فى الإكرام ، رجح سبحانه وتعالى جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه :

الأول : أنه تعالى لما ذكر الضر بين أنه لا كاشف له إلا هو ، وذلك يدل على أنه تعالى يزيل المضار ، لأن الاستثناء من النفى إثبات ، ولما ذكر الخير لم يقل بأنه يدفعه بل قال : فلا راد لفضله ـ وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات وأن الشر مطلوب بالغرض ، كما قال صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى أنه قال : « سبقت رحمتى غضبى » .

الثانى : أنه سبحانه وتعالى قال فى صفة الخير: « يصيب به من يشاء من عباده » وذلك يدل على أن جانب الخير أقوى وأغلب .

الثالث : أنه قال تعالى : « وهو الغفور الرحيم » ، وهذا يدل على قوة جانب الخير والرحمة .

وحاصل الكلام فى هـذه الآية أنه سبحانه وتعالى بين أنه منفرد بالخلق والإيجاد والتكوين والإبداع، وأنه لاموجود سواه ولامعبود إلاإياه، وأن جميع الممكنات مسندة إليه وجميع الكائنات محتاجة إليه ، فالأيدى مرفوعة إليه، والحاجات منتهية إليه ، والعقول والهة فيه ، والرحمـة والوجود فائض منه ، ولمـا قدر تعالى الدلائل المذكورة فى التوحيد والنبوة والمعاد ، وزين أمر هذه السورة بهذه البيانات الدالات على كونه تعالى مصدر الخلق والإبداع والتكوين والاختراع ، ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية لئلا يبقى لأحد عذر ، فقال تعالى : « قل » يا محمد « يأيها الناس » أى الذين أرسلت إليهم « قد جاءكم الحق من ربكم » وهو رسوله صلى الله عليه وسلم جاء بالحق من الله تعالى والقرآن ، فلم يبق لـكم عذر « فمن اهتدى » أى آمن بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم وعمل بما فى الكتاب « فإنما يهتدى لنفسه » لأنه تبع الحق الثابت وترك الباطل الزائل فأنقذ نفسه من النار فأوجب لها الجنة، فثواب اهتدائه له « ومن ضل » أى كفر بها أو بشىء منها « فإنما يضل عليها » أى على نفسه لأن وبال ضلاله عليها ، لأن من ترك الباقى وتمسك بما ليس فى يده منه شىء ، فقد غر نفسه « وما أنا عليكم بوكيل » أى حفيظ موكول إلىّ وإنما أنا بشير ونذير ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : وهذه الآية منسوخة بآية السيف، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « واتبع » يا محمـد « مايوحى اليك » بالامتثال والتبليغ « واصبر » أى على دعوتهم وتحمل أذاهم « حتى يحكم الله » أى ينصرك عليهم وإظهار دينك والأمر بالقتال « وهو خير الحاكمين » إذ لا يمكن الخطأ فى حكمه تعالى لاطلاعه على السرائر كالطلاعه على الظواهر ، فحكم بقتال المشركين والجزية على أهل الكتاب يعطونها عن يد وهم صاغرون . وما أصدق ما قال الشاعر العربى القديم :

سأصبر حتى يعلم الصبر أننى صبرت على شىء أمر من الجر

نظرة عامة فى سورة يونس

(١)

ا — سورة يونس كما رأينا من السور المكية ، وهى كلها دفاع عن عقيدة التوحيد ، وجدال للشرك والمشركين ، وتقرير لصدق محمد صلى الله عليه وسلم فى رسالته ، وفيما بلغ به عن ربه ، ولصدق القرآن المنزل عليه ، وفيها تذكير بقدرة الله القادر على كل شىء ، والذى لا يعجزه شىء فى الأرض والسماء ، وفيها تأكيد لأمر البعث والحساب والنشور ، وقد قص الله عز وجل فى آخر السورة قصصا ثلاثا من قصص الأنبياء عليهم السلام : قصة نوح ، قصة موسى ، قصة قوم يونس ، وأشار إشارة موجزة إلى الرسل والأنبياء التى كانت بين نوح وموسى .

وفى آخر السورة جاء هذا الإعلان الإلهى الكريم إلى الإنسانية كلها ، وإلى الناس كافة بوجوب الإيمان بمحمد ورسالته ، وبالكتاب المنزل عليه من السماء .

ب — إن السورة كلها تقرر إمكان بعثة الرسل ، وإمكان الوحى ، وإمكان إنزال كتاب من السماء ، فالقادر على خلق السماء والأرض قادر على ذلك كله ، والقرآن الكريم فى هذه السورة يؤكد أمر البعث والمعاد والحساب ، وينفى الشك عنها ، وقد كان المشركون لا يفكرون إلا فى الماديات المحسوسة ، ولا يؤمنون إلا بالمادى من الأشياء ، ومن ثم كانت سخريتهم بأمور الغيب التى قررها القرآن الكريم وطالب بالإيمان بها ، فقال تعالى فى مطلع سورة البقرة: «الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة . ومما رزقناهم ينفقون» ، والإيمان بالغيب يشمل الإيمان بالله وبالعالم الروحى وبالرسل والرسالة ، وبالبعث والحساب

و بوجود الملائكة والشياطين . والماديون فى القديم والحديث أعداء للعالم الغيبى الغير المحسوس ، وقد سخر منهم جوته الشاعر الألمانى فقال :

بهذه العلامات قد عرفتك أيها العالم النحرير !
إن مالا تلمسه بأصابعك ، فهو بعيد عنك بعد المشرقين ،
وما لا تستطيع أن تقبض عليه بيدك ، فهو ليس بموجود فى رأيك ،
وما لا يمكنك أن تعده عدا ، فهو غير صحيح فى حكمك ،
وما لا تقدرأن تزنه بالمعايير ، فإنه فى تقديرك ـ والأسفا ـ لاوزن له ،
والنقد الذى لايحمل طابعك ، فهو فى عرفك زائف .

وقد نشر وليم باريت عضو المجمع العلمى البريطانى ، هذه الابيات للشاعر جوته فى كتابه المسمى « على عتبة العالم المحجوب » ثم قال : قال « ميرس » الفيلسوف المفكر الألمانى فى كلمة بليغة : « يعلن المذهب المادى بصوت التحكم الذى لا يلائم التواضع العلمى ، بأن كل البحوث فى النفسية الإنسانية ، وكل مايضن بالإنسان عن أن يكون قطعة من مادة متحجرة ، يجب إبعاده عن مجال العلم إلى الأبد ، على الرغم من أهواء الباحث وأمانيه ولكن المذهب العلمى الحديث ينكر إمكان وجود حياة بدون مادة أولية بروتوبلاسما ، أى بدون تآلف خاص للجواهر الفردة التى هى أساس كل حياة أرضية . ومع هذا فإن كثيرا من علمائنا الطبيعيين يأبون قبول هذا الرأى . فإن الأستاذ العظيم «بالفور ستوارت» ، كتب قبل وفاته يقول : «قد اتضح بما لا مزيد عليه أن اعتراف العلم بعالم محجوب عن حواسنا ، هو الذى ينقص الثقافة العقلية لجنسنا البشرى، ولا يخالجنى شك فى أننا سنصل إلى هذا الاعتراف منه فى يوم من الأيام » .

وقد تحقق ظنه ، فإن البسيكولوجيا الراهنة قد أصبحت تهش إلى المباحث الروحية . والطبيعيون اليوم لا يؤمنون بوجود الجوهر الفرد الذى كان يقول به الفيلسوف المادى اليونانى القديم لوكريس ، وقد قهروا أصل المادة حتى أحلوها فى مملكة الأثير المجهول . وأما النظرية الآلية التى يعللون بها وجود الكون ، فقد تزعزعت وفقدت تماسكها . وهذه التأكيدات

التى يتعلل بها المذهب المادى قد هاجمتها الفلسفة منذ زمان بعيد . إن فهم المادة والعالم الخارجى على النحو الذى يتأثر به شعورنا ، هو المعضلة التى يجب علينا حلها ؛ وبما أننا لم نعرف المادة إلا بلغة هذا الشعور ، فهى لن تعطينا تفسيرا مفهوما عن العقل ولا عن الإرادة . والنظرية الآلية عن الوجود تعتبر الشعور ثمرة من ثمرات المادة ، وتعتبر الإرادة وهما من أوهام العقل .

إذا كان العلم يجيبنا بأن المقدمات التى يعتمد عليها ناتجة من التجربة المباشرة فى صورة ملاحظة لأمر واقع أو تجربة ، فماذا نقول فى هذه التجارب ، وهى قد تكون باطلة ؟ ذلك لأن تسعة أعشار مدركاتنا حاصلة بحاسة النظر ، وكل تجربة معتمدة على هذه الحاسة هى فى عرف العلم نفسه خاطئة ، لأن الصورة والبريق واللون التى تظهر بها الأشياء أمام أعيننا ، هى كما تقرر فى نظريات الإبصار ، ليست بخواص لتلك الأشياء ، ولكن تأثرات أحدثتها فينا الأمواج الأثيرية . لذلك يمكن أن نقول متابعين للأستاذ بلفور ستوارت ؛ بأن مدركاتنا من الناحية البسيكولوجية ، باعتبار أنها أصول لمعارفنا ، ليست بزائفة أحيانا فحسب ، ولكنها باطلة على الدوام . . لنمثل لهذا الأمر بمثال فنقول : كل ما يثير العصب البصرى سواء أكان بسبب الضوء أو الضعف أو الكهرباء أو أى كشاف كيمائى ، ينتج عنه برق لامع ـ لا وجود له فى الواقع ـ نراه ونسميه بهذا الإسم . ويمكننا أن نطبق هذا الانخداع على جميع أعضائنا الخاصة بالحواس . فالى أى حد يكون إدراكنا للوجود مخالفا لما هو عليه فى نظرنا ، إذا كنا محرومين من بعض حواسنا الراهنة ، كالبصر أو اللمس ؟ وإلى أى حد يكون الخلاف لو كانت لدينا حواس أخرى ، أى نوافذ أكثر على العالم الخارجى ؟ وإذا كنا لم نعط إلا حاسة واحدة ولتكن النظر ، لكنا قررنا أن كل ظاهرة طبيعية ، وكل شىء مادى ، لا يتميز إلا باختلافات الأضواء والألوان ، ولو تغير الموقف لكانت آراؤنا على العالم قد ضاقت أو اتسعت على قدر الوسائل التى نعالجه بها . إن جهلنا لهذه الحقيقة أو تناسينا إياها ، وعدم اهتمامنا بتقدير الفرق الهائل بين إدراكنا للأشياء وبين ما هى عليه فى الواقع ،

هى العوامل التى أنتجت ما نحن عليه من التردد ، وما عليه العلم والدين من التنازع . هذا ما يجب أن يعرفه الذين لم يخطر لهم هذا الأمر على بال قبل اليوم ، إن من أوليات ما تجب معرفته فى فلسفة التعقل ، هو أن كل ما نعرفه عن الأشياء الكونية ، والظواهر الخارجية ، يتألف من بضعة تأثرات باطنية ؛ أما ماهية هذه الأشياء فإننا لا نعرف عنها شيئاً مطلقا ؛ وكل ما نعرفه ينحصر فى نوع من الحالات التأثرية ، وفى بضع علامات رمزية تثيرها فى عقولنا حوادث تحدث فى العالم الخارجى ، فنحن والحالة هذه لاندرك العالم المادى على حقيقته ، ولا على ما هو قريب من حقيقته ، وليس لدينا أقل علم بما نسميه « المادة فى ذاتها » .

إننا نرى حركات إبرة التلغراف ، ونستطيع أن نقرأ الرسالة التى تحملها إلينا ؛ ولكن الإبرة المتحركة لا ترينا العامل الذى يحركها ، وليس بينها وبينه أى شبه ولو من بعيد ، والإشارات التى ترسمها تعطينا رسالة يمكن فهمها ، ولكنها لم تفهم إلا لأن بين عقل العامل وعقلنا قرابة قريبة ؛ كذلك العلامات العقلية التى يعطيها مخنا وجهازنا العصبى للعامل المادى الخارجى ، ليست هى كنه ما نراه من موجوداته ولا هى شبيهة به ، فالكون الحقيقى محتجب عنا كل الاحتجاب ، فإذا كنا نستطيع أن نترجم العلامات التى يبديها ظاهرة لنا ، فما ذلك إلا لأن وراء الوجود عقلا ذا قرابة قريبة بعقلنا . أما المادى فإن الكون فى نظره قائم بنفسه ، ولا معنى له غير ما يعطيه ظاهره لحواسنا ، وهذا الظاهر عنده هو حقيقته النهائية ؛ ولكنه إذا بنى نظرية آلية لتعليل وجود الكائنات فى الطبيعة ، مع منحه للذرات المادية ضربا من القدرة العلوية ومن الإدراك ، فهو بذلك يهبها خواص يجب عليه قبل تقريرها إثبات حصولها عليها . فنحن والحالة هذه مضطرون لأن نعتقد بوجود عقل لا حد له ، وباعتبار الوجود مظهراً للفكر الإلهى ، ومؤيداً على الدوام بالإرادة الإلهية ، هذا — دون شك — هو التعليل الأكثر بساطة ، والأعظم دلالة لفهم الوجود ...

(٢)

وسورة يونس مكية مما يدل عليه أسلوبها وروحها وجوها الفنى ، ومما يدل عليه أفكارها ومعانيها وموضوعاتها :

١ - وقد بدأت السورة بتمجيد القرآن الكريم ، والعجب من عجب الكافرين برسالة محمد ، وبالكتاب المبين الذى نزل عليه ، ورميهم لمحمد بالسحر ، ويرد الله عليهم فى ذلك رداً بليغا ، فيذكر بعض مظاهر قدرته من خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ومن الاستواء على العرش ، ومن تدبيره الأمر كله ، ومن شفاعة الشافعين عنده بإذنه ، ومن كون المرجع إليه وحده ، فهو يعيد الخلق كما بدأه ، يعيده ببعث الناس من قبورهم وإحيائهم بعد موتهم للجزاء والحساب ، فللمؤمنين الجنة ، وللكافرين عذاب الجحيم . . ثم يعود القرآن هنا فى هذا الموضع إلى ذكر بعض مظاهر قدرة الله عز وجل تدليلا على قدرته - تعالى - على البعث وعلى إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية للهداية ، فيذكر الله عز وجل خلقه للشمس ضياء ، وللقمر نورا ، وتقديره له منازل لمعرفة عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون ، وهنا إشارة إلى أن الذين يستفيدون من هذه الآيات هم العالمون ، وفى هذا ما فيه من التنويه بشأن العلم ، وقد ذكر العلم فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، ونوه الله عز وجل به فى مناسبات عدة . إنه لا يوجد دين من الأديان ، ولا نظام اجتماعى من النظم المعروفة قديماً وحديثاً يبلغ شأو الإسلام فى رفع شأن العلم ، والتنويه بقيمته ؛ وفى الدعوة إليه ، والتعويل عليه ، فقال تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط » ، اعتد الله فى هذا الأمر الجلل بشهادة أهل العلم ، فرفع من قدر العلم إلى حيث لا مرتقى بعده ، وقال تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وفى هذا من تشريف العلم ما فيه ، إذ حكم بأن أهله يمتازون عن سواهم ، لأنهم حملة النور الإلهى ، والقائمون برفع

كسف الجهل عن العقول . وقال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ، قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : للعلماء درجات فوق المؤمنين عدتها سبعمائة ، وقد زاد الله تعالى فى هذه الوصايا الكريمة قوة . فجعل كمال التقوى متوقفا على العلم، فقال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، وربط به فهم الأمثال التى يضربها للناس ليهديهم إلى طريق السعادة ، أو ليستنهض هممهم للخير ، فقال تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » ، وقال تعالى : « نفصل الآيات لقوم يعلمون » ، وماذا تريد من دين يحب أن يقيم أمر جماعته على العلم أكثر من أن يفرضه عليهم فرضا ؟ ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » أو لم يقل « اطلب العلم ولو بالصين » ؟ فأى علم يقصد الدين من كل هذه الوصايا التى يدلى بها والتحضيضات التى يبذلها ؟ لا شك أنه يريد به كل ما يحتمله لفظه من المعارف التى أتيح للبشر الإلمام بها . فاتل قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور » . ألا ترى أن فى تذييله الآية بحصر خشية الله فى العلماء دلالة على أن المراد بالعلماء هنا العارفون بأسرار هذه الشئون الطبيعية ، والواقفون على حقائق الأسرار الكونية فوق علمهم بالأمور الإلهية ؟ واتل قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام . ألا ترى أن فى تذييل هذه الأمور الكونية بقوله تعالى « إن فى ذلك لآيات للعالمين » إشعارا بأن المقصود بالعالمين الذين يلمون بما هدى اليه الباحثون من هذه المعارف الطبيعية والإنسانية ؟ فالعلم الذى يدعو إليه الكتاب ، وتحث عليه السنة النبوية ، هو كل ما يدفع به الجهل والخبط ، سواء أكان فى العقائد الدينية ، أم فى الشئون المادية . فقد علم الله سبحانه وتعالى

أن الإنسانية كما تحتاج لعلم صحيح فيما يتعلق بعقائدها ، تحتاج كذلك إلى علم بما تستصلح به معيشتها ، وتبنى به اجتماعها ، وتستكمل به وسائلها ، وتحكم به جميع محاولاتها . وقد فهم آباؤنا الأولون هذا الفهم نفسه ، فهبوا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم لطلب العلم بأوسع ما يحتمله هذا اللفظ من معان ، فتخصص بعضهم لعلوم الدين ، وفرق أخرى استهدفت العلوم الكونية على اختلاف موضوعاتها : من فلك ورياضة ، وطب وصيدلة ، وكيمياء وطبيعة وغيرها ، فاستوعبوا كل ما وجدوه شائعا من كتبها ، فلما لم يرو لهم غلة شرعوا يترجمون ما ادخره اليونان والرومان والفرس فى مكتباتهم ، فاستخرجوا منها ما كان فى حكم المعدوم ، فألفوا من ذلك كله مجموعة من العلم لم تتفق لأمة قبلهم ، فقد حشروا اليها كل ما ثبت نفعه من المعارف ، غير متأثرين بعصبية ، ولا بنزعة جاهلية ، كما وصاهم رسولهم صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال : « خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت » ، فكانوا لا يبالون فى العلم أن يأخذوه من أى مصدر كان ما دام ينتفع به ، ولا يأنفون أن ينتفعوا بالعلماء وإن كانوا من غير ملتهم ، فأسندوا رئاسة كثير من جامعاتهم العلمية لرجال من ذوى الملل الأخرى ، لما ثبت لهم أن ليس فى المسلمين إلى ذلك العهد من يسدون مكانهم . وقد ثبت أن أسلافنا لم يتأثموا من تعلم شىء مما ترجموه ، بل تناولوه جملة وأوسعوه تحقيقا وبحثا ، فنفوا ما ثبت بطلانه ، واحتفظوا بما عرفوا صحته ، فزادوا مادته ، واكتشفوا علوما لم تكن معروفة قبلهم كعلمى الكيمياء والجبر . ولم يتحرجوا من البحث فى أى مذهب من مذاهب العلم بحجة أن ذلك يضر بالدين ، أو أن الدين يحرمه ، حتى بحثوا فى السحر والطلاسم والأوفاق والزايرجا والتنجيم والسيمياء ، وكل ذلك تحت شعار هذه الحكمة العالية : « تعلم السحر ولا تعمل به » . وهل سمعت فيما قرأت من تاريخ الحروب أن أمة منتصرة تفرض فيما تفرضه على الأمة المغلوبة أن تعطيها مكتبة علمية ؟ هذا ما فعله المسلمون على عهد المأمون بن الرشيد ، فقد شرطوا فى صلحهم مع الرومان تسليمهم مكتبة عينوها لهم ، فقبل امبراطورهم

هذا الشرط وسلمهم المكتبة ، فأكبوا على ترجمة أحسن ما فيها ، وأضافوه إلى ما سبق لهم ترجمته ، حتى أصبحت لهم زعامة العلم فى الأرض وصارت مدارسهم وجامعاتهم معاهد للثقافة العالية يقصدها الناس من كل بقعة فى العالم.

يقول « درابر » الأستاذ بجامعة نيويورك فى كتابه « المنازعة بين العلم والدين » : « إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة ٦٣٨ م - أى بعد وفاة محمد بست سنين ، ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية وقدروها الصحيح » . . إلى أن قال :

«وقد ذاق العرب فى الفنون الأدبية كل ما من شأنه أن يحدد القريحة ويصقل الذهن ، وقد افتخروا فيما بعد بأنهم أنجبوا من الشعراء بقدر ما أنجبت الأمم مجتمعة . أما فى العلوم فقد كان تفوقهم فيها ناشئا من الأسلوب الذى توخوه فى المباحث ، وهو أسلوب أخذوه عن فلاسفة اليونان الأوربيين ، فإنهم قد تحققوا أن الأسلوب العقلى النظرى لا يؤدى إلى التقدم ، وأن الأمل فى وجدان الحقيقة أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها . من هنا كان شعارهم فى أبحاثهم الأسلوب التجريبى ، والدستور العملى الحسى . وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة فى الميكانيكا والإيدروستاتيك - علم توازن السوائل وضغطها على جدران أوعيتها - ونظريات الضوء والإبصار ، أنهم قد اهتدوا إلى حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات . هذا هو الذى قاد العرب إلى أن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء ، والمستكشفين لعدة آلات للتقطير والتصعيد والإسالة والتصفية الخ . وهذا بعينه أيضا هو الذى جعلهم يستعملون فى بحوثهم الفلكية الآلات المدرجة ، والسطوح المعلمة ، والإسطرلابات - هى آلات لقياس أبعاد الكواكب - وهو أيضا الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى العلوم الكيماوية ، وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته . وهو الذى هداهم لعمل الجداول عن الأوزان النوعية للأجسام والأزياج الفلكية - الأزياج جداول تعرف منها

حركات الكواكب ـ مثل التى كانت فى بغداد وقرطبة وسمرقند . وهو أيضا الذى أوجد لهم هذا الترقى الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات . وهو أيضا الذى هم بهم لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية ».

إن الإسلام يدعو إلى العلم والتعلم بكل وسيلة يستطيعها الإنسان ، ويحض العقل على التأمل والتفكير ، ويفرض على العالم إرشاد الجاهل ، وهو بحق دين العلم والمدنية والعرفان ، . وقد صحبت الثقافة الإسلام فى كل مكان . وكانت العواصم الإسلامية الكبرى تموج بالعلم والعلماء ، ومنها انبعث نور المعرفة إلى أقاصى الدنيا . وكان الخلفاء والأمراء والملوك يشجعون العلماء والأدباء ورجال التربية والثقافة والفن تشجيعا مستمرا . كل هذه حقائق لا يستطيع أن يمارى فيها إنسان، أما التربية الإسلامية الصحيحة ، فهى مفروضة، فعلى الآباء تربية أبنائهم وإرشادهم فى المنزل والمسجد وفى المدرسة ، وفى مجالس العلم والعلماء ، وعلى الحكومة أن تتيح الفرصة لكل إنسان أن يتعلم وأن يصل إلى أقصى درجة من المعرفة . وأساس التربية تنبيه الضمير ، وتقويم الوجدان ، وتهذيب السلوك ، وتنمية الإدراك ، وعلى المعلم أن يكون قدوة للمتعلمين فى آدابه وأخلاقه وسلوكه . ولا فرق بين المرأة والرجل والفتاة والفتى فى مجال التربية والثقافة : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وكان النساء يحضرن مجالس رسول الله ويسمعن إرشاده وتوجيهه ، وكانت عائشة أم المؤمنين تفتى الناس ، وفيها قال رسول الله : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » . كما أنه لم يكن هناك فرق بين العناصر ، والألوان والأجناس فى هذا المجال : مجال التربية والتعليم والثقافة ، وكان كثير من أعلام العلماء فى الأمة الإسلامية من أصول وعناصر غير عربية . . فأين هذا مما يحدث الآن فى أمريكا من حرمان الزنوج السود من مساواتهم بغيرهم حتى فى ميدان الثقافة ؟ ولعلك قرأت قصة الطالب الزنجى « پرس لى جوليان » الذى كان متفوقا طول حياته فى دراساته حتى نال درجة أستاذ فى الكيمياء ، فرفضت جامعة هارفرد أن تعينه فيها معيدا ، بحجة أن الجامعة تخشى أن يأبى

البيض أن يكون معلما لهم . إن الإسلام الذى حرر العقل البشرى من كل قيد ، هو الذى حرر الثقافة وميدان التربية من كل الأغلال القديمة والحديثة على السواء.
وأساس التربية الإسلامية إنسانى محض : إشعار الإنسان بأنه مسئول عن الإنسانية جميعها . . . اقرأوا إن شئتم قوله صلوات الله عليه : « ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة ، أو قوله : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ؛ أو قوله : « إن الله تعالى كتب الإحسان على كل شىء » ، أو قوله : « إذا قتلتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » ، أوقوله : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » ، أو قوله لأعرابى أجهد بعيره ، فلما كل من العمل أراد أن ينحره : « إن بعيرك يشكوك ، أكلت شبابه حتى إذا كبر تريد أن تنحره » . فستجدون الطابع الإنسانى واضحا كل الوضوح فى كل كلمة وكل عمل وكل مبدأ وكل تشريع فى الإسلام عامة ، وفى التربية الإسلامية خاصة . يبنى «أمانول كانت» مذهبه فى الأخلاق على أن حسن النية هو الأساس الأول فى الأخلاق . . . ولعلكم تتذكرون قول الرسول الأعظم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرىء ما نوى » ، وتعلمون أن محمد بن عبد الله سبق الفلاسفة كما سبق المشرعين والمفكرين إلى كثير من النظريات العامة فى الأخلاق والاجتماع والتربية .

ويعود الله عز وجل فى مطلع سورة يونس إلى ذكر الفرق بين المؤمنين والكافرين ، وإلى ذكر مصير الفريقين فى الآخرة ، يبين قلق الكافرين ، واطمئنان المؤمنين ، حين يلقى كل فريق جزاءه فى الآخرة على ماقدمت يداه.

ب — وفى الربع الثانى من سورة يونس يذكر الله عز وجل تعجل الكافرين والمشركين للعذاب ، وما ركب فى طبيعة الإنسان من الهلع والفزع إلى الله عز وجل فى المحن والخطوب ، ومن نسيان الله عندما يفرج ما ينزل به من كرب ، وما يحيط به من محن ، ويذكر الله عز وجل ما نزل بالأمم الماضية من العذاب ، لما ظلموا وكفروا وأشركوا بعد أن جاءتهم رسلهم

بالبينات ، فلجوا فى العناد ، وقاوموا دعوات الأنبياء ، فجزاهم الله عز وجل شر الجزاء بما كانوا يعملون .

وهنا يبين القرآن الكريم ما تصنعه قريش مع الرسول ، وقولهم له : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، كما يذكر رد الرسول عليهم ، وقوله لهم : ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، أفلا تعقلون .. ويذكر الله عز وجل أنه لا أحد أشد ظلما من الذين يفترون على الله الكذب ، أو يكذبون بآياته ، ولو فعل الرسول شيئاً من ذلك لكان معدودا من الظالمين ، ولا يفلح الظالمون المجرمون المفترون . . . ويشير الله عز وجل إلى شرك المشركين من العرب بالله ، وقولهم للأوثان : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، ويرد عليهم رداً بليغا ، بأن ذلك كله لا نصيب له من الصحة ، ولا من الحقيقة ، وأنه شيء لا يعلمه الله فى السموات ولا فى الأرض ، والشيء الذى لا يعلمه الله لا يكون له حقيقة ولا وجود .. وتنزيها لله عما يشرك المشركون . ويبين الله عز وجل أن الناس كانوا جميعا على عقيدة التوحيد ، فاختلفوا ، ولو لا كلمة سبقت من الله بإمهالهم لصب عليهم العذاب صبا ، ولقضى بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، ثم يذكر الله عز وجل لونا آخر من اقتراحات المشركين على رسول الله ، وقولهم : لولا أنزل عليه آية من ربه ، وقالوا « عليه » بضمير الغيبة استهزاء وسخرية أو تحقيراً وتهوينا بشأن الرسول ، فيقول الله عز وجل لرسوله العظيم : قل إنما الغيب لله ، فانتظروا إنى معكم من المنتظرين .. ويبين الله عز وجل إثر ذلك ما ركب فى النفس الإنسانية من الكفر بالله والإشراك به إذا أذاقهم خيرا ورحمة ، ويقول لهم : إن كنتم تمكرون بالله فالله أشد مكرا ، وملائكة الله يسجلون عليكم ما تعملون ، ويكتبون ما تمكرون . ويضرب الله على ما قال : بعض الأمثلة ، وهو أن الناس يركبون البحر ، ويستقلون السفن ، وقد تثور العواصف ، وتوشك السفينة على

الغرق ، فيأخذ راكبوها فى الدعاء إلى الله ، فينجيهم ، ويكشف ما أحاط بهم من كرب ، فلا يعتبرون بذلك ولا يقابلون صنيع الله بالشكر والحمد ، بل يقابلونه بالكفر والعصيان والبغى بغير الحق ، ويرد الله عليهم ردا بليغا : إنما بغيكم على أنفسكم ، وماهو إلامتاع الحياة الدنيا ، ثم إلى الله مرجع الناس جميعاً ، فينبئهم بما كانوا يعملون ، نعم ماهو إلا متاع الحياة الدنيا . فالحياة كلما ازدهرت وأشرقت واتسع عمرانها ، ونمت حضارتها واقتصادها لاتلبث حين يأتيها أمر الله ، إلا أن تصير ذابلة كاسفة ، كما تذبل الزهور والأشجار بعد نضرة ، وكما تذوى النباتات بعد إشراق ، وبعد أن نزل عليها المطر من السماء فأرواها ، ومنحها النضرة والبهجة والرواء ، فإذا جاء أوانها ذبلت وصارت كأن لم تكن بهجة مشرقة زاهية ، وهكذا تعود الأرض كسيفة كئيبة ، يجعلها الله حصيدا كأن لم تغن بالأمس وكذلك يفصل الله الآيات لقوم يتفكرون، ولا ينسى الله عز وجل أن ينبىء المشركين بمصيرهم ، والمؤمنين بعاقبتهم ، وأن يكشف لهم الحقيقة كاملة ، تحذيرا وإنذاراً ، فللمؤمنين المحسنين الحسنى وزيادة، ولهم السرور والنعيم والبهجة ، وللكافرين العذاب والذلة والكآبة .

ولا يلقون ذلك العذاب فحسب ، بل يتخاصم المشركون مع الشركاء ويقول بعضهم لبعض مايقولون توبيخا وألما وحسرة ، ويقرر القرآن الكريم أن كل إنسان فى الآخرة يختبر عمله ، ويريد الاعتماد عليه ، ولكن المشركين يردون إلى الله مولاهم الحق الذى كفروا به فى الآخرة ، ويبحثون عن الشركاء الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا فلا يجدون لهم أثرا ، وضل عنهم ما كانوا يفترون .

ج ـ أما الربع الثالث فهو تذكير للمشركين بنعم الله عليهم ، وبقدرته العظيمة فى السماء والأرض وفى الحياة والوجود ، وأن صاحب هذه القدرة العظيمة هو الله وحده.. الله المعبود ، والرب الحق ، والإله الذى يجب أن يتجه إليه الناس جميعا ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، ولكن حقت كلمة الله على المشركين والكافرين أنهم لايؤمنون .. ثم يوبخ الله عز وجل المشركين ،

فيقول لهم : هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ، هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ، وينزل كتابا ورسولا لهدايتكم إلى الرشاد . . ويوبخهم بأن المشركين والكافرين لايتبعون إلا الظن ، والظن لايغنى من الحق شيئا ، والله عليم بما يفعلون ، فمعاقبهم عليه .

إن الإنسان محمول بفطرته إلى اتخاذ عقائد دينية له ، وهذه العقائد يتناولها أكثر المتدينين من آبائهم ، وقادة أديانهم ، ومن طريق التقليد بدون نقد ولا تمحيص . ولكن الإسلام حرم على أهله هذا الضرب من توارث العقائد ، فشرط أن يكون أساسها العقل ، وسنادها الدليل . وهذا مالا عهد للإنسانية به إلا فى العلوم الكونية بعد الإصلاح الخطير الذى أحدثه فيها العلامة الانجليزى الكبير بيكون من لدن القرن السابع عشر ، فخرجت المعارف الإنسانية بهذه الوسيلة من حيز الظنيات إلى حيز اليقينيات . مما أحدثه هذا العبقرى الانجليزى من التمحيص فى مجال المعارف المادية ، سبقه الإسلام إليه بأكثر من ألف سنة فى عالم المعتقدات الدينية . فليس على مسلم بموجب هذا الأصل الإسلامى أن يتناول عقيدة من كائن من كان دون أن يعقلها ، وأن يستطيع أن يدلل عليها ، حتى ساغ لأهل الأصول من المسلمين أن يقرروا أن إيمان المقلد لا يقبل منه . هذا حدث جلل لم يكن يخطر لأحد على بال من أهل الأجيال السالفة ، ولا يزال يجهله غير المسلمين ويظنون أن الإسلام دين كالأديان المعروفة . إن العقل فى ذاته وإن كان خاصة طبيعية من صفاته التمييز بين الحق والباطل ، والحسن والقبيح ، ولكنه فى حاجة إلى نور يستمده من الخارج ، تظهر له به الأمور على ما هى عليه فى الواقع ، فما كل ما ظهر لأول وهلة أنه حق يعد حقا ، ولا كل ما تبادر إلى الذهن أنه باطل باطلا ، ولا كل ما لاح أنه حسن حسنا ، ولا كل ما أوهم مظهره أنه قبيح قبيحا ، ولو كانت هذه الخاصة تدرك الأشياء على حقائقها دون حاجة إلى ما يقومها ويكملها ، لما شجر بين الناس خلاف على معقول قط ، بل لما تنازعوا على شىء أصلا ، ولا كان هنالك تفاوت بين ذوق وذوق ، ولا بين نظر ونظر . فالعين خاصيتها المميزة رؤية

الأشياء على ما هى عليه فى ظاهرها ، ولـكنها فى حاجة إلى نور خارجى يبين لها الأشياء فى مواضعها ، ويظهر تفصيلاتها ، ويشترط أن يكون ذلك الضوء خاليا من الشوائب ، وكافيا لإظهار جميع الدقائق . فما كل ما يلوح فى الغبش أنه حسن حسنا ، ولا أنه قبيح قبيحا . وهنالك ما هو أدق من هذا تأثيرا فى تقدير الحسن والقبح ، وهى الخصائص الذاتية والمزايا التبعية ، فالمرارة تعتبر قبحا ، ولـكنها فى العلاجات المفيدة بمرارتها تعتبر حسنا ، وإذا اشتدت صارت غاية فى الحسن . والحلاوة تحسب حسنا ، ولـكنها إذا اشتدت حتى أحدثت غثيانا وقيئا عدت قبحا ، وإذا أفرطت اعتبرت نهاية فى القبح . فخاصية العقل بحكم وظيفته فى التفرقة بين الأمور الفاضلة والرذلة ، والشئون النافعة والضارة ، فى حاجة ماسة إلى المقومات الذاتية ، والمقومات الخارجية : فالمقومات الذاتية المعارف على جميع ضروبها ، والتجارب على اختلاف مواضيعها ، فإن العقل الخاوى من العلم والمجرد من التجارب ، يتعقل الأشياء تعقلا ساذجا ، ويميز بين الحسن والقبيح تمييزا سطحيا ، ولـكن أيستطيع أن يفرق بين حق وباطل ، أو بين حسن وقبيح تفرقة صحيحة ؟ إذا كان ذلك ممكنا ما اختلف الناس فى عقائدهم وشرائعهم ومبادئهم على النحو الذى هم عليه اليوم .

لذلك عنى الإسلام بأمر المقومات العقلية بنوعيها كل العناية ، بقدر ما عنى بنصب العقل حكما بين ماهو حق وباطل . وحسن وقبيح ، وخير وشر . فأما من ناحية المقومات الذاتية فقد حث على وجوب طلب العلم ، فقال تعالى: «وقل رب زدنى علما» ، وعلل هذه العناية منه بوجوب طلب العلم بأن العلم يوجد لأهله مزايا يتجرد منها المحرومون منه ، وهو يريد أن يكون للآخذين به جميع المزايا التى يمكن أن يتمتع البشر بها ، فقال تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ » ، وصرح بأن بين المؤمن الجاهل والمؤمن العالم درجات، تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » قال البيضاوى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم » بالنصر وحسن الذكر فى الدنيا ، وإيوائهم غرف الجنان فى الآخرة . « والذين أوتوا العلم درجات » ويرفع

العلماء منهم خاصة درجات بما جمعوا من العلم والعمل . فإن العلم مع علو درجته يقتضى العمل المقرون به مزيد رفعة . ولذلك يقتدى بالعالم فى أفعاله ولا يقتدى بغيره . وفى الحديث : فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » . نقول : وقد قدر ابن عباس رضى الله عنه هذه الدرجات بسبعين درجة .

وقد حض الإسلام ذويه أيضا على إجالة الفكر فى الأمور ، وتناولها بالبحث والتقدير ، وحرضهم على النظر فى الكون والكائنات وتسور أسرارها ، واستكناه أسرارها ، واعتبر ذلك أفضل من العبادة بالجوارح ، فقال تعالى : « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » : وقال « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . و « إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » . وكرر ذلك فى عشرات من الآيات . وورد فى الأحاديث النبوية تحضيض شديد على التفكير ، حتى جعله النبى صلى الله عليه وسلم خير ضروب العبادة ، فقال : « فكر ساعة خير من عبادة سنة » . وقد شفع الإسلام هذا التحضيض على التفكير ببيان النواحى التى يجب توجيه الفكر اليها وهى : التفكير فى الوجود فى جملته ، فقال تعالى : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ، وقال « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ، وقال : « أفلم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » . والتفكير فى الكائنات الأرضية من جمادية ونباتية وحيوانية ، والتأمل فى صورها وأشكالها ، وطبائعها وأسرار وجودها . قال الله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا - أى رطبا - وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا - أى ذات أشجار غليظة - وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم » . وقال : « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن

فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » . وقال : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ؟ » الخ . . ثم التفكير فى الإنسان ، تكونه فى الرحم وميلاده وأطواره وأحواله ونفسه ، قال تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون » ، وقال : « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » . وقال « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، وقال : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » . فهذا ومئات من أمثاله فى الكتاب الكريم يوقظ فى النفس غريزة النظر فيما بين يديها وما خلفها ، ويثير فيها رغبة ملحة لكشف الأستار واستجلاء غوامض الخليقة ، فتجد فيها مادة العقل غذاء لها يبلغها غاية ما تصل اليه من قوة التحليل والتركيب للمعقولات ، فلا تؤخذ بظاهر خلاب ، ولا عرض فاتن ، فإذا أرادت الحكم على الأشياء ردها عن الانخداع بالظواهر ما تمرست به من النفوذ إلى السرائر ، والغوص لاستخراج الحقائق . ولم يكتف الإسلام بهذا من مقومات العقل ، فدفع بالآخذين به إلى مخالطة الأمم ، ومعاملة الشعوب وحفزهم ، إلى التجوال فى الأرض ، والضرب فى أكنافها ، ودراسة أحوال الجماعات البشرية ، والنظر فى شئونها ، من قوة وضعف ، وعزة وذلة ، وارتقاء وجمود ، والبحث عن أسباب ذلك وعلله ، من أمورها الراهنة ، وتاريخها الماضى ، وتقدير ذلك بالمعايير العلمية ، وقياسها بالمقاييس الحكمية ، قال تعالى : « أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ؟ فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . وقال : « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ، وصرح جل وعز بأن ثمرة

هذه السياحات إزاحة ما على القلوب من ظلمات الجهالة ، وما على العقول من غاشيات الغباوة ، وإزالة ما علق بالنفس من رين العماية ، قال تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ؟ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . لم يدع الإسلام هدفا من أهداف النظر ، ولا موضعا من مواضع الاستبصار ، ولا عاملا مما يوقظ غريزة التأمل ، وينبه خاصة التفهم ، إلا دعا إليه واستنهض الهمم للتنافس فيه ، كل ذلك منه ليطوف بالعقل فى جميع أدوار التربية والنمو ، فيبلغه النضج الذى يصبح معه قادراً على الحكم على ما هو حق ، وما هو باطل ، وما هو حسن ، وما هو قبيح ، حكما يكون هو الصواب أو قريبا من الصواب .

إن الحق يوصل إلى الله ، وإن الشرك وعقائد الضلال إنما هى مبنية على ظنون وأوهام ، والعقائد يجب أن تكون مبنية على الحقائق لا على الأوهام ، وهناك يبلغ القرآن غاية السمو فى تقرير هذه الحقيقة ، إذ يطالب الإنسانية بالتخلى عن أباطيلها وأوهامها وأساطيرها ، والعودة إلى الحقيقة وإلى عبادة الله الحق ، وإلى نبذ الأوثان والأصنام ، وإلى ترك عبادة مالا يضر ولا ينفع ولا يغنى عن الإنسان شيئا ، والحق لا يكون إلا عن نظر واستدلال وبحث وتجربة توصل إلى العلم اليقينى ، وإلى الحقيقة كاملة ، والعلم يوصل دائما وأبداً إلى الله . . أما الأوثان المعبودة ، فلا يوصل إلى عبادتها إلا الظنون والأوهام والأباطيل ، والشيطان الذى يغرر بالناس ويدعوهم إلى عذاب السعير . .

وتعود سورة يونس إلى أكاذيب المشركين حول القرآن الكريم ، ويفند أباطيلهم ، ويتحداهم ـ ماداموا يقولون إن محمداً هو الذى افترى القرآن واختلقه ـ بأن يأتوا بشىء من مثل ما اختلقه محمد ، فمحمد بشر ، وهم بشر مثله ، وإذا كانت مواهب محمد ومقدرته قد قادته إلى اختلاق القرآن ، فهم جديرون إذاً بأن يأتوا ولو بعشر سور مفتريات فى مثل بلاغة القرآن ، أو من مثل ما اختلق محمد من سور هذا القرآن ، إن كان محمدا اختلق القرآن كله فليختلقوا هم عشر سور ولو من صغار سور القرآن الكريم ، ولكنهم يعجزون لأن القرآن

ليس من كلام محمد ، بل هو من كلام رب محمد ، وما كان للقرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين .. لقد كذب المشركون بالقرآن ، بما لم يحيطوا بعلمه ، بما لم يأتهم تأويله ، كما كذب الذين من قبلهم بالرسل وكتب السماء ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . إن من العرب من يؤمن بالقرآن ومنهم من لا يؤمن به ، والله عز وجل هو الذى يعلم الصالح من المفسد ، ويعرف نية كل إنسان وعمله ومايستحقه من جزاء ، ويطمئن الله عز وجل رسوله الكريم بأنه ليس مسئولا عن إيمانهم ولا عن هدايتهم ، له عمله ، ولهم عملهم ، إنه برىء مما يعملون . والله عز وجل هو الذى يجازيهم على مايعملون ، وهو لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون . . ومصير الناس جميعا إلى الله ، يوم يحشرهم جميعا ، فيجازيهم على ما عملوا ، فلا يلقى الكافرون إلا الخسار والوبال ، ولكل أمة رسول ، ولكل أمة أجل ، فلماذا يستعجل المشركون أجلهم ؟ ولماذا يتعجلون عذاب الله ، إن عذاب الله قريب ، وللمشركين عذاب الخلد بما كانوا يكسبون . .

د — أما الربع الرابع من سورة يونس « ويستنبؤنك أحق هو » فقد بدأه الله عز وجل بتقرير أمر الجزاء ، جزاء كل إنسان على ما عمل ، وأن الظالمين أنفسهم بشركهم وكفرهم عذاب الخلد جزاء بما كانوا يكسبون ، يوم يود الظالمون لو افتدوا أنفسهم يوم القيامة بكل مافى الأرض ، وبدت الندامة على وجوههم لما رأوا العذاب ، وقضى الله بينهم بالعدل والحق والإنصاف ، وهم لا يظلمون ؛ إن هذا لا يعجز الله فى شىء ، وكيف يعجزه ولله ما فى السموات والأرض ، ووعده الحق ، وقوله العدل ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ؛ بل كيف يعجزه شىء فى الأرض أو السماء ، وهو الذى يحى ويميت وإليه المرجع والمصير ، وهنا يعلن الله عز وجل إلى الناس كافة ، إلى الإنسانية كلها ، إلى البشر جميعا ، رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم قد جاءتهم على يدى محمد الموعظة من الله ، وجاءهم شفاء لما فى الصدور من ريب وحيرة وشك ،

وجاءهم الهدى والنور والرحمة ، وكل هذا إنما هو للمؤمنين برسالة محمد ، رسالة الإسلام والسلام والهدى والحق والبينة.. وما أروع ماوصف به القرآن الكريم رسالة محمد ، رسالة الإسلام ، فى هذه الآية الكريمة : موعظة من الله ، وشفاء لما فى الصدور، وهدى ورحمة . . أليس كذلك كان الإسلام ؟ وأليس كذلك هو الإسلام فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وطول حياة الإنسانية المديدة ؟.. والإسلام اليوم غريب من جماهير المسلمين ، غريب عن عقولهم لا يألفهم ولا يألفونه ، يرتلون اسمه فى المحافل ترتيلا ، وهم أبعد الناس عن روحه وجوهره ، بل وأبعدهم عن فهم مبادئه وأصوله وأهدافه ، الإسلام الذى أحدث أعظم انقلاب عالمى ، وأكبر ثورة بشرية ، والذى بلغت دعوته من الحيوية والسمو والطهر ، ومن المواءمة لروح الإنسانية ونظريات الاجتماع ومذاهب التفكير الحديث ، ما شهد به الفلاسفة والمفكرون والمشرعون فى كل جيل ومكان ، هذا الدين السماوى الخالد هو الذى ينبذه المؤمنون به اليوم وراءهم ظهريا ، ويحرمون أنفسهم من الإفادة بتعاليمه ، بل ويجاهر بعضهم أحيانا بأنه دين الرجعية والجمود ، كذبوا وأيم الله ، فالإسلام لم يكن فى يوم من الأيام إلا دين التقدم والمدنية والتحرير الإنسانى ، والعزة والكرامة والمجد، وإن أوربا لم تنهض نهضتها الحديثة الا بعد أن فهمت أصول الإسلام ، واقتبست من شريعته فى الإصلاح ، بل لقد وقف فلاسفة الغرب حياله مذهولين حائرين ، يتأملون نوره كما يتأمل الأعشى نور الشمس المشرقة . وما بالكم بدين وضع أصول السياسة والتشريع والأخلاق ، وأصول البحث والتفكير ، وسبق « الديكارتيين » إلى تقديم الشك أمام كل بحث ، وترك التقليد ، وإلى الإيمان بما يؤدى إليه الدليل . كما سبق « بيكون » إلى المذهب العلمى ، وسبق فلاسفة الاجتماع إلى وضع أصوله ، ولم يجعل للمعرفة الإنسانية حدا ، من حيث وضع بعض المفكرين الغربيين حدا لما يمكن أن يصل إليه الإنسان من معارف ، وأقام مبادئه على سمو الغاية الأدبية والإنسانية فحسب ، دون النظر إلى التعليلات الاقتصادية والمادية للأشياء التى هى الآن أساس المدنية الغربية .

يفاخر العالم الغربى بمجانية التعليم التى سبق إلى تعميمها منذ عهد بعيد . وأنتم تعلمون أن المدارس والجامعات الإسلامية كانت تطبق نظام مجانية التعليم بها ، بل وتزيد على ذلك ، فتصرف لطلابها الغذاء والكساء وتهيء لهم السكنى فى مساكن مدرسية خاصة . ويفاخرنا الغرب بمجانية العلاج وهو نظام سبق إليه المسلمون فى العصور القديمة . ويفاخرنا بنظام الضمان الاجتماعى الذى عمموه فى بلادهم مع أن المسلمين هم أول من طبقوه ونفذوه ، فقد كان يصرف من بيت المال نصيب معلوم للفقراء والمساكين، واليتامى والأرامل وأبناء السبيل، كما كان لهم نصيب فى الغنائم ونصيب فى الزكاة ، وكان عمر يفرض لجميع المسلمين عطاء من بيت المال ، ويقول : « والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد » . هذا كله غير تشريع الإسلام للزكاة والهبة والوصية والوقف والإرث ، ودعوته إلى الإحسان ؛ وفرضه حقا معلوما للفقراء فى أموال الأغنياء . ويفاخرنا الغرب بنظامه للديمقراطى مع أن الغرب يعلم أن الإسلام هو أول من وضع نظام الحكومة الشورية ، التى كان دستورها القرآن . والتى اختفت فيها الفروق والامتيازات ، ووزعت الحقوق والواجبات على الأفراد على السواء . وجعل فيها الحاكم والمحكوم جميعاً على قدم المساواة فى المسئوليات والالتزامات ، بعد أن كان الناس يؤمنون بأن الحاكم ظل الله فى الأرض ، وبأنه فوق القانون والمسئوليات . ولعلكم على ذكر من قول محمد صلوات الله عليه : « الإمام راع ومسئول عن رعيته » . ولعلكم قرأتم بإمعان قول عمر : « إن رأيتمونى على حق فأطيعونى وإن رأيتمونى على باطل فقومونى » وقوله لعمرو بن العاص : « متى تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟ » وقوله : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » وغير ذلك مما يعد دستورا خالدا فى تقرير مسئولية الحاكم .

ولقد بدأ المفكرون فى القرن العشرين يدعون إلى حكومة عالمية . فأين هم من الإسلام ورسوله الكريم ، الذى دعا إلى أخوة المسلمين فى الدين ، وأخوة الناس جميعا فى الإنسانية، ولم يجعل لعربى على أعجمى فضلا إلا بالتقوى والعمل

الصالح ، وألغى الفرق بين الطبقات والعناصر والألوان والأجناس والشعوب ، وجعل أساس الحكم الإسلامى المحافظة على الكرامة الإنسانية ، ونشر كلمة الله والهدى والنور ، والحق والخير والمعرفة . الدين واحد والناس جميعا إخوة ؛ يحكمهم حاكم واحد بما أنزل الله . ولايزال الغرب يدعى بأنه أول من أعلن حق الإنسان فى الحرية والإخاء والمساواة منذ بدء الثورة الفرنسية حتى اليوم .

وما أشد جرأة هؤلاء على الحقائق ، فلقد سبقهم الإسلام بأجيال وقرون إلى إعلان حقوق الإنسان وتأييدها وحمايتها . وما بالكم بدين حرر المرأة من جور الرجل، وحرر العامل من ظلم صاحب العمل ، وحرر الرقيق والخدم من العبودية والهوان ، وحافظ على حق الإنسان فى الحياة والأمن ، وحقه فى الملكية وفى الكرامة الإنسانية ، وفى تكوين الأسرة وفى الاشتراك فى إدارة شئون الدولة ، ودعا إلى العدالة بأجلى معانيها وإلى الاخاء بأصدق مدلولاته ، وإلى الحرية الكاملة والمساواة الشاملة والاشتراكية العادلة ، وحمى أتباع الأديان الأخرى ، وجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ماعليهم من واجبات وحقوق . لقد كان أفلاطون وأرسطو من فلاسفة اليونان يقرران حرمان العمال والصناع والموالى من الحقوق المدنية ، لانحطاط ما يمارسونه من المهن . . فأين هذا من سماحة الاسلام وجلاله وسمو مبادئه ، الذى ساوى بين العامل والأمير ، والغنى والفقير والكبير والصغير .

وأوربا المتمدينة اليوم لا ترى بأساً من فرض الرق البشرى على الشعوب عن طريق الاستعمار ، وتسوغ لنفسها إزهاق الأرواح وانتهاك الحرمات والحجر على الحريات ، فى سبيل بسط نفوذها وسلطانها على الأرض . . فأين هذا من عدالة الإسلام التى حرمت الاستعباد والطغيان والاستغلال فى شتى صوره ، وجعلت للشعوب المتأخرة المحكومة مثل ما للمسلمين الحاكمين ؟ والشعوب التى تتزعم مدنية اليوم ، لا ترى أيضا ضيرا فى تدمير المدن وقتل النساء والأطفال والكهول ، وإزهاق أرواح المدنيين بلا حساب ، فى حروب منظمة ، يعجز العقل عن تصور هولها وفظاعتها . فأين هذا من شريعة

الإسلام التى فرضت على المسلمين احترام حق الإنسان حتى فى الحروب ، وأوصت بالمدنيين المسالمين خيرا ، ونهت عن الاعتداء والسفك والنهب والحرق والتمثيل والتدمير والتخريب ، حتى لقد أوصى رسول الله صلوات الله عليه جنده فقال لهم : « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا ، اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيرا فانيا ولا منعزلا بصومعته ، ولا تحرقوا نخلا ، ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء » .

لقد بلغت المساواة فى الإسلام المدى الذى يصوره الرسول الكريم بقوله : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد » . ولقد ولى رسول الله بلالا على المدينة وفيها سادة العرب والمسلمين من الأنصار والمهاجرين ، وأسند إلى مهران الفارسى ولاية اليمن ، وهو من صميم الفرس ، وأذن عمر وهو خليفة لصهيب وبلال وسواهما من عامة الموالى بالدخول عليه قبل أشراف قريش وسادة العرب ، وبلغت العدالة فيه المدى الذى يصوره قول محمد بن عبد الله : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ، وأن يغضب « على » لأن الخليفة عمر كناه بأبى الحسن فى خصومة بينه وبين يهودى ، وأن يقول عمر فى وصيته للخليفة من بعده : « اجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله » . فضلا عن تحريم الإسلام للنظم الاقتصادية الجائرة : من ربا واحتكار وأكل لأموال الناس بالباطل ، وقاعدة الاقتصاد فيه « فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » ، كما أن قاعدة الإسلام فى أصول الاجتماع قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . هو بحق دين اشتراكى عادل ، بما شرعه من زكاة وإحسان ووصية ووقف ، وبجعله بيت المال فى خدمة المسلمين عامة ، ومساعدتهم على الحياة .

إن مفاخر الإسلام فى احترامه لحقوق الإنسان ، وتأييده وحمايته لها ، وفى وضعه لأصول التقدم الأدبى والروحى والاجتماعى ، وفى إيقاظه الروح الإنسانى العام ، لهى مفاخر جديرة بالإشادة والتقدير ، حرية بأن نفهمها ونتدبر معانيها ، ونقتبس من أصولها مايحيى الروح ويوقظ العزيمة ، وينبه راقد الفكر فى شتى أرجاء العالم الإسلامى إن الخير كل الخير فى أن يتنبه الشرق الغافل إلى أصول دعوة الإسلام ، التى جهلها وتناساها وتركها . وإنه لحرى بالمسلمين جميعا أن يأخذوا بتعاليم محمد وأصول رسالته الكريمة ، وأن تطبق تطبيقا صحيحا ، ليسعد الناس وتستقر الجماعات ، وتهدأ الفتن ، وتصحح الأوضاع ، فالعالم لن يحيا من هوته إلا إذا أخذ بتعاليم الإسلام ، التى لابد أن ينتهى إليها فى يوم من الأيام « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » . وصدق الله العظيم حين يقول : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور » .

هذا هو الإسلام ، وما أعظم مبادىء الإسلام ، وما أكرم أصوله وقواعده ، إن الإسلام يحذف الامتيازات الفردية وللطائفية ، ويمحو ما بين الطبقات من الفروق فى الحقوق والواجبات ، لايفرق بين حاكم ومحكوم ولا يعترف بالنبلاء والسادة والأمراء ، إنما هم مثل غيرهم من باقى طبقات الشعب وفلاحيه وجمهوره ، نظام الحكم مقرون بالحرية والمساواة والعدل واحترام كرامة الفرد .

ولقد عنى ملوك المسلمين بنشر العلم والثقافة والحضارة فى كل مكان ، فى بغداد وقرطبة ومصر ودمشق وحلب وتونس ، وسواها من عواصم البلاد الإسلامية ، وهذه العواصم هى المنابع التى استمد منها الغرب الثقافة والعلم والحضارة فى القرون الوسطى . يقول الأستاذ بريفولت الانجليزى فى كتابه « تكوين الإنسانية » : تعلم كثير من المسيحيين عند علماء الإسلام . ويقول : إن رئيس ديركلونى تأسف على أن رأى أثناء إقامته بالأندلس الطلبة من

فرنسا وألمانيا وانجلترا يردون أفواجا أفواجا إلى المراكز العلمية العربية ، وقال : العلم هبة عظيمة الشأن ، جادت بها الحضارة العربية على العالم الحاضر ، فلم تكن إيطاليا مهدا لحياة أوربا الجديدة بل الأندلس ، لأن أوربا كانت بلغت أشد أعماق الجهل والفساد ظلمة ، بينما العالم العربى : بغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة ، كانت مراكز الحضارة والنشاط العقلى ، ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة التى نمت فى شكل ارتقاء إنسانى جديد .

وهنا وفى هذا الموضع يطالب القرآن الكريم العرب عامة بالفرح برسالة محمد ، والسرور بها ، الفرح بها لأنها مجد لهم وذكر ، وعزة وخير ، ولأن رسولها منهم ، ولأن كتابها نزل بلغتهم ، ولأنهم لا بد أن يكونوا هم جنود الدعوة ودعاتها ، قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون . . وينعى الله عز وجل بعد ذلك على المشركين شركهم وضلالهم وعقائدهم الفاسدة ، وينبههم إلى عظمة الله وسعة ملكه وإدراكه وعلمه ، وإلى عظمة المؤمنين برسالته ومنزلتهم الطيبة فى الدنيا والآخرة ، ويسلى الرسول الكريم ويسرى عنه الهموم والأحزان ، ويدعوه إلى أن لا ييئس ولا يحزن لما يقول المشركون والكافرون ، فالله عز وجل سميع لأقوالهم ، عليم بأحوالهم ، له من فى السموات ومن فى الأرض ، هو المعبود بحق ، لا معبود سواه ، أما الذين يدعون من دون الله شركاء فلا يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يتقولون الحقيقة كذبا وزورا . . ويمتن الله عز وجل بنعمه الجليلة عليهم ، وبأن جعل لهم الليل سكنا ، والنهار مبصرا ، ولفظ « مبصر » هنا من الألفاظ العجيبة التى يقف العقل والذوق حائرين أمام بلاغتها وإعجازها . . ويندد الله عز وجل بالمشركين وبقولهم : « اتخذ الله ولدا » ، ويبين كذبهم على الله وعلى الحقيقة بهذا الاعتقاد الفاسد ، والكلام الكاذب ، وينذرهم وينذر معهم المفترين على الله والمكذبين بآياته ، بأنهم لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن لهم متاعا قليلا فى الدنيا ، ثم مرجعهم إلى الله ، فنذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون .

٥ ــ أما الربع الخامس من سورة يونس فقد تضمن ذكر قصة نوح ،

والإشارة إلى قصص الأنبياء بين نوح وموسى ، وتفصيل قصة موسى مع فرعون ، وقد بين الله عز وجل العبرة من هذه القصص جميعا ، بأروع تصوير وأبلغ بيان .

٦ — وفى مطلع الربع السادس يذكر الله عز وجل نهاية قصة موسى مع فرعون ؛ وغرق فرعون ، واستخلاف قوم موسى فى الأرض ، ولكن أساءوا خلافة الله فى الأرض ؛ فأخذهم الله بالعذاب الشديد ، وبدد دولتهم ، وأهلك شعبهم ، وأزال الملك عنهم وشردهم فى الأرض ، وقد جرت عادة الله عز وجل منذ عهد آدم إلى أن يستخلف فى الأرض أمة بعد أمة ، وإلى أن لا يهلك أمة إلا إذا فسدت فى الأرض وبغت وعتت عن أمر ربها وفسقت ، ولقد أهلك الله أمة بعد أمة ، واستخلف شعبا بعد شعب ، حتى استخلف المسلمين على العالم ، وفى تصريف شئون الأرض ، وفى حكم هذه الدنيا ، وإنه لا يوجد تعليم من التعاليم الإصلاحية ، ولا مذهب من المذاهب الفلسفية ، ولا نظام من النظم الاجتماعية ، رفع من شأن المجتمع الإنسانى وناط به أعظم المهام العالمية ، إلى المستوى الذى رفع إليه الإسلام المجتمع الإسلامى . فالإسلام بعد أن أقام مجتمعه على الأصول الأدبية الخالدة ، والمبادىء الخلقية العامة ، أصبح من المعقول أن يكل اليه ما يتناسب وهذه الأصول والمبادىء من المهام الكريمة ، والخطط الشريفة . إن المجتمعات الإنسانية كلها قامت على الحاجات المادية ، والمصالح القومية ، مجردة عن كل اعتبار أدبى ، أو أصل روحانى . ولما استطاعت تلك الجماعات بفضل تكافل أفرادها أن تأمن شر الغوائل ، من عدو مغير أو مجاعة مهلكة ، نشأت فيها بحكم الفطرة الإنسانية نزعة إلى ترقية آدابها ، وتهذيب أخلاقها ، ولكنها اعتبرت ذلك خاصا بآحادها ، فحرمت عليهم العدوان على الأموال والأعراض والأنفس ، وحضتهم على خصال من الرفق والعطف والعدالة ، ولكن كل جماعة قصرت كل ذلك على نفسها ولم تطبقه على غيرها ، فكانت تعاقب من يقتل واحدا من مواطنيه بالقتل ، ولكنها كانت تجازى من يقتل أجنبيا بالإعجاب والمدح . فالأخلاق التى كانت لدى الأمم

فى أرقى عهودها كانت لاتعدو أخلاق قطاع الطرق . وكانت الأخلاق الصحيحة التى يحملها إليها الأنبياء والمرسلون تشوه وتحرف ، أو ترفض .

وعلى الفساد والطغيان كانت دولة كسرى ودولة قيصر ، اللتين ورث عنهما المسلمون خلافة الله فى الأرض .. على هـــذه الحال كانت الأمم المشهود لها بالرسوخ فى المدنية حتى إلى العهد الذى ظهر فيه الإسـلام ، أفلا يكون من مصلحة الإنسانية ، وهى على وشك تطور جديد يلائم مواهبها العلوية ، أن يحيى الله أمة من وسط هـذه الرمم ، ويجعل ترابط آحادها قائمـا على أرقى الأصول الأدبية ، لتكون مثلا تحتذيه الجماعات فى تكوين بنيتها الاجتماعية ، وأن يجعلها من القوة الحيوية ، والسطوة المـادية ، بحيث تظهر على الأمم كافة وتدفعهـا لإعادة النظر فى روابطها القومية ، وسـيرتها الدولية ؟ .

نعم : لقد كان ذلك ، وظهرت من بقعة هى أبعد البقاع الأرضية عن الألفة والاجتماع ، أمة رابطتها الفضيلة الخالصة من الشوائب ، المطلقة من القيود ، لا تشوبها روح القوميات ، ولا فروق اللغات والجنسيات ، فهى عالمية حسا ومعنى ، لم تقم على مثل الأصول التى قامت عليها أمة من قبل ، ولا ينتظر أن أن تفوقها فى هذه المزايا أمة من بعد . وهـذا حادث تاريخى جلل يجب أن ينوه به المسلمون فى كل ناحية يحلونها من نواحى الأرض ، فهو فضلا عن أنه يعلى من قدر الإسلام إلى أرفع محل ، يضيف إلى علم الاجتماع صفحة جديدة فى تاريخ الروابط الإنسانية ، وحالة فذة من حالات قيام الجماعات ، وهى قيام أمة عالمية غير ملحوظ فى تكوينها ما كان يعتبر أسسا للاجتماع من وحدة الجنس واللغة والبيئة ، فهى أمة مبادىء وأصول ومقاصد عامة ، لا أمة جنس ولا لسان ولا وطن . هـذه الأمة العالمية هى المثل الأعلى لمـا سيكون عليه سكان الكرة الأرضية قاطبة ، حين تسمو عقلياتهم ، ويدركون أن الأرض لله ، وأن هذه الفروق بين أهلها فى اللون واللغة والبيئة ليست فروقا طبيعية توجب بينها الخلاف والتناحر ، ولكنها فروق سطحية أوجبتها سعة الأرض وبعد الاتصالات ، وتباين اللهجات . فإذا بلغت الجماعات البشرية هذه الدرجة

من الفهم ، حدث تعارف عام بين البشر ، وتلاه سلام لا يعكر صفوه معكر من أى نوع كان . فان لم يصل العالم كله إلى هـذه الدرجة من السمو ، وصلت اليه على القليل جماعات راقية يمكنها أن تبلغ المدنيـة إلى أرفع مكاناتها ، وتحميها شر عدوان المنابذين لها . فهذا المثل الحى الذى ضربه الإسلام للناس ومضى فى تحقيقه إلى أبعد حد ، يجب أن يدونه علم الاجتماع فى أولى صفحاته ، ولا يكون ذلك إلا إذا أدركه المسلمون ونوهوا به ، ويبنوا صحته بالأدلة القاطعة . وأى مسلم تعوزه الأدلة على هذا الأمر المقرر فى النصوص الكتابية ، والمعزز بالحوادث التاريخية ؟ . ومما هو أبعد من كل ما مر أثرا فى تنزيه المجتمع الاسلامى من شوائب الرعونات البشرية ، أن الله طبعه بطابع إلهى ، فجعل مهمته القيام على خلافته فى الأرض . وهذه تقتضى التخلق بأخلاق الله فى معاملة عباده ، والسير على سنته فى العناية بمخلوقاته . وهى مهمة خطيرة ذات تبعات كبيرة ، فيقول تعالى : « وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » .

ومما يدل دلالة قاطعة على أن الله تعالى ندب هذه الأمة لخلافة إلهية عالمية ، أنه ناط بها مهمة الهيمنة على الناس كافة ، فقال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » . فالأمة الإسلامية أمة منتدبة من الحق لخلافة الله فى الأرض ، وليس فى هـذا الأمر ما يجرح كبرياء أمة من الأمم ، ولا ما يحط من عزتها وكرامتها ، لأن واضع هذا الانتداب سبحانه ، لم يجعله ميزة لشعب من الشعوب ، ولا وقفا على جنس من الأجناس ، ولم يشترط له بيئة من البيئات ، ولكنه جعله للجماعة التى تدين بشرائطه المقررة ، وأصوله المعينة من أى جنس كان آحادها ، وفى أى بقعة من الأرض تأسست دولتها : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » ولم يجعل الله تلك الأصول والمبادىء مناسبة لأمة دون أمة ، أو مسايرة لعادات قوم دون آخرين ، ولكنه فرضها أصولا أولية خالدة ،

ومبادىء أساسية عامة ، مما تعترف كل أمة بأنها أرقى الأصول وأقوم المبادىء ، لا تصلح لزمان دون زمان ، ولا تلائم حالا دون حال .

إن ندب مثل هذه الأمة لتمثيل الحق الخالص والقيام به ، لو نظر اليه نظرا فلسفيا لوجد طبيعيا من كل وجه ، فإن الحقائق العلمية ، والفتوح العقلية ، لا تفتأ تجمع قلوب الأيقاظ من الناس حولها فى كل بيئة من بيئات الأرض ، وتؤلف منهم أمة شائعة فى جميع الأمم ، بحيث لو اجتمعوا فى صعيد واحد لكونوا أمة مختارة تدين للحق وتقدسه ، وتتعطش إلى المزيد من نوره ، وتعمل على إقامة دولته فى الأرض .

بعد أن بين الله عز وجل أنه بوأ لبنى إسرائيل فى الأرض مبوأ صدق ، وأنهم اختلفوا ، وتركوا الدين الحق ، والشريعة المطهرة ، وضلوا وأضلوا ، وبغوا فى الأرض ، فأخذهم الله بالعذاب فى الدنيا ، ذكر أنه عز وجل سوف يقضى بينهم فيما كانوا يختلفون فيه من أمور الدين وأمور الشريعة ، ويؤكد الله عز وجل رسالة محمد وصدقها ، فيطالب الممترين فيها ، بأن يرجعوا إلى أصحاب الكتب السماوية القديمة ، ليسألوهم : هل رسالة محمد رسالة قد بشر الله عز وجل بها والأنبياء فى الكتب السماوية المقدسة أولا؟ ويزيد الله عز وجل أمر صدق محمد وصدق رسالته تأكيداً ، فيقول للرسول ولأمته : لقد جاءك الحق من ربك . ويخاطب كل مسلم فيقول : فلا تكونن من الممترين ، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ، فالمكذبون بآيات الله سوف ينالهم غضب الله وعذابه الشديد الأليم ، ويشير الله عز وجل هنا إلى قوم يونس ، آمنوا آخر الأمر برسالة نبيهم ، فكشف الله عنهم العذاب فى الدنيا ، وعاشوا قليلا ، حتى أدركتهم آجالهم . ثم قضوا ومضوا إلى الله ورحمته . . ويقرر الله عز وجل أن من طبيعة الحياة الإنسانية أن يوجد المؤمن والكافر ، ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض جميعا ، أفيستطيع محمد أن يكره الناس حتى يصبحوا جميعا مؤمنين ؟ لقد كان الرسول شديد الحرص على دعوة قومه إلى

الإيمـان وعلى أن يؤمنوا برسالته ، وكان مظهره فى ذلك مظهر من يظن أنه يستطيع أن يكره الناس حتى يصبحوا مؤمنين ، فرد الله عز وجل عليه ذلك ردا بليغا ، فما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، والعذاب للذين لا يعقلون ولا يؤمنون . . ويطالب الله عز وجل المشركين بأن يعتبروا بمـا فى السموات والأرض ، وأن يتعظوا بكل شىء ، وإن كانت الآيات والنذر لا تغنى شيئا عن قوم لا يؤمنون ، وليس لهم إلا النهاية المحتومة التى كانت للأمم البائدة التي أهلكها الله ودمرها تدميرا ، ونجى رسلها والمؤمنين بهم ، والله عز وجل لا يترك مؤمنا به إلا ويكتب له النجاة فى الدنيا والآخرة . .

وهنا يخاطب الله عز وجل رسوله الـكريم ليعلن فى الناس عامة ، والبشر جميعا أن الإسلام مبنى على التوحيد الخالص ، وأنه برىء من الشرك والمشركين: « قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد ما تعبدون من دون الله ، ولـكن أعبد الله الذى يتوفاكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين » ويوصى رسوله الـكريم بوصية جامعة فيقول له : « وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تـكونن من المشركين ، ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين » ، ويرشده إلى وجوب التمسك بعقيدة الإسلام الصافية الطاهرة التى تؤمن أن الخير كله بيد الله ، وأنه عز وجل هو الضار النافع فيقول له : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم » .

ويعلن الله عز وجل رسالة محمد إلى الناس كافة : إعلانا بعد إعلان ، فيطالب رسوله بأن يعلن فى الناس صدق رسالته ، وأنها من عند الله ، وأن كل إنسان سوف يحاسب على عمله ؛ ويدعوه إلى الصبر حتى يفصل الله فى الأمر بينه وبين المشركين ، فيقول له عز وجل فى ختام سورة يونس : « قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل ، واتبع ما يوحى إليك ، واصبر ، حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين » . .

إن آخر سورة يونس قد جمع كثيراً من الأصول الجامعة فى الإسلام ، واحتوى على دعوة كريمة من الله بالدخول فى الإسلام ، وعلى تلخيص كامل لهذه العقيدة الإنسانية المهذبة المطهرة ، وعلى شرح لأصول الإسلام عامة ، وما فيه من توحيد ، وعبادة الله وحده ونبذ للأوثان ولكل مظاهر الشرك بالله . . كما احتوى على دعوة الرسول إلى لزوم هذه العقيدة والصبر على مشاق تبليغها والدعوة إليها ، حتى يحكم الله عز وجل بينه وبين قومه وهو خير الحاكمين .. وقد حكم الله بينه وبين قومه ، فنصره وأعز دينه ، وخذلهم وخذل ما كانوا يعبدون ...

(٣)

وبعد فهذه سورة يونس ، هذه السورة المكية الجليلة ، التى اشتملت على دعوة الناس إلى الإسلام ، وعلى تقرير صدق القرآن الكريم ورسالة محمد عليه السلام ، وعلى تأكيد أمر البعث والحساب والجزاء ، كما اشتملت على ذكر ألوان من أباطيل المشركين واقتراحهم على الرسول ، ومن ذكر طبائع النفس الإنسانية ، وتسرب الشك والكفر والإلحاد والشرك إليها ، ومن قص قصص بعض الأنبياء عليهم السلام وجهادهم مع قومهم، ليكون فيها عظة وعبرة للمعتبرين ، والسورة نمط رفيع من البلاغة ، ووحدة واحدة من الانسجام والذوق والفن والأسلوب والفكرة .. ودراستها دراسة أدبية أودينية تحتاج إلى كثير من الجهد والوقت ، فنكتفى بتلك العجالة فى هذا المقام . . والله ولى التوفيق ، وما توفيق إلا بالله ؟

خاتمة هذا الجزء

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاة الله وسلامه على محمد وعلى آله وصحبه وسلم . .

وبعد فهذا هو الجزء الحادى عشر من تفسيرى لكتاب الله ، وقد اشتمل على تفسير سورتى التوبة ويونس ، وتجلية معانيهما ، وشرح أسرار البلاغة والبيان فيهما .

وليس لى من فضل فيما صنعت ، ولا من جهد فيما قدمت أو أخرت ، إنما الفضل كله لله وحده ، فهو رب الفضل العظيم .. إليه دعائى وثنائى ، ونحو ساحته أوجه إخلاصى وولائى ، ضارعا إليه وحده أن يوفقنى إلى صالح القول والعمل ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ؟

المؤلف

فهرست

الجزء الحادى عشر من تفسير القرآن الكريم

للمؤلف

قصـــة الأدب في مصر - ٥ أجزاء

« « المعاصر - ٤ «

تفسير القرآن الحكيم - ٣٠ جزءاً

ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان - طبعة ثانية ٨٠٠ صفحة

الحيـاة الأدبيـة في العصر الجاهلي - طبعة ثانية ٥٢٠ «

الشـعر والتجـديد

مواكب الحرية في مصر الاسلامية

في ظلال الاسلام - بالاشتراك

التراث الروحي للتصوف الاسلامي في مصر

بين الشيوعية والاسلام

محمد عبد المنعم خفاجي



أحدث التفاسير ، وأجمعها للفكرة الإسلامية ،
ولفهم العصر الحاضر لكتاب الله

(١٢)

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح ـ ت : ٥٠٨٥٢



١ سُورَةُ الفَاتِحَةِ مَكِّيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ

تصدير

اللهم إنا نستعينك ، ونستهديك ، ونستغفرك ، ونتوب إليك ، ونعوذ بك من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، بك الحول والطول ، ومنك العون والهداية ، لك الحمد والثناء ، وإليك الدعاء والنداء ، وأنت على كل شيء قدير . . .

وبعد . . فهذا هو الجزء الثانى عشر من هذا التفسير الجديد لكتاب الله الذى يخرج فى ظلمات العصر المادى ، وبين سحب الضلالات الكثيفة المحيطة بالناس من كل جانب ؛ وخلال دعوات ينفخ فيها الشيطان ، ليصل دويها إلى كل أذن ، وليردد نداءها كل لسان ، وليؤمن بها كل عقل وقلب . . وهى دعوات جاحدة مارقة ما أنزل الله بها من سلطان ، يدعو بعضها إلى الإباحية والوجودية والمادية ، وينادى بعضها الآخر بالإلحاد فى دين الله . والكفر بشرائع السماء ، والخروج على رسالات الأنبياء ، ويتمادى بعض هؤلاء الدعاة ، فينكرون وجود الله ، ويشككون فى القيم الإنسانية العليا ، ويحاربون الإيمان بالدين وبالنواميس الإلهية العظيمة ، ويفتخرون بما يدعون إليه فى الوقت الذى صمت فيه لسان الحق ، وسكت فيه دعاة الخير والهدى ، ونام الحراس على تراثنا الروحى ، وعلى التعاليم السماوية الهادية المنقذة للبشر والحياة .

فى وسط هذه التيارات المتدافعة المضطربة المتناقضة ، يخرج هذا التفسير صوت هداية للناس ، ولسان حق يدعو إلى ما يدعو الإسلام وكتابه الكريم .

وتفسير تعاليم السماء ، المنزلة على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فى الكتاب الحكيم ، وتقريب أصولها ، وشرح أهدافها ، وتوضيح مراميها ، وتقريب معانيها ؛ كل ذلك جهد مبذول ، أقدمه بين يدى هذا التفسير ، داعياً الله عز وجل أن يهدى به الناس إلى الحق وإلى طريق مستقيم وما توفيقى إلا بالله ؟

ميزات هذا التفسير

لهذا التفسير ميزات كثيرة يكفى هنا أن أشير إلى بعضها :

١ ـ فأولى ميزاته أنه يربط الفكرة بالفكرة ، والمعنى بالمعنى ، والغرض بالغرض ، ، والموضوع بالموضوع ، دون تجزىء لمعانى القرآن الكريم ، أو تفكيك لوحدته ... نحن لا نتناول فيه تفسير كتاب الله آية فآية ، وإنما نتناوله موضوعا فموضوعا ، مع تحديد لأغراض القرآن الكريم ، وإظهار لوحدة السور القرآنية ، ولأفكارها ومعانيها المتصلة المتلاحمة . .

٢ ـ وثانى ميزاته أن أسلوبه عصرى يستطيع كل إنسان من كل طبقة أن يفهمه ، وأن يلم بمعانى القرآن الكريم، دون غموض أو تعقيد أو التواء . ومن ثم فقد حذفنا من هذا التفسير كل الاصطلاحات ليكون أقرب إلى الفهم ، وأسهل على القارىء ...

٣ ـ وثالث ميزاته أنه كتب ليكون مجاريا للثقافات الحديثة ومتمشيا مع مناهجها ، دون بعد عنها ، أو مخاصمة لها ، ومن ثم فقد عرضنا لكثير من الأفكار التاريخية والاجتماعية والفكرية والروحية أثناء عرضنا لهذا التفسير ، نشرح بها كتاب الله ، ونؤيد بها معجزته الجليلة الباهرة ...

٤ ـ ورابع ميزاته أنه موسوعة إسلامية كبرى تحتوى على كثير من الثقافات الإسلامية القديمة والحديثة ، وتحتوى على شرح جديد لكتاب الله ، وتنتظم كثيرا من وجوه الدفاع عن دين الله وكتابه الحكيم .

٥ ـ وخامس ميزاته أنه كتب وفق منهج علمى مرسوم ، يبدو فى أجزاء هذا التفسير واضحا جليا ، ويستطيع القارىء أن يتبينه بسهوله ، كما يستطيع أن يكشف عن أصول هذا المنهج الذى سرنا عليه دون عناء أو صعوبة .

٦ ـ وسادس ميزاته عرضه لجميع الآراء والمذاهب والأفكار ومناقشتها والموازنة بينها ، فى كل موضوع ، وكل مناسبة .

٧ — وسابع ميزاته تحقيقه للمعجزات الإلهية التى ظهرت على أيدى الرسل والنبيين تحقيقا علميا واضحا قريبا إلى العقل والمنطق ، وإلى الذوق والقلب أيضا .

٨ — وثامن ميزات هذا التفسير ما احتوى عليه من دراسات لسور القرآن الكريم ، وبيان لمراميها ، وتحديد لأفكارها ومعانيها وموضوعاتها . . إلى ما احتوى عليه من تبيين للأصول العامة التى اشتمل عليها كل ربع من سور القرآن الحكيم . .

٩ — وتاسع ميزاته العناية بالتحقيق التاريخى وبالنقد العلمى - فى هذا التفسير - عناية كبيرة . .

١٠ — وعاشر ميزاته ما اشتمل عليه من دراسات جديدة عن القرآن الكريم ومعجزته الخالدة ، مما صدر به الجزء الأول من تفسيرنا ومما جاء فى أثناء باقى أجزائه .

١١ — والحادى عشر من ميزات هذا التفسير ، إلمامه بكل ما كتب المفسرون القدامى والمعاصرون ، وبكل ما دونوه فى تفاسيرهم . .

١٢ — والثانى عشر من ميزات هذا التفسير ، هو ما انفردنا به نحن انفرادا واضحا من تقسيم جديد لآيات القرآن الكريم ، بحسب المعانى والأفكار والموضوعات والأغراض التى اشتملت عليها . .

إلى غير ذلك من ميزات هذا التفسير ، مما لم نذكره ، ومما ندعه إلى رأى القارىء المنصف الكريم .

(١١)

ســـــورة هود

تمهيد

(١)

سورة هود مكية[1] ، وقد نزلت بعد سورة يونس ، ونزلت يونس بعد الإسراء ، فتكون سورة هود قد نزلت بعد الإسراء أيضاً . . وعدد آياتها ثلاث وعشرون ومائة آية ، وهى كسورة يونس تماما ، فى تمجيد القرآن الكريم ، وتقرير صدق محمد فيما بلغ به عن ربه ، وقص قصص الأنبياء للعظة والعبرة ، والدعوة إلى توحيد الله وعبادته ، وإلى الإيمان بالبعث ، وبيان مظاهر قدرته فى السماء والأرض ، مما سنعرض له بتفصيل . .

(٢)

والسورة مسماة باسم نبى الله هود عليه السلام ، الذى بعثه الله إلى عاد ، وقد ذكرت قصته فى الآيات ٥٠ — ٦٠ ، وتتضمن السورة إنذارا شديداً للكافرين حتى قال صلى الله عليه وسلم ـ كما روى عن أبى بكر رضى الله عنه ، وكان أبو بكر قال له : يا رسول الله ، عجل إليك المشيب ـ قال صلى الله عليه وسلم : شيبتنى هود وأخواتها : الحاقة ، والواقعة ، وعم يتساءلون ، وهل أتاك حديث الغاشية .

ومن العجب أن تكون أهداف هود وأهداف يونس واحدة ، فبينهما شبه كبير من هذا الجانب ، كما أن أول هود مرتبط بآخر يونس ارتباطا روحيا ومعنويا شديدا .

---

(١) اللهم إلا الآيات : ١٢ و ١٧ و ١١٤ فمدنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة هود عليه السلام

١ — الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

٢ — أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ .

٣ — وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ .

٤ — إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

٥ — أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ .

هذه الآيات الكريمة ليست ربعا قائما بذاته ، بل هي تتمة الربع السابق من سورة يونس ، ولأن حديثنا هنا عن سورة هود مستقلة ، فقد جعلنا هذه الآيات ربعا مستقلا ، وقلنا إنها الربع الأول من سورة هود ، وقد اشتملت على تعظيم شأن القرآن الكريم وتمجيده ، وعلى تلخيص ما يدعو اليه القرآن ومحمد ودين الإسلام ، من ترك عبادة غير الله ، ونبذ الشرك والوثنية ، ومن الإيمان بالتوحيد الخالص ، والرجوع إلى الله وحده . . فإن العابدين الموحدين لهم النعيم فى الدنيا ، ولهم الجزاء الأوفى والفضل العظيم فى الآخرة ، أما الذين يصرون على الشرك فلهم عذاب السعير ، يوم الجزاء والحساب ، إنه

مصيرهم إلى الله ، ومعادهم اليه ، وهو القادر على إعادتهم كما قدر على خلقهم ، وما بال المشركين يظنون بالله الظنون ، ويقولون لأنفسهم : كيف يقدر على البعث والحساب ، بل كيف يعلم مانقول فى خلواتنا وما يتردد فى ضمائرنا ، ونسوا أن الله يعلم مايسرون ما يعلنون ، وهو عليم بذات الصدور . . يقول الله عز وجل : « الر » هى من مطالع السور التى تحدثنا عنها وعن دلالتها فيما سبق « كتاب أحكمت آياته » صفة لكتاب ، وفسر الإحكام فيه بوجوه :

الأول : أنه أحكمت آياته أى نظمت نظما محكما لايقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم الرصف ، لا يعتريه إخلال من جهة اللفظ والمعنى ، ولا يستطيع أحد نقص شىء منه ، ولا الطعن فى شىء من بلاغته أوفصاحته .

الثانى : أن الإحكام عبارة عما منع الفساد من الشىء ، فقوله : أحكمت آياته ـ أى لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع به ، كما قاله ابن عباس .

الثالث : أنها أحكمت بالحجج والدلائل ، وجعلت حكما منقولة ، من حكم بالضم إذا صار حكيما ، لأنها مشتملة على أمهات الحكم النظرية والعملية .. « ثم فصلت » صفة أخرى لكتاب أى بينت بالأحكام والقصص والمواعظ والأخبار : نجما نجما ، وفصلا فصلا ، وقال الحسن : أحكمت بالأمر والنهى ، ثم فصلت بالوعظ والوعيد ، ومعنى « ثم » فى قوله تعالى « ثم فصلت » ليس للتراخى فى الوقت لكن فى الحال ، كما تقول : هى محكمة أحسن الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل ، وفلان كريم الأصل ثم كريم الفعل « من لدن حكيم خبير » أى الله تعالى ، صفة أخرى للكتاب والتقدير : الر كتاب من حكيم خبير ، أو خبر بعد خبر ، والتقدير : الر من لدن حكيم خبير ، أو صلة لأحكمت ، وفصلت ـ أى أحكمت ـ من لدن حكيم خبير ، وعلى هذا التقدير قد حصل بين أوائل هذه السورة وبين آخر ما قبلها مناسبة لطيفة ، كأنه تعالى يقول : أحكمت آياته من لدن حكيم ، وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الأمور .. « أن لاتعبدوا إلا الله » يحتمل وجوها :

الأول : التقدير : كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لأجل أن لا تعبدوا إلا الله .

الثانى : أن تكون مفسرة ؛ لأن فى تفصيل الآيات معنى القول الذى تضمنه قوله تعالى « أن لا تعبدوا » .

الثالث : أن يكون كلاماً مبتدأ منقطعاً عما قبله على لسان النبى صلى الله عليه وسلم إغراء منه على اختصاص الله تعالى بالعبادة ، ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « إننى لكم منه » أى من الله « نذير » بالعقاب على الشرك « وبشير » بالثواب على التوحيد ، كأنه قال : تركوا عبادة غير الله تعالى بمعنى اتركوها إننى لكم منه نذير وبشير ، وهذه الآية الكريمة مشتملة على أشياء مترتبة بعضها على بعض :

الأول : أنه تعالى أمر أن لا نعبد إلا الله لأن ما سواه محدث مخلوق مربوب ، وإنما حصل بتكوين الله وإيجاده ، والعبادة عبارة عن إظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل ، وذلك لا يليق إلا بالخالق المدبر الرحيم المحسن ، فثبت أن عبادة غير الله تعالى كفر وشرك .

المرتبة الثانية : قوله تعالى : « وأن استغفروا ربكم » .

المرتبة الثالثة : قوله تعالى « ثم توبوا إليه » . واختلفوا فى بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه :

الأول : أن معنى قوله تعالى : « وأن استغفروا ربكم » أى اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ، ثم بين الشىء الذى يطلب به ذلك وهو التوبة ، فقال : « ثم توبوا إليه » لأن الداعى إلى التوبة والمحرك عليها هو الاستغفار الذى هو عبارة عن طلب المغفرة ، فالاستغفار مطلوب بالذات ، والتوبة مطلوبة لكونها من أمهات الاستغفار ، وما كان آخرا فى الحصول كان أولا فى الطلب ، فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة .

الثانى : « وأن استغفروا » من الشرك والمعاصى « ثم توبوا » أى ارجعوا إليه بالطاعة .

الثالث : الاستغفار طلب من الله تعالى لإزالة مالا ينبغى ، والتوبة سعى من الإنسان فى إزالة ما لا ينبغى ، فقدم الاستغفار ليدل على أن المؤمن يجب عليه أن لا يطلب الشيء إلا من الله ، فإنه هو الذى يقدر على تحصيله ، ثم ذكر التوبة ، لأنه عمل يأتى به الإنسان ويتوصل به إلى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى يتقدم الاستعانة بسعى النفس .

ثم إنه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاث ، ذكر بعدها ما يترتب عليها من الآثار المطلوبة ، ومن المعلوم أن المطالب محصورة فى نوعين ، لأنه إنما يكون حصولها فى الدنيا أو فى الآخرة ، أما المنافع الدنيوية فهى المراد من قوله تعالى : « يمتعكم متاعا حسنا » أى بطيب عيش وسعة رزق « إلى أجل مسمى » وهو الموت ، قيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقال أيضا : خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل ، وقال تعالى: «ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة» ، وهذه النصوص دالة على أن نصيب المشتغل بالطاعات فى الدنيا هو الشدة والبلية ، ومقتضى هذه الآية أن نصيب المشتغل بالطاعة الراحة فى الدنيا ، فكيف الجمع بينهما ؟ والجواب أن المشتغل بعبادة الله تعالى ومحبته مشتغل بحب شيء يمتنع تغييره وزواله وفناؤه ، فكلما كان إمعانه فى ذلك الطريق أكثر كان انقطاعه عن الخلق أتم ، وكلما كان الكمال فى هذا الباب أكثر كان الابتهاج والسرور أكمل؛ لأنه أمن من تغير مطلوبه وأمن زوال محبوبه ، وأما من كان مشتغلا بحب غير الله تعالى كان أبدا فى الألم والخوف من فوات المحبوب وزواله ، وكان عيشه منغصا وقلبه مضطربا ، ولذلك قال تعالى فى صفة المشتغلين فى خدمته : « فلنحيينه حياة طيبة » ، وقيل : المراد بالمتاع الحسن عدم العذاب بعذاب الاستئصال ، كما استأصل أهل القرى الذين كفروا ، وسمى سبحانه وتعالى منافع الدنيا بالمتاع لأجل التنبيه على حقارتها وقلتها ، ونبه تعالى على كونها منقضية بقوله تعالى : « إلى أجل مسمى » ، فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية ، وأما المنافع الأخروية فقد ذكرها تعالى بقوله تعالى: «ويؤت»

فى الآخرة «كل ذى فضل» أى فى العمل «فضله» أى جزاءه ، ومراتب السعادة فى الآخرة مختلفة لأنها مقدورة بمقدار الدرجات الحاصلة فى الدنيا ، فالإعراض عن غير الحق والإقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية ، قال تعالى : «ويؤت كل ذى فضل فضله» . وقال أبو العباس : من كثرت طاعاته فى الدنيا زادت درجاته فى الآخرة ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار ، ومن استوت سيئاته وحسناته كان من أهل الأعراف ثم يدخلون الجنة ، وقال ابن مسعود : من عمل سيئة كتبت له سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات.. «وإن تولوا» فيه حذف إحدى التاءين ، أى وإن تعرضوا عما جئتكم به من الهدى «فإنى» أى فقل لهم إنى «أخاف عليكم عذاب يوم كبير» هو يوم القيامة ، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل، وقيل: يوم الشدائد ، وقيل : ابتلوا بالقحط حتى كادوا يهلكون «إلى الله مرجعكم» أى رجوعكم فى ذلك اليوم ، فيثيب المحسن على إحسانه ويعاقب المسىء على إساءته «وهو على كل شىء قدير» أى قادر على جميع المقدورات لا دافع لقضائه ولا مانع لمشيئته ومنه الثواب والعقاب ، وفى ذلك دلالة على قدرة عالية وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف لهذا العبد ، والملك القاهر العالى إذا رأى عاجزاً مشرفا على الهلاك فإنه يخلصه من الهلاك ، ومنه المثل المشهور : ملكت فاسجح ، أى فاعف ، «ألا إنهم يثنون صدورهم» اختلف المفسرون فى سبب نزول هذه الآية : فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : نزلت فى الأخنس بن شريق - وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر ، يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوى بقلبه على ما يكره ، فمعنى قوله تعالى «يثنون صدورهم» يخفون ما فى صدورهم من الشحناء والعداوة ، وقال عبد الله بن شداد : نزلت فى بعض المنافقين ، كان إذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كى لا يراه النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال قتادة : كانوا يحنون ظهورهم كى لا يسمعوا كلام الله تعالى ولا ذكره ، وقيل : كان الرجل

من الكفار يدخل بيته ، ويرخي ستره ، ويتغشى بثوبه ويقول : هل يعلم الله ما في قلبي ؟ وقال السدى : « يثنون صدورهم » أى يعرضون بقلوبهم ، من قولهم : ثنيت عنانى . . « ليستخفوا منه » أى من الله تعالى بسرهم فلا يطلع رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عليه ، وقيل : من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قيل: إنها نزلت فى طائفة من المشركين قالوا : إن أرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم ؟ « ألا حين يستغشون ثيابهم » أى يأوون إلى فراشهم ويتغطون بثيابهم « يعلم » تعالى « ما يسرون » فى قلوبهم « وما يعلنون » بأفواههم ، أى إنه لا تفاوت فى علمه تعالى بين إسرارهم وإعلانهم ، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الإخفاء . « إنه » تعالى « عليم بذات الصدور » أى بالقلوب وأحوالها .

الربع الثانى من سورة هود

٦ — وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ .

٧ — وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

٨ — وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ .

٩ — وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ

كَفُورٌ .

١٠ — وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ .

١١ — إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ .

١٢ — فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

هذه الآيات السبع هن مطلع الربع الثانى من سورة هود ، بناء على التجوز الذى تجوزناه فى عد الآيات الخمس السابقة ربعا مستقلا ، وهى فى الحقيقة تكملة لآخر سورة يونس . . وفى هذه الآيات السبع تمجيد لله عز وجل ما بعده من تمجيد ، وبيان لعظمة قدرته ، وسعة ملكه ، ولقدرته التامة الكاملة على البعث الذى يستهزىء به المشركون والكافرون . . وفى هذه الآيات بيان لحلم الله العظيم على هؤلاء المشركين ، وكيف يقابلون النعمة بالكفر ، والخير بالشر ، والحسنة بالسيئة ، أما المؤمنون الصابرون الطائعون فلهم ثواب الله ومغفرته ورزقه الكريم . . وفى آخر هذه الآيات يصف الله عز وجل عنت المشركين ، واقتراحاتهم الكثيرة على الرسول ، وطلبهم الآيات منه ، ويخفف الله عن رسوله ما يلقاه فى سبيل ذلك من الهم والحزن وضيق الصدر ، ويقول له : لا تبتئس ، فإنما أنت نذير لقومك ، والله هو الذى يتولى أمرهم ، وهو على كل شىء وكيل . قال تعالى « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » فذكر تعالى أن رزق كل إنسان أو حيوان إنما يصل إليه من

الله تعالى ، والدابة اسم لكل حيوان دب على وجه الأرض ، وأقسام الحيوانات وأنواعها كثيرة ، وهى الأجناس التى تكون فى البر والبحر والجبال ، والله تعالى عالم بكيفية طباعها وأعضائها وأحوالها وأغذيتها ومساكنها وما يوافقها ويخالفها ، فالإله المدبر لأطباق السموات والأرض ولطبائع الحيوانات والنبات كيف لا يكون عالما بأحوالها ، وكلمة « على » تدل على الوجوب فكأن إيصال الرزق إلى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد والإحسان ، وحملا على التوكل فيه ، وفى هذه الآية دليل على أن الرزق قد يكون حراما ، لأنه ثبت أن إيصال الرزق إلى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد ، فالله تعالى لا يخل به ، ثم نرى أن إنسانا لا يأكل من الحلال طول عمره ، فلو لم يكن الحرام رزقا لكان الله تعالى ما أوصل رزقه إليه ، فيكون الله تعالى قد أخل بالواجب وذلك محال ، فعلمنا أن الحرام قد يكون رزقا « ويعلم » تعالى « مستقرها » قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : هو المكان الذى تأوى إليه وتستقر فيه ليلا ونهاراً « ومستودعها » هو الذى تدفن فيه إذا ماتت ، وقال ابن مسعود : المستقر أرحام الأمهات والمستودع أصلاب الآباء ، وقيل : الجنة أو النار والمستودع القبر لقوله تعالى فى صفة الجنة والنار « حسنت مستقرا ومقاما » ولا مانع أن يفسر ذلك بهذا كله « كل » أى كل واحدة من الدواب ورزقها ومستودعها « فى كتاب » أى ذكرها مثبت فى اللوح المحفوظ « مبين » أى بين كما قال تعالى « ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » ؛ ولما أثبت تعالى بالدليل المتقدم كونه عالما بالمعلومات أثبت كونه تعالى قادرا على كل المقدورات بقوله تعالى « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء » المراد من العرش هنا كما نرجح : الأرض التى يتجلى عليها أمر الله « ليبلوكم » متعلق بخلق ، أى خلقها وما فيها من منافع ومصالح ليختبركم وهو أعلم بكم منكم « أيكم أحسن عملا » وهذا لقيام الحجة عليهم ، وقد مر أمثال ذلك ، ولما بين تعالى أنه إنما خلق هذا العالم لأجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم ، وهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر ، لأن الابتلاء والامتحان يوجب

تخصيص المحسن بالرحمة والثواب وتخصيص المسيء بالعقاب ، وذلك لايتم إلا مع الاعتراف بالمعاد والقيامة ؛ خاطب تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم فقال تعالى : « ولئن قلت » يامحمد لهؤلاء الكفار من قومك « إنكم مبعوثون من الموت » أى للحساب والجزاء « ليقولن الذين كفروا إن هذا » أى القرآن أو البعث أوالذى تقوله « إلاسحر مبين » أى بين « ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى » مجيء « أمة » أى جماعة من الأوقات « معدودة » أى قليلة « ليقولن » أى استهزاء « ما يحبسه » أى مايمنعه من الوقوع قال الله تعالى « ألا يوم يأتيهم » كيوم بدر « ليس مصروفا عنهم » أى مدفوعا العذاب « وحاق » أى نزل « بهم » من العذاب « ماكانوا به يستهزئون » أى الذى كانوا يستعجلون ، لأن استعجالهم كان استهزاء ، وقال تعالى : « وحاق » على لفظ الماضى مع أن ذلك لم يقع ، والجواب أنه وضع الماضى موضع المستقبل تحقيقا ومبالغة فى التأكيد والتهديد ، ولما ذكر تعالى أن عذاب الكفار وإن تأخر إلا أنه لابد وأن يحيق بهم ، ذكر بعده ما يدل على كفرهم وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب بقوله تعالى : « ولئن أذقنا » أى أعطينا « الإنسان » أى الكافر « منا رحمة » أى نعمة كغنى وصحة بحيث يجد لذاتها « ثم نزعناها » أى سلبنا تلك النعمة « منه إنه ليؤوس » أى قنوط من رحمة الله تعالى لقلة صبره وعدم ثقته به « كفور » أى جحود لنعمتنا عليه ، وأما المسلم الذى يعتقد أن تلك النعمة من جود الله تعالى وفضله وإحسانه، فانه لايحصل له اليأس بل يقول: لعله تعالى يردها على بعد ذلك أحسن وأكمل وأفضل مما كانت « ولئن أذقناه » أى الكافر « نعماء بعد ضراء مسته » كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم . والنعمة تصدر من الله تعالى تفضلا منه لخبر: ما أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى .. قيل ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا . . أما الضر فصادر من العبد كسبا ، قال تعالى ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، ولا ينافى ذلك قوله تعالى : « قل كل من عند الله » فإن الكل منه إيجاداً ، غير أن الحسنة إحسان وامتحان والسيئة مجازاة وانتقام ، لخبر : ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة

يشاكها وحتى انقطاع شعث نعله إلا بذنب ، وما يعفو عنه الله أكثر « ليقولن » أى الذى أصابه الصحة والغنى « ذهب السيئات » أى المصائب « عنى أنه لفرح » أى فرح بطر « فخور » على الناس بما أذاقه الله تعالى من نعمائه ، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر ، فبين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن أحوال الدنيا غير باقية ، بل هى أبداً فى التغير والزوال والتحول والانتقال، فإن الإنسان إما أن يتحول من النعمة إلى المحنة ومن اللذات إلى الآفات كالقسم الأول ، وإما أن يكون بالعكس من ذلك، وهو أن ينتقل من المكروه إلى المحبوب كالقسم الثانى .

ولما بين تعالى أن الكافر عند الابتلاء لا يكون من الصابرين ، وعند الفوز بالنعمة لا يكون من الشاكرين ، بين حال المتقين بقوله تعالى « إلا » أى لكن « الذين صبروا » على الضراء « وعملوا الصالحات » فى النعماء ، فإنهم إن أصابتهم شدة صبروا وإن نالتهم نعمة شكروا « أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » فجمع لهم تعالى بين هذين المطلوبين : أحدهما زوال العقاب والخلاص منه ، وهو المراد من قوله تعالى « لهم مغفرة » ، والثانى الفوز بالثواب ودخول الجنة ، وهو المراد من قوله تعالى «وأجر كبير» .. «فلعلك» يامحمد «تارك بعض ما يوحى إليك » فلا تبلغهم إياه لتهاونهم به ، فانهم كانوا يستهزئون بالقرآن ويضحكون منه « وضائق به صدرك » أى بتلاوته عليهم لأجل « أن يقولوا لولا » أى هلا « أنزل عليه كنز » ينفقه فى الاستمتاع كالملوك « أو جاء معه ملك » يصدقه كما اقترحنا ، وروى عن ابن عباس أن رؤساء مكة قالوا : يامحمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا ، وقال آخرون : ائتنا بالملائكة ليشهدوا بنبوتك، فقال: لا أقدر على ذلك، فنزل «إنما أنت نذير» فلا عليك إلا البلاغ لا الإتيان بما اقترحوه « والله على كل شىء وكيل » وهو عالم بحالهم وبأعمالهم وأفعالهم ومجازيهم بها .

١٣ — أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَٰتٍ

وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ .

١٤ — فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ .

١٥ — مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ .

١٦ — أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

١٧ — أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

١٨ — وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ .

١٩ — ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ .

٢٠ — أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ .

٢١ — أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ .

٢٢ — لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ .

٢٣ — إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ .

فى هذه الآيات الإحدى عشرة تحد بالقرآن الكريم سبق مثله فى سورة يونس، كما سبق نظير له فى سورة البقرة ، وفى هذا التحدى تكذيب للمشركين فى افتراءاتهم على الرسول وعلى القرآن الكريم ، وقد سجل الله عز وجل عليهم فى الآية الثانية عجزهم أمام هذا التحدى القوى ، وفى الآيتين الثالثة والرابعة يذكر الله عزوجل أن المشركين همهم الدنيا ، يعملون لها ، وليس لهم حظ إلا الدنيا ، أما الآخرة فلهم فيها النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون. وفى الآية الخامسة يؤكد الله عز وجل سوء ما صنع المشركون. وأنهم كذبوا برسالة محمد الظاهرة الواضحة التى أيدتها التوراة ، كما بشر بها الإنجيل . والكافرون برسالة محمد وبالقرآن موعدهم النار ، لأنهم شكوا فيما لا يصح الشك فيه ولا الريبة منه ، إنه الحق والصدق ، وإن القرآن لهو كتاب الله العلى العظيم ، وفى الآية السادسة يؤكد الله عز وجل أنه لو كان محمد قد افترى القرآن لكان له أشد ألوان العذاب ، فليس هناك أظلم للحق ولا للإنسانية ولا للنفس من الذين يفترون على الله الكذب ، بل إنه ليشار إليهم يوم القيامة ويقال لهم : ألا لعنة الله على الظالمين . . وفى الآيات الباقية يذكر الله عز وجل المشركين وشركهم ، ويصفهم بأنهم خسروا أنفسهم فى الدنيا ، وهم فى الآخرة أشد خسرانا ، أما المؤمنون الطائعون الصالحون فهم أصحاب الجنة ، وهم فيها خالدون ؛ ويصفهم الله عز وجل بصفاتهم ، كما يصف المشركين بصفاتهم أيضا .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة :

« أم » أى بل « يقولون »أى كفار مكة « افتراه » أى اختلقه من تلقاء نفسه وليس هو من عند الله ، قال الله تعالى : «قل» لهم يا محمد «فأتوا بعشر سور مثله» فى البيان وحسن النظم « مفتريات » قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : هذه السور التى وقع بها هذا التحدى معينة ، وهى : سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة ويونس وهود ، وقيل: التحدى وقع بمطلق السور وهو متقدم على التحدى بسورة واحدة ، والتحدى بسورة واحدة وقع فى سورة البقرة وفى سورة يونس ، لأن كل واحدة من هاتين السورتين مكية فتكون سورة هود متقدمة فى النزول على سورة يونس كما قاله الرازى ، وأنكر المبرد هذا وقال : بل سورة يونس أولا ، وقال : معنى قوله تعالى فى سورة يونس : فأتوا بسورة مثله ، أى مثله فى الخبر عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد، فعجزوا ، فقال فى سورة هود : وإن عجزتم عن الإتيان بسورة مثله فى الإخبار والأحكام والوعد والوعيد فأتوا بعشر سور من غير وعد ولا وعيد . . والصحيح عدم التعيين ، فى السور المتحدى بها وعدم تعيين التحدى بسورة .. « وادعوا » أى وقل لهم يا محمد : ادعوا للمعاونة على ذلك «من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين» فى أنه مفترى « فإن لم يستجيبوا لكم » أى بإتيان ما دعوتموهم إليه «لكم:أى للنبى صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، لأنه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدونهم ، وقال تعالى : فى موضع آخر : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم » ، والتعظيم للنبى صلى الله عليه وسلم « فاعلموا أنما أنزل » ملتبسا « بعلم الله » أى بما لا يعلمه إلا الله تعالى من نظم يعجز الخلق وإخبار بالغيوب لا سبيل لهم إليه ولا يقدر على ذلك سواه « وأن » مخففة من الثقيلة أى وأنه « لا إله إلا هو » وحده وأن توحيده واجب والإشراك به ظلم عظيم « فهل أنتم مسلمون » أى ثابتون على الإسلام راسخون مخلصون فيه إن تحقق عندكم إعجازه مطلقا ؛ وقيل: الخطاب للمشركين والضمير فى « لم يستجيبوا لمن استطعتم » ، أى فإنه لم يستجب لكم من تدعوه من دون الله إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه، وأن طاقتهم

أقصر من أن تبلغه ، فاعلموا أنه منزل من عند الله وأن مادعاكم إليه من التوحيد حق، فهل أنتم بعد هذه الحجة القاطعة مسلمون « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها » أي بعمله الذي يعمل من أعمال البر « نوف إليهم أعمالهم » التي عملوها من خير كصدقة وصلة رحم « فيها » أي الدنيا « وهم فيها لا يبخسون » أي توصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا وهي مايرزقونه فيها من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد ونحو ذلك «أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط » أي بطل « ما صنعوا » أي عملوا « فيها » أي الآخرة فلا ثواب له « وبطل ما كانوا يعملون» لأنه لغير الله تعالى، واختلف في سبب نزولها ، فقال مجاهد : نزلت في أهل الرياء قال صلى الله عليه وسلم : إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا يارسول الله : وما الشرك الأصغر؟ قال : الرياء ، والرياء هو أن يظهر الإنسان الأعمال الصالحة ليحمده الناس ويعتقدوا فيه الصلاح ؛ فهذا هو العمل الذي لغير الله ، وقال أكثر المفسرين : إنها نزلت في الكافر ، وأما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة ، وإرادته الآخرة غالبة ، فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ، وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها بالرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا ، وقيل: نزلت في المنافقين الذين يطلبون بغزوهم مع النبي صلى الله عليه وسلم الغنائم من غير الله يؤمنون بالآخرة وثوابها ، وقيل : في اليهود والنصارى وهو منقول عن أنس . . ولما ذكر تعالى الذين يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ذكر من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة بقوله تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه » قيل هو النبي صلى الله عليه وسلم ، والبينة هي القرآن « ويتلوه » أي يتبعه « شاهد » بصدقه . « منه » أي من الله وهو جبريل عليه السلام « ومن قبله » أي القرآن « كتاب موسى » وهو التوراة شاهد له أيضاً « إماما ورحمة » أي على المنزل عليهم ، والجواب محذوف لظهوره ، والتقدير : أفمن كان على بينة من ربه كمن

يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم فى الآخرة إلا النار ، ليس مثله ، بل بينهم تفاوت وتباين بين ؛ وقيل : هو من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره، والمراد بالبينة هو البيان والبرهان ، والمراد بالشاهد القرآن ؛ ومنه أى من الله ، ومن قبله كتاب موسى أى فى دلالته على هذا المطلوب لا فى الوجود ، قال الرازى : وهذا القول هو الأظهر لقوله تعالى : « أولئك يؤمنون به » وهذه صفة جمع لا يجوز رجوعه إلى محمد صلى الله عليه وسلم ومن تبعه ، وربما يكون هذا أولى كما جرى عليه بعض المفسرين ، والإشارة إلى من كان على بينة والضمير فى (به) للقرآن ، وإذا كان هذا الفريق ليس له فى الآخرة إلا النار فهذا الفريق ليس له فى الآخرة إلا الجنة « ومن يكفر به » أى بالنبى صلى الله عليه وسلم أو القرآن « من الأحزاب » أى أصناف الكفار فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس « فالنار موعده » يعنى فى الآخرة ، روى سعيد بن جبير عن أبى موسى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: لا يسمع بى يهودى ولا نصرانى فلا يؤمن بى إلا كان من أهل النار ، قال أبو موسى : فقلت فى نفسى : إن النبى صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا إلا عن القرآن ، فوجدت الله تعالى يقول: « ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » قال بعض العلماء : ولما دلت الآية على أن من كفر به فالنار موعده ، دلت أيضاً على أن من لا يكفر به كانت الجنة موعده ، قال الله تعالى : « فلا تك فى مرية » أى شك « منه » أى القرآن أو الموعد « أنه الحق من ربك » الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد غيره لأنه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » أى لا يصدقون بما أوحينا إليك من القرآن أو من وعيد الكفار بالنار ، ثم وصف الله تعالى هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة فى معرض الذم :

الصفة الأولى : كونهم مفترين على الله تعالى كما قال تعالى « ومن » أى لا احد « أظلم ممن افترى على الله كذبا » بنسبة الشريك والولد إليه ، أو بأن أسند إليه ما لم ينزله ، أو ينفى عنه ما أنزله .

الصفة الثانية : أنهم يعرضون على الله تعالى فى موقف الذل والهوان ، كما قال تعالى : « أولئك يعرضون على ربهم » أى يوم القيامة ، وهم وإن كانوا لايختصون بهذا العرض لأن العرض عام فى كل العباد كما قال تعالى « وعرضوا على ربك صفا » ، إلا أنهم يعرضون ليفتضحوا بشهادة الأشهاد عليهم ، كما قال تعالى « ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم » فيحصل لهم من الخزى والنكال مالامزيد عليه ، وهذه هى الصفة الثالثة . واختلف فى هؤلاء الأشهاد فقال مجاهد : هم الملائكة الذين يحفظون أعمالهم عليهم فى الدنيا ، وقال مقاتل : هم الناس ، كما يقال : على رؤوس الأشهاد ، أى على رؤوس الناس . وقال قوم : هم الأنبياء ، كما قال الله تعالى : فلنسألن الذين ، أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ، والفائدة فى اعتبار قول الأشهاد المبالغة فى إظهار الفضيحة فإن قيل : العرض على الله تعالى يقتضى أن يكون الله تعالى فى حيز ، وهو منزه عن ذلك ، أجيب بأنهم يعرضون على الأماكن المعدة للحساب والسؤال ، ويكون ذلك عرضاً على من يوبخ بأمر الله تعالى من الأنبياء والمؤمنين . والأشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب ، أو جمع شهيد كشريف وأشراف ، قال أبو على الفارسى : وكان هذا أرجح ، لأن ما جاء فى ذلك فى التنزيل جاء على فعيل ، كقوله تعالى : وجئنا بك شهيدا . . وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يدنى المؤمن يوم القيامة فيستره من الناس فيقول : اى عبدى، تعرف ذنب كذا وكذا ؟ فيقول نعم: حتى إذا أقر بذنوبه قال تعالى : سترتها عليك فى الدنيا وقد سترتها عليك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكافر والمنافق فتقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . . ولما أخبر الله تعالى عن حالهم فى عقاب القيامة أخبر عن حالهم فى الحال بقوله تعالى: « ألا لعنة الله على الظالمين » فبين الله تعالى أنهم فى الحال ملعونون من عند الله، وهذه هى الصفة الرابعة .. ثم وصفهم بالصفة الخامسة بقوله تعالى: « الذين يصدون عن سبيل الله » أى دينه . . ثم وصفهم بالصفة السادسة بقوله تعالى: « ويبغونها » أى يطلبون السبيل إليها « عوجا » أى معوجة أى كأنهم ظلموا أنفسهم بالتزام الكفر والضلال ، فقد أضافوا اليه المنع من

الدين الحق وإلحاق الشبهات وتعويج الدلالات المستقيمة، لأنه لا يقال فى العامى: إنه يبغى عوجا ، وإنما يقال ذلك فى من يعرف كيف الاستقامة وكيف يكون العوج بسبب إلقاء الشبهات وتقرير الضلالات . . ثم وصفهم بالصفة السابعة بقوله تعالى « وهم » أى والحال أنهم « بالآخرة هم كافرون » وتكرير لفظ (هم) لتأكيد كفرهم وتماديهم فيه .. الصفة الثامنة : كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله تعالى كما قال تعالى « أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض » أى ما كانوا معجزين الله تعالى فى الدنيا أن يعاقبهم أى لا يمكنهم أن يهربوا من عذابه ، فإن هرب العبد من عذاب الله تعالى محال ؛ لأنه تعالى قادر على جميع الممكنات ولا تتفاوت قدرته بالقرب والبعد والقوة والضعف . . والصفة التاسعة أنهم ليس لهم أولياء يدفعون عقاب الله تعالى عنهم كما قال تعالى : « وما كان لهم من دون الله » أى غيره « من أولياء » أى أنصار يمنعونهم من عذابه . والصفة العاشرة مضاعفة العذاب لهم كما قال تعالى «يضاعف لهم العذاب » أى بسبب إضلالهم غيرهم ، وقيل : لأنهم كفروا بالله وكفروا بالبعث والنشور . . الصفة الحادية عشرة قوله تعالى « ما كانوا يستطيعون السمع » قال قتادة : صم عن سماع الحق فلا يسمعون خيرا فينتفعون به «وما كانوا يبصرون » خيراً فيأخذون به ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أخبر الله تعالى أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعة الله فى الدنيا بقوله تعالى « ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون » . . الصفه الثانية عشرة قوله تعالى « أولئك الذين خسروا أنفسهم » فانهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان مصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم، وذلك أعظم وجوه الخسران .. الصفة الثالثة عشرة: قوله تعالى « وضل » أى غاب « عنهم ما كانوا يفترون » على الله تعالى ، من دعوى الشريك وأن الآلهة تشفع لهم . . الصفة الرابعة عشرة قوله تعالى : « لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون» أى لا أحد أبين وأكثر خسرانا منهم، قال الفراء : (لاجرم) بمنزلة قولنا « لابد ولا محالة » ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى « حقا » . وقال الزجاج : كلمة « لا » نفى لما ظنوا أنه ينفعهم و « جرم » معناه كسب ذلك

الفعل ، ومعناه لاينفعهم ذلك وهو كسب ذلك الفعل ، لأن لهم الخسران فى الدنيا والآخرة ، قال الزهرى : وهذا من أحسن ماقيل فى هذا الباب ، وقال سيبويه « لا » رد على أهل الكفر كما مر ، و « جرم » معناه أحق ، والمعنى: إنه حق، كفرهم ووقوع العذاب والخسران بهم ، ولما ذكر تعالى عقوبة الكافرين وخسرانهم أتبع ذلك بذكر أحوال المؤمنين فى الدنيا وربحهم فى الآخرة بقوله تعالى: « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم » أى اطمأنوا اليه وخشعوا إليه ، إذ الإخبات فى اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ويتعدى بالألف واللام ، فإذا قلت (أخبت له) فمعناه خشع وخضع له ، فقوله تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » إشارة إلى جميع عمل الجوارح ، وقوله تعالى « وأخبتوا » إشارة إلى أعمال القلوب وهى الخشوع والخضوع لله تعالى ، وأن هذه الأعمال الصالحة لا تنفع فى الآخرة إلا بحصول أعمال القلب وهى الخشوع والخضوع « أولئك » أى الذين هذه صفتهم « أصحاب الجنة هم فيها خالدون » فأخبر الله تعالى عن حالهم فى الآخرة بأنهم من أهل الجنة التى لا انقطاع لنعيمها ولا زوال .

هذا هو الربع الثانى من سورة هود ، وقد تضمن هذا الربع ما تضمن من أصول :

١ — وفى مقدمة ما تضمنه هذا الجزء إثبات فضل الله عز وجل على البشر كافة ، بتقرير أنه وهبهم الرزق ، وأعانهم على شئون الحياة . . وإثبات علمه الواسع ، وقدرته الباهرة .

٢ — النعى على المشركين الذين لاشك أنهم عرفوا قدرة الله القادرة ، ثم أنكروا البعث وهزئوا به ، وقالوا : « إن هذا إلا سحر مبين » ويتهكم الله عز وجل بالمشركين فيقول : إنهم كانوا يستعجلون العذاب فى الدنيا ، فليذوقوا العذاب فى الآخرة يوم يأتيهم لا يصرف عنهم ، وأحاط بهم، ونزل بهم، ما كانوا به يستهزئون .

٣ — بيان طبيعة الإنسان والنفس الإنسانية التى تفزع لذهاب النعم ، وتكفر إن نزلت بالإنسان حسنة مكان السيئة ، وبيان أنه لا يخرج على هذه الطبيعة إلا المؤمنون حقا الذين جاهدوا أنفسهم وجاهدوا شهواتهم وأهواءهم وصبروا وعملوا الصالحات ، ممن كتب الله لهم المغفرة والرحمة والخير والأجر الكبير .

٤ — تحدى العرب والمشركين بالقرآن الكريم ، لا به كله ، بل ببعضه وأن يأتوا بعشر سور مثله ، بما يزعمون أن محمدا افتراه واختلقه ، محمد بشر، وهم بشر مثله ، وإذا كان محمد قادرا على اختلاق القرآن فهم بشر مثله ، وهم باجتماعهم أقدر على مالا يقدر عليه محمد وحده ، وإذا كانوا عاجزين عن قبول هذا التحدى ثبت أن القرآن كتاب الله ، وأنه منزل على محمد عليه الصلاة والسلام برسالة من السماء ، ووجب إسلامهم بهذه الرسالة الجليلة . إن الذين لا يؤمنون بها ، ويريدون الحياة الدنيا وزينتها وباطلها وحده ، لهم فى الدنيا ما يريدون ، أما الآخرة فليس لهم فيها إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وبطل ما كانوا يعملون ، إن الكافرين برسالة محمد وبالقرآن شأنهم عجيب غريب ، إنهم يكفرون برسالة الله ، وبمحمد وهو على بينة من الله ، ومعجزات الله معه ، ومن قبله كتاب موسى ، ومن يكفر به فالنار موعده ، لأنه الحق من الله ، وأكثر الناس لا يؤمنون ، أما المؤمنون فهم الذين كانوا مع الحق ، وكانوا من خدام هذه الرسالة العالية ، وأولئك هم أصحاب الجنة ، وهم فيها خالدون . . إن محمدا لو افترى على الله شيئا لكان كاذبا ، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب ، وقد وصف الله عز وجل هؤلاء الكاذبين بصفات كثيرة ، تبين ضلالهم وإضلالهم واستحقاقهم للعذاب الذى يصب على رؤوسهم يوم القيامة ، ولا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات وخشعوا وأنابوا إلى الله فأولئك أصحاب الجنة وهم فيها خالدون . . . وخلاصة ذلك كله هى الدعوة إلى الإيمان بالقرآن الكريم لينجو المؤمن به من عذاب الدنيا والآخرة .

الربع الثالث من سورة هود

٢٤ — مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

هذه الآية الكريمة صورة حقيقية واضحة للكافرين والمؤمنين ، للكافرين برسالة محمد وبالقرآن الكريم وللمؤمنين بها ، وقد مثل الله عز وجل للكافرين بها بالأعمى والأصم ، والمؤمنين بها بالبصير والسميع .. وما أروعه من مثل ، وما أعجبه من تصوير ، وما أبدعه من وصف .. المؤمن كالإنسان الذى يرى ويسمع والكافر كالأعمى والأصم ؛ الأول إنسان له منزلته فى الحياة الإنسانية ، والثانى إنسان فقد متعة الحياة وبهجتها وفقد القدرة على العمل فيها ، الأول إنسان يسعى إلى هدف ورسالة ، والثانى لا هدف ولا رسالة له .

ولما ذكر الله تعالى أحوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الحق ومن الصمم عن سماعه وذلك أحوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة ـ ذكر فى هذه الآية مثالا مطابقا بقوله تعالى «مثل» أى صفة «الفريقين» أى الكفار والمؤمنين «كالأعمى والأصم» هذا مثل الكافر شبه بالأعمى لتعاميه عن آيات الله وبالأصم لتعاميه عن استماع كلام الله تعالى ، أو شبه بالأعمى لفقده أسباب النظر إلى الأشياء واستخراج الدليل منها على قدرة الله ووجوده ، وشبه بالأصم لأنه فقد قوة السمع التى توصل إليه الخير دائما «والبصير والسميع» هذا مثل المؤمن ، شبه بالبصير والسميع لأن أمره بالضد من الكافر ، فيكون كل منهما مشبها باثنين باعتبار وصفين ، «هل يستويان» أى هل يستوى الفريقان «مثلا» أى تشبيها ، أى لا يستويان «أفلا تذكرون» أى تتعظون بضرب الأمثال والتأمل فيها .. وقد جرت عادة الله بأنه إذا أورد على الكفار أنواع الدلائل أتبعها بالقصص ليكون ذكرها مؤكداً لتلك الدلائل ، وفى هذه السورة ذكر لقصص كثيرة من قصص العصاة ، والقصة الأولى منها هى قصة نوح عليه السلام .

٢٥ — وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

٢٦ — أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ .

٢٧ — فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ، وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ .

٢٨ — قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ؟ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ؟

٢٩ — وَيَٰقَوْمِ لَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ، وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ ، وَلَٰكِنِّى أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ .

٣٠ — وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟

٣١ — وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ، ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ .

٣٢ — قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ .

٣٣ — قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ .

٣٤ — وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُمْ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

٣٥ — أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ، قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ، وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ .

٣٦ — وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

٣٧ — وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ .

٣٨ — وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ .

٣٩ — فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ .

٤٠ — حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ، وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ، وَمَنْ ءَامَنَ ، وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ .

هذه الآيات الكريمة الست عشرة تصور قصة نوح عليه السلام مع قومه ، دعوته إياهم إلى الإيمان برسالته ، وسخريتهم منه لأنه بشر مثلهم ، ولأن أتباعه من فقراء الناس ، وتماديهم فى العناد والمقاومة والكفر ، وطلبهم من نوح أن ينزل بهم العذاب الذى يعدهم به إن كان من الصادقين ، وتعليم الله إياه صناعة السفن ، وصناعته لسفينة يركبها وينجو بها من الطوفان هو ومن آمن به ؛ وسخرية قومه منه وهو يصنع السفينة ، فلما أتم صنعها ، وبدأ الطوفان بدايته الأولى بأن فارت عين من عيون الماء من جوف الأرض أو من جوف تنور ، ليكون فورانها آية أخرى لنوح ، ودليلا على أن الله قادر أن يفجر الماء من بين اللهب ، حمل نوح من كل زوجين فى الأرض اثنين ، ليتوالدوا ولتنمو الحياة مرة أخرى ، وحمل معه المؤمنين من أهله وقومه ، وما آمن معه بالله إلا قليل .

وفى الكتاب المقدس ذكر لقصة نوح ، الشر كثر فى الأرض ، الله أنذر بمحو الإنسان من على ظهرها ، نوح كان رجلا صالحا ، وسار نوح مع الله ، وولد ثلاثة بنين : ساما وحاما ويافث ، وفسدت الأرض أمام الله ، وامتلأت ظلما ، ورأى الله الأرض فإذا هى قد فسدت ، إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض ، وصنع نوح الفلك ، ودخل الفلك هو وامرأته وبنوه ونساء بنيه معه ، ومعه من كل حى ذى جسد اثنان : ذكر وأنثى[1] وكان الطوفان ونوح عمره ستمائة سنة ، فانفجرت كل ينابيع الغمر العظيم ، وانفتحت طاقات السماء ، وكان المطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة . تكاثرت المياه ، ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض ، وسار على وجه المياه وكثرت المياه ، فغطت جميع الجبال الشامخة ، وهلك الناس إلا نوحا ومن معه فى السفينة ، وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوما[2] ، ثم هدأت

---

(١) الإصحاح السادس من سفر التكوين .

(٢) الإصحاح السابع من سفر التكوين .

المياه ؛ وانسدت ينابيع الغمر ، وطاقات السماء ، بعد مائة وخمسين يوما نقصت المياه ، واستقر الفلك على جبال أراراط[١] . وفى السنة الواحدة والستمائة من عمر نوح جفت المياه ، وخرج نوح هو ومن معه من الفلك[٢] وبارك الله نوحا وبنيه وقال لهم : أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض . وابتدأ نوح يكون فلاحا ، وغرس كرما ، وعاش نوح بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين عاما ، فكانت كل أيامه تسعمائة وخمسين عاما ومات[٣] .. هذه هى قصة نوح كما وردت فى الكتاب المقدس ، ولم يرد فيه بعض التفاصيل التى وردت فى القرآن الكريم . . قال الله عز وجل : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه أنى لكم » قرىء بفتح الهمزة أى بأنى ، وبكسرها على إرادة القول « نذير مبين » أى بين النذارة « أن لا تعبدوا إلا الله » بدل من (إنى لكم) أو مفعول (مبين) « إنى أخاف عليكم » أى إن عبدتم غيره « عذاب يوم أليم » أى مؤلم موجع فى الدنيا والآخرة ، قال ابن عباس : بعث نوح بعد أربعين سنة ، ولبث يدعو قومه تسعمائة سنة وخمسين سنة ، وقال مقاتل : بعث وهو ابن مائة سنة ، وقيل : وهو ابن خمسين سنة ، وقيل : وهو ابن مائتين وخمسين سنة ، ومكث يدعو قومه ثلاثمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة . . وحكى تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى ، وأنهم طعنوا فى نبوته بأنواع من الشبهات « فقال الملأ الذين كفروا من قومه » وهم الأشراف « ما نراك إلا بشرا مثلنا » هذه هى الشبهة الأولى أى إنك بشر مثلنا لا مزية لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة ، وإنما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلا منهم ، لأن الله تعالى إذا اصطفى عبداً من عباده وأكرمه بنبوته ورسالته وجب على من أرسله إليهم اتباعه .... الشبهة الثانية ما ذكره الله تعالى عنهم بقوله تعالى « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا »

---

(١) هى جبال (أرارات) فى أرمينيا ، ومنذ حين قرأنا أن بعثة أمريكية ذهبت لكشف سفينة نوح على هذا الجبل .

(٢) الإصحاح الثامن من سفر التكوين — ص ١٤ الكتاب المقدس

(٣) الإصحاح التاسع من سفر التكوين .

أى أسافلنا من الفقراء وعامة الناس ، وهو جمع أرذل بفتح الهمزة أو جمع أرذل بضم الذال جمع رذل بسكونها ، ثم قالوا : ولو كنت صادقا لاتبعك الأكابر من الناس والأشراف منهم ، وإنما قالوا ذلك جهلا منهم أيضاً ؛ لأن الرفعة بالدين واتباع الرسول لا بالمناصب العالية « بادى الرأى » أى اتبعوك فى أول الرأى من غير تثبت وتفكر فى أمرك ، ولو تفكروا ما اتبعوك ، ونصبه على الظرف أى وقت حدوث أول رأيهم .. الشبهة الثالثة ما ذكرها الله تعالى عنهم فى قوله تعالى : « وما نرى لكم علينا » أى لك ولمن اتبعك علينا « من فضل بل نظنكم كاذبين » فأنتم دوننا فى المال والشرف والجاه ، فكيف تستحقون الاتباع منا ؟ وهذا أيضا جهل منهم لأن الفضيلة المعتبرة عند الله تعالى بالإيمان والطاعة لا بالشرف والرئاسة ، وأدرجوا قومه معه فى الخطاب وقيل : خاطبوه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم ، وقيل : كذبوه فى دعوى النبوة وكذبوا قومه فى دعوى العلم بصدقه فغلب المخاطب على الغائبين ، ولما ذكروا هذه الشبهة لنوح عليه السلام « قال » لهم « يا قوم أرأيتم » أى أخبرونى « إن كنت على بينة » أى نبوة ورسالة « من ربى وآتانى رحمة » أى نبوة ورسالة « من عنده » أى من فضله وإحسانه « فعميت » أى خفيت وألبست «عليكم» أتى بالضمير للواحد ، إما لأن البينة فى نفسها هى الرحمة وإما لأن كل واحدة منها مقصودة « أنلزمكموها » أى أنكرهكم على قبولها « وأنتم لها كارهون » لا تختارونها ولا تتأملون فيها ، أى لا نقدر على ذلك « ويا قوم لا أسألكم عليه » أى على تبليغ الرسالة وهو وإن لم يذكر معلوم مما ذكر « مالا » أى جعلا تعطونى إياه « إن » أى ما « أجرى إلا على الله » أى ما ثواب تبليغى فإن المأمول منه « وما أنا بطارد الذين آمنوا » طلبوا من نوح عليه الصلاة والسلام أن يطرد الذين آمنوا وهم الأرذلون فى زعمهم فقال: ما يجوز لى ذلك « إنهم ملاقوا ربهم » أى بالبعث فيخاصمون طاردهم عنده ويأخذ لهم ممن ظلمهم وطردهم ، أو أنهم ملاقونه ويفوزون بقربه فكيف يكون لى طردهم « ولكنى أراكم قوما تجهلون » أى إن هؤلاء المؤمنين خير منكم

أوعاقبة أمرهم خير من عاقبة أمركم ، « ويا قوم من ينصرنى » أى يمنعنى « من الله » أى عقابه « إن طردتهم » عنى وهم مؤمنون مخلصون « أفلا » فهلا « تذكرون » أى تتعظون « ولا أقول لكم عندى خزائن الله » أى خزائن رزقه ، فكما أنى لا أسألكم مالا فكذلك لا أدعى أنى أملك مالا ولا لى غرض فى المال « ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك » فأتعاظم به عليكم حتى تقولوا : ما أنت إلا بشر مثلنا بل طريقتى التواضع والخضوع ، ومن كان هذا شأنه وطريقته كذلك فإنه لا يستنكف عن مخالطة الفقراء والمساكين ، ولا يطلب مجالسة الأمراء والسلاطين « ولا أقول للذين تزدرى » أى تحتقر « أعينكم » أى لا أقول فى حقهم « لن يؤتيهم الله خيراً » فإن ما أعد الله تعالى لهم فى الآخرة خير مما آتاكم فى الدنيا « الله أعلم بما فى أنفسهم » وهذا كالدلالة على أنهم كانوا يسبون أتباعه « إنى إذاً » أى إن فعلت ذلك « لمن الظالمين » لنفسى ومن الظالمين لهم . وأى ظلم أكبر من ذلك ؟ ممن يطرد المؤمنين من مجلسه ويحتقرهم . طعنوا فى أتباعه بالفقر ، فقال : ولا أقول لكم عندى خزائن الله حتى أجعلهم أغنياء ، وطعنوا فيهم أيضاً بأنهم منافقون ، فقال : ولا أعلم الغيب حتى أعرف ما فى باطنهم ، أى إنما تكليفى بظاهر الأحوال ، وطعنوا فيه أنه من البشر فقال : ولا أقول إنى ملك حتى تنفوا عنى ذلك ، وحينئذ فالآية ليس فيها دليل على تفضيل الملائكة على البشر ، فإن قيل : فى هذه الآية دلالة على أن طرد المؤمنين لطلب مرضاة الكفار من أصول المعاصى ، فكيف طرد محمد صلى الله عليه وسلم بعض فقراء المؤمنين لطلب مرضاة الله حتى عاتبه الله تعالى فى قوله : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى » والجواب أن الطرد المذكور فى هذه الآية محمول على الطرد المطلق على سبيل التأبيد ، والطرد المذكور فى واقعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم محمول على التبعيد فى أوقات معينة رعاية للمصلحة . . « قالوا يا نوح قد جادلتنا » أى خاصمتنا « فأكثرت جدالنا » فأطنبت فيه وهذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان قد أكثر فى الجدال معهم ، وذلك التجدد ما كان إلا فى إثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، وهذا يدل

على أن الجدال فى تقرير الدلائل وإزالة الشبهات حرفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وعلى أن التقليد والجهل حرفة الكفار ، «فأتنا بما تعدنا» من العذاب «إن كنت من الصادقين» فى الدعوة والوعيد ، فإن مناظرتك لا تؤثر فينا «قال»لهم نوح عليه السلام فى جواب ذلك: «إنما يأتيكم به الله إن شاء» تعجيله لكم، فإن أمره إليه إن شاء عجله وإن شاء أخره «وما أنتم بمعجزين» أى بفائتين الله تعالى ، «ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم» أى يضلكم، وجواب الشرط دل عليه قوله «ولا ينفعكم نصحى» وتقدير الكلام: إن الله تعالى يريد أن يغويكم، فإن أردت أن أنصح لكم ، فلا ينفعكم نصحى.. «هو ربكم» أى خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته «وإليه ترجعون» فيجازيكم على أعمالكم ، قال الله تعالى «أم» أى بل « يقولون افتراه» أى اختلقه وجاء به من عند نفسه ، والهاء ترجع إلى الوحى الذى بلغه اليهم « قل » لهم « إن افتريته فعلى إجرامى » ، المعنى : إن كنت افتريته فعلى عقاب جرمى ، وإن كنت صادقا وكذبتمونى فعليكم عقاب ذلك التكذيب ، إلا أنه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليها «وأنا برىء مما تجرمون » أى من عقاب جرمكم ، وأكثر المفسرين على هذا من بقية قول نوح عليه السلام مع قومه ، وقال مقاتل : أم يقولون ـ أى المشركون من كفار مكة افتراه ، أى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد جاء هذا الكلام فى أثناء قصة نوح عليه السلام واستبعد الرازى ذلك.. « وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك » أى لن يستمر على الإيمان لقوله تعالى :« إلا من قد آمن » قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : إن قوم نوح عليه الصلاة والسلام كانوا يضربون نوحا حتى يسقط فيلفونه فى لبد ويلقونه فى بيت يظنون أنه قد مات ، فيخرج فى اليوم الثانى ويدعوهم إلى الله تعالى ، « فلا تبتئس » أى لا تحزن عليهم فإنى مهلكهم « بما كانوا يفعلون » من الشرك وتنقذك منهم ، فحينئذ دعا عليهم نوح عليه والسلام ، فقال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، وحكى محمد بن اسحاق عن عبيد بن عمير الليثى أنهم كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال : رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ، حتى تمادوا

فى المعصية واشتد عليه منهم البلاء جيلا بعد جيل فما يأتى فى قرن إلا كان أنجس من الذين قبلهم ، ولقد كان يأتى القرن الآخر منهم ، فيقول : قد كان هذا الشيخ مع آبائنا وأجدادنا هكذا ، فلا يقبلون منه شيئا ، فشكا إلى الله تعالى وقال : « رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم » إلى قوله تعالى « ديارا » وأوحى الله تعالى إليه « واصنع الفلك » أى السفينة « بأعيننا » قال ابن عباس : برأى منا ، وقال مقاتل : بعلمنا ، وقيل : بحفظنا « ووحينا » أى بأمرنا لك كيف تصنعها « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا » أى ولا تراجعنى فى الكفار ولا تدعنى فى استدفاع العذاب عنهم « إنهم مغرقون » أى محكوم عليهم بالإغراق فلا سبيل إلى كفه عنهم ، وقيل : لا تخاطبنى فى ابنك كنعان وامرأتك ، فإنهما هالكان ، وروى أن جبريل عليه السلام أتى نوحا فقال له : إن ربك يأمرك أن تصنع الفلك ، قال : كيف أصنع ولست بنجار ؟ فقال : إن ربك يقول : اصنع فإنك بأعيننا ، فأخذ القدوم فجعل يصنع ولا يخطىء وضعها « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ » أى جماعة « من قومه سخروا منه » أى استهزؤا به ويقولون : يا نوح قد صرت نجارا بعد النبوة ، فأعقم الله تعالى أرحام نسائهم فلا يولدلهم ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : اتخذ نوح عليه الصلاة والسلام السفينة فى سنتين وكان طول السفينة ثلثمائة ذراع وكان من خشب الساج ، وجعل لها ثلاثة بطون : فجعل فى البطن الأول الوحوش والهوام ، وفى البطن الثانى الدواب ، وركب هو ومن معه البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد .

قال الرازى : واعلم أن هذه الأمثال مباحث لا تعجبنى لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها البتة ، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة البتة ، والخوض فيها من باب الفضول مع القطع بأنه ليس هاهنا ما يدل على الجانب الصحيح ، والذى نعلمه أنها كانت فى السعة بحيث تسع المؤمنين من قومه وما يحتاجون إليه ، وتسع زوجين من كل حيوان ؛ لأن هذا القدر مذكور فى القرآن « وما آمن معه إلا قليل » ، فأما تعيين ذلك القدر فغير معلوم « قال » لهم لما سخروا منه « إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » إذا نجونا وغرقتم وقوله « نسخر » على سبيل

الازدواج فى مشاكلة الكلام كما فى قوله تعالى: «وجزاء سيئة سيئة مثلها» ، والمعنى: إن تسخروا منا فسترون عاقبة سخريتكم ، وقوله تعالى «فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه» أى يهينه فى الدنيا وهو الغرق «ويحل عليه» فى الآخرة «عذاب مقيم» ، وهو النار التى لا انقطاع لها ، وقوله تعالى «حتى إذا جاء أمرنا» أى بإهلاكهم . وهو غاية لقوله تعالى «ويصنع الفلك» .. واختلف فى التنور فى قوله تعالى «وفار التنور»: فقال عكرمة والزهرى هو وجه الأرض ، وذلك أنه قيل لنوح عليه السلام : إذا رأيت الماء فار على وجه الأرض فاركب السفينة ، وروى عن على رضى الله عنه قال : فار التنور وقت طلوع الفجر ونور الصبح ، وقال الحسن ومجاهد والشعبى : إنه التنور الذى يخبز فيه ، وهو قول أكثر المفسرين ، فوجب حمل اللفظ عليه ، وهؤلاء اختلفوا ، فمنهم من قال : إنه تنور لنوح ، ومنهم من قال : إنه كان لغيره وأنه كان من حجارة ، قيل لنوح عليه السلام : إذا رأيت الماء يفور فاركب أنت وأصحابك ، واختلفوا أيضا فى موضعه ، فقال مجاهد والشعبى : كان فى ناحية الكوفة ، وكان الشعبى يحلف بالله : ما فار التنور إلا من ناحية الكوفة ، وقال: اتخذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة وكان فوران الماء منه علما لنوح ؛ وقال مقاتل : كان بالشام . وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه كان بالهند ، ومعنى «فار» نبع على قوة وشدة تشبيها بغليان القدر عند قوة النار ، ولا شبهة أن التنور لا يفور ، فالمراد فار الماء من التنور ، فلما فار أمر الله تعالى نوحا عليه السلام أن يحمل فى السفينة ثلاثة أنواع من الأشياء :

الأول : قوله تعالى «قلنا احمل فيها» أى السفينة «من كل زوجين اثنين» والزوجان عبارة عن كل شيئين يكون أحدهما ذكرا والآخر أنثى ، والتقدير: من كل شيئين هنا فاحمل منهما فى السفينة اثنين واحد ذكر وواحد أنثى ، والفائدة فى قوله تعالى : زوجين اثنين ، والزوجان لا يكونان إلا اثنين - أن هذا على مثال قوله تعالى «لا تتخذوا إلهين اثنين» ، وقوله تعالى «نفخة واحدة» .

النوع الثانى من الأشياء التى أمر الله تعالى نوحا عليه السلام أن يحملها فى السفينة قوله تعالى: «وأهلك» وهم أبناؤه وزوجته ، وقوله تعالى: «إلامن سبق عليه القول» بأنه من المغرقين وهو ابنه كنعان وأمه راعلة ، وكانا كافرين حكم الله تعالى عليهما بالهلاك ، بخلاف سام وحام ويافث وزوجاتهم ، وبخلاف زوجته المسلمة ، فإن قيل: الإنسان أشرف من سائر الحيوانات فلم بدأ بالحيوان؟ أجيب بأن الإنسان عاقل بعقله مضطر إلى دفع أسباب الهلاك عن نفسه ، فلا حاجة فيه إلى المبالغة فى الترغيب ، بخلاف السعى فى تخليص سائر الحيوانات ، فلهذا السبب وقع الابتداء به .

النوع الثالث من الأشياء التى أمر الله تعالى نوحا عليه السلام بحملها فى السفينة قوله تعالى: «ومن آمن» أى واحمل معك من آمن من قومك واختلف فى العدد الذى ذكره الله تعالى فى قوله تعالى «وما آمن معه إلا قليل» فقال قتادة وابن جرير: لم يكن معه فى السفينة إلا ثمانية نفر: نوح وامرأته المسلمة وثلاث بنين له: وهم سام وحام ويافث ونساؤهم ، وقال ابن إسحاق: كانوا عشرة سوى نسائهم: نوح وبنوه الثلاثة وستة أناس ممن كان آمن به وأزواجهم ، وقال مجاهد: كانوا اثنين وسبعين نفرا رجلا وامرأة . والصواب من القول فى ذلك أن يقال كما قال الله تعالى: وما آمن معه إلا قليل؛ فوصفهم الله تعالى بالقلة فلم يحدد عددا بمقدار، فلا ينبغى أن يجاوز فى ذلك حد الله تعالى: إذ لم يرد عدد فى كتاب الله ولا فى خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا منقول عن الطبرى وتقدم نحو ذلك عن الرازى ، وقال مقاتل: حمل نوح معه فى السفينة جسد آدم عليه السلام .

* * *

هذا هو الربع الثالث من سورة هود ، وقد تضمن ذكر مثل بليغ للكافرين والمؤمنين ، فمثلهم الله عز وجل بالأعمى الأصم ، وبالبصير السميع ، وهو مثل كريم له دلالته ، وله مغزاه .

ثم ذكر الله عز وجل قصة نوح عليه السلام مع قومه ، وغضب الله عليهم ،

وإنذاره لهم بعذاب شديد ، وهداية نوح لصنع السفينة ، ونزول الطوفان بالأرض ، وركوب نوح ومن آمن معه ، وزوجين زوجين من كل ما على الأرض من حيوانات . . . ليعمر الله عز وجل بهم الأرض من جديد بعد الطوفان .

الربع الرابع من سورة هود

٤١ — وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٤٢ — وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ .

٤٣ — قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ .

٤٤ — وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .

٤٥ — وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ .

٤٦ — قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ .

٤٧ — قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ .

٤٨ — قِيلَ يَٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ .

٤٩ — تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .

هذه الآيات الكريمة التسع هى تتمة قصة نوح عليه السلام مع قومه ، وفيها يذكر الله عز وجل ركوب نوح السفينة ، وسيرها فى أمواج كالجبال ، وعصيان ابن نوح لأبيه فلم يركب معه السفينة فكان من المغرقين ، ثم يذكر انقطاع الطوفان وجفاف الأرض ، وهبوط السفينة على الجودى ، وهو جبال أراراط كما فى الكتاب المقدس ، ويذكر كذلك كلام نوح مع الله فى أمر ابنه . . ثم يذكر سلام الله وبركاته التى حفت بنوح ومن معه ، وفى ختام القصة يتهدد الله عز وجل الكافرين العصاة الذين كفروا برسالات الله بالعذاب الأليم . . ويذكر الله عز وجل وجه الإعجاز فى ذكر قصص الأنبياء السابقين وفى ذكر صنيع أممهم معهم ، فلم يكن محمد ولا قومه يعلمون شيئا من ذلك ، ولكن الله عز وجل هو الذى أوحى إلى محمد ذلك ليكون فيه عظة وعبرة للمشركين ، وطالب الله عز وجل رسوله الكريم بالصبر ، فالعاقبة للمتقين . . دائما . . قال الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة :

« وقال » نوح لمن معه « اركبوا فيها » أى فى السفينة « بسم الله مجراها ومرساها »

متصل باركبوا ، حال من الواو فى اركبوا أى اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها وإرسائها ، قال الضحاك : كان نوح إذا أراد أن تجرى السفينة قال: بسم الله جرت، وإذا أراد أن ترسو قال : بسم رست،قرىء بفتح الميم من جرت ورست أى جريها ورسوها ، وهما مصدران وقرىء بضم الميم من أجريت وأرسيت أى بسم الله إجراؤها وإرساؤها ، وتقدير الكلام : اركبوا بسم الله أو ابدأوا بسم الله، أوالتقدير: بسم الله إجراؤها « إن ربى لغفور رحيم » أى لولا مغفرته لكم ورحمته بكم لما نجاكم، وقوله تعالى : « وهى تجرى بهم » متعلق بمحذوف دل عليه اركبوا ، أى فركبوا مسمين الله تعالى وهى تجرى وهم فيها « فى موج » وهو ما ارتفع من الماء إذا اشتد عليه الريح « كالجبال » فى عظمه وارتفاعه عن الماء ، قال العلماء : أرسل الله تعالى المطر أربعين يوماً وليلة وخرج الماء من الأرض، فذلك قوله تعالى : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر » وارتفع الماء على أعلى جبل حتى غرق كل شىء « ونادى نوح ابنه » كنعان وكان كافرا « وكان فى معزل » عزل فيه نفسه إما عن أبيه أودينه ولم يركب معه ،وإما عن السفينة ، وإما عن الكفار كأنه انفرد عنهم . « يابنى اركب معنا » فى السفينة « ولا تكن مع الكافرين » أى فتهلك ، ولما قال له ذلك : « قال سآوى » أى ألتجى وأصير « إلى جبل يعصمنى » أى يمنعنى « من الماء ، قال » له نوح عليه السلام « لا عاصم » أى لا مانع « اليوم من أمر الله » أى من عذابه « إلا من رحم » استثناء منقطع كأنه قيل : ولكن من رحمه الله فهو المعصوم ، كقوله تعالى : « ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » وقيل : من رحم بى أى إلا الراحم وهو الله تعالى، وقيل : إلا مكان من رحمه الله فإنه مانع من ذلك وهو السفينة « وحال بينهما » أى بين نوح وابنه أوبين ابنه والجبل « الموج » المذكور فى قوله : « موج كالجبال» .. « فكان » ابنه « من المغرقين » أى فصار من المهلكين بالماء « و» لما تناهى الطوفان وأغرق قوم نوح «قيل» أى قال الله تعالى ، أو ملك بأمره تعالى « يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى » أى

أمسكي ماءك ، ناداهما بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات ، ثم أمرهما بما يأمر به أهل التمييز والعقل تمثيلا لكمال انقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما « وغيض الماء » أى نقص وذهب « وقضى الأمر » أى وأنجز ما وعد من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين ، أى استقرت السفينة « واستوت على الجودى » قيل : هو جبل بالجزيرة قريب من الموصل ، وفى الكتاب المقدس أنه جبل أراراط ، وهو جبل أرارات ، أحد الجبال بأرمينيه « وقيل » أى قال الله تعالى أو ملك بأمره « بعداً » أى هلاكا « للقوم الظالمين » ومجيء الفعل مبنياً للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء . وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر ويكون مكوناً قاهراً ، وأن فاعلها واحد لا يشارك فى أفعاله ، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره : « يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى » ، ولا إلى أن يقضى ذلك الأمر الهائل غيره ، ولا إلى أن تستوى على متن الجودى وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره ، وروى أن نوحاً ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرت بالبيت العتيق ، وقد عصمه الله تعالى من الغرق فطافت به السفينة سبعا وأودع الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس ، وهبط نوح ومن معه فى السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح ، وأمر من معه بصيامه شكرا لله تعالى ، وبنوا قرية بقرب الجبل فهى أول قرية عمرت على وجه الأرض بعد الطوفان ، ولم ينج أحد من الكفار من الغرق « ونادى نوح ربه » أى دعاه وسأله « فقال رب إن ابنى من أهلى » وقد وعدتنى أن تنجينى وأهلى « وإن وعدك الحق » أى الصدق الذى لا خلف فيه « وأنت أحكم الحاكمين » لأنك أعلمهم وأعدلهم ، والفاء فى قوله تعالى : « فقال » تفصيل للإجمال فى « نادى » مثلها فى « توضأ فغسل » ، وقيل : نادى أى أراد نداءه فقال رب : « قال » الله تعالى له « يا نوح إنه » أى هذا الإبن الذى سألت نجاته « ليس من أهلك » أى المحكوم بنجاتهم لإيمانهم وكفره ، ولهذا علل بقوله تعالى : « إنه عمل غير صالح » قرأ الكسائى بكسر

الميم ونصب اللام بغير تنوين ، أى عمل الكفر والتكذيب ، وكل هذا غير صالح ، وقرأ الباقون بفتح الميم ورفع اللام منونة ، أى ذو عمل غير صالح أو صاحب عمل غير صالح ، فجعل ذات العمل للمبالغة واختلف : هل كان ذلك الوالد ابن نوح أولا ؟ على أقوال :

الأول : وهو قول ابن عباس : وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والأكثرون ، أنه ابنه حقيقة، ويدل عليه أنه تعالى نص عليه فقال : « ونادى نوح ابنه » ، وأيضاً نص عليه فقال : « يا بنى » ، وصرف هذا اللفظ إلى أنه رباه وأطلق عليه هذا الاسم ، لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقته إلى مجازه من غير ضرورة .

القول الثانى : أنه كان ابن امرأته ، وهو قول محمد بن على الباقر ، وقول الحسن البصرى .

وقال مجاهد والحسن هو ولد نسب إليه ولم يعلم نوح بذلك ، واحتج هذا القائل بقوله تعالى : فى امرأة نوح « وامرأة لوط فخانتاهما » ، قال الرازى : وهذا قول يجب صون منصب الأنبياء عنه لا سيما وهو خلاف نص القرآن ، وقد قيل لابن عباس : ما كانت تلك الخيانة ؟ فقال : كانت امرأة نوح تقول: زوجى مجنون ، وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه إذ نزل به .

« فلا تسألنى ما ليس لك به علم » أى بما لا تعلم أصواب هو أم لا ؟ لأن اللائق بأمثالك من أولى القرى بناء أمورهم على التحقيق « إنى أعظك » أى بمواعظى كراهة « أن تكون من الجاهلين » فتسأل مثل ما يسألونى وإنما سمى نداؤه سؤالا لتضمن ذكر الوعد بنجاة أهله استنجازه فى شأن ولده ، « قال » نوح « رب إنى أعوذ بك أن » أى من أن « أسألك » فى شىء من الأشياء « ما ليس لى به علم » تأدبا بأدبك واتعاظا بوعظك « وإلا تغفر لى » أى الآن ما فرط منى وفى المستقبل ما يقع منى « وترحمنى » أى تستر زلاتى وتمحوها وتكرمنى « أكن من الخاسرين » أى العريقين فى الخسارة ، وهذا يدل على عدم عصمة الأنبياء

لوقوع هذه الزلة من نوح عليه السلام ، والجواب أن الزلة الصادرة من نوح إنما هى كونه لم يستقص مايدل على نفاق ابنه وكفره ، لأن قومه كانوا على ثلاثة أقسام : كافر يظهر كفره، ومؤمن يخفى إيمانه، ومنافق لايعلم حاله فى نفس الأمر، وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة، وحكم الكافرين هو الغرق، وكان ذلك معلوما . وأما أهل النفاق فبقى أمرهم مخفيا، وكان ابن نوح منهم، وكان يجوز فيه كونه مؤمنا ، وكان نوح بحكم الشفقة التى تكون للأب فى حق الإبن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافرا ، بل هو على الوجوه الصحيحة فما أخطأ فى ذلك الاجتهاد كما وقع لآدم عليه السلام فى الأكل من الشجرة فلم يصدر عنه إلا الخطأ فى الاجتهاد ، فلم تصدر منه معصية ، فلجأ إلى ربه تعالى وخشع له ودعاه وسأله المغفرة والرحمة ، كما قال آدم عليه السلام : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين « قيل » أى قال الله تعالى أو ملك بأمره « يانوح اهبط » أى انزل من السفينة أو من الجبل إلى الأرض المستوية « بسلام » أى بعظم وأمن وسلامة « منا » وذلك أن الغرق لما كان عاما فى جميع الأرض فعند ماخرج نوح عليه السلام من السفينة علم أنه ليس فى الأرض شىء مما ينتفع به من النبات والحيوان ، فكان كالخائف فى أنه كيف يدفع إلحاح عديد الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب ، فلما قال الله تعالى اهبط بسلام منا زال عنه ذلك الخوف لأن ذلك يدل على حصول السلامة ، ولا يكون ذلك إلا مع الأمن وسعة الرزق ، ثم أنه تعالى لما وعدهما بالسلامة أردفه بأن وعده بالبركة بقوله تعالى: «وبركات عليك » وهو عبارة عن الدوام والبقاء والثبات ، لأن الله تعالى صير نوحا أبا البشر، لأن جميع من بقى كانوا من نسله، إذ أن نوحا لما خرج من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل إلا من ذريته ، فالخلق كلهم من نسله ، أو أنه لم يكن معه فى السفينة إلا من كان من نسله وذريته ، وعلى التقديرين فالخلق كلهم من ذريته ، ويدل على ذلك قوله تعالى: « وجعلنا ذريته هم الباقين» فثبت أن نوحا كان آدم الأصغر، فكان أبا الأنبياء والخلق بعد الطوفان

كلهم منه وكان بين نوح وآدم ثمانية أجداد، وقوله تعالى: « وعلى أمم ممن معك » يحتمل أن تكون من للبيان فيراد الأمم الذين كانوا معه فى السفينة لأنهم كانوا جماعات، أو قيل لهم «أمم»، لأن منهم الأمم إلى آخر الدهر، قال فى الكشاف وهو الوجه، وقوله تعالى «وأمم» بالرفع على الابتداء وقوله تعالى: «سنمتعهم» أى فى الدنيا صفة والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم سنمتعهم، وإنما حذف لأن قوله «ممن معك» يدل عليه، والمعنى: أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشأون ممن معك، وممن معك أمم ممتعون فى الدنيا «ثم يمسهم منا عذاب أليم» فى الآخرة وهم الكفار، وعن محمد بن كعب القرظى: دخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر، وقيل: المراد بالأمم الممتعة: قوم هود وصالح وشعيب ولوط.

ولما شرح تعالى قصة نوح عليه السلام، وذكرها على وجه التفصيل قال تعالى « تلك » أى قصة نوح التى شرحناها « من أنباء الغيب » أى من الأخبار التى كانت غائبة عن الخلق، وقوله تعالى: « نوحيها إليك » أى موحاة إليك « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » أى قبل نزول القرآن، خبر آخر والمعنى: إن هذه القصة مجهولة عندك وعند قومك من قبل إيحائنا إليك، وقصة طوفان نوح - وإن كانت مشهورة عند أهل العلم والكتاب - فإن ذلك كان بحسب الإجمال، وأما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة، أو بأنه صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها، وكذلك كانت أمته؛ ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: « فاصبر » أى أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار « إن العاقبة للمتقين » أى للذين اتقوا الشرك والمعاصى، وفى هذا تنبيه على أن عاقبته النصر والفرح والسرور كما كان لنوح ولقومه، وهذه القصة ذكرت فى يونس، والحكمة والفائدة فى إعادتها أن القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه: ففى السورة الأولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب، فذكر تعالى قصة نوح فى بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر ثم ظهر فى العاقبة، فكذلك فى

شأن محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى هذه السورة ذكرت لأجل أن الكفار كانوا يبالغون فى إيذاء الرسول ، فذكرها الله تعالى لبيان أن إقدام الكفار على الإيذاء كان حاصلا فى زمن نوح عليه السلام فلما صبر فاز ، فكن يا محمد كذلك لتنال المقصود ، أو أن قصة نوح ذكرت فى يونس مجملة ، وهنا ذكرت مفصلة .. وقد سبق ذكر قصة نوح كذلك فى سورة الأعراف (آية ٥٩ — ٦٤).

ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة فى كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليا عن الحكمة والفائدة . . هذه هى القصة الأولى التى ذكرها القرآن الكريم فى سورة هود ، أما القصة الثانية فهى قصة هود عليه السلام .

٥٠ — وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ .

٥١ — يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

٥٢ — وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ .

٥٣ — قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ .

٥٤ — إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ .

٥٥ — مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ .

٥٦ — إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

٥٧ — فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ .

٥٨ — وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ .

٥٩ — وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَٱتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ .

٦٠ — وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ .

هذه الآيات الإحدى عشرة آية هى فى قصة هود عليه السلام مع قومه ، وقد ذكرت بعضها فى سور سابقة كسورة الأعراف (آية ٦٥ — ٧٢)

وهنا نجد صورة مفصلة لدعوة هود ، وموقف قومه منه . وكان هود من قبيلة عاد ، وكانت إحدى قبائل العرب بناحية اليمن ، قال الله عز وجل : «وإلى عاد» أى أرسلنا إليهم «أخاهم هودا» ، أى نبيا ورسولا ، وهذه الأخوة كانت أخوة فى النسب لا فى الدين ، إذ لم تحصل قرابة الدين ، وإثبات هذه الأخوة مع الاختلاف فى الدين ؛ لأن قوم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يستبعدون أن يكون رسولا من عند الله مع أنه واحد من قبيلتهم ، فذكر الله تعالى أن هودا كان واحدا من عاد وأن صالحا كان واحدا من ثمود لإزالة هذا الاستبعاد ، ولما تقدم أمر نوح عليه السلام مع قومه استشرف السامع إلى

معرفة ماقاله هود عليه السلام هل هو مثل قول نوح المذكور أولا ، فاستأنف الجواب بقوله« قال يا قوم اعبدوا الله » أى وحدوه ولا تشركوا معه شيئا فى العبادة « مالكم من إله غيره » أى هو إلهكم، لأن هذه الأصنام التى تعبدونها ما هى إلا حجارة لا تضر ولا تنفع ، فان قيل : كيف دعاهم إلى الله قبل إقامة الدليل على ثبوت الإله ؟ أجيب بأن دلائل وجوده تعالى ظاهرة ، وهى دلائل الآفاق والأنفس، وقلما يوجد فى الدنيا طائفة ينكرون وجود الإله ، ولذلك قال تعالى فى صفة الكفار: « ولئن سألتهم : من خلق السموات والأرض؟ ليقولن الله » .. « إن أنتم إلا مفترون » أى كاذبون فى عبادتكم غيره « يا قوم » كرره للاستعطاف « لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى» أى خلقنى ، خاطب به كل رسول قومه إزالة للتهمة وتمحيضاً للنصيحة ، فإنها لا تنفع ما دامت مشوبة بالمطامع « أفلا تعقلون » أى أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطأ فتتعظون ، ثم قال: « ويا قوم استغفروا ربكم » أى آمنوا به « ثم توبوا إليه » من عبادة غيره ؛ لأن التوبة لا تصح إلا بعد الإيمان « يرسل السماء » أى المطر « عليكم مدرارا » أى كثير الدر « ويزدكم قوة إلى قوتكم » أى ويضاعف قوتكم، وإنما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوة لأن القوم كانوا أصحاب زرع وبساتين وعمارات ، وكانوا حراصا عليها أشد الحرص ، فكانوا أحوج شىء إلى الماء ، وكانوا يذلون غيرهم بما أتوا من شدة القوة والبطش والبأس والنجدة ، وقيل: أراد القوة فى المال، وقول نوح : ويمددكم بأموال وبنين.. « ولا تتولوا » أى ولا تعرضوا عن قبول قولى ونصحى حالة كونكم « مجرمين » أى مشركين ، أى ولما حكى الله تعالى عن هود ما ذكره تعالى ذكر ردهم عليه وجدالهم إياه :

وأول شىء ردوا به عليه هو قوله تعالى : « قالوا يا هود ما جئتنا ببينة » أى بحجة تدل على صحة دعواك ورسالتك ، وسميت بينة لأنها تبين الحق ، ومن المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام كان قد أظهر لهم المعجزات ، إلا أن القوم لجهلهم أنكروها وزعموا أنه ما جاء بشىء منها .

وثانيها قولهم « وما نحن بتاركى آلهتنا » أى عبادتها « عن قولك » أى صادرين عن قولك ، حال من الضمير فى تاركى، وهذا أيضا من جهلهم ، فإنهم كانوا يعرفون أن النافع والضار هوالله تعالى، وأن الأصنام لا تضر ولا تنفع، وذلك حكم فطرة العقل ، وبديهة النفس .

وثالثها قولهم « وما نحن لك بمؤمنين » أى مصدقين وفى ذلك إقناط لهم من الإجابة والتصديق .

ورابعها قولهم « إن » أى ما « نقول » فى شأنك « إلا اعتراك » أى أصابك « بعض آلهتنا بسوء » لسبك إياها فجعلتك مجنونا وأفسدت عقلك .

ثم إنه تعالى ذكر أنهم لما قالوا ذلك «قال» هود عليه السلام مجيبا لهم: «إنى أشهد الله واشهدوا » أنتم أيضا على « أنى برىء مما تشركون من دونه » أى من دون الله وهو الأصنام التى كانوا يعبدونها « فكيدونى » أى احتالوا فى هلاكى « جميعا » أنتم وأصنامكم التى تعتقدون أنها تضر وتنفع، فإنها لا تضر ولا تنفع « ثم لا تنظرون » أى تمهلون، وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام؛ لأنه كان وحيداً فى قومه وقال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم ثقة بالله تعالى كما قال تعالى « إنى توكلت على الله ربى وربكم » أى فوضت أمرى إليه واعتمدت عليه « ما من دابة » تدب على الأرض ويدخل فى هذا جميع بنى آدم والحيوان لأنهم يدبون على الأرض « إلا هو آخذ بناصيتها[1]» أى مالكها وقاهرها ؛ فلا يقع نفع ولا ضر إلا بإذنه ، والعرب إذا وصفوا إنسانا بالذلة والخضوع قالوا : ما ناصية فلان إلا بيد فلان ، وكانوا إذا أسروا الأسير وأرادوا إطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره ، فخوطبوا فى القرآن بما يعرفون من كلامهم « إن ربى على صراط مستقيم » أى طريق الحق والعدل فلا يظلمكم ولا يعمل إلا بالإحسان والإنصاف ؛ فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بعصيانه « فإن تولوا » أى تعرضوا « فقد أبلغتكم » جميع « ما أرسلت به إليكم » ، والإبلاغ كان قبل التولى فكيف وقع جزاء الشرط ؟ أجيب عن

(١) الناصية : منبت الشعر فى مقدم الرأس ، وسمى الشعر النابت هنا ناصية باسم منبته .

ذلك بأن معناه : فإن تتولوا لم أعاتب على تقصير من جهتى وصرتم محجوجين؛ لأنكم أنتم الذين أصررتم على التكذيب ، وقوله « ويستخلف ربى قوما غيركم » استئناف بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلكهم ويستخلف قوما آخرين فى ديارهم وأموالهم يوحدونه ويعبدونه « ولا تضرونه » أى الله بإشراككم « شيئا » من الضر ، إنما تضرون أنفسكم، وقيل: لا تنقصونه شيئا إذا أهلككم لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء « إن ربى على كل شىء » صغير أو كبير حقير أو جليل « حفيظ » أى رقيب عالم بكل شىء وقادر على كل شىء ، فيحفظنى إن تناولونى بسوء ، أو حفيظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها ، أو حفيظ على كل شىء ، يحفظه من الهلاك إذا شاء ويهلكه إذا شاء .. « ولما » لم يرجعوا ولم يرعوا أمرا ولا رغبة ولا رهبة « جاء أمرنا » أى عذابنا ، وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم ، عذبهم الله تعالى بها سبع ليال وثمانية أيام حسوما حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية « نجينا هودا والذين آمنوا معه » أى من هذا العذاب وكانوا أربعة آلاف « برحمة منا » لأن العذاب قد يعم المؤمن والكافر فلما أنجى الله تعالى المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه « ونجيناهم من عذاب غليظ » هو عذاب الآخرة ، ووصفه بالغلظ لأنه أغلظ من عذاب الدنيا .. أو نجينا هودا والذين آمنوا معه من أن يصل إليهم الكفار بسوء مع اجتهادهم فى ذلك ، ونجيناهم من عذاب غليظ وهو الريح المذكور .

ولما ذكر الله تعالى قصة عاد خاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال « وتلك عاد » وهو إشارة إلى قبورهم وآثارهم ، كأنه تعالى قال : سيحوا فى الأرض فانظروا إليها واعتبروا ، ثم إنه تعالى جمع أوصافهم ثم ذكر عاقبة أحوالهم فى الدنيا والآخرة ، أما أوصافهم فثلاثة :

الصفة الأولى قوله تعالى : « جحدوا بآيات ربهم » أى بالمعجزات التى أتى بها هود عليه السلام ..

الصفة الثانية قوله تعالى : « وعصوا رسله » أى هودا وحده ، وإنما أتى به بلفظ الجمع إما للتعظيم ، أو لأن من عصى رسولا فقد عصى جميع الرسل

لقوله تعالى : لا نفرق بين أحد من رسله .

الصفة الثالثة قوله تعالى : « واتبعوا أمر كل جبار عنيد » أى إن السفلة كانوا يقلدون الرؤساء فى قولهم : ما هذا إلا بشر مثلكم ، فأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم ، وعصوا من دعاهم إلى الإيمان ، وإلى ما ينفعهم ، والجبار المتمرد ، والعنيد والعنود والمعاند هو المنازع المعارض ، ولما ذكر تعالى أوصافهم ذكر أحوالهم بقوله تعالى « وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة » أى جعل اللعن رديفا لهم ومتابعا ومصاحبا فى الدنيا والآخرة ، ومعنى اللعنة الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير ، وقيل : اللعنة فى الدنيا من الناس وفى الآخرة لعنة على رؤوس الأشهاد ، ثم أنه تعالى بين السبب الأول فى نزول هذا العذاب الشديد بهم بقوله تعالى « ألا إن عادا كفروا ربهم» أى كفروا بربهم، لحذف الباء ، أو أن المراد بالكفر الجحد أى جحدوا ربهم ، وقيل : هو من باب حذف المضاف أى كفروا نعمة ربهم و «ألا» أداة استفتاح لا تذكر إلا بين يدى كلام يعظم موقعه ويجل خطبه ، ثم قال « ألا بعدا لعاد » دعاء عليهم بالهلاك ، والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل بهم بسبب ما حكى عنهم ، وكرر الله عز وجل « ألا » ، وأعاد ذكرهم تعظيما لأمرهم ، وحثا على الاعتبار بحالهم « قوم هود » بيان لعاد لتمييزهم من عاد الثانية ، وللإيماء إلى استحقاقهم للبعد بما حدث منهم ، وما كان من كفرهم برسالة هود ..

هذه هى قصة هود مع قومه عاد ، وقد سميت هذه السورة باسم هود نبى الله . وسبق فى سورة الأعراف ذكر لقصة هود مع قومه وهلاكهم بسبب كفرهم وعنادهم (الأعراف - آية : ٦٥ - ٧٢) .

هذه هى قصة هود وقومه عاد الأولى ، وعاد هذه ، هى عاد إرم ، وكانت أقدم قبائل الجزيرة العربية ، وكان موطنها بالقرب من حضرموت ، وعاد إرم بالإضافة إلى « إرم » ، وإرم بمعنى التل المرتفع ، وكان عاد بن هوذ

ابن إرم بن سام بن نوح يعيش قبل عام ٣٠٠٠ ق . م[١] ، ويظن أن عاد إرم أخذت فى النهوض نحو عام ٢٢٠٠ أو ٢٠٠٠ ق . م حين قاموا بغزو مصر وبابل .. ويرجح أن نفوذ عاد استمر من عام ٢٢٠٠ حتى عام ١٥٠٠ ق . م . وقد كانت عاد تقيم فى اليمن وحضرموت وانتشروا بين سواحل الخليج الفارسى[٢] وحدود أرض الجزيرة .. وقد حكمت عاد بابل ومصر ، وكان المصريون يعرفونهم باسم الهكسوس أى ملوك الرعاة . . وقد دمر الله عادا قوم هود تدميرا ، والأسباب التى أدت إلى سقوطها هى :

١ — إعجابهم بقوتهم .

٢ — ظلمهم وجورهم .

٣ — كفرهم بالله .

* * *

وهذه هى خاتمة الربع الرابع من سورة هود عليه السلام ، وقد احتوى على ذكر هلاك قوم نوح بسبب كفرهم وعصيانهم وشركهم ، وهلاك عاد قوم هود بسبب إصرارهم على الكفر والعناد والطغيان والبغى فى الأرض بغير الحق .. وفى قصة نوح وهود من العبر والعظات مالو تمثله مشركو مكة لآمنوا برسالة محمد عليه السلام ، ولكفوا من شرهم وبغيهم وعدوانهم على الرسول والمؤمنين به ...

الربع الخامس من سورة هود

٦١ — وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا

---

(١) ص ١٣٦ التاريخ الجغرافى للقرآن .

(٢) يذكر القرآن الكريم أن بلادهم هى الأحقاف ، والأحقاف — أى السهول الرملية — هى صحراء فى الجزيرة العربية ، وتعرف بالربع الخالى ..

فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ .

٦٢ — قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ .

٦٣ — قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ .

٦٤ — وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ .

٦٥ — فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ .

٦٦ — فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ .

٦٧ — وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ .

٦٨ — كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ .

ثمان آيات فى قصة ثمود ونبيهم صالح عليه السلام . . وقد ذكرت قصة ثمود من قبل فى سورة الأعراف (الآية ٧٣ - ٧٩) ، وقد ارتفع شأن ثمود بعد فناء عاد ، وكان موطن نفوذ عاد القسم الجنوبى من بلاد العرب الذى يمتد من سواحل الخليج الفارسى حتى حدود العراق ، من حيث كان موطن نفوذ ثمود القسم الشمالى الغربى من بلاد العرب الذى كان يعرف بوادى القرى ، وكانت مدينة «حجر» مقر ثمود الرئيسى ، وتقع على الطريق القديم بين الحجاز وسوريا ، وتسمى «حجر» الآن مدائن صالح نسبة إلى النبى صالح عليه السلام ، وكانت ثمود كقوم عاد مهرة فى البناء . . وقد انتهت مدة ثمود قبل مبعث موسى . ويمكن تحديد عهد ثمود بين عامى (١٨٠٠ و ١٦٠٠ ق م) ، وكانت ثمود تعيش على الوثنية وعبادة القمر والنجوم والكواكب ، وقد دعاهم رسولهم صالح إلى التوحيد فكذبوه فأهلكهم الله .

وهذه هى القصة الثالثة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة ، قصة صالح عليه السلام مع قومه ، قال الله تعالى : « وإلى ثمود » أى وأرسلنا إلى ثمود وهم سكان حجر « أخاهم » هو معطوف على قوله تعالى : نوحا . . « صالحا » عطف بيان ، وتلك الأخوة كانت فى النسب لا فى الدين « قال يا قوم » أى يا من يعز على أن يحصل لهم سوء « اعبدوا الله » أى وحدوه وخصوه بالعبادة « ما لكم من إله غيره » هو الحكم المستحق للعبادة لا هذه الأصنام ، ثم ذكر الدلائل الدالة على وحدانيته بقوله «هو أنشأكم» أى ابتدأ خلقكم «من الأرض» وذلك أنهم من آدم وآدم خلق من الأرض ، وأن الإنسان مخلوق من المنى وهو متولد من الدم والدم متولد من الأغذية ، وهى إما حيوانية وإما نباتية ، فأما الحيوانية فحالها كحال الإنسان ، فوجب انتهاء الكل إلى النبات والنبات تولد من الأرض ، فثبت أنه تعالى أنشأ الإنسان من الأرض ، وقيل : من - بمعنى فى ، كما فى قوله تعالى : إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة . . «واستعمركم فيها» أى جعلكم عمارها وسكانها ، وقال الضحاك : أطال أعماركم فيها حتى إن الواحد منهم كان يعيش ثلاثمائة سنة ، وكذا كان قوم عاد ، وروى أن ملوك فارس قد أكثروا من

حفر الأنهار وغرس الأشجار وحصلت لهم الأعمار الطويلة ، فسأل نبي من أنبياء زمانهم : ماسبب تلك الأعمار ؟ فأوحى الله إليه أنهم عمروا بلادى فعاش فيها عبادى ، وقال مجاهد : عمركم أى جعلها لكم ماعشتم فإذا متم انتقلت إلى غيركم ، ولما بين لهم عليه السلام عظمة الله تعالى بين لهم طريق الرجوع إليه بقوله : « فاستغفروه » أى آمنوا به « ثم توبوا إليه » من عبادة غيره ، لأن التوبة لا تصح إلا بعد الإيمان « إن ربى قريب » من خلقه بعلمه لكل من أقبل عليه من غير حاجة إلى حركة « مجيب » لكل من ناداه لا كمعبودانكم فى الأمرين .. ولما قرر لهم عليه السلام هذه الدلائل «قالوا» له « ياصالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا » أى قبل قولك هذا الذى تقوله والذى جئت به لما نرى فيك من مخائل الرشد والسداد ، فإنك كنت تعطف على فقيرنا وتعين ضعيفنا وتعود مرضانا ، فقوى رجاؤنا فيك أن تنصر ديننا ، فكيف أظهرت العداوة ، ثم إنهم أضافوا إلى هذا التعجب الشديد فقالوا « أتنهانا أن نعبد ما » كان «يعبد آباؤنا» من الآلهة ، ومقصودهم بذلك التمسك بطرف التقليد ووجوب متابعة الآباء والأسلاف .

ونظير هذا التعجب ماحكاه الله عن كفار مكة حيث قالوا : أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب ، ثم قالوا « وإننا لفى شك مما تدعونا اليه » من التوحيد وترك عبادة الأصنام « مريب » أى موقع فى الريبة وهى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين ، والرجاء تعلق النفس بمجىء الخير على جهة الظن ، ونظيره الأمل والطمع ، وقولهم هذا مبالغة فى تزييف الكلام « قال » صالح عليه السلام مجيبا لهم « ياقوم أرأيتم » أى أخبرونى « إن كنت على بينة » أى بيان وبصيرة « من ربى » وأتى بحرف الشك على سبيل الجزم ليلائم الخطاب حال المخاطبين « وآتانى منه رحمة » أى نبوة ورسالة « فمن ينصرنى » أى يمنعنى « من الله » أى عذابه « إن عصيته » أى إن خالفت أمره فى تبليغ رسالته والمنع عن الإشراك به « فما تزيدوننى » أى بأمركم لى بذلك « غير تخسير » أى غير تضليل ، قال الحسن بن الفضل : لم يكن صالح فى خسارة حتى يقول : فما تزيدوننى

غير تخسير ، وإنما المعنى فما تزيدوننى بما تقولون إلا نسبتى إياكم إلى الخسارة ، ولما كانت العادة فيمن يدعى النبوة عند قوم يعبدون الأصنام أن يطلبوا المعجزة ، فقد سأله قومه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معينة ـ أشاروا إليها ـ ناقة ، فدعا ربه فخرجت كما سألوا ، أشار إليها بقوله : «وياقوم هذه ناقة الله» وإضافتها إلى الله إضافة تشريف كبيت الله « لكم آية » أى معجزة وكانت على مايقال : يدر منها ابن كثير فيكتفى الخلق العظيم به ، وليس فى القرآن إلا أن هذه الناقة كانت آية معجزة ، وأما بيان أنها كانت آية معجزة من أى الوجوه فليس فيه بيانه « فذروها » أى اتركوها على أى حالة كان تركـكم لها « تأكل » مما أرادت « فى أرض الله » من العشب والنبات ، فليس عليكم مؤونتها فصارت مع كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم ، لأنهم كانوا ينتفعون بلبنها ، ثم إنه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهدوه من إصرارهم على الكفر ، فإن الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه بل يسعى فى إخفائها وإبطالها بأقصى الإمكان ، فلهذا السبب كان يخاف من إقدامهم على قتلها « ولا تمسوها بسوء » أى بذبح أو غيره « فيأخذكم » إن مسستموها بسوء « عذاب قريب » أى فى الدنيا ، لايتأخر عن مسكم لها إلا يسيرا ، وذلك تحذير شديد لهم فى الإقدام على قتلها فخالفوا « فعقروها » وذبحوها « فقال » لهم عند بلوغه الخبر : « تمتعوا » أى عيشوا « فى داركم » ، والتمتع والتلذذ بالمنافع والملاذ التى تدرك بالحواس ، وذلك لا يحصل إلا للحى ، وفى المراد من الديار وجهان :

أحدهما : البلد ، وتسمى البلد ديارا لأنه يدار فيها .

الثانى : دار الدنيا ، أى تمتعوا فى الدنيا « ثلاثة أيام » وذلك أنهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه السلام بنزول العذاب بعد هذه المدة ، قال ابن عباس : إنه تعالى أمهلهم تلك الأيام الثلاثة ليرغبهم فى الإيمان .. ثم قالوا لصالح عليه السلام : وما علامة ذلك ؟ قال : تصير وجوهكم فى اليوم الأول مصفرة وفى الثانى محمرة ، وفى الثالث مسودة ، ثم يأتيكم العذاب فى اليوم الرابع ، فلما رأوا وجوههم مسودة أيقنوا حينئذ بالعذاب فتحفظوا واستعدوا للعذاب

فصبحهم اليوم الرابع « ذلك » أى الوعد العالى الرتبة فى الصدق « وعد غير مكذوب » أى فيه ، أو غير مكذوب على المجاز ، أو وعد غير كذب على أنه مصدر، وقوله تعالى « فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا » «و» نجيناهم «من خزى يومئذ» وهو هلاكهم بالصيحة أو فضيحتهم يوم القيامة « إن ربك هو القوى » فهو يغلب كل شىء « العزيز » أى القادر على منع غيره من أن يقدر أحد عليه ، ثم أخبر تعالى عن عذاب قوم صالح بقوله « وأخذ الذين ظلموا » أى أنفسهم بالكفر « الصيحة » أى صيحة الصواعق أو الرعد أو جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا، أو أتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فى صدورهم فماتوا جميعا « فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » أى باركين على الركب ميتين ، وإنما قال تعالى «وأخذ» ولم يقل «وأخذت» لأن الصيحة محمولة على الصياح « كأن » أى كأنهم « لم يغنوا » أى يقيموا « فيها » أى ديارهم ولم يسكنوها مدة من الدهر ، يقال: غنيت بالمكان إذا أقمت به « ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود » تفسيره ما تقدم فى قوله تعالى « ألا إن عادا كفروا ربهم » الآية .

٦٩ — وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ ابْرٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلٰمًا قَالَ سَلٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ .

٧٠ — فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ الَىٰ قَوْمِ لُوطٍ .

٧١ — وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنٰهَا بِإِسْحٰقَ وَمِن وَرَآءِ اسْحٰقَ يَعْقُوبَ .

٧٢ — قَالَتْ يٰوَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ .

٧٣ — قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ .

٧٤ — فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ .

٧٥ — إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ .

٧٦ — يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ .

٧٧ — وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ .

٧٨ — وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ .

٧٩ — قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ .

٨٠ — قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ .

٨١ — قَالُوا يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ

مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ .

٨٢ — فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ .

٨٣ — مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ .

هذه الآيات الكريمة الخمس عشرة آية فى قصة إبراهيم مع ملائكة الله ، وقد أقبلوا عليه وعلى امرأته يبشرانهما بإسحاق ، وهم فى طريقهم إلى قوم لوط لإهلاكهم وتدميرهم بسبب جرائمهم الشائنة الشديدة ، ومن عجب أن يتجادل قوم لوط مع نبيهم لوط عليه السلام يريدون اغتصاب الملائكة ، وينهاهم لوط ، ويرشدهم إلى طريق الرشاد ، ولكنهم يأبون ، ويصرون على ما يريدون ... فينجى الله لوطا وأهله ومن آمن به ويدمر مدينتهم وكل من فيها تدميرا .

وفى الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح الحادى والعشرون ، قصة بشارة الله لإبراهيم ، قال : وافتقد الرب سارة كما قال ، وفعل الرب لسارة كما تكلم ، فحبلت سارة ، وولدت لإبراهيم ابنا فى شيخوخته ، فى الوقت الذى تكلم الله عنه ، ودعا إبراهيم اسم ابنه المولود له الذى ولدته سارة إسحاق ، وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ، وقالت سارة : قد صنع الله إليه ضحكا ، كل من يسمع يضحك لى . . وقد[1] عاش إبراهيم مائة وخمسا وسبعين سنة وأسلم روحه ومات بشيبة صالحة .

وفى الإصحاح الثامن عشر تفسير ظاهر للبشارة ، جاء فيه ما نصه : وظهر له الرب عند بلوطات ممرا ، وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النار ، فرفع عينيه ونظر فإذا ثلاثة رجال واقفون لديه ، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض .. ويستمر الكتاب المقدس فى تصوير

---

(١) الإصحاح الخامس والعشرون من سفر التكوين .

الطعام الذى قدمه لهم وفيه عجل حنيذ ، وبشروا إبراهيم وسارة بابن فضحكت سارة .. ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو « سدوم » ، وقال الرب : إن صراخ سدوم وعموره وخطيئتهم قد عظمت جدا ، وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم .. ويصور الكتاب المقدس فى هذا الموضع مناجاة إبراهيم لله فى سدوم ومن فيها من المؤمنين . . وفى الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين أن الملاكين جاءا إلى سدوم مساء ، وأن لوطا خف لاستقبالهما ، وذهب بهما إلى بيته ، وأن رجال المدينة أحاطوا بالبيت ، ونادوا لوطا ، وقالوا : أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة ، فخرج لوط إليهم وقال لهم : لا تفعلوا شرا يا إخوتى ، هو ذا لى ابنتان لم تعرفا رجلا ، أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن فى عيونكم ، وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفى ؛ فمد الرجلان أيديهما إلى لوط وأدخلاه ، وضربا على الرجال الواقفين على الباب بالعمى فعجزوا عن أن يجدوا الباب ليفتحوه وليدخلوا على ضيوف إبراهيم . . وإذ أشرقت الشمس على الأرض أمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا ، وقلب تلك المدن .. إلى آخر ما ذكر فى الكتاب المقدس فى هذه القصة . وقصة إبراهيم عليه السلام هى القصة الرابعة من القصص التى ذكرها الله عز وجل فى هذه السورة ، قال تعالى : « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى » أى بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب، والمراد بالرسل الملائكة ، ولفظ رسلنا جمع وأقله ثلاثة ، واختلف فى الزائد على ذلك ، وأجمعوا على أن الأصل فيهم كان جبريل عليه السلام ، واقتصر ابن عباس على أقل الجمع فقال : كانوا ثلاثة : جبريل وميكائيل وإسرافيل ، وهم الذين ذكرهم الله تعالى فى سورة الذاريات بقوله تعالى : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين » ، وفى الحجر : ونبئهم عن ضيف إبراهيم ، وقال الضحاك : كانوا تسعة ، وقال محمد بن كعب القرظى : كان جبريل ومعه سبعة من الملائكة ، وقال السدى : كان جبريل ومعه أحد عشر ملكا على صورة الفتيان الذين يكونون فى غاية

الحسن « قالوا سلاما » أى سلمنا عليك سلاما « قال سلام » أى أمركم أو جوابى سلام أو وعليكم سلام ، لأن التنكير يفيد الكمال والمبالغة والتمام ، وقيل : سلم هو بمعنى الصلح أى نحن سلم صلح غير حرب « فما لبث أن جاء بعجل حنيذ » أى فما أبطأ بجيئه به والحنيذ المشوى على الحجارة المحماة فى حفرة من الأرض ، وكان سمينا ، كما قال تعالى فى موضع آخر : فجاء بعجل سمين ، قال قتادة : كان عامة مال إبراهيم البقر ، وروى أن إبراهيم مكث عشر ليال لم يأته ضيف فاغتم لذلك . وكان يحب الضيف ولا يأكل إلا معه ، فلما جاء الملائكة رأى أضيافا لم ير مثلهم فعجل قراهم وجاء بعجل سمين مشوى « فلما رأى أيديهم » أى الأضياف « لا تصل إليه » أى لا يمدون أيديهم إليه « نكرهم » أى أنكرهم وأنكر حالهم لامتناعهم من الطعام « وأوجس » أى أضمر فى نفسه « منهم خيفة » أى خوفا ، قال قتادة : وذلك أنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير وإنما جاء بشر « قالوا لا تخف » يا إبراهيم « إنا » ملائكة الله « أرسلنا إلى قوم لوط » بالعذاب ، وإنما لم نمد له أيدينا لأنا لا نأكل « وامرأته » أى امرأة إبراهيم ، وهى سارة وهى ابنة عم إبراهيم « قائمة » وراء الستر تسمع محاورتهم أو على رؤوسهم للخدمة فسمعت البشارة بالولد التى دل عليها فيما مضى بالبشرى « فضحكت » سرورا من تلك البشرى لزوجها مع كبره وربما ظنته من غيرها ، لأنها كانت عجوزا عقيما؛ فأزيل ذلك الظن عنها بقوله تعالى : « فبشرناها » أى على لسان الملائكة تشريفا لها وتفخيما بشأنها « بإسحاق » تلده « ومن وراء إسحاق يعقوب » أى يكون يعقوب عليه السلام ابنا لإسحاق عليه السلام فتعيش حتى ترى ولد ولدها . وقيل : سبب سرورها زوال الخيفة أو هلاك أهل الفساد ، وقيل : فضحكت فحاضت ، كما قال الشاعر : عهدى بسلمى ضاحكا فى لبانة ، أى حائضاً فى جماعة من النساء ، وهذا يرد على الفراء حيث قال : ضحكت بمعنى حاضت — لم نسمعه من ثقة « قالت ياويلتا » هذه كلمة تقال عند أمر عظيم والألف فى آخرها بدل من ياء الإضافة « أألد وأنا عجوز » وكانت ابنة تسعين

سنة فى قول ابن إسحاق وقال مجاهد : تسعة وتسعين سنة « وهذا بعلى » أى زوجى ، سمى بذلك لأنه قيم أمرها ، وقولها « شيخا » نصب على الحال ، قال الواحدى: وهذا من لطيف النحو وغامضه، فإن كلمة هذا للإشارة، فكان قولها «وهذا بعلى شيخا» قائم مقام أن يقال «أشير إلى بعلى حال كونه شيخا» والمقصود تعريف الحالة المخصوصة وهى الشيخوخة ، وكان ابن مائة سنة فى قول .. « إن هذا لشىء عجيب » أى إن الولد من هرمين فهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة ، ولذلك « قالوا » أى الملائكة لسارة « أتعجبين من أمر الله » منكرين عليها ذلك ، أى لا تعجبين من ذلك فان الله تعالى قادر على كل شىء ، وإذا أراد شيئا كان سريعا ؛ فإن خوارق العادة باعتبار أهل بيت النبوة وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامة ليس بمستغرب « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » أى بيت إبراهيم « إنه » تعالى « حميد » أى محمود على كل حال أو فاعل مايستوجب به الحمد « مجيد » أى كثير الخير والإحسان .

والقصة الخامسة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة قصة لوط عليه السلام المذكورة فى قوله « فلما ذهب عن إبراهيم الروع » أى الخوف وهو ما أوجس من الخيفة حين أنكر أضيافه واطمأن قلبه بعرفانهم « وجاءته البشرى » بالولد أخذ « يجادلنا » أى يجادل رسلنا « فى » شأن « قوم لوط » وقيل تقديره : لما ذهب عن إبراهيم الروع جادلنا ، فإن قيل : كيف جادل إبراهيم الملائكة مع علمه بأنهم لا يمكنهم مخالفة أمر الله وهذا منكر ؟ فالجواب أن المراد من هذه المجادلة تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون ويرجعون عماهم فيه من الكفر والمعاصى، لأن الملائكة قالوا: إنا مهلكو أهل هذه القرية ، أو أن مجادلته إنما كانت فى قوم بسبب مقام لوط فيهم ، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها ؟ قالوا : لا ، قال: أوأربعون ؟ قالوا : لا، قال : فثلاثون ، قالوا :لا ، قال: فعشرون، قالوا: لا . حتى بلغ خمسة قالوا: لا ، قال: أرأيتم لو كان فيها رجل مؤمن أتهلكونها ؟ قالوا: لا، فعند ذلك قال: إن فيها لوطا.. وقد ذكر الله تعالى لوطا أيضا فى سورة العنكبوت

فقال: «ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا : إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ، قال إن فيها لوطا قالوا : نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين» ، الخ .. «إن إبراهيم لحليم» أى لا يتعجل ، فيؤخر أو يعفو ، وهذا مدح عظيم من الله تعالى لإبراهيم ، ثم ضم إلى ذلك ما يتعلق بالحلم وهو قوله تعالى «أواه» أى كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس «منيب» أى رجاع ، فلما أطال مجادلتهم قالوا له: «يا إبراهيم أعرض عن هذا» أى الجدال وإن كانت الرحمة دينك فلا فائدة فيه «إنه قد جاء أمر ربك» أى قضاؤه الأزلى بعذابهم وهو أعلم بحالهم «إنهم آتيهم عذاب غير مردود» أى لا سبيل إلى دفعه ورده «ولما جاءت رسلنا لوطا» أى هؤلاء الملائكة الذين بشروا إبراهيم بالولد ، قال ابن عباس : انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط وهو ابن أخى إبراهيم عليهما السلام وبين الفريقين أربع فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب من بنى آدم ، وكانوا فى غاية الحسن ولم يعرف لوط أنهم ملائكة الله تعالى «سىء بهم» أى حزن بسببهم «وضاق بهم ذرعا» أى صدرا ، يقال : ضاق ذرع فلان بكذا إذا وقع فى مكروه لا يطيق الخروج منه ، وذلك أن لوطا نظر إلى حسن وجوههم وحسن روائحهم فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ، وقيل: ساءه ذلك لأنه عرف أنهم ملائكة الله تعالى وأنهم جاءوا لإهلاك قومه فرق قلبه على قومه «وقال هذا يوم عصيب» أى شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء ، أى شديد مأخوذ من العصابة التى تشد بالرأس ، قال قتادة : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط ، فأتوا لوطا نصف النهار وهو فى أرض له يعمل فيها ، وروى أنه كان يحتطب وقد قال الله تعالى لهم : لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فاستضافوه وانطلق بهم ، فلما مضى ساعة قال لهم : ما بلغكم من أمر هذه القرية ؟ قالوا : وما أمرهم ؟ قال: أشهد بالله أنها شر قرية فى الأرض عملا ، يقول ذلك أربع مرات . وروى أن الملائكة جاءوا إلى بيت لوط فوجدوه فى داره ولم يعلم بذلك أحد إلا أهل لوط ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها ، وقالت : إن

فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط « وجاءه قومه » لما علموا بهم « يهرعون » أى يسرعون « إليه » قال ابن عباس وقال الحسن : الإسراع المشى بين شيئين « ومن قبل » أى قبل مجيئهم إلى لوط وقيل : من قبل مجىء الرسل إليهم « كانوا يعملون السيئات » أى الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة ، وهى إتيان الرجال ، قال لوط لقومه حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان من بنى آدم : « ياقوم هؤلاء بناتى » قال مجاهد وسعيد ابن جبير أراد بناته نساء قومه ، وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبى هو أو أمته كالوالد لهم ، أى فتزوجوا منهن ، وقيل : أراد بنات نفسه عرضهن عليهم بشرط الإيمان ، وقيل : كان فى ذلك الوقت وفى تلك الشريعة يباح تزويج المرأة المؤمنة بالكافر كما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته من عتبة بن أبى لهب ومن العاص بن وائل قبل الوحى وهما كافران ، وقيل : كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنته « هن أطهر لكم » أى أنظف فعلا ، وهذا جار مجرى قوله تعالى « أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم » ومعلوم أن شجرة الزقوم لا خير فيها ، وكقوله صلى الله عليه وسلم لما قالوا أعل هبل ؛ قال : الله أعلى وأجل ؛ ولا مماثلة بين الله تعالى والصنم ، وإنما هو كلام خرج مخرج المقابلة ، ولهذا نظائر كثيرة « فاتقوا الله » وراقبوه واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والمعاصى « ولا تخزونى » أى تفضحونى « فى ضيفى » أى أضيافى « أليس منكم رجل رشيد » يهتدى إلى الحق فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر « قالوا لقد علمت ما لنا من بناتك من حق » أى حاجة « وإنك لتعلم ما نريد » أى من إتيان الذكور وما لنا فيه من الشهوة ، فعند ذلك « قال » لوط عليه السلام « لو أن لى قوة » أى طاقة « أو آوى إلى ركن شديد » أى عشيرة تنصرنى ، شبهه بركن الجبل فى شدته ، وعنه صلى الله عليه وسلم : رحم الله أخى لوطا ، كان يأوى إلى ركن شديد ، والركن الشديد نصر الله ومعونته ، فكأن النبى صلى الله عليه وسلم استغرب من لوط عليه السلام قوله : أو آوى ، وعده نادرة ، إذ ليس هناك أشد من الركن الذى كان يأوى إليه ، وجواب لو محذوف

تقديره : لبطشت بكم ، أو لدفعتكم ، روى أنه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب « قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) بسوء فافتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح الباب فدخلوا ؛ فاستأذن جبريل ربه فى عقوبتهم فأذن له فقام فى الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا ، فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم ، كما قال تعالى : «فطمسنا أعينهم » فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم فخرجوا وهم يقولون : النجاة النجاة ، فإن فى بيت لوط قوما سحرة ، وقالت الملائكة للوط « فأسر بأهلك بقطع» أى بطائفة من الليل « ولا يلتفت منكم أحد » أى لا ينظر وراءه لئلا يرى عظيم ما نزل بهم ، وقوله « إلا امرأتك» قرأ ابن كثير برفع التاء على أنه بدل من أحد ، وقرىء بالنصب على أنه استثناء من الأهل أى فلا تسر بها «إنه مصيبها ما أصابهم» فلم يخرج بها ، وقيل: خرجت والتفتت فقالت : واقوماه ؛ فجاءها حجر فقتلها ، روى أنه قال لهم : متى موعد هلاكهم؟ فقالوا له : « إن موعدهم الصبح » قال : أريد أسرع من ذلك قالوا : « أليس الصبح بقريب » أى فأسرع الخروج بمن أمرت بهم « فلما جاء أمرنا » أى عذابنا بإهلاكهم « جعلنا عاليها » أى قراهم « سافلها » قد مرت قرى قوم لوط المؤتفكات المذكورة فى سورة براءة، وكانت خمس مدائن وفيها أربعمائة ألف وقيل : أربعة آلاف ألف « وأمطرنا عليها » أى المدن بعد قلبها ، وقيل : على شذاذها الذين ليسوا من أهلها يكونون فى القوم وليسوا منهم « حجارة من سجيل » أى من طين طبخ بالنار، وقيل : مثل السجيل وهو الدلو العظيمة « منضود » أى متتابعة يتبع بعضها بعضاً « مسومة » أى معلمة ، قال الحسن : عليها مثل الخواتيم ، وقال ابن جريج كان عليها سيماء يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض « عند ربك » ظرف لها « وما هى » أى تلك الحجارة « من الظالمين » أى مشركى مكة « ببعيد » أى بشىء بعيد أو بمكان بعيد ، لأنها كانت من السماء ، وهى مكان بعيد إلا أنها أسرع لحوقا بالمرمى ، فكأنها بمكان

قريب منه ، وفيه وعيد لهم ، وقيل : الضمير للقرى أى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون عليها فى مسيرهم .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الخامس من سورة هود ، وقد تضمن ما تضمن من قصة ثمود ونبيهم صالح عليه السلام ، ومن قصة إبراهيم وبشارة الملائكة له ولزوجه سارة وهو فى سن المائة بميلاد ابن له هو إسحاق وحفيد له من ابنه إسحاق هو يعقوب ، ومن قصة لوط مع قومه ومع ملائكة الله الذين أرسلوا بالعذاب والهلاك لقومه الفاسقين ، وتدمير الله العزيز الجبار لمدينتهم الجميلة .. والمراد من هذه القصص العبرة والعظة والوعيد الشديد للمشركين العرب الذين قاوموا الرسول ورسالته ، ووقفوا موقف اللجاج والعناد من دين الله ومن كتابه الحكيم .

الربع السادس من سورة هود

٨٤ — وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ .

٨٥ — وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

٨٦ — بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ .

٨٧ — قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰؤُا إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ .

٨٨ — قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

٨٩ — وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ .

٩٠ — وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ .

٩١ — قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ .

٩٢ — قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ .

٩٣ — وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ .

٩٤ — وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ .

٩٥ — كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ .

اثنتا عشرة آية من آيات الكتاب الحكيم ، هن مطلع ربع جديد من

أرباع سورة هود ، وقد تضمنت ذكر قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، وعصيانهم وكفرهم ولجاجهم وانتقام الله منهم وإهلاكهم إهلاكا شديدا . . وقد سبقت قصة شعيب فى سورة الأعراف (آية ٨٥-٩٣) ، وهنا فى سورة يونس يقول الله عز وجل : وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، وفى سورة الأعراف يقول : فأخذتهم الرجفة .

وقصة شعيب عليه السلام هى القصة السابعة من قصص هذه السورة الكريمة ، وقد ذكرها الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة .. «وإلى مدين» أى وأرسلنا إلى مدين ، وهم قبيلة أبيهم مدين بن إبراهيم عليه السلام ، أو هو اسم مدينة بناها مدين ، والتقدير : وأرسلنا إلى أهل مدين أخاهم فى النسب لا فى الدين « شعيبا » عطف بيان « قال » ما قال إخوته من الأنبياء لأمهم فى التبشير بالدين : « يا قوم » بلغة الاستعطاف لهم وإظهار الشفقة عليهم « اعبدوا الله » أى وحدوه ولا تشركوا به شيئاً « ما لكم من إله غيره » .. وهكذا اتفقت كلمة الأنبياء ، واتحدت دعوتهم إلى الله ، وهذا وحده دليل قطعى على صدق كل رسول منهم ، لما علم قطعا من تباعد عصورهم ، وتنائى ديارهم ، وهم جميعا ممن لم يدرسوا العلوم ، ولم يقرأوا الكتب ، ولا عرفوا أخبار الأمم البائدة إلا من الله عز وجل . . ولما دعاهم إلى العدل فيما بينهم وبين الله دعاهم إلى العدل فيما بينهم وبين الناس فقال : « ولا تنقصوا » بوجه من الوجوه « المكيال والميزان » أى لا الكيل ولا آلته ولا الوزن ولا آلته ، والكيل تعديل الشيء بالآلة فى القلة والكثرة ، والعدل تعديله فى الخفة والثقل ، فالكيل العدل فى الكمية ، والوزن والعدل فى الكيفية « إنى أراكم بخير » أى بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف ، قال ابن عباس : كانوا موسرين فى نعمة ، وقال مجاهد : كانوا فى خصب وسعة ، فحذرهم زوال تلك النعمة إن لم يؤمنوا ويتوبوا « وإنى أخاف عليكم » إن لم تؤمنوا « عذاب يوم محيط » أى يحيط بكم فيهلككم جميعا وهو عذاب يوم الاستئصال فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة ، ومنه قوله تعالى «وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» ، والمحيط من صفة اليوم فى الظاهر ، وفى المعنى من صفة العذاب ، وذلك مجاز

مشهور كقوله «هذا يوم عصيب» .. «وياقوم أوفوا» أتموا تماما حسنا «المكيال والميزان» أى الكيل والوزن وآلتهما ، والنهى عن النقصان أمر بالإيفاء ففائدة قوله تعالى : أوفوا . أنهم نهوا أولا عن القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، لأن فى التصريح بالقبيح نهيا عنه وتغييرا له ، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذى هو حسن فى العقول مصرحا بلفظ المأمور بالوفاء به ترغيبا فيه وحثا عليه وجىء به مقيدا ، «بالقسط» ليكون الإيفاء على وجه العدل والسوية من غير زيادة ولا نقصان أمرا بما هو الواجب ؛ لأن ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه وهو غير المأمور به ، وقد يكون محظورا كما فى الربا «ولا تبخسوا الناس أشياءهم» تعميم بعد تخصيص ، فإنه أعم من أن يكون فى المقدار أو غيره ، فإنهم كانوا يأخذون من كل شىء يباع ، كما تفعل السماسرة ، وكانوا يمسكون الناس ، وكانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء فنهوا عن ذلك ، فالله تعالى نهى فى الآية الأولى عن النقصان فى المكيال والميزان ، وفى الثانية أمر بإعطاء قدر الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين بأداء الواجب إلا عند أداء ذلك القدر من الزيادة ، كما قال الفقهاء : إنه تعالى أمر بغسل الوجه ، وذلك لا يحصل إلا عند غسل جزء من الرأس ، فكأنه تعالى نهى أولا عن أن يجعل مال غيره ناقصا لتحصل له تلك الزيادة ، وفى الثانى أمر بأن يسعى فى تنقيص مال نفسه ليخرج بالتعيين عن العهدة ، كما قيده بقوله تعالى : «ولا تعثوا فى الأرض مفسدين» فإن الإفساد يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد ، ومفسدين : حال مؤكدة لمعنى عاملها ، وفائدتها إخراج ما يقصد به الإصلاح كما فعل الخضر عليه السلام «بقية الله» قال ابن عباس : يعنى ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن «خير لكم» مما تأخذونه بالتطفيف ، وقال مجاهد : مما يحصل لكم فى الدنيا من المال الحرام «إن كنتم مؤمنين» أى مصدقين بما قلت لكم وأمرتكم به «وما أنا عليكم بحفيظ» أعلم جميع أعمالكم وأقدر على كفكم عما يكون منها فسادا .. ولما أمرهم شعيب عليه السلام بالتوحيد وبترك البخس «قالوا» له

« ياشعيب » سموه باسمه استخفافاً وغلظة ، وأنكروا عليه ذلك وهم يستهزئون به « أصلاتك تأمرك » أن نفعل معك فعل من يأمر دائماً بتكليفنا « أن نترك ما يعبد » أى على سبيل المواظبة « آباؤنا » من الأصنام ، فحذف الذى هو التكليف ، لأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره ، قالوا ذلك فى جواب أمره لهم بالتوحيد « أو أن » نترك به « نفعل » أى دائماً « فى أموالنا مانشاء » من قطع الدراهم والدنانير وإفساد المعاملة والمقامرة ونحوها مما يكون إفسادا للمال ، قالوا له ذلك فى جواب النهى عن التطفيف والأمر بالإيفاء ، وإنما أضافوا ذلك إلى صلاته تهكما واستهزاء بها وإشعارا بأن مثل هذا لا يدعو إليه داع عقلى ، وإنما تدعو إليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه ، وكان شعيب عليه السلام يكثر الصلاة فى الليل والنهار وكان قومه إذا رأوه يصلى تغامزوا وتضاحكوا وقصدوا بقولهم « أصلاتك تأمرك » السخرية والهزء ، كما أنك إذا رأيت معتوها يطالع كتبا ثم يذكر كلاما فاسدا فيقال : هذا مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزء ، فكذا هنا ، وقولهم له « إنك لأنت الحليم الرشيد » تهكم به ، وقصدوا وصفه بضد ذلك ، كما يقال للبخيل الخسيس : لو رآك حاتم لسجد لك ، وعللوا إنكار ماسمعوه منه واستبعدوه بأنه موسوم بالحلم والرشد المانعين من المبادرة إلى مثل ذلك « قال يا قوم » مستعطفا لهم لما بينهم وبينه من عواطف القرابة ليكون أدعى إلى سبيل الوفاق والإنصاف « أرأيتم » أى أخبرونى « إن كنت على بينة » أى برهان « من ربى ورزقنى » الضمير فى (منه) لله تعالى أى من عنده بإعانته بلا كد منى فى تحصيله ، وعظم الرزق بقوله « رزقا حسنا » أى جليلا ومالا حلالا لم أظلم فيه أحدا ، وجواب الشرط محذوف ، أى فهل يسيغ مع هذا الإنعام الجامع للسعادة الروحانية والجسمانية أن أخون فى وحيه فأخالفه فى أمره ونهيه ، وهذا اعتذار عما أنكروه عليه من تغيير المألوف والنهى عن دين الآباء « وما أريد أن أخالفكم » أى وأذهب « إلى ما أنهاكم عنه » فأرتكبه « إن » أى ما « أريد » أى فيما آمركم به وأنهاكم عنه « إلا الإصلاح » أى ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتى ونصيحتى

وأمرى بالمعروف ونهيى عن المنكر «ما استطعت» أى وهو الإبلاغ والإنذار فقط، ولا أستطيع إجباركم على الطاعة لأن ذلك إلى الله تعالى؛ فإنه يضل من يشاء ويهدى من يشاء «وما توفيقى» أى لإصابة الحق والصواب «إلا بالله» أى إلا بمعونته وتأييده «عليه» لا على غيره «توكلت» أى اعتمدت فى جميع أمورى، فإنه القادر على كل شىء وما عداه عاجز، وهذه الصيغة تفيد الحصر. فلا ينبغى للإنسان أن يتوكل على أحد إلا الله تعالى، وفيه إشارة إلى محض التوحيد الذى هو أقصى مراتب اليقين «وإليه أنيب» فيه إشارة إلى معرفة المعاد وهو أيضا يفيد الحصر، لأن قوله «وإليه أنيب» يدل على أن لا مآب للخلق إلا إلى الله تعالى، وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر شعيبا قال: ذلك خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه «وياقوم لا يجرمنكم» أى لا يكسبنكم «شقاقى» أى خلافى وهو فاعل الجرم، والضمير مفعول أول والمفعول الثانى «أن يصيبكم» عذاب العاجلة على كفركم وأفعالكم الخبيثة، قال الزمخشرى فى الكشاف: جرم مثل كسب فى تعديه إلى مفعول واحد وإلى مفعولين، تقول: جرم ذنبا وكسبه، وجرمته ذنبا وكسبته إياه، ومنه قوله تعالى: لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم «مثل ما أصاب قوم نوح» من الغرق «أو قوم هود» من الريح العقيم «أو قوم صالح» من الرجفة «وما قوم لوط منكم ببعيد» لا فى الزمان ولا فى المكان، لأنهم كانوا حديثى عهد بهلاكهم، وكانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم، فإن القرب فى الزمان والمكان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الأحوال، وكأنه يقول: اعتبروا بأحوالهم واحذروا من مخالفة الله ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب، وقال «ببعيد» ولم يقل: ببعيدين، لأن التقدير: وما إهلاكهم بشىء بعيد، وأيضا يجوز أن يسوى فى قريب وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر «واستغفروا ربكم» أى آمنوا به «ثم توبوا إليه» من عبادة غيره، لأن التوبة لا تصح إلا بعد الإيمان «إن ربى رحيم» أى عظيم الرحمة للتائبين «ودود» أى محب لهم، ولما بالغ عليه السلام فى التقرير والبيان أجابوه بإجابات فاسدة:

الأولى : « قالوا له يا شعيب ما نفقه » أى ما نفهم « كثيرا مما تقول » ، فإن قيل : إن كان يخاطبهم بلسانه فلم قالوا « ما نفقه » ، أجيب بأنهم كانوا لا يلقون إليهم أذهانهم لشدة نفرتهم عن كلامه ، كما يقول الله تعالى « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » ، أو أنهم فهموه ولكنهم ما أقاموا له وزنا ، فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة ، كما يقول الرجل لصاحبه : إذا لم يعبأ بحديثه : ما أدرى ما تقول .

الثانية : قولهم له « وإنا لنراك فينا ضعيفا » أى لا قوة لك فتمتنع منا إن أردناك بسوء ، أو ذليلا لا عز لك ، وقيل : أعمى بلغة حمير ، قاله قتادة ، وفى هذا تجويز العمى على الأنبياء ، إلا أن هذا اللفظ لا يحسن الاستدلال به فى إثبات هذا المعنى ، لأنه ترك الظاهر من غير دليل ، وقيل : ضعيف البصر ، قاله الحسن .

الثالثة قولهم له : « ولولا رهطك » أى عشيرتك وعزتهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم « لرجمناك » بالحجارة حتى تموت ، والرهط من الثلاثة إلى عشرة ، وقيل : إلى السبعة ، والمقصود من هذا الكلام أنهم بينوا أنه لا حرمة له عندهم ولا دفع له فى صدورهم ، وأنهم إنما لم يقتلوه لأجل احترام رهطه .

الرابعة قولهم له : « وما أنت علينا بعزيز » أى لا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم ، وإنما يعز علينا رهطك لأنهم من أهل ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا ... ولما خوف الكفار شعيباً بالقتل والإيذاء حكى الله تعالى ما ذكروه فى هذا المقام وهو نوعان :

الأول « قال » لهم : « يا قوم » مستعطفا لهم مع غلظتهم عليه « أرهطى أعز عليكم من الله » المحيط بكل شىء قدرة وعلما حتى نظرتم إليهم فى قرابتى منهم ولم تنظروا إلى الله تعالى فى قربى منه لما ظهر على من كرامته « واتخذتموه وراءكم ظهريا » أي جعلتموه كالمنسى المنبوذ وراء الظهر بإشراككم به والاستهانة برسوله ، قال فى الكشاف : والظهرى : منسوب إلى الظهر والكسر من

تغييرات النسب ، ونظيره قولهم فى النسبة إلى الأمس : إمسى ـ بكسر الهمزة ، « إن ربى بما تعملون محيط » أى أنه عليم بأحوالكم فلا يخفى عليه شىء منها .

والنوع الثانى « ويا قوم اعملوا على مكانتكم » والمكانة الحالة التى يمكن صاحبها من عمله ، والمعنى : اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة ، وكل ما فى وسعكم وطاقتكم من إيصال الشرور إلى « إنى » أيضاً « عامل » ما أتانى الله تعالى من القدرة والطاقة « سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب » فمن موصولة مفعول العلم ، ولم يقل « فسوف تعلمون » ؛ لأن إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، وأما حذف الفاء فيجعله جوابا عن سؤال مقدر وهو الاستئناف البيانى تقديره : أنه لما قال : ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل ؛ فكأنهم قالوا : فما يكون بعد ذلك ؟ فقال : سوف تعلمون ، فظهر أن حذف حرف الفاء ههنا أكمل فى بيان الفصاحة والتهويل لأنه استئناف « وارتقبوا » أى انتظروا عاقبة أمركم « إنى معكم رقيب » أى منتظر ، والرقيب بمعنى الراقب من رقبه ، كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم ، أو بمعنى المراقب كالعشير والنديم ، أو بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع « ولما جاء أمرنا » بعذابهم وإهلاكهم « نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة » أى فضل « منا » بأن هديناهم للإيمان ووفقناهم للطاعة .. وجاءت قصة عاد وقصة مدين بالواو وقصة صالح ولوط بالفاء ؛ لأن قصة عاد ومدين لم يسبقهما ذكر وعد يجرى مجرى السبب له بخلاف قصتى صالح ولوط فإنهما ذكرا بعد الوعد ، وذلك قوله تعالى : وعد غير مكذوب ، وقوله : إن موعدهم الصبح ، فلذلك جاءا بفاء السببية « وأخذت الذين ظلموا » أى ظلموا أنفسهم بالشرك والبخس « الصيحة » أى صيحة جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة شديدة ماتوا منها جميعا ، وقيل : أتتهم صيحة من السماء « فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » أى باركين على الركب ميتين « كأن لم يغنوا » أى كأنهم لم يقيموا « فيها » أى فى ديارهم مدة من الدهر ، من قولهم : غنى بالمكان إذا أقام فيه مستغنيا به عن غيره « ألا بعدا » أى

هلا كا ، لمدين كما بعدت ثمود ، شبههم بهم لأن عذابهم كان أيضا بالصيحة : قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم.

٩٦ — وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِئَايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ .

٩٧ — إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوٓا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ .

٩٨ — يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ .

٩٩ — وَأُتْبِعُوا فِى هَـٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ .

١٠٠ — ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ .

١٠١ — وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ .

١٠٢ — وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ .

١٠٣ — إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ .

١٠٤ — وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ .

١٠٥ — يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ .

١٠٦ — فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ .

١٠٧ — خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ .

١٠٨ — وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ .

فى هذه الآيات الثلاث عشرة يذكر الله عز وجل فى إيجاز شديد وإشارات بليغة ، قصة موسى ورسالته إلى قومه ، ومعجزاته الظاهرة بين يدى فرعون ، وكفر فرعون وعناده ، وهلاكه ، وأنه من أهل النار ، يوم القيامة يقدم قومه فيوردهم النار ، ولهم فى الدنيا اللعنة ، وفى الآخرة بئس مايقدم لهم من رفد مرفود .. ويتبع الله عز وجل قصة موسى بالعبرة من ذكرها ، وأن الله عز وجل قد قص على رسوله الكريم قصص هذه الأمم ، سواء الأمم التى بقيت آثارها أم التى بادت ودمرت على حد سواء ، وأن هذه الأمم لم يظلمها الله ، ولكنهم ظلموا أنفسهم ، ولم تغن عنهم آلهتهم التى أشركوا بها من دون الله شيئا لما جاءهم أمر الله بالعذاب ، بل لم تزدهم آلهتهم غير الخسران والدمار .. والله عز وجل إذا أخذ أمة من الأمم بالعذاب دمرها تدميرا ، فبطشه أليم شديد ، وفى بطشه بالكافرين آية وعبرة لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك اليوم المشهود الذى يجمع له الناس جميعا ، والذى لم يؤخره الله عز وجل إلا لأجل معدود وزمن محدود ، وإذا جاء الأجل لم تنبس نفس ببنت شفة ، ولم تتكلم إلا بإذن الله ، ومن الناس حينئذ الشقى ، ومنهم السعيد ، والأشقياء أصحاب النار ، خالدين فيها دائما أبدا ، إلاما شاء الله ، والسعداء الذين لهم الجنة خالدين فيها دائما أبدا إلا ما شاء الله عطاء غير منقوص ، وجزاء غير مجذوذ . وقصة موسى هى القصة السابعة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة وهى آخر قصصها

وفيها تعظيم لشأن موسى عليه السلام ، قال الله تعالى: « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا » أى التوراة مع ما فيها من الشرائع والأحكام « وسلطان مبين » أى برهان بين ظاهر على صدق نبوته ورسالته ، وقيل: المراد بالآيات المعجزات وبالسلطان المبين العصى لأنها أظهر الآيات ، وذلك لأن الله تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات ، وهى : العصى ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، ونقص من الثمرات ، والسنين ، ومنهم من أبدل نقص الثمرات والسنين بإظلال الجبل وفلق البحر ، قال بعض المحققين : سميت الحجة سلطانا لأن صاحب الحجة يقهر من لا حجة له ، كالسلطان يقهر غيره ، والعلماء سلاطين بسبب كمالهم فى القوة العلمية ، والملوك سلاطين بحسب ما معهم من القدرة والمكنة إلا أن سلطنة العلماء أكمل وأقوى من سلطنة الملوك ، لأن سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل ، وسلطنة الملوك تقبلها ، ولأن سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء ، لأن سلطنة العلماء من جنس الأنبياء ، وسلطنة الملوك من جنس الفراعنة « إلى فرعون » طائفة القبط « وملئه » أى أشراف قومه الذين تتبعهم الأذناب ، لأن القصد الأكبر رفع أيديهم عن بنى إسرائيل « فاتبعوا أمر فرعون » أى اتبعوا طريقة فرعون المنهمك فى الضلال والطغيان الداعى إلى مالا يخفى فساده على من عنده أدنى ذرة من التفكير ، ولم يتبعوا موسى الهادى إلى الحق المؤيد بالمعجزات الظاهرة الباهرة لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم « وما أمر فرعون برشيد » أى بسديد ولا حميد العاقبة ولا يدعو إلى خير ، وقيل : رشيد ذو رشد ، وانسلاخ فرعون من الرشد كان ظاهرا ، لأنه كان لا يؤمن بالله ولا بالمعاد ، وكان يقول لقومه : إنه هو إلههم ويجب على أهل كل بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم.. وكل الرشد فى عبادة الله تعالى ومعرفته ، فلما كان فرعون نافيا لهذين الأمرين كان خالياً من الرشد بالكلية « يقدم قومه يوم القيامة » إلى النار كما كان يقدمهم فى الدنيا إلى الضلال ، أو كما يقدم قومه فى الدنيا فأدخلهم البحر وأغرقهم فكذا يقدمهم فى القيامة فيدخلهم النار ، كما قال تعالى « فأوردهم النار » ولم يقل يقدم قومه فيوردهم النار ، بل أتى بلفظ الماضى لأنه إنما أتى بلفظ الماضى مبالغة

فى تحقيقه حيث نزل دخوله النار فى المستقبل منزلة دخولها فى الماضى وسمى إتيانها موردا ، ولهذا قال تعالى «وبئس الورد المورود» وردهم ، لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتسكين الأكباد والنار ضده ، ولفظ الورد مذكر فكان التذكير والتأنيث جائزين كما تقول: نعم المنزل دارك ونعمت المنزل دارك ، فمن ذكر غلب المنزل ومن أنث بنى على تأنيث الدار «وأتبعوا فى هذه» أى فى الدنيا «لعنة» أى طردا وبعدا عن الرحمة «ويوم القيامة» أى وأتبعوا يوم القيامة لعنة أخرى فهم ملعونون فى الدنيا والآخرة ، ونظيره قوله تعالى فى سورة القصص: وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين «بئس الرفد» أى العون «المرفود» رفدهم ، سأل رافع بن الأرزق ابن عباس عن ذلك فقال: هو اللعنة بعد اللعنة ، وقال قتادة : ترادفت عليهم لعنات من الله تعالى : لعنة فى الدنيا ولعنة فى الآخرة ، وكل شىء جعلته عونا لشىء فقد رفدته به ، وسميت اللعنة عونا لأنها إذا تبعتهم فى الدنيا أبعدتهم عن الرحمة وأعانتهم على ما هم عليه من الضلال ، وسميت رفدا أى عونا لهذا المعنى على التهكم ، كقول القائل : تحية بينهم ضرب وجيع ، وسميت معانا لأنها أردفت فى الآخرة بلعنة أخرى ليكونا هاديتين إلى طريق الجحيم .

ولما ذكر تعالى قصص الأولين قال تعالى «ذلك» أى المذكور «من أنباء القرى» أى أخبار أهل القرى ، هم الأمم السالفة فى القرون الماضية «نقصه عليك» أى نخبرك به يا محمد ، والجملة خبر بعد خبر . وفائدة ذكر هذه القصص على النبى صلى الله عليه وسلم ليعلم السامع أن المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل فى الدنيا والثواب الجزيل فى الآخرة ، وأن الكافر يخرج مع اللعن فى الدنيا والعقاب فى الآخرة ، وإذا تكررت هذه الأقاصيص على السمع فلابد وأن يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل فى القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال ، وفى إخباره صلى الله عليه وسلم بهذه القصص من غير مطالعة كتب ولا جلوس إلى معلم دلالة على صدق نبوته ، فإن ذلك لا يكون إلا بوحى من الله تعالى «منها» أى القرى «قائم» أى باق كالزرع القائم هلك أهله دونه «و» منها «حصيد» أى غير باق الأثر كالزرع المحصود هلك مع أهله

« وما ظلمناهم » بإهلاكهم بغير ذنب « ولكن ظلموا أنفسهم » بالكفر والمعاصى ، وقال ابن عباس : يريد : وما نقصناهم من النعيم والرزق ولكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفوا بحقوق الله تعالى « فما أغنت » أى دفعت « عنهم آلهتهم » أى أصنامهم « التى يدعون » أى يعبدون « من دون الله » أى غيره « من شىء لما جاء أمر ربك » أى عقابه « وما زادوهم » بعبادتهم « غير تتبيب » أى غير تخسير وقيل: تدمير ، ولما أخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم فى كتابه بما فعله بأمم من تقدم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لما خالفوا الرسل ، وما ورد عليهم من عذاب الاستئصال ، وبين أنهم ظلموا أنفسهم فحل بهم العذاب فى الدنيا ، قال تعالى بعده « وكذلك » أى ومثل ذلك الأخذ العظيم « أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى » أى القرى « ظالمة » والمراد أهلها ، ونظيره قوله تعالى : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها » وقوله تعالى : « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة » فبين أن عذابه ليس مقصورا على من تقدم بل الحال فى أخذ كل الظالمين يكون كذلك ، ولما بين تعالى كيفية أخذ الأمم المتقدمة ، ثم بين تعالى أنه إنما يأخذ جميع الظالمين على ذلك الوجه ، أتبعه بما بما يزيده تأكيدا وتقوية بقوله تعالى: « إن أخذه أليم » أى مؤلم « شديد » أى صعب مفتت للقوى ، وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . ثم قرأ : وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد .. وفى هذه الآية الكريمة والحديث الشريف دلالة على أن من أقدم على ظلم فإنه يتداركه بالتوبة والإنابة ورد الحقوق إلى أهلها إن كان الظلم للغير ، لئلا يقع فى هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ، ولا يظن أن هذه الآية مختصة بظالمى الأمم الماضية ، بل هى عامة فى كل ظالم ويعضده الحديث « إن فى ذلك » أى ما ذكر من عذاب الأمم الماضية وإهلاكهم « لآية » أى لعبرة وموعظة « لمن خاف عذاب » يوم الحياة « الآخرة » لأنه ينظر ما أحل الله تعالى بالمجرمين فى الدنيا ، وما هو إلا أنموذج مما أعد لهم فى الآخرة ، فإذا رأى عظمه وشدته اعتبر به عظم العذاب الموعود ، فيكون له عبرة وعظة ولطفا فى زيادة

التقوى والخشية من الله « ذلك » إشارة إلى يوم القيامة لأن عذاب الآخرة دل عليه « يوم مجموع له » أى فيه « الناس » أى إن خلق الأولين والآخرين كلهم يحشرون فى ذلك اليوم ويجمعون.. ثم وصفه الله تعالى بوصف آخر بقوله تعالى « وذلك يوم مشهود » أى يشهده أهل السموات وأهل الأرض « وما نؤخره » أى ذلك اليوم وهو يوم القيامة « إلا لأجل » أى وقت « معدود » أى معلوم محدود، وذلك الوقت لايعلمه إلا الله تعالى « يوم يأتى » ذلك اليوم « لاتكلم » أى لا تتكلم « نفس إلا بإذنه » تعالى . فإن قيل: كيف يوفق بين قوله تعالى: يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها، وقوله تعالى : هذا يوم لاينطقون ولايؤذن لهم فيعتذرون . أجيب بأن ذلك اليوم يوم طويل له مواقف ومواطن ، ففى بعضها يجادلون عن أنفسهم ، وفى بعضها يؤذن لهم فيتكلمون ، وفى بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم « فمنهم » أى الناس « شقى » ومنهم « سعيد » أى فمنهم من سبق له الشقاوة فوجبت له النار بمقتضى الوعيد ، ومنهم من سبقت له السعادة فوجبت له الجنة بموجب الوعد ، وعن على رضى الله تعالى عنه قال : كنا فى جنازة فى بقيع الفرقد ، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله وبيده مخصرة ، ثم نكت بها الأرض ساعة . ثم قال : مامن نفس منفوسة إلا قد كتب مكانها من الجنة أو النار ، فقالوا : يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » الآية . . وبقيع الفرقد هو مقبرة أهل المدينة ومدفنهم فيه ، والمخصرة كالسوط والعصا مما يمسكه الإنسان بيده ، والنكت بالنون والتاء : ضرب الشق بتلك المخصرة وباليد ونحو ذلك ، حتى يؤثر فيه « فأما الذين شقوا » فى علمه تعالى « ففى النار لهم فيها زفير » وهو صوت شديد « وشهيق » وهو صوت ضعيف ، أو الزفير إخراج النفس والشهيق رده، وقيل : الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير بالنهيق، والشهيق فى الصدر، وعلى كل

المراد منهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم « خالدين فيها » وقوله تعالى «مادامت السموات والأرض» فيه وجهان : أحدهما سموات الآخرة وأرضها ، وهى مخلوقة دائمة للأبد ، والدليل على أن لها سموات وأرضا قوله تعالى : يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وقوله تعالى: وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء. ولأنه لابد لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم، إما سماء يخلقها الله تعالى أو يظلهم العرش ، وكل ما أظلك فهو سماء ، وكل ما استقر عليه قدمك فهو أرض. والوجه الثانى أن المراد مدة دوامها فى الدنيا «إلا» أى غير «ما شاء ربك» من الزيادة على مدتهما ، ولا منتهى له، وذلك هو الخلود فيها أبداً « إن ربك فعال لما يريد» من غير اعتراض « وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك » كما تقدم، ودل عليه قوله تعالى « عطاء غير مجذوذ » أى مقطوع ، وقيل الاستثناء فى أهل الشقاوة يرجع إلى قوم من الموحدين يدخلهم الله تعالى النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها ، فيكون ذلك استثناء وذلك كاف فى صحة الاستثناء ، لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض من غير الجنس ، لأن الذين أخرجوا من النار سعدوا فى الحقيقة ، استثناهم الله تعالى من الأشقياء ، لما روى عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال : يخرج قوم من النار بالشفاعة ، وفى رواية : إن الله يخرج ما شاء من النار فيدخلهم الجنة ، وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال : ليصيبن قوما شفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة ، ثم يدخلهم الله بفضله ورحمته الجنة ، وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال : يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فيدخلون الجنة ، فيسمون الجهنميين . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص : ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد ، أى عن أهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، بأن تخلى طبقتهم التى كانوا فيها ، وإن نازع فى ذلك الزمخشرى على مذهبه : إن أهل الكبائر يخلدون فى النار، وأما الاستثناء من أهل السعادة فيرجع إلى مدة لبثهم فى النار قبل دخولهم الجنة ، أو الاستثناء راجع إلى الفريقين، فإنهم فارقوا الجنة أيام عذابهم، وأن التأبيد من مبدأ معين ينقص

باعتبار الابتداء كما ينقض باعتبار الانتهاء ، وهؤلاء وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم ، فعلى هذا لم يكن قوله تعالى « فمنهم شقى وسعيد » تقسيما صحيحا ، لأن شرطه أن تكون صفة كل قسم منتفية عن قسميه . . وقيل معناه : لو شاء ربك لأخرجهم منها ، ولكنه لايشاء ، لأنه تعالى حكم لهم بالخلود . . وقال الفراء : هذا الاستثناء استثناه الله تعالى ولايفعله ، وقيل: إن هذه عبارة عن التأبيد على لغة العرب، تقول: لا أكلمه ما دامت السموات والأرض ، ولا يكون كذا ما اختلف الليل والنهار ، أى دائما أبدا . . وقيل : إذا نقل أهل النار منها إلى ما دونها من العذاب ، وكذلك أهل الجنة ينعمون بما هو أعلى من الجنة ، وهو الفوز برضوان الله تعالى ولقائه .

الربع السابع من سورة هود

١٠٩ — فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ .

١١٠ — وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ .

١١١ — وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

فى عد أول هذه الآيات ـ بدء الربع السابع ـ تجوز ملحوظ ، فقد تركنا آية : « وأما الذين سعدوا » هنا ، حيث ذكرناها فيما مضى ، تتمة للفائدة ، وإكمالا لمعنى الكلام هناك . .

فى هذه الآيات الثلاث بيان لكفر مشركى مكة وشركهم ، وللجزاء الأليم الذى ينتظرهم ، وكما اختلف هؤلاء المشركون فى الدين فقد اختلف أتباع موسى كذلك ، ولكن الله يؤخر حسابهم إلى أن يأتى أجلهم الموعود،

فيستوفون جزاءهم ، كما يوفى الله عز وجل المشركين جزاءهم كذلك ، فهو عليم خبير بكل ما يعمل هؤلاء وهؤلاء ، وبكل ما يقترفه الناس جميعاً . .
وهكذا لما شرح الله تعالى أقاصيص عبدة الأوثان، ثم أتبعها بأحوال الأشقياء وأحوال السعداء ، شرح للرسول صلى الله عليه وسلم أحوال الكفار من قومه فقال : « فلا تك » يا محمد « فى مرية » أى شك « مما يعبد هؤلاء » المشركون من الأصنام ، إنما نعذبهم كما عذبنا من قبلهم ، وهذه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم « ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم » أى كعبادتهم « من قبل » وقد عذبناهم « وإنا لموفوهم » مثلهم « نصيبهم » أى حظهم من العذاب « غير منقوص » أى كاملا غير ناقص . ولما ذكر تعالى فى هذه الآية إعراضهم عن الاتباع مع ما أوفى به من المعجزات وأنزل عليه من الكتاب ، سلاه بأخيه موسى عليه السلام بقوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب » أى التوراة الجامعة للخير « فاختلف فيه » أى الكتاب ، فآمن به قوم وكفر به قوم ، كما اختلف هؤلاء فى القرآن « ولولا كلمة سبقت من ربك » بتأخير الحساب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة « لقضى » أى لوقع « بينهم » أى بين من اختلف فى كتاب موسى فى الدنيا فيما اختلفوا فيه بإنزال ما يستحقه المبطل ليتميز به المحق ، ولكن سبقت الكلمة أن القضاء الكامل إنما يكون يوم القيامة . كما قال تعالى فى سورة يونس عليه السلام « فما اختلفوا حتى جاءهم العلم » الآية . ولما كان الاختلاف قد يكون بغير الكفر بين تعالى أن كل طائفة من اليهود تنكر وتشك فيه وتفعل فعل الشاك فقال تعالى : مؤكدا « وإنهم لفى شك » . أى عظيم محيط بهم « منه » أى من الكتاب والقضاء « مريب » أى موقع فى الريب والتهمة والاضطرب مع ما رأوا من الآيات التى منها سماع كلام الله تعالى ، ورؤية ما كان يتجلى فى جبل الطور من خارق الأحوال ، وقيل: الضمير فى « وإنهم » راجع لكفار مكة وفى كلمة « منه » راجع للقرآن الكريم « وإن كلا » معناه كل الخلائق « لما » اللام زائدة موطئة للقسم المقدر ، وتقديره : والله « ليوفينهم ربك أعمالهم » أى فيجازى المصدق على تصديقه

بالجنة ، ويجازى المكذب على تكذيبه بالنار.. أخبر الله تعالى فى هذه الآية أنه يوفى كل أحد جزاء عمله ، وأكد ذلك بسبعة تأكيدات : إن ، وكلا ، ولام القسم ، وما ـ التى هى كما يقول الفراء موصول ، والضمير ، ولام «ليوفينهم» الداخلة على جواب القسم ، ونون التوكيد . فهذه المؤكدات تدل أن أمر الإيمان والربوبية لا يتم إلا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر ، ثم أردف ذلك بقوله تعالى : «إنه بما تعملون خبير» وهو من أعظم المؤكدات ، فإنه تعالى لا يخفى عليه شىء من أعمال عباده ، ففيه وعد للمحسنين ، ووعيد للمكذبين الكافرين . .

١١٢ — فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

١١٣ — وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ .

١١٤ — وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ .

١١٥ — وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ .

١١٦ — فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ .

١١٧ — وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ .

١١٨ — وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ .

١١٩ — إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

١٢٠ — وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ .

١٢١ — وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ .

١٢٢ — وَٱنتَظِرُوٓا إِنَّا مُنتَظِرُونَ .

١٢٣ — وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

هذه الآيات الإثنتا عشرة هى ختام السورة ، وهى من الآيات الجامعة ؛ وقد جاءت هذه الآيات إثر تمهيد طويل سيقت فيه أخبار أمم خلت ، وبينت فيه دعوة الرسل وعلاقاتهم مع هذه الأمم ، وما لقى الرسل من جحود وعناد ، وما أصاب الأمم من القوارع والمحن بسبب هذا الجحود والعصيان . وفى هذا القصص عبرة وعظة ، وفيها تحذير من الوقوع فى مثل ما وقعت فيه تلك الأمم ، حتى لا يقع للعرب وغيرهم من العذاب مثل ما وقع عليها ، وفيها تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عما يلاقيه من الأذى والعناد ، ليثبت على الدعوة ويقوى ويصبر ...

وبعد هذا القصص الذى يعد النفوس لقبول الحق ، ويقوى الهمة لامتثال التكاليف ، طلب الله سبحانه الاستقامة ونهى عن الطغيان والظلم ، وطلب العبادة والصبر ، وهذا هو كل الدين على طريق الإجمال . والاستقامة : السير على الطريق المستقيم ، وهو الدين القيم الذى ابتعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم من عقائد وأخلاق وعبادات وشرائع ، فهى كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل . ومن الأمور المطلوبة منه صلى الله عليه وسلم ما هو خاص به مثل تبليغ الأحكام والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة .

ومنها ما هو مطلوب منه ومن أمته مثل الصلاة والصيام والحج وما إلى ذلك من التكاليف العامة . ومعنى « ومن تاب معك » أى وليستقم من تاب عن الكفر ورجع عنه وصار معك ، وليحافظ على ما أمر به ، وليؤده كما أمر به ؛ أمر صلى الله عليه وسلم وأمر أتباعه بالاستقامة ، ونهوا عن الطغيان وهو تجاوز الحد ، إما بالإفراط وإما بالتفريط ، فليس لهم أن يحلوا حرامه ولا أن يحرموا حلاله ، وليس لهم أن يغلوا فى الطاعات ، فإن الغلو مذموم ، كما أن التفريط مذموم ، و « لن يشاد الدين أحد إلا غلبه » ، « ألا وإن هذا الدين غض طرى ، ألا فأوغلوا فيه برفق » . ليس لهم أن يبدلوا كيفية عبادته ، وليس لهم أن يجتمعوا على عبادة لم يجتمع عليها سلف الأمة ، وليس لهم أن يتجبروا وأن يتكبروا ، وأن يكونوا للناس سادة ، وأن يتخذوا الناس عبيداً ، وليس لهم أن يظلموا أحدا وأن ينالوه فى ماله أو نفسه أو عرضه ؛ كل هذا طغيان نهى النبى صلى الله عليه وسلم عنه ونهيت أمته . وبعد أن أمرهم بالاستقامة ونهاهم عن الطغيان ، حذرهم العاقبة وخوفهم نفسه فقال : « إنه بما تعملون بصير » فهو عليم به وشاهده لا تخفى عليه خافية ، وسيجازى عليه .. والآية تدل على وجوب اتباع النصوص كما هى فى العقائد والعبادات ، وعلى وجوب اجتناب الرأى فيها ، والله سبحانه هو الذى طلب الشىء وطلب أن يكون كما أمر به ، هو العليم بمعانى كلامه ، فإذا لم تكن المعانى اللغوية مما يشهد لها صريح العقل وجب أن يفوض الأمر فيها إلى الله ، والله سبحانه حدد طريقة عبادته ، فليس لأحد أن يدخل الرأى فيها . وفيما عدا العقائد والعبادات مما وضع لإصلاح الاجتماع ونظام الأمم تتبع النصوص ، وتطلب المدارك ، ويصح القياس والاجتهاد ، وتوضع النظم فيما لم يرد فيه نص ، على أن يكون كل نظام غير مخالف لأغراض الكتاب .. ثم نهى الله عز وجل المؤمنين عن الركون إلى الظالمين . والركون إلى الشىء : السكون إليه والميل إليه بالمحبة والاستناد والاعتماد عليه ، ومعاضدة الظالمين ومناصرتهم وحبهم ركون إليهم ، وتحسين أعمالهم لهم وتزيينها للناس ركون إليهم ، والاعتماد عليهم والانتصار بهم

ركون إليهم ، وموالاتهم ركون إليهم ، وإقرارهم على الظلم فى الأعمال العامة ركون إليهم ؛ وكل ذلك منهى عنه ، وقد جعل الله جزاءه النار . وإذا كانت النار جزاء الذى يركن إلى الظالم ، فكيف يكون حال الظالم نفسه ؟ ! والغرض من هذه الآية تقبيح الظلم ، والتنفير منه ، والنهى عنه بهذا الأسلوب القوى المنفر من الظلم والظالمين . وقد أخبر الله سبحانه أن الذين يركنون إلى الظالمين لا يجدون أولياء وأنصارا يخلصونهم من النار ، وأن الله سبحانه لا يغفر لهم ولا ينصرهم . وهذا معنى قوله : « وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » . ثم يأمر الله عز وجل بإقامة الصلاة ، وإقامة الصلاة : أداؤها على الوجه الأكمل وإدامتها . وبعد أن أمر النبى بالاستقامة ونهى عن الطغيان ، أمر بإقامة الصلاة التى هى أعظم العبادات ، والوسيلة التى يستعان بها على امتثال الأوامر واجتناب النواهى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وهى العبادة المذكرة بالمعبود ، والتى يستحضر فيها جلاله وجماله وعظمته ومجده . وطرفا النهار : الغداة والعشى ، أو البكرة والأصيل . والزلف : ساعات من الليل قريبة من النهار . وقد أجمعوا على أن صلاة الغداة هى صلاة الفجر ، واختلفوا بعد ذلك فى صلاة العشى التى تقع فى الطرف الثانى ؛ فقال بعضهم : هى صلاة الظهر والعصر ، وروى ذلك عن مجاهد والضحاك ومحمد بن كعب القرظى ، وعلى ذلك تكون الآية مشتملة على الصلوات الخمس : الفجر فى الطرف الأول ، والظهر والعصر فى الطرف الثانى ، وصلاة الزلف من الليل وهى صلاة المغرب والعشاء . وقال أبو جعفر : أولى الأقوال عندى أن الصلاة التى فى الطرف الثانى هى صلاة المغرب ، لأنهم حين أجمعوا على أن الأولى صلاة الفجر وهى تقع قبل طلوع الشمس ، وجب أن تكون الثانية هى المغرب لأنها تصلى بعد الغروب . وعن الحسن : بين الله سبحانه مواقيت الصلاة فى القرآن فقال « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل » ودلوك الشمس زوالها عن كبد السماء حيث يكون لها فىء فى الأرض فهى صلاة الظهر ، وقال : « وأقم الصلاة طرفى النهار » وهى صلاة الفجر وصلاة

العصر ، ثم قال « وزلفا من الليل » والصلاة المقصودة بذلك صلاة المغرب والعشاء . وعنه صلى الله عليه وسلم « زلفتا الليل المغرب والعشاء » . وقد اختلف العلماء فى الحسنات المرادة فى هذه الآية ، فقيل: إن المراد بها الصلوات الخمس ، وروى ذلك عن مجاهد والضحاك وابن عباس لقوله صلى الله عليه وسلم « جعلت الصلوات كفارات لما بينهن » ، ولقوله « مثل الصلوات الخمس مثل نهر جار على باب أحدكم ينغمس فيه كل يوم خمس مرات فماذا يبقين من درنه » ؟ ويقرب هذا المعنى أن قوله « إن الحسنات يذهبن السيئات » جاء عقب الأمر بإقامة الصلاة ، والوعد على إقامتها بالخير الجزيل من الثواب أولى من الوعد به على شىء لم يجر له ذكر من الأعمال الصالحة غيرها . وقيل: إن الحسنات هنا عامة ، ولا شك أن الصلاة من أكبر الحسنات ، كأنه قيل : أقم الصلاة لأنها حسنة من الحسنات والحسنات يذهبن السيئات . والمراد من السيئات هنا صغار الذنوب ، والحسنات يذهبنها إذا اجتنبت الكبائر . وقوله تعالى : « ذلك ذكرى للذاكرين » معناه أن ذلك الوعد الذى وعدت به من أقام الصلاة ، والوعيد الذى أوعدت به على الطغيان ، تذكرة ذكرت بها أقواماً يذكرون الله ، ويخافون عقابه ، ويرجون ثوابه . أما الذين طبع الله على قلوبهم فلا يجيبون داعياً ولا يسمعون زاجرا . ثم يأمر الله عز وجل رسوله الكريم بأن يلزم الصبر ، فيخاطبه بقوله سبحانه : « واصبر » ، أى الزم الصبر على ما تلقاه من أذى قومك ، وعلى ما تسمعه من المكروه . والصبر أفضل الأخلاق وأكمل الحسنات ، ينال به الظفر ، وتدنو الغايات ، وتتحقق المقاصد ، « فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » ، بل يوفى لهم الجزاء وهم أحوج ما يكونون إليه . وهنا يعبر الله عز وجل بأسلوب التحضيض مع الأسف والتفجع ، الذى يقع عادة من البشر ، على هذه الأمم التى لم تهتد ، بل غرقت فى الضلالة حتى هلكت ونظير ذلك : « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » . والمعنى أن هذه الحالة من شأنها أن توجد الأسف والحسرة ، وأن يتمنى المرء أنه وجد فى هذه الأمم خيار

لهم عقل وحزم ينهون عن الفساد فى الأرض ، ويعتبرون بالآيات ، ويتدبرون الدلائل ، ويعرفون ما يكون لهم بالإيمان ، وما يكون عليهم بالكفر والعصيان . يقال : فلان من بقية القوم أى خيارهم ، وأصل ذلك أن الرجل يبقى مما يخرجه أجود ما عنده وأفضله ، فصار ما يبقى مثلا فى الجودة . وقوله : « إلا قليلا » معناه : لكن كان منهم خيار قليلون نهوا عن الفساد فى الأرض ، ولذلك نجاهم الله سبحانه من العذاب ، وأهلك الأكثرين . ومعنى « واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه » : أى اتبعوا الشىء الذى أترفوا فيه من نعيم الدنيا ولذاتها ، وآثروه على أعمال الآخرة ، وتجبروا وتكبروا ، وتركوا الحق ، فصاروا بذلك مجرمين .

وقد فسر بعضهم الظلم هنا بالشرك ، ومنه قوله تعالى : « إن الشرك لظلم عظيم » . والمعنى على ذلك : إن الله لا يهلك القرى بسبب الشرك إذا كان أهلها متبعين قواعد العدل والإنصاف ، سائرين على المنهج القويم فى الحكم وفى إصلاح الأرض واستثمارها وجنى منافعها . وقيل : إن المعنى أن الله لا يهلك القرى ظلماً منه إذا كان أهلها مصلحين ، وإذا أهلكها فهو يهلكها لفساد أهلها وبغيهم وظلمهم ، والله سبحانه منزه عن الظلم ، « ولا يظلم ربك أحداً » .

وعندما وجد الإنسان على الأرض كان يعيش عيشة البداوة ، لا هم له إلا أن يحفظ نفسه من عاديات الأنواع الأخرى ، ومن قسوة الطبيعة ، ولا يفكر إلا كيف يعيش ، ليس لديه من المعلومات والمعارف ما به ينظر فى العلل والمعلومات وفى الحق والباطل ، وتدرج بعد ذلك فى التفكير ، وطرق النظر ، فوجد الاختلاف ، وهذا الاختلاف طبيعى فى نوع الإنسان ، مثل اختلاف أمزجته فى الطعام والشراب وما يحب ويكره . وليس حاله كحال الملائكة خلقوا بطبعهم عارفين عابدين « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ، ولا كجماعة النمل أو النحل ألهمت نوعا من النظام تسير عليه . وقد كان الله سبحانه قادرا على أن يخلق الإنسان كما خلق الملائكة وكما خلق النمل يسير على نظام ملجىء يجعله متفقا فى الدين والعقيدة والرأى والعمل ،

ولكنه لم يخلقه هكذا ، بل خلقه مختارا مريدا متمكنا ، وخلقه مفكرا مدبرا، ووكله إلى قواه من عقل وإرادة واختيار بعد أن أرشده ونصب له الأدلة من الكون ، وأقام له البينات فى ألواح الوجود ، ثم أتم عليه النعمة ، وأكمل المنة ، وأرسل الرسل تترى ، وأنزل الكتب فيها الهدى وفيها الحق ، وفيها الرشاد ، وهذا كله من شأنه أن يوجد الاختلاف . فالناس على هذا لايزالون مختلفين فى وجود الخالق ، وفى إرسال الرسل ، وفى طرق العلم ، ولا يزالون مختلفين فى الأديان ، بل وفى الدين الواحد . والاختلاف فى الرأى والعقيدة مثل الاختلاف فى الطبائع لازم من لوازم خلق النوع الإنسانى على ما خلق عليه ، فهو صائر إلى الاختلاف لا محالة ، وكأن الله خلقه لهذا الاختلاف ؛ لذلك قال الله سبحانه : « ولذلك خلقهم » . وقد قضى الله سبحانه ـ بعد أن بين للإنسان طريق الخير وطريق الشر وأتم نعمته عليه من إقامة الأدلة فى السموات والأرض ومن إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، وبعد أن وعد الطائعين بالرحمة والثواب والنعيم ، وأوعد العصاة بالنقمة والغضب والعذاب الأليم ـ أن يكون الناس والجن فريقين : فريق الطائعين ينعمون فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وفريق الأشقياء يعذبون فى جهنم تلفح وجوههم النار ، وهذا القضاء هو كلمة الله التى تمت ولا راد لها ، ولا معقب لكلمته ولا لحكمه . وهذا معنى قوله سبحانه : « وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » . وبعد ذلك يقول الله عز وجل الكريم : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » والمعنى : ونقص عليك يا محمد كل نوع من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ونقويه ونجعله ثابتا كالجبال الرسيات ، لاتزعزعه الخطوب، ولا تنال منه المحن والنوائب . وهذه الأنواع هى الأخبار الخاصة بعلاقاتهم مع أممهم فى تبليغ الدعوة إلى الدين الحق ، ومحاجتهم بالأدلة القاطعة ، وما لقى الرسل من هذه الأمم من عناد وجحود وجدل بالباطل ، وما فعله الله بهذه الأمم من إهلاك العصاة وإنجاء الطائعين . ولم يقص الله سبحانه من أنباء الرسل

الأخبار الخاصة بهم ، والأخبار التي لا علاقة لها بالدعوة ، والتي لا تفيد عبرة وعظة وتنبيها ، ومثل هذه الأخبار الخاصة توجد في غير القرآن . . وهذه القصص تدل على ما لقي الرسل من العناد والجحود والإسراف في العصيان والعدوان ، وتدل على أن الرسل مع هذا كله صبروا وثابروا ونجحوا في الدعوة إلى الواحد المعبود ، وبلغوا المقصود ؛ فبهذا تقوى عزيمة النبي صلى الله عليه وسلم وتثبت ، ويحمله ذلك على الصبر والمثابرة ، وعلى تشمير ساعد الجد في التبليغ واحتمال الأذى . وقد قال في آية أخرى : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » ، وهذه الأنباء قصت الأمور كما وقعت من غير تحريف ومن غير زيادة ، ففيها الحق واشتملت على كل ما دعا إليه الرسل من توحيد الله وإفراده بالعبودية ، ومن إقامة العدل في الأرض ، وإصلاح الجماعة البشرية ، ونفي البغي والفساد والطغيان ، وهذا كله حق جاء في هذه الأخبار ، وفيها تخويف وموعظة ، وفيها تذكرة للمؤمنين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا . ثم يأمر الله عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار اعملوا على مكانتكم ؛ أي على حالتكم التي أنتم عليها ، وإني عامل على مكانتي وطريقتي وحالتي ، وانتظروا ما أنتم منتظرونه من فشل دعوتي وحبوطها ، ومن موتي قبل أن أتم الدعوة وقبل أن يسيح الإسلام في الأرض ، وقبل أن أظفر بهدم الأصنام وإزاحة الشرك ؛ وإني منتظر ما وعدني الله سبحانه به من تمكين الدين ، ومن الأمن والطمأنينة بعد الخوف ؛ ومنتظر أن أمحو الشرك ، وأكسر الأصنام ، وأطهر الأرض منها ؛ ومنتظر أن أعمرها بالتوحيد والإخلاص لله ، وفي هذه الآية من القوة في التثبيت ما يزيد على التثبيت الذي حصل للنبي صلى الله عليه وسلم من ذكر أخبار الأولين ، وفيها تهديد قوي للمشركين لا شك أنه أفعل في فت عضدهم وكسر شوكتهم من كل تهديد . فلله غيب السموات ، علم ما غاب في السموات

والأرض لله وحده ، وإذا كان يعلم ماخفى وغاب ، فهو يعلم ما ظهر وحضر ، وكيف لا يعلم كل ذرة فى السموات والأرض وهو الذى خلقها وقدرها وأرادها ؟ فعلمه محيط بكل كلى وكل جزئى ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، وإليه يرجع كل شىء فى السموات والأرض ، لأن كل شىء فيها محتاج إلى مدد الوجود منه فى كل لحظة ، ولو أنه انقطع عنه الفيض ما بقى ، فقدرته شاملة كما أن علمه شامل ؛ لذلك من حقه وحده أن يعبد ، ومن حقه وحده أن يتوكل عليه ، فانه لا يستطيع أحد غيره أن يضر أو ينفع ، وهو غير غافل عن أعمال عباده بل محيط بها ويعلمها .

وهذه الخاتمة من أجل خواتم السور ، وصف الله سبحانه نفسه فيها بأكمل الصفات الثبوتية ، وهى العلم الشامل ، والقدرة الكاملة ، وهما منبع الخير والنعمة على العالم ، وبهما يتجلى جلال الحق وجماله . وقد جاءت آيات الأنعام مفصلة لهاتين الصفتين أكمل تفصيل . « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم مافى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين . قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون . قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ، انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » .

إن الإنسان فى حاجة إلى معرفة الله ، ومعرفة الله بحقيقته وكنهه غير ميسورة ، فهو إنما يعرف بصفاته ، ومن أجل صفاته صفتا العلم والقدرة ،

وكما أنه فى حاجة إلى تكميل نفسه بالمعارف فهو فى حاجة إلى تطهيرها من الأدران ، وإلى وصلها بعالم القدس ، وذلك يكون بالعبادات البدنية ، وبالعبادات الروحية ؛ وأفضل العبادات البدنية بالحركات الصلاة ، وبالسكون الصوم ، وأنفع البر الصدقة . والعبادة الروحية تأمل وفكر فى عجائب الصنع ، وتدبر فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، ولا تكون العبادة خالصة إلا بإفراده وحده بالتوجه والقصد وطرح كل ما فى الوجود من المخلوقات ، وذلك هو الإخلاص فى العبادة ، المطلوب بقوله سبحانه : « إياك نعبد » . وإخلاص العبادة لله ، وهو ثمرة التوحيد ، ينتج ثمرة أخرى فى الأعمال هى التوكل على الله سبحانه ، وهو المطلوب بقوله : « وإياك نستعين » ومعنى « توكل عليه » اجعله وكيلا ، فإنك إن جعلته وكيلا وجدت إلى الخير سبيلا ؛ والله يقول : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » أى كافيه ومراعيه ، وقال « ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » والعزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ بجاه ، والحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره . والتوكل ثمرة من ثمرات الإيمان ، وثمرات التوحيد ، فإذا اعتقد شخص أنه الواحد القهار الفعال لما يريد ، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين ، وأنه الحكيم العليم ، انصرفت نفسه عن الأغيار ، واتجه بكليته إلى الواحد القهار ، وأيقن أنه الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، وأنه الذى ينزل الغيث ، وينبت الزرع ، وبيده مقاليد كل شىء . والوكالة تستدعى الثقة بالوكيل والطمأنينة إليه ، واعتقاد القدرة فيه وعدم التقصير . وله درجات تتبع قوة الإيمان والمراقبة ، فمن الناس من يكون حاله كحال الصبى مع أمه لا يعرف غيرها ، ولا يفزع إلى أحد سواها ؛ ومن لناس من يرضى بحاله ولا يفزع ولا يدعو ولا يتضرع اعتقادا منه بأن الله يطلبه وإن لم يطلبه ، ويفتح عليه أبواب الخير وإن لم يحرك مغاليقها ، وهو مقام يسكت فيه المؤمن عن الدعاء ، ويصرف النظر عن الأسباب . وليس توكل منافياً للأسباب جميعها ، فإن ترك الأسباب جميعها نقض للشريعة وترك

للسنة ، والذى لا يحرث الأرض لا تنبت أرضه زرعا ، والذى لا يسقيها لا تنبت له زرعا . فالأسباب والسنن التى ربط الله بها مسبباتها لا يجوز إغفالها والتمسك بها لا ينقض الوكالة ، فإن الموكل يقدم البينات والحجج للوكيل ، وهى أسباب ، وذلك غير منافٍ للثقة به والطمأنينة اليه ؛ والله يقول : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » والطير تتوكل على الله ، وهى تغدو خماصا وتروح بطانا ، وتلك أسباب سنها الله . ويقول النبى صلى الله عليه وسلم « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير ؛ تغدو خماصا وتروح بطانا » . لكن الذى ينافى التوكل هو الاعتماد على الأسباب الموهومة ، أو الاعتماد على الأسباب الطبيعية مع ترك الاعتماد على الله . والعبادة هى التى تذكر المعبود وتثمر التوكل ؛ لذلك ذكرت العبادة قبل التوكل ؛ لذلك ذكرت العبادة قبل التوكل ، وكانا معاً ثمرة الاعتقاد بأن لله غيب السموات والأرض واليه يرجع الأمر كله . وعلى كل حال فالمطلوب من المؤمن أن يعتقد أنه لا أحد من الخلق يضر وينفع إلا بإذن الله ، وأن يكون حاله دائما حالة المطمئن الواثق بالله الذى لا يدعو أحداً غيره فى جلب الخير ودفع السوء ، وألا يتمسك إلا بالأسباب التى سنها الله ، وليس منها اتخاذ الواسطة بين العبد والرب ، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الجامعة الرائعة الكريمة : « فاستقم » أى على دين ربك « كما أمرت » والأمر فى ذلك للتأكيد ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان على الاستقامة لم يزل عليها ، فهو كقولك للقائم : « قم حتى آتيك » أى دم على ما أنت عليه من القيام حتى آتيك ، وتوطئة لقوله تعالى : « ومن تاب معك » أى وليستقم أيضاً على دين الله والعمل بطاعته من آمن معك ؛ قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهى ، وأشار صلى الله عليه وسلم إلى شدة الاستقامة بقوله : شيبتنى هود وأخواتها ،

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : ما نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم آية أشد ولا أشق من هذه الآية ، وعن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك ، قال : قل آمنت بالله ورسوله ، ثم استقم .. وقال الرازى : « إن هذه الآية أصل عظيم فى الشريعة ، وذلك لأن القرآن لما ورد بالأمر بأعمال الوضوء مرتبة فى اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها ، لقوله تعالى : فاستقم كما أمرت ، وكذا القول فى كل ما ورد أمر الله تعالى به .

ولما كانت الاستقامة هى التوسط بين طرفى الإفراط نهى عن الإفراط بقوله تعالى : « ولا تطغوا » أى تتجاوزوا الحد فيما أمرتم أو نهيتم عنه بالزيادة إفراطاً ، فإن الله تعالى إنما أمركم ونهاكم لتهذيب أنفسكم لا لحاجته إلى ذلك ، ولن تطيقوا أن تقدروا الله حق قدره ، والدين متين ولن يشاد أحد إلا غلبه ، كما ورد عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأيسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة ، فقوله صلى الله عليه وسلم : إن الدين يسر ضد العسر ، فأراد به التسهيل فى الدين وترك التشديد ؛ فإن هذا الدين مع يسره وسهولته قوى ، وقوله « وسددوا » أى اقصدوا السداد فى الأمور وهو الصواب ، « وقاربوا » : أى اطلبوا المقاربة وهى القصد الذى لا غلو فيه ولا تقصير ؛ والغدوة هى : الرواح بكرة ، والرواح الرجوع عشاء ، والمراد منه : اعملوا بالنهار واعملوا بالليل أيضاً ، وقوله « واستعينوا بشىء من الدلجة » إشارة إلى تقليله .

ولما نهى تعالى عن الإفراط وهو الزيادة تصريحا أفهم النهى عن التفريط وهو النقص عن المأمور تلويحا من باب أولى ، ثم علل ذلك مؤكداً تنزيلا لمن يفرط أو يفرط منزلة المنكر فقال : « إنه بما تعملون بصير » أى عالم بأعمالكم كلها لا يخفى عليه شىء منها فيجازيكم عليها « ولا تركنوا » أى تميلوا « إلى الذين ظلموا » أدنى ميل « فتمسكم النار » أى تصيبكم بحرها ، والنهى

يتناول الانخراط فى هواهم والانقطاع إليهم ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومرافقتهم والرضاء بأعمالهم والتشبه بهم والتزيى بزيهم وتطلع العين إلى زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم ، لقوله تعالى « ولا تركنوا » والركون هو الميل اليسير ، وقال صلى الله عليه وسلم : من دعى لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه ، وقوله تعالى « وما لكم من دون الله من أولياء » أى من أعوان وأنصار يمنعونكم من عذابه ، وهو حال من قوله « فتمسكم النار » أى وأنتم على هذه الحالة « ثم لا تنصرون » أى لا تجدون من ينصركم ويخلصكم من عذاب الله فى يوم القيامة ، ففى الآية وعيد إلى من ركن للظلمة من أن تمسه فكيف يكون حال الظالم نفسه .

ولما أمر الله تعالى بالاستقامة أردفه بالأمر بالصلاة بقوله تعالى « وأقم الصلاة » وذلك يدل على أن أعظم العبادات بعد الإيمان بالله تعالى هو الصلاة ، وقوله تعالى « طرفى النهار » أى الغداة والعشى أى الصبح والظهر والعصر « وقوله تعالى « وزلفا » جمع زلفة أى طائفة « من الليل » أى المغرب والعشاء « إن الحسنات » كالصلوات الخمس « يذهبن » أى يكفرن « السيئات » أى الذنوب الصغائر ، لما رواه مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر ، وزاد فى رواية أخرى : ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ما تقولون ، هل يبقى من درنه شىء ؟ قالوا : لا يا رسول الله لا يبقى من درنه شىء ، فقال : ذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا ، وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار على باب أحدكم يغتسل منه خمس مرات ، وعن الحسن : الحسنات : هى قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر..

وسبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذى عن أبى اليسر بن عمرو قال : أتتى امرأة وزوجها بعثه النبى صلى الله عليه وسلم فى بعث فقالت : بعنى بدرهم تمراً قال : فأعجبتنى فقلت : إن فى البيت تمرا هو أطيب من هذا فالحقينى ، فدخلت معى البيت فأهويت إليها فقبلتها ، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال: استر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : أخنت رجلا غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هـذا ؟ حتى تمنى أن لم يكن أسلم إلا تلك الساعة ، حتى ظن أنه من أهل النار ، وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا حتى أوحى الله إليه : « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل » إلى قوله تعالى : « ذلك ذكرى للذاكرين » أى عظة للمتقين ، قال أبو اليسر : فأتيته فقرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألهذا خاصة أم للناس عامة ؟ قال : بل للناس عامة ، قال الترمذى : هـذا حديث حسن غريب ؛ وعن عبد الله أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فنزلت ، فقال رجل : يا رسول الله ألهذا خاصة ؟ فقال : بل للناس كافة ، وعن معاذ بن جبل قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يا رسول الله : أرأيت رجلا أتى المرأة ليس بينهما معرفة ، وليس يأتى الرجل إلى امرأة شيئاً إلا تدانى حواليها إلا أنه لم يجامعها ، قال : فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ ويصلى ، قال معاذ : فقلت يا رسول الله : أهى له خاصة أو للمؤمنين عامة ؟ قال : بل للمؤمنين عامة ؛ هذا والصغائر من الذنوب تكفرها الأعمال الصالحة ، مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من أعمال البر ، وأما الكبائر من الذنوب فلا يكفرها إلا التوبة النصوح بثلاثة شروط : الأول : الإقلاع من الذنب كله ، الثانى : الندم على فعله ، الثالث : العزم التام على أن لا يعود إليه فى المستقبل . فإذا حصلت هذه الشروط صحت التوبة وكانت مقبولة . والإشارة فى قوله تعالى : « ذلك ذكرى » إلى ما تقدم ذكره من قوله : فا كما أمرت - إلى ههنا ، ستقر

وقيل : هو إشارة إلى القرآن ، وقوله تعالى : « واصبر » خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، أي واصبر يا محمد على أذى قومك أو على الصلاة وهو قوله تعالى : وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها . فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ، أى أجر أعمالهم وعدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلا على أن الصلاة والصبر لا يعتد بهما دون الإخلاص لله .

ولما بين الله تعالى ما لحق بالأمم السابقة من العذاب والدمار والهلاك ، من نوح إلى موسى، بين أن السبب فيه أمران :

١ — الأول أنهم ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد فى الأرض ، فقال تعالى : « فلولا » أى فهلا « كان من القرون » أى الأمم الماضية « من قبلكم أولو بقية » أى أصحاب رأى وخير وفضل « ينهون عن الفساد فى الأرض » وسمى أولو الفضل والجود بقية لأن الرجل يستبقى مما يخرجه أجوده وأفضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ، ويقال : فلان من بقية القوم أى من خيارهم ؛ ويجوز أن تكون البقية بمعنى التقوى كالتقية بمعنى التقوى أى فهلا كان منهم ذو بقاء على أنفسهم وصيانة من سخط الله تعالى وعقابه ، « إلا قليلا ممن أنجينا منهم » استثناء منقطع معناه : ولكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تركوا النهى عنه .

٢ — السبب الثانى لنزول الدمار بالأمم السابقة هو ما ذكره الله تعالى فى قوله : «واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه » أى ما انغمسوا فيه من الشهوات ، واهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عما وراء ذلك « وكانوا مجرمين » أى كافرين .. وقوله تعالى : واتبع الذين ظلموا ـ إن كان معناه : واتبعوا الشهوات كان معطوفا على مضمر؛ لأن المعنى : إلا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم ، فهو عطف على نهوا ، وإن كان معناه: اتبعوا جزاء الإتراف فالواو للحال ، فكأنه قيل : أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم، وقوله تعالى : « وكانوا مجرمين » عطف على « أترفوا » أى اتبعوا الإتراف

وكونهم مجرمين لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام ، أو أنه معطوف على « اتبعوا » أى اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك .

ثم بين تعالى أنه ما أهلك القرى بظلم بقوله تعالى « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم » أى بشرك « وأهلها مصلحون » فيما بينهم ، والمعنى : أنه لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين فى المعاملات فيما بينهم ، بل إن الدمار لا يترك لأجل كون القوم معتقدين الشرك ، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا ساءوا فى المعاملات وسعوا فى الإيذاء والظلم ، وفى الأثر : الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم . وإنما نزل بقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب الدمار ، لما حكى الله تعالى عنهم من إيذاء الناس وظلم الخلق « ولو شاء ربك لجعل الناس » أى أهل مكة « أمة واحدة » أى على الإسلام ، كقوله تعالى : إن هذه أمتكم أمة واحدة « ولا يزالون مختلفين » أى على أديان شتى ما بين يهودى ونصرانى ومجوسى ومشرك ومسلم ، وكل أهل دين من هذه الأديان اختلفوا فى دينهم أيضا اختلافا كثيرا لا حد له . . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تفترق اليهود على إحدى وسبعين فرقة . . وفى رواية : ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ، فثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة ، والمراد بهذه الفرق أهل البدع والأهواء ، والمراد بالواحدة هى ملة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله . ، والدليل على أن الاختلاف فى الأديان لا فى الألوان والألسنة والأرزاق والأعمال مثلا ، هو ما قبل هذه الآية وهو قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » ، فيجب حمل الاختلاف على ما يخرجهم من أن يكونوا أمة واحدة وما بعد هذه الآية أيضاً ، وهو قوله تعالى « إلا من رحم ربك » أى إلا من أراد لهم الخير فلا يختلفون فيه ، فيجب حمل الاختلاف على معنى يصح أن يستثنى منه ذلك ، وفى هذه الآية دلالة على أن الهداية والإيمان لا يحصلان إلا بتوفيق الله تعالى ؛ لأن تلك الرحمة ليست عبارة

عن إعطاء القدرة والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة العذر؛ فإن ذلك حاصل فى حق الكفار؛ فلم يبق إلا أن يقال: إن تلك الرحمة هو أنه سبحانه وتعالى خلق فى المهتدى تلك الهداية والمعرفة «ولذلك خلقهم» أى خلق أهل الاختلاف للاختلاف وخلق أهل الرحمة للرحمة.. روى عن ابن عباس أنه قال: خلق أهل الرحمة للرحمة لئلا يختلفوا، وخلق أهل العذاب لأجل أن يختلفوا، وخلق الجنة وخلق لها أهلا، وخلق النار وخلق لها أهلا، فالله تعالى خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين، فحكم على بعضهم بالاختلاف وهم أهل الباطل ومصيرهم إلى النار، وحكم على بعضهم بالاتفاق وهم أهل الحق ومصيرهم إلى الجنة، ويدل لذلك قوله تعالى: «وتمت كلمة ربك» وهى «لأملأن جهنم من الجنة» أى الجن «والناس أجمعين» وهذا صريح بأن الله تعالى خلق أقواماً للجنة والرحمة فهداهم ووفقهم لأعمال أهل الجنة، وخلق أقواماً للضلال والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية.

ولما ذكر الله تعالى القصص الكثيرة فى هذه السورة، ذكر نوعين من الفائدة لها:

١ — أولها: تثبيت الفؤاد بقوله «وكلا» أى وكل نبأ نقص عليك من أنباء الرسل، أى نخبرك به، وهو بيان لـ(كلا)، وقوله تعالى «ما نثبت به فؤادك» بدل من «كلا»، ومعنى تثبيت فؤاده زيادة يقينه وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى صلوات الله عليه. وذلك لأن الإنسان إذا ابتلى بمحنة وبلية فإذا رأى له فيها مشاركا خف ذلك على قلبه، كما يقال: المصيبة إذا عمت خفت، وإذا سمع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القصص وعلم أن حال جميع الأنبياء مع أتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه.

٢ — الفائدة الثانية: قوله تعالى «وجاءك فى هذه الحق» أى فى السورة وعليه الأكثر. أو فى هذه الأنباء المقصوصة فيها. وقال الحسن: فى هذه

الدنيا ، وقال الرازى : وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع ؛ لأنه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير إليها .. هذا والقرآن كله حق وصدق، وإنما خص الله عز وجل هذه السورة بذلك تشريفا لها « وموعظة وذكرى للمؤمنين » وخصهم بالذكر لانتفاعهم بذلك بخلاف الكفار ، فذكر تعالى أمورا ثلاثة : الحق ، والموعظة والذكرى ؛ أما الحق فهو الإشارة إلى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة والمعاد ، وأما الموعظة فهى إشارة إلى الإرشاد إلى الأعمال النافذة الصالحة فى الدار الآخرة ، ولما بلغ تعالى الفائدة فى الإنذار والترغيب والترهيب ، أتبع ذلك بأن قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : « وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم » أى حالتكم ، وفيه وعيد وتهديد وإن كانت صيغته صيغة الأمر فهو كقوله تعالى لإبليس : « واستفزز من استطعت منهم بسوطك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك » « إنا عاملون » على حالتنا التى أمرنا بها ربنا « وانتظروا » أى ما يعدكم الشيطان به من الخذلان « إنا منتظرون » أى ما يحل بكم من نقم الله تعالى وعذابه ، وقيل : « إنا منتظرون » ما وعدنا الرحمن به من أنواع النعم والإحسان . . « ولله غيب السموات والأرض » أى علم ما غاب فيهما ، فعلمه نافذ فى جميع مخلوقاته ، « وإليه » أى لا إلى غيره « يرجع الأمر كله » أى اليه يرجع أمر الخلائق كلهم فى الدنيا والآخرة ، « فاعبده » أى لا تشتغل بعبادة غيره ، « وتوكل عليه » أى ثق به فى جميع أمورك « وما ربك بغافل عما تعملون » أى فيجازى كلا على عمله : المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

* * *

وبهذا تنتهى سورة هود عليه السلام ، هذه السورة الكريمة التى اشتملت على الحق والذكرى والموعظة والهداية ، وعلى بيان مواضع العبرة والعظة ، فى تاريخ الأمم والشعوب ، وصدق الله العظيم ، ومن أصدق من الله حديثا .

وبانتهائها ينتهى الربع الأخير من سورة هود عليه السلام ، وفيه تذييل للسورة وبيان لسر دعوتها ولسر ما ورد فيها من قصص ، ودعوة

للرسول والمؤمنين به بالاستقامة وبالعدل وبعدم الركون إلى الظلم والظالمين ، وبعبادة الله وحده وبالتوكل عليه ؛ وفيه تقرير لأمر البعث والجزاء ، وبأن كل إنسان سوف يلقى جزاء ما عمل : إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.. وفى هذا الربع أمر بإقامة الصلاة ، وبالعمل الصالح ، فبه يغفر الله السيئات ، ويمحو الخطيئات ، وبالصبر ، وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . .

وفيه تقرير لأن ما يصيب الناس من وبال ودمار فبسبب أنفسهم ، وبظلمهم لها ، لا بظلم الله إياهم ، ولأن حياة الأمم تتوقف على العدل والإصلاح ، فما كان الله ليهلك الأمم بظلم وأهلها مصلحون . وفى الربع أيضا تقرير أن من طبيعة الأمم الاختلاف فى العقائد والأديان ، وأن من ثمرة هذا الاختلاف وجود المؤمن والكافر والموحد والمشرك ، فلا يوجد إيمان إلا وبجانبه كفر ، ولا يوجد توحيد إلا ومعه شرك ، سنة الله فى الحياة ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولكن لا يزالون مختلفين ، إلا من رحم الله ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من العصاة من الجن والناس أجمعين . .

نظرة عامة فى سورة هود

(١)

سورة هود عليه السلام سورة جامعة مانعة ، سورة ساحرة رائعة ، فيها إعجاز وبلاغة ، وفيها إبداع ومتعة ، وفيها صور فنية لا يمكن لأحد أن يحاكيها ، ولا أن يأتى بضريب لها . إنها سورة هداية وعظة ، وعبرة وقدوة . وسورة كل ما فيها تمجيد للإسلام وكتاب الإسلام ونبى الإسلام ، محمد عليه الصلاة والسلام . .

(٢)

وتبدأ هذه السورة بتمجيد كتاب الله الحكيم ، ووصفه بالإحكام والتفصيل ، وبأنه منزل من الله عز وجل ، وبأنه اشتمل على أصول رسالة الإسلام ، وفى مقدمتها عبادة الله وحده وعدم الإشراك به ، وبهذا بعث محمد صلوات الله وسلامه عليه بشيراً ونذيراً ، ثم توصى السورة باستغفار الله والتوبة إليه ، فالله عز وجل ولى المؤمنين ، ورازق الصالحين ، وهو الذى يمتع المخلصين متاعا حسنا فى الدنيا ، ثم يجازيهم فى الآخرة جزاء حسنا ، فيؤت كل ذى فضل فضله . . أما الكافرون والذين تولوا وأعرضوا عن قبول الرسالة ، فلهم عذاب يوم كبير ، هو يوم القيامة ، وما أشد عذابه .. ولا ريب فى ذلك ، لا ريب فى أنه يجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، يوم القيامة ، فإن إليه وحده ، مصير الناس جميعا يوم القيامة ، ولماذا لا يكون إليه مصيرهم ليجازى كلا بما عمل وهو على كل شىء قدير ؟ . . هذا نذير للمشركين ، ومهما اجتهدوا فى الإعراض ، وبالغوا فى النفور من سماع الرسالة ، فسوف يأتيهم الحق ويعلمون قدرة الله الواسعة ، ومهما أنكروا علم الله بما يسرون وما يعلنون فسوف يعلمون علم اليقين بأن الله يعلم كل شىء لا يخفى عليه خافية ، وهو عز وجل عليم بذات الصدور .

(٣)

وفى الربع الثانى من سورة هود حديث عن عظمة الله وقدرته ، لتأكيد أمر البعث ، وصدق الرسالة ، مهما حاول المشركون إنكار البعث ، وتمادوا فى تكذيب أمره ، إنهم هم المخطئون وهم الكاذبون وهم الضالون المضلون . وهنا يذكر الله عز وجل استعجال المشركين لنزول العذاب بهم ، لأنهم كانوا كافرين بالبعث والحساب ، فسواء عليهم أنزل بهم العذاب أم لم ينزل ، فنبههم الله عز وجل هنا إلى أنه نازل بهم لا محالة ، ويوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ، وسيحيق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وسينزل بهم وبال ما كانوا منه يسخرون . وهنا يبين الله عز وجل ضجر الإنسان ويأسه وسخطه لأن أذهب الله عنه النعمة ، وكفره وشركه إذا حلت به بعد المحنة النعمة .. وقليل هم الذين يذكرون الله فى الرخاء ، إنهم هم المؤمنون الصالحون الصابرون ، فأولئك لهم مغفرة وأجر كبير . . وهنا يبين الله عز وجل عنت المشركين وجهلهم واقتراحهم أن ينزل على الرسول الآيات والمعجزات ليؤمنوا برسالته ، ويتبعوا شريعته ، ويذكر الله عز وجل ضيق صدر الرسول بذلك ، وينبه عز وجل إلى أنه إنما هو نذير وبشير للناس ؛ أما الوكيل عليهم ، والمتولى أمورهم ، والذى بيده هدايتهم ، فهو الله عز وجل .. ثم يتحدى الله جل جلاله المشركين بالقرآن الكريم ، فيعجزون ويبهتون ويحارون ويخرسون . . وكل هذا دليل على أن القرآن إنما أنزل من السماء بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو.. وإذا كان ذلك كذلك فهل يسلم هؤلاء المشركون ، ويؤمن هؤلاء المرتابون؟.. ثم يصف الله عز وجل طلاب الدنيا وهمتهم العاجزة عن بلوغ المجد وفهم رسالات السماء ، كما يشير إلى طلاب المعرفة والعقيدة الصحيحة ومبادرتهم إلى الإيمان بالله وبرسالة محمد وشريعته، وبالقرآن الكريم.. ومن يكفر بالقرآن وبمحمد وبالإسلام فالنار موعده . . إن محمدا صادق فيما بلغ به عن ربه ، إنه يخشى الله ، وليس هناك أحد أظلم ممن كذب على الله ، وافترى عليه الأباطيل ، ونسب إليه ما لم يوح به إلى أحد ؛ إن الذين يكذبون على الله سوف يشهد عليهم الأشهاد ويكذبونهم ويلعنونهم

يوم القيامة ، إنهم بالآخرة كافرون ، ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجا ، إنهم لا يعجزون الله فى قليل ولا فى كثير ، وليس لهم من دون الله من أولياء ، وسوف يضاعف لهم العذاب يوم القيامة ، إنهم كانوا فى الدنيا بمنزلة من فقد السمع وفقد البصر ، فهو لا يسمع الحق ولا ينظره ، إنه ضال مضل ، إنه حيوان ، يعيش لا إنسان يفكر ، إنه فى منزلة تافهة دون منزلة أصحاب العقائد والمؤمنين بالرسالات وبالمثل وبالحياة ، إنهم هم الذين خسروا أنفسهم : خسروا ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وغابت عنهم يوم القيامة آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ، لقد ضل عنهم ما كانوا يفترون . لاريب .. لاريب أنهم فى الآخرة هم أشد الناس خسرانا ، وأشدهم ضلالا وحيرة ، وأشدهم عذابا ، أما المؤمنون الصالحون الخاشعون ، فأولئك أصحاب المثل وأصحاب الأهداف الكريمة ، وهم أصحاب الجنة ، وهم فيها خالدون .

(٤)

وفى الربع الثالث من هذه السورة الكريمة يضرب الله المثل للفريقين : الكافرين والمؤمنين . للمشركين والموحدين ، يضرب المثل رائعاً جليلا عظيما فيمثل الكافر بالأعمى والأصم ، ويمثل المؤمن بالبصير والسميع ، وهل يستويان مثلا .. أفلا يتذكر الجاهلون ، ويتعظ المعتبرون ؟

وفى هذا الربع يذكر الله عز وجل قصة نوح عليه السلام ، يذكرها بعبرها وعظاتها ، بمآسيها وأحداثها ، بصورها وألوانها ؛ يذكر رسالة الله إليه، ودعوته لقومه ليؤمنوا بالله وبرسالته ، وكفرقومه به ، وإلحاحهم فى الكفر ، وإلحاحه فى الدعوة . . وطلبهم نزول ما وعدهم به من العذاب ، ووعد الله له بإهلاك قومه وبأن ينجى نوحا ومن آمن معه ، ثم يذكر الله عز وجل إلهامه لنوح ليصنع السفينة يمخر بها فى الماء عند مجىء الطوفان ، وما صنعه نوح من وضعه فى السفينة من كل حى زوجين اثنين ، ويشير إلى مجىء الطوفان العظيم الذى لم يحدث له مثيل فى تاريخ الإنسان والحياة .

وفى الربع الرابع يذكر الله عز وجل ركوب نوح ومن آمن معه فى السفينة ، وسيرها فى الماء بين أمواج كالجبال ، وكان نوح عليه السلام هو أول من ركب الماء ، ومن صنع السفن ؛ ويشير الله عز وجل إلى غرق ابن نوح لكفره وعصيانه ، ثم ينتهى الطوفان ، وينقطع الماء ، وتجف الأرض ، وتهبط السفينة على الجودى ، ونزل نوح هو ومن معه على الأرض لعمارتها من جديد ، ورعاية الله ترعاه حتى توفاه الله .

وفى هذا الربع - الرابع أيضاً - يذكر الله عز وجل قصة هود مع قوم عاد وكفرهم وإهلاك الله إياهم .

وفى الربع الخامس يذكر قصة صالح مع ثمود ، وقصة إبراهيم وبشارة الملائكة له ولزوجه بمولد ابنهما إسحاق ، وفرحه هو وسارة بهذه البشرى .. ثم يذكر قصة لوط مع قومه ، وتدمير الله عز وجل لهم .

وفى الربع السادس يذكر الله عز وجل قصة شعيب مع أهل مدين ، وهلاكهم بسبب كفرهم وعصيانهم . . ويذكر كذلك فى إيجاز شديد قصة موسى مع فرعون وقومه .

ويلتفت القرآن الكريم فيذكر أن آثار هذه الأمم البائدة بعضها ما يزال قائما يشير إليها ، ويدل عليها ، ويندد بكفرها ، كما يدل على حضارتها ، وأن تدمير الله عز وجل لهذه الأمم ليس ظلما من الله ، فهم الذين ظلموا أنفسهم ، وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانا ، ومازادتهم آلهتهم التى عبدوها من دون الله إلا خسرانا فوق خسران ، وهلاكا مع هلاكهم . . ويبين الله عز وجل أن أخذه للأمم الكافرة أخذ شديد ، وأن فى مصائر هذه الأمم آيات وعظات لمن يخافون الله وعذاب يوم القيامة .. هذا اليوم المشهود ، اليوم المجموع له الناس ، اليوم الذى أخره الله عز وجل لأجل معدود ، اليوم الذى يسعد فيه المؤمنون ، ويشقى فيه الكافرون ، ويا بؤس هذا الشقاء الأليم الأبدى .

وفى الربع السابع يذكر الله عز وجل سعادة المؤمنين الصالحين فى الآخرة

عند الله ، إنهم فى الجنة ، وهم خالدون فيها دائما أبدا . . وهنا يقطع القرآن الكريم لبس كل حائر ، فيؤكد أن المشركين ، مشركى مكة ، إنما يعبدون الأوثان كما كان يعبدها آباؤهم من قبل ، والله عز وجل سيوفيهم جزاءهم فى الآخرة غير منقوص . . إنهم خالفوا فى الدين ، كما خالف اليهود واختلفوا من قبل . . ويلتفت الله عز وجل إلى الرسول والمؤمنين معه ، فيطالبهم بالاستقامة وترك الطغيان ، ويأمرهم بأن لا يركنوا إلى الظالمين ، وإلا مستهم النار بعذابها الأليم ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ويأمرهم الله عز وجل بإقامة الصلاة ، وبأن يتبعوا السيئة بالحسنة ، ويأمرهم بالصبر ، وبترقب الجزاء من الله ، فالله عز وجل هو الذى يجزى المحسن بإحسانه ، إنه لا يضيع أجر المحسنين . . وينبه الله عز وجل إلى موضع العبرة مما ذكره من قصص الأمم البائدة ، وهو أن الضلال والشرك والغى نتيجتها الدمار والوبال والنكال ، وأن الأمم البائدة لم تجد من ينصحها ويعظها ويحول بينها وبين الغى والباطل والبهتان ، لقد كان هناك رضاء بالرذيلة واتباع لها وعمل بها ، ولم يكن هناك من الراشدين الصالحين إلا القليل ، ممن نجاهم الله جزاء إيمانهم وصلاحهم ، أما الأكثرون فقد كانوا على الضلال ، واتبعوا الباطل والغى ، وساروا على طريقهم المرسوم من الكفر والترف والإجرام ، فأهلكهم الله بظلمهم وفسادهم وإجرامهم . . وما كان الله ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون . . إن الله خلق الناس ، وجعل منهم المؤمن والكافر ، والصالح والطالح ، والتقى والفاجر ، إنه خلقهم مختلفين ، ولو شاء لجعلهم أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم الله . . ويبين الله عز وجل أن قصص الأنبياء التى يرد ذكرها فى الكتاب الحكيم إنما هى لتثبيت فؤاد الرسول والمؤمنين معه ، ولتذكير المؤمنين وضربها مثلا عبرة وعظة يعتبر بها المعتبرون ، وينفر منها الكافرون . . ولكن لا ضير ، فإلى الله مصير هؤلاء وهؤلاء ، وإليه يرجع الأمر كله . . وفى ختام السورة ، يأمر الله عز وجل كل مسلم بعبادته ، وبالتوكل عليه ، فالله مطلع على عمل العاملين ومجازيهم عليه : إحسانا بإحسان ، وسوءاً بسوء ، وما ربك بغافل عما يعملون .

(٥)

إن سورة هود لتحتوى على أعظم النذر ، وأبلغ العظات . وفيها تمجيد للقرآن ولعظمته ، وفيها دعوة إلى الإيمان برسالة محمد عليه السلام ، وبالبعث والجزاء ، وفيها تحذير وترهيب وترغيب ، وفيها ذكر لقصص أنبياء كثيرين كفرت أممهم برسالاتهم، وفيها دعوة للرسول صلوات الله عليه لإبلاغ الرسالة والصبر على أذى قومه وعنادهم وبغيهم .

وهى من السور المكية ، ومن السور التى بدئت بتمجيد شأن القرآن الكريم ، شأنها فى ذلك شأن يوسف ويونس والأعراف . . ومن السور التى بدئت بتمجيد شأن القرآن الكريم سورة آل عمران وسورة البقرة وهما مدنيتان .

والآية الكريمة « وقال اركبوا فيها » وما بعدها من آيات ، يستشهد بها بها علماء البلاغة فى باب بلاغة الأسلوب ، وليس وراء بلاغة القرآن بلاغة ، وهو كله مثل رفيع من أمثلة البلاغة النادرة ، والفصاحة الساحرة ، والله ولى التوفيق ، وهو الهادى إلى أقوم طريق ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ؟

(١٢)

ســــورة يوسف

تمهيد

(١)

نزلت سورة يوسف بعد سورة هود ، كما نزلت هود بعد يونس ، والسور الثلاث مكية ، وقد نزلت سورة يونس بعد سورة الإسراء ، فتكون السور الثلاث قد نزلت كلها بعد الإسراء ، وقبيل الهجرة ؛ وسميت السور الثلاث بأسماء بعض الأنبياء ، يونس ، هود ، يوسف ، عليهم السلام . . وسورة يوسف تشتمل على مائة وإحدى عشرة آية ، وهى كلها فى قصة يوسف عليه السلام .

وما قيل من أن الثلاث الآيات الأولى منها مدنيات لا تصح روايته ، ولا يظهر له وجه ، وهو يخل بنظم الكلام ، وقد نقله صاحب الإتقان وقال : وهو واه جدا فلا يلتفت إليه ، ومن العجب أن يذكر هذا الاستثناء فى المصحف ويزاد عليه الآية السابعة . .

والمناسبة بين سورة يوسف وبين سورة هود أنها متممة لما فيها من قصص الرسل عليهم السلام ، ومن الاستدلال فى كل منهما على كونها وحياً من الله تعالى ، دالا على رسالة محمد خاتم النبيين بآيتين متشابهتين ، ففى آخر قصة نوح : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » وفى آخر سورة يوسف عليه السلام « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » ، وإشارة التأنيث فى الأولى للقصة المنزلة بهذا التفصيل والبلاغة العجيبة ، وقيل: للسورة ، وإشارة التذكير فى الثانية لقوله تعالى فى أول السورة : « نحن نقص عليك أحسن القصص » ، والفرق بين قصتها وقصص الرسل فى التى قبلها وفى سورة الأعراف وغيرها ، أن تلك قصص للرسل مع أقوامهم فى تبليغ دعوة الرسالة والمحاجة فيها ، وعاقبة من آمن بهم ومن كذبهم ، لإنذار مشركى مكة ومتبعيهم

من العرب ، وقد كررت بالأساليب والنظم المختلفة ، لما فيها من أنواع التأثير ووجوه الإعجاز ، وأما سورة يوسف فهي قصة نبي واحد، وجد في غير قومه قبل النبوة صغير السن ، وبلغ أشده واكتهل فنبيء وأرسل ودعا إلى دينه ، وكان مملوكا ، ثم تولى مناصب خطيرة فى دولة عظيمة رفيعة الحضارة والمدنية فأحسن الإدارة والتنظيم ، وكان خير قدوة للناس فى رسالته ، وجميع مادخل فيه من أطوار الحياة وطوارئها وطوارقها ، وأعظمها شأنه مع أبيه وإخوته آل بيت النبوة ، فكان من الحكمة أن تجمع قصته فى سورة واحدة ، وقصة يوسف أطول قصة فى القرآن ، افتتحت بثلاث آيات تمهيدية فى ذكر القرآن وحسن قصصه ، ثم كانت إلى تمام المائة فى تاريخ يوسف ، وختمت بإحدى عشرة آية فى الاستدلال بها على ما أنزلها الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين وإعجاز كتابه ، والعبرة العامة بقصص الرسل عليهم السلام .

وكان يوسف وأخوه بنيامين فى حجر أبيهما يعقوب الرسول بعد موت أمهما راحيل، وكان يعقوب شديد العطف عليهما ليتمهما من أمهما، وكان أحب الناس إليه ولده يوسف ، فلما استقر بأرض كنعان كان همه يوسف وأخاه ، فحسده إخوته لأبيه لما رأوه من شدة عطف أبيهم عليهما . ورأى يوسف وهو صغير رؤيا فقصها على أبيه قال : يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ، ففرح أبوه من الرؤيا ، ورأى أن يوسف سينال منزلة عالية ورفيعة عظيمة بحيث يخضع له أبوه وإخوته ، ووصاه بكتمان هذه الرؤيا فقال : يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وبشره أبوه بأن الله قد اصطفاه لوحيه وسيتم عليه نعمته كما أتمها على آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب . واجتمع إخوة يوسف وقد ألفت البغضاء بين قلوبهم ، وقالوا: ما بال يوسف وأخيه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة، إن أبانا لفى ضلال مبين ، وأشار بعضهم إلى رأى خطر له ، فقال : اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين ، فرد أكبرهم سنا قال : لاتقتلوا يوسف

وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ، وأجمعوا على الرأى الأخير الذى اختاره كبيرهم ، فدخلوا على أبيهم ، وقالوا : يا أبانا مالك لاتأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ، فقال أبوهم : إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا : لئن اكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ، وما زالوا يراودون عنه أباهم حتى استجاب لهم وسرحه معهم ، فلما بعدوا به وانفردوا فى البرية كشروا له عن أنياب الذئاب ، فضربه أحدهم ، فلما استغاث بآخر منهم ضربه أخوه الآخر ، ولم يجد بينهم رحيما يرحمه ، فجعل يصيح من شدة الضرب ، فقال لهم أخوهم يهوذا : لقد عاهدتمونى ألا تقتلوه ، فحملوه إلى الجب وأوثقوا يديه ونزعوا قميصه ، فقال لهم يا إخوتاه ردوا على قميصى أتوارى به فى الجب فلما القوه جعل يبكى . وانقلبوا هم إلى الدار بعد فعلتهم . . إلى آخر هذه القصة الغريبة الرائعة : التى قص القرآن الكريم قصتها كاملة فى هذه السورة الرفيعة ، التى تمثل نمطا من أسلوب القرآن العجيب ؛ يقول الإمام محمد عبده فى سورة يوسف ودلالاتها [1] :

« أما سورة يوسف عليه السلام فهى منقبة عظيمة له ، وآيات بينة فى إثبات عصمته ، وأفضل مثل على يقتدى به فى العفة والصيانة ، يجب أن يهذب به النساء والرجال ، فكل منهما يعلم بشعوره الطبيعى قوة سلطان الشهوة الخسيسة على نفسه ، ويسمع ويقرأ من أخبار الناس — ولا سيما أهل هذا العصر — ما فى طغيانها على غيره من الفضائح والخيانات والجنايات ، وتخريب للبيوت ، وإضاعة للمال والعيال والدماء والشرف ، أفلا يكون أفضل مثل للعفة والصيانة ، وأحسن أسوة فى الإيمان والأمانة أن يتلى على النساء المؤمنات والرجال المؤمنين ، وعلى غيرهم من الملحدين ، قصة شاب كان من أجمل الشبان صورة ، وأكملهم بنية ، يخلو بامرأة ذات منصب وسلطان ،

(١) المنار ١ : ٣٤ .

هى سيدة له ، وهو عبد لها ، فيحملها الافتتان بجماله وكماله على أن تذل نفسها له ، وتخون بعلها ، وتدوس شرفها ، وتراوده عن نفسه ، والمعهود فى أدنى النساء وأسفلهن تربية ومنزلة أن يكن مطلوبات لا طالبات ؛ فيسمعها من حكمته ، ويريها من كماله وعصمته ، ما هو أفضل قدوة فى الإيمان بالله ، والاعتصام به ، وفى حفظ أمانة السيد الذى أحسن مثواه ، وائتمنه على عرضه وشرفه ، فيقول لها : « إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون » ، فتشعر بالذل والمهانة ، والتفريط فى الشرف والصيانة ، وتحقير مقام السيادة والكرامة » .

وفى الكتاب المقدس قصة يوسف عليه السلام بأسلوب آخر غير أسلوب القصة هنا ، ففى الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين ذكر لميلاد يعقوب وأبوه إسحاق فى الستين من عمره ، وفى الإصحاح السابع والعشرين ذكر لدعوة إسحاق ليعقوب قبل وفاته بالبركة بعد أن قدم نفسه لأبيه باسم أخيه «عيسو» وكان ذلك بإرشاد أمه « رفقة » ، وكان فيما دعا له به : «كن سيداً لإخوتك ، وليسجد لك بنو أمك » . . وفى الإصحاح الثامن والعشرين ذكر لهجرة يعقوب إلى أخواله فى « حاران » ، ولعلها هى « حوران » وقصة موسى مع شعيب وبناته ، ينسبها العهد المقدس هنا إلى يعقوب مع خاله لابان وبنات خاله ، حيث سقى لهن غنمهن وهو سائر فى الطريق إلى أبيهن[1] ، وتزوج يعقوب راحيل وأنجب منها ابنه يوسف ، كما أنجب من أخت راحيل كذلك ستة بنين وبنتا ، وولد له من جارية راحيل ابنين ، ومن جارية أخت راحيل ولدين .. وفى الإصحاح ٣١ و٣٢ و٣٣ يذكر الكتاب المقدس عودة يعقوب بأولاده وزوجاته إلى وطنه . . وفى الإصحاح ٣٧ من سفر التكوين ذكر لحب يعقوب لابنه يوسف أكثر من حبه لإخوته ، ولمنام يوسف بأنه رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدة له ، ولحسد إخوته له ومحاولتهم

(١) الإصحاح ٢٩ من سفر التكوين ص ٤٥ و٤٦ و٤٧ من العهد القديم — الكتاب المقدس .

قتله ، ولإلقائهم له فى بئر ليس فيها ماء ، ولمرور قافلة بالبئر ، وإخراجهم يوسف منها ، وبيعهم له فى مصر لرئيس شرطة فرعون . . وفى الإصحاح ٣٩ من سفر التكوين ذكر لنشأة يوسف فى بيت سيده المصرى وإعجاب سيده بأمانته ، وتوكيله له على بيته ، وقصة يوسف مع امرأة سيده . . وتستمر قصة يوسف فى الإصحاح الأربعين حتى الإصحاح الخمسين . .

ومن فوائد قصة يوسف وجوب عناية الوالدين بالأولاد وتربيتهم على المحبة والعدل ، واتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم ، ومنه اجتناب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول إهانة له ومحاباة لأخيه بالهوى ، وقد نهى عنه النبى صلى الله عليه وسلم مطلقا ، ومن فوائدها أيضا سلوك سبيل الحكمة فى تفضيل من فضل الله تعالى بالمواهب الفطرية ، كمكارم الأخلاق والتقوى والعلم والذكاء . وما كان يعقوب بالذى يخفى عليه هذا ، وما نهى يوسف عن قص رؤياه عليهم إلا من علمه بما يجب فيه ، ولكن ماذا يفعل الإنسان بغريزته وقلبه وروحه ؟ أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة يوسف عليه السلام

وهو ليس بربع كامل ، إنما هو تتمة الربع السابق من سورة هود عليه السلام ، وصنيعنا هنا أن نعده ربعا لنسير فيما بعده من الأرباع على ترتيب المصحف الشريف ، فنجعل « لقد كان فى يوسف وإخوته » ربعا ثانيا ، وهكذا ...

١ — الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ .

٢ — إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

٣ — نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ .

هذه الآيات الثلاث الكريمة فيها تنويه بشأن القرآن الكريم ، وتمجيد له ، وتعظيم لبلاغته وإعجازه ، وحث لمشركى مكة على الإيمان به ؛ لأنه كتاب عربى مبين ، يعظم من شأن العربية ، وواجب العرب الاعتزاز به ، والإيمان برسالته : ومن إعجازه هذه القصص التى تضمنها ، لما احتوت عليه من روائع الأساليب وبليغ العظات . وهذه القصص أيضا دلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لما تضمنته من الإخبار بأمور ماضية ، لاعهد لمحمد بها ، ولم يسبق له تعلمها ولا تدارسها ، ولا أخذها من أستاذ ، ولا تلقنها من معلم.. يقول الله تعالى : «الر» تقدم الكلام على أوائل السور فى الجزء الأول من هذا التفسير ، واختلف فى سبب نزول هذه السورة : فعن سعيد بن جبير أنه قال: لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتلوه على قومه ، فقالوا : يارسول الله ،لو قصصت علينا ، فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم ، فقالوا : يارسول الله لو حدثتنا فنزل « الله نزل

أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى .» فقالوا : لو ذكرتنا فنزل « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » .

وعن ابن عباس أنه قال : سألت اليهود النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف ، فنزلت هذه السورة . يقول الله تعالى « تلك » إشارة إلى آيات هذه السورة أى تلك الآيات التى أنزلت إليك فى هذه السورة المسماة بالر هى « آيات الكتاب » أى القرآن « المبين » أى المبين فيه الهدى والرشد والحلال والحرام المظهر للحق من الباطل ، الذى ثبت فيه قصص الأولين والآخرين ، وشرحت فيه أحوال المتقدمين «إنا أنزلناه» أى الكتاب « قرآنا عربيا » أى بلغة العرب أى لكى يعلموا معانيه ويفهموا مافيه ، روى أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: اسألوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن كيفية قصة يوسف؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وذكر فيها أنه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها والتقدير : إنا أنزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف حال كونه قرآنا عربيا ، وسمى بعض القرآن قرآنا، لأن القرآن اسم جنس يقع على الكل والبعض ، « لعلكم » يا أهل مكة « تعقلون » أى إرادة أن تفهموا وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ، ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته .

واختلف العلماء : هل فى القرآن شىء بغير العربية ؟ فقال أبو عبيدة : من زعم أن فى القرآن لسان غير العربية فقد أعظم على الله القول واحتج بهذه الآية « إنا أنزلناه قرآنا عربيا » ، وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة أن فيه من غير لسان العرب كلمات كثيرة مثل : سجيل ، ومشكاة . وأثيم ، وإستبرق ، وجمع بعض المفسرين بين القولين بأن هذه الألفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة ، وإن كانت غير عربية فى الأصل ، لكنهم لما تكلموا بها معربة نسبت إليهم وصارت عربية فصيحة ، « نحن نقص عليك احسن القصص » أى أسلوبا وموضوعا وغاية ، لأنه اقتص على أبدع الأساليب ، والقصص إتباع بعضه بعضا ، وأصله فى اللغة

من قص الأثر إذا اتبعه ، وإنما سميت الحكاية قصة ، لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا ، والمعنى . إنا نبين لك يا محمد أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان ، أو قصة يوسف عليه السلام خاصة . وسماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التى تصلح للدين والدنيا ، ومافيها من سير الملوك والمماليك والغلمان ومكر النساء والصبر على إيذاء الأعداء وحسن التجاوز عنهم بعد اللقاء وغير ذلك ، وقال ابن عطاء : لايسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها « بما » أى بسبب ما « أوحينا » : أى بإيحائنا « إليك » يا محمد « هذا القرآن » أى الذى قالوا فيه إنه مفترى تتابع القصص : القصة بعد القصة حتى لايشك شاك ولا يمترى ممتر أنه من عند الله « وإن كنت من قبله » أى من قبل إيحائنا إليك أو من قبل هذا القرآن « لمن الغافلين » أى عن قصة يوسف وإخوته ، لأنه صلى الله عليه وسلم إنما علم ذلك بالوحى ، وقيل : لمن الغافلين عن الدين والشريعة .

٤ — إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ .

٥ — قَالَ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ .

٦ — وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

فى هذه الآيات الثلاث نبوءة ليوسف بالنبوة والحكمة والنعمة ، وباصطفاء الله عز وجل له وبحسد إخوة يوسف له .. وقد وقع كل ما قاله أبوه يعقوب له فى تفسيره لرؤيا يوسف عليه السلام ، قال الله تعالى : « إذ قال يوسف لأبيه

يا أبت » . . . « إذ » منصوبة بفعل محذوف أى اذكر إذ ، أى اذكر وقت ذلك ، وتذكر وقت هذا الحديث تذكر للحديث نفسه للتعجب منه لغرابته ؛ وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الكريم بن الكريم بن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم « يا أبت » أصله يا أبي فعوض عن الياء تاء التأنيت لتناسبهما فى الزيادة « إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر » قال أهل التفسير : رأى يوسف فى منامه - وكان ابن اثنتى عشرة سنة ، وقيل : سبع عشرة ، وقيل : سبع سنين - كأن أحد عشر كوكبا نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له ، وفسروا الكواكب بإخوته وكانوا أحد عشر يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم ، والشمس والقمر بأبيه وأمه ، بجعل الشمس للأم والقمر للأب ، والذى رواه البيضاوى تبعا للكشاف عن جابر أن يهوديا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أخبرنى عن النجوم التى رآهن يوسف ، فأخبره بأسمائها ، فقال اليهودى : إى والله، إنها لأسماؤها. قال ابن الجوزى: إنه موضوع « رأيتهم لى ساجدين » استئناف بيان حالهم التى رآهم عليها فلا تكرير، لأن الرؤية الأولى تدل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر ، والثانية تدل على مشاهدة كونها ساجدة له ، وقال بعضهم : إنه لما قال : إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر، قيل له : كيف رأيتها ؟ قال: رأيتهم لى ساجدين ، وقال آخرون يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤيا ، وهذا القائل لم يبين أيهما يحمل على الرؤية وأيهما يحمل على الرؤيا ، فذكر قولا مهملا غير مبين ، وقوله : « رأيتهم لى » وقوله : « ساجدين » لا يليق إلا بالعقلاء، والكواكب جمادات ، فكيف جاءت اللفظة المخصوصة بالعقلاء فى حق الجمادات ؟ الجواب أنها لما وصفت بالسجود صارت كأنها تعقل ، وأخبر عنها كما أخبر عمن يعقل ، كما قال تعالى فى صفة الأصنام : « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » ، وكما فى قوله تعالى : « يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم » فإن قيل : لم أفرد الشمس والقمر بالذكر مع أنهما من جملة الكواكب ؟ أجيب بأنه أفردهما لفضلهما وشرفهما على سائر الكواكب، كقوله

تعالى : « وملائكته وجبريل وميكال » المراد بالسجود نفس السجود أو التواضع كلاهما محتمل ، والأصل فى الكلام حمله على الحقيقة ، قال المفسرون : إن يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف عليه السلام ، فحسده إخوته لهذا السبب وظهر ذلك ليعقوب ، فلما رأى يوسف هذه الرؤية وكان تأويلها أن أبويه وإخوته يخضعون له وخاف عليه حسدهم وبغيهم قال له أبوه « قال يا بنى » بصفة التصغير للشفقة أو لصغر سنه على ماتقدم « لا تقصص رؤياك على إخوتك » أى لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها « فيكيدوا لك كيدا » أى فيحتالوا فى هلاكك ، وكاده وكاد له أخوان ، مثل نصحتك ونصحت لك وشكوتك وشكوت لك فاللام لتأكيد الصلة ، وقيل: اللام صلة كقوله: لربهم يرهبون .. « إن الشيطان للإنسان عدو مبين » أى ظاهر العداوة كما فعل بآدم وحواء . وعن أبى قتادة قال : كنت أرى الرؤيا تمرضنى حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان. فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب ، وإذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتفل عن يساره ثلاثا ويتعوذ بالله من الشيطان الرجيم من شرها فانها لاتضره ، وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من عند الله فليحمد الله عليها وليحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هى من الشيطان ، فليستعذ بالله من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لاتضره ، وعن أبى رزين العقيلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءاً من النبوة ، قال : وأحسبه قال : ولا تحدث بها إلا لبيبا أو حبيبا ، وأضيفت الرؤية المحبوبة إلى الله إضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة ، وإن كانتا جميعا من خلق الله وتدبيره وإرادته ، ولا فعل للشيطان فيها ، ولكنه يحضر المكروهة ويرتضيها ، فيستحب إذا رأى الشخص فى منامه مايحب أن يحدث به من يحب ، وإذا رأى مايكره أن لا يحدث به ، وليتعوذ بالله من الشيطان « وكذلك » أى وكما اجتباك ربك للاطلاع على هذه الرؤية العظيمة الدالة على شرف وعز وكمال نفس « يجتبيك » أى يختارك

ويصطفيك « ربك » بالدرجات العالية ، واجتباء الله مخصوص بالأنبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين « ويعلمك » كلام مستأنف خارج عن التشبيه والتقدير: وهو يعلمك « من » أى بعض « تأويل الأحاديث» من تأويل الرؤيا وغيرها من كتب الله تعالى ، والأخبار المروية عن الأنبياء المتقدمين ، وكان يوسف عليه السلام فى تعبير الرؤيا وغيرها غاية ، والتأويل مايئول إليه عاقبة الأمر « ويتم نعمته عليك » بالنبوة قال ابن عباس : لأن منصب النبوة مع الرسالة أعلى من جميع المناصب ، وكل الخلق دون درجة الأنبياء ، وهذا من تمام النعمة عليهم لأن جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة والنبوة ، فالكمال المطلق والتمام المطلق فى البشر ليس إلا النبوة والرسالة، وقيل : يجتبيك بالنبوة ويتم نعمته عليك بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، أما سعادة الدنيا فبالإكثار من الأولاد والخدم والأتباع والتوسع فى المال والجاه والإجلال فى قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد ، وأما سعادة الآخرة فبالعلوم الكثيرة والأخلاق الفاضلة والاستغراق فى معرفة الله تعالى وتقواه « وعلى آل يعقوب » أى أولاده ، وهذا يقتضى حصول تمام النعمة لآل يعقوب ، وتمام النعمة هو النبوة والرسالة كما مر ، فلزم حصولها لآل يعقوب ، وأيضا فإن يوسف عليه السلام قال : إنى رأيت أحد عشر كوكبا ، وكان تأويله أحد عشر نفسا لهم فضل وكمال ، ويستضاء بعلمهم ودينهم كما يستضىء أهل الأرض بالكواكب، لأنه لاشىء أضوأ من الكواكب وبها يهتدى ، وذلك يقتضى أن تكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلا ، فإن قيل: كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه فى حق أخيهم يوسف عليه السلام ؟ فالجواب أن ذلك وقع منهم قبل النبوة ، والعصمة إنما تعتبر بعد النبوة لا قبلها على خلاف فيه « كما أتمها على أبويك » بالنبوة والرسالة ، وقيل: إتمام النعمة على إبراهيم عليه السلام خلاصه من النار واتخاذه خليلا ، وعلى إسحاق خلاصه من الذبح وفداؤه بذبح عظيم على قول أن إسحاق هو الذبيح « من قبل » أى من قبل هذا الزمان ، وقوله « إبراهيم وإسحاق » عطف بيان لأبويك ، ثم إن يعقوب عليه السلام

لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله: « إن ربك عليم » أى بليغ العلم « حكيم » أى بليغ الحكمة ، وهى وضع الأشياء فى أتقن مواضعها .

ولنذكر هنا ما جاء فى الكتاب المقدس فى الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين ، قصة حسد إخوة يوسف له ، وما كادوا به له من وراء أبيه ؛ جاء فى هذا الإصحاح ما نصه : « وأما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه ، لأنه ابن شيخوخته ، فصنع له قيصا ملونا ، فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام ، وحلم يوسف حلما وأخبر إخوته فازدادوا أيضا بغضا له ، فقال لهم : اسمعوا هذا الحلم الذى حلمت : فها نحن حازمون حزما فى الحقل ، وإذا حزمتى قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتى ، فقال له اخوته : ألعلك تملك علينا ملكا أم تتسلط علينا تسلطا ، وازدادوا أيضا بغضا له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه ، ثم حلم أيضا حلما آخر وقصه على إخوته ، فقال إنى قد حلمت حلما أيضا : وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدة لى ، وقصه على أبيه وعلى إخوته ، فانتهره أبوه وقال له : ما هذا الحلم الذى حلمت ؟ هل نأتى أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض ، فحسده إخوته ، وأما أبوه فحفظ الأمر ، ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم[١] ، فقال إسرائيل ليوسف : أليس إخوتك يرعون عند شكيم ؟ تعال فأرسلك إليهم ، فقال له : ها أنذا ، فقال له : اذهب انظر سلامة إخوتك وسلامة الغنم ورد لى خبراً ، فأرسله من وطاء حبرون[٢] فأتى إلى شكيم ، فوجده رجل وإذا هو ضال فى الحقل ، فسأله الرجل قائلا: ماذا تطلب ؟ فقال : أنا طالب إخوتى أخبرنى أين يرعون ، فقال الرجل: قد ارتحلوا من هنا لأنى سمعتهم يقولون : لنذهب إلى دوثان ، فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم فى دوثان ، فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب اليهم احتالوا له ليميتوه ، فقال بعضهم لبعض : هو ذا هذا صاحب الأحلام قادم ، فالآن هلم نقتله ونطرحه فى إحدى الآبار ونقول :

---

(١) شكيم هى موضع نابلس اليوم (٢) هى مدينة الخليل ، والوطاء : الوادى .

وحش ردىء أكله فنرى ماذا تكون أحلامه ، فسمع رأوبين وأنقذه من أيديهم وقال : لا نقتله ، وقال لهم رأوبين : لا تسفكوا دما ، اطرحوه فى هذه البئر التى فى البرية ولا تمدوا إليه يدا ، لكى ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه ، فكان لما جاء يوسف إلى إخوته أنهم خلعوا عن يوسف قميصه ، القميص الملون الذى عليه ، وأخذوه وطرحوه فى البئر ، وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء ، ثم جلسوا ليأكلوا طعاما ، فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر ، فقال يهوذا لإخوته : ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفى دمه ، تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه ، لأنه أخونا ولحمنا ، فسمع له إخوته ، واجتاز رجال مديانيون تجار ، فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة ، فأتوا بيوسف إلى مصر ، ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف ليس فى البئر فمزق ثيابه ، ثم رجع إلى إخوته وقال : الولد ليس موجودا وأنا إلى أين أذهب ، فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيسا من المعزى وغمسوا القميص فى الدم ، وأرسلوا القميص الملون وأحضروه إلى أبيهم وقالوا: وجدنا هذا ، حقق : أقميص ابنك هو أم لا ؟ فتحققه وقال: قميص ابنى وحش ردىء أكله ، افترس يوسف افتراسا ، فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحا على حقويه وناح على ابنه أياما كثيرة ، فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه ، فأبى أن يتعزى وقال: إنى أنزل إلى ابنى نائحا إلى الهاوية وبكى عليه أبوه ، وأما المديانيون فباعوه فى مصر لفوطيفار خصى فرعون رئيس الشرط(١) ..

---

(١) كان كذلك رئيس حامية الملك وناظر السجون — كما فى سفر التكوين أيضاً

الربع الثانى من سورة يوسف

٧ — لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ .

٨ — إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ .

٩ — اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِ قَوْمًا صَٰلِحِينَ .

١٠ — قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ .

١١ — قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَٰصِحُونَ .

١٢ — أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ .

١٣ — قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ .

١٤ — قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ .

١٥ — فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

١٦ — وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ .

١٧ — قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا

فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ .

١٨ — وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ .

١٩ — وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

٢٠ — وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ .

٢١ — وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

٢٢ — وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ .

٢٣ — وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ .

٢٤ — وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ .

٢٥ — وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

٢٦ — قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ .

٢٧ — وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ .

٢٨ — فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ .

٢٩ — يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ .

فى هذا الربع البليغ الرائع قصة كيد إخوة يوسف له ، ورميهم إياه فى الجب ، والتقاط بعض القوافل التجارية له . وبيعهم إياه فى مصر لرئيس شرطة فرعون ، والبركة التى حصلت لسيده بسببه ، وإكرام سيده له ، وتوكيله له فى إدارة شئونه ، وما وهبه الله إياه من الحكمة والعلم ، وقصة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام . . وكل ذلك جاء فى أروع أسلوب ، وأبلغ بيان ، وأفصح عبارة ، وأجمل أداء . . وقوله تعالى : « لقد كان فى يوسف وإخوته » هذا شروع فى القصة بعد مقدمتين :

أولاهما فى صفة القرآن وكونه تنزيلا من الله دالا على رسالة من أنزل عليه ، وكونه عربيا تقوم به الحجة على العرب الذين يعقلونه ، وكون النبى كان

من قبله غافلا عما جاء فيه لا يدرى منه شيئا ، ونتيجة هاتين القضيتين تأتى بعد تمام القصة فى قوله تعالى : « ذلك من أنباء الغيب »[١]

والمقدمة الثانية : رؤيا يوسف وما فهمه منها أبوه فهما إجماليا ، وبنى على ما بنى عليه من أن حذره وأنذره ما يستهدف له من كيد إخوته ، وبشره بحسن عاقبته .. ونتيجة هاتين القضيتين ما قاله لأبيه بعد دخولهم عليه وسجودهم له : « يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا » .

فمثل هذا الترتيب المنطقى العقلى البديع ـ كما يقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير سورة يوسف ـ يتوقف نظمه وسرده على سبق العلم بالقصة وتتبع حوادثها والإحاطة بدقائقها ، ثم على وضع ترتيب ينسق عليه الكلام كالقصص الفنية المتكلفة ، ثم توضع له المقدمة والخاتمة فى الغاية التى ألفت القصة لأجلها فتجعل الأولى براعة مطلع ، والأخرى براعة مقطع ، فقل لمن جهل سيرة محمد وتاريخه : إن محمداً لم يكن قارئا ولا كاتبا ، ولا خطيبا ولا شاعراً ، ولا مؤرخا ، ولا راويا ، ولا حافظا للشعر ولا ناثراً ، بل كان كما قال الله تعالى غافلا عن هذه القصة وكل ما جاء فى القرآن ، وكانت تنزل عليه السورة القصيرة فيعجل بقراءتها لئلا ينسى منها شيئا ، فنهى عن ذلك عند ما عرض له أثناء نزول سورة القيامة بقوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه » ، وبقوله : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علما » ، وقوله « سنقرئك فلا تنسى » ، وقوله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، فلما ضمن ربه له أمن ضياع شىء منه بعدم حفظه عند تلقيه ، أو نسيانه بعده ، زال خوفه ، وترك الاستعجال بقراءته .

وهذه السورة الطويلة نزلت عليه دفعة واحدة كأكثر السور المكية حتى الطوال منها كسورة الأنعام ، فلم يكن يدرى من هذا الترتيب والنسق لها ولا من

---

(١) الآية ١٠٢ من سورة يوسف .

موضوعها شيئا قبل وحيها ، ولا يحيط به إلا أن يكمل له تلقيها عن الروح الأمين عليهما السلام ، ولكن العجب أن يغفل عنه أو يجهله أحد من المفسرين ، من فرسان البلاغة .

وقوله تعالى : « لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين » أى لقد كان في قصة يوسف وإخوته لأبيه أنواع من الدلائل على أنواع من قدرة الله وحكمته ، وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده ، وتربيته لهم ، وحسن عنايته بهم ، للسائلين عنها ، من الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها ، لأنهم هم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها ، ومن فاته العلم بشيء أو بحكمته أو بوجه العبرة فيه سأل عنه من هو أعلم به منه ، فإن للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها ، فإخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجب ؛ ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر ، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته وأمانته وصدقه لما أمنه على بيته ورزقه وأهله ، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها ، ولو لم تخب في كيدها وكيد صواحبها من النسوة لما ألقى في السجن لإخفاء هذا الأمر ، ولو لم يسجن لما عرفه ساقى ملك مصر وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا ، ولو لم يعلم الساقى منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن به وجعله على خزائن الأرض ، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهلهم أجمعين من المخمصة ، ويأتى بهم إلى مصر فيشاركوه في رياسته ومجده ، بل لما تم قول أبيه له : « ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب » فما من حلقة من هذه السلسلة إلا وكان ظاهرها محرقاً ، وباطنها مشرقا ، وبدايتها شراً وخسراً ، وعاقبتها خيراً وفوزاً ، وصدق قول الله عز وجل « والعاقبة للمتقين » .

فهذه أنواع من آيات الله في القصة للسائلين عن وقائعها الحسية الظاهرة ، وما هو أعلى منها من علومها وحكمها الباطنة ، كعلم يعقوب بتأويل رؤيا يوسف وعلمه بكذبهم بدعوى أكل الذئب له ، ومن شهادة الله له بالعلم بقوله : « وإنه لذو علم لما علمناه » الآية ، ومن شمه لريح يوسف منذ فصلت العير من أرض مصر

قاصدة أرض كنعان . ومن علم يوسف بتأويل الأحاديث ، ومن رؤيته لبرهان ربه ، ومن كيد الله له ليأخذ أخاه بشرع الملك ، ثم من علمه بأن إلقاء قميصه على أبيه يعيده بصيراً بعد عمى سنين كثيرة .. وفى القصة مجال لسؤال السائلين عن كل هذه المعانى من العلم الروحانى ، وهى أخفى مما قبلها ، وأحق بالسؤال عنها . .
وقيل : إن المراد بالسائلين جماعة من اليهود جاءوا مكة وسألوا النبى سؤال امتحان عن نبى كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمى ؟ فأنزل الله تعالى عليه سورة يوسف جملة واحدة كما فى التوراة ، وروى أن بعضهم لقنوا بعض أهل مكة أن يسألوه عن قصة يوسف . وروى أن بعضهم سألوه عن أسماء الكواكب الإحدى عشرة التى رآها يوسف فى منامه ولم يكن يعرفها ، فنزل عليه جبريل فلقنه إياها ، فجاءت موافقة لما فى التوراة ، وذكروا هذه الأسماء فى تفاسيرهم ، فالمراد بالآيات على هذا دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يجالس العلماء وأصحاب الأخبار ، ولم يأخذ عنهم شيئا ، فدل ذلك على أن ما يأتى به هو وحى سماوى أوحاه الله اليه وعرفه به .. وقصة يوسف فى القرآن موافقة لجملة ما فى سفر التكوين ومخالفة له فى بعض دقائقها .

وهذه السورة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم ، منها رؤيا يوسف عليه السلام وما حقق الله تعالى فيه من حسد إخوته وما آل إليه أمره من الملك ، ومنها ما اشتمل على حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل إليه أمره من بلوغ المراد ، وغير ذلك من الآيات التى يعتبر بها كل من فكر وقدر .. « إذ قالوا » أى قال بعض إخوة يوسف لبعض بعد أن بلغتهم الرؤية : أما يرضى أن تسجد إخوته له حتى يسجد له أبواه ؟ « ليوسف وأخوه » أى بنيامين « أحب إلى أبينا منا » اللام لام الابتداء ، وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة ، ارادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه ، وخبر المبتدأ هو قوله « أحب » ، ووحد لأن أفعل يستوى فيه الواحد وما فوقه مذكرا كان أو مؤنثا إذا لم يعرف أو لم يضف ، وقيل : اللام لام قسم تقديره : والله ليوسف ،

وإنما قالوا : أخوه ـ وهم جميعا إخوته؛ لأن أمهما كانت واحدة . وقوله «ونحن عصبة» الواو واو الحال ، أى يفضلهما فى المحبة علينا ، وهما اثنان صغيران لا كفاءة لهما ولا منفعة فيهما ، ونحن جماعة أقوياء نقوم بمرافقه ، فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما ، والعصبة والعصابة العشرة فما فوقها ، سموا بذلك لأنهم جماعة يعصب بهم الأمور ويستكفون النوائب «إن أبانا لفى ضلال» أى خطأ «مبين» أى بين فى إيثاره حب يوسف وأخيه علينا ؛ والسبب المقتضى للحب لنا جميعاً واحد ، لأنا فى النبوة سواء ولنا مزية تقتضى تفضيلنا وهى أننا عصبة ، لنا من النفع له والذب عنه والكفاية ما ليس له .. وها هنا أسئلة : الأول : إن من المعلوم أن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد ، فلم أقدم يعقوب عليه السلام على ذلك ؟ والجواب أنه فضلهما فى المحبة والمحبة ليست فى وسع البشر ، فكان معذورا فيها ولا يلحقه بسبب ذلك لوم.. الثانى: كيف اعترضوا على أبيهم فإنهم وإن كانوا مؤمنين بنبوته لكن جوزوا أن يكون فعله باجتهاد ، ثم إن اجتهادهم أدى إلى تخطئة أبيهم فى ذلك الاجتهاد لكونهم أكبر سنا وأكثر نفعا ، وغاب عنهم أن تخصيص يعقوب لهما بالحنان كاف لوجوه : أحدها: أن أمهما ماتت ، ثانيها : أنه كان فى يوسف من آثار الرشد والنجابة مالم يجده فى سائر أولاده ، ثالثها : أنه كان صغيرا إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخدمة أعلى وأشرف مما كان يصدر عن سائر الأولاد ، والحاصل أن هذه المسألة كانت اجتهادية ، وكانت راجعة إلى ميل النفس وموجبات الفطرة فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين فى دين الآخر ، الثالث : أنهم نسبوا أباهم إلى الضلال عن رعاية مصالح الدنيا والبعد عن طريق الرشد لا الضلال عن الدين ، الرابع أن قولهم «ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا» محض حسد ، والحسد من أمهات الكبائر، لا سيما وقد أقدموا بسبب ذلك الحسد على أمور مذمومة منها قولهم «اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا» أى بحيث يحصل اليأس من اجتماعه بأبيه ، ومنها إلقاؤه فى ذل العبودية ، ومنها أنهم أبقوا أباهم فى الحزن الدائم

والأسف العظيم ، ومنها إقدامهم على الكذب ، وكل ذلك يقدح فى العصمة والنبوة ، والجواب ما تقدم وأن ذلك كان قبل النبوة « يخل لكم وجه أبيكم » جواب الأمر أى يصف لكم وجه أبيكم فيقبل بكليته عليكم ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ولا ينازعكم فى محبته أحد « وتكونوا » مجزوم بالعطف على « يخل لكم » أو منصوب بإضمار أن « من بعده » أى قتل يوسف أو طرحه « قوما صالحين » بأن تتوبوا إلى الله تعالى بعد فعلكم وأنه يعفو عنكم ، وقال مقاتل : يصلح أمركم فيما بينكم وبين أبيكم « قال قائل منهم » هو يهوذا وكان أحسنهم رأيا فيه ، وهو الذى قال: فلن أبرح الأرض ، وقيل « رأوبين » وكان أكبرهم سنا « لا تقتلوا يوسف وألقوه » أى اطرحوه « فى غيابة الجب » أى فى أسفله وظلمته ، والغيابة : كل موضع ستر شيئا وغيبه عن النظر . والجب : البئر التى ليست مطوية سميت « جبا » لأنها قطعت قطعا ولم يحصل فيها شىء غير القطع ، وإنما ذكر الغيابة مع الجب دلالة على أن المشير أشار بطرحه فى موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين ، قيل : عزموا على قتله وعصمهم رحمة بهم ولو فعلوا لهلكوا أجمعين ، واختلف فى موضع ذلك الجب : فقال قتادة : هو بيت المقدس ، وقال وهب : هو بأرض الأردن ، وقال مقاتل : هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب « يلتقطه » أى يأخذه « بعض السيارة » جمع سيار أى المبالغ فى السير ، وذلك الجب كان معروفا يرد عليه كثير من المسافرين فإذا أخذوه ذهبوا به إلى ناحية فنستريح منه « إن كنتم فاعلين » أى ما أردتم من إبعاده عن أبيه فاكتفوا بذلك ، ولما أجمعوا على التفريق بين يوسف وأبيه بضرب من الحيل « قالوا » إعمالا للحيلة فى الوصول إليه مستفهمين على وجه التعجب ، لأنه كان أحس منهم السوء فكان يحذرهم عليه « يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف و » الحال « إنا له لناصحون » أى قائمون بمصلحته وحفظه « أرسله معنا غدا » أى فى الصحراء « يرتع » أى يتسع فى أكل الفواكه ونحوها ، وأصل الرتع أكل البهائم فى الخصب فى زمن الربيع ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير « ويلعب » روى أنه

قيل لأبى عمرو : وكيف يقولون نلعب وهم أنبياء ؟ فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء ، وأيضا جاز أن يكون المراد باللعب الإقدام على المباحات لأجل انشراح الصدر ، كما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجابر : فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك ؟ وأيضا كان لعبهم بالسيوف والنصال والتسابق فى قطع المسافات ، والغرض منه المحاربة والمقاتلة مع الكفار ، والدليل عليه قولهم « إنا ذهبنا نستبق » وإنما سموه لعبا لأنه فى صورته « وإنا له لحافظون » أى مبالغون له فى الحفظ حتى نرده اليك ، ثم إن يعقوب عليه السلام اعتذر لهم بعذرين : الأول ما حكاه الله تعالى عنه بقوله : « قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به » أى ذهابكم به ، والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب ، لأنه كان لا يقدر أن يصبر عنه ساعة « وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم به ، وكان يعقوب عليه السلام رأى فى النوم أن الذئب شد على يوسف فكان يحذره ، فمن هذا ذكر ذلك وكأنه لقنهم العذر ، وفى أمثال العرب : البلاء موكل بالمنطق ، والمراد به الجنس . وكانت أرضهم كثيرة الذئاب « قالوا » مجيبين عن الثانى « لئن أكله الذئب ونحن » أى والحال أننا « عصبة » أى جماعة : عشرة رجال ، بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب ، وأجابوا عن القسم بما أغنى عن جواب الشرط بقولهم : « إنا إذاً » أى إذا كان هذا « لخاسرون » أى كاملون الخسارة ، لأنا إذا ضيعنا أخانا فنحن لما سواه من أمورنا أشد تضييعا ، وأعرضوا عن جواب الأول لأن حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الأول وهو شدة حبه له ، فلما سمعوا ذلك المعنى تغافلوا عنه ، وأقله أن يقولوا ما وجه الشح بفراقه والسماح بفراقنا كل يوم؟ « فلما ذهبوا به » فيه إضمار واختصار ، تقديره : فأرسله معهم ، فلما ذهبوا به « وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب » أى وعزموا على إلقائه فيها ، ولا بد من تقدير جواب وهو (لجعلوه فيها) وحذف الجواب فى القرآن كثير ، قيل : إخوة يوسف قالوا له : أما تشتاق أن تخرج معنا إلى مواشينا فنصيد ونستبق؟ قال : بلى ، قالوا : فاسأل أباك أن يرسلك معنا ، قال يوسف : أفعل ، فدخلوا

جميعا إلى أبيهم وقالوا : يا أبانا إن يوسف قد أحب أن يخرج معنا لرعى الأغنام ، فقال يعقوب : ما تقول يا بنى ؟ قال : نعم يا أبت إنى أرى من إخوتى اللين واللطف فأحب أن تأذن لى ، وكان يعقوب يكره مفارقته ويحب مرضاته ، فأذن له فأرسله معهم ، فلما خرجوا به من عند أبيهم جعلوا يحملونه على رقابهم وأبوهم ينظر إليهم ، فلما بعدوا عنه وصاروا إلى الصحراء ألقوه على الأرض وأظهروا له ما فى أنفسهم من العداوة ، وأغلظوا له القول وجعلوا يضربونه حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح : يا أبتاه ، يا يعقوب ، لو رأيت يوسف وما نزل به من إخوته لأحزنك ذلك وأبكاك ، يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك ، وجعل يبكى بكاء شديداً ، فأخذه أحدهم فجلد به الأرض ثم جلس على صدره وأراد قتله فقال له : مهلا يا أخى لا تقتلنى ، فقال له : يا ابن راحيل أنت صاحب الأحلام الكاذبة ، قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ولوى عنقه ، فاستغاث يوسف بيهوذا فأدركته رحمة ربه فقال يهوذا : يا إخوتاه ما على هذا عاهدتمونى ، فانطلقوا إلى الجب ليطرحوه فيه ، فجاءوا به على بئر على غير الطريق واسع الأسفل ضيق الرأس فجعلوا يدلونه فى البئر ، وهو يحاول النجاة ، فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال : يا إخوتاه ردوا على قميصى أستتر به فى الجب فقالوا : ادع الشمس والقمر والكواكب تخلصك وتؤنسك ، فقال : إنى لم أر شيئا ، فألقوه فيها ، وكان فى البئر ماء فسقط فيه ، ثم أوى إلى صخرة كانت فى البئر فقام عليها فنادوه فظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم ، فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمنعهم يهوذا من ذلك ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام وبقى فيها ثلاث ليال « وأوحينا إليه » فى الجب فى صغره وهو ابن سبع عشرة سنة أو دونها كما أوحى إلى يحيى وعيسى عليهما السلام فى صغرهما ، وفى القصص : إن إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار جرد عن ثيابه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، ودفعه إبراهيم عليه السلام إلى إسحاق وإسحاق إلى يعقوب ، فجعله يعقوب فى تميمة علقها بيوسف فأخرجها جبريل وألبسه إياها « لتنبئنهم » أى لتخبرنهم بعد هذا اليوم « بأمرهم » أى بصنعهم « هذا وهم لا يشعرون » أنك

يوسف ، لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم وطول العهد المغير للهيئات ، كما قال تعالى : فعرفهم وهم له منكرون، والمقصود من ذلك تقوية قلبه وأنه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير سيدا عليهم ويصيرون تحت أمره ونهيه وقهره ، وقيل : لايشعرون بإيحائنا إليك وأنت فى البئر بأنك ستخبرهم بصنيعهم هذا، والفائدة فى إخفاء ذلك الوحى عنهم أنهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم وكانوا يقصدون قتله ، وقيل : إن المراد من هـذا الوحى الإلهام كما فى قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى » ، وقوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل » ، ولما كان من المعلوم أنه ليس بعد هذا الفعل الذى فعلوه إلا الاعتذار ـ قال تعالى : « وجاءوا أباهم » دون يوسف « عشاء » فى ظلمة الليل لئلا يتفرس أبوهم فى وجوههم إذا رآها فى ضياء النهار ضد ما جاءوا به من الاعتذار « يبكون » والبكاء جريان الدمع من العين ، والآية تدل على أنه لا يدل على الصدق لاحتمال التصنع ، فعند ذلك فزع يعقوب عليه السلام وسألهم : هل أصابكم فى غنمكم شىء ؟ قالوا : لا ، قال : فما فعل يوسف ؟ « قالوا إنا ذهبنا نستبق » قال الزجاج : يسابق بعضنا بعضا فى الرمى وقيل : المراد نعدو ليتبين أينا أسرع عدوا « وتركنا يوسف » أخانا « عند متاعنا » أى ما كان معنا مما نحتاج إليه فى ذلك الوقت من ثياب وزاد ونحو ذلك « فأكله الذئب وما » أى والحال أنك ما « أنت بمؤمن » أى بمصدق « لنا ولو كنا صادقين » فى هذه القصة لمحبة يوسف عندك فكيف وأنت تسىء الظن بنا ، وقيل : لاتصدقنا إذ لادليل لنا على صدقنا وإن كنا صادقين عند الله ، ولما علموا أنه لا يصدقهم بغير أمارة «جاءوا على قميصه» أى قميص يوسف عليه السلام « بدم كذب » قال الفراء : أى مكذوب فيه ، إلا أنه وصفه بالمصدر على تقدير ذى كذب أو مكذوب ، أطلق على المصدر مبالغة لأنه غير مطابق للواقع ؛ لأنهم ادعوا أنه دم يوسف عليه السلام والواقع أنه دم بعض الغنم التى ذبحوها ولطخوه بذلك الدم ، ولعل غرضهم فى نزع قميصه عند إلقائه فى غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيداً لصدقهم ، إذ يبعد أن يفعلوا ذلك طمعاً فى نفس القميص ، فلما شاهد يعقوب عليه السلام

القميص صحيحا علم كذبهم ، روى أن يعقوب عليه السلام أخذ القميص منهم وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحكم من هذا ، أكل ابنى ولم يمزق قميصه . . و(على) هنا بمعنى فوق ، أى وجاءوا فوق قميصه بدم ، كما تقول : جاء على جماله بأحماله ، قال الشعبى : قصة يوسف كلها فى قميصه ، وذلك أنهم لما ألقوه فى الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على أبيه ، ولما شهد الشاهد قال : إن كان قميصه قد من قبل ، ولما أتى بقميصه إلى يعقوب وألقى على وجهه ارتد بصيرا ، ثم ذكر تعالى أن إخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم « قال ، يعقوب عليه السلام « بل سولت » أى زينت « لكم أنفسكم أمرا » ففعلتموه ، واختلف فى السبب الذى عرف به كونهم كاذبين ، على وجوه :

الأول : أنه كان يعرف الحسد الشديد فى قلوبهم .

الثانى : أنه كان عالما بأنه حى ، لأنه عليه السلام قال ليوسف : « وكذلك يجتبيك ربك » وذلك دليل على كذبهم فى ذلك القول .

والثالث : أنه لما رأى قميصه صحيحا قال: كذبتم، لو أكله الذئب لمزق ثوبه ، وقيل: إنه لما قال ذلك قال بعضهم: بل قتله اللصوص فقال : كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم إلى قميصه أحوج منهم إلى قتله ، فلما اختلفت أقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم ، وقوله تعالى « فصبر جميل » أى فصبر جميل أولى من الجزع ، أو الذى أفعله صبر جميل ، وقال قطرب ـ معناه : فصبرى صبر جميل ، وقال الفراء : فهو صبر جميل ، وعن الحسن أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل ، فقال : صبر لاشكوى فيه ، فمن بث لم يصبر ، كما قال يعقوب : إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ، وقال مجاهد : فصبر جميل من غير جزع ، وقال الثورى : إن من الصبر أن لاتحدث بوجعك ولا بمصيبتك ولا تزكى نفسك ، وروى أن عائشة رضى الله تعالى عنها ـ فى قصة الإفك ـ أنها قالت : والله لئن حلفت

لا تصدقونى ولئن اعتذرت لاتعذرونى ؛ فثلى ومثلكم كمثل يعقوب وولده ، والله المستعان على ماتصفون ؛ فأنزل الله تعالى فى عذرها ماأنزل ، وقوله « فصبر جميل » أى فالصبر الجميل أن ينكشف له أن هذا البلاء من الحق ، فاستغراقه فى شهود نور المولى يمنعه من الاشتغال بالشكاية ، والصبر على قضاء الله تعالى واجب ، وأما الصبر على ظلم الظالمين فغير واجب ، بل الواجب إزالته لاسيما فى الضرر العائد إلى الغير ، فلم صبر يعقوب على ذلك ولم يبالغ فى البحث مع شدة رغبته فى حضور يوسف ومع عظيم حبه له ، وكان من بيت عظيم شريف ، وكان الناس يعرفونه ويعتقدون فيه ، والجواب أنه بحث ولم يهتد ، أو يحتمل أن يكون منع من الطلب بوحى تشديدا للمحنة عليه زيادة فى أجره ، أو أنه لو بالغ فى فى البحث لربما أقدموا على إيذائه ولم يمكنوه من الطلب والفحص ، فرأى أن الأصوب الصبر والسكوت وتفويض الأمر بالسكاية إلى الله تعالى ، وقال : « والله المستعان » أى المطلوب منه العون « على ماتصفون » أى تذكرون من أمر يوسف ، والمعنى : إن إقدامه على الصبر لا يكون إلا بمعونة الله ؛ لأن الدواعى النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع وهى قوية ، والدواعى الروحانية تدعوه إلى الصبر ، فكأن المحاربة وقعت بين الداعين : فما لم تحصل إعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة ؛ فقوله : « فصبر جميل » يجرى مجرى قوله : « إياك نعبد » ، وقوله : « والله المستعان على ما تصفون » يجرى مجرى قوله : « وإياك نستعين » .

وقوله تعالى : « وجاءت سيارة » وهم القوم المسافرون سموا بذلك لأنهم يسيرون فى الأرض وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فأخطأوا الطريق ، فصاروا يهيمون على غير طريق ، فهبطوا على أرض فيها جب يوسف ، فلما نزلوا أرسلوا رجلا لطلب الماء وذلك قوله : «فأرسلوا واردهم» أى الذى يريد الماء ليستقى منه ، أو الوارد هو الذى يتقدم الرفقة إلى الماء «فأدلى» أى أرسل « دلوه » فى البئر يقال : أدليت الدلو إذا أرسلتها فى البئر ودلوتها إذا أخرجتها ، والدلو معروف والجمع الدلاء ، فلما أرسلها تعلق يوسف عليه السلام بالحبل ، فإذا هو بغلام

أحسن ما يكون ، وكان يوسف كما يروى قد أعطى شطر الحسن ، ويقال : إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة ، وكانت جدته قد أعطيت من الحسن ما أعطيت ؛ فلما رآه الرائد ذعر ، و « قال يابشرى هذا غلام » نادى البشرى بشارة لنفسه ، كأنه قال تعالى : فهذا أوانك ، واختلف فى ضمير « وأسروه بضاعة » إلى من يعود ؟ وفيه قولان :

الأول : أنه عائد إلى الوارد وأصحابه ، أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه بالجب ، وذلك أنهم قالوا : إن قلنا للسيارة التقطناه شاركونا ، وإن قلنا اشتريناه سألونا الشركة ، فالأصوب أن نقول : إن أهلا لنا جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر ، والثانى : نقل عن ابن عباس أنه قال : وأسروه يعنى إخوة يوسف أسروا شأنه ، وذلك أن يهوذا كان يأتيه بالطعام كل يوم ، وفى هذا اليوم لم يجده فى البئر فأخبر إخوته فطلبوه ، فإذا هم بيوسف مع هؤلاء السيارة فقالوا : هذا عبد لنا أبق منا ، وتابعهم يوسف على ذلك لأنهم توعدوه بالقتل بالعبرانية ، قال الرازى : والأول أولى ، لأن قوله « وأسروه بضاعة » يدل على أن المراد أنهم أسروه بضاعة ، وذلك إنما يليق بالوارد لا بإخوة يوسف ، والبضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت الشىء إذا قطعته ، والتقدير : وأسروه فى الحال التى جعلوه فيها بضاعة « والله عليم » أى بالغ العلم « بما يعملون » أى لم يخف عليه مافعلوه بيوسف وبأبيهم « وشروه » أى باعوه ، أى باعه إخوته للسيارة أو باعه الوارد ، وقد يطلق لفظ الشراء على البيع ، يقال : شريت الشىء بمعنى بعته ، وإنما حمل هذا الشىء على البيع لأن الضمير فى « شروه » وفى « كانوا فيه من الزاهدين » يرجع إلى شىء واحد ، وذلك أن إخوته زهدوا فيه فباعوه ، وقيل : إن الضمير يعود إلى الوارد وأصحابه ، وعلى هذا يكون لفظ الشراء على بابه ، وقال محمد ابن إسحاق : ربك أعلم : أإخوته باعوه أم السيارة « بثمن بخس » قال الضحاك : حرام ؛ لأن ثمن الحر حرام ، وسمى الحرام بخسا لأنه مبخوس البركة ، وقال ابن مسعود : أى زيوف ، وقال عكرمة : أى بثمن قليل ، ويدل لهذا قوله تعالى « دراهم معدودة » لأنهم كانوا فى ذلك الزمان لا يزنون ما كان أقل من

أربعين درهما إنما كانوا يأخذون مادونها عدا ، فإذا بلغت أربعين وزنوها ، واختلفوا فى عدد تلك الدراهم ، فقال ابن عباس : كانت عشرين درهما ، وقال مجاهد : كانت اثنين وعشرين درهما ، وقال عكرمة : أربعين درهما ، « وكانوا » أى إخوته « فيه » أى يوسف « من الزاهدين » لأنهم لم يعلموا منزلته عند الله تعالى ، ومعنى الزهد قلة الرغبة ، يقال : زهد فلان فى كذا إذا لم يرغب فيه ، وأصله القلة ، يقال : رجل زاهد - إذا كان قليل الطمع ؛ وقيل : كانوا فى الثمن من الزاهدين ، لأنهم لم يكن قصدهم تحصيل الثمن وإنما كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه ، وقيل : الضمير فى (كانوا) للسيارة ، لأنهم التقطوه ، والملتقط للشىء يتهاون به لذلك باعوه بأوكس الأثمان ، روى أن هذا الوارد انطلق هو وأصحابه بيوسف وتبعهم إخوته يقولون : استوثقوا منه لأنه أبق ، فذهبوا حتى أتوا مصر وعرضوه للبيع ؛ فاشتراه العزيز الذى كان على خزائن مصر ، واشتراه العزيز وهو ابن تسع عشرة سنة ، فأقام فى منزله ، ثلاث عشرة سنة ، وقد صار يوسف وزيراً وهو ابن ثلاثين سنة ، وآتاه الله تعالى العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة ، وقيل : كان الملك فى أيامه فرعون موسى الذى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات » وقيل : كان فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف ، واشتراه العزيز بعشرين ديناراً وقيل : قدمت السيارة بيوسف مصر ، فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع ، فزاد الناس فى ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريراً ، وكان وزنه أربعمائة رطل ، وكان عمره حينئذ سبع عشرة سنة ، وقيل : ثلاث عشرة سنة فابتاعه العزيز بهذا الثمن ، فذلك قوله تعالى : « وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته » قيل : كان اسمها زليخا أو راعيل « أكرمى مثواه » قال الرازى : واعلم أن شيئا من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ولم يثبت أيضا فى خبر صحيح ، وتفسير كتاب الله تعالى لايتوقف على شىء من هذه الروايات ، فاللائق بالعاقل أن يحترز من ذكرها ، ولكن البغوى ذكرها ونبه على ذلك جماعة من المفسرين ، والمثوى : موضع الإقامة ، أى اجعلى منزله ومقامه

عندنا كريما أى حسنا مرضيا بدليل قول يوسف : إن ربى أحسن مثواى ، والمراد : تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملك حتى تكون نفسه طيبة فى صحبتنا ساكنة فى كنفنا ، قال المحققون : أمر العزيز امرأته بإكرام مثواه دون إكرام نفسه يدل على أنه كان ينظر إليه على سبيل الإجلال والتعظيم ، وهو كما يقال : سلام الله على المجلس الكريم « عسى أن ينفعنا » أى يقوم بإصلاح مهماتنا أو نبيعه بالربح إن أردنا بيعه « أو نتخذه ولدا » أى نتبناه وكان حصورا ليس له ولد .

قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : العزيز فى يوسف حيث قال لامرأته : أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا ، وابنة شعيب حين قالت لأبيها فى موسى: استأجره ، وأبو بكر فى عمر حيث استخلفه « وكذلك » أى وكما نجيناه من القتل والجب وعطفنا عليه قلب العزيز « مكنا ليوسف فى الأرض » أى أرض مصر لتمكنه من الحكم بالعدل والنبوة « ولنعلمه من تأويل الأحاديث» أى تعبير الرؤيا عطف على مقدر ما تعلق بمكنا أى لتمكنه ، أو الواو زائدة « والله غالب على أمره » أى الأمر الذى يريده لأنه تعالى فعال لما يريد ، ولا دافع لقضائه ولا مانع من حكمه فى أرضه وسمائه أو على أمر يوسف ، أراد إخوته قتله فغلب أمره عليهم ، وارادوا أن يلتقطه بعض السيارة ليندرس اسمه ، فغلب أمره سبحانه وتعالى وظهر اسمه واشتهر، ثم باعوه مملوكا فغلب أمره سبحانه وتعالى حتى صار ملكا وسجدوا بين يديه ، ثم أرادوا أن يرضوا أباهم ويطيبوا قلبه حتى يخلو لهم وجهه ، فغلب أمره تعالى وأظهر مكرهم ، واحتالت إليه امرأة العزيز لتخدعه عن نفسه ، فغلب أمره تعالى فعصمه حتى لم يهم بسوء بل هرب منه غاية الهرب ، ثم بذلت جهدها فى إذلاله وإلقاء التهمة عليه فأبى الله تعالى إلا إعزازه وبراءته ، ثم أراد يوسف عليه السلام ذكر الساقى له ، فغلب أمره تعالى فأنساه ذكره حتى مضى الأجل الذى ضربه الله تعالى له ، وكان من أمره ما كان فى هذه القصة وفى غيرها ، مما يرشد إلى أنه لا أمر لغير الله تعالى «ولكن أكثر الناس» وهم الكفار « لا يعلمون » أن الأمر كله بيد الله

أو أن أكثر الناس لا يعلمون ما هو صانع بيوسف وما يريد منه ، فمن تأمل فى الدنيا وعجائب أحوالها عرف وتيقن ان الأمر كله لله وأن قضاء الله تعالى غالب.

ولما بين الله تعالى أن إخوته أساءوا إليه وصبر على تلك الشدائد والمحن ومكنه فى الأرض ـ أتبعه الأمر بتمام النعمة عليه بقوله تعالى « ولما بلغ أشده » أى منتهى شبابه وقوته وشدته ، تقول العرب : بلغ فلان أشده إذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته ، وهذا اللفظ مستعمل فى الواحد والجمع يقال: بلغ فلان أشده وبلغوا أشدهم ، وهو ثلاث وثلاثون سنة ، وقال الكلبى : الأشد ما بين ثمانية عشر عاما إلى ثلاثين ، وقيل : أقصاه اثنان وستون سنة «آتيناه حكما» أى حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل ، أوحكما بين الناس « وعلما » أى علم تأويل الأحاديث ، وقيل : المراد بالأحاديث النبوة والرسالة ، وتقدم أن قوله تعالى : «وأوحينا » أنه وحى حقيقة ، قال الرازى : فلا يبعد أن يقال: إن ذلك الوحى إليه فى ذلك الوقت لا لأجل بعثته إلى الخلق بل لأجل تقوية قلبه وإزالة الحزن عن صدره ، ولأجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام «وكذلك» أى ومثل ذلك الجزاء الذى جزيناه به « نجزى المحسنين » قال ابن عباس : يعنى المؤمنين ، وعنه أيضا يعنى المهتدين ، وقال الضحاك : يعنى الصابرين على النوائب كما صبر يوسف ، وعن الحسن : من أحسن عبادة ربه فى شبيبته آتاه الله الحكمة فى اكتهاله ، ولما أخبر تعالى أن سبب النعمة عليه إحسانه أتبعه بقوله تعالى « وراودته التى هو فى بيتها » أى امرأة العزيز راودت يوسف «عن نفسه» لأنها لما رأته فى غاية الحسن والجمال طمعت فيه ، والمراودة مفاعلة من راود يراود إذا جاء وذهب ، كأن المعنى خادعته عن نفسه ، أى فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشىء الذى لا يريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلب عليه ويأخذه منه ، وهو عبارة عن التمحل لنومه معها «وغلقت الأبواب» أى أطبقتها وكانت سبعة ، والتشديد للتكثير أو للمبالغة فى الإيثاق « وقالت » له «هيت» أى تهيأت وتصنعت «لك» خاصة، قال الواحدى: «هيت » اسم للفعل نحو رويد ومه ومعناه هلم فى قول جميع أهل اللغة «قال» لها يوسف عليه السلام « معاذ الله »

أى أعوذ بالله وأعتصم به وألجأ إليه مما تدعوننى إليه «إنه» أى الذى اشترانى « ربى » أى سيدى « أحسن مثواى » أى أكرم منزلى فلا أخونه فى أهله ، وقيل : إنه أى الله ربى« أحسن مثواى » أىآوانى وأنجانى من بلاء الجب « إنه لا يفلح الظالمون ، أى إن فعلت هذه الفعلة فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون « ولقد همت به وهم بها » أى قصدت مخالطته ووسوس له الشيطان مخالطتها ، والهم بالشىء قصده ، ومنه الهمام ، والمراد بهمه ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختيارى ، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف ، بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم ، ولهذا قال بعض أهل الحقائق : الهم قسمان : هم ثابت وهو إذا كان معه عزم وعقد ورضاء مثل هم امرأة العزيز ، فالعبد مأخوذ به ، وهم عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم ، مثل هم يوسف عليه السلام ، والعبد ليس مأخوذا به ما لم يتكلم أو يعمل ، كما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله عز وجل : إذا تحدث عبدى بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها حسنة ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشرة أمثالها ، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له مالم يعملها ، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها ، قال فى الكشاف : ويجوز أن يريد بقوله : «وهم بها » شارف أن يهم ، كما يقول الرجل : قتلته لولم أخف الله ، يريد مشارفة القتل ومشافهته كأنه شرع فيه « لولا أن رأى » أى بعين قلبه « برهان ربه » أى الذى أتاه إياه من الحكم والعلم ، والمعنى : لولا ذلك لهم بها ، لكن كان البرهان حاضرا لديه حضور من يراه بالعين فلم يعص أصلا ، لما أتاه الله تعالى من القوة ، مع كونه فى سن الشباب ، فلولا المراقبة لهم بها لتوفر الداعى ، غير أن نور الشهود منع منها أصلا ، وهذا التقدير هو اللائق بمثل مقامه عليه السلام ، مع أنه الذى يدل عليه أساليب هذه الآيات من جعله من المخلصين والمحسنين المصروف عنهم السوء ، وأن السجن أحب إليه من ذلك مع قيام القاطع على كذب ما تضمنه قولها « ماجزاء من أراد بأهلك

سوءاً ، الآية من مطلق الإرادة ، ومع ما يتحتم تقدير ما ذكر بعد لولا فى خصوص هذا التركيب من أساليب كلام العرب ، فإنه يجب أن يكون المقدر بعد كل شرط من معنى ما دل عليه ما قبله، وهذا مثل قوله تعالى : « إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها » أى لأبدت به ، وأما ما ورد عن السلف مما يعارض ذلك فلم يصح منه شيء عن أحد منهم، مع أن هذه الأقوال التى وردت عنهم إذا جمعت تناقضت وتكاذبت ، قال الزمخشرى : وهذا ونحوه مما يورده أهل الجبر والحشو الذين دينهم بهت الله وأنبيائه ، فأخزى الله أولئك ، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل ، وأطال فى رد ذلك ، وكذا فعل الرازى ، وقيل : «وهمّ بها» أى بزجرها ووعظها ، وقيل: هم أى منعه امتناعه منها ، وقيل : هم بها أى نظر إليها ، وقيل : هم بضربها ودفعها ؛ وقيل : هذا كله قبل نبوته ، «كذلك» أى مثل ذلك التثبت نثبته فى كل أمر « لنصرف عنه السوء » أى الهم بالزنا وغيره ، وقيل : السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة «والفحشاء» هو الزنا ، وكأنه قيل : لم فعل به هذا ؟ فقيل : « إنه من عبادنا » أى الذين عظمناهم « المخلصين » أى من عبادنا الذين هم خير صرف لا يخالطهم غش ، وفتح اللام يدل على أن الله تعالى استخلصه واصطفاه لحضرته، وقيل : هو بكسر اللام ، وكلا اللفظين من أدل الألفاظ على كونه منزها عما أضافوه إليه ، وهذا مع قول إبليس : لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، وهو شهادة من إبليس أن يوسف عليه السلام برىء من الهم .

وقيل:معنى « ولقد همت به » أى وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها ، وهى فى نظرها سيدته وهو عبدها ، وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه ، ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة ، ومراوَدة عن نفسها لا مراوِدة ، حتى إن حماة الأنوف من كبراء الرجال، ليطأطئون الرؤوس للفقيرات الحسان ربات الجمال، ويبذلون لهن ما يعتزون به من الجاه والمال ، بل إن الملوك ليذلون أنفسهم

لمملوكاتهم وأزواجهم ولا يأبون أن يسموا أنفسهم عبيداً لهن ، ولكن هذا العبد العبرانى الخارق للطبيعة البشرية فى حسنه وجماله ، وفى جلاله وكماله ، وفى إبائه وتعففه ، قد عكس القضية ، وخرق نظام الطبيعة والعوائد بين الجنسين ، فأخرج المرأة من طبع أنوثتها فى إدلالها وتمنعها ، وهبط بالسيدة المالكة من عزة سيادتها وسلطانها : راودته عن نفسه فى مخدع دارها ، فيصد عنها علواً ونفاراً ، ثم تصارحه بالدعوة إلى نفسها فيزداد عتواً واستكباراً ، معتزاً عليها بالديانة والأمانة ، والترفع عن الخيانة ، وحفظ شرف سيده وهو سيدها وزوجها وحقه عليها أعظم ، إن هذا الاحتقار لا يطاق ، ولا علاج لهذا الفاتن المتمرد إلا تذليله بالانتقام ، هذا ماثار فى نفس هذه المرأة المفتونة بطبيعة الحال وشرعت فى تنفيذه أو كادت ، بأن همت بالبطش به فى ثورة غضبها ، وهو انتقام معهود من مثلها وممن دونها فى كل زمان ومكان ، ومعنى « وهم بها لولا ان رأى برهان ربه » أنه رأى من برهان ربه فى سريرة نفسه ، ما هو مصداق قوله تعالى « والله غالب على أمره » وهو إما النبوة التى تلى الحكم والعلم اللذين آتاه الله إياهما بعد بلوغ الأشد ، وشاهده قوله تعالى : « قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا » وإما معجزتها كما قال تعالى لموسى فى آيتى العصا واليد: «فذانك برهانان من ربك » وإما مقدماتها من مقام الصديقية العليا وهى مراقبته لله تعالى ورؤية ربه متجليا له ناظرا إليه ، وفاقا لما قاله أخوه محمد خاتم النبيين فى تفسير الإحسان « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، فيوسف عليه السلام كما يقول الشيخ رشيد رضا قد رأى البرهان فى نفسه ، لا صورة أبيه متمثلة فى سقف الدار . ولا صورة سيده العزيز فى الجدار ، ولا صورة ملك يعظه بآيات من القرآن ، وأمثال هذه الصور التى رسمتها أخيلة بعض رواة التفسير المأثور بما لا يدل عليه دليل من اللغة ولا العقل ولا الطبع ولا الشرع ، ولم يرو فى خبر مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى الصحاح ولا فيما دونها ، وما قلناه هو المتبادر من اللغة ووقائع القصة ، ومقتضى ما وصف الله به يوسف فى هذا السياق وغيره من السورة ، ولاسيما قوله فى أوله « وكذلك

نجزى المحسنين » وما فسر النبى صلى الله عليه وسلم به الإحسان ، وقوله فى تعليله « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء » أى كذلك فعلنا وتصرفنا فى أمره لنصرف عنه دواعى ما أرادته به أخيرا من السوء وراودته عليه قبله من الفحشاء ، بحصانة أو عصمة منا تحول دون تأثير دواعيهما الطبيعية فى نفسه ، فلا يصيبه شىء يخرجه من جماعة المحسنين الذين شهدنا له بأنه منهم ، إلى جماعة الظالمين الذين ذمهم وشهد هو فى رده عليها بأنهم لا يفلحون وشهادته حق ، ويزيد الأمر فى ذلك تأكيدا قوله « إنه من عبادنا المخلصين » بفتح اللام وهم آباؤه الذين أخلصهم ربهم وصفاهم من الشوائب ، وكان يوسف هو الحلقة الرابعة فى سلسلتهم الذهبية ، وقد بشره أبوه بذلك بعد أن قص عليه رؤياه إذ قال له « وكذلك يجتبيك ربك » فالاجتباء هو الاصطفاء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : « المخلصين » بكسر اللام والقراءتان متفقتان متلازمتان، فهم مخلصون لله فى إيمانهم به وحبهم وعبادتهم له ، ومخلصون عنده بالولاية والنبوة والعناية والوقاية من كل ما يبعدهم عنه ويسخطه عليهم ، والجملة تعليل لصرف الله السوء والفحشاء عنه ، ولم يقل لنصرفه عن السوء والفحشاء ، فإنه لم يعزم عليهما بل لم يتوجه إليهما فيصرف عنهما ، وهمه لأول وهلة بدفع صيالها هم بأمر مشروع ، وجد مقتضيه مقترنا بالمانع منه وهو رؤيته برهان ربه فلم ينفذه ، فكان الفرق بين همها وهمه أنها أرادت الانتقام منه شفاء لغيظها من خيبتها وإهانته لها ، فلما رأى أمارة وثوبها عليه استعد للدفاع عن نفسه وهم به ، فكان موقفهما موقف المواثبة ، والاستعداد للمضاربة ، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته ما لم تر هى مثله ، فألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذى تتم به حكمته سبحانه وتعالى فيما أعده له ، فلجأ إلى الفرار ترجيحا للمانع على المقتضى ، وتبعته هى مرجحة للمقتضى على المانع ، واستبقا باب الدار . ولئن كان عقلاء المفسرين أنكروا الروايات الإسرائيلية الحمقاء ، حماية لعقيدة عصمة الأنبياء ، فإنه لم يكد يسلم أحد من تأثير بعضها فى أنفسهم ،

وتسليمهم لهم أن الهم من الجانبين كان بمعنى العزم على الفاحشة ، إلا من خالف قواعد اللغة فقال إن قوله تعالى : « وهم بها » جواب لقوله « لولا أن رأى برهان ربه » ومن قال : إن جوابه محذوف دل عليه ما قبله ، فهو على هذين القولين لم يهم بشيء ، وهو خلاف المتبادر من العبارة أو ظاهرها ، وتأوله بعضهم بأن همه بالفاحشة بمقتضى الدواعي الفطرية لا ينافي العصمة ، وإنما ينافيها طاعتها بدليل ما صح في الحديث أن من هم بسيئة ولم يفعلها لم تكتب عليه ، وإن امتناعه عنها بترجيح داعية الإيمان وطاعة الله تعالى مع طغيانها وإلحاحها الطبيعي عليه أدل على الإيمان والطاعة من كونه لم يفعلها كراهة لها وعزوفا عنها لقبحها،ولهم تأويلات كثيرة من هذا القبيل، ولقد كانوا لولا تأثير الرواية في غنى عنها ، والتأويل الأخير أوله مقبول وآخره مردود، فههنا مرتبتان : في إحداهما الكف عن المعصية جهاداً للنفس وكبحا لها خوفا من الله تعالى ، وهي مرتبة الصالحين الأبرار ، ومرتبة الكراهة لها والاشمئزاز منها حياء من الله ومراقبة له واستغراقا في شهوده ، وهي مرتبة الصديقين والنبيين الأخيار ، الذين إذا عرضت لهم الشهوة المستلذة بالطبع ، بالصورة المحرمة في الشرع ، عارضها من وجدان الإيمان ، وتجلي الرحمن ، ما تغلب به روحانيتهم الملكية ، على طبيعتهم الحيوانية ، وهذا مما قد يحصل لمن دون الأنبياء منهم ، فكيف بمن يرون برهان ربهم بأعين قلوبهم ، وينعكس نوره عن بصائرهم فيلوح لأبصارهم .

« واستبقا الباب » أي تسابقا في الوصول إليه ، هذا ليهرب ، وهي لتمنعه من الهرب ، وكانت الأبواب مغلقة فكان يشتغل بفتحها ، فتعلقت بأدنى ما وصل إليه من قميصه ، فاشتد تعلقها به مع إعراضه هو عنها وهربه منها ، ففتحه فأراد الخروج فمنعته « و » لم تزل تنازعه حتى « قدت » أي شقت « قميصه » وكان القد « من دبر » أي من الخلف وانقطعت منه قطعة فبقيت في يدها « وألفيا » أي وجدا « سيدها » أي زوجها وهو العزيز ، تقول المرأة لبعلها : سيدي ، ولم يقل سيدي لأن ملك يوسف لم

يصح فلم يكن سيدا له على الحقيقة « لدى » أى عند « الباب » فلما رأت المرأة زوجها هابته وخافت التهمة فسابقت يوسف بالقول ، و « قالت » لزوجها : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً » أى فاحشة من زنا أو غيره ، ثم خافت عليه أن يقتل وذلك لشدة حبها له فقالت : « إلا أن يسجن » أى يحبس فى السجن ويمنع من الحركة والتصرف « أو عذاب أليم » أى بأن يضرب بالسياط ونحوها ، وإنما بدأت بالسجن قبل العذاب لأن المحب لا يشتهى إيلام المحبوب ، وإنما أرادت أن يسجن يوما أو يومين ولم ترد السجن الطويل ، فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال: يجب أن يجعل من المسجونين ، ألا ترى أن فرعون هكذا قال فى حق موسى عليه السلام فى قوله : لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين ، فلما سمع يوسف عليه السلام مقالتها « قال » مبرئاً نفسه « هى » بضمير الغيبة لاستحيائه بمواجهتها بإشارة أو ضمير خطاب « راودتنى عن نفسى » أى طلبت منى الفاحشة فأبيت وفررت منها ، وذلك أن يوسف عليه السلام ما كان يريد أن يذكر هذا القول ولا يهتك سترها، ولكن لما قالت هى ما قالت احتاج إلى إزالة هذه التهمة عن نفسه ، وصدقه فى ما قال لا يحتاج إلى بيان أكثر من الحال الذى كان فيه ، وهو أنهما عند الباب ، ولو كان الطلب منه لما كان إلا فى محلها الذى تجلس فيه وهو صدر البيت وأشرف موضع فيه ، وأيضا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه ، وأما يوسف فما كان عليه أثر من آثار تزين النفس ، فكان إلحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى ، ثم إنه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلا آخر يقوى تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه برىء من الريب وأن المرأة هى المذنبة ، وهو قوله تعالى « وشهد شاهد من أهلها » أى وحكم حاكم من أهل المرأة ، واختلفوا فى هذا الشاهد : فقال سعيد بن جبير والضحاك : كان صبياً فى المهد أنطقه الله تعالى كرامة ليوسف عليه السلام ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : تكلم فى المهد أربعة وهم صغار: شاهد يوسف وعيسى بن مريم وصاحب جريج - كان يرضع فمر راكب حسن الهيئة فقالت أمه : اللهم اجعل ابنى مثل هذا ، فقال الصبى :

اللهم لا تجعلني مثله ، وزادت بعض الروايات يحيى بن زكريا .. وقالت طائفة من المفسرين : إنها كان لها ابن عم وكان رجلا حكيما ، واتفق فى ذلك الوقت أنه كان مع العزيز يريد أن يدخل عليها فقال : قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص إلا أنا لا ندرى أيكما قدام صاحبه ولكن « إن كان قميصه قد من قبل » أى من قدام « فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر » أى من خلفه « فكذبت وهو من الصادقين » لأنه لولا إدباره منها وإقبالها عليه لما وقع ذلك ، وعرف سيدها صحة ذلك بلا شبهة كما قال تعالى : « فلما رأى » أى سيدها « قميصه » أى يوسف عليه السلام « قد من دبر قال » لها زوجها وقد قطع بصدقه وكذبها مؤكداً لأجل إنكارها « إنه » أى هذا القذف له « من كيدكن » معشر النساء ، والكيد طلب الإنسان بما يكره « إن كيدكن عظيم » أى احتيالهن عند الرغبة وفتنة الشيطان شديد كبير ، ومكر النساء فى هذا الباب أعظم من كيد جميع البشر ؛ لأن لهن من المكر والحيل والكيد فى إتمام مرادهن مالا يقدر عليه الرجال فى هذا الباب ، ولأن كيدهن فى هذا الباب يورث العار مالا يورثه كيد الرجال ، ولما ظهر للقوم براءة يوسف عند ذلك الفعل المنكر حكى تعالى أنه قال « يوسف » أى يا يوسف « أعرض » أى انصرف بكليتك مجاوزاً « عن هذا » الحديث فلا تذكره لأحد حتى لا يشيع وينتشر بين الناس ، ثم التفت إلى المرأة وقال لها « واستغفرى لذنبك » أى توبى إلى الله تعالى مما رميت يوسف به من الخطيئة وهو برىء منها « إنك كنت من الخاطئين » أى الآثمين ، قيل : إن القائل المذكور هو الزوج ، وقيل : هو الشاهد ، فإن قيل : كيف قال من الخاطئين بلفظ التذكير ؟ أجيب بأنه قال ذلك تغليباً للذكور على الإناث ، أو أن المراد : إنك من نسل الخاطئين .

* * *

هذا هو الربع الثانى من سورة يوسف عليه السلام الذى صور الله عز وجل فيه قصة نشأة يوسف وحسد إخوته له ورميهم إياه فى الجب وشراء العزيز له ، وقصته مع امرأة العزيز أبلغ تصوير ، وعبر عنه أفصح تعبير ، وأبان عنه بأروع بيان ..

الربع الثالث من سورة يوسف

٣٠ — وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ .

٣١ — فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ .

٣٢ — قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ .

٣٣ — قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ .

٣٤ — فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .

٣٥ — ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ .

٣٦ — وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ .

٣٧ — قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ
أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ
لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ .

٣٨ — وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ
أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ .

٣٩ — يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ
ٱلْقَهَّارُ .

٤٠ — مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم
مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا
تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ .

٤١ — يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا
ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى
فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ .

٤٢ — وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ
ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ .

٤٣ — وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّى أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ .

٤٤ — قَالُوٓا أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ .

٤٥ — وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ .

٤٦ — يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ .

٤٧ — قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ .

٤٨ — ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ .

٤٩ — ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ .

٥٠ — وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ

رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ .

٥١ — قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ .

٥٢ — ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ .

فى هذا الربع الكريم من سورة يوسف، أو الآيات الثلاث والعشرين ، يذكر الله عزوجل ذيوع نبأ قصة يوسف مع امرأة العزيز فى عاصمة فرعون، واحتيال امرأة العزيز على النسوة اللاتى أذعن القصة ، حتى شاهدن يوسف ، وسحرن بجماله ، فى مأدبة خاصة ، وضعت فيها السكاكين على الموائد فقطعن أيديهن من ذهولهن ، وقلن : حاشا لله ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ، ثم يذكر الله عز وجل سجن يوسف ، ودعاءه لله أن يصرف عنه كيد النساء ، ونبوءات يوسف فى السجن ، ودعوته المسجونين إلى عبادة الله رب يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم ، ثم تفيض الآيات فى ذكر منام فرعون ، وعجز الكهان ومعبرى الرؤيا عن تأويله ، ولجوئهم إلى يوسف ، وتعبيره لمنام الملك، وإعجاب الملك بأمره ، وظهور براءة يوسف للملك، وإقرار امرأة العزيز ببراءته .

كل ذلك فى أسلوب رائع ، وتصوير جميل ، وعبارة أخاذة ، وبيان طلى، وإعجاز فى الأداء والقصص ما بعده من إعجاز ، ولكن ليس من عادتنا فى

هذا التفسير النظر فى البلاغة وحدها إلا عرضا وعلى سبيل الاستطراد ، ولو أننا فرغنا لإعجاز القرآن وبلاغته والحديث عن أسلوبه وفصاحته آية آية ، لاستغرق ذلك منا الوقت والجهد ، ولخرج هذا التفسير فى أضعاف حجمه ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك وأعباء نشره وطبعه المادية تكاد تؤود الجبال ، ولكن فضل الله عظيم ، ورعايته الشاملة كبيرة ، وما توفيقى إلا بالله .

* * *

يقول الله تعالى فى هذا الربع البليغ فى قصة يوسف ، وفى أحد مشاهد قصته مع امرأة العزيز :

« وقال نسوة فى المدينة » أى قالت جماعة من النساء ، قيل هن : امرأة الساقى وامرأة الخباز ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن ، وامرأة الحاجب . والصحيح أن المراد العموم وانتشار الخبر فى المدينة أى عاصمة مصر ، ودعوتها لنساء معينات إنما هى للمحيطات بها . . وقيل : المراد بالمدينة عين شمس « امرأة العزيز » وإنما إضفتها إلى زوجها إرادة الإشاعة للخبر؛ لأن النفس إلى سماع أخبار العظماء أميل ، والعزيز الملك بلسان العرب، والمراد به رئيس شرطة الملك أو بلسان العصر الحاضر وزير داخليته « تراود فتاها » أى عبدها الكنعانى « عن نفسه » أى تطلب منه الفاحشة وهو يمتنع منها «قد شغفها حبا» أى شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل إلى فؤادها ، وحبا نصب على التمييز « إنا لنراها » أى نعلم أمرها علما كالرؤية « فى ضلال » أى خطأ « مبين » أى بين ظاهر حيث تركت مايجب على أمثالها من العفاف والستر بسبب حبها إياه « فلما سمعت امرأة العزيز بمكرهن » أى قولهن، وإنما سمى ذلك مكرا لوجوه :

الأول : أن النسوة إنما ذكرن ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر إلى وجهه؛ لأنهن عرفن أنهن إذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن .

الثانى : أن امرأة العزيز أسرت إليهن حبها ليوسف عليه السلام ، وطلبت منهن كتمان السر ، فلما أظهرن السر كان ذلك مكرا .

الثالث : أنهن وقعن فى غيبتها والغيبة ، إنما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر .

« أرسلت إليهن » تدعوهن لتقيم عذرها عندهن ، قال وهب: اتخذت مائدة ودعت أربعين امرأة من نساء أشراف مدينتها فيهن الخمس نسوة « واعتدت » أى أعدت « لهن متكأ » أى طعاما يقطع بالسكين ، وهو الأترج ، وإنما سمى الطعام متكأ لأنه يتكأ عنده ، وقيل: المتكأ ما يتكأ عليه عند الطعام والشراب والحديث ، لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ، وقيل: إنها زينت البيت بألوان الفاكهة والأطعمة ، ووضعت الوسائد ، ودعت النسوة اللاتى عيرنها بحب يوسف عليه السلام « وآتت » أى أعطت « كل واحدة منهن سكينا » أى لتأكل بها ، وكانت عادتهن أن يأكلن اللحم والفواكه بالسكين ، وفى هذا دليل على حضارة المصريين القدماء وترفهم واستعمالهم لأدوات الموائد الحديثة « وقالت » زليخا ليوسف « اخرج عليهن » أى النسوة ، وكان يخاف من مخالفتها ، فخرج عليهن يوسف فى بهائه وجماله ووقاره وزينته « فلما رأينه » أى النسوة « أكبرنه » أى أعظمنه ودهشن عند رؤيته ، واتفق الأكثرون على أنه إنما أكبرنه للجمال الفائق والحسن الكامل ، وقال عكرمة : كان فضل يوسف فى الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : رأيت يوسف ليلة أسرى بى إلى السماء كالقمر ليلة البدر ، ويقال: إنه ورث الجمال من جدته سارة ، وقيل: « أكبرنه » يعنى حضن ، والهاء للسكت ، يقال : أكبرت المرأة حاضت ، وحقيقته : دخلت فى الكبر ، لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر .

وقال الرازى : إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والإخبات وشاهدن عليه الوقار والهيبة ، وكان الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة فوقع الرعب والمهابة منه فى قلوبهن « وقطعن أيديهن » أى جرحنها بالسكاكين التى معهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الطعام ولم يجدن الألم من فرط

الدهشة بيوسف ، وقال وهب: مات جماعة منهن «وقلن حاش لله» تنزيها «ماهذا» أي يوسف عليه السلام «بشرا» وإعمال (ما) عمل (ليس) هي اللغة الحجازية ويدل عليها هذه الآية وقوله تعالى : ماهن أمهاتهم «إن» أي ما «هذا إلا ملك كريم» أي على الله ، لما حواه من الحسن الفائق الذى لايكون عادة لبشر . فإن الجمع بين الجمال الباهر والكمال الرائع والعصمة البالغة من خواص الملائكة « قالت » أي زليخا للنسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته « فذلكن » أي فهذا هو «الذى لمتننى فيه» أى فى محبته قبل أن تتصورنه حق تصوره ، ثم إنها صرحت بما فعلت فقالت «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم» أي فامتنع من ذلك الفعل الذى طلبت ، وإنما صرحت بذلك لأنها علمت أنها لاملامة عليها منهن، وأنهن قد أصابهن ما أصابها عند رؤيته ، ثم قالت « ولئن لم يفعل ما آمره » أي وإن لم يطاوعنى فيما دعوته « ليسجنن » أي ليعاقبن بالحبس « وليكونا من الصاغرين » أى الذليلين المهانين ، فاختار يوسف عليه السلام السجن على مادعته إليه ، فلذلك « قال: رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » وإن كان هذا مما تشتهيه النفس وذاك مما تكرهه نظرا للعاقبة ، فان الأول فيه الذم فى الدنيا والعقاب فى الآخرة والثانى فيه المدح فى الدنيا والثواب الدائم فى الآخرة ؛ فإن قيل : إن الدعاء كان منها فلم أضافه إليهن جميعا ، أجيب بأنهن خوفنه من مخالفتها وزين له مطاوعتها ، وقيل : إنهن دعونه إلى أنفسهن ، قال بعض العلماء : لو لم يقل : السجن أحب إلى ـ لم يبتل بالسجن ، والأولى بالعبد أن يسأل الله تعالى العافية ، ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الصبر بقوله : سألت الله البلاء فاسأله العافية . رواه الترمذى « وإلا » أي وإن لم « تصرف عنى كيدهن » أى فيما أردن منى بالتثبيت على العصمة « أصب » أى أميل « إليهن » ، يقال : صبا فلان إلى كذا : إذا مال إليه واشتاقه « وأكن » أى أصر « من الجاهلين » أى من السفهاء بارتكاب مايدعوننى إليه؛ فإن الحكيم لايفعل القبيح ، وفى ذلك دليل على أن من ارتكب ذنبا إنما يرتكبه على جهالة ، والقصد بذلك الدعاء ، ولذلك قال تعالى:

فاستجاب له ربه ، أى فأجاب الله تعالى دعاءه الذى تضمنه هذا الثناء ؛ لأن الرب الكريم يغنيه التلويح عن التصريح ، قال أمية بن الصلت :

إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

« فصرف عنه كيدهن » أى فثبته بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن وآثرها على اللذة المتضمنة للعصيان « إنه هو السميع » لدعاء الملتجئين إليه « العليم » أى بالضمائر والنيات « ثم بدا » أى ظهر « لهم » أى العزيز وأصحابه « من بعد مارأوا الآيات » أى البراهين الدالة على براءة يوسف عليه السلام ، كشهادة الصبي وقد القميص ، وقطع النساء أيديهن واستعصامه عنهن « ليسجننه حتى » أى إلى « حين » ينقطع فيه كلام الناس ، وذلك أن المرأة قالت لزوجها : إن هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس ، يقول لهم : إنى راودته عن نفسه ، فعند ذلك رأى العزيز أن الأصوب حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة ، فسجنه ، وفى فاعل « بدا » أربعة أوجه :

الأول ـ وهو أحسنها ـ أنه ضمير يعود على السجن ، أى ظهر لهم حبسه .

الثانى : أن الفاعل ضمير المصدر المفهوم من الفعل وهو بدا ، أى بدا لهم براءة يوسف .

الثالث : أنه مضمر يدل عليه السياق ، أى بدا لهم رأى .

والرابع أنه محذوف ، وليسجننه قائم مقامه ، أى بدا لهم السجن ، وليست الجملة فاعلا لأن الجمل لا تكون كذلك .

وقد حبس يوسف خمس سنين ، وقيل : سبع سنين ، وقال مقاتل بن سليمان : حبس يوسف اثنى عشر عاماً ، وقال الرازى : والصحيح أن هذه المقادير غير معلومة ، وإنما المقدر المعلوم أنه بقى محبوساً مدة طويلة ، لقوله تعالى « وادكر بعد أمة » ، وعن عكرمة قال : قال رجل ذو رأى للعزيز : متى تركت هذا العبد يعتذر إلى الناس ويقص عليهم أمره فاتركه فى بيتها لا يخرج إلى الناس ، فإن خرج للناس عذروه وفضحوا أهلك ، فأمر به فسجن ، ودخل معه السجن

فتيان ، وهما غلامان كانا لفرعون ملك مصر الأكبر : أحدهما خبازه صاحب طعامه ، والآخر ساقيه صاحب شرابه ، فغضب الملك عليهما ، فحبسهما ، وكان السبب فيه أن جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالا على أن يضعا لفرعون السم فى طعامه وشرابه ، فأجابا إلى ذلك ، ثم إن الساقى ندم ورجع عن ذلك ، وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام ، فلما حضر الطعام بين يدى الملك قال الساقى : لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم ، فقال الملك للساقى: اشرب فشرب فلم يضره ، وقال للخباز: كل من طعامك فأبى ، فأطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فأمر بحبسهما ، وكان يوسف عليه السلام حين دخل السجن قال لأهله : إنى أعبر الأحلام ، فقال : أحد الفتيين لصاحبه : هلم فلنجرب هذا العبد العبرانى ، كل يزعم أنه رأى رؤيا ، قال ابن مسعود : وما رأيا شيئا وإنما زعما ذلك ليجربا يوسف ، وقال قوم : بل كانت رؤيا حقيقية ، فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما ، فذكرا أنهما صاحبا الملك حبسهما وقد رأيا رؤيا غمتهما ، فقال يوسف قصا على ما رأيتما ، قال أحدهما ، وهو صاحب شراب الملك ، إنى أرانى أعصر خمرا ، فإن قيل: كيف يعقل عصر الخمر؟ أجيب عن ذلك بثلاثة أقوال :

أحدها أن يكون المعنى أعصر عنب خمر ، أى العنب الذى يكون عصيره خمراً ، ففى الكلام حذف .

الثانى: أن العرب تسمى الشيء باسم مايؤول إليه ، فالكلام على المجاز المرسل.

الثالث : قال أبو صالح : أزد وعمان يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة إلى أهل مكة فنطقوا بها ، وقال الضحاك : نزل القرآن بألسنة جميع العرب ، وذلك أنه قال : إنى رأيت فى المنام كأنى فى بستان ، وإذا فيه شجرة فيها ثلاثة أغصان على ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها ، وكان كأس الملك بين يدى فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه ، وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه ، وذلك أنه قال : إنى رأيت فى المنام كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الطعام وسباع الطير تنهش منه ، نبئنا ، أى

أخبرنا « بتأويله، أى تفسيره « إنا نراك من المحسنين » أى فى علم التفسير ، وقيل: فى أمر الدين؛ لأنه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة ، فإنه كان يصوم النهار ويقوم الليل كله ، ومن كان كذلك فإنه يوثق بما يقوله فى تعبير الرؤيا وفى سائر الأمور ، وقيل : فى حق الشركاء والأصحاب؛ لأنه كان يعود مرضاهم ويواسى المكروب فيهم ، وكان يسكنهم ويقول : اصبروا وأبشروا تؤجروا فيقولون : بارك الله فيك يافتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك ، لقد بورك لنا فى جوارك ، فمن أنت يافتى؟ قال : أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب بن إسحاق بن خليل الله إبراهيم ، فقال له عامل السجن : والله يافتى لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأحسن جوارك ، فكن فى أى بيوت السجن شئت فلما قصا عليه الرؤيا كره يوسف أن يعبرهما ما سألاه لما علم فى ذلك من المكروه على أحدهما « قال » معرضا عن سؤالهما آخذا فى غيره من إظهار المعجزة فى الدعاء إلى التوحيد « لا يأتيكما طعام ترزقانه » أى فى منامكما « إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » تأويله ، وقيل : أراد به فى اليقظة يقول : لا يأتيكما طعام ترزقانه من منازلكما ، أى تطعمانه إلا نبأتكما بتأويله بقدره ولونه والوقت الذى يصل إليكما فيه قبل أن يصل، وأى طعام أكلتم ، وهذا معجزة عيسى عليه السلام حيث قال : وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، فقالا : هذا فعل الكهنة ، فمن أين لك هذا العلم ؟ فقال : ما أنا بكاهن « ذلكما » أى هذا التأويل والإخبار بالمغيبات « مما علمنى ربى » وفى ذلك حث على إيمانهم ثم قواه بقوله : « إنى تركت ملة » أى دين « قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون » وكرر لفظة هم للتأكيد لشدة إنكارهم للمعاد ، ولما ادعى يوسف عليه السلام النبوة وأظهر المعجزة أظهر أنه من أهل بيت النبوة بقوله : « واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب » فإن قيل : إنه كان نبيا فكيف قال : اتبعت ملة آبائى، والنبى لابد وأن يكون مختصا بشريعة نفسه؟ أجيب بأن مراده التوحيد الذى لا يتغير ، أو لعله كان رسولا من عند الله إلا أنه كان على شريعة إبراهيم عليه السلام « ما كان » أى ما صح « لنا » معشر الأنبياء « أن نشرك

بالله من شيء ، لأن الله تعالى طهره وطهر أباه عن الكفر ، وإنما قال : « من شيء » لأن ضروب الشرك كثيرة ، فمنهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد النار ، ومنهم من يعبد الكواكب ، ومنهم من يعبد الملائكة ؛ فقوله : «من شيء» رد على هؤلاء الطوائف وإرشاد إلى الدين الحق ، وهو أنه لا موجود ولا خالق ولا رازق إلا الله « ذلك » أى التوحيد « من فضل الله علينا » بالوحى « وعلى الناس » أى سائرهم ببعثنا لإرشادهم وتثبيتهم عليه « ولكن أكثر الناس » أى المبعوث إليهم « لا يشكرون » هذه النعمة التى أنعم الله تعالى بها عليهم ؛ لأنهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ، ثم دعاهم إلى الإيمان فقال : « يا صاحبى السجن » أى يا صاحبى فى السجن ، فأضافهما إلى السجن كما تقول : مقرىء الليلة ، فكأن الليلة مقروء فيها وليست مقروءة ، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب ، وإنما المصحوب غيره وهو يوسف عليه السلام ، أو ياساكنى السجن كما قال : أصحاب الجنة وأصحاب النار «أأرباب» أى آلهة «متفرقون» أى متباينون «خير» أى أعظم فى صفة المدح وأولى بالطاعة « أم الله الواحد القهار » أى المتفرد بالألوهية الذى لا يغالب ولا يشارك ، والاستفهام للتقرير ، فإن قيل : هل يجوز التفاضل بين الأصنام وبين الله تعالى حتى يقال : إنها خير أم الله ؟ أجيب بأن ذلك خرج على سبيل الفرض ، والمعنى : لو سلمنا أنه حصل منها ما يوجب الخير فهى خير ام الله الواحد القهار « ما تعبدون » وإنما خاطبهم بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية فى المخاطبة ؛ لأنه أراد جميع من فى السجن من المشركين ، والعبادة خضوع القلب فى أعلى مراتب الخضوع « من دونه » أى غيره « إلا أسماء سميتموها » أى ذوات أوجدتم لها أسماء « أنتم » سميتموها آلهة وأربابا وهى حجارة لا حقيقة لها « وآباؤكم » من قبلكم سموها كذلك ، وهذا إشارة إلى أنهم متبعون لآبائهم فى الدين ، ينظرون لهم فيه « ما أنزل الله بها » أى بعبادتها « من سلطان » أى حجة وبرهان « إن الحكم » أى ما الحكم « إلا لله » أى المختص بصفات الكمال والحكم « أمر » وهو النافذ الأمر المطاع الحكم « أن لا تعبدوا إلا إياه » لأنه أهل للعبادة لا هذه الأسماء التى

سميتموها آلهة « ذلك » أى الشأن الأعظم وهو توحيده وإفراده عن خلقه « الدين القيم » أى المستقيم الذى لا عوج فيه « ولكن أكثر الناس » وهم الكفار « لا يعلمون » ما يصيرون إليه من العذاب فيشركون .

ولما قرر يوسف عليه السلام أمر التوحيد والنبوة عاد إلى الجواب عن السؤال الذى ذكراه فقال : « ياصاحبي السجن » اى الذى يحصل فيه الانكسار للنفس والرقة فى القلب فتخلص فيه المودة ، ولما كان فى الجواب ما يسوء الخباز ابهم ليظن كل منهما أنه الفائز ، فإن ألجاه إلى التعيين كان ذلك عذرا له فى الخروج عن الأليق فقال : « أما أحدكما » وهو صاحب شراب الملك « فيسقى ربه » اى سيده « خمرا » على عادته ، والعناقيد الثلاثة هى ثلاثة أيام تبقى فى السجن، ثم يدعو به الملك فيرده إلى مرتبته التى كان عليها ، هذا تأويل رؤياه « وأما الآخر » وهو صاحب طعام الملك « فيصلب » والسلال الثلاثة ثلاثة أيام ويدعو به الملك فيصلبه « فتأكل الطير من رأسه » هذا تأويل رؤياه ، قال ابن مسعود : فلما سمعا قول يوسف عليه السلام قالا : ما رأينا شيئاً إنا كنا نلعب ، فقال لهما يوسف عليه السلام : « قضى » أى تم الأمر « الذى فيه تستفتيان » أى تطلبان الإفتاء فيه عملا بالفتوى فسألتما عن تأويله ، وهو تعبير رؤياكما ، وسواء كذبتما أوصدقتما لم أقله عن جهل ولاخطأ « وقال » يوسف عليه السلام « للذى ظن » أى علم وتحقق ، والظن بمعنى العلم لأنه قاله عن وحى لقوله : « قضى الأمر » ولا يجوز أن يكون ضميرا للساقى فهو حينئذ على بابه « أنه ناج منهما » وهو الساقى « اذكرنى عند ربك » أى سيدك ملك مصر . والمراد بالرب هنا غير المراد به فى قوله : أأرباب متفرقون . . وقد نجا الساقى وصلب صاحبه وفق ما قال لهما يوسف عليه السلام . . واختلف فى ضمير « فأنساه الشيطان ذكر ربه » على قولين :

أحدهما أنه يعود إلى الساقى وهو قول جماعة من المفسرين ، أى فأنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف عند الملك ، قالوا : ذلك لأن صرف وسوسة

الشيطان إلى ذلك الرجل الساقى حتى أنساه ذكر يوسف أولى من صرفها إلى يوسف .

والقول الثانى وعليه أكثر المفسرين أنه يرجع إلى يوسف عليه السلام، وقال الرازى : إنه الحق ، أى إن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه تعالى حتى استعان بمخلوق مثله ، وتلك غفلة عرضت له عليه السلام، فإن الاستعانة بمخلوق فى رفع الظلم جائزة فى الشريعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهذا وإن كان جائزاً لعامة الخلق إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب وأن لا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب، فلهذا صار يوسف عليه السلام مؤاخذا بهذا القول ولم يؤاخذه تعالى فى تلك القصة البتة . بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء ، فعلم بذلك أنه عليه السلام كان مبرأ مما نسبه الغافلون إليه ، وتمكن الشيطان من يوسف حتى أنساه ذكر ربه إنما كان شغل خاطر، وأما النسيان الذى هو عبارة عن ترك الذكر وإزالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه ، واختلف فى قدر البضع فى قوله تعالى : « فلبث فى السجن بضع سنين » فقال مجاهد : ما بين الثلاث إلى السبع ، وقال ابن عباس : ما دون العشرة، قال البغوى : وأكثر المفسرين على أن البضع فى هذه الآية سبع سنين ؛ وكان قد لبث قبل ذلك خمس سنين فجملته اثنا عشر عاما ، وقال وهب :أصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف فى السجن سبع سنين ، وقال مالك بن دينار : لما قال يوسف للساقى : اذكرنى عند ربك قيل له : يا يوسف اتخذت من دونى وكيلا لأطيلن حبسك ، فبكى يوسف ، وقال: يارب أنسى قلبى كثرة البلوى فقلت كلمة . قال الحسن قال النبى صلى الله عليه وسلم : رحم الله يوسف لولا كلمته التى قالها ما لبث فى السجن ما لبث ، ثم بكى الحسن ، وقال : نحن إذا نزل بنا بلاء فزعنا إلى الناس، وقال الحسن أيضا : دخل جبريل على يوسف عليه السلام فى السجن ، فلما رآه يوسف عرفه فقال له : ياأخا المنذرين مالى أراك بين الخطائين؟ فقال له جبريل : يقرأ السلام عليك رب العالمين ويقول لك : أما استحييت منى واستشفعت بالآدميين ، فوعزتى لألبثنك فى السجن بضع سنين ، قال :

وهو فى ذلك عنى راض ؟ قال : نعم ، قال : إذا لا أبالى ، وقال كعب : قال جبريل ليوسف: إن الله تعالى يقول لك: من خلقك ؟ قال : الله ، قال : فمن علمك تأويل الرؤيا ؟ قال الله تعالى ، قال : فمن حببك إلى أبيك ؟ قال : الله ؟ قال : فمن أنجاك من كرب البئر؟ قال : الله ، قال : فمن صرف عنك السوء والفحشاء ؟ قال: الله، قال : فكيف استشفعت بآدمى مثلك؟ قال الرازى فى تفسيره : والذى جربته من أول عمرى إلى آخره أن الإنسان كلما عول فى أمر من الأمور على غير الله تعالى صار ذلك سببا للبلاء والمحنة والشدة ، وإذا عول على الله تعالى ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه ، فهذه التجربة قد استمرت من أول عمرى إلى هذا الوقت الذى بلغت فيه السابعة والخمسين، فعند هذا استقر قلبى أنه لا مصلحة للإنسان فى التعويل على شىء سوى فضل الله تعالى ، ولما دنا الفرج من يوسف عليه السلام رأى ملك مصر رؤيا عجيبة هائلة كما قال تعالى : « وقال الملك إنى أرى » أى رأيت - عبر بالمضارع حكاية للحال لشدة تعجبه من ذلك « سبع بقرات سمان » أى خرجن من نهر يابس ، وسمان جمع سمينة ، والسمن زيادة البدن من اللحم والشحم « يأكلهن » أى يبتلعهن « سبع » أى من البقر « عجاف » جمع عجفاء أى مهازيل خرجن من ذلك النهر «و» إنى أرى « سبع سنبلات خضر » أى قد انعقد حبها «و» إنى أرى سبع سنبلات « أخر يابسات» أى قد أدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، وإنما استغنى عن بيان حالها بما نص من حال البقرات، وجمع فرعون الكهنة وقال لهم : « يا أيها الملأ » أى الأشراف النبلاء الذين تملأ العيون مناظرهم والقلوب مآثرهم « أفتونى فى رؤياى » أى أخبرونى بتأويلها « إن كنتم للرؤيا تعبرون » أى إن كنتم عالمين بتعبير الرؤى فاعبروها ، وفى الآية دلالة على منزلة العلماء وحاجة الملوك إليهم ، فكأنه قيل : فما قالوا ؟ فقيل : قالوا هذه الرؤيا « أضغاث » أى أخلاط « أحلام » مختلطة مختلفة مشتبهة ، جمع ضغث بكسر الضاد وإسكان الغين المعجمة ، وهى قبضة حشيش مختلطة باليابس ، والأحلام جمع حلم - بضم الحاء وإسكان اللام « وما نحن »

أى بأجمعنا « بتأويل الأحلام » أى المنامات الباطلة « بعالمين » أى ليس لها تأويل ، وإنما التأويل للمنامات الصادقة كأنه مقدمة للعذر ، ولما سأل الملك عن هذه الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب ، تذكر الفتى صاحب شراب الملك يوسفَ عليه السلام ، لأنه كان يعتقد كونه متجرا فى هذا العلم كما قال تعالى : « وقال الذى نجا » أى خلص « منهما » أى من صاحبى السجن وهو صاحب الشراب : إن فى الحبس رجلا فاضلا صالحاً كثير العلم كثير الطاعة ، قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق فى كل ما ذكر وما أخطأ فى حرف « وادكر » أى طلب الذكر بالذال المعجمة وزنه افتعل « بعد أمة » أى وتذكر صاحب الملك يوسف بعد وقت طويل من الزمان « أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون » أى أرسلونى إلى يوسف عليه السلام ، فإنه أعلم الناس ، فأرسلوه إليه ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يكن السجن بالمدينة فأتاه ، فقال الساقى المرسل إلى يوسف ، مناديا له نداء القرب تحبباً إليه : « يوسف » وزاد فى التحبب بقوله : « أيها الصديق » أى البليغ فى الصدق والتصديق ، لأنه جرب أحواله وعرف صدقه فى تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه ، وهذا يدل على أن من أراد أن يتعلم من رجل شيئاً فإنه يجب عليه أن يعظمه ، وأن يخاطبه بالألفاظ المشعرة بالإجلال ، ثم إنه أعاد السؤال يعنى اللفظ الذى ذكره الملك فقال : « أفتنا » أى اذكر لنا الحكم « فى سبع بقرات سمان » أى رآهن فرعون « يأكلهن سبع » من البقر « عجاف و » فى « سبع سنبلات » جمع سنبلة وهى مجمع الحب من الزرع « خضر و » فى سبع « أخر » من السنابل « يابسات » أى فى رؤيا ذلك « لعلى أرجع إلى الناس » أى الملك وجماعته بفتواك قبل مانع يمنعنى « لعلهم يعلمون » أى بتأويل هذه الرؤيا ، أو بمنزلته فى العلم « قال » يوسف عليه السلام معبرا لتلك الرؤيا : أما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبات ، وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة ، فذلك قوله : « تزرعون سبع سنين » وهو خبر بمعنى الأمر كقوله : والمطلقات يتربصن ، والوالدات يرضعن ، وإنما خرج

الأمر فى صورة الخبر للمبالغة فى الإيجاب فيجعل كأنه وجد ، فهو يخبر عنه ، والدليل على كونه فى معنى الأمر قوله : فذروه فى سنبله ، دأبا ، أى دائبين أى سبع سنين متتابعة على عادتكم فى الزراعة ، والدأب العادة ، وقيل: ازرعوا بجد واجتهاد ، وهذا تأويل السبع السمان والسنبلات الخضر ، فما حصدتم فذروه ، أى اتركوه ، فى سنبله ، لئلا يفسد ولا يقع فيه السوس، وذلك أبقى له على طول الزمان ، إلا قليلا مما تأكلون ، من الحنطة للأكل بقدر الحاجة ، أمرهم بحفظ الأكثر لوقت الحاجة أيضا وهو وقت السنين المجدبة ، ثم يأتى من بعد ذلك ، أى السبع المخصبات ، سبع شداد ، أى مجدبات صعاب ، وهى تأويل السبع العجاف والسنبلات اليابسات ، يأكلن ما قدمتم لهن، أى يأكل الناس فيها ما ادخرتم لأجلهن فأسند إليهن على المجاز ، إلا قليلا مما تحصنون ، أى تحرزون وتدخرون للبذر ، والإحصان الإحراز- وهو إبقاء الشىء فى الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع ، ثم يأتى من بعد ذلك ، أى السبع المجدبات ، عام فيه يغاث الناس، أى يمطرون من الغيث وهو المطر ، وفيه يعصرون ، من العنب خمرا ومن الزيتون زيتا ومن السمسم دهنا ، وأراد بذلك كثرة النعم والخير، وقال أبو عبيدة : تنجون من الكرب والشدة والجدب، ورجع صاحب الشراب إلى الملك وعرض عليه التعبير الذى ذكره يوسف عليه السلام ، وقال الملك ، أى فرعون مصر ، ائتونى به ، لأسمع منه ذلك وأكرمه، وهذا يدل على فضيلة العلم فإنه سبحانه وتعالى جعل علمه سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية ، فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الأخروية ، فأتاه الرسول ليأتى به إلى الملك ، فلما جاءه ، أى يوسف عليه السلام ، الرسول ، وهو الساقى قال له : أجب الملك ، قال ، له يوسف عليه السلام : ، ارجع إلى ربك ، أى سيدك الملك ولم يخرج معه حتى يظهر برهان للملك ولا يراه بعين النقص ، ولذلك قال ، فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن، وإنما قال يوسف عليه السلام : ما بال النسوة. ولم يقل: فاسأله أن يفتش عن حالهن، لأن قوله فاسأله يحتمل أن يكون بمعنى اسأله عن شأنهن ، وأن يكون بمعنى الطلب -وهو أن يفتش عن شأنهن، فحسن تقييده بلفظ ما التى يسأل بها عن حقيقة الشىء ليهيجه أن يتحرك للتفتيش عن

حالهن، لأن الإنسان حريص على تحقيق الشيء ويستنكف أن ينسب إلى الجهل به بخلاف ما لو قال: سله أن يفتش أى اطلب منه فإنه لا يبالى بهذا الطلب ولا يلتفت إليه لا سيما الملوك ، وإنما لم يتعرض لسيدته كرما ومراعاة للأدب ، وقدم سؤال النسوة وخص عن حالهن ليظهر براءة ساحته ، لأنه لو خرج فى الحال لربما كان يبقى فى قلب الملك من تلك التهمة اثر ، فلما التمس من الملك أن يحقق فى تلك الواقعة دل ذلك على براءته عن تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يصمه بتلك الرذيلة ، وأن يتوسل بها إلى الطعن فيه ، وفى ذلك دليل على أنه ينبغى للشخص أن يجتهد فى نفى التهم ويتقى مواقعها ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : لقد عجبت من يوسف وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى اشترطت أن يخرجونى .

وفى هذا التريث والسؤال فوائد جليلة فى أخلاق يوسف عليه السلام وعقله وأدبه فى سؤاله :

منها : دلالته على صبره وأناته ، وجدير بمن لقى ما لقى من الشدائد أن يكون صبوراً حليما ، فكيف إذا كان نبياً وارثاً لإبراهيم الذى وصفه الله بالأواه الحليم ؟ وفى حديث أبى هريرة فى المسند والصحيحين مرفوعا « ولو لبثت فى السجن مالبث يوسف لأجبت الداعى » وفى لفظ لأحمد : « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر » ، وأما ما رواه عبد الرزاق عن عكرمة فى تعجب النبى صلى الله عليه وسلم من صبره وكرمه ، وكونه لو كان مكانه لما أول لهم الرؤيا حتى يشترط عليهم أن يخرجوه من السجن ، ولو أتاه الرسول لبادر بالإجابة . . فهو مرسل لا يحتج به .

ومنها : عزة نفسه وحفظ كرامتها إذ لم يرض أن يكون متهما بالباطل حتى تظهر براءته ونزاهته .

ومنها : وجوب الدفاع عن النفس وإبطال التهم التى تخل بالشرف كوجوب اجتناب مواقفها .

ومنها : مراعاته النزاهة بعدم التصريح بشيء من الطعن على النسوة ، وترك أمر التحقيق إلى الملك يسألهن : ما بالهن قطعن أيديهن ، وينظر ما يجبن به .

ومنها : أنه لم يذكر سيدته معهن وهى أصل الفتنة وفاء لزوجها ورحمة بها ، لأن أمر شغفها به كان وجدانا قاهراً لها ، وإنما اتهمها أولا عند وقوفه موقف التهمة لدى سيدها وطعنها فيه دفاعا عن نفسه ، فهو لم يكن له بد من اتهامها .

هذا وقد جاء فى الإصحاح التاسع والثلاثين من سفر التكوين ما نصه :

وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينها إلى يوسف وقالت : اضطجع معى ، فأبى وقال لامرأة سيده: هو ذا سيدى لا يعرف معى ما فى البيت وكل ماله قد دفعه إلى يدى ، ليس هو فى هذا البيت أعظم منى . ولم يمسك عنى شيئا غيرك لأنك امرأته . فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطىء إلى الله ، وكان إذ كلمت يوسف يوما فيوما أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها . ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك فى البيت فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معى . فترك ثوبه فى يدها وهرب وخرج إلى خارج ، وكان لما رأت أنه ترك ثوبه فى يدها وهرب إلى خارج، أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة : انظروا قد جاء إلينا برجل عبرانى ليداعبنا دخل إلى ليضطجع معى فصرخت بصوت عظيم ، وكان لما سمع أنى رفعت صوتى وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبى وهرب وخرج إلى خارج ، فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة : دخل إلى العبد العبرانى الذى جئت به إلينا ليداعبنى ، وكان لما رفعت صوتى وصرخت انه ترك ثوبه بجانبى وهرب إلى خارج . فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذى كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بى عبدك إن غضبه حمى ، فأخذ يوسف سيده ووضعه فى بيت السجن المكان الذى كان أسرى الملك محبوسين فيه . وكان هناك فى بيت السجن ولكن الرب كان مع يوسف وبسط إليه لطفا وجعل نعمة له فى عينى رئيس بيت السجن ، فدفع رئيس بيت السجن إلى يد يوسف جميع الأسرى الذين فى بيت السجن ، وكل ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل ، ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئا البتة مما فى يده لأن الرب كان معه ومهما صنع كان الرب ينجحه .

« إن ربى » أى الله « بكيدهن عليم » حين قلن : أطع مولاتك . وفيه تعظيم كيدهن والاستشهاد بعلم الله تعالى ، وأنه برىء مما عيب به والوعيد لهن على كيدهن ، ولما قال يوسف عليه السلام ذلك وأبى أن يخرج من السجن قبل تبين الأمر رجع الرسول إلى الملك فأخبره بما قال عليه السلام ، فكأنه قيل : فما فعل الملك ؟ فقيل « قال » للنسوة بعد أن جمعهن وامرأة العزيز معهن « ما خطبكن » أى ما شأنكن العظيم « إذ راودتن » أى خادعتن « يوسف عن نفسه » دليل على أن براءته كانت محققة عند كل من علم بالقصة ، وإنما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب ، والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها ، وقيل : إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة أمرنه بطاعتها ، فلذلك خاطبهن . فكأنه قيل : فماذا أجبن ؟ قيل « قلن حاش لله » أى عياذاً بالملك الأعظم وتنزيهاً له من هذا الأمر « ما علمنا عليه » أى يوسف عليه السلام « من سوء » أى من خيانة فى شىء من الأشياء ، ولما كان يوسف عليه السلام قد راعى جانب امرأة العزيز حيث قال « النسوة اللاتى قطعن أيديهن » فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة البتة ، ولما عرفت المرأة أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها وإخفاء للأمر عليها ـ أرادت أن تكافئه على هذا أزالت الغطاء والوطاء فلذلك « قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق » أى ظهر وتبين « أنا راودته » أى خادعته « عن نفسه وإنه لمن الصادقين » وشهد النسوة كلهن ببراءته وأنه لم يقع منه ما ينسب به إلى شىء من السوء البتة .

وقد علم من جملة الكلام أن يوسف عليه السلام كان مثل الكمال الإنسانى الأعلى للاقتداء به فى العفة والصيانة ، ولم يمسه أدنى سوء من فتنة النسوة ، وأن امرأة العزيز التى اشتهرت فى نساء مصر بل نساء العالم بسوء القدوة فى التاريخ القديم والحديث كان أكبر إثمها على زوجها ، وكانت هى ذات مزايا فى عشقها الذى كان اضطراريا لا دواء له إلا الحيلولة بينها وبين هذا الشاب الذى بلغ منتهى الكمال فى الحسن والجمال ، فمن مزاياها أنها لم تتطلع إلى غيره من الرجال إجابة لداعى الشيطان للتسلى عنه بعد اليأس منه ،

وأنها لم تتهمه بالجنوح للفاحشة قط ، وكل ما قالته لزوجها إذ فاجأهما لدى الباب « ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ، تعنى به همه بضربها ، وأنها فى خاتمة الأمر أقرت بذنبها فى مجلس الملك الرسمى إيثارا للحق وإثباتا لبراءة يوسف عليه السلام ..

ولما رجع الرسول إلى يوسف عليه السلام وأخبره بشهادتهن ببراءته قال « ذلك » أى الخلق العظيم فى تثبيتى فى السجن إلى أن تبين الحق « ليعلم » العزيز بإقرارها « أنى لم أخنه » أى فى أهله ولا فى غيرهم « بالغيب » أى والحال أن كلامنا غائب عن صاحبه ، هذا قول الأكثرين على أنه قول يوسف عليه السلام ، قيل : ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام آخر إذا دلت القرينة عليه ومثاله قوله تعالى : « إن الملوك إذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » هذا كلام بلقيس ، ثم قال الله تعالى : « وكذلك يفعلون » ، وقال تعالى : ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، فهذا كلام الداعى ، ثم قال الله تعالى : إن الله لايخلف الميعاد ، ثم ختم الكلام بقوله « وأن الله لايهدى » أى لا يسدد وينجح بوجه من الوجوه « كيد الخائنين » أى ولو كنت خائنا لما خلصنى الله من هذه الورطة العظيمة وحيث خلصنى منها ظهر أنى برىء مما نسبونى إليه ؛ وقيل: إنه كلام امرأة العزيز ، والمعنى : إنى وإن كنت أحلت عليه الذنب فى حضوره لكنى ما أحلت الذنب عليه فى غيبته، أى لم تقل فيه وهو فى السجن خلاف الحق ، ثم إنها بالغت فى تأكيد هذا القول وقالت : وإن الله لا يهدى كيد الخائنين ، يعنى إنى لما أقدمت على الكيد والمكر لا جرم افتضحت وإنه لما كان بريئا من الذنب لا جرم طهره الله تعالى عنه ..

وهذه الآية على القول الأول دالة على طهارة يوسف عليه السلام من وجوه :

الأول : قولها « أنا راودته عن نفسه » .

الثانى : قولها « وإنه لمن الصادقين » وهو إشارة إلى أنه صادق فى قوله « هى راودتنى عن نفسى » .

والثالث : قول يوسف عليه السلام « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب » .

وبهذا ينتهى الربع الثالث من سورة يوسف عليه السلام ، وقد تضمن ذهول نساء النبلاء فى عاصمة فرعون من جمال يوسف ، وقطعهن أيديهن حين شاهدن جماله فى بيت العزيز ؛ كما تضمن سجنه ، وحياته الطويلة فى السجن ، ونبوته فيه ، ودعوته من فى السجن إلى عبادة الله ، وتفسيره للأحلام ، وتفسيره لمنام فرعون ، وإعجاب الملك به ، ودعوته له ، ورفض يوسف أن يخرج من السجن حتى يعاد التحقيق فى التهمة المنسوبة إليه وحتى تظهر براءته ، وإقرار امرأة العزيز بصدق يوسف وبأنها هى التى راودته عن نفسه ، إلى غير ذلك من روائع الحكمة والأدب الإلهى العظيم .

وفى هذا كله ما فيه من تعظيم أمر جريمة الزنا ، وبيان فظاعتها ، وياليت ذلك يكون زاجرا للأمم الإسلامية التى تفشت فيها اليوم الجرائم الخلقية ، وصار رؤساؤها وأمراؤها وملوكها اليوم هم الذين يغرون الناس بالفساد ، ويحضونهم عليه . .

الربع الرابع من سورة يوسف

٥٣ — وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٥٤ — وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ .

٥٥ — قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ .

٥٦ — وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ .

٥٧ — وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ .

٥٨ — وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ .

٥٩ — وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ .

٦٠ — فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ .

٦١ — قَالُوا سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ .

٦٢ — وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

٦٣ — فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ .

٦٤ — قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ .

٦٥ — وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ .

٦٦ — قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ

مَا نَقُولُ وَكِيلٌ .

٦٧ — وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ .

٦٨ — وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

٦٩ — وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

٧٠ — فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ .

٧١ — قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ .

٧٢ — قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ .

٧٣ — قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ .

٧٤ — قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ .

٧٥ — قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّٰلِمِينَ .

٧٦ — فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ .

فى هذه الآيات الأربع والعشرين تصوير لتوبة امرأة العزيز ، ولاعترافها بذنبها ، وذكر لاستدعاء فرعون ليوسف ، حيث سر من كلامه ، فأجله وأكرمه وعظمه ، ورأى فيه بركة السماء ويمن الخير على أمته وعلى الناس أجمعين ، وسأله عمن يسند اليه الإشراف على تلك الأعمال الخطيرة ، فقال له يوسف: اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ، فنزع الملك خاتمه وجعله فى أصبع يوسف وقال لمن حوله: هذا عزيز مصر فاسمعوا له وأطيعوا، فانفرد يوسف بولاية الحكم وأشرف على زراعة الأرض وعمر البيوت والأهرامات، وخزن بها الحبوب بسنابلها حتى لقد ملأ الديار بالخزائن الزاخرة بالأرزاق . وانقضت سنوات الخصب السبع وحلت سنوات القحط والجدب ، فعم البلاء كافة الأقطار والبقاع ، ونزل أرض كنعان حيث موطن يعقوب الرسول وأهله ، فقال لبنيه : يابنى إنكم ترون ما نحن فيه من حاجة وضائقة وقد سمعنا أن عزيز مصر ملجأ لكل قاصد يمتار الناس من خيراته فيحسن إليهم لأنه مؤمن بإله إبراهيم ، فاحملوا مالدينا من أرزاقنا واقصدوا حماه . فاستجاب له أبناؤه وتجهزوا

للسفر إلى مصر فدخلوها ليلا ، وأناخوا رواحلهم بباب قصر أخيهم يوسف، فأشرف عليهم وقال : من أنتم؟ قالوا : نحن أولاد يعقوب النبي، قدمنا من أرض كنعان لنشترى القوت لأهلنا . . وأصبح يوسف فجلس على السرير وعليه التاج، ثم أمر بإخوته فدخلوا عليه وكانوا عشرة وتخلف عنهم أصغرهم بنيامين أخو يوسف ولزم أباه ، فسلموا عليه بتحية الملوك فأحسن وفادتهم ثم قال: لقد زعمتم أنكم أبناء يعقوب النبي فكيف لى بصدقكم ، فقال له أخوه روبيل: نحن نأتيك بأخينا الذى يقيم مع أبينا فيخبرك بمثل ما أخبرناك به ، فأمر بأن تؤخذ منهم بضاعتهم وأن يكال لهم الطعام بقدر كفايتهم .

ولما جهزهم بجهازهم قال: ائتونى بأخ لكم من أبيكم، ألا ترون انى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين، فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون، قالوا :سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه : اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون . فوضع الفتيان بضاعتهم فى رحل أخيهم الأكبر يهوذا، ثم ساروا إلى أرض كنعان فدخلوا على أبيهم وقالوا: يا أبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون ، قال لهم أبوهم : هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين، فقال له ابنه يهوذا ـ وقد أخرج بضاعتهم التى كانت فى رحله ـ: يا أبانا ما نبغى، هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير ، فقال له أبوه : لن أرسله معكم حتى تؤتونى موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم ، فلما أتوه موثقهم قال : الله على ما نقول وكيل .

وخرج يعقوب يشيع أبناءه فقال لهم : يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون .

فلما بلغوا مصر دخلوا على يوسف فسر لرؤية أخيه بنيامين ، ولما جلسوا

بين يديه كان بنيامين بعيدا عن بقية إخوته ، فقال يوسف ناحيته وسأله عن علة انفراده عن بقية إخوته ، فقال : إنه كان لى أخ يدعى يوسف فخرج يوماً مع هؤلاء الإخوة ولكنه لم يعد، لأنهم زعموا أن الذئب أكله . وأمر يوسف بأن يمد السماط لإخوته وأوصى أن يجلس كل اثنين منهم على مائدة ، فبقى بنيامين وحده فبكى ، فقال له يوسف: ما يبكيك ، قال: لقد جلس كل واحد من إخوتى مع أخيه ، ولو كان أخى يوسف حيا لجلس إلى مائدتى ، فقال له يوسف: أنا لك بمنزلة أخيك ، ثم نزل عن سريره وأكل معه . وأمر يوسف أن يستوفى إخوته الكيل وأسر إلى بعض فتيانه بأن يجعل الصواع فى رحل أخيه بنيامين ، فلما تجهزوا للرحيل أذن مؤذن : أيتها العير إنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ قالوا : نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ، قالوا : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين . فقال فتيان الملك ما جزاء من نجد صواع الملك فى رحله ؟ قالوا إن جزاء من يوجد الصواع فى رحله أن تمسكوه عندكم . عند ذلك أمر يوسف بعض فتيانه بتفتيش رحالهم ، فبدأوا بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه دفعا لشكهم فيه . فالتفتوا إلى أخيهم بنيامين وقالوا: لقد فضحتنا ، فقال: إنى لم أفعل ذلك ، فقالوا: فمن وضع الصواع فى رحلك ؟ قال : هو الذى وضع بضاعتكم فى رحالكم .

هذه الجوانب كلها قد صورتها الأربع والعشرون آية تصويرا رائعا بليغا جليلا .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى » .

هذه الآية تتمة إقرار امرأة العزيز على الراجح المختار، وقيل: من قول يوسف ، ويرده عطفه على إقرارها وعطف أمر الملك بالإتيان به من السجن عليه ، وقد جعلت أول الجزء ، لأن تقسيم القرآن إلى الأجزاء والأحزاب مراعى به مقادير الكلم العددى دون المعانى ، وهذا لا يمنع من يجعل ورده من القرآن جزءاً فى كل يوم ليختمه فى كل شهر أن يزيد أو ينقص فى القراءة

آية أو أكثر ليقف عندما يتم به سياق سابق أو معنى فيه ، ثم يبدأ بعده بسياق آخر أو معنى مستقل منه فى ورد اليوم الذى بعده . وقولها : « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب » يجوز أن يراد به يوسف لأن كلامها فى جواب الملك عما سألها هى وسائر النسوة عن خطبهن فى مراودته . ويجوز أن تعنى به زوجها للعلم به من قرينة الحال وإن لم يذكر ، والأول أظهر ، وهذه الآية فى معنى الاستدراك على ذلك النفى ، فهى تقول : « وما أبرىء نفسى » فى دعوى عدم خيانتى إياه بالغيب من كل سوء وعيب غير هذه الخيانة وما عرف أمره « إن النفس لأمارة بالسوء » أى إن النفس البشرية لكثيرة الأمر بعمل السوء بداعى الشهوات البدنية والأهواء الغضبية ، ونزغات الوسوسة الشيطانية ، ومنها التحريض على سجن يوسف وسوء النية فيه ، وكانت مما يسوؤه ويسوء الزوج من ناحيتين مختلفتين ، « إلا مارحم ربى » أى إلا نفسا رحمها ربى رحمة خاصة فصرف عنها السوء والفحشاء بعصمته كنفس يوسف ، هذا هو المعنى المتبادر من سياق القصة ، ويجوز فى الجملة نفسها أن يجعل الاستثناء منقطعا بمعنى : لكن رحمة ربى هى التى قد تكفها عن الأمر بالسوء أو تحفظها من إجابة دعوته وطاعة أمره أو تحول دونه ، وأن تكون (ما) زمانية ، والمعنى أن من شأن النفس أن تكون أمارة بالسوء فى عامة الأوقات إلا وقت رحمة ربى الذى يوفقها فيه لمراقبته وللأعمال الصالحة التى ترضيه « إن ربى غفور رحيم » تعليل للاستثناء بأن مقتضى مغفرته ورحمته تعالى أن يصرف بعض الأنفس عن الأمر بالسوء أو عن طاعتها فيه أو يصرف السوء نفسه عنها ويحول بينه وبينها ، وأن يغفر لمن يطيع أمرها فيقترف السوء ثم يتوب إليه منه . . . وقد أخذ علماء النفس من آيات القرآن أن أنفس البشر على ثلاث درجات : أدناها : الإمارة بالسوء ، وأعلاها النفس المطمئنة بذكر الله الراضية عنه المرضية عنده ، وهى التى يخاطبها تعالى فى آخر سورة الفجر بقوله : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية » الخ ، وبينهما النفس التى سماها فى أول سورة القيامة بالنفس اللوامة ، وهى التى تلوم صاحبها على كل

ذنب وتقصير فى طاعة الله ومعرفته ، ومن التقصير فى طاعته التقصير فى حقوق عباده الشرعية ، ولا سيما أولى القربى والجيران والمحتاجين إلى البر ، وكذا الحقوق العامة للملة والأمة . وبعضهم يجعل النفس الراضية والنفس المرضية قسمين من أقسام النفس المطمئنة ، ولفقهاء الصوفية تفصيل لهذه الأنفس وتربيتها فيه علم يزيد المطلع عليه بصيرة فى دينه وتربية نفسه ونفس غيره من ولد وتلميذ ومريد وفى معرفة ربه .. ويصح أن تكون جملة « وما أبرىء نفسى » من كلام يوسف ، فقد كان الفصل الأول من قصة يوسف ، فى نشأته وما وقع بينه وبين إخوته وانتهى ببيعه بثمن بخس ، والفصل الثانى فى حياته الأولى فى مصر وهو قسمان : أحدهما فى بيت العزيز ، وثانيهما فى السجن ، وكانت هذه الأطوار كلها أطوار بؤس وشدائد ، رباه الله بهـا أكمل تربية ، أهلته لتوليه إدارة ملك مصر .

وجاءت جملة « وما أبرىء نفسى » غاية فى شرف التواضع ، على أنها من كلام يوسف عليه السلام، لأنه لما قال « ليعلم أنى لم أخنه بالغيب » كان ذلك جاريا مجرى مدح النفس وتزكيتها. وقد قال تعالى « فلا تزكوا أنفسكم » فاستدرك ذلك على نفسه بقوله « وما أبرىء نفسى » والمعنى : وماأزكى نفسى إن النفس لأمارة بالسوء مائلة إلى القبائح راغبة فى المعصية . . وإما على أنها من كلام امرأة العزيز، فإنها لما قالت « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب » قالت « وما أبرىء نفسى » من الخيانة مطلقا فإنى قد خنته حين أحلت الذنب عليه فقلت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن ، وأوعدته الحبس . . كأنها أرادت الاعتذار مما كان :

واختلف فى قوله: « وقال الملك » فمنهم من قال: هو العزيز، ومنهم من قال: هو فرعون الذى هو الملك الأكبر ، قال الرازى هذا هو الأظهر لوجهين :

الأول : أن قول يوسف « اجعلنى على خزائن الأرض » يدل عليه .

الثانى : قوله « أستخلصه لنفسى » يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصا، وقد كان يوسف عليه السلام من قبل خالصا للعزيز، فدل هذا على أن الملك هو الملك

الأكبر ، وإنما صرح به ولم يستغن بضميره لما تخلل بينه وبين جواب امرأة العزيز من كلام يوسف عليه السلام، ولو كان الكل من كلامها لاستغنى بالضمير ولم يحتج إلى إبرازه «ائتونى به أستخلصه لنفسى» أى أجعله خالصا لى دون شريك، قال ابن عباس : فأتاه الرسول وقال له : الق ثياب السجن وألبسه ثيابا جددا ، ودعا لأهل السجن فقال : اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار ، وكتب على باب السجن : هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وبيوت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء ، ثم أتى الملك فلما رآه غلاما حدثا قال : أيعلم هذا تأويل رؤياى ولا يعلمها السحرة والكهنة ؟ وقال له : لا تخف وألبسه طوقا من ذهب وثيابا من حرير مزينة كدابة الملك ، وروى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف وهو فى الحبس وقال : قل اللهم اجعل لى من عندك فرجا ومخرجا وارزقنى من حيث لا أحتسب فقبل الله تعالى دعاءه «فلما كلمه » أى كلم الملك يوسف وشاهد منه ما شاهد من جلال النبوة وجميل الرأى والتدبير، ومن خلال السيادة ومخايل العز ـ أقبل عليه وقال: إنى أحب أن أسمع منك تأويل رؤياى شفاها ، فأجابه بذلك الجواب شفاها ، وشهد قلبه بصحته ؛ فعند ذلك « قال » له « إنك اليوم لدينا مكين أمين » أى ذو مكانة وأمانة على أمرنا فما ترى أيها الصديق « قال » أرى أن تزرع فى هذه السنين المخصبة زرعا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام ، فإذا جاءت السنون المجدبة بعنا الغلال فيتجمع بهذا مال عظيم، فقال الملك: ومن لى بهذا الشغل ؟ فقال يوسف « اجعلنى على خزائن الأرض» جمع خزانة، أراد خزانة الطعام والأموال، والأرض أرض مصر أى خزائن أرضك مصر، وقال الربيع بن أنس : أى خراج مصر ودخله : روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية أنه قال : رحم الله أخى يوسف لو لم يقل: اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته لكنه لما قال ذلك أخره الله تعالى سنة، فأقام فى بيته سنة مع الملك ؛ قال الرازى : وهذا من العجائب لأنه لما تثاقل عند الخروج من السجن سهل الله تعالى ذلك على أحسن الوجوه ، ولما سارع فى ذكر هذا الالتماس أخر الله تعالى ذلك

المطلوب منه ، وهذا يدل على أن ترك اللهفة وتفويض الأمور إلى الله تعالى أولى « إنى حفيظ عليم » أى ذو حفظ وعلم بأمرها ، وقيل : كاتب وحاسب ، وقد طلب يوسف عليه السلام الإمارة والنبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة : لا تسأل الإمارة ، خاصة وأنه طلب الإمارة من سلطان كافر ولم يصبر مدة ، ولا سيما أنه طلب الخزائن فى أول الأمر ، مع أن هذا يورث نوع تهمة ، ثم مدح نفسه ، وقد قال تعالى : « ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله » وقد أجيب عن ذلك بأن الأصل أن التصرف فى أمور الخلق كان واجبا على يوسف ، فجاز له أن يتوصل إليه بأى طريق كان ، وإنما كان ذلك واجبا عليه لوجوه :

١ — الأول أنه كان رسولا حقاً من الله تعالى إلى الخلق ، والرسول يجب عليه مراعاة الأمة بقدر الإمكان .

٢ — والثانى أنه علم بالوحى أنه يحصل القحط والضيق الشديد ، فلعله تعالى أمره بأن يدبر أمور الناس فى تلك المحنة .

٣ — والثالث أن السعى فى إيصال النفع إلى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن فى العقول ، فكان مكلفا عليه السلام برعاية المصالح من هذه الوجوه ، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وإنما مدح نفسه ، لأن الملك وإن علم كماله فى علوم الدين ، لكن ما كان عالما بأنه يقوم بالأمر فى شئون السياسة والقيام بها خير قيام ، وأيضا مدح النفس إنما يكون مذموما إذا قصد به الشخص التطاول والتفاخر والتوصل إلى غير ما يحل ، وأما هذا الوجه فليس بمذموم ، وقوله تعالى : «فلا تزكوا أنفسكم» المراد تزكية حال من لا يعلم كونها تزكية ، والدليل قوله تعالى بعد هذه الآية : « هو أعلم بمن اتقى » أما إذا كان الإنسان عالما بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه ، وإنما ترك الاستثناء لأنه لو ذكره لربما اعتقد الملك فيه أنه إنما ذكره لعلمه أنه لاقدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغى ، فلهذا المعنى ترك الاستثناء « وكذلك » أى كإنعامنا عليه بالخلاص من السجن « مكنا ليوسف فى الأرض » أى أرض مصر « يتبوأ » أى ينزل « منها حيث يشاء » بعد الضيق والحبس .

قال ابن عباس وغيره : ولما انقضت السنة من يوم سأل الإمارة ودعاه الملك فتوجه وقلده أمور الملك وقلده سيفه ، ودانت له الأمراء ودخل الملك بيته وفوض إليه أمر مصر وسلم سلطانه كله إليه ، وجعل أمره وقضاءه نافذا فى مملكته ، فأقام العدل بمصر وأحبه الرجال والنساء ، وآمن به كثير من الناس ، ودبر أمور مصر تدبيراً حكيما فى سنوات المجاعة . . وروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من الطعام فى تلك الأيام، فقيل له : تجوع وبيدك خزائن الأرض؟ فقال : إن شبعت نسيت الجائع «نصيب» أى نخص برحمتنا من نشاء فى الدنيا والآخرة « ولا نضيع أجر المحسنين » بل نؤتيهم أجورهم إن عاجلا أو آجلا ، لأن إضاعة الأجر إما أن تكون للعجز أو للجهل أو للبخل ، وهذا ممتنع فى حق الله تعالى ، فالإضاعة ممتنعة « ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » الشرك والفواحش وقوله : ولا نضيع أجر المحسنين شهادة من الله تعالى على أنه من المخلصين ؛ فثبت أن الله تعالى شهد بأن يوسف كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين .

ولما اشتد القحط وعظم البلاء عم ذلك جميع البلاد حتى وصل بلاد الشام وأرض كنعان وقصد الناس مصر من كل مكان الميرة فكان يوسف عليه السلام لا يعطى أحدا أكثر من حمل بعير وإن كان عظيما. تقسيطاً بين الناس. . وتزاحم الناس ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس من الشدة ، فبعث بنيه إلى مصر للميرة ، وأمسك بنيامين أخا يوسف لأمه وأبيه ، فذلك مغزى قوله تعالى « وجاء إخوة يوسف » وكانوا عشرة وكان منزلهم فى أرض فلسطين ، وكانوا أهل إبل وشياه فدعاهم أبوهم يعقوب عليه السلام وقال : بلغنى أن بمصر ملكا صالحاً يبيع الطعام، فتجهزوا إليه واقصدوه لتشتروا منه ما نحتاج إليه من الطعام، ولما أمرهم أبوهم بذلك خرجوا حتى قدموا مصر « فدخلوا عليه فعرفهم » قال ابن عباس: بأول نظرة إليهم عرفهم ، وقال الحسن : لم يعرفهم حتى تعرفوا إليه « وهم له منكرون » أى لم يعرفوه ، وذلك لوجوه :

الأول أنه عليه السلام أمر حجابه بأن يوقعوهم بعيدا ، وما كان يتكلم معهم إلا بواسطة ..

الثانى أنه حين ألقوه فى الجب كان صغيرا ، ثم إنهم رأوه بعد وفور اللحية وكبر الجسم ، قال ابن عباس : كان بين أن قذفوه فى البئر وبين أن دخلوا عليه أربعين سنة ، فلذلك أنكروه ، وأمر يوسف عليه السلام بإنزالهم وإكرامهم ، وكانت عادته أن لا يزيد أحدا على حمل بعير وكانوا عشرة ، فأعطاهم عشرة أحمال ، كما قال تعالى « ولما جهزهم بجهازهم » أى وفاهم كيلهم ، والجهاز ما يحمله الرجل معه من بلدة إلى أخرى ، وما تزف به المرأة إلى زوجها ، فقالوا : إن لنا شيخاً كبيرا وأخا آخر بقى معه ، وذكروا أن أباهم لأجل سنه وشدة حزنه لم يحضر ، وأن أخاهم فى خدمة أبيه ، ولا بد لهما أيضا من حملين آخرين من الطعام ، فلما ذكروا ذلك قال يوسف : فهذا يدل على أن حب أبيكم له أزيد من حبه لكم ، وهذا شىء عجيب ، لأنكم أنتم مع عقلكم وجمالكم وأدبكم إذا كانت محبة أبيكم لذلك الأخ أكثر من محبته لكم دل ذلك على أنه أعجوبة فى العقل والأدب ، فجيئوا به حتى أراه « قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم » أى الذى خلفتموه عنده ، وقيل : إنه لما نظر إليهم وكلموه بالعبرانية قال لهم : أخبرونى من أنتم وما أمركم؟ فإنى أنكرت شأنكم قالوا : قوم من أرض الشام أصابنا ما أصاب الناس فجئنا نمتار ، فقال : لعلكم جئتم لتكونوا عيونا علينا ، قالوا : لا والله لسنا بجواسيس ، إنما نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق يقال له يعقوب نبى من أنبياء الله تعالى ، قال : وكم كنتم؟ قالوا : كنا اثنى عشر ، فذهب أخونا إلى البرية فهلك فيها ، وكان أحبنا إلى أبينا ، قال : فكم كنتم هاهنا؟ قالوا : عشرة ، قال : وأين الآخر؟ قالوا : عند أبينا لأنه أخو الذى هلك وأبوه مبتلى به ، قال : فمن يعلم أن الذى تقولون حق؟ قالوا : أيها الملك إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد ، فقال يوسف : فائتونى بأخيكم الذى من أبيكم إن كنتم صادقين ، فأنا أرضى بذلك ، فقالوا : إن أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه ، قال : فدعوا بعضكم رهينة عندى حتى تأتونى بأخيكم ، فاقترعوا بينهم فأصابت

القرعة شمعون ، وكان أحسنهم رأيا فى يوسف نخلفوه عنده ، ثم إنه قال لهم «ألا ترون أنى أوفى الكيل» أى أتمه ولا أبخس منه شيئاً ، وأنا خير المنزلين ، أى المضيفين ، كأنه قد كان أحسن ضيافتهم مدة إقامتهم عنده ، قال الرازى : وهذا يضعف قول من يقول من المفسرين : إنه اتهمهم ونسبهم إلى أنهم عيون وجواسيس ، ولو شافههم بهذا الكلام فلا يليق به أن يقول لهم : ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ، وأيضا يبعد من يوسف مع كونه صديقا أن يقول لهم: أنتم عيون وجواسيس مع أنه يعرف براءتهم من هذه التهمة . لأن البهتان لا يليق بالصديق « فإن لم تأتونى به » أى بأخيكم « فلا كيل » أى فلا ميرة « لكم عندى » ولم يمنعهم من غيره « ولا تقربون » نهى أو عطف على محل «فلا كيل» أى تحرموا منى ولا تدخلوا ديارى ، فجمع لهم عليه السلام بين الترغيب والترهيب ، فالترغيب فى قوله الأول والترهيب فى قوله الثانى ، لأنهم كانوا فى نهاية الحاجة إلى الطعام وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده ، ومع ذلك لم يخطر ببالهم أنه يوسف « قالوا سنراود » أى بوعد لا خلف فيه حين نصل إليه « عنه أباه » أى سنكلمه فيه وننازعه فى الكلام ونحتال فيه ونتلطف فى ذلك ولا ندع جهداً « وإنا لفاعلون » أى ما أمرتنا به « و » لما أرغبهم وأرهبهم فى شأن أخيه « قال لفتيانه » أى غلمانه الكيالين جمع فتى : « اجعلوا بضاعتهم » أى التى أتوا بها ثمن الميرة ، وكانت دراهم ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إنها كانت من النعال والأدم « فى رحالهم » جمع رحل وهو أوعيتهم التى يحملون فيها الطعام « لعلهم يعرفونها » أى بضاعتهم « إذا انقلبوا » أى رجعوا « إلى أهلهم » وفتحوا أوعيتهم « لعلهم يرجعون » إلينا ، واختلف فى السبب الذى من أجله رد يوسف عليه السلام بضاعتهم فى رحالهم على أوجه :

الأول: أنه أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان ، وكان يخاف اللصوص من قطاع الطريق ، فوضع تلك الدراهم فى رحالهم حتى تبقى مخفية إلى أن يصلوا إلى بيوتهم ..

الثانى: أن يعرف أباه أنه أكرمهم وطلبهم لمزيد الإكرام ، فلا يثقل على أبيه إرسال أخيه .

الثالث: مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الأخ لأجل الإيذاء والظلم ولا يطلب زيادة الثمن .

الرابع : أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم فيه عيب ولا منة .

الخامس ـ كما قال الفراء ـ أنهم متى شاهدوا بضاعتهم فى رحالهم وقع فى قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة فى رحالهم على سبيل السهو ، وهم أنبياء وأولاد أنبياء ، فيرجعون ليعرفوا السبب فيه ويردوا الملك إلى مالكه .

السادس : أراد به التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان القحط .

السابع : رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه ومن إخوته على شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم .

الثامن : خاف أن لا يكون عند أبيه من المال ما يرجعون به مرة أخرى ..

التاسع : أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا أن ذلك كرم من يوسف عليه السلام وسخاء فيبعثهم ذلك إلى العود إليه والحرص على معاملته « فلما رجعوا » أى إخوة يوسف عليه السلام « إلى أبيهم قالوا يا أبانا » إنا قدمنا على وزير عظيم لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا إكرامه ، فقال يعقوب عليه السلام : إذا رجعتم إلى ملك مصر فاقرأوه منى السلام وقولوا له : إن أبانا يدعو لك بما أوليتنا ، قولهم : منع منا الكيل . فيه قولان :

أحدهما : أنهم لما طلبوا الطعام لأخيهم الغائب عند أبيهم منعوا منه .

والثانى : أنهم منعوا الكيل فى المستقبل ، وهو قول يوسف عليه السلام : «فلا كيل لكم عندى ولا تقربون » فأرسل معنا أخانا » بنيامين « نكتل » أى نكتل نحن وإياه ، وهذا يدل على القول الثانى ، وقرىء «يكتل» ، وهذا يدل على القول الأول «وإنا له لحافظون» عن أن يناله مكروه حتى نرده إليك ، فلما قالوا ليعقوب

عليه السلام هذه المقالة «قال» لهم « هل آمنكم » أى أقبل منكم الآن وفى مستقبل الزمان أمانا منكم لى فيه « عليه » أى بنيامين « إلا كما أمنتكم » أى فى الماضى «على أخيه » يوسف عليه السلام « من قبل » فإنكم أكدتم غاية التأكيد فلم تحفظوه ولم تردوه إلى ، والأمن : اطمئنان القلب إلى سلامة النفس فأنا فى هذا لا آمن عليه إلا الله تعالى « فالله » أى المحيط علما وقدرة « خير حافظا » منكم ومن كل أحد «وهو أرحم الراحمين » أى أرحم بي من أن يفجعنى به بعد مصيبتى بأخيه فلا تجتمع على مصيبتين « ولما » أرادوا تفريغ ماقدموا به من الميرة « فتحوا متاعهم » أى أوعيتهم التى حملوها من مصر « وجدوا بضاعتهم » أى ما كان معهم من كنعان لشراء القوت « ردت إليهم » والوجدان ظهور الشىء للنفس بحاسة أو مايغنى عنها ؛ فكأنه قيل: ماقالوا؟ فقيل « قالوا » أى لأبيهم عليه السلام « ياأبانا ما » استفهامية أى أى شىء « نبغى » أى نريد، فكأنه قال لهم: ما الخبر؟ فقالوا بيانا لذلك وتأكيدا للسؤال فى استصحاب أخيهم « هذه بضاعتنا ردت إلينا » هل من مزيد على ذلك : أكرمنا وأحسن مثوانا وباع مناورد علينا متاعنا، ولما كان التقدير ونرجع بها إليه بأخينا فيظهر له نصحنا وصدقنا ، قال تعالى : « ونمير أهلنا » أى نجلب إليهم الميرة ، والميرة : الأطعمة التى تحمل من بلد إلى بلد « ونحفظ أخانا » فلا يصيبه شىء مما نخشى عليه تأكيدا للوعد بحفظه ونزداد كيل بعير لأخينا « ذلك كيل يسير » أى سهل على الملك لسخائه وحرصه على البذل، وقيل: قصير المدة، وقيل: قليل ، فابعث أخانا معنا نبدل تلك القلة بالكثرة؛ فكأنه قيل: ماقال لهم ؟ فقيل: « قال » يعقوب عليه السلام « لن أرسله » أى بنيامين « معكم » أى فى وقت من الأوقات « حتى تؤتونى موثقا » أى عهدا مؤكدا « من الله لتأتننى » أى كلكم « به »، والمعنى حتى تحلفوا بالله لتأتننى به «إلا» فى حال « أن يحاط » أى تحصل الإحاطة بمصيبة من المصائب ولا طاقة لكم بها «بكم» فتهلكوا عن آخركم، كل ذلك زيادة فى التوثق بما حصل له من المصيبة بيوسف عليه السلام ، وإن كان الاعتماد فى حفظه إنما هو على الله تعالى ، فأجابوه إلى ذلك كما قال تعالى « فلما أتوه موثقهم » بذلك « قال الله

على ما نقول» نحن وأنتم «وكيل» أى شهيد، وأرسله معهم بعد ذلك، وذلك لوجوه:

أحدها : أنهم كبروا ومالوا إلى الخير والصلاح .

الثانى : أنه كان قد شاهد أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام .

الثالث : لعل الله أوحى إليه بأنه ضمن حفظه وإيصاله إليه .

ولما عزموا على الخروج إلى مصر وكانوا موصوفين بالكمال والجمال «قال» لهم « يابنى لاتدخلوا » إذا قدمتم إلى مصر «من باب واحد» من أبوابها « وادخلوا من أبواب متفرقة » أى تفرقا كثيرا ، وهذا حكم التكليف لئلا يصابوا بالعين وهى من قدر الله تعالى ، ففى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : العين حق ، وفى رواية عن أحمد : يحضرها الشيطان وحسد ابن آدم ؛ وفى رواية لمسلم : العين حق ولو كان شىء سابق القدر لسبقته العين ، وفى رواية لمسلم عن جابر : إن العين لتدخل الجمل القدر والرجل القبر ؛ وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين فيقول : أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ، ويقول : هكذا كان يعوذ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر النبيين . . وعن عبادة بن الصامت قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول النهار فوجدته شديد الوجع ثم عدت إليه آخر النهار فرأيته معافى ، فقال : إن جبريل عليه السلام أتانى فرقانى فقال : بسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك من كل عين وحاسد ، الله يشفيك ؛ قال : فأفقت ؛ وفى رواية أن بنى جعفر بن أبى طالب كانوا غلمانا بيضا فقالت أسماء يارسول الله : إن العين لهم سريعة فأسترق لهم من العين ؟ فقال لها نعم ، وفى رواية دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أم سلمة وعندها صبى يشتكى فقالوا يارسول الله : أصابته العين ، فقال : أما تسترقون له من العين .

ولما خاف يعقوب عليه السلام أن يسبق من أمره هذا إلى بعض الأوهام

أن الحذر يغنى عن القدر نفى ذلك بقوله عليه السلام « وما أغنى » أى أدفع عنكم بقولى ذلك « من الله من شىء » قدره عليكم وإنما ذلك شفقة . ومن مزيدة للتأكيد ، واعلم أن الإنسان مأمور بأن يراعى الأسباب المعتبرة فى هذا العالم بأن يجزم بأنه لايحصل إلا ماقدره الله تعالى ، وأن الحذر لا يدفع القدر ، فالإنسان مأمور بأن يحذر الأشياء المهلكة ويسعى فى تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الإمكان، ومع ذلك يكون جازما بأنه لايصل إليه إلا ماقدره الله تعالى ولايحصل فى الوجود إلا ماأراد الله تعالى فقوله عليه السلام « لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة إشارة إلى رعاية الأسباب المعتبرة فى هذا العالم ، وقوله « وما أغنى عنكم من الله من شىء » إشارة إلى عدم الالتفات إلى الأسباب بل التوحيد المحض والبراءة عن كل شىء سوى الله تعالى، ولما قصر الأمر كله إليه تعالى وجب رد كل أمر إليه وقصر النظر عنه فقال منبها على ذلك « إن الحكم إلا لله عليه » أى على الله وحده «توكلت» أى جعلته وكيلى فرضيت بكل مايفعل « وعليه » وحده « فليتوكل المتوكلون » أى الثابتون فى باب التوكل فإن ذلك من أعظم الواجبات ؛ وقد ثبت بالبرهان أن لاحكم إلا لله فلزم القطع بأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله تعالى ، وذلك يوجب أن لاتوكل إلا على الله ، فهذا مقام عظيم .

ولما قال يعقوب : « وما أغنى عنكم من الله من شىء » صدقه الله تعالى فى ذلك فقال : « ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم » أى متفرقين « ماكان » ذلك التفريق « يغنى عنهم من الله » أى من قضائه « من شىء » أى مما قضاه عليهم « إلا حاجة » استثناء منقطع أى لكن حاجة « فى نفس يعقوب » وهى الوصول إلى ما أمر به شفقة عليهم « قضاها » يعقوب عليه السلام وأبرزها من نفسه إلى أولاده ، فعملوا فيها بمراده ، فأغنى عنهم الخلاص من عقوق أبيهم فقط « وإنه » أى يعقوب عليه السلام مع أمره لبنيه بذلك « لذو علم » أى معرفة « لما علمناه » بالوحى « ولكن أكثر الناس » أى لأجل ما نالهم من الاضطراب « لايعلمون » أى ليسوا بذوى علم لما علمناه لإعراضهم عنه

واستفراغ قوام فى الاهتمام بما وقع التكليف لهم به من أحوال الدنيا .

ولما أخبر تعالى عن دخولهم إلى البلد أخبرعن دخولهم لحاجتهم إلى يوسف عليه السلام فقال « ولما دخلوا » أى إخوة يوسف عليه السلام « على يوسف » فى القدمة الثانية بأخيهم بنيامين قالوا : هذا أخونا ، فقال : أحسنتم وأصبتم وستجدون خيراً عندى إن شاء الله ، ثم أنزلهم وأكرمهم وأضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحيدا فبكى ، وقال : لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه ، فقال يوسف : لقد صار أخوكم هـذا وحيدا فأجلسه معه على مائدته وصار يؤاكله . فلما كان الليل أمر أن ينزل كل اثنين منهم بيتا فبقى بنيامين وحده ، فقال يوسف : هذا ينام معى على فراشى ، كما قال الله تعالى « آوى » أى ضم « إليه أخاه » فبات معه فقال له : ما اسمك ؟ قال: بنيامين، قال: وما اسم أمك؟ قال: راحيل بنت لاوى ، قال: فهل لك من ولد؟ قال: نعم عشرة بنين قال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك؟ فقال: ومن يجد أخاملك ولـكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه و « قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس » أى لا تحزن « بمـا كانوا يعملون » أى بشىء فعلوه بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا فلا تلتفت إلى أعمالهم المنـكرة التى قد أقدموا عليها ، وقد جمعنا الله تعالى على خير ولا تعلمهم بشىء من ذلك ، ثم إنه ملأ لهم أوعيتهم كما أرادوا، وكان فى المرة الأولى أبطأ فى تجهيزهم ليتعرف أخبارهم فى طول المدة من حيث لا يشعرون ولذلك لم يعطف بالفاء ، وأسرع فى تجهيزهم فى هذه المرة قصدا إلى انفراده بأخيه من غير رقيب بالحيلة التى دبرها، فلذلك أتت الفاء فى قوله « فلما جهزهم » أى أعجل جهازهم وأحسنه « بجهازهم جعل » بنفسه أو بمن أمره « السقاية » وعاء صغير كان يشرب به « فى رحل أخيه » أى فى وعاء طعام أخيه بنيامين كما فعل ببضاعتهم فى المرة الأولى ، قال ابن إسحاق : كانت من فضة ، وقيل: من ذهب ، وقيل: كانت مرصعة بالجواهر، وجعلها يوسف مكيالا لئلا يكال بغيرها ، وكان يشرب فيها ، قال الرازى : هذا بعيد لأن الإناء الذى يشرب فيه الملك لا يصلح أن يجعل صاعا ، وقيل: كانت الدواب تسقى بها ، قال :

وهذا أيضاً بعيد لأن الآنية التى تسقى الدواب فيها لا تكون كذلك ، قال :
والأصوب أن يقال: كان ذلك الإناء شيئاً له قيمة ، والسقاية والصواع واحد ،
ثم ارتحلوا ، وأمهلهم يوسف عليه السلام حتى انطلقوا وذهبوا منزلا ، وقيل :
حتى خرجوا من العمران ، ثم بعث خلفهم من استوقفهم وحبسهم « ثم أذن »
أى أعلن بالنداء « مؤذن أيتها العير » أى القافلة ، وكل ما سير عليه من الإبل
والحمير والبغال فهو عير ، وقول من قال : العير الإبل خاصة باطل فقوله : أيتها
العير أى أصحاب العير ، كقوله : ياخيل الله اركبى ، قال الفراء : كانوا أصحاب
إبل ، وقال مجاهد : كانت العير حميراً « إنكم لسارقون » فقفوا حتى ننظر
الذى فقد منا ، والسرقة أخذ ماليس له أخذه فى خفاء من حرز مثله ؛ وكان
هذا النداء بأمر يوسف عليه السلام ، مع علو منصبه أن يبهت أقواماً وينسبهم
إلى السرقة كذبا وبهتانا ، وإن كان بغير أمره فهلا ظهر براءتهم من تلك التهمة ،
وقد يرد على ذلك بما يلى :

الأول : أنه عليه السلام لما أظهر لأخيه أنه يوسف قال : لست
أفارقك ، قال: لاسبيل إلى ذلك إلا بتدبير حيلة أنسبك فيها إلى مالا يليق بك ،
قال : رضيت بذلك ، وعلى هذا لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام لأنه قد رضى به
فلا يكون ذلك ذنبا .

الثانى: إنكم لسارقون يوسف من أبيه إلا أنهم ما أظهروا هذا الكلام
فهو من المعاريض وفى المعاريض مندوحة من الكذب .

الثالث : أن المنادى إنما ذكر النداء على سبيل الاستفهام ، وعلى هذا يخرج
أن يكون كذباً .

والرابع: ليس فى القرآن مايدل على أنهم قالوا هذا بأمر يوسف عليه السلام .

قال الرازى : والأقرب إلى ظاهر الحال أنهم فعلوا ذلك من أنفسهم ،
لأنهم لما طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم غلب على ظنهم أنهم
الذين أخذوها ، ولما وصل إليهم الرسول قال لهم : ألم نحسن ضيافتكم ونكرم

مشوا كم،وفعلنا بكم مالم نفعل بغيركم ؟ قالوا: بلى وما ذاك ؟قالوا: سقاية فقدناها ولا نتهم بها غيركم ،فذلك قوله تعالى « قالوا » و « الحال أنهم قد « أقبلوا عليهم » أى على جماعة الملك المنادى وغيرهم « ماذا » أى ما الذى «تفقدون» مما لا يمكننا أخذه والفقدان ضد الوجدان « قالوا نفقد » صواع الملك » والصواع هو المكيال وهو السقاية المتقدمة ، سموه تارة صواعا وتارة سقاية ، وإنما اتخذوا هذا الإناء مكيالا لعزة ما يكال به فى ذلك الوقت «ولمن جاء به حمل بعير » أى من الطعام ، والبعير يطلق لغة على الذكر خاصة وأطلقه بعضهم على الناقة أيضاً ، « وأنا به زعيم » أى كفيل .. وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة فى شرعهم ، وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : الزعيم غارم ، وما ورد من شرعنا ما يقرر شرع غيرنا هل يكون شرعا لنا ؟ فى ذلك خلاف ، والراجح أنه ليس بشرع لنا « قالوا » أى إخوة يوسف عليه السلام « تالله » التاء حرف قسم وهى عند الجمهور بدل من واو القسم والواو بدل من الباء «لقد علمتم ماجئنا لنفسد » أى نوقع الفساد «فى الأرض» أى أرض مصر « و » لقد علمتم « ما كنا » أى بوجه من الوجوه « سارقين » أى موصوفين بهذا الوصف « قالوا » أى أصحاب يوسف عليه السلام : المنادى ومن معه « فما جزاؤه » أى السارق، وقيل: الصواع : « إن كنتم كاذبين » فى قولكم « ما كنا سارقين » ووجد فيكم ، والجزاء مقابلة العمل بما يستحق من شر أو خير « قالوا » وثوقاً منهم بالبراءة وإخبارا بالحكم عندهم « جزاؤه من وجد فى رحله » ولتحققهم البراءة علقوا الحكم على مجرد الوجدان لا السرقة. ثم أكدوا ذلك بقولهم : « فهو جزاؤه » قال ابن عباس : كانت شريعة ذلك الزمان : كل سارق بسرقته ؛ فلذلك قالوا ذلك ، أى فالسارق جزاؤه أن يسلم بسرقته إلى المسروق منه فيسترق سنة ؛ وكان ذلك سنة آل يعقوب فى حكم السارق ، وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفى قيمة المسروق ، فأراد يوسف أن يحبس أخاه عنده فرد الحكم إليهم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم «كذلك » أى الجزاء « نجزى الظالمين » بالسرقة ،

قال أصحاب يوسف : فلا بد من تفتيش رحالكم فردوهم إلى يوسف عليه السلام فأمر بتفتيشها بين يديه « فبدأ بأوعيتهم » ففتشها « قبل وعاء أخيه » لئلا يتهم فلم يجد فيها شيئاً « ثم » أى بعد تفتيش أوعيتهم « استخرجها » أى السقاية أو الصاع لأنه يذكر ويؤنث « من وعاء أخيه » ؛ فلما خرج الصاع من وعاء بنيامين نكس إخوته رؤوسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له : ما الذى صنعت ؟ فضحتنا وسودت وجوهنا ، يا ابن راحيل ما زال لنا منكم بلاء حتى أخذت هذا الصاع : فقال بنيامين : بل بنو راحيل ما زال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخى فأهلكتموه فى البرية ، إن الذى وضع هذا الصاع فى رحلى هو الذى وضع البضاعة فى رحالكم ، فأخذ بنيامين رقيقاً ، وقيل : المنادى وأصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصاع من رحله فأخذوه برقبته وردوه إلى يوسف عليه السلام «كذلك» أى مثل ذلك الكيد «كدنا ليوسف» خاصة بأن علمناه إياه جزاء لهم على كيدهم بيوسف عليه السلام فى الابتداء ، وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام : فيكيدوا لك كيدا ، والكيد من الخلق الحيلة ومن الله تعالى التدبير بالحق ، فالمراد من هذا الكيد هو أن الله تعالى ألقى فى قلب إخوته بأن حكموا أن جزاء السارق هو أن يسترق ، لا جرم لما ظهر الصاع فى رحله حكموا عليه بالاسترقاق وصار ذلك سبباً لتمكن يوسف عليه السلام من إمساك أخيه عنده ، وقيل : المراد بالكيد ههنا أن إخوة يوسف سعوا فى إبطال أمره والله تعالى نصره وقواه وأعلى أمره « ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك » أى حكمه بيان للكيد ؛ لأن جزاءه عنده الضرب وتغريم مثلى ما أخذ لا أن يستعبد ، « إلا أن يشاء الله » فيه وجهان :

أحدهما : أنه استثناء تقديره : ولكن بمشيئة الله أخذه فى دين غير دين الملك وهو دين آل يعقوب عليه السلام أن الاسترقاق جزاء السارق .

والثانى : أنه مفرغ من الأحوال العامة ، والتقدير : ما كان ليأخذه فى كل حال إلا فى حال التباسه بمشيئة الله أى إذنه فى ذلك ؛ ولما كان يوسف عليه السلام

إنما يتمكن من ذلك بعلو درجته وتمكنه ورفعته بعد ما كان فيه عندهم من الصغار، كان ذلك محل عجب فقال تعالى التفاتا إلى مقام التكلم : « نرفع درجات من نشاء » أى بالعلم كما رفعنا درجته ، وفى هذه الآية دليل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات « وفوق كل ذى علم عليم » قال ابن عباس : فوق كل عالم ، لأنه هو الغنى بعلمه عن التعلم .. وفى الآية دليل على أن إخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم .

وبهذا ينتهى الربع الرابع من سورة يوسف عليه السلام ؛ وقد تضمن ما تضمن من طلب يوسف عليه السلام الإمارة من فرعون مصر ، وتأمير فرعون له ، وتدبيره لأمور الملك فى سنوات المجاعة ، وقدوم إخوته عليه لشراء الحبوب والميرة ، ومعرفته منهم الكثير عن وطنه وأبيه ، وطلبه أن يأتوا له بأخيه بنيامين ، وقدوم بنيامين عليه ، وتدبير يوسف الحيل ليحجز أخاه عنده ، ووضع سقاية يوسف فى رحل أخيه بنيامين ، وتفتيش رحله وأخذه رقيقاً له .

الربع الخامس من سورة يوسف

٧٧ — قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ .

٧٨ — قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ .

٧٩ — قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ .

٨٠ — فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ .

٨١ — ٱرْجِعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ .

٨٢ — وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ .

٨٣ — قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ .

٨٤ — وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ .

٨٥ — قَالُوا تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ .

٨٦ — قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

٨٧ — يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا مِن

رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُ لَا يَايْئَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ .

٨٨ — فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَٰأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ .

٨٩ — قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ .

٩٠ — قَالُوا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ

٩١ — قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِئِينَ .

٩٢ — قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ .

٩٣ — ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ .

٩٤ — وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ .

٩٥ — قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ .

٩٦ — فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ

أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَالَا تَعْلَمُونَ .

٩٧ — قَالُوا يَٰأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِئِينَ .

٩٨ — قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ .

٩٩ — فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ .

١٠٠ — وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ .

فى هذه الآيات الأربع والعشرين يذكر الله عز وجل استعطاف إخوة يوسف له ليطلق سراح أخيهم بنيامين ، ثم يأسهم من إجابته لطلبهم ، ثم مداولاتهم بعضهم مع بعض ، وتصميم كبيرهم على أن لا يبرح أرض مصر ، حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله له ؛ وشدة وقع الأمر على يعقوب ، وكثرة بكائه ، وطلبه من أبنائه أن يبحثوا عن يوسف وأخيه ، ثم دخولهم على يوسف ، وشكواهم إليه ، وتعريف يوسف لهم بنفسه ، واعتذارهم له ، وصفحه عنهم الصفح الجميل ، وعودتهم بالبشرى لأبيهم يعقوب ، وتنبؤ يعقوب بالأمر ، وعودة بصره إليه لما جاءته البشرى ، وطلب أبنائه منه المغفرة ، وعفوه عنهم ، وذهابهم جميعاً إلى مصر ، ودخولهم على يوسف ، وإكرامه لأبويه ، وسجودهم له ، وتذكر يوسف حينئذ قصته ، وشرحه لها فى إيجاز أمام أبويه من بدئها لختامها .. وهى قصة رائعة جليلة فيها عبرة وعظة ، وفيها كثير من المواقف الخالدة ، وفيها تأديب

إلهى للمقربين ، وفيها طاعة مثلى من المصطفين الأخيار المطهرين . . . يقول الله تعالى فى هذه الآيات الأربع والعشرين : « قالوا » تسلية لأنفسهم ، ودفعا للعار عن خاصتهم «إن يسرق » ولم يجزموا بسرقته لعلمهم بأمانته وظنهم أن الصواع دس فى رحله وهو لا يشعر كما دست بضاعتهم فى رحالهم ، وكان قد قال لهم ذلك « فقد سرق أخ له من قبل » يعنون به يوسف وكان غرضهم من ذلك أنا لسنا على طريقته ولا على سيرته ، وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لأنهما من أم أخرى ؛ واختلفوا فى التى نسبوها إلى يوسف عليه السلام على أقوال : فقال سفيان بن عيينة : أخذ دجاجة من الطير كانت فى بيت يعقوب فأعطاه سائلا ، وقال مجاهد : جاءه سائل فأخذ بيضة من البيت فناولها للسائل ، وقال وهب : كان يخبىء الطعام من مائدة يعقوب للفقراء ، وقال سعيد بن جبير : كان جده أبو أمه كافرا يعبد الوثن وأمرته أمه أن يسرق تلك الأوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الأوثان ففعل ذلك فهذا هو السرقة ، وقال محمد بن إسحاق : إن يوسف عليه السلام كان عند عمته ابنة إسحاق وكانت تحبه حبا شديداً ، فأرادت أن تمسكه عند نفسها وكان لديها منطقة لأبيها إسحاق عليه السلام وكانوا يتبركون بها : فشدتها على وسط يوسف عليه السلام من تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ، ثم قالت : إنه سرقها وكان علمهم أن من سرق يسترق ، فقال يعقوب عليه السلام : إن كان قد فعل ذلك فهو سلم لك فأمسكته عندها حتى ماتت فتوسلت بهذه الحيلة إلى إمساكه عند نفسها ، قال ابن الأنبارى : وليس فى هذه الأفعال كلها سرقة ولكنها تشبه السرقة فعيروه بها عند الغضب ، وقيل : إنهم قد كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوءة من الغضب على يوسف بعد تلك الوقائع وبعد انقضاء المدة الطويلة « فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها » أى يظهرها «لهم» والضمير للكلمة التى هى قوله : « قال » أى فى نفسه « أنتم شر مكانا » أى من يوسف وأخيه لسرقتكم أخاكم من أبيكم وظلمكم له ، وقيل : الضمير يرجع إلى الكلمة التى قالوها فى حقه وهى قولهم « فقد سرق أخ له من قبل » ، وعلى هذا يكون

المعنى : فأسر يوسف جواب الكلمة التى قالوها فى حقه ، والله أعلم ، منكم ، بما تصفون ، أى تقولون وأنه ليس كما قلتم ، وكان يوسف لما استخرج الصاع من رحل بنيامين نقره وأدناه إلى أذنه ثم قال : إن صاعى هذا يخبرنى أنكم اثنا عشر رجلا لأب واحد وأنكم انطلقتم بأخ لكم من أبيكم فبعتموه ، فلما صار أمرهم إلى هذا ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه خضعوا وذلوا ، و « قالوا يا أيها العزيز » فخاطبوه بما يليق بالعظماء ليرق لهم « إن له » أى هذا الذى وجد الصاع فى رحله « أبا شيخا كبيرا » أى فى سنه وقدره ، وهو مغرم به لا يقدر على فراقه ولا يصبر عنه « فخذ أحدنا مكانه » وأحسن إلى أبيه بإرساله إليه « إنا نراك » أى نعلمك علما هو كالرؤية أو بحسب ما رأيناه « من المحسنين » فاجر فى أمرنا على عادة إحسانك فكأنه قيل: فبماذا أجابهم ؟ قيل : « قال معاذ الله » أى نعوذ بالذى لا مثل له ، معاذا عظيما من « أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده » ولم يقل «سرق متاعنا» لأنه لم يفعل فى الصاع فعل السارق ولم يقع منه قبل ذلك ما يصح إطلاق الوصف عليه ، ثم علله بقوله : « إنا إذا » أى إذا أخذنا أحداً مكانه « لظالمون » أى كما هو وفق دينكم ، فلا تطلبون ما هو ظلم عندكم « فلما » دل بالفاء على قرب زمن تلك المداولات « استيأسوا » أى أيسوا « منه » لما رأوا من إحسانه ولطفه ورحمته ، يأسا شديداً بما رأوا من ثباته على أخذه بعينه وعدم استبداله « خلصوا » أى انفردوا عن غيرهم حال كونهم « نجيا » وهو مصدر يصلح للواحد وغيره أى ذوى نجوى يناجى بعضهم بعضا ، فكأنه قيل : فما قالوا ؟ قيل : « قال كبيرهم » فى السن وهو روبيل وقيل : فى الفضل والعلم وهو يهوذا ، وقيل : شمعون وكان له الرياسة على أخوته «ألم تعلموا» يقررهم بما يعرفونه ليتوجهوا إلى بذل الجهد فى الخلاص من غضب أبيهم « أن أباكم » أى الشيخ الكبير الذى فجعتموه فى أحب ولده إليه « قد أخذ عليكم » أى قبل أن يعطيكم هذا الولد الآخر « موثقا » أى عهدا وثيقا « من الله » فى أخيكم ، وإنما جعل حلفهم بالله موثقا منه لأنه بإذن منه وتأكيد من جهته « ومن قبل ما فرطتم » والتقدير:

ومن قبل هذا فرطتم أى قصرتم فى حق يوسف وشأنه ، فما زائدة وزيادة (ما) كثيرة وبه بدأ الزمخشرى وغيره ، وقيل : إنها مصدرية فى محل رفع بالابتداء والخبر هو قوله : « فى يوسف » أى وتفريطكم كائن أو مستقر فى يوسف ، وإلى هذا ذهب الفارسى « فلن أبرح » أى أفارق « الأرض » أى أرض مصر « حتى يأذن لى أبى » بالعودة إليه « أو يحكم الله لى » بخلاص أخى « وهو خير الحاكمين » أى أعدلهم . . ولكن كيف يجوز ليوسف عليه السلام أن يعمل مثل هذه الأعمال بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبسه أخاه عنده مع علمه بشدة وجدان أبيه عليه وشدة غمه ، وفيه ما فيه من العقوق وإيذاء الناس من غير ذنب ، لا سيما وهو يعلم أنه إذا حبس أخاه عنده مع علمه بهذه التهمة فإنه يعظم حزن أبيه ويشتد غمه . فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة فى التزوير إلى هذا الحد ، أجيب عن ذلك بأجوبة كثيرة ، أحسنها كما قال المفسرون : أنه إنما فعل ذلك بأمر الله تعالى له ، وإنما أمره الله بذلك ليزيد بلاء يعقوب عليه السلام فيضاعف له الأجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه ، ولله تعالى أسرار لا يعلمها أحد من خلقه وهو المتصرف فى خلقه بما يشاء ، فهو الذى أخفى خبر يوسف عن يعقوب فى هذه المدة مع قرب المسافة ، لما يريد أن يدبره فيهم والله أعلم بأحوال عباده .. ولكن يصح أن نقول : إنه إنما فعل ذلك لينقذ أخاه بنيامين من جورهم وظلمهم ، ثم قال كبيرهم : « ارجعوا إلى أبيكم » أى دونى « فقولوا » له متلطفين فى خطابكم « يا أبانا إن ابنك سرق » أى كما شاهدنا ذلك بأعيننا ، دون مبالغة . لأنهم لما شاهدوا الصاع وقد أخرج من متاعه غلب على ظنهم أنه سرق ، فلذلك نسبوه إلى السرقة فى ظاهر الأمر لا فى حقيقة الحال ، ويدل على أنهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم « وما شهدنا » عليه « إلا بما علمنا » ظاهر من رؤيتنا الصاع يخرج من وعائه « وما كنا للغيب » أى ما غاب عنا حين أعطينا الموثق « حافظين » أى ما كنا نعلم أن ابنك يسرق ويصير أمرنا إلى هذا ، ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به معنا ، وإنما قلنا : ونحفظ أخانا بما لنا إلى حفظه سبيل ، أو حقيقة الحال غير معلومة لنا ، فإن الغيب

لا يعلمه إلا الله تعالى ، فلعل الصاع دس فى رحله ، ونحن لا نعلم ذلك «واسأل القرية » أى أهلها على حذف المضاف وهو مجاز مشهور ، وقيل: إنه مجاز مرسل « التى كنا فيها » وهى مصر عما أخبرناك يخبروك بصدقنا فإن الأمر قد اشتهر عندهم ، وقيل : هى قرية من قرى مصر كانوا ارتحلوا منها إلى مصر «و» اسأل « العير » أى القافلة وهم قوم من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام « التى أقبلنا فيها » والسؤال طلب الإخبار بأداته من الهمزة وهل وغيرهما ؛ والقرية : الأرض الجامعة لحدود فاصلة وأصلها من قريت الماء جمعته ، والعير : قافلة الحمير من العير بالفتح وهو الحمار ، وهذا هو الأصل ثم كثر حتى استعمل فى غير الحمير ، « وإنا » أى والله « لصادقون » فى قولنا ، ولما رجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال كبيرهم فكأنه قيل : فما قال لهم ؟ فقيل « قال » لهم « بل سولت » أى زينت تزيينا فيه غى « لكم أنفسكم أمراً » أى حدثتكم بأمر ففعلتموه وإلا فما أدرى الملك أن السارق يؤخذ بسرقته « فصبر جميل » أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل صبرى او أجمل .. وقد قال يعقوب ذلك فى واقعة يوسف أيضا إلا أنه قال فيها « والله المستعان على ما تصفون » وقال هنا « عسى الله أن يأتينى بهم » أى بيوسف وشقيقه بنيامين والأخ الثالث الذى أقام بمصر «جميعا» أى فلا يتخلف منهم أحد ، وإنما قال يعقوب عليه السلام هذه المقالة لأنه لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته علم أن الله سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله تعالى ، وتفرس أن هذه الأفعال نشأت عن يوسف عليه السلام وأن الأمر يرجع إلى سلامة واجتماع ، ثم علل ذلك بقوله « إنه هو العليم » أى البليغ العلم بما خفى عنا من ذلك فيعلم أسبابه الموصلة إلى المقاصد « الحكيم » أى البليغ فيما يريده ويقضيه « و » لما ضاق قلب يعقوب عليه السلام بسبب الكلام الذى سمعه من أبنائه فى حق بنيامين « تولى عنهم » أى انصرف بوجهه عنهم لما توالى عنده من الحزن « وقال يا أسفا » أى يا أسفى « على يوسف » أى يقال : هذا أوانك والأسف : أشد الحزن والحسرة ، والألف بدل من ياء المتكلم وإنما

تأسف على يوسف دون أخويه لأن مصيبته كانت أشد المصائب ، والحزن القديم إذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الأول ، ولأنه كان واثقا بحياتهما دون حياته ، وفى حديث رواه الطبرانى : لم تعط أمة من الأمم « إنا لله وإنا إليه راجعون » عند المصيبة إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال يا أسفا « وابيضت عيناه » أى ذهب سوادهما وبدل بياضا « من الحزن » أى من كثرة البكاء عليه ، وقيل : عند غلبة البكاء يكثر الماء فى العين فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء ، وقيل : ضعف بصره حتى صار يدرك إدراكا لطيفا ، وقيل : عمى ، قال مقاتل : لم يبصر بهما ست سنين حتى كشفه الله تعالى بقميص يوسف عليه السلام ، قيل : إن جبريل دخل على يوسف فى السجن فقال : إن بصر أبيك ذهب من الحزن عليك ، فوضع يده على رأسه وقال : ليت أمى لم تلدنى « وهو كظيم » أى مغموم مكروب لا يظهر كربه ، ويدل على هذا قوله : إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ـ على أنه لما عظمت مصيبته وقويت محنته صبر ولم يظهر الشكاية ، فلا جرم استوجب بذلك المدح العظيم الجزيل ، روى أن يوسف عليه السلام قال لجبريل عليه السلام : هل لك علم بيعقوب ؟ قال : نعم ، قال : فكيف حزنه ؟ قال : حزن شديد ، قال : فهل له أجر ؟ قال : نعم أجر مائة شهيد ، ولعل أمثال ذلك لا يدخل تحت التكليف وأنه قل من يملك نفسه عند الشدائد ، وأيضا البكاء مباح فقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم ، وقال : القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون « قالوا » له حنقا من ذلك « تالله تفتؤ » أى لا تفتؤ أى لا تزال « تذكر يوسف » تفجعا « حتى » أى إلى أن « تكون حرضا » أى مشرفا على الهلاك لطول مرضك وهو مصدر يستوى فيه الواحد وغيره « أو تكون من الهالكين » وقد بنوا الأمر على الظاهر ، قال أكثر المفسرين : قائل هذا الكلام هم إخوة يوسف ، وقال بعضهم : ليس الإخوة بل الجماعة الذين كانوا فى الدار من أولاده

وخدمه ، ولما قالوا ذلك فكأن قائلا يقول : فما قال لهم ؟ فقيل « قال » لهم « إنما أشكو بثى » والبث : أشد الحزن ـ سمى بذلك لأنه من صعوبته لا يطاق حمله فيباح به وينشر « وحزنى » مطلقا وإن كان سببه خفيفا يقدر الخلق على إزالته « إلى الله » المحيط بكل شيء علما وقدرة لا إلى غيره فهو الذى تنفع الشكوى إليه « وأعلم من الله » أى الملك الأعلى من اللطف بنا أهل البيت « ما لا تعلمون » فيأتينى بالفرج من حيث لا أحتسب ، وفى ذلك إشارة إلى أنه كان يعلم بحياة يوسف ويتوقع رجوعه إليه « يا بنى اذهبوا فتحسسوا » والتحسس : طلب الخبر بالحاسة وهو قريب من التجسس بالجيم ، وقيل : التحسس بالحاء يكون فى الخير وبالجيم يكون فى الشر ، ومنه الجاسوس الذى يطلب الكشف عن عورة الناس ، والمعنى : تحسسوا خبرا « من » أخبار « يوسف وأخيه » أى اطلبوا خبرهما ، ولعل يعقوب علم أن رؤيا يوسف عليه السلام صادقة ، لأن أمارات الرسالة كانت جد" ظاهرة فى حق يوسف عليه السلام ورؤيا مثله لا تخطيء ـ وأن الله تعالى أوحى إليه أنه سيجتمع به ، ولكنه تعالى ما عين الوقت فلماذا بقى فى القلق ، قال السدى : لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكمال حاله وأقواله وأفعاله طمع فى أن يكون هو يوسف ، وقال : بعيد أن يظهر فى الكفار مثله ، ثم تلطف ببنيه وقال لهم « ولا تيأسوا » أى تقنطوا « من روح الله » قال ابن عباس : من رحمة الله ، وقال قتادة : من فضل الله ، وقال ابن زيد : من فرج الله « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » أى المعنون فى الكفر ، قال ابن عباس : إن المؤمن من الله على خير يرجوه فى البلاء ويحمده على الرخاء ، والكافر على الضد من ذلك فإن اليأس من رحمة الله لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن العالم غير قادر على الكمال ، أو غير عالم بجميع المعلومات ، أوليس بكريم بل هو بخيل ؛ وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر ، وإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً ، ولما قال يعقوب عليه السلام لبنيه ذلك قبلوا منه هذه

الوصية وعادوا إلى مصر « فلما دخلوا عليه » أى على يوسف عليه السلام « قالوا يا أيها العزيز » وكان العزيز لقبا لوزير مصر يومئذ « مسنا وأهلنا » أى من خلفنا ووراءنا « الضر » أى لابسنا ملابسة تحسها « وجئنا ببضاعة مزجاة » إما لنقصها أو لرداءتها أو لهما جميعا ؛ وقال الحسن : البضاعة المزجاة القليلة ، واختلفوا فى تلك الرداءة فقال ابن عباس : كانت دراهم رديئة لا تقبل فى ثمن الطعام ، وقيل : كانت من متاع الأعراب من الصوف والسمن ، وقيل : من النعال والأدم ، وقيل : إن دراهم مصر كان ينقش فيها صورة يوسف عليه السلام والدراهم التى جاءوا بها ما كان فيها ذلك فما كانت مقبولة عند الناس « فأوف لنا الكيل » أى شفقة علينا بسبب ضعفنا « وتصدق » أى تفضل « علينا » زيادة على الوفاء كما عودتنا بفضل نرجو ثوابه ، ولما رأوا أفعاله تدل على تمسكه بدين الله عللوا ذلك بقولهم « إن الله » أى الذى له الكمال كله « يجزى المتصدقين » أى وإن كانت على غنى قوى فكيف إذا كانت على أهل الحاجة والضعف ، وكانت الصدقة حلالا لهم ولأنبيائهم . وروى أن الحسن سمع رجلا يقول : اللهم تصدق على ، قال : إن الله لا يتصدق وإنما يتصدق من يبغى الثواب ، قل : اللهم اعطنى وتفضل على . وصف إخوة يوسف أنفسهم بالعجز ورقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة ، وذلك مما يرقق القلب فقالوا : نجربه فى هذه الأمور فإن رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود وإلا سكتنا فقدموا هذه المقدمة ، ولما كلموه بهذا الكلام أدركته الرقة على إخوته فارفض دمعه فباح بالذى كان يكتم ، فلذا « قال » لهم « هل علمتم ما فعلتم » أى صنعتم « بيوسف » أى أخيكم الذى حلتم بينه وبين أبيه « وأخيه » فى جعلكم إياه فريدا ذليلا بينكم ، ثم فى قولكم له لما وجد الصاع فى رحله : لا يزال يأتينا البلاء من قبلكم يا بنى راحيل ، إنما قال لهم ذلك حثا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتثريبا ، وقيل : أعطوه كتاب يعقوب عليه السلام فى تخليص بنيامين وذكروا ما هو فيه من الحزن على فقد يوسف وأخيه فقال لهم ذلك « إذ أنتم جاهلون » أى

فاعلون فعلهم أو لأنهم كانوا حينئذ صبيانا ، قال يوسف لإخوته « هل علمتم » تمهيداً لتعريفهم بنفسه إذ آن أن يصارحهم به ، وقد بلغت الأقدار من تربيتها له ولهم غايتها ، ولم يبق بعد هذا التمهيد إلا التصريح ، وتأويل رؤياه التي كانت السبب الأول لكل هاتيك الأفاعيل ، وقد كان هذا التمهيد عجبا في بلاغته ، ومما يدل عليه شعور يوسف الصديق النبي وخلقه ودينه وأدبه ، إذ فصل بهذا السؤال الوجيز الساذج في قضية يحار في الفصل فيها أوسع القضاة عدلا ورحمة ، ويعيا بالتعبير المرضى عنها أبلغ الأدباء علما وحكمة ، وهي مقابلة طرفين تعمد أحدهما اقتراف جناية على الآخر طال عليها الأمد عشرات السنين ، وكانت غايتها أن يقف الجاني بين يدي المجني عليه وهو يجهله موقف البائس الفقير المستجدي الحقير ، على ما نشأ عليه من عزة النفس ، وشرف الحسب والنسب ، واقتضت الحال أن يتعارفا وهما أخوان . . إذ المقام مقام خجل من الجاني ، وتنكيس أبصار ، واعتذار واستغفار ، يذيب الفؤاد ويخرس اللسان ، يقابله حلم وعفو وكرم من المجني عليه ، فكيف كان المخرج ليوسف عليه السلام من هذا المأزق الذي تحار فيه الأفهام ، ويضطرب فيه الوجدان ؟ ، لقد ذكر إخوته بذنوبهم قبل أن يتعرف إليهم ، تذكيراً مجملا مقروناً بذكر العذر الطبيعي ، وهو الجهل بقبح الذنب في نفسه وبسوء عاقبته ، وبالآثار التي تترتب عليه ، وبالبواعث التي تزينه لفاعله ، وتمكن لنزغ الشيطان من نفسه الأمارة بالسوء ، بل بهما جميعا . ذكرهم هذا بسؤالهم سؤال العارف المتجاهل ، باستفهام التقرير ، لا التقريع والتوبيخ كما قيل ، فإنه يرده ما يأتي من نفي التثريب ، واستغفار العفو والصفح ، وأما سهم أخيه من فعلتهم فهو ما اقتضاه إشراكهم إياه في حسدهم له من أول شأنه الدال عليه قولهم أولا « ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا » ، وقول أبيهم آخراً « هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل » ؟ واتهامه إياهم بأنهم ما أفشوا عزيز مصر باسترقاقه بالسرقة إلا بما أضمروه له من حقد ، وماسولته لهم أنفسهم من أمر ، يقول الزمخشري : « قال هل علمتم

أتاهم من جهة الدين وكان حليما موفقا فكلمهم مستفهما عن معرفة وجه القبح الذى يجب أن يراعيه التائب فقال: هل علمتم قبح «ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟» ، لاتعلمون قبحه فلذلك أقدمتم عليه، يعنى هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه؟ لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح والاستقباح يجر إلى التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحا لهم فى الدين لامعاتبة وتثريبا ، إيثارا لحق الله على حق نفسه فى ذلك المقام الذى يتنفس فيه المكروب ، وينفث المصدور ويتشفى المغيظ المحنق ، ويدرك ثأره الموتور ، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها ولله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها ، وقيل : لم يرد نفى العلم عنهم لأنهم كانوا علماء ولكنهم لما لم يفعلوا مايقتضيه العلم ولايقدم عليه إلا جاهل سماهم جاهلين ، وقيل: معناه إذ أنتم صبيان فى حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أوان الحلم والرزانة . روى أنهم لما قالوا «مسنا وأهلنا الضر» وتضرعوا إليه ارفضت عيناه ، ثم قال هذا القول . وقيل: أدوا إليه كتاب يعقوب: «من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد: فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء ، أما جدى فشدت يداه ورجلاه ورمى به فى النار ليحرق فنجاه الله، وجعلت النار عليه بردا وسلاما ، وأما أبى فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله ، وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب أولادى إلى فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم وقالوا : قد أكله الذئب فذهبت عيناى من بكائى عليه ، ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا إنه سرق وإنك حبسته لذلك ، وإنا أهل بيت لانسرق ولا نلد سارقا ، فإن رددته على وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام» ، فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ذلك . وروى أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب الجواب: اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا «قالوا أئنك لأنت يوسف» استفهام تقرير ، وقيل : عرفوه بنظره وخلقه حين كلمهم ، وقيل: رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة فى رأسه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب وإسحاق مثلها «قال» لهم «أنا يوسف»

وزادهم بقوله «وهذا أخى» بنيامين شقيقى، وإنما ذكره لهم ليزيدهم ذلك معرفة له وتثبيتاً فى أمره «قد من الله علينا» قال ابن عباس: بكل خير فى الدنيا والآخرة، وقال آخرون: بالجمع بيننا بعد التفرقة «إنه من يتق» أى المعاصى «ويصبر» أى على البلاء وأذى الناس، وقال ابن عباس: يتق الزنا ويصبر على الفرقة، وقال مجاهد: يتق المعصية ويصبر على السجن «فإن الله لا يضيع أجر المحسنين». والمعنى أنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجره، فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين.

ولما ذكر يوسف عليه السلام لإخوته أن الله تعالى من عليه وأنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيعه صدقوه واعترفوا له بالفضل والمرتبة ولذلك «قالوا» مقسمين بقولهم «تالله» أى الملك الأعظم «لقد آثرك» أى اختارك «الله علينا» بالعلم والعقل والحسن والملك والتقوى وغير ذلك، واحتج بعضهم بهذه الآية على أن إخوته ما كانوا أنبياء لأن جميع المناصب التى تكون مغايرة لمنصب النبوة كالعدم بالنسبة إليه فلو شاركوه فى منصب النبوة لما قالوا ذلك ثم قالوا «وإن كنا لخاطئين» أى والحال أن شأننا أنا كنا مذنبين بما فعلنا معك ولذلك أذلنا الله تعالى لك «قال» لهم قول الكرام اقتداء بإخوانه من الأنبياء والرسل عليهم السلام «لا تثريب» أى لا لوم ولا تعنيف ولا هلاك «عليكم اليوم» وإنما خصه بالذكر لأنه مظنة التثريب «يغفر الله» أى الذى لا إله غيره «لكم» أى ما فرط منكم «وفى هذا الدعاء بالمضارع إرشاد لهم إلى إخلاص التوبة «وهو» تعالى «أرحم الراحمين» لجميع العباد لاسيما التائب فهو جدير بإدراك النعم، وسألهم عن أبيه فقال: مافعل أبى بعدى؟ قالوا: ابيضت عيناه من الحزن، فأعطاهم قميصه وقال: «اذهبوا بقميصى هذا» وهو قميص إبراهيم عليه السلام الذى لبسه حين ألقى فى النار عريانا فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه وكان ذلك القميص عند إبراهيم، فلما مات إبراهيم ورثه إسحاق فلما مات إسحاق ورثه يعقوب، فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص تميمة وعلقها فى عنقه، إذ كان يخاف عليه من العين، وكان

لا يفارقه ، فلما ألقى فى البئر عريانا جاءه جبريل وعلى يوسف ذلك التعويذ وتلك التميمة فأخرج القميص وألبسه إياه ، وعند ما تعارف هو وإخوته جاءه جبريل عليه السلام وقال : أرسل ذلك القميص فإن فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا على سقيم إلا عوفى ، فدفع يوسف ذلك القميص إلى إخوته وقال : إذا وصلتم إلى أبى « فألقوه على وجه أبى يأت » أى يصير « بصيراً » أى يرد إليه بصره كما كان أو يأت إلى حال كونه بصيرا « وأتونى » أى أبى وأنتم « بأهلكم » أى مصاحبين لكم « أجمعين » لا يتخلف منهم أحد ، فرجعوا بالقميص لهذا القصد ، وروى أن يهوذا هو الذى حمل القميص لما لطخوه بالدم فقال : لا يحمل هذا غيرى لأفرحه كما أحزنته ، فحمله وهو حاف من مصر إلى كنعان بفلسطين ، ولما فصلت العير من العريش وهى آخر بلاد مصر إلى أول بلاد الشام « قال أبوهم » لولد ولده ومن حوله من أهله مؤكدا لعلمه أنهم ينكرون قوله « إنى لأجد ريح يوسف » قيل : إن الله تعالى أوصل إليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجىء وقت الفرج « لولا أن تفندون » أى تنسبونى إلى الخرف ، يقال : أفند الرجل إذا خرف وتغير عقله ، وعن الأصمعى : إذا كثر كلام الرجل ، من خرف فهو مفند ، قال فى الكشاف يقال : شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة ، لأنها لم تكن فى شبيبتها ذات رأى حتى تفند فى كبرها ، وقيل : التفنيد الإفساد يقال : فندت فلانا إذا أفسدت رأيه ورددته .. ولما ذكر يعقوب عليه السلام ذلك « قالوا » أى الحاضرون عنده « تالله إنك لفى ضلالك » أى حبك « القديم » ليوسف لا تنساه ولا تذهل عنه على بعد العهد وهو كقول إخوة يوسف « إن أبانا لفى ضلال مبين » ، وقال مقاتل : معنى الضلال هنا الشقاء أى شقاء الدنيا والمعنى : إنك لفى شقائك القديم بما تكابده من الأحزان على يوسف وقال الحسن : إنما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات ، فكان يعقوب فى ولوعه بذكره ذاهبا عن الرشد والصواب ثم أنهم عجلوا له بشيرا فأسرع قبل وصولهم بالقميص « فلما أن » زيدت أن لتأكيد مجيئه على تلك الحال « جاء البشير » وهو يهوذا بذلك القميص « ألقاه » أى طرحه البشير على

وجهه » أى وجه يعقوب وقيل: ألقاه يعقوب على وجه نفسه «فارتد» أى رجع « بصيرا » أى صيره بصيرا ، ولما ألقى القميص على وجهه وبشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه وانشرح صدره وزالت أحزانه فعند ذلك «قال» لبنيه «ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون » من حياة يوسف وأن الله تعالى يجمع بيننا ؟ قيل : لما جاء البشير إلى يعقوب أعطاه فى بشارته كلمات كان يرويها عن أبيه عن جده عليهما السلام ، وهى: يالطيف فوق كل لطيف الطف بى فى أمورى كلها كما أحب . وروى أن يعقوب عليه السلام قال للبشير : كيف تركت يوسف ؟ قال : تركته ملك مصر ، قال : ما أصنع بالملك : وعلى أى دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام ، قال : الآن تمت النعمة ، فعند ذلك « قالوا يا أبانا » منادين بالأداة التى تدل على الاهتمام العظيم بما بعدها لما له من عظيم الموقع « استغفر » أى اطلب من الله تعالى أن يغفر « لنا ذنوبنا » التى اقترفناها ، ثم قالوا مؤكدين ذلك تحقيقا للإخلاص فى التوبة « إنا كنا خاطئين » أى متعمدين للإثم بما ارتكبنا فى أمر يوسف عليه السلام ، ومن حق المعترف بذنبه أن يصفح عنه ويسأل له المغفرة ، قال صلى الله عليه وسلم : إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه « قال » لهم « سوف أستغفر » أى أطلب أن يغفر « لكم ربى » الذى أحسن إلى ، وظاهر هذا الكلام أنه لم يستغفر لهم فى الحال بل وعدهم بأن يستغفر لهم بعد ذلك ، واختلفوا فى سبب هذا المعنى على وجوه :

فقال ابن عباس والأكثرون : أراد أن يستغفر لهم فى وقت السحر لأن هذا الوقت أوفق الأوقات لرجاء الإجابة ، وفى رواية أخرى له أنه أخر الاستغفار إلى ليلة الجمعة . وقيل: استغفر لهم فى الحال وقوله « سوف أستغفر لكم » معناه أنى أداوم على هذا الاستغفار فى الزمان المستقبل ، وقيل: قام إلى الصلاة فى وقت السحر ، فلما فرغ رفع يديه وقال : أللهم اغفر لى جزعى على يوسف ، فأوحى الله تعالى اليه أنى قد غفرت لك ولهم أجمعين ؛ وعن الشعبى قال : أسأل يوسف إن عفا عنكم أستغفر لكم ربى « إنه هو الغفور الرحيم »

روى أن يوسف عليه السلام كان بعث مع البشير إلى يعقوب عليه السلام مائتى راحلة وجهازاً كثيراً ليأتوا بيعقوب وأهله وولده فتهيأ يعقوب عليه السلام للخروج إلى مصر فخرج بهم، فلما دنا من مصر كلم يوسف فرعون مصر فخرج يوسف عليه السلام والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء وركب أهل مصر معهما بأجمعهم يتلقون يعقوب ، وكان يعقوب يمشى وهو يتوكأ على يهوذا فنظر إلى الخيل والناس فقال ليهوذا : هذا فرعون مصر؟ قال: لا هذا ابنك يوسف ، فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه بدأه يوسف بالسلام فقال له جبريل : لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام، فقال يعقوب : السلام عليك ، وقال الثورى : لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكى ، فقال يوسف : يا أبت بكيت حتى ابيضت عيناك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا ؟ قال بلى : ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بينى وبينك « فلما دخلوا على يوسف آوى » أى ضم « إليه أبويه » قال الحسن: أباه وأمه ، وكانت حية إكراما لهما ، وغلب الأب فى التثنية ، وعن ابن عباس أنها خالته وكانت أمه قد ماتت فى نفاس بنيامين ، وقيل : استقبلهم يوسف خارج مصر ، ونزل بهم فى خيمة أو بيت هناك فدخلوا عليه وضم إليه أبويه « وقال » مكرما « ادخلوا مصر » أى البلد المعروف « إن شاء الله آمنين » من جميع ما ينوب حتى مما فرطتم فى حقى وحق أخى . روى أن يعقوب عليه السلام وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى عليه السلام والمقاتلون منهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الصبيان والشيوخ « و » لما استقر بهم الدار بدخول مصر « رفع أبويه » أى أجلسهما معه « على العرش » أى السرير الرفيع ، والرفع هو النقل إلى العلو « وخروا له » أى أبواه وإخوته «سجدا» أى سجود انحناء والتواضع قد يسمى سجودا ، وكان السجود تحيتهم فى ذلك الزمان أو أنهم وضعوا الجباه وكان ذلك على طريقة التحية والتعظيم لا على طريقة العبادة ، وكان ذلك جائز فى الأمم السالفة فنسخت فى هذه الشريعة ،

وروى عن ابن عباس أنه قال : معناه خروا لله سجدا بين يدى يوسف عليه السلام فيكون سجود شكر لله لأجل وجدان يوسف ، ويدل عليه قوله تعالى: ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ، وذلك يشعر بأنهم صعدوا على السرير ثم سجدوا لله تعالى ولو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا قبل الصعود على السرير لأن ذلك أدخل فى التواضع « وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل » والمراد منه قوله « إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ، قال الرازى : وعندى أنه يبعد أن يرضى يوسف بأن يسجد له أبوه مع سابقته فى حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة ، أو أنهم جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا شكراً لنعمة وجدانه . فانه يقال : صليت للكعبة كما يقال : صليت إلى الكعبة . ثم استأنف يوسف عليه السلام فقال « قد جعلها ربى حقا » أى مطابقا للواقع لتأويلها وتأويل ما أخبرتنى به أنت ، والتأويل تفسير بما يؤول إليه معنى الكلام ، وعن الحسن أنه ألقى فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وبقى فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ثم وصل إلى أبيه وأقاربه وعاش بعد ذلك ثلاثة وعشرين سنة ، فكان عمره مائة وعشرين سنة « وقد احسن » أى أوقع إحسانه « بى » تصديقا لما بشرتنى به من إتمام النعمة « إذ أخرجنى من السجن » ولم يذكر إخراجه من الجب لوجوه :

أولها : أنه قال لإخوته « لا تثريب عليكم اليوم » ولو ذكر قصة الجب لكان ذلك تثريبا لهم ، فكان إهماله لها جاريا مجرى الكرم .

وثانيها : إنه لما أخرج من الجب لم يصر ملكا بل صيروه عبدا وإنما صار ملكا بعد إخراجه من السجن ، فكان هذا الإخراج أقرب من أن يكون إنعاما كاملا .

ثالثها: أنه لما خرج من الجب وقع فى المضار الحاصلة من تهمة المرأة ، ولما خرج من السجن وصل إلى أبيه وإخوته فكان هذا أقرب إلى المنفعة مع أن اللفظ محتمل للجب أيضاً لكنه احتمال خفى « وجاء بكم من البدو » أى من

أطراف بادية فلسطين وذلك من أكبر النعم كما جاء فى الحديث : من يرد الله به خيرا ينقله من البادية إلى الحاضرة ، والبدو ضد الحاضرة وهو من الظهور بدا يبدو إذا سكن فى البادية . . وفى الآية دلالة على أن فعل العبد خلقه الله تعالى لأنه أضاف إخراجه من السجن إلى الله تعالى ومجيئهم من البدو إليه « من بعد أن نزغ » أى أفسد « الشيطان » بسبب الحسد « بينى وبين إخوتى » وأصل النزغ دخوله فى أمر لإفساده ، وإضافة يوسف عليه السلام الخير إلى الله تعالى والشر إلى الشيطان تقتضى أن فعل الشر ليس من الله تعالى كما قاله بعض المبتدعة ولو كان منه لأضافه إليه ، والجواب أن إضافة هذا الفعل إلى الشيطان مجاز لأن الفاعل المطلق هو الله تعالى فى الحقيقة ، قال تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فثبت بذلك أن الكل من عند الله وبقضائه وقدره ، وليس للشيطان فيه مدخل إلا بإلقاء الوسوسة ، وذلك بإقدار الله تعالى إياه على ذلك كما حكى الله ذلك عنه بقوله تعالى : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » . . « إن ربى لطيف لما يشاء » أى بالغ أقصى اللطف بعباده فى التدبير والرفق فى التسخير لتنفيذ ما يشاء فى خلقه من الحكمة البالغة والوصول إلى المقاصد الحسنة والغايات النبيلة ، بحيث لا يشعر من لطف به عند وقوع الأسباب والوسائل بغايتها إلا عند وصوله إليها ، فمن ذا الذى كان يخطر بباله أن الإلقاء فى الجب وما أعقبه من الرق ، وما تلا الرق من فتنة العشق الذى يفضى إلى السجن ، ينتهى بالسيادة والملك ؟ « إنه هو العليم » بما لكل قدر من عمل ، وما لكل عمل من أجل . « الحكيم » فى بلوغ مشيئته ، وفى ذلك كله كمال المصلحة فى جزاء الذين أحسنوا بالحسنى وجعل العاقبة للمتقين ، فحمد ربه على لطفه فى مشيئته ، وعلمه وحكمته ، من أجل الحمد والثناء :

* * *

وبهذا ينتهى الربع الخامس من سورة يوسف عليه السلام، وقد تضمن ما تضمن من دفاع إخوة يوسف عن أنفسهم حين رموا بالسرقة . ومن أخذ يوسف لأخيه بنيامين عقابا له على السرقة ، ومن فزع إخوة يوسف للأمر ولغضب يعقوب عليهم ،

ومن ذهابهم إلى أبيهم يخبرونه بالقصة ، ومن الأمل الذى ملك قلب يعقوب وروحه ، ومن طلبه من أبنائه أن يذهبوا إلى مصر ليتحسسوا أنباء يوسف وأخيه ، ومن دخولهم على يوسف وشكواهم إليه ، ومن تعريفه لهم بنفسه واعتذارهم أمامه ، وصفحه عنهم ، ومن ذهابهم بالبشرى إلى يعقوب ، وعودة بصر يعقوب إليه ، وعفوه عن أبنائه ، ومن ذهاب يعقوب وآله إلى مصر ، ودخولهم على يوسف ، وخضوعهم له سجدا ، وحمد يوسف لله على نعمه الجزيلة عليه .

الربع السادس من سورة يوسف

١٠١ — رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ .

فى هذه الآية الكريمة مزيد حمد لله عز وجل من يوسف عبد الله ونبيه وابن نبى الله يعقوب عليه السلام .. روى أن يوسف عليه السلام طاف بأبيه فى خزائنه ، ولما حضر يعقوب الموت وصى يوسف عليه السلام أن يحمله ويدفنه عند أبيه فمضى بنفسه فدفنه عند أبيه ثم عاد إلى مصر وأقام بعده ثلاثا وعشرين سنة ، يقول الله عز وجل فى هذه الآية الكريمة « رب قد آتيتنى » أى أعطيتنى « من الملك » أى بعضه وهو ملك مصر « وعلمتنى من » أى بعض « تأويل الأحاديث » بما بشرنى به أبى وأخبرت به أنت من التمكين والتعليم فى قولك « والله غالب على أمره » ، ثم ناداه بوصف جامع للعلم والحكمة فقال « فاطر » أى خالق « السموات والأرض » ثم أعلمه بما هو أعلم به منه من أنه لا يعول على غيره فى شىء من الأشياء « أنت ولى » أى الأقرب إلى باطنا وظاهرا « فى الدنيا والآخرة » أى لا ولى لى غيرك . روى أنه صلى الله عليه وسلم حكى عن جبريل عن رب العزة جل وعلا أنه قال : من شغله ذكرى عن مسألتى

أعطيته أفضل ما أعطى السائلين . فلهذا المعنى من أراد الدعاء لابد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله تعالى ، ويوسف عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض » ثم ذكر عقبه الدعاء وهو قوله « توفنى » أى بالموت حال كونى « مسلما » ولما كان المسلم حقيقة من كان غريقا فى الإخلاص أعقبه بقوله «وألحقنى بالصالحين» أى فى نعيمك وجنتك ورضائك ومثوبتك ، ونظيره ما فعله الخليل عليه السلام فى قوله « الذى خلقنى فهو يهدين » فمن هاهنا إلى قوله « رب هب لى حكما » ثناء على الله تعالى ثم من قوله « رب هب لى حكما » إلى آخر الكلام دعاء ، فكذلك ما هنا .

١٠٢ — ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ .

١٠٣ — وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ .

١٠٤ — وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ .

١٠٥ — وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ .

١٠٦ — وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ .

١٠٧ — أَفَأَمِنُوٓا أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

١٠٨ — قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ .

١٠٩ — وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ

الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

١١٠ — حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ .

١١١ — لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

فى هذه الآيات العشر الكريمة خطاب للرسول العظيم محمد صلى الله عليه وسلم ، وحديث إلى المشركين الكافرين برسالته ، وبيان للدعوة التى يدعوا إليها محمد صلوات الله عليه ، وبيان كذلك للعبرة من هذه القصص القرآنية العالية .

يقول الله عز وجل لنبيه الكريم : ذلك القصص هو من الأخبار البعيدة التى كانت تغيب عنك وعن قومك ، فأوحينا إليك نبأها ، وما كنت يا محمد تشهد هذه القصص ، وما كنت ترى إخوة يوسف وهم يمكرون به ويرمونه فى الجب ، فانظر كيف كان عاقبة أمره ؟ نصر ما بعده من نصر ، فلئن كان قومك يمكرون بك فلك النصر ، ولهم الخزى ، فلا تبال بهم ولا تحرص على إيمانهم فإن أكثر الناس ليسوا مهما حرصت على ذلك بمؤمنين .. وأنت يا محمد إذ تدعوهم إلى الله وإلى الإسلام لا تطلب منهم على ذلك جزاء ولا شكورا ، لا تطلب منهم الملك ولا المال ولا الجاه ولا السلطان ، إنما تبلغهم رسالة الله وكتابه الحكيم الذى هو ذكر وشرف للعالمين ، للإنسانية كلها ،

والذى هو كذلك عبرة وعظة للعالم جميعا ، إذ هو كتاب هذه الرسالة الإلهية العامة التى نزل بها جبريل على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .. إن المشركين كانوا جديرين بأن يؤمنوا ، وأمامهم العبر والعظات ماثلة للعيان. أمامهم الآيات فى الأرض والسماء يمرون عليها وهم عنها معرضون ، هل قد أمنوا عذاب الله ، هل قد أمنوا قيام الساعة بغتة ; قل لهم يا محمد هذه رسالتى وتلك دعوتى ، وهذه شريعتى ، إنى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى من المؤمنين ، وسبحان الله وما أنا من المشركين . إن رسل الله يا محمد إلى الناس من قبلك هم رجال مثلك من أهل المدن والقرى أوحينا إليهم برسالاتنا ، فليسير المشركون فى الأرض فلينظروا كيف كان عاقبة الأمم قبلهم التى كفرت برسالات الله ، وكيف نجى الله المؤمنين منهم ، ووعدهم الثواب والنعيم فى الآخرة . أفلا يعقل هؤلاء المشركون ؟ أفلا يتعظون ؟ أفلا يتدبرون ؟ إن الرسل دائما ـ كما بين الله تعالى فى الأعراف ويونس وهود ويوسف وسواها ـ كانوا يدأبون على دعوة أممهم إلى التوحيد وإلى الله ، حتى إذا كلوا وملوا واعتراهم اليأس فرأوا أن لا أمل ولا رجاء جاءهم نصر الله ، فنجى الله من يشاء برحمته من رسله ومن آمن بهم ، وأهلك المشركين والكافرين والجاحدين . إن فى قصص الرسل والأنبياء عبرة وعظة للعاقلين المتعظين المتدبرين ، وما كانت هذه القصص أحاديث مفتراة ، ولكن هى الحق ، وهى تصديق للكتب السماوية المنزلة من قبل ، وهى تفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

ولقد أصاب بعض الكتب الإلهية ما أصابها من التحريف والتبديل ، وحجبت أنوارها ومقاصدها عن العقول البشرية ، فمن رحمة الله بعباده أن لا يدعهم يتخبطون فى ديجور الضلالة ، ويتيهون فى أودية الجهالة ، بل يجدد لهم وحيه ، ويعيد على أسماعهم قوله ، بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بل يحفظه الله تعالى بحفظه « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» ، وقال تعالى : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » ، فالقرآن هو المعجزة

العظمى التي تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من قول البشر ، والدليل على ذلك أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتابة ، ولم يطالع الكتب ، ولم يذاكر العلماء ، أليس من البراهين القطعية على صدق نبوة محمد أنه كان أميا نشأ بين قوم أميين ، ثم أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء من الشئون الغيبية دون أن يتعلم من بشر ؟ ! بلى . وهو كما قال تعالى فى سورة هود بعد ذكر قصة نوح : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين » وقد سمع كفار قريش هذه الآية وسائر سورتها ولم يقل أحد منهم : بل كنا نعلمها .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة الرائعة البليغة : « ذلك » أى الذى ذكرته يا محمد من قصة يوسف عليه السلام وما جرى له مع إخوته ثم صار إلى الملك بعد الرق « من أنباء الغيب » أى من أخبار ماغاب عنك « نوحيه إليك » أى الذى أخبرناك به من اخبار وحى أوحيناه إليك والحال أنك « ماكنت لديهم » أى عند إخوة يوسف عليه السلام « إذ » أى حين « أجمعوا أمرهم » أى عزموا على أمر واحد وهو إلقاء يوسف فى الجب « وهم يمكرون » أى يدبرون الأذى فى الخفية بيوسف . والمعنى أن هذا النبأ غيب لأنه صلى الله عليه وسلم ماطالع الكتب ولا تتلمذ لأحد ولا كانت البلدة بلدة العلماء ، وإتيانه صلى الله عليه وسلم بهذه القصة الطويلة على وجه ليس فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم معجزة جليلة لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله تعالى : « وماكنت لديهم » ذكر على سبيل التهكم بهم لأن كل أحد يعلم أن محمدا ما كان معهم .

ولما سألت قريش واليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم — كما نقله أبو حيان عن ابن الأنبارى — عن قصة يوسف عليه السلام ، فنزلت بهذا البيان والإعجاز ، فأمل صلى الله عليه وسلم أن يكون ذلك سبب إسلامهم فخالفوا ما أمله — سلاه الله تعالى أعظم سلوى بقوله : « وما أكثر الناس » أى

أهل مكة « ولو حرصت » على إيمانهم بمؤمنين لعنادهم وتصميمهم على الكفر ، وكان ذلك إشارة إلى ماذكر الله تعالى فى قوله تعالى : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى يشاء » ثم نفى عنه التهمة بقوله تعالى : « وما تسألهم عليه » أى هذا الكتاب الذى أوحيناه إليك « من أجر » حتى يكون سؤالك له سبباً لأن يتهموك أو يقولوا : لو لا أنزل عليه كنز ليستغنى به عن سؤالنا « إن هو » أى هذا الكتاب وهو القرآن الكريم « إلا ذكر » أى عظة من الله تعالى « للعالمين » أى للبشر عامة « وكأين » أى وكم « من آية » دالة على وحدانية الله تعالى فى السماء والأرض « فى السموات » كالكواكب والنجوم والشمس والقمر وكالسحاب والمطر وغير ذلك مما لا يحصيه إلا الله تعالى « والأرض » من الجبال والشجر والدواب والمعادن وغير ذلك مما لا يحصيه إلا الله تعالى « يمرون عليها » أى يشاهدونها « وهم عنها معرضون » أى لا يتفكرون فيها ، ولا عجب فالعالم كله ركن فيه ، بل كل ذرة من ذراته تحتوى على دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ، ثم إن المشركين يمرون عليها ولا يلتفتون إليها « وما يؤمن أكثرهم بالله » حيث يقرون بأنه الخالق الرازق « إلا وهم مشركون » بعبادة الأصنام ، قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » لكنهم كانوا يثبتون له شريكا فى العبودية ، وعن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى تلبية مشركى العرب كانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك لا شريك إلا شريكا لك هو تملكه وما ملك ـ يعنون الأصنام ؛ وعنه أيضاً أن أهل مكة قالوا : الله ربنا وحده لا شريك له والملائكة بناته فلم يوحدوا بل أشركوا ، وقال عبدة الأصنام : ربنا الله وحده والأصنام شفعاؤنا عنده ؛ وقالت اليهود : ربنا الله وحده وعزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقال عبدة الشمس والقمر : الله ربنا وحده وهؤلاء أربابنا ؛ وقال المهاجرون والأنصار : الله وحده لا شريك له ؛ « أفأمنوا » إنكار فيه معنى التوبيخ والتهديد « أن تأتيهم » فى الدنيا « غاشية » أى نقمة تغشاهم وتشملهم « من عذاب الله » أى الذى له الأمر كله كما أصاب من ذكرنا قصصهم من الأمم « أو تأتيهم الساعة بغتة »

أى فجأة وهم عنها فى غاية الغفلة . وقوله تعالى : « وهم لا يشعرون » أى بوقت إتيانها قبل كالتأكيد بقوله « بغتة » ولما كان صلى الله عليه وسلم مبلغا عن الله تعالى أمره أن يأمرهم باتباعه بقوله تعالى : « قل » يا محمد « هذه » أى الدعوة إلى الله تعالى التى أدعو إليها « سبيلى » أى طريقتى التى أدعو إليها الناس وهى توحيد الله تعالى دين الإسلام ، وسمى الدين سبيلا لأنه الطريق المؤدى إلى ثواب الجنة « أدعو إلى الله » أى إلى توحيده والإيمان به « على بصيرة » أى حجة واضحة « أنا » تأكيد للضمير المستتر فى « أدعو » .. « ومن اتبعنى » أى من آمن بى وصدق بما جاءنى ـ عطف عليه ، ويصح أن يكون معنى « على بصيرة » أى على ثقة بما يقول : ويقين منه ؛ فإن لم يكن كذلك وإلا فهو محض الغرور ، وقال صلى الله عليه وسلم : العلماء أمناء الرسل على عباد الله ، من حيث يحفظون ما يدعون إليه « وسبحان » أى وقل سبحان « الله » تنزيها له تعالى عما يشركون به « وما أنا من المشركين » أى الذين اتخذوا مع الله شريكا أو ندا ، ولما قال أهل مكة للنبى صلى الله عليه وسلم : هلا بعث الله ملكا قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك » إلى المكلفين « إلا رجالا » أى مثل ما أنك رجل لا ملائكة ولا إناثا كما قاله ابن عباس « نوحى إليهم » بواسطة الملائكة مثل ما يوحى إليك « من أهل القرى » أى من أهل الأمصار والمدن المبنية بالمدر والحجر ونحوه لا من أهل البوادى ، لأن أهل الأمصار أكثر خبرة وثقافة من أهل البوادى ، ومكة أم القرى لأنها بجمع لجميع الناس لما أمروا به من حج البيت وكان العرب كلهم يأتونها فكيف يعجبون من أمرك ، قال الحسن : لم يبعث الله نبيا من البادية لغلظهم وجفائهم .. ثم هددهم سبحانه وتعالى بقوله تعالى : « أفلم يسيروا » أى هؤلاء المشركون المكذبون « فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » من المكذبين الرسل والآيات ، فيحذروا تكذيبك ويعتبروا بهم وبما حل بهم من عذابنا ، ولما كان من شأن الله تعالى أن ينجى المؤمنين عند نزول العذاب بالأمم الماضية التى كذبت رسلها ، وأن ما فى الآخرة خير لهم ، بين ذلك بقوله تعالى : « ولدار الآخرة »

أى ولدار الحال الآخرة والساعة أو الحياة الآخرة «خير» وهى الجنة «للذين يتقون» الله «أفلا يعقلون» فيستعملون عقولهم فيتبعون الداعى إلى هذه الرسالة «حتى إذا استيأس الرسل» أى لا يغرهم تمادى أممهم، فإن من قبلهم أمهلوا حتى أيس الرسل من النصر عليهم فى الدنيا ومن إيمانهم، لانهماكهم فى الكفر مترفين متمادين فيه من غير وازع «وظنوا» أى الرسل «أنهم قد كذبوا» بالتشديد كما قرأه غير حمزة وعاصم والكسائى ـ تكذيبا لا إيمان بعده، وإما بالتخفيف كما قرأه هؤلاء، فالمعنى أن الأمم ظنوا أن الرسل قد أخلفوا ما وعدوا به من النصر «جاءهم نصرنا» لهم بخذلان أعدائهم «فننجى من نشاء» أى النبى والمؤمنين، وقرىء «فنجى» بالبناء للمجهول، «ولا يرد بأسنا» أى عذابنا «عن القوم المجرمين» أى المشركين ما نزل بهم..

ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه القصص وحث على الاعتبار بها بقوله: «أفلم يسيروا» أتبعه بأن فى أحاديثهم عبرة فقال حثاً على تأملها والاستبصار بها: «لقد كان فى قصصهم» أى يوسف وإخوته أو فى قصص الرسل «عبرة» أى عظة عظيمة «لأولى الألباب» أى لذوى العقول المبرأة من شوائب الكدر يعتبرون بها إلى ما يسعدهم؛ لأن من قدر على نجاة يوسف من السجن قادر أن ينجى محمداً صلى الله عليه وسلم ويعلى كلمته وينصره على أعداء رسالته كائنا من كان كما فعل بيوسف وغيره، ولما كان من العبرة فى ذلك القطع بحقيقة القرآن وأنه من عند الله، نبه تعالى على ذلك بتقدير سؤال فقال: «ما كان حديثا يفترى» أى يختلف فى أمره لأن الذى جاء به من عند الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه أن يفتريه لأنه لم يقرأ الكتب ولم يتتلمذ لأحد ولم يخالط العلماء، فمن المحال أن يفترى هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما رواه فى التوراة من غير تفاوت كما يعلم من قوله تعالى «ولكن تصديق الذى بين يديه» أى من الكتب الإلهية المنزلة من السماء كالتوراة والإنجيل، ففى ذلك إشارة إلى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما فى التوراة من

ذكر قصة يوسف عليه السلام « وتفصيل » أى تبيين « كل شىء » أى ما يحتاج إليه من الدين ، إذ ما من أمر دينى أو دنيوى إلا وله سند من القرآن بواسطة أو بغير واسطة ، بل ما من أمر يتعلق ببناء الأمم ونهضتها وقوتها إلا وقد رسم القرآن الكريم منهجه ، وقيل : المراد تفصيل كل شىء من واقعة يوسف وأبيه وإخوته ، قال الواحدى : وعلى التفسيرين جميعا فهو من العام الذى أريد به الخاص كقوله تعالى : « ورحمتى وسعت كل شىء » . « وهدى » من الضلال « ورحمة » ينال بها خير الدارين « لقوم يؤمنون » أى يصدقون ، وخصهم بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا به كقوله تعالى « هدى للمتقين » .

نظرة عامة فى سورة يوسف

(١)

هذه السورة الكريمة المكية التي اشتملت فى مطلعها وفى آخرها على تمجيد القرآن الكريم والتنويه به ، واشتملت فى نهايتها على تعظيم رسالة محمد والدعوة إلى اتباعه ، وتوبيخ المشركين على عنادهم وكفرهم ، والدعوة إلى الاعتبار بقصص الماضين من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين .

هذه السورة هى مثل رائع بليغ لعظمة القرآن وبلاغته ، وأسلوبه المعجز ، وهى كذلك درة نادرة من الأدب القصصى ، إذ ليس لها نظير ولا شبيه فى بلاغتها وروعتها . . وفن القصة لم تكن العرب تعرفه من قبل ، فوضع القرآن الكريم أصول هذا الفن بمثل هذه السورة الرائعة البليغة من سور القرآن الكريم .

(٢)

وتحتوى قصة يوسف على كثير من العظات والعبر والنصائح الموجهة الحكيمة :

١ — فهى ترشد إلى ما يحدثه تعدد الزوجات فى الأسر من شقاق وخلاف ، ومن تنشئة للأبناء على الحسد والبغضاء .

٢ — وترشد إلى الأضرار التى يحدثها تفضيل الأب لأحد أبنائه على الأبناء الآخرين .

٣ — وهى ترشد إلى الصبر وفضله وأهميته فى بناء الشخصيات والرجال .

٤ — وهى ترشد إلى فضيلتى العفة والأمانة وأهميتها فى حياة الفرد والمجتمع والأمة .

٥ — وهى كذلك ترشد إلى أضرار جريمة الزنا ، وإلى وجوب البعد عنها ، وإلى أن الأصلاب الطاهرة لا يمكن أن تقبل أن يلوث شرفها وطهارتها ؛ وهى كذلك تدل على مدى غضب الله من جرائم الزنا ، وشدة بغضه للزانين .

٦ — والسورة كذلك تدل على ما يجب أن يكون عليه الراعى لشئون الأمة من وجوب الحرص عليها وعلى مصلحتها ، ومن بعد النظر فى رسم سياستها ، ومن التفكير فى حاجاتها ومطالبها الحاضرة والمقبلة .

٧ — والسورة كذلك تدل على فضيلة الحكمة التى يجب أن يتحلى بها عظماء الرجال ، بله الأفراد العاديون .

٨ — وترشد السورة كذلك إلى وجوب شكر الله وحمده على كل نعمة ينعم الله بها على الإنسان ، فبالشكر والحمد تدوم النعم ولا تزول .

٩ — وتدل السورة كذلك على وجوب العطف على الأقارب وأولى الرحم ، وخاصة فى المحن والشدائد ، مهما كان بين الإنسان وبينهم من عداوات وخصومات . . كما تدل على وجوب العفو عن سيئاتهم ، والغفران لذنوبهم ، والتغاضى عن هفواتهم .

١٠ — والسورة كذلك تدل على أن الله دائما مع المؤمنين به ، والمدافعين عن شرائعه ، وأنه يذكرهم دائما فى الشدائد ، وينصرهم فى الخطوب ، وعلى أنه ينجيهم من المحن ، ويرفع قدرهم ومنزلتهم ولا يتركهم ولا يتخلى عنهم أبدا .

١١ — وترشد السورة مع ذلك إلى قدرة الله القادرة ، وعظمته فوق عباده ، وأنه العليم بالسر وما أخفى ، وأن بيده مفاتيح الأرزاق ، وأنه المدبر للأمور ، وأن كل من فى السموات والأرض هم عباه وخلقه .

(٣)

وسورة يوسف نغمة واحدة متصلة ، ولحن جميل عذب رائع ، وهى بانسجام قصصها ، ووحدة موضوعها ، وعظمة أسلوبها ، وسحر تعبيرها ؛ ترشد إلى أن هذا القرآن الكريم معجز ، وإلى أنه منزل من الله ، وإلى أنه الدليل وأعظم الدليل على رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .. وعلى آله وصحبه أجمعين . . ؟

خاتمة هذا الجزء

(١)

هذه هى نهاية الجزء الثانى عشر من تفسيرنا للقرآن الكريم ، وقد اشتمل على تفسير سورتى هود ويوسف عليهما السلام ، وعلى وجوه العبر والعظات فى السورتين .

وهذا الجزء كالأجزاء السابقة دليل على أهمية هذا التفسير ، وضرورة ظهوره فى العصر الحاضر . لأنه يفسر المعجزة الخالدة « القرآن الكريم » تفسيراً جديداً يتفق مع القرن العشرين وعقليته التى تعيش فى عصر الذرة والصواريخ والفضاء الكونى .

إن القرآن الكريم دستور إلهى خالد ، نزل من السماء على خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وقد تضمن من نواميس الاجتماع وشرائع الحياة ، وأصول العقائد ، وأركان الحضارة ، مالم يتضمنه كتاب آخر ، وفيه تفسير لكثير مما غمض علينا فهمه من أسرار الكون والوجود ، ومن الدعائم التى تحفظ للأمم قوتها ومجدها إذا حافظت عليها ، وعملت بها ، ومن كل مايعود على الإنسان والإنسانية بالخير العميم ، والتوفيق الشامل . إنه كتاب الإنسانية عامة ، قبل أن يكون كتاب المسلمين وحدهم ، وهو جدير بالتأمل والاعتبار والفهم والتدبر . وأحكامه وآدابه وعظاته ماهى إلا سور منيع يحمى الفرد والمجتمع والشعوب من الانهيار ، ومن الضلال فى مهامه العيش ، وبيداء الحياة ، وتيه الحيرة ، وجحيم الذل والهوان . وإننا ننادى بأن لا أمل فى أن يسود السلام العالم ، وأن تطمئن الشعوب إلى مصائرها وحياتها ، إلا بالعمل بالقرآن الكريم ، وبما تضمنه من كل عظيم من التشريع ، وبليغ من القول .

إن عظمة القرآن وإعجازه وجلاله . لتبدو واضحة كل الوضوح فى سبقه

إلى الكثير من المعارف الإنسانية التى لم يصل العلم إليها إلا بعد قرون وأجيال من نزول القرآن الكريم ، وفى أنه وضع أصول التفكير الصحيح ، ونشر الوعى العلمى ، وبث روح الحضارة فى عقول المؤمنين به والموقنين برسالة نبى الإسلام ، محمد عليه الصلاة والسلام ، وتظهر كذلك فى أنه مهد لعصر المدنية تمهيداً قويا جبارا ، بما اشتمل عليه من تشريعات تعد قمة سامقة فى التشريع المساير لروح التقدم والحضارة والمدنية المهذبة الخالية من بذور الحقد والكراهية والتعصب والجمود والرجعية . وإن القرآن الكريم ليروعنا بإعجازه العقلى أكثر مما يروعنا بإعجازه البيانى ، ونحن عندما نتأمل فى آيات كتاب الله تأملا عميقا نعجب أشد العجب لهذه العظمة الكاملة التى وصل إليها القرآن ، بما اشتمل عليه من تصوير دقيق لخطرات النفوس ، ونوازع الأفئدة ولنفسيات الطبقات والطوائف والجماعات والأفراد ، وبما ضمنه من روائع الأصول لبناء حضارة إنسانية مثالية كريمة على نفسها وعلى الناس ، وبما احتواه من تفصيل لماضى الحياة وحاضرها ومستقبلها . فالإنسان ليس وحده على ظهر الأرض ، بل معه عون الله ورعايته ، ومعه ماض طويل من الكفاح والجهاد من أجل مستقبل البشر وخيرهم وسعادتهم ، ومعه الطموح الإنسانى لبلوغ مستقبل عظيم ، ترنو إليه نفوس الأخيار الأبرار الأحرار فى هذه الحياة وبعد هذه الحياة .

ونحن هنا فى ختام هذا الجزء ننادى بأعلى صوتنا أن المسلمين يجب عليهم أن يتدبروا فى حاضرهم ومستقبلهم كتاب الله حق التدبر ، وأن يفهموه حق الفهم ، وأن يجعلوه قاموسهم ودستورهم الذى به يعيشون ، وإلى أصوله يرجعون ، وعلى آرائه فى جميع مشكلاتهم يعتمدون .

(٢)

وهذا التفسير الجديد للقرآن الكريم ، يحتوى على جميع العناصر التى اشتمل عليها هذا الكتاب المعجز العظيم ، وشتى الأصول الفكرية والروحية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، التى يقوم عليها بناء الدول ، وهو تفسير جديد النزعة والاتجاه ، وقد جرى المفسرون المعاصرون على التفاهة فيما

يقدمون من شرح وتحليل ، وعلى تنقص جهود علمائنا الأقدمين فى تفسير كتاب الله ، هذه الجهود الرائعة التى هى ثمرة كفاح طويل وتعب متصل ، ونصب ما بعده من نصب . ونحن هنا وإن كنا نقتبس من شعاعهم ونستنير بضوئهم ، لكننا نتجه بعد ذلك اتجاها جديداً هو تحليل القرآن الكريم معجزة الله الخالدة تحليلا كاملا يتضمن شرح توجيهه الرفيع للكون والحياة وللإنسانية عامة ، وللمسلمين خاصة ، إنه نهج مستقل فى تفسير كتاب الله لم نسبق إلى مثله . إذ توخينا فيه عرض أصول القرآن العامة وشرحها ، وخاصة مايتصل بحياة الأمم ونهضتها وأسباب قوتها وازدهارها ، وتوخينا فيه كذلك عرض نظريات القرآن الكريم بأسلوب البحث العلمى فى القرن العشرين .

(٣)

وإن ظهور هذا التفسير لهو معجزة كبيرة ، ورعاية جليلة من الله ؛ وكان البدء فى تأليفه استجابة لنداء خفى ، وتلبية لباعث إلهى . . وسرت فى طبعه بمدد من الله ، وفيض كريم من جنابه . . وعلى الرغم من العوائق والحوائل والصوارف والموانع ، كان الله معى فى كل لحظة ، وكان تأييده الكريم يتخطى بى الحواجز والعقبات ، وكان عونه العظيم يؤيد خطاى ، ويوفق مسعاى ، ويثبت قدماى ، والمأمول بعون الله أن تتم هذه الموسوعة الإسلامية بعنايته كما أتمنى وأرجو من الله .. وليس صدور مثل هذا التفسير بالأمر الهين اليسير ، فكتابته تأخذ جهداً كبيراً ، وتقتضى عملا كثيرا ، ونشره كذلك يتطلب مالا وفيرا ، وليست كل هذه الأعباء مما يسهل تذليلها ، إلا بعون الله ورعايته ..

ولا غنى لنا فى نهاية هذا الجزء من أن نقول : إن المتاعب المادية الضخمة التى تحيط بنشر هذا التفسير وطبعه لاأمل لإنسان مثلى فى التغلب عليها إلا بفضل الله وعونه ، فهو وحده القادر على كل شىء ، والقادر على أن يمكن لنا من نشر هذا التفسير إلى نهاية جزئه الثلاثين . . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

فهرست

الجزء الثانى عشر من تفسير القرآن الكريم

للمؤلف

قصـــة الأدب في مصر ـ ٥ أجزاء

« « المعاصر ـ ٤ «

ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ـ طبعة ثانية ٨٠٠ صفحة

الحياة الأدبيـة في العصر الجاهلي ـ طبعة ثانية ٥١٠ «

الشعر والتجديد

مواكب الحرية في مصر الإسلامية

في ظلال الإسلام ـ بالاشتراك

التراث الروحي للتصوف الإسلامي في مصر

تفسير القرآن الحكيم ـ ٣٠ جزءاً

بين الشيوعية والإسلام

محمد عبد المنعم خفاجي



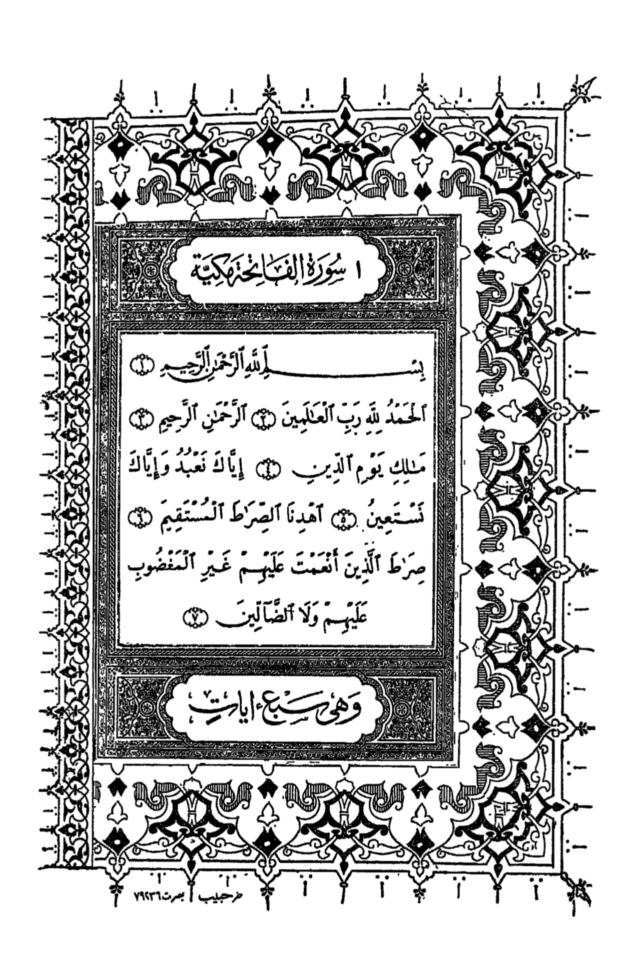
أحدث التفاسير ، وأجمعها للفكرة الإسلامية ،
ولفهم العصر الحاضر لكتاب الله

(١٣)

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح ـ ت : ٥٠٨٥٢



١ سُورَةُ الفَاتِحَةِ مَكِّيَّة
بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾
مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ
عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾
وَهِيَ سَبۡعُ آيَاتٍ

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد خاتم المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أجمعين . . وبعد :

فهذا هو الجزء الثالث عشر ، من تفسيرى لكتاب الله ، الذى ضمنته شرحا جديداً للقرآن ، وأسلوبا طريفا فى فهمه وتذوقه ، وإدراك مراميه ، وتمثل معانيه ، والكشف عن حقائقه وأصوله .

والقارىء يدرك مدى ما يأخذه كتابة هذا التفسير ونشره : من جهد مبذول ، وعمل موصول ؛ وهو وحده حرى بأن يقف على ميزات هذا التفسير ، الذى يجعل القرآن الكريم وكل سورة منه وحدة واحدة ، متصلة الحلقات ، مباركة الهداية .

وسوف يصدر هذا التفسير بعون الله ورعايته فى ثلاثين جزءاً ، أرجو أن تظهر فى أمد قريب .

ومن الله التوفيق ، وأسأله العون والسداد ، إنه أكرم مأمول ، وأفضل مسئول ، وما توفيق إلا بالله ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

ميزات هذا التفسير

لهذا التفسير ميزات كثيرة، يكفي هنا أن أشير إلى بعضها :

فأولى ميزاته أنه يربط الفكرة بالفكرة ، والمعنى بالمعنى ، والغرض بالغرض ، والموضوع بالموضوع ، دون تجزيء لمعانى القرآن الكريم ، أو تفكيك لوحدته . . . ونحن لا نتناول فيه تفسير كتاب الله آية فآية ، وإنما نتناوله موضوعا فموضوعا ، مع تحديد لأغراض القرآن الكريم ، وإظهار لوحدة السور القرآنية ، ولأفكارها ومعانيها المتصلة المتلاحمة . .

وثانى ميزاته أن أسلوبه عصرى يستطيع كل إنسان من كل طبقة أن يفهمه ، وأن يلم بمعانى القرآن الكريم ، دون غموض أو تعقيد أو التواء ؛ ومن ثم فقد حذفنا من هذا التفسير كل الاصطلاحات ، ليكون أقرب إلى الفهم ، وأسهل على القارىء . . .

وثالث ميزاته أنه كتب ليكون مجاريا للثقافات الحديثة ، ومتمشيا مع مناهجها ، دون بعد عنها ، أو مخاصمة لها ، ومن ثم فقد عرضنا لكثير من الأفكار التاريخية والاجتماعية والفكرية والروحية ، أثناء عرضنا لهذا التفسير ، نشرح بها كتاب الله ، ونؤيد بها معجزته الجليلة الباهرة . . .

ورابع ميزاته أنه موسوعة إسلامية كبرى تحتوى على كثير من الثقافات الإسلامية القديمة والحديثة ، وتحتوى على شرح جديد لكتاب الله ، وتنتظم كثيرا من وجوه الدفاع عن دين الله وكتابه الحكيم .

وخامس ميزاته أنه كتب وفق منهج علمى مرسوم ، يبدو فى أجزاء هذا التفسير واضحا جليا ، ويستطيع القارىء أن يتبينه بسهولة ، كما يستطيع أن يكشف عن أصول هذا المنهج الذى سرنا عليه دون عناء أو صعوبة .

وسادس ميزاته عرضه لجميع الآراء والمذاهب والأفكار ومناقشتها والموازنة بينها ، فى كل موضوع ، وكل مناسبة .

وسابع ميزاته تحقيقه للمعجزات الإلهية التى ظهرت على أيدى الرسل والنبيين تحقيقا علميا واضحا قريبا إلى العقل والمنطق ، وإلى الذوق والقلب أيضا .

وثامن ميزات هذا التفسير ما احتوى عليه من دراسات لسور القرآن الكريم ، وبيان لمراميها ، وتحديد لأفكارها ومعانيها وموضوعاتها . . إلى ما احتوى عليه من تبيين للأصول العامة ، التى اشتمل عليها كل ربع من سور القرآن الحكيم . .

وتاسع ميزاته العناية بالتحقيق التاريخى وبالنقد العلمى ـ فى هذا التفسير ـ عناية كبيرة . .

وعاشر ميزاته ما اشتمل عليه من دراسات جديدة عن القرآن الكريم ومعجزته الخالدة ، مما صدر به الجزء الأول من تفسيرنا ومما جاء فى أثناء باقى أجزائه .

والحادى عشر من ميزات هذا التفسير ، إلمامه بكل ما كتب المفسرون القدامى والمعاصرون ، وبكل مادونوه فى تفاسيرهم . .

والثانى عشر من ميزات هذا التفسير ، هو ما انفردنا به نحن انفرادا واضحا من تقسيم جديد لآيات القرآن الكريم ، بحسب المعانى والأفكار والموضوعات والأغراض التى اشتملت عليها . .

إلى غير ذلك من ميزات هذا التفسير ، مما لم نذكره ، ومما ندعه إلى رأى القارىء المنصف الكريم .

(١٣)

سورة الرعد

تمهيد

سورة الرعد مدنية ، وهى ٤٣ آية ، وقد نزلت بعد سورة محمد .. وسورة محمد نزلت بعد الحديد ، ونزلت الحديد بعد سورة الزلزلة ، ونزلت الزلزلة بعد النساء ؛ وسورة النساء نزلت فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك . . فتكون سورة الرعد قد نزلت بعد ذلك التاريخ بقليل . . وعلى ذلك فتكون السورة قد نزلت بالمدينة ، وهذا على ما رجحه العلماء .

وقيل ، وهو ما أرجحه : إنها نزلت بمكة ، لأنها تجرى مجرى السور التى نزلت بها . . وقال الأصم : هى مدنية بالإجماع ، فلم يعتد برأى من قال إنها مكية . . ولا ضير فى أن تجرى بعض السور المدنية فى أغراضها مجرى السور المكية . . وقد سميت السورة باسم عجيب غريب هو الرعد ، لقوله تعالى : « ويسبح الرعد بحمده » . .

والذين يذهبون إلى أنها مكية يقولون : إلا آية واحدة من آياتها ، هى : « ويقول الذين كفروا لست مرسلا » .

والسورة تبتدىء بتمجيد القرآن الكريم والتنويه به ، وبيان قدرة الله الذى أنزله ، شأن السور التى بدأت بتعظيم القرآن ومعجزته الكبرى الخالدة . . ومطلع السورة كذلك هو من فواتح السور التى تحدثنا فيما سبق عن معناها ومغزاها ، وأشهر الآراء فيها ...

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة الرعد

١ — الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

٢ — ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ .

٣ — وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

٤ — وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

ليست هذه الآيات الأربع ربعاً على الحقيقة ، إنما هي تكملة للربع السابق في آخر سورة يوسف عليه السلام « رب قد آتيتني من الملك » ، وهذه الآيات الأربع فيها تعظيم لأمر القرآن الكريم ، وتأكيد لصحته ، وبيان لأن الله العلي العظيم قادر على أن ينزله ، وشرح لمظاهر قدرة الله في السماء والأرض ..

يقول الله تعالى فى هذه الآيات الأربع الكريمة : «المر» ، وهذا من مطالع سور القرآن الكريم ؛ وقد تحدثنا عنها وعن الوجوه فيها ، وعن رأينا الذى نذهب إليه بإفاضة . . ولا بأس أن نذكر بعض آراء العلماء فيها ، قال ابن عباس : « المر » معناها أنا الله أعلم وأرى ، وقال عطاء : معناها أنا الله الملك الرحمن . « تلك » أى هذه الآيات « آيات الكتاب » أى القرآن وقيل: المراد بالكتاب السورة الكاملة؛ ووصفت بالكمال، المستفاد من تعريف الكتاب بأل ، لأن خبر المبتدأ إذا عرف بلام الجنس أفاد المبالغة . « والذى أنزل إليك من ربك » أى القرآن هو « الحق » أى الموضوع كل شىء منه فى موضعه على ما تدعو إليه الحكمة ، الواضح الذى لا يتخلف شىء منه عن مطابقة الواقع من بعث ولا غيره . . « ولكن أكثر الناس » أى مشركى مكة «لا يؤمنون» لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه ، قال مقاتل : نزلت فى مشركى مكة حين قالوا : إن محمدا يقول القرآن من تلقاء نفسه ، فرد الله تعالى عليهم بذلك ، ولما ذكر تعالى أن أكثر الناس لا يؤمنون ذكر عقبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد بأمور :

أحدها قوله تعالى « الله الذى رفع السموات بغير عمد » جمع عمود أو عماد « ترونها » أى وأنتم ترون السماء مرفوعة بغير عمد من تحتها يسندها، ولا من فوقها علاقة تمسكها ، فالعمد منفية بالكلية ، ففى ذلك دلالة عظيمة على وحدانيته تعالى ، فهذا برهان باهر على وجود الإله القادر القاهر ، وقيل : الضمير راجع إلى العمد أى أن لها عمداً ولكن لا ترونها أنتم . وهذه العمد مثل قانون الجاذبية .

وثانيها قوله تعالى « ثم استوى على العرش » أى بالحفظ والتدبير والقهر والقدرة ، أى ما فوق العرش وما تحت الثرى فى حفظه وتدبيره وفى الإحتياج إليه سواء .

وثالثها قوله تعالى « وسخر » أى ذلل « الشمس والقمر » لمنافع خلقه يجريان على ما يريد « كل » منهما « يجرى » فى فلكه « لأجل مسمى » أى إلى وقت معلوم وهو وقت فناء الدنيا وزوالها، وعند مجىء ذلك الوقت تنقطع هذه

الحركات كما وصف الله تعالى فى قوله « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت » ، و « إذا السماء انشقت » ، و « إذا السماء انفطرت » .

ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال « يدبر الأمر » أى يقضى أمر ملكه من الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والإغناء والإفقار ؛ ويدخل فيه إنزال الوحى وبعثة الرسل وتكليف العباد ، وفى ذلك دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة ؛ « يفصل » أي يبين « الآيات » التى برزت إلى الوجود الدالة على وحدانيته وكمال حكمته .. ولما كان هذا التدبير وهذا التفصيل دالا على تمام القدرة وغاية الحكمة وكان البعث لفصل القضاء والحكم بالعدل وإظهار العظمة هو محط الحكمة علل ذلك بقوله « لعلكم » يا أهل مكة « بلقاء ربكم » أى بالبعث « توقنون » فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها على عظمها وكثرتها قادر على إيجاد الإنسان وإحيائه بعد موته ، يروى أن شخصا قال لعلى بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه : كيف يحاسب الله تعالى الخلق دفعة واحدة ؟ فقال : كما يرزقهم الآن دفعة واحدة ، وكما يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة ..

ولما ذكر تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته من رفع السماء بغير عمد وأحوال الشمس والقمر، أردفها بذكر الدلائل الأرضية بقوله تعالى: « وهو الذى مد الأرض » أى بسطها طولا وعرضا . . وهذا هو الدليل الأول من دلائل خلق الله فى الأرض على قدرة الله . . الثانى منها قوله تعالى « وجعل » أى وخلق « فيها » أى الأرض « رواسى » أى جبالا ثوابت واحدها راسية أى ثابتة ، وهذا لا بد وأن يكون بخلق القادر الحكيم . . الثالث منها قوله تعالى : « وأنهاراً » أى وجعل فى الأرض أنهارا جارية لمنافع الخلق ، والنهر : المجرى الواسع من مجارى الماء .. والرابع منها قوله تعالى « ومن كل الثمرات » وهو متعلق بقوله تعالى « جعل فيها » أى الأرض « زوجين اثنين » أي وجعل فيها من جميع أنواع الثمار صنفين اثنين ، والاختلاف إما من

حيث الطعم كالحلو والحامض ، أو اللون كالأسود والأبيض ، أو الحجم كالصغير والكبير ، أو الطبيعة كالحار والبارد . فإن قيل : الزوجان لابد وأن يكونا اثنين فما الفائدة فى «اثنين» ؟ أجيب بأنه قيل: أول ماخلق الله العالم وخلق فيه الأشجار ، خلق من كل نوع من الأنواع اثنين فقط ، فلو قال : خلق زوجين لم يعلم أن المراد النوع أو الشخص ، فلما قال «اثنين» علم أنه تعالى خلق أول ماخلق من كل زوجين اثنين بالشخص ، آدم وحواء ، فكذا القول فى جميع الأشجار والزروع . . الخامس منها قوله تعالى «يغشى» أى يغطى « الليل » بظلمته «النهار» أى والنهار الليل بضوئه على ما قدره الله تعالى فى السير من الزيادة والنقصان ، وذلك من الحكم النافعة فى الدين والدنيا ، الظاهرة لكل ذى عقل أنها تدبيره بفعله واختياره وقهره واقتداره .

ولما ذكر تعالى هذه الدلائل النيرة والقواطع القاهرة جمعها بالتفكر فقال تعالى : « إن فى ذلك » أى الذى وقع التحدث عنه من الآيات « لآيات » أى دلالات « لقوم يتفكرون » أى يجتهدون فى التفكر ، فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب . والتفكر والتدبر : تصرف القلب فى طلب معانى الأشياء .

ثم إنه تعالى ذكر دليلا ظاهراً جداً بقوله تعالى : « وفى الأرض » أى التى أنتم سكانها تشاهدون ما فيها مشاهدة لا تقبل الشك « قطع » أى بقاع مختلفة « متجاورات » أى متقاربات بعضها من بعض ، واحدة طيبة وأخرى سبخة لا تنبت ، وأخرى صالحة للزرع لا للشجر ، وأخرى بالعكس ، وأخرى قليلة الريع ، وأخرى كثيرته ، وهو من دلائل قدرته تعالى « وجنات » أى بساتين فيها أنواع الأشجار من نخيل وأعناب وغير ذلك ، كما قال تعالى : « من أعناب وزرع ونخيل صنوان » جمع صنو وهى النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى عمه العباس : عم الرجل صنو أبيه ، يعنى أنهما من أصل واحد « وغير صنوان » أى متفرقات مختلفة الأصول ، وسمى البستان جنة لأنه يستتر بأشجاره الأرض . . « تسق » قراءة ابن

عامر وعاصم بالياء على التذكير — أى المذكور ، وقراءة الباقين بالتاء على التأنيث أى الجنات وما فيها « بماء واحد » فتخرج أغصانها وثمراتها فى وقت معلوم لا يتأخر عنه ولا يتقدم « ونفضل بعضها على بعض فى الأكل » أى فى الطعم ما بين حلو وحامض وغير ذلك ، وفى الشكل والرائحة والمنفعة وغير ذلك ، وذلك مما يدل على القادر الحكيم فإن اختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب لايكون إلا بتخصيص قادر مختار ، قال مجاهد : وذلك كمثل بنى آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد ، وقال الحسن : هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بنى آدم فتخرج هذه زهرتها وشجرها ونباتها ، وتخرج هذه سبخها وملحها وخبثها وكل يسقى بماء واحد ، وكذلك الناس خلقوا من آدم ، فينزل عليهم من السماء الكتب والرسالات ، فترق قلوب قوم فتخشع وتخضع ، وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع ، وقال الحسن : والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان ، قال تعالى « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » . « إن فى ذلك » أى الأمر العظيم الذى ذكرناه «لآيات» أى دلالات « لقوم يتفكرون » أى يستعملون عقولهم بالتدبر والتفكر فى الآيات الدالة على معرفة المبدأ والمعاد .

* * *

وهذه الآيات لها شأن عجيب ، فى الاستدلال على عظمة الله وقدرته وجلاله وألوهيته ، ليثبت من وراء ذلك أن الله قادر على أن ينزل القرآن على رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وليثبت كذلك أن القرآن حق ، وأن رسالة محمد صدق ، وأن البشر جميعا مطالبون بالإيمان بهذه الرسالة . .

وفى الآية الأولى من هذه الآيات كما رأينا تعظيم لشأن القرآن الكريم ، وبيان لكونه حقاً وصدقاً ، وذكر لشرك المشركين وعدم إيمانهم . . . وفى الثانية بيان لعظمة الله وقدرته . الله رافع السموات بغير عمد . ومالك الملك ورب العرش ، ومسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى . . . الله

مدبر الأمر كله . . والذى يفصل الآيات ليهتدى بها المشركون ، ويؤمن بها الجاحدون ، ويتعظ بها الجاهلون .

ففى الآية الثانية ذكر الله عز وجل الدلائل فى العالم العلوى فى قوله عز من قائل : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » وقد انطوت هذه الآية على ما انطوت عليه من الدلائل الساطعة والبراهين القاطعة ، التى تملأ النفوس يقينا ، والقلوب إيمانا ، بعظم قدرة موجدها ، وباهر حكمة مبدعها ، وأنه على أن يعيد ما بدأ أقدر ، وعلى أن يتصرف فيكم بالجزاء على عملكم أجدر ، كما نشاهد ذلك فى ختمها بقوله تعالى : « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » . فهى تغرس فى النفس اليقين بعظيم قدرته فلا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وجليل حكمته فلا يترك الأمر فوضى بينهم : يأكل قويهم ضعيفهم ، ويخرج العبد على الحدود المحدودة له بدون أن يلقى على ذلك جزاءه .

أما الآية الثالثة ، وهى قوله تعالى : «وهو الذى مد الأرض» ، فهى لبيان الدلائل التى اشتمل عليها العالم السفلى ، أى عالمنا هذا الأرضى : ينبهنا على ما حوى من آثار القدرة الباهرة مما عسى أن نمر عليه غافلين فلا نتفكر فيه ، لطول مشاهدتنا له وتكرر وقوع الأنظار عليه . وقد جرت العادة بأن تعنى النفوس بما يفاجئها فتتأمل فيه أكثر من تأملها لما كثرت ملابستها له . يشهد بذلك ما تراه من هلع النفوس وشدة تيقظها عند حصول الحوادث النادرة كالخسوف والكسوف ولو جزئيين ، وغفلتها عما هو أعظم منهما أثرا وأكبر مظهرا مما يحصل دائما متكررا كسلطان الليل والنهار ، وما ذاك إلا لأن كثرة التكرار تهون من أمر التيقظ والانتباه ، ولا كذلك مفاجأة الأمر النادر الوقوع . والحكمة فى تقديم الدلائل العلوية أنها أول ما تتجه إليها النفوس بالتأمل غالبا ، بما يسطع من ضوئها ، وما يتجلى من سناها وسنائها ، فإن مظاهر العظمة متجلية فيها أيما تجل ، والاعتراف بالقدرة لمبدعها لا تتعاصى عنه نفس مهما ملكها العناد والمكابرة ،

والمح إن شئت قوله تعالى : « أأنتم أشد خلقا أم السماء » ؟ وختمها بقوله عز وجل : « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » لأن إنكارهم للبعث أو ارتيابهم فيه كان مبنيا على استصعاب إعادة ما فنى وجمع ما بعثر وتفرق ، فكأنه يقول لهم : أى الأمرين أهون : الإيجاد من بعد العدم ، أم الإعادة بعد سبق الإيجاد ؟ وأى المخلوقين أشد استنادا إلى عظيم القدرة « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها » ؟ ثم إن كل هذا باعتبار ما يبدو لعقل العباد ، وإلا فالكل بالقياس إلى قدرته جل شأنه فى السهولة واليسر على حد سواء ، فلا يتعاصى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ورفع السموات معناه أوجدها مرفوعة ، لا أنها كانت مخفوضة ورفعها ؛ وكذلك القول فى قوله تعالى : « وهو الذى مد الأرض » معناه أوجدها ممدودة مبسوطة متسعة الأكناف مترامية الأطراف . وهذا فى باب الامتنان يرشد إلى ما فيها من سعة وبسط ، وذلك هو ما يخص المنتفع فى انتفاعه . وقد دعا الله سبحانه وتعالى العقلاء إلى البحث والتفكير فى ملكوت السموات والأرض ، وجعل لهم من إيتاء المنافع جاذبا ، ومن شهوات العقول سائقا يستحثهم على الدأب فى التفكير حتى يصلوا إلى ما تسعه عقولهم من أسرار هذا الكون وخفاياه ، سواء فى ذلك الأرضية والسماوية ، وسواء فى ذلك ما يحدث بالتجارب العملية ، وما هو ثابت لا يتغير من أشكال أرضية أو أوضاع فلكية ..وقوله تعالى: «وهو الذى مد الأرض» أى وسع أرجاءها ، وسلك لكم فيها سبلا ، وبث لكم فيها منافع ، وكل ذلك دال على عظمة مبدعها الحكيم ، جل شأنه ، وتعالى جده ، ولا إله غيره . وهذا المعنى لا ينافى أن شكلها العام كروى حيث أثبته دليل المشاهدة أو غيره ، أو حيث يلمح من قوله تعالى : « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » إذ يظهر منه أن التفاف كل منهما على الآخر وإخفاءه تحته يشبه لف كور العمامة على كور آخر منها ، وهو قريب فى الأجسام الكروية المستديرة . وأيا ما كان فليس المقصود هنا بيان الشكل ، وإنما المقصود بيان عظمة ما أبدعه بقدرته ، لنأخذ منه قدرته على تحقيق البعث الذى أنكروه ، وهو أهون عليه . أما خلق الرواسى أى الجبال

والأنهار فى الأرض . فلما فى خلق الجبال من فائدة شرحها الله عز وجل فى آية أخرى : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » . وهذا يعطى شيئا من فائدة الجبال ، وهو منع الأرض من أن تميد . وعللوا ذلك بأن الأرض قابلة للاضطراب والهزات الأرضية مما يجعل الإقامة على ظهرها مقلقة غير مريحة ، فجعلت الجبال فيها لإرساتها ومنعها أن تميد بما حوت من ثقل ، وبما ركزت فى محال ـ الله أعلم بحكمتها .

وربما يقال : ولم جعلت الأرض بأصل خلقتها مستعدة لأن تميد ثم ثبتت بالجبال ، ولم لم تجعل من أول أمرها ثابتة بلا حاجة إلى الجبال ؟ وهذا مدفوع بأن حكمة المبدع الحكيم اقتضت أن يرتبط أجزاء العالم بعضها ببعض بالنسبب والاستناد ، حتى كأنه كتلة واحدة أو جسم يحتاج بعضه إلى بعض ، زيادة فى كمال الترابط . ألا ترى أنه كان يمكن أن يخلق الإنسان جسما كاملا لا يحتاج إلى غذاء ولا إلى دواء ولا كساء ولا غطاء ، ولكنه خلقه بحاجة إلى ذلك كله ليتم ارتباطه بالكون الذى هو جزء منه ، بل خلق أجزاء الإنسان بحيث يحتاج بعضها إلى بعض . وانظر إلى الحواس والجوارح ؛ وانظر إلى العضلات والدم والدهن فى الإنسان ؛ وانظر إلى المعدة وباقى الجسم ، وانظر إلى المخ والأعصاب وهكذا : تجد كل جزء قائما بعمل فى الجسم الواحد ، فكذلك الإنسان مع الكائنات المحيطة به ينتفع بها فى غذائه ودوائه ، وتنتفع به فى عمرانها وتحليلها وتركيبها . وهكذا يجتمع العالم فى التفاعل مع تباعده فى الوجود . وهذا صنع الحكيم العليم .

ومن فوائد الجبال غير هذا أنها مادة للعيون ، ومنشأ مدد للأنهار ، ولذلك تجد الجبال أكثر ما تذكر مقترنة بالأنهار ، كما فى هـــذه الآية ، وكما فى قوله تعالى : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وانهاراً » فى سورة النحل وفى سورة لقمان ، وكما فى قوله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون . وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم » إلى غير ذلك . وقد علل ذلك الباحثون بأن مادة ماء العيون السحب ، وأكثر ما تهطل على رؤوس

الجبال ، فمنها مايسيل فى شعابها فيتخذ من ذلك مجارى وسبلا وأنهارا ، ومنها ما تتشقق لها الجبال فتختزن فيها ، ثم تسلك فجاجا تحت الأرض حتى تتفجر من ناحية أخرى علمها العليم ؛ واقتضتها حكمة الحكيم . وأيضا ترى الجبال بسبب ارتفاعها أبرد جوا من الوهاد ، كما تدل عليه المشاهدة ، فيجتمع على سطحها من الثلوج والأبخرة المنحلة إلى الماء ما يسيل منه الأنهار فضلا عن تقطع السحاب على ذراها ، فينحل إلى مائيته الأولى ، وبذلك تشهد مناسبة ضم الأنهار إلى الجبال .

ولعل من حكمة جعل الجبال فيها وجعل منابع الأنهار ومددها منها ، ما ذكره بعض الباحثين من أن المياه النازحة منها تجرف مع انحدارها أجزاء طينية تصطدم فى صخور تلافيها ، فتذوب وتسير مع الماء بانحداره العظيم ، حتى تصل إلى ما شاء الله أن تصل اليه ، فترسب طميا صالحا للإنبات مخصبا منميا ، وهذا كله من مظاهر الارتباط بين أجزاء هذا العالم ، فمنه ما عرفناه ، ومنه مالم نعرفه ، والله بكل شىء عليم .

ونزول الأنهار من الجبال لا يعارض قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » ونحوه ، لأن المراد من السماء جهة العلو ، ولا شك أن الأمطار على ما قررنا هى المادة الأصلية للعيون والأنهار ، وهى نازلة من جهة العلو ، ونبع بعض العيون من الأرض بدون استمداد من الأنهار كالعيون المجاورة للبحار لا يمنع ذلك ، فلم يكن المراد الحصر . وفى قوله تعالى : « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين » هذا لبيان أثر آخر من آثار القدرة الباهرة ، وهو كالنتيجة لما قبله من جعل الرواسى والأنهار فيها : ذاك أن الثمرات ما جاءت إلا عن أرض خصبة تغذيها مياه عذبة ، وقد عرفت أن الجبال تمد السهول فى الغالب بالمادة الطينية الخصبة ، وأن الأنهار ترويها بالمياه العذبة ، فيتولد منها الثمرات من كل زوجين اثنين . ومعنى الزوج : الشىء المنضم إلى غيره ليكون من ازدواجهما وانضمامهما ثمرة مقصودة منهما . فليس الزوج اسما للاثنين ، بل الإثنان زوجان . فالمعنى : جعل فى الأرض من كل أنواع

الثمرات ، وجعلها بحيث لا يتم الغرض المقصود منها إلا بانضمام زوج منها إلى الآخر ، حتى يتم التماسك والتساند بينها ، ويظهر الارتباط الذى لا بد منه فى بقاء نوعها . فالمراد بالزوجين عنصرا التذكير والتأنيث فى الثمرات . والنبات محتو على عنصرين أحدهما للتذكير والآخر للتأنيث ، فالتوالد فيه كالتوالد فى فصائل الحيوانات يحتاج إلى زوجين ذكر وأنثى . غاية الأمر أن بعض الأنواع قد تكون زهرته الواحدة بحيث يجتمع فيه الذكر والأنثى ، وبعضها يكون فيه التذكير فى زهرة والتأنيث فى أخرى ، أو التذكير فى شجرة والتأنيث فى أخرى ، كما فى النخيل . فقوله تعالى : « زوجين » إشارة إلى قانون الارتباط والتماسك الذى بثه الله فى العالم . .

وقوله تعالى: « اثنين » بعد قوله : زوجين، لتأكيد المراد من كلمة زوجين ، وأنه ليس معنى الزوج فيه اثنين حتى يكون قد جعل من كل ثمرة أربعة ، بل المراد به الواحد المنضم إلى ما يزاوجه . فأصل كل ثمرة اثنان ، كما أن أصل كل مولود من المولودات الأخرى اثنان . وزيادة (من) فى قوله « من كل الثمرات » لبيان أن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاد أنواع من الثمرات غير ما شاهدتم مما لا يدخل تحت الحصر . وها أنت ذا ترى التجدد لا ينقطع فى أنواعها حينًا لحينا .

أما قوله تعالى « يغشى الليل النهار » أى يجعل الليل غاشيا للنهار ساترا له: فلا يخفى أن تعاقب الليل والنهار على الثمار عون على إنضاجها وإكمال صلاحها، فلو جعل النهار والليل عليها سرمدا لما بدا صلاحها ، ولما تم إنضاجها . فتعلق الليل والنهار بهما تعلق المتمم بما يحتاج إليه فى تمامه ، وبذلك يظهر لك حسن الارتباط . ونظم الليل والنهار فى سلك الآيات الأرضية لما ذكر ، ولأن مظهرهما لنا فى عالمنا الأرضى وإن كان المنشأ لهما من العالم السماوى العلوى ، فهما يلابساننا ويحيطان بنا وننتفع بهما ، إذ يبعثنا النهار إلى الحركة فى أعمالنا ومصالحنا ، ونسكن فى الليل حتى نسترد قوانا ، فهما لنا من الملابسات التامة .. وهذه الآيات الأرضية يمر عليها الناس وهم عنها غافلون ، لا يدرك ما فيها من آثار العظمة إلا المفكرون . فلذا أردفت بقوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات

لقوم يتفكرون » . وذلك لما سبق لك من أن كثرة تكرار النظر إلى الشيء يضعف معنى التأمل فيه ، كما شرحنا ذلك بالمقارنة بين تأثر النفوس بظاهرة الكسوف والخسوف ولو جزئيين ، وعدم اكتراثها بدخول الليل أو طلوع النهار . فلا جرم قال هنا : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . وأما العالم العلوى فإنك ترى أن الإنسان لا يكاد يتطلع إليه ويملأ نظره فيه حتى يجد من نفسه اعترافا بعظمة مبدعه وباهر قدرته ، فينطلق لسانه بالتسبيح والتقديس لأول وهلة ، ولا يجد من نفسه فى ذلك مكابرة . فلذا أردفها بقوله فيما سبق : « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » . والتفكر إطالة النظر وإجالة البصيرة ودوام التأمل حتى يقف المرء على دقائق وأسرار لم تكن بادية له عند النظرة الأولى ، وهو الذى يعبر عنه علماء المنطق بعبارة : ترتيب أمور معلومة للتوصل بالنظر فيها إلى علم ما لم يكن معلوما . وقد ذكر بعض المفسرين أن أكثر ما تذكر الآيات الأرضية تردف بالحث على التفكر ، وذلك لأن بعض الناس يرد حدوثها إلى اتصالها بالحركات الفلكية والأوضاع الكوكبية ويقتصر على ذلك ، فإذا تفكر علم أن الأوضاع المذكورة لا يمكن أن تنتج هذا النظام المحكم الذى لا يكون إلا من عليم خبير قادر حكيم ، فإن وضع الأفلاك أو الكواكب بالنسبة إلى الجسم الواحد ، واحد تقريبا ، فكيف جعل فى الحيوان جزءا هو عظم فى منتهى الصلابة ، وجزءا هو دم أو دهن فى منتهى الرقة ، وجعل بينهما أجزاء مختلفة الطبائع من أعصاب وعضلات ، وجزءا مغشيا للجميع ممسكا لها ضاما لأجزائها هو الجلد ، وجعل الجميع على اختلاف طبائعه يسند بعضه بعضا ، ويخدم بعضه بعضا . هل الفكر الصحيح يستريح إلا إذا رد ذلك إلى القادر المختار ؟ وقد هدى الله تعالى إلى باب الرشاد الواضح فى ذلك حيث أردف هذا بالآية التالية ، فقال تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . وهذه جملة أخرى مستأنفة لذكر نوع من أنواع الأدلة الأرضية ، وهى ما يتجدد

أمام أنظارنا من حوادث متعاقبة ، بعد أن ذكر ما فيها من أمور ثابتة فى الآية السابقة فقال تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات » أى بقاع كثيرة مختلفة ، فمن خصب إلى جدب ، ومن صالح للزرع دون الشجر وصالح للشجر دون الزرع وصالح لهما معا ، ومن حزن إلى سهل ، ومن رخوة إلى صلب ، ومن أحجار كريمة إلى مواد تافهة ، ومن ومن .. الخ » وكلها متجاورات . فمن الذى جعل فيها تلك المفارقات والمباينات : أجاء هذا من الأفلاك والكواكب ، أم جاء من طبيعة صالحة وأخرى فاسدة ؟ فمن الذى جعل هذه صالحة والأخرى فاسدة ، والمادة فى الجميع واحدة ، والعوامل المتسلطة عليها واحدة ؟ أفمع هذا التجاور مع اتحاد المادة الأصلية يجىء كل هذا التباعد ؟ وهب أن ذلك مرجعه إلى عوامل تسلطت عليها ، فمن الذى سلط تلك العوامل حتى جاء هذا النظام البديع الذى حارت فيه العقول والألباب ؟ وهل يستقر للفكر قرار وتطمئن النفوس إليه تمام الاطمئنان إلا إذا أسندت ذلك إلى مدبر عالم حكيم مريد ؟ سبحانك ما خلقت هذا عبثا ، وليس لغيرك أن يدرك كل الأسرار التى بثثتها فى مصنوعاتك ، فضلا عن أن يشاركك فى ملكك ، سبحانك لا إله غيرك ، ولا شريك لك فى ملكك : ومعنى « متجاورات » أى متلاصقات لم تختلف بها الأقاليم ولم تتباعد بها المناطق . وكما فيها قطع متجاورات اختلفت صفاتها ، تجد فيها قطعا غير متجاورة اتحدت صفاتها . واكتفى بالأول عن الثانى مع فهمه منه لأنه أوضح دلالة . ألا ترى أنك حين ترى زهرة اشتملت أوراقها على ألوان عدة فى ورقة صغيرة دقيقة ، أنطقك ذلك بالتسبيح للحى القيوم ، ودعاك إلى الاعتراف بالقدرة أكثر مما إذا رأيت نباتا من نوع واحد فى منطقتين مختلفتين ؟ وقوله تعالى : « وجنات من أعناب » بدأ بها من بين ما تثمر الأرض لاحتواء العنب على دقيق الصنع الإلهى : إذ ترى فيه من الاختلاف فى الطعم واللون ، ومن الاحتواء على الثمرة التى قوامها ماء متجمع فى قشرة رقيقة قد يكون شفافا لا يحجب البصر عن إدراك ما فى باطنه ، يتوسطه بذرة يابسة ذات لب هو

منشأ النبات ، وغلاف خشبي حمى الماء المقصود أن يتصل بذلك اللب ، إلى غير ذلك مما فصله علماء النبات فيه ، من ذلك ماينطق العقل قبل اللسان بالتحميد والتمجيد لله . ولذلك ورد فى بعض الأخبار القدسية : « أتكفرون بى وأنا خالق العنب » ؟ ثم أردفها بالزرع وهو النبات المقابل للأشجار ، كنبات الحبوب والألياف ونحوها . وإفراد الزرع مع تنوعه مراعاة إلى أن أصله بصيغة المصدر . ولعل توسيط الزرع بين جنات الأعناب والنخيل لتوجيه النظر إلى مايجرى فى كثير من الجنات من أنها تفصل بالأعناب ويتخللها الزرع ويحيط بها النخيل ، كما فى قوله تعالى : « وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا » كأن ذلك حين يجتمع على هذه الصفة تجد فيه من دلائل القدرة الباهرة مافيه . وقوله تعالى : « يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل » .. هذا موضع الاعتبار الواضح فى الدلالة البينة ، إذ كانت قطعها متجاورة وأصل مادة زرعها واحد ، وتسقى بماء واحد ، ثم تجىء متفاضلة فيما يؤكل منها : فمنها الحلو ، ومنها الحامض ، ومنها الحريف ، ومنها التافه ، ومنها الرطب ، ومنها اليابس ، ومنها مايتخذ غذاء . ومنها مايتخذ دواء ، ومنها مالا تحصر آثارها المتباينة ، ولا يحاط بفوائدها العامة ، أو مضارها التى قد تقصد فى بعض الأوقات . والإحاطة بذلك قلما تتفق ولا لعلماء النبات ، فلا تزال التجارب تكشف من غوامضها مالا يحصى . ولما كانت هذه الآثار جلية واضحة والاعتراف بها لا يحتاج إلى طويل تفكير ، بل يكفى فيه نظرة من عقل البصير ، أردفها بقوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » كأنه يشير إلى أن من رأى هذا ولم يبادر بالاعتراف بقدرة مبدعه ، ليس جديرا أن يسمى من العقلاء ، فقد أهمل عقله ، وأظهر جهله . وهذا فى الآيات المتجددة فى الثمار والزروع والنخيل والأعناب موقظ للتأمل وحده ، فكل جديد جدير بأن يسترعى النظر ، بخلاف مافى الآية السابقة من الأمور الثابتة من الجبال والأنهار ، وتغشية الليل النهار ، فإن ذلك محتاج إلى التأمل والتفكير . والثمرات ذكرت فى الآية الأولى من جهة مافيها من قانون ثابت ، وهو قانون التزاوج

المشترك فى جميعها ، وأنه من الخفاء بحيث يحتاج فى الاهتداء إليه إلى البحث والتفكير ، فلذا أدرجه فى الآية المختومة بقوله : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . وذكرت فى هذه الآية من جهة مايبدو فيها من الطعوم المختلفة والمراتب المتباينة والآثار المتفاضلة ، وهى لاتحتاج إلى تفكير ، فحسن نظمها فى الآية المختومة بقوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

الربع الثانى من سورة الرعد

٥ — وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ .

٦ — وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

٧ — وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ .

٨ — ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ .

٩ — عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ .

١٠ — سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِالَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِالنَّهَارِ .

١١ — لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ

ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ .

١٢ — هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ .

١٣ — وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ .

١٤ — لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ .

١٥ — وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ .

١٦ — قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ .

هذه الآيات الإثنتا عشرة فيها بيان لهراء المشركين وأقوالهم ، ورد على

ما يزعمون من أكاذيب وافتراءات وأضاليل ، وماذا يزعمون ؟ يزعمون أنه لا بعث ، ويستعجلون الرسول بالسيئة قبل الحسنة ، بالعذاب قبل غيره ، ويقولون : لولا أنزل عليه آية من ربه .. وتمضى الآيات فتتحدث عن قدرة الله الذى يشركون به ، قدرة الله القادر على كل شىء ، الله رب السموات والأرض الذى ليس له شريك ولا مثيل ، إلى آخر ماتناولته هذه الآيات الكريمة من معان وأفكار .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « وإن تعجب » أى يامحمد من تكذيب الكفار لك بعد أن كنت عندهم تعرف بالصادق الأمين ، « فعجب » أى فأمر عجيب يتعجب منه « قولهم » أى قول منكرى البعث « أئذا كنا ترابا » أى بعد الموت « أئنا لفى خلق جديد » أى بعد الموت كما كنا قبله ، أولم يعلموا أن القادر على إنشاء الخلق ابتداء على غير مثال سابق قادر على إعادتهم ؟.. وقيل : المعنى وإن تعجب من اتخاذ المشركين مالا يضرهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها مع إقرارهم بأن الله تعالى فى السموات والأرض وهو يضر وينفع ، وقد رأوا قدرة الله تعالى وما ضرب لهم به من الأمثال ، فعجب قولهم ذلك ، والعجب تغير النفس برؤية المستبعد فى العادة ، قال المتكلمون : العجب : هو الذى لا يعرف سببه ، وذلك فى حق الله تعالى محال لأنه تعالى يعلم السر وأخفى ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

إن الموت يشبهه الله بالنوم ، وما أعظم الشبه بينهما . والنوم هو موت جزئى للأعضاء ، وكما أن النائم يستيقظ كما يشاهد ، كذلك الميت أيضا يستيقظ ولو لم يشاهد ، وهذا هو البعث الذى أمرت بالإيمان به الأديان ، ومن لم يشاهد ذلك يجادل ويقل : كيف نبعث ثانية بعد أن نكون عظاماً وترابا ؟ والله يجيب على ذلك بقوله : إن الإنسان خلق من طين ، وإنه يعلم ما يدخل فى تركيبه علما تاما « ألا يعلم من خلق » . . « قد علمنا ما تنقص الأرض وعندنا كتاب حفيظ » ، وبهذا يمكنه أن يعيده سيرته الأولى .

وتتحول المادة من شكل إلى شكل ، ولكنها فى صندوق الكون لا تفنى أبداً ، وكما أن الماء لا يفنى بتحوله إلى ثلج أو بخار كذلك يتحول الطين إلى نبات وحيوان ثم إلى جسم إنسان ، ثم إلى التراب ثانية ، ثم يعيده الله كما كان . وقد علمتنا العلوم أن معنى « كتاب حفيظ » ليس بالمعنى المعروف ، ولكنه سجل أدق . والإنسان الضعيف قد صنع آلات تسجل من نفسها ، والله صنع هذا الكون كله كآلة عظيمة تسجل كل شىء ، كأنه « كتاب حفيظ » . فالإنسان إذا تكلم انتشر صوته فى الفضاء كله دون أن يشعر ، بل قد أمكن الإنسان أن يسجله ويستعيده عند الحاجة بعد زمن طويل عن طريق (الراديو والفونوغراف) . وكما أن الصوت يسجل تسجيلا ، أفلا يكون ذلك بالنسبة لكل حركاته وسكناته أولى ، بل قد يتقدم العلم ، ونعرف أن أفكار الإنسان يمكن قراءتها على بعد كبير بل يمكن تسجيلها ، فالإنسان جسم صغير فى آلة كبيرة دقيقة حساسة تتأثر وتسجل كل حركات هذا الجسم وما يطرأ عليه لتستعيده عند الحاجة ، وقد شبه الله هذا التسجيل بآثار القدمين التى يعرفها العرب جيداً ، فقال : « إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين » وهذا هو كتاب الكون الذى يقول الله فيه : « لا يضل ربى ولا ينسى » و « شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانو يعملون » ويقولون : « لم شهدتم علينا ؟ » فتقول : « أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون » ويقولون « يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحدا » . وسيرى الإنسان أعماله نفسها فى المرآة ، ويرى صورة دقيقة لكل أفعاله وأفكاره كما كانت تماما ، فهو نفس المتكلم ونفس الفاعل « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

والسنن الطبيعية علمتنا أنه لا يوجد شىء فى هذا الكون بلا فائدة ، فالإنسان

مع ضعفه قد استخدم السنن الطبيعية وأمكنه أن يسجل الصوت ويستعيده بعد زمن طويل ، أفلا يكون هذا دليلا على أن التسجيل لا بد أن يكون لمهمة كبرى ، وأن الطبيعة لا تسرف أبداً « إنا كل شيء خلقناه بقدر » فالله يسجل كل حياة الإنسان ليستعيدها يوم البعث ، وهذا أهون من بدء خلق الإنسان، فالنشأة الثانية إعادة وهي أهون من الأولى ، وهما بالإضافة إلى قدرة الله تعالى سيان ، كما قال الله تعالى : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه». وهكذا نرى القرآن لا يبالغ أبداً كما نفهم من معنى المبالغة في كلامنا حتى فيما لا ندركه تماما . وقد يقال : إن إحياء الموتى قد يكون في المستقبل على يد أطباء مع أن الله يقول « إنا نحن نحيي الموتى » وذلك لما يقرؤه الناس أحيانا في الصحف عن إحياء الميت ورجوع الحياة إليه بعد وقوف علاماتها مثل التنفس والنبض . والحقيقة هي أن هناك فرقا كبيرا بين الموت العادي كما يفهم الناس من وقف الأعضاء عن العمل ، كعدم اشتغال المخ أو وقوف القلب ، وبين الموت العلمي الحقيقي ، وهو لا يكون بوقوف عمل الأعضاء فقط ، ولكنه يكون بموتها ، ولو أخذ القلب من ميت عادي بعد وقوف ضرباته ووضع في محلول مخصوص لاستأنف ضرباته كما كان في جسم الإنسان من بضع ساعات.. ثم يموت ، ولا يمكن أن يخفق بعد ذلك مهما عمل فيه ، وهذا هو الموت الحقيقي الذي يتحلل بعده الإنسان إلى عناصره الأولى . وقد يتوصل الطبيب ـ بل قد توصل أحيانا ـ إلى إعادة الحياة في الميت العادي ، أي أن القلب يعود فيضرب مدة قصيرة بعد وقوفه ، وقبل أن يكون قد بدأ في التحلل أي قبل موته الحقيقي . وأما أن العلم يصل إلى إعادة الحياة بعد التحلل فهذا مستحيل ، لأنه لا فرق بين إعادة الحياة إلى جسم ميت تماما ، وبين إيجاد حياة في الجماد مثل الطين . « أولئك » الذين جمعوا أنواعا من البعد من كل خير « الذين كفروا بربهم » أي غطوا ما يجب إظهاره بسبب الاستهانة بالذي بدأ خلقهم ثم رباهم بأنواع اللطف، فإذا أنكروا معادهم فقد أنكروا بدأهم «وأولئك» البعداء

البغضاء « الأغلال » يوم القيامة « فى أعناقهم» بسبب كفرهم ، والغل طوق من حديد تقيد به اليد فى العنق ، وقيل : المراد بالأغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما يقاد الأسير الذليل بالغل . وقيل : إنهم مقيدون بالضلال لا يرجى فلاحهم « وأولئك » أى الذين لا خسارة أعظم من خسارتهم « أصحاب النار هم فيها خالدون » أى ثابت خلودهم دائما لا يخرجون منها ولا يموتون ؛ ولما كان صلى الله عليه وسلم يهددهم تارة بعذاب يوم القيامة وتارة بعذاب الدنيا ، والقوم كلما هددهم بعذاب يوم القيامة والبعث والحشر ، وكلما هددهم بعذاب الدنيا ، قالوا له : مرحبا بهذا العذاب وطلبوا منه إظهاره وإنزاله ، على سبيل الطعن وإظهار أن الذى يقوله كلام لا أصل له « ويستعجلونك » أى استهزاء وتكذيبا ، والاستعجال طلب التعجيل وهو تقديم الشىء قبل وقته المقدر له « بالسيئة » أى العذاب « قبل الحسنة » أى الرحمة ، وذلك أن مشركى مكة كانوا يقولون : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء وائتنا بعذاب أليم .. هذا وقوله « قبل الحسنة » فيه وجهان : أحدهما متعلق بالاستعجال ظرفا له ، والثانى أنه متعلق بمحذوف على أنه حال مقدرة من السيئة « وقد » أى والحال أنه قد «خلت من قبلهم المثلات جمع مثلة بفتح الميم وضم الثاء ، أى عقوبة أمثالهم من المكذبين أفلا يعتبرون بها « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإلا لم يترك على ظهرها من دابة ، كما قال تعالى : ولو يؤاخذ الله الناس بما يكسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، وقال ابن عباس : معناه : لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا .. « وإن ربك لشديد العقاب » للمصرين على الشرك الذين ماتوا عليه ، وقال مقاتل : إنه لذو تجاوز عن شركهم فى تأخير العذاب عنهم .. ولما بين سبحانه وتعالى أن الكفار طعنوا فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب طعنهم فى الحشر والنشر أولا، ثم طعنوا فى نبوته بسبب طعنهم فى صحة ماينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانيا ، ثم طعنوا فى نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة ثالثا ، وهو المذكور فى قوله تعالى « ويقول الذين كفروا لولا » أى هلا « أنزل عليه » أى محمد صلى الله

عليه وسلم « من ربه » أى مثل عصى موسى وناقة صالح ، وذلك لأنهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا : هذا كتاب لا يكون معجزا مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام، وكان صلى الله عليه وسلم راغبا فى إجابة مقترحاتهم لشدة التفاته إلى إيمانهم ، قال الله تعالى « إنما أنت منذر » أى ليس عليك غير الإنذار والتخويف « ولكل قوم هاد » أى نبى يدعوهم إلى ربهم بما يعطيه من الآيات لا بما يقترحون .. ولما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الآيات أخبرهم الله تعالى عن عظيم قدرته وكمال علمه بقوله تعالى « الله يعلم ماتحمل كل أنثى» من ذكر وغيره وواحد ومتعدد وغير ذلك «وما تغيض» أى تنقص « الأرحام » من مدة الحمل « وما تزداد » أى من مدة الحمل ، فقد تكون سبعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند أبى حنيفة، وإلى أربع عند الشافعى، وإلى خمس عند مالك رضى الله عنهم ؛ وقيل : إن الضحاك ولد لسنتين ، وهرم ابن حيان بقى فى بطن أمه أربع سنين ، ولذلك سمى هرما ، وقيل : ما تنقصه الرحم من الأولاد وتزيده منهم ، وقيل : من نقصان الولد فيخرج ناقصا . والزيادة تمام خلقه ، وقيل: ماتنقص السقط عن أن يتم وما تزداد بالتمام ، وقيل: ما ينقص بظهور دم الحيض ، وذلك أنه إذا سال الدم فى وقت الحمل ضعف الولد ونقص بمقدار حصول ذلك ، قيل : كلما سال الحيض فى وقت الحمل يوما زاد فى مدة الحمل يوما ليحصل الجبر ويعتدل الأمر ، والآية تحتمل جميع ذلك إذ لاتنافى فى هذه الأقوال ، ويدل لذلك قوله تعالى « وكل شىء » من هذا أو غيره من الآيات المقترحات وغيرها « عنده » أى فى علمه وقدرته « بمقدار » فى كيفيته وكميته لايجاوزه ولا يقصر عنه ؛ لأنه تعالى عالم بكيفية كل شىء وكميته على الوجه المفصل المبين « عالم الغيب » وهو ما غاب عن كل مخلوق « والشهادة » وهو ماشاهدوه ، وقيل: الغيب هو المعدوم، والشهادة هو الموجود ، وقيل : الغيب ماغاب عن الحس ، والشهادة ماحضر فى الحس «الكبير» اى العظيم « المتعال » عن خلقه بالقهر المنزه عن صفات النقص، فهو تعالى موصوف بالعلم الكامل والقدرة التامة ، ولما كان علمه تعالى شاملا لجميع الأشياء قال تعالى « سواء

منكم من أسر القول ، أى أخفى معناه فى نفسه « ومن جهر به » أى أظهره فقد استوى فى علمه تعالى السر بالقول والجهر به « ومن هو مستخف » أى مستتر «بالليل» أى بظلامه « وسارب » أى ظاهر بذهابه فى سربه « بالنهار » والسرب بفتح السين وسكون الراء : الطريق وقال ابن عباس : سواء ما أضمرته القلوب وأظهرته الألسنة ، وقال مجاهد : سواء من يقدم على القبائح فى ظلمات الليل ومن يأتى بها فى النهار الظاهر على سبيل التوارى ، والضمير فى « له » يعود إلى « من » فى قوله « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل» أو للإنسان «معقبات» أى ملائكة تعقبه ، والذى عليه الجمهور أن المراد بالملائكة الحفظة ، وإنما وصفهم بالمعقبات إما لأجل أن ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس ، وإما لأجل أنهم يتعقبون أعمال العباد ويصونونها بالحفظة والكتبة ، وكل من عمل عملا ثم عاد إليه فقد عقب ، فعلى هذا ـ المراد من المعقبات ملائكة الليل والنهار ، روى عن عثمان أنه قال يارسول الله : أخبرنى عن العبد كم معه من ملك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : ملك عن يمينك للحسنات وهو أمير على الذى على الشمال ، فإذا عملت حسنة كتبت وإذا عملت سيئة قال الذى على الشمال لصاحب اليمين : أكتب ؟ قال : لا لعله أن يتوب أو يستغفر فيستأذن ثلاث مرات ، فإذا قال ثلاثا ، قال: اكتب أراحنا الله منه فبئس القرين، وملك قابض على ناصيتك ، فإذا تواضعت لربك رفعك وإذا تجبرت قصمك ، وملكان على شفتيك يحفظان عليك الصلاة ، وملك على فيك لا يدع أن تدع الحية فى فيك ، وملك على يمينك، وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله تعالى وهو أعلم بكم : كيف تركتم عبادى؟ فيقولون :تركناهم وهم يصلون ،وقال مجاهد : أما من عبد إلا وله ملك موكل بحفظه من الجن والإنس والهوام فى نومه ويقظته «من بين يديه ومن خلفه» أى من قدامه ومن ورائه « يحفظونه من أمر الله » فيها أقوال : أحدها أنه على التقديم والتأخير ، والتقدير : له معقبات من أمر

الله يحفظونه ، وقيل: المعنى أن ذلك الحفظ من أمر الله ، أى مما أمر الله تعالى به ، وقيل : إن كلمة (من) معناها الباء والتقدير يحفظونه بأمر الله وبأماناته ، والفائدة فى تخصيص هؤلاء الملائكة مع بنى آدم وتسليطهم عليهم أن الإنسان إذا علم أن الملائكة تحصى عليه أعماله كان إلى الحذر من المعاصى أقرب ؛ لأن من اعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم فإذا حاول الإقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها زجره الحياء منهم من الإقدام عليه ، كما يزجره إذا حضر من يعظمه من البشر ، وإذا علم أن الملائكة تحصى عليه تلك الأعمال كان ذلك أيضا رادعا له عنها ، وإذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردع أكمل.. ولما دل ذلك على غاية القدرة والعظمة قال تعالى « إن الله » مع قدرته « لا يغير ما بقوم » أى لا يسلبهم نعمته « حتى يغيروا ما » أى الذى « بأنفسهم » من الأحوال الجميلة إلى الأحوال القبيحة « وإذا أراد الله بقوم سوءا » أى هلاكا وعذابا « فلا مرد له » أى لا يقدر أحد لا من المعقبات ولا من غيرها أن يرد ما نزل به من قضائه وقدره « وما لهم » إن راد بهم سوءا « من دونه » أى غير الله « من وال » يلى أمرهم ونصرهم ويمنع العذاب عنهم .

ولما خوف الله تعالى بقوله : « وإذا أراد الله بقوم سوءا » أتبعه بذكر آيات تشبه النعم والإحسان من بعض الوجوه ، وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه بقوله تعالى : « هو الذى يريكم البرق خوفا » أى للمسافرين من الصواعق « وطمعا » أى للمقيم فى المطر ، وقيل : إن كل شيء فى الدنيا يحصل يحتمل الخير والشر ، فهو خير بالنسبة إلى قوم وشر بالنسبة إلى آخرين ، فكذلك المطر خير فى حق من يحتاج إليه فى أوانه وشر فى حق من يضره ذلك ، إما بحسب المكان وإما بحسب الزمان ، والبرق معروف ، وهو لمعان يظهر ما بين السحاب « وينشىء » أى يخلق « السحاب الثقال » أى بالمطر « ويسبح الرعد بحمده » والرعد صوت البرق . أو هو صوت التفريغ الكهربائى فى الجو الذى يحدث عنه البرق « والملائكة » تسبحه « من خيفته » أى الله

لأنه أفرد بالذكر تشريفا كما فى قوله تعالى « وملائكته ورسله وجبريل وميكال » وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع صوت الرعد ترك الحديث ، وقال « سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » وفى بعض الأخبار يقول الله تعالى : لو أن عبادى أطاعونى لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت الشمس عليهم بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد ، « ويرسل الصواعق » جمع صاعقة وهى العذاب المهلك تنزل من البرق فتحرق من تصيبه « فيصيب بها من يشاء » فيهلكه « وهم يجادلون فى الله » حيث يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكذيب التشديد فى الخصومة ، روى أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة وهو أخو لبيد وفدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدين قتله فأخذه عامر بالمجادلة ودار به من خلفه ليضربه بالسيف فتنبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم اكفنيهما بما شئت ، فأرسل الله تعالى على أربد صاعقة فقتلته ، ورمى عامر بغدة فمات فى بيت سلولية ، فكان يقول : غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية .. فنزلت ، وعن الحسن أنه قال : كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبى صلى الله عليه وسلم نفرا يدعونه إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : أخبرونى عن رب محمد هذا الذى تدعونى إليه ، مم هو ، أمن ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس ؟ فاستعظم القوم مقالته ، فانصرفوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله : مارأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه ، فقال صلى الله عليه وسلم : ارجعوا إليه فرجعوا إليه فجعل يزيد على مقالته الأولى ، وقال : أجيب محمدا إلى رب لاأراه ولا أعرفه ؟ فانصرفوا ، وقالوا يارسول الله : مازادنا على مقالته الأولى إلا أخبث ، فقال : ارجعوا إليه فرجعوا ، فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونه وهو يقول هذه المقالة إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فأحرقت الكافر وهم جلوس ، فجاءوا يسعون ليخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الصحابة : احترق صاحبكم ، فقالوا : من أين علمتم ؟ فقالوا : أوحى الله إلى النبى صلى الله عليه وسلم : ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم

يجادلون فى الله.. « وهو شديد المحال » واختلف المفسرون فى قوله تعالى: وهو شديد المحال ، فقال على : شديد الأخذ ، وقال ابن عباس : شديد الحول ، وقال مجاهد : شديد القوة . وقال أبو عبيدة : شديد القوة والمغالبة . واختلف فى قوله تعالى « له » أى الله « دعوة الحق » فقال على : دعوة الحق التوحيد ، وقال ابن عباس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وقال الحسن : الحق هو الله تعالى وكل دعا إليه دعوة الحق « والذين يدعون » أى وهم الكفار « من دونه » أى غير الله وهى الأصنام « لا يستجيبون » أى الأصنام « لهم » أى الكفار « بشىء » مما يطلبون من نفع أو دفع ضر « إلا » أى إلا استجابة « كباسط » أى كاستجابة باسط « كفيه إلى الماء » أى على شفير النهر يدعوه « ليبلغ فاه » أى بارتفاعه من النهر أو البئر إليه « وما هو » أى الماء « ببالغه » أى فاه أبداً ، لأنه جماد لا يشعر بدعائه ولا يقدر على إجابته ، فكذلك هم لأن أصنامهم كذلك ، « وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » أى ضياع لا منفعة فيه ، لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم وإن دعوا آلهتهم لم تستطع إجابتهم ، وقيل : المراد بالدعاء فى الحالين العبادة ، وقوله تعالى : « ولله يسجد من فى السموات والأرض » يحتمل أن يراد به السجود على حقيقته وهو وضع الجبهة ، وعلى هذا فيكون قوله تعالى « طوعا » للملائكة والمؤمنين « وكرها » للكافرين والمنافقين الذين أكرهوا على السجود لله بالسيف . ويحتمل أن يراد التعظيم والاعتراف بالعبودية ، فكل من فى السموات والأرض معترف بعبادة الله تعالى ، كما قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » وأن يراد به الانقياد والخضوع وترك الامتناع ، وكل من فى السموات والأرض ساجد لله تعالى بهذا المعنى ، لأن قدرته ومشيئته نافذة فى الكل « وظلالهم بالغدو » أى البكر « والآصال » أى العشايا ، أى تسجد لله ، قال أكثر المفسرين : كل شخص سواء كان مؤمنا أم كافرا ، فإن ظله يسجد لله ، قال مجاهد : ظل المؤمن يسجد لله وهو طائع وظل الكافر يسجد لغير الله وهو كاره ، وقال الزجاج : جاء فى التفسير أن الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله ، وقيل : المراد من سجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب ، وطولها بسبب انحطاط

الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس وهى منقادة مسلسلة فى طولها وقصرها وميلها من جانب إلى جانب ، وإنما خص الغدو والآصال بالذكر ، لأن الظلال إنما تعظم وتكثر فى هذين الوقتين ، والآصال جمع أصيل وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس ، ولما بين تعالى أن كل من فى السموات والأرض ساجد لله تعالى عدل إلى الرد على عبادة الأصنام بقوله تعالى « قل » يا أشرف الخلق على الله تعالى لقومك « من رب السموات والأرض » أى مالكهما وما فيهما ومدبرهما وخالقهما « قل الله » أى أجيب عنهم بذلك إن يقولوه ، إذ لا جواب لهم غيره ولقنهم الجواب به ، وروى أنه لما قال للمشركين ذلك عطفوا عليه وقالوا : أجب أنت ، فأمره الله تعالى فأجاب بذلك، ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الأصنام بقوله تعالى « قل » لهم « أفاتخذتم من دونه » أى غيره « أولياء » أى أصناما تعبدونها « لا يملكون لأنفسهم نفعا » يجلبونه « ولا ضرا » يدفعونه ، فكيف يملكون لكم ذلك، ثم ضرب الله تعالى مثلا للمشركين الذين يعبدون الأصنام والمؤمنين الذين يعبدون الله فقال تعالى « قل هل يستوى الأعمى والبصير » قال ابن عباس : يعنى المشرك والمؤمن، وإنما مثل الكافر بالأعمى لأنه لا يهتدى سبيلا كذلك الكافر لا يهتدى سبيلا ، ثم ضرب الله تعالى مثلا للإيمان والكفر بقوله تعالى « أم هل تستوى الظلمات » أى الكفر « والنور » أى الإيمان ، الجواب : لا يستويان « أم جعلوا لله شركاء » الهمزة للانكار ، وقوله تعالى «خلقوا كخلقه» صفة «شركاء» أى خلقوا سموات وأرضين وشمسا وقمرا وجبالا وجنا وإنسا « فتشابه الخلق » أى خلق الشركاء بخلق الله « عليهم » من هذا الوجه فلا يدرون ما خلق الله ولا ما خلقت ، فاعتقدوا استحقاق عبادتهم بخلقهم ، وهذا استفهام إنكار أى ليس الأمر كذلك ولا يستحق العبادة إلا الخالق ، ولما كان من المعلوم قطعا أن جوابهم أن الخلق كله لله لزمتهم الحجة فقال تعالى « قل » لهؤلاء المشركين « الله خالق كل شىء » أى مما يصح أن يكون مخلوقا ، وإذا كان لا خالق غيره فلا يشاركه فى العبادة أحد . فوجب أن ينفرد بالألوهية كما قال تعالى : « وهو الواحد » الذى لا يجانسه شىء وكل ما سواه لا يخلو عن

مماثل يماثله « القهار » الذى كل شىء تحت قدرته وقهره ، فيدخل تحت قضائه ومشيئته .

ولا بأس هنا بعد أن انتهينا من تفسير هذه الآيات الكريمة أن نشير إلى ما فى الآيتين الثانية عشرة والثالثة عشرة من إعجاز علمى كبير ، وما أحسن ما أتبع الله عز وجل الآية الحادية عشرة الدالة على عظيم قدرته ، وأنه لا راد لقضائه بهاتين الآيتين الكريمتين اللتين تريهم مظهرا من مظاهر القدرة لا قبل لهم باتقائه والفرار منه ، ولا يعصمهم منه من دون الله من عاصم ، ذلك هو ما يرونه من الآيات السماوية تنقض على الناس من فوق رءوسهم من غير سابق إنذار ، فإذا بها قد أصابتهم من حيث لا يشعرون ، فأين يفرون وبأى ملجأ يعتصمون ؟ أفلم يروا إلى البرق يفاجئهم فتختلف بهم النزعات ما بين خوف من رهبته وقوته ، وطمع فيما يبشر به أن يتلوه من غيث ومطر فتلعب بقلوبهم العوامل المختلفة ، وتهتز جوانحهم رغبا ورهبا ، لا يملكون أن أن يدفعوا عن قلوبهم تلك الهزات فضلا عن أن يدفعوا مصدرها أن يصيبهم بالهلاك . فهل يبقى بعد هذا قلب لا يخضع لعظمة الله ويخشى سطوته ويرجو رحمته ؟ أفما آن لكم أن تعترفوا بعجزكم ، وترجعوا إلى الهدى الذى يجيئكم من ربكم ، وهو الذى ينشىء السحاب الثقال ؟ وقد علمتم أن ذلك مياه متجمعة فى الجو ، فلو كان الأمر قاصراً فى التصريف على ما عهدتم لكانت تلك المياه محاجة إلى إناء سميك يحفظها ، ومكان ثابت ترتكز عليه لثقلها ، ولكن قدرته والنواميس التى بثها فى ملكه دلائل على قدرته ، أوسع من أن تقف عند ما تعهدون ، وأن تقتصر على ما تعتقدون ، فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون ، فأين أنتم وماذا تظنون ؟ . وهو الذى يسبح الرعد بحمده بما يدل على عظمة مبدعه وواسع قدرة منشئه ، فينطق كل قلب وكل لسان بتحميد منشئه وتمجيده ، ذاك أن المرء متى رأى الأمر العظيم الذى يهوله ، انطلق لسانه بتحميد مبدعه ، بل قال : إن هذا آية ناطقة بتمجيد فاعله : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » فليس بلازم أن يكون التسبيح بالنطق اللسانى ، بل أبين

نطق لسان المقال من صدق لسان الحال ؟ على أن التسبيح اللسانى لا استحالة فيه ، فلا نرى مايمنع من الحمل عليه إذا صحت الرواية المعصومة بتفسيره به .
وأنت ترى فى هذا الذى قلنا ما يبين معنى التسبيح من الرعد ، فهو إما بمعنى حمل العباد المشاهدين له السامعين لصوته على تسبيحه تعالى وتنزيهه ، وإما بمعنى دلالته على أنه جل شأنه منزه عن كل عجز أو نقص ، مستحق لكل ثناء وحمد ، فيكون على الأول من باب المجاز العقلى ، أى يسبح سامعوه ، وعلى الثانى من باب المجاز اللغوى ، أى يدل على تنزيهه عز وجل . والباء فى (يسبح بحمده) للمصاحبة ، أى ينطق بتنزيهه تعالى عن كل ما يليق ، تنزيها مصحوبا بالثناء عليه بصفات العظمة . وقوله : « والملائكة من خيفته » أى وتسبح الملائكة خوفا منه تعالى ، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . ومن ذا الذى يعلم من عظمة البارى ما تعلمه الملائكة المقربون ولا يمتلىء هيبة وخشية ؟ وهل لا يكون الخوف إلا من وقوع العذاب ؟ ألا فليعلم أن خوف الرهبة ربما قتل وأهلك بمجرده . والملائكة هم عباد الله المكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهم بتصريف الكائنات العالمية موكلون ، فما من عالم من بحار ورياح ، وسحاب ورعد وبرق وزرع وحيوان ، إلا وعليه ملائكة مصرفون بأمر ربهم ، حافظون عليه كيانه وآثاره ، يحفظونه مما هو عرضة له بأمر ربهم ، كما سبق فى تفسير « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » . . « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ، وليس هذا عن حاجة المولى عز وجل إليهم ، حاش لله ! ولكنه نظام الملك كاملا ، وآثار العظمة باهرة . وقوله تعالى : « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » . .
هذا من تتمة الدلائل السابقة التى تملأ النفوس رهبة وخشية ، ولعلها أشدها فى إيجاب الحذر والخوف ، فالصواعق تنقض على حين غفلة ، وتنزل على ما تصيبه بغتة ، فأين منها المفر وهى يصيب بها الله من يشاء ؟ ودع ما يتعلل به المتعللون من نصب جاذبات الصواعق على ظهور البيوت ، يزعمون أن معدنا خاصا يجذب الصاعقة النازلة إليه فينجو باقى البيت ، فهب هذا فما الذى يعصم

صاحب البيت فى غدواته وروحاته ، بل ما الذى يعصم البيت من أن تكون الصاعقة قوية تستأصل الجاذب وما يحيط به ؟ يا للعجب ! كل هذه الدلائل الباهرة تتراءى لهم وتتكرر أمامهم وهم يجادلون فى الله جدال من يشك فى قدرته وواسع علمه ، فهل بعد هذا من غفلة ؟ وهل غير هؤلاء القوم يرثى لهم ولما أصيبوا به فى عقولهم ؟ أفما كفاهم كل هذا حتى لايزالون يجادلون فى الله وفى قدرته وهو شديد المحال ؟ أى شديد الحول عظيم القوة ، على أن الميم زائدة ، أو هو شديد الكيد عظيم التدبير ، من قولهم : تمحل لكذا ، أى تكلف استعمال الكيد واجتهد فى الحيلة . والمراد بمثل هذا أثر ذلك لاحقيقته ، فهو كقوله تعالى : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » فإن حقيقة المكر مستحيلة عليه تعالى ، والمراد لازمه وهو أخذهم على غرة من حيث لا يحتسبون ، فكذلك هنا : فالمراد : وهو شديد الكيد بالإيقاع بهم وإحباط مساعيهم والتغلب عليهم بحالة خفية كما يفعل المتمحل المكايد ، والمعنى فيهما متقارب .

والصواعق هى مايسميه العلماء بالعواصف الرعدية ، وأهم ما يميز هذه العواصف الرعدية هو شكلها المحدد القائم وسط قبة السماء كأنها سندان الحداد . عند القاعدة يكون اللون كثيفا قاتما وفى القمة قمة السحاب القاتل . . يكون اللون ناصع البياض . وبين القمة والقاعدة توجد منطقة الموت . . ذرات صغيرة من المياه باردة كالثلج كثيفة قاتلة .

وأخطر تلك العواصف هى التى تظهر فى المنطقة الاستوائية ، وفى العالم يحدث كل عام نحو ٢٠٠ عاصفة رعدية ، وتكثر العواصف عند المنطقة الاستوائية ، غير أنها تقل فى منطقة القطبين حتى تنعدم عند القطب الشمالى والقطب الجنوبى .

وفى كل منطقة من مناطق العالم موسم معين للعواصف . وموسم العواصف عندنا يقع فى الشتاء والربيع ، فى دمياط منذ فترة انقضت صاعقة كان مصدرها عاصفة رعدية شديدة ، وهدمت الصاعقة منزلا هناك ، ونجا سكانه بأعجوبة .

وفى غزة انقضت صاعقة ، غير أنها لم تقتل أى إنسان ؛ حدثت فى المساء وليس هناك فى الحقول والمزارع أى فرد ، وأحرقت الصاعقة بستانا كبيراً للفاكهة . إننا كل يوم نسمع عن عامل صعقه التيار الكهربائى لأنه مس الأسلاك . . وقوة التيار الكهربائى الذى نستخدمه فى حياتنا اليومية لايزيد على ١٢٠ فولت ، أما الصاعقة فقوتها تصل إلى ٣ مليون فولت . إنها تدمر كل شىء فى طريقها .. تدمر المنازل ، وتحرق الغابات والأشجار..والسحب تحمل شحنات مختلفة سالبة وموجبة . . وتنفصل الشحنات السالبة فى ناحية ، والشحنات الموجبة فى ناحية أخرى ، وهذا ما يسمى بالتفريغ . وعملية التفريغ هذه قد تحدث داخل سحابة واحدة ، وقد تتم بين سحابتين ، وقد تتم بين السحابة والأرض ، وعندئذ نشاهد البرق ثم نسمع الرعد ، وتقع الكارثة .. إن الرعد والبرق يحدثان فى وقت واحد ، غير أن البرق ـ وهو الوهج الخاطف ـ له سرعة خاطفة ، وإن سرعة الضوء أكثر من سرعة الصوت . ولذلك نرى البرق أولا ثم نسمع الصوت بعد ذلك . وكل شىء يضم داخله جزءاً من الخير وجزءاً من الشر . . والصواعق التى تنقض على الآمنين وتحرقهم ، هى نفسها التى تسقط المطر ، هى نفسها التى تحمل الخير للناس .

١٧ — أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ .

١٨ — لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ .

آيتان كريمتان ضرب الله عز وجل فيهما مثلا رائعا واضحا جلياً للحق والباطل ، لله الحق المعبود رب السموات والأرض ، وللشركاء الذين عبدهم المشركون من دون الله ، الزبد يذهب جفاء ، وما ينفع الناس يمكث فى الأرض ، عبادة الله باقية ، وعبادة المشركين زاهقة باطلة ، للمؤمنين الحسنى وللمشركين العذاب الأليم .

ذكر الله عباده فى الآيات السابقة بأنه رفع السموات بغير عمد ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى ، ودبر الأمور جميعها بحكمته ، وفصل الآيات الكونية بقدرته ، ومد الأرض وأرساها بجبالها وتلالها ، وجعلها صالحة لسكنى العباد من الأناسى ، وسكنى أنواع الحيوان المسخرة لهم ورزقهم فيها بما يقيم أودهم ، ويقيم حياتهم من الأنهار والثمرات المختلفة . وكل هذه دلائل باهرة ، وآيات ناطقة على أنه الخالق وحده ، ومستحق العبادة وحده ، ويستحق التوجه إليه وحده . ولا يجوز عند ذوى الألباب والعقول أن يتخذوا آلهة غيره ، عاجزة عن الخلق ، عاجزة عن حماية نفسها ، عاجزة عن دفع الضرر عنها وعن غيرها ، عاجزة عن إيصال النفع إليها وإلى غيرها .

فليس لهذه الآلهة خلق يشبه خلقه حتى يكون هناك عذر قائم فى التشابه وفى اتخاذها آلهة . وضرب الله مثلا لهؤلاء المشركين بالعمى ، ولضلالاتهم بالظلمات ، وضرب الله مثلا للمؤمنين بالمبصرين ، ولهديهم وعقائدهم بالنور ، وفى الآية الأولى من الآيتين اللتين نحن بصدد تفسيرهما ضرب الله أمثلة أخرى للحق بالماء ، والذهب والفضة يتخذ منهما الحلية ، وبالنحاس والحديد والصفر وغير ذلك من المعادن يتخذ منها المتاع . وضرب أمثلة للباطل بالزبد فوق الماء ، وبالزبد يخرج من المعادن ، وهو الخبث الذى يخرج منها بإيقاد النار عليها ، ثم تبقى بعد ذلك خالصة ينتفع بها ؛ ينزل الله الماء من السماء على الأرض ، فيجتمع فى الأودية المنخفضة عن الجبال والتلال ، ويسيل فيها ويحمل فى جريانه ما يصادفه من حطام ومن مواد تخالط الأرض ، وهذا الذى يحمله الماء

ويطفو فوقه ، هو الزبد الرابى الذى لا خير فيه ، ثم يقذفه السيل وتدفعه الرياح إلى جوانب الوادى وإلى أصول الأشجار ، ويبقى الماء خالصاً يكون شرابا للناس والأنعام ، وتروى منه الأرض فتزرع وتنبت أطيب الثمرات من حب وفاكهة ، وتنبت الأب ترعاه الأنعام ، ويسلك بعض الماء فى الأرض فتتفجر منه العيون الصافية وتمتلىء منه الآبار والجبوب ، والماء كله نافع وكله مفيد وكله خير ، والزبد كله لا فائدة فيه ولا خير منه ، والماء هو الأصل والزبد عارض عليه ، كما أن الحق هو الأصل ، والباطل عارض عليه . هذا هو المثل الأول ، والمثل الثانى هو أنواع الفلزات والمعادن ، فالذهب والفضة يوقد عليهما فى النار فيخرج زبدهما وهو الخبث الذى فيهما ، ثم يتخذ منهما الحلية وفيها فائدة للناس ، وفيها بقاء ، وفيها بهاء وجمال . والحديد والنحاس وغيرهما يوقد عليها فى النار فيذهب خبثها وهو زبدها وتبقى المعادن بعد ذلك نقية يتخذ منها أنواع المتاع ، وفى المتاع فائدة وفيه بقاء وفيه خير ، ولا خير فى الخبث والزبد ولا بقاء . فهذه المعادن على اختلافها أمثلة للحق فى بقائه وفائدته وبهائه وجماله ، وفى الزبد الخارج منها أمثلة للباطل وخبثه وشينه واضمحلاله وزواله ، وهذه المعادن هى الأصول ، وخبثها عارض ، كما أن الحق أصل والباطل عارض . ولا يظنن أحد أن الباطل قد يطول أمره ولا يزول سريعاً كما يزول الزبد من الماء ، وكما يزول الخبث بإيقاد النار ، لأن الحديث إنما يدور مع أولى الألباب وأهل البصائر ، ومع من لم يعمهم الهوى وتضلهم الشهوات ، وهؤلاء ينكشف لهم الأمر سريعاً عند التوجه والالتفات ويدركون الحق ، فهم كالسيل ، والرياح تدفع الزبد عن الماء ، وكالنار تدفع الخبث عن الذهب والفضة والمعادن . أما الذين أضلهم الله وعميت بصائرهم وختم الله على قلوبهم فهؤلاء بعيدون عن إدراك الحق ، بعيدون عن فضيلة النظر ، ولذة العلم ، والتماس الهدى . وليست الأمثلة مقصورة على الدين والقرآن بل هى عامة شاملة يراد بالحق فيها كل ما هو حق من دين وعلم ونظام ، وبالباطل فيها كل ما هو باطل من عقيدة وعلم ونظام .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الغرض منها هو القرآن ، فقال : أنزل من سماء كبريائه ماء هو القرآن فسال فى أودية القلوب واستقرت فيها أنوار علوم القرآن ، كما يستقر الماء فى الأودية ، وحمل كل قلب من هذه المعارف والأنوار بقدره . وهذه المعارف الإلهية الربانية قد تختلط بها الشكوك والشبهات كما يعلو الزبد فوق الماء ؛ ثم لا تلبث هذه الشكوك أن تزول وتضيع ويبقى الدين والعلم والحكمة . فالناس تتفاوت مراتب استعدادهم لتلقى ذلك الفيض الإلهى. وكل يمسك منه على قدره ، وكل ينتفع وينتفع على مقدار ما وهبه العزيز العليم من قابلية للانتفاع بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من هدى ومن نور .
وفى الحديث الصحيح عن أبى موسى « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضاً فكان منها نقية فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم . ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

ومعنى قول الله سبحانه «يذهب جفاء» أنه يجفؤه السيل والريح ، ويطرحه ويرميه ، ولا يبقى منه شىء ، وعلى ذلك لجفاء مصدر كالجفاء خرج مخرج الإسم ، وكذلك تفعل العرب فى مصدر كل ما كان من فعل شىء اجتمع بعضه إلى بعض ، كالرقاق والحطام والغثاء ، كما فعل فى قولهم : أعطيته عطاء بمعنى الإعطاء . وقد نكر الله الأودية لأن المطر لا يأتى إلا على طريق المناوبة بين البقاع ، فيسيل بعض الأودية دون البعض . وقوله تعالى : « ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله » عبارة جمعت أنواع الفلزات جميعها ما عرف منها وما لم يعرف . ومعنى « كذلك يضرب الله الأمثال للحق والباطل ؛ ومعنى : كذلك يضرب الله الأمثال ، كذلك يضرب الله الأمثال للحق والباطل ، فحذفت كلمة الأمثال فى الأول ، وحذفت كلمة الحق والباطل فى الثانى لدلالة الكلام على ذلك كله عند من يعرف العربية

بمقدار ما يفهم الخطاب . ولما ضرب الله المثل للحق والباطل ، انتقل إلى بيان ما لأهل الحق من ثواب ، وما لأهل الباطل من عقاب ، حين اقتضته حكمته ومشيئته ، فقال : للذين استجابوا لربهم الحسنى » . ومعنى « استجابوا لربهم » : أجابوا داعى الله فآمنوا به وبرسوله ، واتبعوا النور الذى أنزل إليهم ، وقبلوا الدعوة إلى الحق وعاهدوا عليه ، ووفوا بالعهد وأدوا الأمانة، وصار الدين خلقا لهم ؛ فأقاموا العبادات وأحسنوا المعاملات . هؤلاء هم السعداء الذين راقبوا الله ، فلهم عند الله المثوبة الحسنى الخالية من الشوائب والأكدار ، المقرونة بالرضا والرضوان ، فلهم منه النصر فى الدنيا والنعيم المقيم فى الآخرة . أما الذين لم يجيبوا دعوة الله ، وهم الأشقياء ، فسيكون حالهم فى الدار الآخرة من الضيق والعنت والشدة والكرب بحيث لو ملك أحدهم ما فى الأرض جميعاً وملك مثله معه وقبل منه الفداء من العذاب لا فتدى نفسه منه بكل ما يملك ، وسيحاسبون حسابا عسيرا سيئاً بحيث لا يغفر لهم شىء من ذنوبهم ، وستظهر لهم فعالهم الذميمة وملكاتهم الرديئة الخبيثة التى كانت خافية عليهم من قبل لاشتغالهم باللذات عن عالم الحق الباقى ، وسيكون حسابهم لنفسهم أيضا عسيرا. ويقول أحدهم : ياليتنى قدمت لحياتى ، فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ثم يقذف فى جهنم فتكون مأواه ومصيره ، وهى مهاد سىء وفراش ردىء خبيث ، وبئس المهاد جهنم !

يقول الله عز وجل فى هاتين الآيتين : « أنزل من السماء » أى السحاب أو السماء نفسها « ماء » أى مطرا « فسالت أودية » أى أنهار جمع واد وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء بكثرة ، فاتسع فيه واستعمل للماء الجارى فيه ، وتنكيرها بأن المطر يأتى على تناوب بين البقاع « بقدرها » أى بمقدارها الذى علم الله تعالى أنه نافع غير ضار ، أو بمقداره فى الصغر والكبر « فاحتمل السيل زبدا رابيا » أى عاليا « ومما توقدون عليه فى النار » أى من جواهر الأرض والذهب والفضة والنحاس والحديد « ابتغاء » أى طلب « حلية » أى زينة « أو متاع » أى ينتفع به كالأوانى إذا أذيبت وآلات الحرب والحرث،

والمقصود من ذلك بيان منافعها « زبد مثله » أى مثل زبد السيل وهو خبثه الذى ينفيه الكير « كذلك » أى مثل هذا الضرب للأمثال « يضرب الله » أى الذى له الأمر كله « الحق والباطل » أى مثلهما . فإنه تعالى مثل الحق فى إفادته وثباته بالماء الذى ينزل من السماء فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة فينتفع به أنواع المنافع، ويمكث فى الأرض بأن يثبت بعضه فى منافعه ويسلك بعضه فى عروق الأرض إلى العيون والآبار ، ومثل الباطل فى قلة نفعه وسرعة زواله بزبدها « فأما الزبد» أى من السيل ومما يوقد عليه من الجواهر «فيذهب جفاء » قال أبو حيان : مضمحلا متلاشيا لا منفعة فيه ولا بقاء ، وقال ابن الانبارى : متفرقا « وأما ماينفع الناس » من الماء ومن الجواهر الذى هو مثل الحق « فيمكث فى الأرض » أى يثبت ويبقى لينتفع به أهلها « كذلك » أى مثل ذلك الضرب « يضرب » أى يبين « الله » الذى له الإحاطة الكاملة علما وقدرة « الأمثال » فيجعلها فى غاية الوضوح وإن كانت فى غاية الغموض .
فهاهنا مثل ضربه الله تعالى للحق والباطل ، فالباطل وإن علا على الحق فى بعض الأوقات والأحوال فإن الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذى يعلو على المـاء فيذهب الزبد الصافى الذى ينفع وذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ، ويذهب العلو الذى هو الكدر وهو مما ينقيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض كذلك الحق والباطل ، وقيل : هذا مثل المؤمن واعتقاده وانتفاعه بالإيمان كمثل الماء الصافى الذى ينتفع به الناس ، ومثل الكافر وخبث اعتقاده كمثل الزبد الذى لاينتفع به البتة « للذين استجابوا لربهم» أى أجابوه إلى مادعاهم إليه من التوحيد والعدل والنبوة وبعث الأموات والتزام الشرائع الواردة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحسنى » قال ابن عباس ، وقال أهل المعانى : الحسنى هى المنفعة العظمى فى الحسن وهى المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة الدائمة الخالصة عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والإجلال ، ولم يذكر الله تعالى الزيادة ههنا لأنه تعالى ذكرها فى سورة أخرى وهى قوله تعالى «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» .. وهذا ما لأهل الحق،

وأما مالأهل الباطل فهو ماذكره بقوله تعالى « والذين لم يستجيبوا له » وهم الكفرة فلهم أنواع ثلاثة من العذاب والعقوبة : فالنوع الأول : هو قوله تعالى « لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به » أى من العذاب ، والنوع الثانى هو ماذكره الله عز وجل فى قوله : «أولئك لهم سوء الحساب » وهو المناقشة فيه ، وعن النخعى بأن يحاسب العبد بذنبه كله ، والنوع الثالث من عقوباتهم ماذكره بقوله تعالى « ومأواهم » أى مرجعهم « جهنم » وذلك لأنهم كانوا غافلين عن طاعة الله وعبادته « وبئس المهاد » أى الفراش ، والمخصوص بالذم محذوف أى جهنم .

الربع الثالث من سورة الرعد

١٩ — أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ .

٢٠ — ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ .

٢١ — وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ .

٢٢ — وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ .

٢٣ — جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ .

٢٤ — سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ .

٢٥ — وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ

ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ .

٢٦ – ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ .

فى هذه الآيات الثمان موازنة بين المؤمنين والمشركين .. وبيان لخصائص المؤمنين ، ثم لصفات المشركين .. وفى الآية الأخيرة من هذه الآيات ينبه الله عز وجل على أن المشركين مهما فرحوا بالدنيا وبأموالها وزينتها ومتعتها وبما بسطه الله لهم فيها من رزق ، فإن الحياة الدنيا بجانب الآخرة ما هى إلا متاع قليل ، والآخرة هى الحياة الكبرى ، وهى دار البقاء .

ومعنى الآية الأولى : أهذا الذى يعلم أن الذى أنزله الله عليك حق فيؤمن به ، ويعمل بما فيه كالذى هو أعمى لا يعرف مواقع الحجة ولا يدرك مافيه من نظام وجمال، وما فيه من حكمة ، وما فيه من علاج للجماعة البشرية ورباط يربطها ويقوم حياتها ؟ ! فالاستفهام للإنكار والتوبيخ . وقد جعل الله العالم بصيرا لأنه يسير على هدى ، يأمن العثار ويأمن الوقوع فى المهالك ، وسمى الجاهل أعمى لأن الأعمى يفسد ما فى طريقه إذا سار ، وقد يتردى فى حفرة أو بئر فيهلك . وقد بين الله أن هؤلاء الذين لا يؤمنون ليس لهم عقول تصل إلى لباب الأمر وتجاوز قشوره وترتب الأدلة وتنصاع للبراهين وتتعظ بكتاب الكون وآيته وما أودعه الله فيه من نظام وجمال ، وإنما يتذكر أولو الألباب الذين يعملون على مقتضيات العقول ويستبصرون .

وفى الآيات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة.. يعود الحديث فى هذه الآيات إلى بيان أحوال السعداء ، فذكر الله أوصافهم وذكر جزاءهم وما أعد لهم ؛ فمن أوصافهم الوفاء بالعهد ، وعدم نقض الميثاق . والعهد كل شيء التزمه الإنسان بالفطرة أو بالقول أو بدلالة العرف والقوانين وقد

ركز فى الفطرة التزام النظر فى الأدلة والآيات ، وركز فى الفطرة الامتثال لما تمليه الأدلة وتدل عليه الآيات ، وقد نصب الله من الدلائل على وجوده وقدرته وحكمته ولطفه ورحمته فى تفاصيل الخلق ونظام الخلق ما فيه مقنع وما فيه غنى لأولى الألباب ، وأرسل الأنبياء وأيدهم بالبراهين الدالة على صدقهم ، ولا عهد أوثق من حجة وآكد من برهان ، فهذه الأدلة عقلية وسمعية يجب الوفاء بعهدها ويجب امتثال أحكامها

والإيمان بالدين ، عهد بالدين وعهد بكل ما اشتمل عليه الدين من عبادات وأحكام للمعاوضات والمعاملات ، وعهد بكل ما اشتمل عليه من خلق ونظام للجماعة البشرية . وهناك عهود الجماعات يدل عليها العرف وتدل عليها القرائن ، وهناك عهود قولية وعهود كتابية ، كل هذه العهود يجب الوفاء بها ، والوفاء بها من صفات السعداء ؛ فقوله تعالى : « ولا ينقضون الميثاق » ليس وصفا وحده وإنما هو مؤكد للوفاء بالعهد ، لأن من وفى بالعهد فقد حفظ الميثاق ، ومن نقض الميثاق فقد نكث بالعهد . ومن أوصافهم أنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل . والذى أمر الله به أن يوصل هو رعاية الحقوق الواجبة لله وللعباد وللنفس ، فيدخل فيه صلة الأرحام وصلة القرابة والجيران وجميع المؤمنين الذين اعتبرهم الله إخوة بقوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » فيعينهم ويدفع الأذى عنهم ، ويكتم سرهم ويذيع خيرهم ، ويستر عورتهم ، ويحفظ أموالهم وأعراضهم ، ويرشدهم إلى طرق الخيرات ، وليس هذا وصفا زائدا على الوفاء بالعهد بل هو داخل فيه ، لكن جرت سنة القرآن أن يبرز بعض الأوصاف الفاضلة ويخصها بالذكر بعد التعميم تنويها بشأنها وحثا للناس عليها ، وقد يذكر منها طائفة فى موضع وطائفة أخرى فى موضع آخر مراعاة للمناسبات ووفقا للأحوال . ويقال هذا فى باقى الأوصاف الآتية . ومن أوصافهم أنهم يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، فهم على الدوام مستشعرون خوفه ، ومستول عليهم جلاله ، يخافون — مهما أتوا به من طاعة وعبادة — أنهم قصروا فيها أو أن الإخلاص لم يكن كاملا فيها ، ويلاحظون

ذلك الجلال الإلهي والعظمة الإلهية ، ويخافون على الخصوص سوء الحساب .

وهذا الوصف كله هو وصف لعامة المؤمنين ، أما خاصة المؤمنين فلا يطلبون إلا رضاه ودوام اللذة بمشاهدة نوره وورد المعارف الإلهية والفيوض الربانية ، ولا يعنيهم شيء بعد ذلك من عذاب وثواب ونعيم وعقاب ، فهم فانون في الحب ، غارقون في العشق ، يبهرهم جماله ، ويخيفهم جلاله . ومن أوصافهم الصبر ابتغاء وجه الله ، يصبرون على العبادات وعلى ترك المعاصي إذا نازعتهم النفس وحفزتهم الشهوات ؛ ويصبرون على الفقر والهموم والأحزان والأمراض ، وعلى معاشرة الخلق واحتمال أذاهم ، وعلى شماتة الأعداء ؛ وعلى الجملة فهم يصبرون على كل مكروه ؛ يصبرون على كل ذلك لأن الصبر صفة من صفات الخير وخلق من الأخلاق الفاضلة ، وخصلة يرضاها الله سبحانه ، فهم يصبرون ابتغاء وجهه وطلبا لرضاه ، لا ليثنى عليهم بأنهم صابرون ، ولا لخوف شماتة الأعداء ، ولا لأن الجزع لا يرد مكروها ولا يأتي بحبيب . ومن صفاتهم إقامة الصلاة بتعديل أركانها واستيفاء شروطها والإخلاص لله فيها ومراقبته والفناء فيه . ومن صفاتهم الإنفاق سراً وعلانية مما رزقهم الله ، فهم لا يحرصون على العلانية للرياء ، ولا يؤخرون الإنفاق إلى التمكن من اليسر ، بل يغيثون الملهوف على أي نحو من الأنحاء عند الحاجة إلى العون ، ويؤدون الزكاة المفروضة وحقوق القرابة والرحم ، ويواسون اليتامى والضعفاء وذوي الحاجة ، ويقومون بحظهم في خدمة المجتمع والوطن كلما دعا الداعي وطرأت الحاجة والضرورات . والإنفاق على هذه الصفة من أدل الأمور على طهارة النفس ، وعلى عدم الأثرة والأنانية ، وعلى حب الجماعة البشرية ، فإن المال محبوب بطبعه عند الإنسان ، يرى أن ادخاره للحاجة عقل وأن جمعه فخر ، وأنه وسيلة للوصول إلى الرغائب ووسيلة تحقيق اللذات والشهوات ، فإخراجه لحاجة الناس والزهد فيه فضيلة من الفضائل الإنسانية التي يحبها الله ، والتي أكثر من ذكرها وقرر أنها من صفات المؤمنين السعداء وصفات

المفلحين المتقين . ومن صفاتهم أنهم يدرءون بالحسنة السيئة ؛ أى يدفعون السيئة تصل إليهم من غيرهم بالكلام الحسن ، ولا يقابلون الشر بالشر ، وإذا مروا باللغو مروا كراما ، وإذا أذنبوا تابوا . هذه هى صفات السعداء ، وهؤلاء لهم « عقبى الدار جنات عدن » أى أن أعمالهم تجعل عاقبة أمرهم فى الدنيا جنات عدن فى الآخرة . وجنات عدن هى دار الإقامة الخالدة التى لا ظعن عنها ولا فراق ، وفيها النعيم المقيم يدخلونها ، ويكون معهم فيها الصالحون من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، فينعمون بالسعادة الشخصية ، وينعمون بسعادة محبيهم وأقاربهم من أزواجهم وذرياتهم وآبائهم ، وينعمون بالأنس بهم . ومن تمام النعمة على الإنسان ومن تمام سعادته أن يرى أهله ومحبيه سعداء . وتحييهم الملائكة يدخلون عليهم من أبواب الجنة المتفرقة يقولون لهم : سلام عليكم بما صبرتم . ومعناه أن الكرامة التى أنتم فيها ، وهذه الخيرات التى تستمتعون بها لم تصل إليكم إلا بالصبر على طاعة الله ، وعلى أداء الأمانات لأهلها ؛ لقد احتملتم متاعب الحياة الدنيا فوجب لكم أن تستريحوا الآن ، ولنعم عقبى ما عملتم فى الحياة الدنيا ما أنتم عليه فى هذه الدار الآخرة من سرور دائم ونعيم مقيم ! هذه الصفات التى استحق بها أهلها عقبى الدار هى الصفات التى أعلت شأن الجماعة الإسلامية ، وأورثتها العزة والمجد ، ووحدت بينها فى الآمال والرغبات . فلتنظر أمة من التى مزقتها الأهواء ، وفرقتها المطامع الكاذبة ، وسحرتها الوعود الماكرة ، ولتوازن بين حاضرها وماضيها ، ولتتدبر ما هى الأسباب التى ألهتها وأضلتها ، وماهى الأسباب التى فرقتها شيعاً وجعلتها أحزاباً .

أما الآية السابعة والثامنة فخاصتان بالمؤمنين . . ففى السابعة بيان لأوصاف المشركين التى تناقض صفات المؤمنين ، وفى الثامنة يطلب الله عز وجل من المشركين أن لا يفرحوا بمتاع الدنيا ومالها ، وبما بسط الله لهم فيها من رزق ، فمتاع الحياة الدنيا قليل بجانب نعيم الآخرة ...

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « أفمن يعلم أنما أنزل

إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، نزلت هذه الآية فى حمزة وأبى جهل ، وقيل: فى عمار وأبى جهل . ومعنى « يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق » أى يؤمن به ويعمل بما فيه وهو حمزة أو عمار «كمن هو أعمى » أى أعمى البصيرة ولا يؤمن به ولا يعمل بما فيه وهو أبوجهل .. وحمل الآية على العموم أولى ، وإن كان السبب مخصوصاً ، والمعنى : لا يستوى من يبصر الحق ويتبعه ومن هو لا يبصر الحق ولا يتبعه ، وإنما شبه الكافر والجاهل بالأعمى لأن الأعمى لا يهتدى إلى سبيل الرشد « إنما يتذكر أولو الألباب » أى إنما يتعظ أصحاب العقول الذين يعتبرون وينعمون النظر والفهم والاعتبار . « الذين يوفون بعهد الله » أى بما عاهدوا الله عليه ، وبما عاقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قال الله عز وجل فى الأزل لهم : « ألست بربكم ؟ قالوا : بلى » .. « ولا ينقضون الميثاق » أى ما واثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبينهم وبين العباد ..

« والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل » أى من الإيمان والرحم وغير ذلك .. والأكثرون على أنه أراد به صلة الرحم .. ورد عن أبى موسى أن عبد الرحمن بن عوف عاد أبا الدرداء فقال عبد الرحمن : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما يحكى عن ربه تعالى : أنا الرحمن وهى الرحم شققت لها أسماء من اسمى، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته ، وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرحم متعلقة بالعرش تقول: من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من سره أن يبسط له فى رزقه وأن ينسأله فى أثره فليصل رحمه ، ومعنى ينسأ يؤخر ، والمراد به تأخير الأجل ، وفيه قولان :

أحدهما ، وهو المشهور : أن يزاد فى عمره زيادة حقيقة .

والثانى : يبارك له فى عمره ، فكأنه قد زيد فيه .

وعن أبى عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : ليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل الذى إذا انقطعت رحمه وصلها ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يأتى الرحم يوم القيامة فتقول : أى رب قطعت ، والأمانة تقول : أى رب تركت ، والنعمة تقول : أى رب كفرت ، وعن الفضيل بن عياض أن جماعة دخلوا عليه بمكة فقال : من أين أنتم ؟ فقالوا : من خراسان ، قال : اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم ، واعلموا أن العبد لو أحسن كل الإحسان وكان له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين « ويخشون ربهم » أى وعيده عموما ، والخشية خوف يشوبه تعظيم « ويخافون سوء الحساب » خصوصا فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا « والذين صبروا » أى على طاعة الله تعالى وعن معاصيه وفى كل ما ينبغى الصبر فيه ، وقال ابن عباس : صبروا على ما أمر الله تعالى ، وقال عطاء : على المصائب والنوائب ، وقيل : صبروا على الشهوات وعن المعاصى ، ومرجع الكل واحد ، فإن الصبر الحبس وهو تجرع مرارة النفس عما تحبه مما لا يجوز فعله « ابتغاء » أى طلب « وجه ربهم » أى رضاه لا طلب غيره من جزر أو سمعة أو ريا أو لغرض من أغراض الدنيا أو نحو ذلك « وأقاموا الصلاة » أى المفروضة ، وقيل : مطلق الصلاة فيدخل فيه الفرض والنفل « وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية » قال الحسن : المراد به الزكاة فإن لم يتهم بترك الزكاة فالأولى أن يؤديها سراً ، وإن كان يتهم بترك أدائها فالأولى أن يؤديها علانية ، وقيل : المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية الزكاة ، وقيل : المراد بالسر ما يؤديه من الزكاة بنفسه ، وبالعلانية ما يدفعه إلى الإمام « ويدرأون » أى يدفعون « بالحسنة السيئة » كالجهل بالحلم والأذى بالصبر ، روى عن ابن عباس قال : يدفعون بالصالح من العمل السىء من العمل ، وهو معنى قوله تعالى : « إن الحسنات يذهبن السيئات » ، وقوله صلى الله عليه وسلم « إذا عملت سيئة فاعمل بجانبها حسنة تمحها ، السر بالسر والعلانية بالعلانية » ؛ وعن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن مثل المؤمن الذى يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيق قد خنقه

ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ، ثم عمل حسنة أخرى فانفكت أخرى حتى يخرج إلى الأرض . وقال ابن عباس : يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم ؛ وعن الحسن : إذا حرموا أعطوا ، وإذا ظلموا عفوا ، وإذا قطعوا وصلوا ؛ وعن ابن عمر : ليس الواصل من وصل ثم وصل تلك مجازاة ، لكن من قطع ثم وصل وعطف من لم يصله ، وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى إذا هيجه قوم اهتاج ، لكن الحليم من قدر ثم عفا ؛ وعن ابن كيسان : إذا أذنبوا تابوا ، وقيل : إذا رأوا منكرا أمروا بتغييره ؛ ويروى أن البلخى دخل على ابن المبارك فقال له : من أين أنت ؟ فقال : من بلخ ، فقال : وهل تعرف شقيقا البلخى ؟ قال نعم ، فقال : وكيف طريق أصحابه ؟ قال : إذا منعوا صبروا ، وإذا أعطوا شكروا ؛ قال ابن المبارك : طريقة كلابنا هكذا ، فقال شقيق : فكيف ينبغى أن يكون الأمر ؟ فقال : الكاملون هم الذين إذا منعوا شكروا وإن أعطوا آثروا « أولئك » أى العالو الرتبة « لهم عقبى الدار » وبينها تعالى بقوله « جنات عدن » أى إقامة لا انفكاك لها يقال : عدن بالمكان إذا أقام به ، ثم استأنف لبيان تمكنهم بها بقوله تعالى « يدخلونها » ولما كانت الدار لا تطيب بدون الأحبة قال تعالى : « ومن صلح من آبائهم » أى الذين كانوا سبباً فى إيجادهم فيشمل ذلك الآباء والأمهات وإن علوا « وأزواجهم وذرياتهم » أى الذين تسببوا عنهم ، والمعنى : أن يلحق بهم من صلح من أهلهم وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعاً لهم وتعظيما لشأنهم ، ويقال : إن من أعظم موجبات سرورهم أن يجتمعوا فيتذكروا أحوالهم فى الدنيا ثم يشكرون الله تعالى على الخلاص منها والفوز بالجنة ، ولذلك قال تعالى فى صفة أهل الجنة إنهم يقولون : يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ؛ وفى ذلك دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة ، وفسر ابن عباس الصلاح بالتصديق فقال : يريد من صدق بما صدقوا وإن لم يعمل مثل أعمالهم ، قال الرازى : قوله « وأزواجهم » ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ، ولعل الأولى من مات عنها أو ماتت عنه ، وما روى عن

سودة أنها ـ لما هم رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلاقها قالت : دعنى يارسول الله أحضر فى جملة نسائك ـ كالدليل على ماذكرنا » .. وعلى هذا من تزوجت بغيره قيل : إنها تخير بينهما ، ثم زاد تعالى فى ترغيبهم ، بقوله تعالى « والملائكة يدخلون عليهم » لأن الإكثار من ترداد رسل الملك الأعظم فى الفخر أكثر، ولما كان إتيانهم من الأماكن المعتادة مع القدرة على غيرها أدل على الأدب والكرم قال تعالى « من كل باب » قال ابن عباس : لهم خيمة من درة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها ألف باب مصارعها من ذهب يدخلون عليهم من كل باب يقولون لهم « سلام عليكم » أى فأضمر القول هنا لدلالة الكلام عليه « بما صبرتم » على أمر الله ، والباء للسببية أى بسبب صبركم أو البدلية أى وبدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه ، ويتعلق قوله تعالى « بما صبرتم » عند الزمخشرى ، بمحذوف تقديره : هذا بما صبرتم ، وعند البيضاوى متعلق بعليكم أو بمحذوف ، لابسلام .

وبعد : فلقد قرأت من أول السورة هذه الآيات البينة ، بل الدلائل الساطعة والأنوار اللامعة ، وتجلت لك الحجج البالغة والبراهين الدامغة ، فلم يبق إلا أن تكون هناك عيون تبصر وقلوب تعقل ، فهل يستوى من أبصر الهدى والرشاد ، ومن عميت بصيرته فلم يرما أمامه وسار يتخبط فى ظلمات الجهالة ؟ هل يستوى من اهتدى فغنم وسلم ، ومن ضل فضاعت عليه الفوائد التى عرضت عليه ، وكان جناها دانى القطوف بين يديه ؟ هل يستوى من سار السير السوى وسلك الطريق الرضى فوصل إلى السعادة ، ورزق الحسنى وزيادة ، ومن تنكب الصراط المستقيم وساربجد ، وهو كلما جد فى سيره ابتعد عن قصده ، وربما خبط فى سيره فأتلف على نفسه ما قد كان سليما له ؟ حقا إنه لايستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون. وليس الذى يعلم أن ما أنزله الرب الكريم الرحمن الرحيم هو الهدى والرحمة المهداة فأخذه شاكراً ، كذلك الأعمى الذى يضع يده على ما يظنه مطلبه وإذا هو يقبض على آفة مهلكة ، ويشتط فى السير وإذا هو يتردى فى بئر . ولا يتذكر وينتفع بالذكرى إلا أولو

الألباب والعقول الصافية الخالصة ، كما قال تعالى : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

قال تعالى : « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » الآيات ، وهذه الآيات والتى بعدها فى قوله تعالى : « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » تفصيل وتصريح بما تضمنه هذا المثل الجليل المذكور فى قوله عز وجل : « أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق » الخ ، فالجملتان مستقلتان بالفائدة كل فى بابها ، ولكنهما بسبب متين من ذلك المثل السابق ، حتى ظن بعض المفسرين أن قوله : « الذين يوفون » الخ بدل من قوله « أولو الألباب » أو من قوله « أفمن يعلم أن ما أنزل » الخ . وهذا من شدة الارتباط بين المثل على إجماله ، وبين ما سيق لشرحه وتفصيله ، وإنما هما جملتان كما سمعت ، أولاهما فيها مبتدأ موصوف بتسع صفات بينة ، وخبره هو قوله : « أولئك لهم عقبى الدار » ، وثانيتهما مبتدؤها قوله : « والذين ينقضون عهد الله » الخ وخبره قوله : « أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » . ولكن الآية الشريفة فى القرآن الكريم تراها من قوة الارتباط كأنها كلام واحد وجملة واحدة ، فتنقل فى فوائدها المتنوعة المتكررة ، وكأنك لاتزال فى الكلام الأول . وهذا من أقوى الميزات التى امتاز بها القرآن الكريم . فالنوع الأول قد جاء موصوفا بتسع صفات جليلة ، ونحن نجلوها لك مفصلة :

الأولى قوله تعالى : « يوفون بعهد الله » ، وقد نقل فى تفسيرها قولان :

١ — عن ابن عباس أن المراد بعهد الله ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته ، وهو ما أشير إليه فى قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » .

٢ — أن المراد بالعهد ما أقام الله الحجة العقلية أو السمعية على صحته فى المعتقدات ، وعلى طلبه فى الأعمال حتى صار كأنه عهد بين الله وبين عباده . ويقرب من هذا أن المراد بالعهد الشرائع التى أمر الله بها عباده ، فقد

أقام عليها حجته ، وقررها بآياته على ألسنة رسله عليهم السلام . ولعل القولين مرجعهما واحد ولا خلاف بينهما ، فلقد سبق أن بينا أن ما أشهد الله بنى آدم عليه واعترفوا به فى قوله : « وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » هو ماركبه فى فطرهم من إدراك ماهم عليه من حاجة إلى تعهد القدرة الإلهية لهم بالإيجاد والتربية والتكميل ، وما أودعه فيهم من الشعور بأنهم لا قيام لهم إلا بإرادة الحى القيوم ، ولا كمال لهم إلا أن يؤتيهم الله الكمال من واسع رحمته ، وأن كل شىء فيهم شاهد بأن ربهم الله ، ولامتصرف فيهم وفى هذا العالم أجمع إلا هو وحده لاشريك له ، فتكون شهادة حال .

٢ — والقول الثانى ، وهو راجع إلى هذا القول ، أن المراد بعهد الله ما أقام الله تعالى الحجة القاطعة على صحته أو على لزومه ووجوبه ، وذلك يشمل جميع التكاليف . وكأن التعبير عنها بأنها عهد الله إشارة إلى أنه لما كان من شأن العبد الخاضع لربه أن يعترف بما قرر حقيته ، ويمتثل ما أوجبه وفرضه ، وأنه لامندوحه له أن يكون مطيعا لخالقه ، وأن من رحمة الله بعبده أن يتعهده بالهداية والإرشاد ، كان مايقوم عليه البرهان القاطع والحجة البينة بمثابة عهد ارتضاه الطرفان وأقراه بينهما ، ويكون القيام به امتثالا واعترافا ، ووفاء بذلك العهد الذى ينبغى أن يكون مستقرا لامحالة بين العبد وربه ؛ وهذا ولاشك معنى عام شامل لكل فروع الشريعة وأصولها ، فما من باب من أبواب الشرع ولا فضيلة فى الخلق ولا عدالة فى المعاملة ولا مجاملة فى المعاشرة إلا وهو داخل فى عهد الله ، والقيام به من باب الوفاء بعهد الله . وإنك لتجد فى إضافة العهد إلى الله من تربية الداعية للامتثال والحفز على الوفاء ما هو غنى عن البيان ، فهو عهد إن لم يكف فيه أنه عهد فيكفيه أنه عهد الله ، ولفظ الجلالة متضمن لكل صفات العظمة والجلال . فهو يجمع الصفات المتجلية فى أسمائه الحسنى عز وجل ، وأيضا فإنه لايسمى الشخص موفيا بعهد الله إلا إذا قام بكل ماكلفه به الله ، فإن من حلف على أشياء لايخرج عن الحنث ولا يسمى بارا فى يمينه

إلا إذا أتى بها جميعها ، فالإخلال بشيء واحد منها يسمى نكثا لليمين وحنثا فيه ونقضا للعهد .

أما الثانية من الصفات التسع فهي ماذكر في قوله تعالى : « ولا ينقضون الميثاق » وهو وإن كان قريبا من الوصف الأول وهو الوفاء بعهد الله إلا أن بينهما شيئا من الفرق ، فالأول ظاهر فيما أمر الله به ابتداء ، والثاني يتبادر منه ما أكده المرء بميثاق أعطاه على نفسه ، سواء أكان فيما بينه وبين ربه كالأيمان والنذور ، أو بينه وبين الخلائق كأنواع العقود والمعاهدات . وأيضا فإن قوله : « ولا ينقضون الميثاق » فيه تأكيد لاستمرار وفاء العهد المستفاد من صيغة الجملة الفعلية التي للاستقبال ، فقد قرر علماء البلاغة أنها تشعر بالاستمرار ، ولكن التصريح بأنهم لاينقضون الميثاق أوفى بالدلالة على ذلك . ولقد جاء الحث على وفاء العهد والتنفير من نقض المواثيق في غير ما آية وحديث ، قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » وقال تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » أى فآذنهم بأن ما بينك وبينهم من عهد قد نبذ بسبب مابدر منهم ، ولا تأخذهم غيلة وعلى غرة . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاإيمان لمن لاأمانة له » وروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى عهداً ثم غدر ، ورجل استأجر أجيرا استوفى عمله وظلمه أجره ، ورجل باع حرا فاسترق الحر وأكل ثمنه » وتجمع العقول والشرائع على استنكار الغدر مهما كانت دواعيه وفوائده ، روى أن ملكا أعياه خارج عليه فلم ير بدأ من أن يؤمنه ليأمن شره ، فوثق به الخارج وأسلم قياده ، فغدر به ، فلما اشتفى منه وأمن على مملكته خاطب بعض خواصه مبتهجا فقال: كيف رأيت ، لقد استرحنا من هذا الخارج! فأجابه بأن ماخسرته أيها الملك أضعاف ماربحته بالراحة منه ، فقد أضعت الثقة بعهدك فلا يطمئن إليك بعدها أحد، فكان سببا عظيما لأسفه وندامته

والصفة الثالثة هى ما ذكر فى قوله تعالى : « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل » . وهذا وصف عام يتناول أحوالا عديدة قد أمر الله بصلتها ، ففيه صلة الرحم ، وصلة القرابة ، وحسن الجوار ، وإكرام الجار ، ومراعاة حقوق أخوّة الإيمان المذكورة فى قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » ، وفيه صلة الأغنياء للفقراء بالإحسان إليهم ، والعطف على الأيتام والحنو عليهم ، وفيه التواد بين الناس ، وفيه ـ وهو من أعظمها ـ صلة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمناصرة والمؤازرة ونصرة دينه ، ومحبته حتى يكون أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين ، بل أحب إليه من نفسه ، وفيه ـ وهو أعمها ـ صلة الإيمان بالعمل والإحسان . فإذا قيل فى تفسير الآية بواحد من هذه المذكورات فالآية متسعة لجميعها ، ولا وجه لتضييق الفائدة مع اتساع الآية للجميع ، فيدخل فيه جميع الحقوق الواجبة الرعاية بين العباد ، بل حتى الرفق بالحيوان وما ماثل ذلك . ولقد يقال : أليس هذا داخلا فى الوفاء بعهد الله وعدم نقض الميثاق ، لا سيما إذا فسر العهد بالشرائع التى أمر الله بها ؟ أليس هذا وما بعده داخلا فيما أمر الله به فى شرائعه ؟ وجوابه أن هـذا تقرير وتنصيص على أهم الأمور التى قد يغفل عنها بعض المكلفين مع أهمية شأنها ، ومقام الإرشاد وتربية النفوس لا يكفى فيه عام عن خاص ولا مجمل عن مفصل ، فذكر هذه الصفة وما بعدها للإشادة بها ، وتربية النفوس على الأخذ بها والتزامها .

والرابعة والخامسة ما فى قوله تعالى : « ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب » . والمعنى فيهما أن هذه الصفات السابقة على جلالتها إنما تكون موجبة لرضاء الحق واستحقاق المثوبة ودخول صاحبها فى أولى الألباب المتذكرين الذين علموا أن ما نزل إلى محمد من ربه الحق ، إذا كان الباعث لهم على الإتيان بها خشية ربهم وخوفهم من حسابه يوم يقوم الناس لرب العالمين . والخشية والخوف متقاربان فى المعنى وإن فرق بعضهم بينهما ببعض الفروق ، مثل أن الخشية خوف يصحبه تعظيم وإجلال للمخشى وإن كان الخاشى أيضا عظيما ، والخوف يرجع إلى ضعف الخائف وإن كان المخوف

منه أمراً يسيرا ، ومثل أن الخشية ترجع إلى من يصدر عنه الأمر الضار المؤلم ، والخوف يتعلق بنفس ذلك الأمر المؤلم أو بمصدره ، تقول : خفت الأسد وخفت اغتياله ، ولا تقول : خشيت الأسد ، ولا يقال: خشيت اغتياله إلا على وجه التوسع ، غير أن الاستعمال الفصيح قد جاء فيه الوجهان ، فقد قال تعالى : «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق» إلا أن إشعار الخشية باستعظام المخشي منه ، والخوف باستصغار الخائف أمر نفسه ، يكاد يكون واضحا في أغلب الاستعمالات . وقد عرفت أن المراد بهذين الوصفين لفت النظر إلى أن محل الاعتداد شرعا بما ذكر من الصفات إنما هو حينما يكون الباعث عليها امتثال أمر الله .

والصفة السادسة ما في قوله تعالى : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم » . والصبر ملاك العبادات ، بل مجمع الفضائل كلها . وقد ورد فيه « الصبر نصف الإيمان » .. وقد ذكر في القرآن الكريم نيفا وسبعين مرة . ولقد قيد بقوله : « ابتغاء وجه ربهم » لأن الصبر كثيرا ما تدعو إليه دواع هي من حظوظ النفس ، كالصبر تجلدا ، والصبر حبا للمحمدة ، والصبر اتقاء شماتة الأعداء ، والصبر لعلمه أن الجزع لا يعيد عليه فائتا ، وليس شيء من هذا بالصبر المحمود في نظر الشرع ، وإنما الصبر الذي أثنى الله عليه وحث عليه ودعا إليه هو الصبر ابتغاء وجه الله أي طلبا لمرضاته ، ويقع هذا على وجوه : أحدها أن يصبر على البلاء لأنه قسمة من الحكيم العلام يجب الخضوع لها والإذعان رضا بحكم قاسمها . وثانيها أن يصبر على ما يكرهه لعلمه أنه من تصرفات الحكيم العليم الذي لا يفعل إلا عن حكمة . وكل ما صدر منه فهو خير وجميل في ذاته وموافق للمصلحة العامة والنظام العالمي ، فيكون جمالا مرضيا محبوبا . وثالثها أن يصبر لأن الله أمره بالصبر ، فهو يرجو ثواب الله بامتثال أمره . ورابعها ـ ولعله أعلاها ـ أن يصبر عن رضا بل عن حب لمن اختصه بهذه التصرفات ، فهو يرى فيها تذكيرا بالعظمة الإلهية ، فينتقل نظره من البلية إلى المبتلي بها فيستغرق في شهوده ويتلذذ بتذكره ، على نسق ما يقول المحب

لحبيبه : هذه هى الكلمة التى يلذ لها سمعى وإن ضمنت شتمى . ولعل هذا المقام الأخير يستشعر به من قوله تعالى : « ابتغاء وجه ربهم » فكأنهم رأوا فيما أصابهم مايجعلهم يحصرون كل تفكيرهم فى تذكر جلال ربهم حتى كأنهم يشاهدونه ، فهم يبتغون بالصبر شهود وجه ربهم ، وهذا مقام ذوقى من ذاقه عرفه . وفى اختيار صيغة الماضى فى قوله « صبروا » إشارة إلى أن فضيلة الصبر ينبغى أن تكون حاصلة مستقرة ثابتة لا تزول ولا تتزلزل ، وأما الأعمال التى سبقت فعبر عنها بصيغة المضارع لأنها تتجدد حينا بعد حين لكل مناسبة كالوفاء بالعهد ، ووصل ما أمر الله به أن يوصل .

والصفة السابعة والثامنة مافى قوله تعالى : « وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية » وإن أكثر ماتذكر الصلاة بلفظ أقام ، للإشارة إلى أن المطلوب فى الصلاة استيفاء أركانها وإقامة أعمالها حتى تكون كالبناء المتماسك القائم على أحسن حال وأجمل هيئة . وحسبك فى هذا ماروى من قوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى أساء صلاته : « صل فإنك لم تصل » فقد جعل العمل الذى لم يستوف ماطلب منه هدرا ملغيا كأنه لم يكن . وكذلك أكثر ما تذكر الصلاة مقترنة بالزكاة . وهذا ماجاء هنا فى قوله : « وأنفقوا مما رزقناهم » وفى التعبير بقوله : « مما رزقناهم » تربية لداعية الإنفاق ، فكأنه يقول لهم : إن مادعوناكم للإنفاق منه هو رزق أغدقناه عليكم فلا عذر لكم فى مخالفة أمرنا والشح به على عبادنا . وقوله : « سرا وعلانية » لبيان أن الإنفاق على كل حال حسن جميل ، وقد يطلب كل منهما فى مقامه اللائق به ، فربما كان الإنفاق فى السر أفضل حينما يخشى الرياء أو يكون المنفق عليه يستحى ويتأذى من إعلان إعطائه ، وقد يكون الإنفاق علنا أفضل كما إذا ظن أن عمله سيكون قدوة حسنة لغيره . ومنهم من حمل الإنفاق سرا على الصدقة النافلة ، والإنفاق علنا على الزكاة المفروضة ، وهو وجيه أيضا . وقد جاء فى حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » : « ... ورجل أنفق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »

والصفة التاسعة فى قوله تعالى : « ويدرءون بالحسنة السيئة » ومعنى يدرءون يدفعون ، وذلك أيضا يجىء على وجوه ، فمنها : أن يقابل الشر بالخير كما جاء فى قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس الإحسان أن تحسن لمن أحسن إليك، وإنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك » . ومنها أن ينهى عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة . ومنها أن يستل بغض المبغض بالمعروف حتى يصيره خيرا بعد أن كان شريراً . ومنها أنه إذا بدرت منه سيئة أتبعها بالحسنة حتى يغفرها الله له « إن الحسنات يذهبن السيئات » .

وهذه هى الصفات التى وصف الله بها عباده المتقين بعد أن وصفهم بأنهم أولو الألباب الحقيقون بأن يتذكروا وتنفعهم الذكرى ، والجديرون بأنهم علموا أن ما أنزل إلى النبى صلى الله عليه وسلم من ربه هو الحق . وقد أخبر بعد ماساق صفاتهم الجليلة ونعوتهم الجميلة بأن لهم عقبى الدار . وإعادة ذكرهم بقوله : « أولئك » كأنه ليشير إليهم حتى يراهم العقل شاخصين بصفاتهم السابقة ، فيفيض عليهم هذا الجزاء الأوفى من أجل تلك الصفات التى جلاهم بها . ومعنى «عقبى الدار» : العاقبة الجميلة لهذه الدار التى لا تخلو من الأكدار ، فهى عاقبة خالية من أكدار هذه الحياة ، وهى عاقبة خالدة مستقرة ، فهى الحياة الحقيقية ، وأما هذه الحياة فهى متاع زائل ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان . فهذه الكلمة على حد قول الناس فى مخاطباتهم : فلان هو الفائز فى النهاية ، أو هو الذى كسب آخرا ، وأمثال ذلك ، ولله المثل الأعلى .

وأردفها بقوله تعالى : « جنات عدن » ، وهى منزلة وسط الجنة ، أو جنات عدن بمعنى الإقامة والاستقرار ، من عدن بالمكان أقام به واستقر فيه ، ومنه المعدن لمستقر الجواهر والنفائس . قال تعالى : « يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم » ، وهاهنا يتبادر أن تقوى الآباء تفيد أبناءهم وأزواجهم وذراريهم إذا كانوا صالحين أى مؤمنين وإن قصروا عن أعمال آبائهم بعض التقصير ، فيصح أن يكرم الله عباده الأتقياء الصالحين برفع

درجات ذريتهم وأزواجهم إلى منازلهم وإن قصروا عنهم ، حتى يكون التكريم وجه، فإنه إذا كان الذرارى لا ينالون تلك المنزلة وهى جنات عدن إلا إذا عملوا لها العمل الكامل ، فمن أين يكون تكريم آبائهم بتكريمهم ؟ فهم حينئذ يكونون قد أكرموا لأنهم استحقوا ذلك بأنفسهم . نعم قيد الصلاح أى الإيمان لا بد منه ، لقوله تعالى : « ومن صلح » ولا يمنع هذا قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ماسعى » فإن هذه المنزلة التى نالها أولئك المؤمنون المقصرون ، نالوها بفضل من الله لا باستحقاق ، وفضل الكريم واسع ، وإن كان لا ينبغى الاعتماد على هذا والاستخفاف بالتكاليف ، فانه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . وقوله تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب » إشارة إلى التكريم والتحية التى يمنحهم الله إياها ، حتى يفوزوا بالنعيم والتكريم . وقوله : « من كل باب » يحتمل أن يكون إشارة إلى سعة ما أعد لهم حتى صار له أبواب عدة يتوافد عليهم منها الملائكة للتحية . ويحتمل أن تكون الأبواب إشارة إلى تعدد أبواب البر والخير والتقوى التى قاموا بها فى دنياهم ، فاستحقوا بسببها تحية الملائكة وتوافدهم عليهم وقوله : « سلام عليكم بما صبرتم » أى يحيونهم بهذه المقالة ، وكان اختيار السلام لأنه بمعنى الأمان من كل مايخاف . فكأنه يقال لهم : قد أصبحتم بمأمن من كل المخاوف ، فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون . وقوله : « بما صبرتم » إنما خص الصبر بالذكر لما قدمنا لك من أن الصبر عماد التكاليف كلها وقطب دائرتها ، فما من تكليف إلا ومرجعه إلى الصبر على عمل شاق ، أو الصبر عن مشتهى تميل اليه النفس . « فنعم عقبى الدار » ثناء أجل ثناء على ما فازوا به بما صبروا .

أما النوع الثانى : وهم المشركون ، فقد ذكر الله عز وجل لهم صفات هى فى غالب أمرها تناقض صفات المؤمنين ، ولا يخفى عليك مغزاها ولا معناها . وهكذا لما ذكر تعالى صفات السعداء وذكر ما يترتب عليها من الأحوال الشريفة العالية ، أتبعها بذكر أحوال الأشقياء وذكر ما يترتب عليها من

الأحوال المخزية الأليمة وأتبع الوعد بالوعيد ، والثواب بالعقاب ، ليكون البيان كاملا ؛ فقال تعالى « والذين ينقضون عهد الله » أى فيعملون بخلاف موجبه ، والنقض التفريق « من بعد ميثاقه » أى الذى أوثقه الله عليهم من الإقرار والقبول « ويقطعون ما » أى الذى « أمر الله به أن يوصل » وذلك فى مقابلة « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل » فجعل من صفات هؤلاء القطع بالضد من ذلك الوصل ، والمراد به قطع ما يوجب الله تعالى وصله لما له من المحاسن الجليلة والخفية التى هى عين الصلاح ، ويدخل فى ذلك وصل الرسول صلى الله عليه وسلم بالموالاة والمعاونة ، ووصل المؤمنين ، ووصل الأرحام ، ووصل سائر من له حق « ويفسدون » أى يوقعون الفساد « فى الأرض » أى فى أى جزء كان منها بالظلم وتهييج الفتن والدعاء إلى غير دين الله تعالى « أولئك » أى البعداء البغضاء « لهم اللعنة » أى الطرد والبعد « ولهم سوء الدار » والدار لهم هى جهنم ، وليس لهم فيها إلا ما يسوء الصائر لها ، ولما حكم تعالى على من نقضوا عهده فى قبول التوحيد والنبوة بأنهم ملعونون فى الدنيا ومعذبون فى الآخرة ، فكأنه قيل : لو كانوا أعداء الله لما فتح الله عليهم أبواب النعم واللذات فى الدنيا ، فأجاب الله تعالى بقوله « الله يبسط الرزق » أى يوسعه « لمن يشاء ويقدر » أى يضيقه لمن يشاء سواء فى ذلك الطائع والعاصى ، ولا تعلق لذلك بالكفر والإيمان ، فقد يوجد الكافر موسعا عليه دون المؤمن ويوجد المؤمن موسعا عليه دون الكافر ، فالدنيا دار امتحان ؛ ولما كانت السعة مظنة الفرح إلا عند من وفقه الله تعالى .. قال الله تعالى « وفرحوا » أى كفار مكة فرح بطر « بالحياة الدنيا » أى بما نالوه فيها لا فرح سرور بفضل الله والعافية عليهم ، ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة « وما الحياة الدنيا » أى بكمالها « فى الآخرة » أى فى جنبها « إلا متاع » أى حقير فإنه يتمتع به ويذهب كعجالة الراكب وهى ما يتعجله من ثمرات أو شربة ماء سويق أو نحو ذلك .

٢٧ — وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ

إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيَ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ .

٢٨ — الَّذِينَ ءامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ .

٢٩ — الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ .

٣٠ — كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ .

٣١ — وَلَوْ أَنَّ قُرْءانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ الَّذِينَ ءامَنُوا أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ .

٣٢ — وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ .

٣٣ — أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ .

٣٤ — لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ .

يقول الله تعالى فى هذه الآيات الكريمة : « ويقول الذين كفروا » من أهل مكة « لولا » أى هلا « أنزل عليه » أى على هذا الرسول « آية » أى علامة بينة « من ربه » أى المحسن إليه ، كالعصا واليد لموسى ، والناقة لصالح ، أى لنهتدى به فنؤمن به ؛ وقد أمره الله تعالى أن يجيبهم بقوله « قل » أى لهؤلاء المعاندين « إن الله يضل من يشاء » إضلاله فلا تغنى عنه الآيات شيئا وإن ترك كل آية « ويهدى » أى يرشد « إليه » أى إلى دينه « من أناب » أى رجع إليه ، كأبى بكر الصديق وغيره ممن تبعه من العشرة المشهود لهم بالجنة وغيرهم ، ولو حصلت آية واحدة فلا تشتغلوا بطلب الآيات ، ولكن تضرعوا إلى الله تعالى فى طلب الهدايات ، وقوله تعالى « الذين آمنوا » بدل من «أناب» ، أو خبر مبتدأ محذوف « وتطمئن » أى تسكن « قلوبهم بذكر الله » أى أنسا به واعتماداً عليه ورجاء منه ؛ أو بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته ؛ وبذكر دلائله الدالة على وجوده ، أو بالقرآن الذى هو أقوى المعجزات ، وقال ابن عباس : يريد : حين سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت ، وقد قال الله تعالى فى سورة الأنفال « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » ، والوجل ضد الاطمئنان فكيف الجمع بين هاتين الآيتين ؟ أجيب بأنهم إنما ذكروا العقاب ولم يأمنوا أن يقدموا على المعاصى فهناك يحصل الوجل ، وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم إلى ذلك وحينئذ حصل الجمع بينهما « ألا بذكر الله » أى الذى له الجلال « تطمئن » أى تسكن « القلوب » ويثبت اليقين فيها « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم » اختلف العلماء فى تفسير « طوبى » ، فقال ابن عباس : فرح لهم وقرة عين ، وقال عكرمة : نعمة لهم ، وقال قتادة : حسنى لهم ، وقال النخعى : خير لهم وكرامة ، وقال سعيد بن جبير : طوبى اسم الجنة بالحبشية ،

قال الرازى : وهذا القول ضعيف لأنه ليس فى القرآن إلا العربى لا سيما
واشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر ؛ وعن أبى هريرة وأبى الدرداء :
طوبى شجرة فى الجنة ، وهو مثل القول الأول ، وفى رواية عن أبى هريرة
أنه قال : إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى ، وقيل : طوبى فعلى من الطيب
قلبت ياؤه واوا لضمه ما قبلها ، مصدر لطاب كبشرى وزلفى ، ومعنى طوبى لك
« وحسن مآب » أى حين المنقلب أصبت خيراً وطيبا « كذلك » أى مثل
إرسال الرسل الذى قدمنا الإشارة إليهم فى آخر سورة يوسف وفى غيرها
« أرسلناك فى أمة » أى جماعة كثيرة « قد خلت من قبلها » أى تقدمتها « أمم »
طال أذاهم لأنبيائهم ومن آمن بهم ؛ واستهزاؤهم بهم فى عدم الإجابة حتى
كأنهم تواصوا بهذا القول ، فليس ببدع إرسالك إليها « لتتلو » أى لتقرأ
« عليهم » أى على أمتك « الذى أوحينا إليك » من القرآن وشرائع الدين
« وهم » أى والحال أنهم « يكفرون بالرحمن » أى بالبليغ الرحمة الذى وسعت
رحمته كل شيء ، وقال قتادة : هذه الآية مدنية نزلت فى صلح الحديبية ، وذلك
أن سهل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح ، فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ؛ فقال
سهل بن عمرو : لا نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة يعنى مسيلمة الكذاب ،
اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم ، فهذا معنى قوله « وهم يكفرون بالرحمن »
أى إنهم يكفرونه ويجحدونه ، قال البغوى : والمعروف أن الآية مكية ،
وسبب نزولها أن أبا جهل سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى الحجر يدعو
يا ألله يا رحمن ، فرجع إلى المشركين فقال : إن محمداً يدعو الله ويدعو إلها آخر
يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، فنزلت هذه الآية ونزل
قوله تعالى : قل ادعو الله أو ادعو الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى ؛
وروى الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت فى كفار قريش حين قال لهم النبى
صلى الله عليه وسلم : اسجدوا للرحمن ، قالوا : وما الرحمن ؟ قال : الله تعالى
« قل » لهم يا محمد إن الرحمن الذى أنكرتم معرفته « هو ربى لا إله إلا هو

عليه توكلت » أى اعتمدت عليه فى أمورى كلها « وإليه متاب » أى مرجعى ومرجعكم ، وروى أن أهل مكة قعدوا فى فناء الكعبة فأتاهم النبى صلى الله عليه وسلم وعرض الإسلام عليهم ، فقال له عبد الله بن أمية المخزومى : سير لنا جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا ، واجعل لنا فيها أنهاراً نزرع فيها ، وأحى لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق ما تقول أم باطل ؟ فقد كان عيسى يحيى الموتى ، وسخر لنا الريح حتى نركبها إلى البلاد ، فقد كانت الريح مسخرة لسليمان ، فلست بأهون على ربك من سليمان ؛ فنزل قوله تعالى « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال » أى نقلت عن أماكنها « أو قطعت » أى شققت « به الأرض » من خشية الله تعالى عند قراءته وجعلت أنهاراً وعيونا « أو كلم به الموتى » أى بأن يحيوا ، وجواب لو محذوف أى لكان هذا القرآن فى غاية ما يكون من الصحة واكتفى بمعرفة السامعين مراده ، وهذا معنى قول قتادة ، قال : لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم ، وقيل تقديره : لما آمنوا ، ونقل عن الفراء أن جواب لو هى الجملة من قوله « وهم يكفرون بالرحمن » ، أى لو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى كفروا بالرحمن ولم يؤمنوا بما سبق من علمنا فيهم ، وحذفت التاء فى قوله تعالى « أو كلم به الموتى » وثبتت فى الفعلين قبله لأنه من باب التغليب ، لأن الموت يشمل المذكر والمؤنث « بل لله الأمر » أى القدرة على كل شىء « جميعا » وهذا إضراب عما تضمنته « لو » من معنى النفى أى بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآية ، لكن الإرادة لم تتعلق بذلك لعلمه تعالى بأنه لا يلين قلوبهم ، ويؤيد ذلك قوله تعالى « أفلم ييأس الذين آمنوا » عن إيمانهم ما رأوا من أحوالهم ؛ وذهب أكثرهم إلى أن معناه : أفلم يعلم الذين آمنوا « أن » أى بأنه « لو يشاء الله » أى الذى له صفات الكمال « لهدى الناس جميعا » أى بالإيمان من غير آية « ولا يزال الذين كفروا » أى جميع الكفار « تصيبهم بما » أى بسبب ما « صنعوا قارعة » أى نازلة وداهية تقرعهم بأنواع البلايا : تارة بالجدب ، وتارة بالسلب ، وتارة بالقتل ، وتارة بالأسر ،

وغير ذلك ، واختلف فى الكفار على قولين : قيل : أراد به جميع الكفار لأن الوقائع الشديدة التى وقعت لبعض الكفار من ذلك أوجبت حصول الغم فى قلب الكل ، وقيل : المراد بالكفار من أهل مكة ، والألف واللام للمعهود السابق ، ويدل لهذا قول ابن عباس : أراد بالقارعة السرايا التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها إليهم «أو تحل» أى تنزل نزولا ثابتاً تلك القارعة «قريباً من دارهم» أى فتوهن أمرهم ، وقيل معناه : أو تحل أنت يا محمد بجيشك قريبا من دارهم بمكة كما حل بالحديبية «حتى يأتى وعد الله» أى بالنصر وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه بفتح مكة ، أو بالنصر على جميع الكفرة فى زمن عيسى عليه السلام فينقطع ذلك لأنه لا يبقى على الأرض كافر ، وقيل : أراد بوعد الله يوم القيامة لأن الله يجمعهم فيه فيجازيهم بأعمالهم «إن الله لا يخلف الميعاد» لامتناع الكذب فى كلامه تعالى ، ولما كان الكفار سألوا هذه الآيات منه صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية ، وكان ذلك يشق عليه ويتأذى من تلك الكلمات أنزل الله تعالى تسلية له وتصبرا له على سفاهة قومه «ولقد استهزىء برسل من قبلك» كما استهزىء بك «فأمليت للذين كفروا» أى أطلت المدة بتأخير العقوبة «ثم أخذتهم» بالعقوبة «فكيف كان عقاب» أى هو واقع موقعه فكذلك افعل بمن استهزأ بك ، والإملاء الإمهال ، وهذا استفهام معناه التعجب وفى ضمنه وعيد شديد لهم ، وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء ، ثم إنه تعالى أورد على المشركين ما يجرى مجرى الحجاج وما يكون توبيخا لهم وتعجيبا من عقولهم فقال تعالى «أفمن هو قائم» أى رقيب «على كل نفس بما كسبت» أى علمت من خير وشر ، وهو الله تعالى القادر على كل الممكنات العالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات ، ولا بد لهذا الكلام من جواب فإن (من) موصولة صلتها هو قائم والموصول مرفوع بالابتداء وخبره محذوف تقديره : كمن ليس بهذه الصفة وهى الأصنام

التى لا تنفع ولا تضر ، ودل على هذا المحذوف قوله تعالى : « وجعلوا لله شركاء » ونظيره قوله تعالى « أفمن شرح الله صدره للإسلام » الآية .. تقديره : كمن قسا قلبه ، يدل عليه : فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، وقد جاء مبينا كقوله تعالى : أفمن يخلق كمن لا يخلق ، وقوله تعالى : «قل سموهم» فيه تنبيه على أن هؤلاء الشركاء لا يستعجلونها ، والمعنى : سموهم بأسمائهم الحقيقية ، فإنه إذا عرفت حقائقهم أنها حجارة وغير ذلك مما هو مركز العجز ومحل الفقر عرف ما هم عليه من سخافة العقول ، ثم قل : أرجعتم عن ذلك إلى الإقرار بأنهم من جملة عبيده ؟ « أم تنبئونه » أى تخبرونه « بما لا يعلم » وعلمه محيط بكل شىء « فى الأرض » من كونها آلهة ببرهان قاطع « أم » تسمونهم شركاء « بظاهر من القول » أى بحجة إقناعية تقال بالفم وكل ما لا يعلم فليس بشىء ، وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب ينادى على نفسه بالإعجاز ، ولما كان التقدير : ليس لهم على شىء من هذا برهان قاطع ولا قول ظاهر بنى عليه قوله تعالى : « بل زين » أى وقع التزيين « للذين كفروا مكرهم » أى أمرهم الذى أرادوا به ما يراد بالمكر من إظهار شىء وإبطال غيره ، وذلك أنهم أظهروا أن شركاءهم آلهة حقا وهم يعلمون بطلان ذلك ، وليس لهم فى الباطل إلا تقليد الآباء ، وأظهروا أنهم يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ولتشفع لهم وهم لا يعتقدون بعثا ولا نشورا ، فصار كل ذلك من فعلهم فعل الماكر « وصدوا » غيرهم « عن السبيل » أى طريق الهدى الذى لا يقال لغيره سبيل ، فإن غيره عدم بل العدم خير منه ، فهم لم يسلكوا السبيل ولا تركوا غيرهم يسلكه فضلوا وأضلوا ، وليس ذلك بعجيب فإن الله أضلهم « ومن يضلل الله » الذى له الأمر كله بإرادة إضلاله « فماله من هاد » ولما أخبر الله بتلك الأمور المذكورة بين أنه جمع لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بقوله تعالى : « لهم عذاب فى الحياة الدنيا » بالقتل والأسر والذم والإهانة وغنيمة المسلمين لأموالهم وباللعن ونحو ذلك مما فيه غيظهم « ولعذاب الآخرة أشق » أى أشد فى المشقة بسبب القوة والشدة وكثرة الأنواع والدوام وعدم الانقطاع ؛

ثم بين تعالى أن أحداً لا يقيهم من عذابه بقوله تعالى : « وما لهم من الله من واق » أى مانع يمنعهم إذا أراد بهم سوءاً فى الدنيا وفى الآخرة .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الثالث من سورة الرعد ، وقد تضمن ماتضمن من وصف للمؤمنين والكافرين ـ ومن رد على المشركين وتوبيخ لهم ، وإشادة بالمؤمنين ومدح لإيمانهم وبيان لحسن عاقبتهم ، ومن إلزام للرسول بدعوة الكافرين إلى الجادة ، وتنويه بشأن القرآن كتاب الرسالة ودستورها ، وبيان لعاقبة المكذبين برسالات الرسل ، ومصيرهم ، وبشرك المشركين وضلالهم والعذاب الشديد الذى سوف ينزل بهم فى الآخرة والأولى .

الربع الرابع من سورة الرعد

٣٥ — مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ .

٣٦ — وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ .

٣٧ — وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ .

٣٨ — وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ .

٣٩ — يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ .

٤٠ — وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ .

٤١ — أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

٤٢ — وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ .

٤٣ — وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ .

تسع آيات كريمة ، اشتملت على وصف ثواب المؤمنين فى الآخرة ، وعلى وصف عقاب الكافرين ، كما اشتملت على وصف فرح فريق بنزول القرآن الكريم واكتئاب فريق آخر ، وعلى تلخيص جميل لرسالة محمد صلوات الله عليه فى قوله تعالى : « قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب » . . ثم يصف الله عز وجل القرآن الكريم بأنه أنزل حكما عربيا ، وعلى أمر الله عز وجل لرسوله الكريم بالوقوف فى صلابة فى وجه المشركين ، وعدم الخضوع لأهوائهم ، فلئن اتبع أهواءهم ما كان له من عذاب الله من واق ولا حافظ . . . كما ترد الآيات على المشركين فى مزاعمهم التى احتجوا بها ، من تعييرهم الرسول بكثرة النساء ، ومن اقتراحهم عليه أن يأتى بآيات يؤمنون برسالته من أجلها . . . ثم يتحدث الله عز وجل عن النسخ الذى كان فى بعض الآيات وأن ذلك لحكمة أرادها الله . . . وتبين الآيات أن الله عز وجل لو أجاب طلب المشركين الذين

استعجلوا العذاب فأنزل بهم العذاب وذاقوا مرارته ، أو توفاهم ليلقوا حسابهم عند الله ، لندموا غاية الندم .. وعلى الرسول البلاغ وعلى الله الحساب ، ثم يبين الله عز وجل لهم الدليل ساطعا واضحا على صدق رسالة محمد وحقيتها ، وهو هذه الفتوحات المتتالية التى نصر الله عز وجل فيها رسوله الكريم على الكفر والكافرين ، فاستولى على الكثير من بلادهم ... ومهما مكر الكافرون والمشركون فقد كان من قبلهم من الأمم السابقة أشد مكرا ، فمكر الله بهم ودمرهم ، ولله المكر جميعا ، إنه القادر على كل شىء ، القادر على نصر المؤمنين وخذلان الكافرين ، القادر على أن يجعل المؤمنين يرثون الأرض ومن عليها ، ويجعل لهم عاقبة الدار .. إن الشاكين فى رسالة محمد حسبهم الله ، وكفى بالله شهيداً بينهم وبين رسوله ، بل كفى بأهل الكتاب شهيداً يشهد بصدق محمد فى رسالته ، وبأنه خاتم الأنبياء والمرسلين جميعا ... صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .. يقول الله عز وجل ، وتبارك وتعالى ، فى هذه الآيات « مثل الجنة التى وعد المتقون » التقدير : فيما قصصنا عليكم مثل الجنة ، أو التقدير مثل الجنة التى وعد المتقون جنة تجرى من تحتها الأنهار ، ويصح أن يكون « مثل الجنة .. تجرى من تحتها الأنهار » جملة مكونة من مبتدأ وخبر ، أو الجملة هى : « مثل الجنة .. أكلها دائم » والأكل : هو المأكول ، ودوام الأكل لأنه خارج عن العادة ، فقد وصف الله تعالى الجنة بصفات ثلاث : الأول أنها تجرى من تحتها أى من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ، والثانى : أن أكلها دائم لا ينقطع أبدا بخلاف جنة الدنيا ، والثالث قوله تعالى : « وظلها » أى دائم ليس كظل الدنيا لا تنسخه الشمس ولا غيرها إذ ليس فيها شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول ، ثم أنه تعالى لما وصف الجنة بهذه الصفات الثلاث بين تعالى أنها للمتقين بقوله تعالى : « تلك » أى الجنة العالية الأوصاف « عقبى » أى آخر أمر « الذين اتقوا » أى الشرك ، كرر الوعيد للكافرين بقوله تعالى : « وعقبى » أى منتهى « الكافرين النار » أى يخلدون فيها ، واختلف فى قوله تعالى : « والذين آتيناهم الكتاب » على قولين :

الأول : أنهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالكتاب القرآن « يفرحون بما أنزل إليك » من أنواع التوحيد والعدل والنبوة والبعث والأحكام والقصص « ومن الأحزاب » أى الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار « من ينكر بعضه » وهذا قول الحسن وقتادة ، فإن قيل : الأحزاب ينكرون كل القرآن أجيب بأنهم لا ينكرون كل ما فى القرآن لأنه ورد فيه إثبات الله تعالى وإثبات علمه وقدرته وحكمته وأقاصيص الأنبياء ، والأحزاب لا ينكرون كل هذه الأشياء .

والقول الثانى : أن المراد بالكتاب : التوراة ، وبأهله : الذين أسلموا من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام وأصحابه ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا بنجران وثمانية من اليمن واثنان وثلاثون من الحبشة ، وفرحوا بالقرآن لأنهم آمنوا به وصدقوه ، والأحزاب بقية أهل الكتاب وسائر المشركين .

وقيل : كان ذكر الرحمن قليلا فى القرآن فى الابتداء ، فلما أسلم عبد الله بن سلام ومن تبعه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن مع كثرة ذكره فى التوراة فلما كرر الله تعالى ذكره فى القرآن فرحوا به ، فأنزل الله تعالى : والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه ، يعنى مشركى مكة حين كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتاب الصلح : « بسم الله الرحمن الرحيم قالوا : ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة يعنى مسيلمة ، فأنزل الله تعالى : وهم بذكر الرحمن هم كافرون ؛ ثم إنه تعالى لما بين هذا جمع كل ما يحتاج إليه المرء فى معرفة المبدأ والمعاد وبينه بألفاظ قليلة فقال : « قل » أى يا أكرم الخلق على الله تعالى « إنما أمرت » أى وقع إلى الأمر الجازم الذى لا شك فيه ولا تغيير ممن له الأمر كله « أن أعبد الله » أي أوحده ولذلك قال : « ولا أشرك به » شيئا « إليه » وحده « أدعو وإليه مآب » أى مرجعى للجزاء إلا إلى غيره « وكذلك » أى كما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلسانهم كذلك « أنزلناه » أى القرآن « حكما » والحكم فصل الأمر على الحق « عربيا » بلسانك ولسان قومك ، وإنما سمى القرآن حكما لأن فيه جميع التكاليف والحلال

والحرام والنقض والإبرام ، فلما كان سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة ؛ وروى أن المشركين كانوا يدعون النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملة آبائه فحذره منهم ومن دعواتهم « ولئن اتبعت أهواءهم » أى الكفار فيما يدعونك إليه من ملتهم « بعد ما جاءك من العلم » أى بأنك على الحق وإن قبلتك هى الكعبة « مالك من الله من ولى » أى ناصر « ولا واق » أى مانع من عذابه ، قال ابن عباس : الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد أمته .

ونزل لما عير النبيّ صلى الله عليه وسلم الكفارُ بكثرة النساء : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا » أى نساء ينكحوهن ، فكان لسليمان ثلاثمائة امرأة وسبعمائة جارية، وكان لداود عليه السلام مائة امرأة « وذرية » أى أولادا فأنت مثلهم.. وكانوا يقولون أيضاً: لو كان رسولا من عند الله لكان أى شيء طلبناه منه من المعجزات أتى به ، فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى : « وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله » أى بإرادته ؛ لأن المعجزة الواحدة كافية فى إزالة العذر والعلة ، وفى إظهار الحجة والبينة ، وأما الزائد عليها فهو مفوض إلى مشيئة الله تعالى إن شاء أظهرها وإن لم يشأ لم يظهرها ، لا اعتراض لأحد عليه فى ذلك .

ولما توعدهم صلى الله عليه وسلم نزول العذاب وظهور النصر له ولقومه وساءهم ذلك .. قالوا : لو كان نبيا صادقا لما ظهر كذبه ، فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى : « لكل أجل » أى مدة « كتاب » أى مكتوب قد أثبت فيه أن أمر كذا يكون فى وقت كذا من الثواب والعقاب والأحكام ، والإتيان بالآيات وغيرها إثباتا ونسخا على ما تقتضيه الحكمة ، ولما اعترضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن محمدا يأمر أصحابه بأمر اليوم ثم يأمر بخلافه غدا ، وما سبب ذلك إلا أنه يقول من تلقاء نفسه.. رد الله تعالى عليهم بقوله تعالى : « يمحو الله مايشاء » محوه من الشرائع والأحكام وغيرها بالنسخ فيرفعه « ويثبت » مايشاء إثباته من ذلك بأن يقره ويمضى فيه حكمه كقوله تعالى :

« ما ننسخ من آية » إلى قوله تعالى : « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » . .
وفي هذه الآية قولان :

أحدهما أنها عامة في كل شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ ، وهذا مذهب عمرو ابن مسعود وغيرهما قالوا : إن الله يمحو من الرزق ويزيد فيه ، وكذا القول في الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر ، وروى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكى ويقول : اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها ، وإن كنت كتبتني على الشقاوة فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ، ومثله عن ابن مسعود ، وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي بعض الآثار أن الرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فيرد الله عمره إلى ثلاثة أيام ، والرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة أيام فيرد إليه ثلاثين سنة ، وروى أن الله تعالى يترك أمره في آخر ثلاث ساعات تبقى من الليل فينظر في الساعة منهن في أم الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت .

والقول الثاني أن هذه الآية خاصة في بعض الأشياء دون بعض ، واختلف على هذا القول : فقال سعيد بن جبير وقتادة : يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه ، وقال ابن عباس : يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة ، واستدل لهذا بما رواه حذيفة بن أسيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثم قال : يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء ويكتب الملك ، ثم يقول الملك : يارب رزقه ، فيقضى ربك ما يشاء ويكتب الملك ، ثم يقول الملك : يارب شقى أم سعيد ؟ فيكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد ولا ينقص ؛ وقال عطية عن ابن عباس : هو الرجل يعمل بطاعة الله تعالى ثم يرجع لمعصية الله فيموت على ضلالة ، فهو الذى يمحو والذى يثبت ،

يعمل الرجل بطاعة الله فيموت وهو فى طاعته فهو الذى يثبت ، وقال الحسن : يمحو ما يشاء أى من أجله يذهب به ويثبت من لم يجىء أجله إلى أجله ، وعن سعيد بن جبير قال : يمحو مايشاء من ذنوب العباد فيغفرها ويثبت مايشاء فلا يغفرها ، وقال عكرمة : يمحو الله مايشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات كما قال الله تعالى « فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات » ، وقال السدى : يمحو الله مايشاء يعنى القمر ويثبت مايشاء يعنى الشمس ، بيانه قوله تعالى « فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » ، وقال الربيع : هذا فى الأرواح يقبضها الله تعالى عند النوم ، فمن أراد موته أمسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه ، بيانه قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » الآية ، وقيل : إن الله تعالى يثبت فى أول كل سنة حكمها فإذا مضت السنة محاه ، وأثبت حكما آخر للسنة المستقبلة ، وقيل : يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة ، وقيل : إن الحفظة يكتبون أعمال بنى آدم وأقوالهم فيمحو الله من ديوان الحفظة ماليس فيه ثواب ولا عقاب ، وقيل : هذا فى المحسن والصائب فهى مثبتة فى الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة « وعنده » تعالى « أم الكتاب » أى أصل الكتب ، والعرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشىء أما ، ومنه أم الرأس للدماغ ، وأم القرى لمكة ، وكل مدينة فهى أم لما حولها من القرى ، فكذلك « أم الكتاب » هو الذى يكون أصلا لجميع الكتب ، وفيه قولان :

الأول أنه اللوح المحفوظ الذى لا يغير ولا يبدل وجميع حوادث العالم العلوى والسفلى مثبتة فيه ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : كان الله ولا شىء ، ثم خلق اللوح وأثبت فيه أحوال جميع الخلق إلى قيام الساعة .

والقول الثانى : أن أم الكتاب أصله الذى لا يغير منه شىء ، وهو الذى كتب فى الأزل .

وقال ابن عباس فى رواية عكرمة : هما كتابان : كتاب سوى أم الكتاب يمحو ما يشاء منه ويثبت وعنده أم الكتاب لا يغير منه شىء ، وعلى هذا فالكتاب

الذى يمحو منه ويثبت هو الكتاب الذى تكتبه الملائكة على الخلق ، وسأل ابن عباس كعبا عن أم الكتاب فقال : علم الله ماهو خالق وماخلقه .

ولما كان من مقترحاتهم وطلباتهم استعجال السيئة مما توعدوا به ، قال تعالى « وإما نرينك » يامحمد وأكده بتأكيد الأعلام لأنه لاحرج عليه فى ضلال من ضل بعد إبلاغه «بعض الذى نعدهم» أى من العذاب ، وسمى الوعيد وعدا لتنزيلهم إياه فى طلب نزوله منزلة الوعد « أو نتوفينك » أى قبل أن نريك ذلك فلا لوم عليك ولا عتب « فإنما عليك البلاغ » أى ليس عليك إلا تبليغ الرسالة إليهم وليس عليك أن تجازيهم ولا أن تأتيهم بالمقترحات ، والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ « وعلينا الحساب » أى علينا أن نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم فلا تحفل بإعراضهم ولا تستعجل بعذابهم ، والتقدير : وإما نرينك بعض الذى نعدهم فذلك شافيك من أعدائك ، وإن نتوفينك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب .

ولما وعد الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يريه بعض ما يعده أو يتوفاه قبل ذلك ، بين تعالى أن آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت بقوله تعالى : « أو لم يروا » أى كفار مكة « أنا نأتى الأرض » أى نقصد أرض هؤلاء الكفرة « ننقصها من أطرافها » بما يفتح الله تعالى على المسلمين من ديار الشرك أرضا بعد أرض حوالى أرضهم ، هذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة ، وقال مجاهد : هو خراب الأرض وقبض أهلها ، وعن عكرمة قال: هو قبض الناس، وعن الشعبى مثله ، وعن عطاء وجماعة نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء ، ويؤيد هذا ما رواه عمرو بن العاص أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فيسألون فيفتون بغير علم فضلوا وأضلوا ، وقال الحسن : قال عبد الله بن مسعود : عليكم بالعلم قبل أن يقبض ، وقبضه ذهاب أهله ، وقال على : إنما مثل الفقهاء

كمثل الأنف إذا قطعت لم تعد ، وقال سليمان : لا يزال الناس بخير ما بقى الأول حتى يتعلم الآخر ، وإذ أهلك الأول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس ، وقيل لسعيد بن جبير : ما علامة هلاك الناس ، قال : هلاك علمائهم ثم أثبت تعالى لنفسه أمراً جليلا ، فقال : « والله » أى الملك الأعلى « يحكم » فى خلقه بما يريد لأنه « لا معقب » أى راد لأن التعقيب رد الشيء بعد فصله « لحكمه » وقد حكم للإسلام بالإقبال وعلى الكفر بالإدبار ، وذلك كائن لا يمكن تغييره والمعنى : والله يحكم نافذا حكمه « وهو » عز وجل مع تمام القدرة « سريع الحساب » فيحاسبهم عما قليل فى الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل والإجلاء فى الدنيا ، وقال ابن عباس : يريد : سريع الانتقام يعنى حسابه للمجازاة بالخير والشر ، فمجازاة الكفار بالانتقام منهم ومجازاة المؤمنين بإيصال الثواب إليهم « وقد مكر الذين من قبلهم » أى كفار الأمم الماضية ، قيل : مكروا بأنبيائهم مثل نمروذ مكر بإبراهيم وفرعون مكر بموسى واليهود مكروا بعيسى ، وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم « فلله المكر جميعا » أى أن مكر جميع الماكرين حاصل بخلقه وإرادته لأنه تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد ، فالمكر لا يضر إلا بإذنه ولا يؤثر إلا بتقديره ، وفيه أمان له صلى الله عليه وسلم من مكرهم ، فكأنه قيل : إذا كان حدوث المكر من الله وتأثيره فى الممكور به من الله وجب أن لا يكون الخوف إلا من الله تعالى لا من أحد من المخلوقين ، وذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى ، فلله جزاء المكر ، وذلك أنهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله تعالى أنه يجازيهم على مكرهم « يعلم ما تكسب كل نفس » أى من خير أو شر ، وإذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك ، فكان الكل من الله فيجازيهم على أعمالهم وفى ذلك وعد وتهديد للكفار الماكرين ، ثم أنه تعالى أكد ذلك التهديد بقوله تعالى « وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار » أى العاقبة الممدوحة فى الدار الآخرة ، ألهم أم للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟ قال ابن عباس : يريد أبا جهل ، « ويقول الذين كفروا لست مرسلا » أى لكونه لا يأتى بمقترحاتهم مع أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل يوما أنه قادر عليها ، فكأنه قيل : فما أقول

لهم؟ فقال تعالى : « قل » لهم : « كفى بالله » أى الذى له الإحاطة الكاملة « شهيداً » أى بليغ العلم فى شهادته بالاطلاع على ما ظهر وما بطن « بينى وبينكم » ليشهدوا بتأييد رسالتى وتصحيح مقالتى لما أظهر لى من الآيات وأوضح من الدلالات ، ويشهد بتكذيبكم بادعائكم القدرة على المعارضة وترككم لها عجزا ، وهذا أعلى مراتب الشهادة لأن الشهادة قول يفيد غلبة الظن بان الأمر كما شهد به ، والمعجزة فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولا من عند الله ، واختلف فى قوله تعالى : « ومن عنده علم الكتاب » : فعن ابن عباس أنهم علماء اليهود والنصارى ،أى أن كل من كان عالما من اليهود بالتوراة ومن النصارى بالإنجيل علم أن محمدا مرسل من عند الله ، لما يجد من الدلائل الدالات على نبوته فيها ، شهد بذلك من شهد به وأنكره من أنكره منهم . . وقيل: من الذين آمنوا وهم عبد الله بن سلام وسلمان الفارسى وتميم الدارى ، وقال الحسن ومجاهد والزجاج وسعيد بن جبير : ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى ، قال الحسن : لا والله لا يعنى إلا الله ، والمعنى : كفى بالله ـ الذى لا يستحق العبادة والذى لا يعلم علم ما فى اللوح إلا هو ـ شهيداً بينى وبينكم وهذا أظهر ، وقيل معناه: إن علم أن القرآن الذى جئتم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والإخبار عن الغيوب وعن الأمم الماضية ؛ فمن علمه بهذه الصفة كان شهيدا بينى وبينكم ، والله أعلم بمراده .

* * *

وبهذا تنتهى سورة الرعد ، وينتهى بانتهائها الآيات التسع التى ذكرت فى الربع الرابع من السورة ، وفى هذه الآيات ما فيها من بيان لعاقبة المؤمنين والكافرين ، ومن وصف لحقيقة الرسالة والقرآن الكريم ، ومن رد على المشركين ومزاعمهم الباطلة وبيان مصيرهم الأليم فى الدنيا والآخرة ، ومكر الله بهم ، ورده على أكاذيبهم ومزاعمهم الباطلة المفتراة ، والاستشهاد على صدق الرسول فيما بلغ به عن ربه بالله عز وجل وبأهل الكتاب الذين يعرفون أن رسالته حق وصدق لامراء فيها .

دظرة عامة فى سورة الرعد

(١)

هذه هى سورة الرعد ، التى نوه الله فيها بالقرآن الكريم ، وبين أن منزله هو الله عز وجل الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، هو الله الذى قدرته فى السموات والأرض ، هو الله الذى شملت قدرته كل شىء ، والذى يحيى ويميت ، والذى تنتظم قدرته بعث الأموات من قبورهم ، كما انتظمت خلقهم لأول مرة .. وهنا يرد الله عز وجل على المشركين والجاحدين والكافرين بالبعث ردا بليغا قويا ، ويرد عليهم فى مزاعمهم الباطلة ، واقتراحاتهم الكاذبة ، ويشرح عقيدة التوحيد شرحا وافيا ، وينعى على المشركين شركهم بالله ، ويضرب الأمثال للمؤمنين والكافرين ، ويبين عاقبة كل من المؤمنين والكافرين .وجزاء كل من المؤمنين والمشركين ، ويصف المؤمنين بأوصافهم ، والمشركين بصفاتهم ، ويؤكد أمر التوحيد ويدعو إليه ، ويبين سفه الشرك وينعى على من أشرك بالله . إلى آخر ماانتظمته السورة من معان جليلة ، ومن دفاع عن التوحيد ليس بعده من دفاع ، ومن نفى للشرك وتقريع عليه . وتسفيه للمشركين وتحذير وإيعاد لهم .

(٢)

وقد سميت السورة باسم الرعد ، باسم ظاهرة ضخمة ، من أروع ظواهر الطبيعة التى خلقها الله .. باسم العواصف الرعدية ، التى تحدث من تفريغ كهربائى فى طبقات الجو العليا ، خلال المطر وبين السحب ؛ .. والعواصف الرعدية تبلغ قوتها أكثر من ثلاثة ملايين « فولت » بينما تبلغ قوة الكهرباء العادية التى نستعملها ١٢٠ « فولتا » ، وهذه العواصف الرعدية قادرة على أن تدمر المدن والأشجار والغابات والمزارع . وكثيراً ماتدمر الطائرات وهى طائرة فى السماء . . وهى أكثر تأثيرا من القنابل الذرية

والهيدروجينية ، وبالعاصفة الرعدية أهلكت ثمود قوم صالح عليه السلام ، الذين ذكرت قصتهم فى سورة هود عليه السلام . . .

(٣)

والله الذى يقدر على تسخير العواصف الرعدية فى الجو كيفما يشاء ، قادر على إنزال القرآن وعلى بعث الموتى من القبور ، وكذلك هو قادر على إرسال الرسل إلى الناس مبشرين ومنذرين .

إن سورة الرعد من أجلّ السور المكية ، وأروعها بلاغة وسحرا وبيانا وتأثيراً .. وهى دفاع عن التوحيد مابعده من دفاع .

(١٤)

سورة إبراهيم

تمهيـــد

(١)

سورة إبراهيم عليه السلام من السور المكية ، وهى اثنتان وخمسون آية ، وتلى فى ترتيب المصحف سورة الرعد المكية على الراجح أو المدنية على رأى ، والتى تبلغ ثلاثاً وأربعين آية . . وقد سميت هذه السورة باسم إبراهيم عليه السلام . لأنها اشتملت على ذكر دعوات إبراهيم عليه السلام فى البيت الحرام (الآيات ٣٥ — ٤١) ، كما سميت سورة الرعد باسم الرعد لأنها اشتملت على ذكر الرعد وامتثاله لأمر الله ، وتصريفه بإرادته (الآية ١٣ من سورة الرعد) .

وسورة إبراهيم مكية ما عدا الآيتين : « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار » ، « جهنم يصلونها وبئس القرار » ، وآياتها اثنتان وخمسون آية ، وقد نزلت بعد سورة نوح ، ونزلت نوح بعد النحل ، وهى من السور التى نزلت بعد الإسراء بمكة ، فيكون نزولها مثلها بعد الإسراء ، وقبيل الهجرة ، وعلى هذا تكون من السور المكية ، وقيل : إنها من السور المدنية ، وقال الرازى : اعلم أن الكلام فى أن هذه السورة مكية أو مدنية طريقة الآحاد ، ومتى لم يكن فى السورة ما يتصل بالأحكام الشرعية ، فنزولها بمكة أو بالمدينة سواء ، إنما يختلف الغرض فى ذلك إذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ ، فيكون فيه فائدة عظيمة .

(٢)

وهذه السورة تشبه سورة الرعد فى غرضها وفى افتتاحها بالحروف التى افتتحت بها ، وقد جاءت عقب سورة الرعد . . وتحتوى فيما تحتوى عليه على ذكر قصة إبراهيم بمكة ، وفى مطلعها تنويه بالقرآن الكريم وبيان للغرض من نزوله ، وتحتوى على تحذير للمشركين ما بعده من تحذير .

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة إبراهيم

١ — الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .

٢ — اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ .

٣ — الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ .

٤ — وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

هذه الآيات من مطلع سورة إبراهيم ، إلى قوله تعالى : « وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب » ليست ربعاً على الحقيقة ، إنما هى تكملة للربع الأخير من سورة الرعد ، الذى يبدأ بقوله تعالى : « مثل الجنة التى وعد المتقون » ؛ ولكننا أطلقنا على ما هنا « ربعاً » على سبيل التجاوز .

والآيات الأربع التى معنا فيها تمجيد للقرآن الكريم ، وتنويه به ، وتعظيم لهدايته للناس ، وفيها كذلك تعظيم لرب القرآن ، وبيان لمظاهر قدرته فى السموات وفى الأرض ، وفيها كذلك تعجب من شأن الكافرين بالله وبرسالة محمد عليه السلام ، ممن آثروا الدنيا على الآخرة ، وصدوا عن سبيل الله ،

وابتغوا طريق الضلال والبهتان يسيرون فيها ، فهؤلاء فى ضلال شديد ، ممن فى التيه والحيرة والظلم .. وعجب لأمر هؤلاء ، الذين لم يؤمنوا برسالة محمد عليه السلام ، مع أنه منهم ، ويخاطبهم بلغتهم ، وكل الرسل اختيروا من الأمة التى بعثوا إليها ليكونوا أقدر على اقتناعها ودعوتها إلى رسالة السماء ؛ وكذلك كان القرآن بلسان عربى مبين ، ليفهمه العرب الذين كانوا أول من دعوا إلى الإيمان به من البشر .. وقد دعا محمد صلوات الله وسلامه عليه العرب إلى الإيمان برسالته ، وبين لهم طريق الهدى وطرق الضلال ، ولكن الله يضل من يشاء ممن لا يستجيبون إلى الحق ، ولا يؤمنون به ، وكذلك يهدى الله من يشاء ممن يسمعون ويطيعون ولا يعصون .. والله هو العزيز الحكيم ..

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، بإذن ربهم ، إلى صراط العزيز الحميد » بدأت السورة بتمجيد القرآن ، ووصف بصفاته اللائقة به ، الصفات التى هى صفاته ، من كونه منزلا من الله ، وكونه نزل لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، من ظلمات الجهل والشر والجمود والرجعية والإقطاع إلى نور العلم والخير والتقدم والتحرر ، والمعنى : هذا القرآن كتاب ، وأى كتاب ؟ كتاب عظيم من بين الكتب السماوية المقدسة التى نزل بها الوحى .. والخطاب هنا لمحمد عليه السلام .. والناس هنا المراد بهم جميع أمة محمد عليه السلام وغيرها ، والمراد من الظلمات الكفر والشرك وأنواع الضلالات ، والمراد من النور الإيمان والهدى . وطرق الكفر والضلال كثيرة ، وطريق الحق واحد ، ولذلك جمع الله عز وجل الظلمات ولم يجمع النور ، والقائلون بأن معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها إلا من تعليم الرسول احتجوا بهذه الآية ، وذلك يدل على أن معرفة الله تعالى مصدرها التعليم .. وقوله تعالى : « بإذن ربهم » متعلق بالإخراج أى بتوفيقه وتسهيله « إلى صراط » أى طريق « العزيز » أى الغالب « الحميد » أى المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد « الذى له ما فى السموات وما فى الأرض » أى ملكا وخلقا و(الله) جار مجرى

الاسم العلم لذات الله سبحانه وتعالى ، وذهب قوم آخرون إلى أنه لفظ مشتق ؛ قال الرازى : والحق عندنا هو الأول لأن الأمة لما اجتمعت على أن قولنا لا إله إلا الله يوجب التوحيد المحض ، علمنا أن قولنا : الله جار مجرى الاسم العلم ، وقد قال تعالى « هل تعلم له سميا » ؟ أى هل تعلم من اسم الله غير الله ، وذلك يدل على أن قولنا الله اسم لذاته المخصوصة ، والآية تفيد حصر ما فى السموات وما فى الأرض له لا لغيره ، وذلك يدل على أنه لا مالك إلا الله ولا حاكم إلا الله « وويل للكافرين » أى الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وعبدوا من لا يملك شيئا البتة ، بل هو مملوك لله لأنه من جملة ما فى السموات وما فى الأرض « من عذاب شديد » أى فى الآخرة « الذين يستحبون » أى يختارون « الحياة الدنيا على الآخرة » أى يؤثرونها عليها « ويصدون عن سبيل الله » أى يمنعون الناس عن قبول دين الله « ويبغونها » أى السبيل « عوجا » أى معوجة والأصل : ويبغون لها زيغا وميلا « أولئك » أى الموصوفون بهذه الصفات « فى ضلال بعيد » أى عن الحق « وما أرسلنا من رسول » أى فى زمن من الأزمان « إلا بلسان » أى لغة « قومه » أما بالنسبة إلى الرسول فلأنه تعالى بين أن سائر الأنبياء كانوا مبعوثين إلى قومهم خاصة ، وأما أنت يا محمد فمبعوث إلى عامة البشر ، وكان هذا الإنعام فى حقك أكمل وأفضل ، وأما بالنسبة إلى عامة الخلق فهو أنه تعالى ذكر أنه ما بعث رسولا إلا بلسان أولئك القوم « ليبين لهم » ما أمروا به فيفهموه عنه بيسر وسرعة ، لأن ذلك أسهل لفهم أسرار تلك الشريعة والوقوف على حقائقها وأبعد .. هذا وقد تمسكت طائفة من الجاحدين يقال لهم العيسوية بهذه الآية على أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يرسل لغير العرب من وجهين :

الأول : أن القرآن لما كان نازلا بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة إلا العرب ، وحينئذ لا يكون القرآن حجة إلا عليهم .

الثانى : أن قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » المراد بذلك اللسان لسان العرب ، وذلك يدل على أنه مبعوث إلى العرب فقط ..

ورد عليهم بأن المراد بالقوم أهل دعوته ، والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى « يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا » ، ثم بين سبحانه وتعالى أن الإضلال والهداية بمشيئته بقوله تعالى : « فيضل الله من يشاء » إضلاله « ويهدى من يشاء » هدايته ؛ فإنه تعالى هو المضل الهادى وليس على الرسل إلا التبليغ والبيان ، والله تعالى هو الهادى المضل يفعل ما يشاء « وهو العزيز » فى ملكه فلا راد له عن مشيئته « الحكيم » فى صنعه فلا يهدى ولا يضل إلا لحكمة ، ولما بين تعالى أنه إنما أرسل محمداً عليه الصلاة والسلام إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وذكر كمال إنعامه عليه وعلى قومه فى ذلك الإرسال وفى تلك البعثة ، أتبع ذلك بشرح بعثة سائر الأنبياء إلى قومهم وكيفية معاملة أقوامهم لهم ، ليكون ذلك مواساة له صلى الله عليه وسلم على أذى قومه وإرشاداً له إلى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم ..

٥ — وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

٦ — وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ .

٧ — وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ .

٨ — وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ .

فى هذه الآيات الأربع إشارة إلى جوانب من قصة موسى مع فرعون للعبرة والعظة ، وليعرف مشركو مكة مصيرهم لو أصروا على الكفر ، فليسوا هم بأكرم على الله من الأمم السالفة . . وقد طوى الله عز وجل ذكر مصير فرعون وقومه لاستفاضة شهرته ، ولذكره إجمالا فى مصير جميع الأمم التى كفرت برسالات أنبيائها فى الآيات الآتية .

يقول الله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا » أى من مثل العصا واليد وانفجار العيون من الصخر وإنزال المن والسلوى ، وفلق البحر وإظلال الجبل، وسائر معجزاته . . « أن أخرج قومك » أى بنى إسرائيل . . « من الظلمات » أى الكفر والضلال . . « إلى النور » أى الإيمان والهدى . . والتقدير : بأن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، ويصح أن تكون « أن » فى «أن أخرج» مفسرة للرسالة ، بمعنى أى ، والتقدير : أى أخرج قومك الخ أى قلنا له : أخرج قومك . . «وذكرهم بأيام الله» قال ابن عباس : أى بنعم الله ، وقال مقاتل : بالأحداث العظيمة ووقائع الله فى الأمم السالفة ، يقال : فلان عالم بأيام العرب ، أى بوقائعهم وحروبهم ، والمعنى : عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، وذكرهم بما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمنوا بالرسل فيما سلف من الأيام ، وكذلك ذكرهم بعذاب الله وانتقامه ممن كذب الرسل فيما سلف من الأيام ، مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب ، ليرغبوا فى الوعد فيصدقوا ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب ، وقيل : بأيام الله فى حق موسى أن يذكر قومه بأيام المحنة والبلاء ، حين كانوا تحت أيدى القبط يسومونهم سوء العذاب ، فخلصهم الله من ذلك وجعلهم ملوكا بعد أن كانوا مملوكين « إن فى ذلك » أى التذكير العظيم « لآيات » على وحدانيته تعالى وعظمته « لكل صبار » أى كثير الصبر على الطاعة وعن المعصية

« شكور » أي كثير الشكر للنعم ، وإنما خص الصبور والشكور بالاعتبار بالآيات وإن كان فيها عبرة للكل لأنهم المنتفعون بها دون غيرهم ، فلهذا خصهم بالآيات فكأنها ليست لغيرهم ، فهو كقوله تعالى : « هدى للمتقين » فإن الانتفاع لا يمكن حصوله إلا لمن يكون صابراً شاكراً أما من لا يكون كذلك فلا ينتفع بها البتة ، ولما أمر الله تعالى موسى أن يذكرهم بأيام الله حكى عنه أن ذكرهم بها بقوله تعالى : « وإذا قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم » وقوله : « إذ أنجاكم من آل فرعون » ظرف للنعمة بمعنى الإنعام أي اذكروا إنعام الله عليكم فى ذلك الوقت « يسومونكم سوء العذاب » بالاستعباد « ويذبحون » أي تذبيحاً كثيراً « أبناءكم » أي المولودين « ويستحيون » أي يستبقون « نساءكم » أحياء ، وذلك لقول بعض الكهنة : إن مولودا يولد فى بنى إسرائيل يكون سبب زوال ملك فرعون . . وقد ذكر الله تعالى فى سورة البقرة « يذبحون » بغير واو ، وذكره هنا مع الواو لأنها إنما حذفت فى سورة البقرة لأنها تفسير لقوله : يسومونكم سوء العذاب وفى التفسير لا يحسن ذكر الواو . وهنا أدخل الواو فيه لأنه نوع آخر ، لأنهم كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح ، فليس تفسيراً للعذاب « وفى ذلكم بلاء » أي إنعام وابتلاء « من ربكم عظيم » لأن الابتلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً ، ومنه قوله تعالى : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ، فإن قيل: تذبيح الأبناء فيه بلاء وأما استحياء النساء فكيف يكون فيه ابتلاء ؟ أجيب بأنهم كانوا يستحيونهن ويتركونهن تحت أيديهم كالإماء ، فكان ذلك ابتلاء « وإذ » أي واذكروا إذ « تأذن ربكم » هو أيضا من كلام موسى عليه السلام، وتأذن بمعنى آذن ـ غير أنه أبلغ لما فى التفعل من التكليف والمبالغة « لئن شكرتم » يا بنى إسرائيل نعمتى بالتوحيد والطاعة « لأزيدنكم » نعمة إلى نعمة ، والشكر عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة ، وأما الزيادة فى النعمة فهى قسمين روحانية وجسمانية ، فالأولى هى أن الشاكر يكون أبدا فى مطالعة أقسام نعمة الله تعالى وأنواع فضله وكرمه ، وأما الثانية فلأن

الاستقرار دال على أن كل من كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر كان وصول نعم الله إليه أكثر ؛ نسأل الله القيام بواجب شكر النعمة ، حتى يزيدنا من فضله وكرمه وإحسانه .. « ولئن كفرتم » أى جحدتم النعمة بالكفر والمعصية وحذف الجواب ، وهو لأعذبنكم ، لأنه دل عليه قوله تعالى : « إن عذابى لشديد » أى لمن كفر نعمتى ولم يشكرها ، وهكذا ذكر الله عز وجل الوعد ومعه الوعيد .. ولما بين موسى أن الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات فى الدنيا والآخرة ، والاشتغال بكفران النعمة يوجب العذاب الشديد وحصول الآفات فى الدنيا والآخرة ، بين الله تعالى بعد ذلك أن منافع الشكر ومضار كفران النعمة لا تعود إلا إلى صاحب الشكر وإلى الكافر بالنعمة ، وأما الله عز وجل فإنه غنى عن الشاكرين والكافرين .. فقال عز وجل على لسان موسى : « وقال موسى إن تكفروا أنتم » يا بنى إسرائيل .. « ومن فى الأرض » أى كلهم ، ولذلك أكد الله عز وجل ذلك بقوله : « جميعا » أى من الثقلين « فإن الله لغنى » عن جميع خلقه ، فلا يزداد بشكر الشاكرين ولا ينقص بكفر الكافرين .. « حميد » أى محمود فى جميع أفعاله لأنه فيها متفضل عادل .

٩ — أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ .

فى هذه الآية الكريمة لفت لنظر مشركى مكة إلى مصائر الأمم البائدة ، من مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم التى جاءت بعدهم ، ممن كذبوا برسالات أنبيائهم ، وكفروا بهداية السماء .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة . . . « ألم يأتكم » يا بنى إسرائيل « نبأ » أى خبر « الذين من قبلكم قوم نوح » وكانوا ملء الأرض « و » نبأ «عاد» قوم هود ، وكانوا أشد الناس أبدانا «و» نبأ « ثمود » قوم صالح ، وكانوا أقدر الناس على نحت الصخور وبناء القصور ـ يحتمل أن يكون من كلام موسى أو كلام مبتدأ من الله تعالى لقوم محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو استفهام تقرير « والذين من بعدهم » أى بعد هؤلاء الأمم الثلاثة « لا يعلمهم إلا الله » فيه قولان :

الأول : أن يكون المراد لا يعلم كنه مقاديرهم إلا الله تعالى ، لأن المذكور فى القرآن جملة ؛ فأما ذكر العدد والعمر والكيفية والكمية فغير حاصل .

والقول الثانى : أن المراد ذكر أقوام ما بلغونا أصلا كذبوا رسلا لم نعرفهم أصلا ولا يعلمهم إلا الله ، ولذلك كان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : كذب النسابون ، يعنى أنهم يدعون علم الأنساب إلى آدم ؛ وقد نفى الله علمها عن العباد ، وعن ابن عباس أنه قال : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون ، ونظيره هذه الآية قوله تعالى : « وقرونا بين ذلك كثيرا ، وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا » ، وقوله تعالى : « منهم من قصصنا عليك » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : تعلموا من أنسابكم ماتصلون به أرحامكم وتعلموا من النجوم ماتستدلون به على الطريق ، قال الرازى : والقول الثانى أقرب ولما « جاءتهم » أى هؤلاء الأقوام الذين تقدم ذكرهم « رسلهم بالبينات » أى الدلائل الواضحات والمعجزات الباهرات أتوا بأمور : أولها ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى : « فردوا » أى الأمم « أيديهم فى أفواههم » وفى ذلك احتمالات :

الأول : أن الكفار ردوا أيديهم فى أفواههم فعضوها غيظا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى : « عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » .

الثانى : أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية

عند ذلك ردوا أيديهم فى أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فيضع يده على فيه .

والثالث : أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء أن كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث .

والرابع : أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وإلى ما تكلموا به من قولهم من الكفر، كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى : «وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به » أى من النبوة والرسالة هو الأمر الثانى الذى أتوا به ، وقيل : الضمير فى « ردوا » راجع للرسل عليهم السلام ، وفيه وجهان : أحدهما أن الكفار أخذوا أيدى الرسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوا ويقطعوا الكلام ، والثانى أن الرسل لما أيسوا عنهم سكتوا ووضعوا أيدى أنفسهم على أفواه أنفسهم، فإن من ذكر كلاماً عند قوم وأنكروه وخافهم ، فذلك المتكلم ربما وضع يد نفسه على فم نفسه وغرضه أن يعرفه أنه لا يعود إلى ذلك الكلام البتة « وإنا لنى شك مما تدعوننا » أيها الرسل « إليه » أى من الدين « مريب » أى موجب الريبة أو موقع فى الريبة ، والريبة التهمة وقلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر الذى تشك فيه ، فإن قيل: إنهم قالوا أولا: إنا كفرنا بما أرسلتم به فكيف يقولون ثانياً : وإنا لنى شك ؟ والشك دون الكفر. وأجيب بأنهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل كلهم حصل لهم شبه توجب الشك لهم ، فقالوا : إن لم ندع الجزم واليقين فى كفرنا فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين فى صحة نبوتكم ، وعلى التقديرين فلا سبيل إلى الاعتراف بنبوتكم .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الأول من سورة إبراهيم الذى احتوى على تمجيد القرآن وهدايته ، وتعظيم الله منزل القرآن والتنويه بقدرته . واشتمل كذلك على التعجب من شأن الكافرين ، الذين كفروا بالله وبالقرآن ، مع ظهور الدلائل ، ووضوح الشواهد على وجوب الإيمان بالله وبكتابه . . كما احتوى على التنويه بعربية القرآن ومحمد ، تلميحا إلى أنه كان من الواجب على العرب

أن يؤمنوا بها ، ثم قص الله عز وجل أطرافا من قصة موسى مع فرعون ، بيانا لأن على الخلق أن يؤمنوا بالله الذى خلقهم وأرشدهم إلى سواء السبيل ، لأنهم هم الذين سينتفعون بالإيمان ، والله عز وجل لن ينتفع بشيء من ذلك ، لأنه هو الغنى الحميد . ويلفت الله عز وجل نظر مشركى مكة إلى وجوب تمثل قصص الأمم السالفة مع رسلهم ، لأن من تأمل ذلك جدير بأن يبعث فى قلبه العظة والعبرة والحسرة جميعا .

١٠ — قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ .

١١ — قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

١٢ — وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ .

١٣ — وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ .

١٤ — وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ .

١٥ — وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ .

١٦ — مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ .

١٧ — يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ .

١٨ — مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ .

١٩ — أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ .

٢٠ — وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ .

٢١ — وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا اللهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ .

٢٢ — وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي

كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

٢٣ — وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ .

فى هذه الآيات الكريمة بيان لحجاج رسل الله مع الذين أرسلوا إليهم ولجدالهم معهم فى وجود الله ووحدانيته ووجوب إخلاص العبادة له تعالى ، وتعاظم الكافرين على الأنبياء والمرسلين ، وتهديدهم لهم ، وبيان مصير هذه الأمم الكافرة فى الدنيا من الهلاك والخزى والدمار ، وفى الآخرة من العذاب الشديد . . فلا ينتفعون بشىء من ثمرة علمهم فى الدنيا ، كأنه رماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف فلم يبق منه شىء ، وهكذا هؤلاء لاينتفعون بشىء من أعمالهم لكفرهم وشركهم . . والله قادر على أن يهلك مشركى مكة كما أهلك من قبلهم من الأمم البائدة ، ويأتى بدلهم بأقوام آخرين يؤمنون بالله ويوحدونه ، وماذلك على الله بعزيز . والعجب كل العجب من موقف الكافرين فى الآخرة ، حيث يدور الحجاج والجدال بينهم وبين زعمائهم فى الشرك وقادتهم فى الضلال ، وتنصل كل فريق منهم من المسئولية ، ثم يبين الله عزوجل ضحك الشيطان على هؤلاء وهؤلاء ، لأنه أغوى الجميع وأضلهم وأعمى أبصارهم . . . هذا هو موقف الكافرين برسالات الأنبياء ، أما المؤمنون الطائعون فلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم ، وتحيتهم فيها سلام . . وبهذا يتضح الأمر ، ويتجلى الفرق بين الكافرين والمؤمنين ، ويظهر منزلة كل منهما عند الله فى الدنيا والآخرة . . وصدق الله ، ومن أصدق من الله حديثا . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « قالت رسلهم » أى قالت لهم رسلهم مجيبين لهم . « أفى الله شك ؟ » أى هل تشكون

فى الله وهو استفهام إنكارى ، أى لاشك فى وجوده ووحدانيته ، للدلائل الظاهرة عليه . . وكيف يشك فى وجوده ووحدانيته وهو « فاطر السموات والأرض » أى وما فيهما من الأنفس والأرواح والأرزاق ، وهذا من أعظم الأدلة على وجود الله ، ثم وصفوا الله بكمال الرحمة فقالوا « يدعوكم ليغفر لكم » أى يدعوكم إلى الإيمان بملتنا لأجل غفران ذنوبكم أو يدعوكم إلى غفران ذنوبكم ، « من ذنوبكم » من زائدة ، أى ليغفر لكم ذنوبكم ، أو بمعنى بعض ، أى ليغفر لكم بعض ذنوبكم ، أى بما يتعلق بحق الله لا بحق العباد . . والرازى - ونحن نوافقه - يرى أنه ليس فى كلام الله كلمة يصح أن توصف بأنها زائدة . . ويقول الزمخشرى : إن خطاب الله المشركين فى القرآن كثيرا ما ترد فيه « من » قبل الذنوب ، وقد وردت هذه الجملة « يغفر لكم من ذنوبكم » فى آيات كثيرة فى خطاب الكافرين ، أما خطاب الله للمؤمنين فيأتى بدون « من » ، « يغفر لكم ذنوبكم ويؤخركم » أى ولا يفعل بكم فعل من تعهدون من الملوك فى المعاجلة فى الإهلاك لمن خالفهم بل يؤخركم « إلى أجل مسمى » أى إلى وقت قد سماه وبين مقداره « قالوا » أى الأمم مجيبين الرسل « إن » أى ما « أنتم » أيها الرسل « إلا بشر مثلنا » أى لا فضل لكم علينا فلم تختصون بالنبوة دوننا ؟ ولو أرسل الله تعالى إلى البشر رسلا لجعلهم من جنس أرقى من البشر فى زعم القائلين وهم الملائكة « تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا » أى ما تريدون بقولكم هذا إلا صدنا عن آلهتنا التى كان آباؤنا يعبدونها « فأتونا بسلطان مبين » أى بحجة ظاهرة على صدقكم ، ولما حكى الله تعالى على الكفار شبهاتهم فى الطعن فى النبوة ، حكى عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جوابهم عنها بقوله تعالى : « قالت لهم رسلهم » مجيبين لهم « أن » أى ما « نحن إلا بشر مثلكم » كما قلتم ، فسلموا أن الأمر كذلك لكنهم بينوا أن التماثل فى البشرية لا يمنع من اختصاص بعض بمنصب النبوة بقولهم « ولكن الله يمن » أى يتفضل « على من يشاء من عباده » بالنبوة والرسالة فيصطفى من يشاء من عباده بهذا المنصب العظيم الشريف كما

قال تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالاته « وما كان » أى صح واستقام « لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله » أى إلا بأمره ، فليس لنا الإتيان بالآيات ولا هو فى استطاعتنا حتى نأتيكم بما اقترحتموه ، وإنما هو أمر متعلق بمشيئة الله تعالى، فله أن يخص كل نبى بنوع من الآيات «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» فإن توكلنا على الله واعتمادنا على فعل الله « وما لنا أن لا نتوكل على الله » أى أى عذر لنا فى أن لا نتوكل عليه « وقد هدانا سبلنا » أى وقد عرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد فإن من فاز بشرف العبودية ووصل إلى مقام الإخلاص والمكاشفة يقبح عليه أن يرجع فى أمر من الأمور إلى غير الحق ؛ وفى هذه الآية دلالة على أنه تعالى يعصم أولياءه والمخلصين فى عبوديته عن كيد أعدائهم ومكرهم « ولنصبرن على ما آذيتمونا » فإن الصبر مفتاح الفرج ومطلع الخيرات ، والحق لابد وأن يصير غالبا قاهراً ، والباطل لابد وأن يصير مغلوبا مقهوراً « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » التوكل الأول لاستحداث التوكل . والثانى طلب دوامه ، أى فليثبت المتوكلون على ما احدثوه من توكلهم المسبب عن إيمانهم . ولما حكى الله تعالى عن الأنبياء أنهم اكتفوا فى دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته ، حكى عن الكفار أنهم بالغوا فى السفاهة بقوله تعالى : « وقال الذين كفروا لرسلهم » فى جواب كلامهم المشفق الناصح « لنخرجنكم من أرضنا » أى التى لنا الآن الغلبة عليها «أو لتعودن فى ملتنا» حلفوا ليكونن أحداً لأمرين : إما إخراجكم أيها الرسل وإما عودكم إلى ملتنا أى ديننا . . وقد يفهم هذا بظاهره أنهم كانوا على ملتهم قبل ذلك ، ويجاب عن ذلك بأن العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير فى كلام العرب . . وقد أجمعت الأمة على أن الرسل من أول الأمر إنما نشأوا على التوحيد لا يعرفون غيره ، ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ولمن آمن معه فغلبوا الجماعات على الواحد ، وقيل : أو لتعودن فى ملتنا إلى ما كنتم عليه قبل ادعاء الرسالة من السكوت عند ذكر معايبه ، وعدم التعرض له بالطعن والقدح « فأوحى إليهم » أى الرسل « ربهم » أى إلههم الله الواحد الأحد.

« لنهلكن الظالمين » أى الكافرين أى قائلا لهم ذلك ؛ أو الكلام على إجراء الإيحاء مجرى القول لأنه ضرب منه « ولنسكننكم الأرض » أى أرضهم « من بعدهم » أى بعد هلاكهم ، ونظيره قوله تعالى : « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها » وقوله تعالى : « وأورثكم أرضهم وديارهم » قال الزمخشرى : وعن النبى صلى الله عليه وسلم : من آذى جاره ورثه الله داره ، قال : ولقد عاينت هذا فى مدة قريبة كان لى جار يظلمه عظيم القرية التى أنا فيها ويؤذينى فيه ، فمات ذلك العظيم ، وملكنى الله ضيعته ، فنظرت يوما إلى أبناء خالى يترددون فيها ويأمرون وينهون ، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثتهم به ، وسجدنا شكرا لله تعالى « ذلك » أى النصر وإيراث الأرض « لمن خاف مقامى » أى موقفى وهو موقف الحساب ، لأن ذلك الموقف موقف الله الذى يقف فيه عباده يوم القيامة ، ونظيره « وأما من خاف مقام ربه » وقوله تعالى : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » وقيل : ذلك لمن خاف مقامى أى خافنى ، فالمقام مقحم مثل ما يقال ، سلام على المجلس والمراد السلام على واحد من أهل المجلس « وخاف وعيد » قال ابن عباس : ما أوعدته من العذاب « واستفتحوا » فيها قولان : أحدهما : طلبوا الفتح أى واستنصروا الله على أعدائهم ، وهو كقوله تعالى : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » ، والثانى : الفتح الحكم والقضاء أى واستحكموا الله وسألوه القضاء بينهم ، وهو مأخوذ من الفتاحة وهى الحكومة كقوله تعالى : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » فعلى القول الأول المستفتح هم الرسل لأنهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب لما أيسوا من إيمانهم ، قال نوح : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ، وقال موسى « ربنا اطمس على أموالهم » ، وقال لوط « انصرنى على القوم المفسدين » وعلى القول الثانى : قال الرازى : فالأولى أن يكون المستفتح هم الأمم وذلك أنهم قالوا : اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا ، ومنه قول كفار قريش : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » ، وكقول آخرين :

ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين . « وخاب » أى خسر وهلك « كل جبار » أى متكبر عن طاعة الله ، وقيل : هو الذى لا يرى فوقه أحدا ، وقيل : هو المتعظم فى نفسه المتكبر على إقرانه « عنيد » قال مجاهد : معاند للحق ومجانبه ، وقال ابن عباس : هو المعرض عن الحق ، وقال مقاتل : هو المتكبر ، وقال قتادة : هو الذى يأبى أن يقول لا إله إلا الله ، وقيل : هو المعجب بما عنده ؛ ولما حكم تعالى على الكافر بالخيبة ووصفه بكونه جبارا عنيدا وصف كيفية عذابه بأمور :

الأول : قوله تعالى : « من ورائه » أى أمامه « جهنم » أى هو صائر إليها ؛ قال أبو عبيدة : هو من الأضداد ، وقال الشاعر :

عسى الكرب الذى أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب

ويقول أيضاً : الموت وراء كل أحد ، وقال تعالى : « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً » أى أمامهم ، وقال ثعلب : هو اسم لما توارى عنك سواء كان خلفك أم قدامك ، فيصح إطلاق لفظ الوراء على خلف وقدام ، وقال ابن الأنبارى : وراء بمعنى بعد . ومعنى الآية على هذا أن الكافر بعد الخيبة يدخل جهنم .

الأمر الثانى ما ذكره تعالى بقوله : « ويسقى » أى فى جهنم « من ماء صديد » وهو ما يسيل من جوف أهل النار مختلطا بالقيح والدم ، جعل ذلك شراب أهل النار ، وهو عطف على محذوف تقديره : من ورائه جهنم يلقى فيها ويسقى من ماء صديد « يتجرعه » أى يتكلف أن يبتلعه مرة بعد مرة لمرارته وحرارته ونتنه « ولا يكاد يسيغه » أى ولا يقدر على ابتلاعه ، قال الزمخشرى : كاد للمبالغة يعني ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة ، لقوله تعالى : « لم يكد يراها » أى لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها ؟ فإن قيل : كيف الجمع على هذا الوجه بين يتجرعه ولا يكاد يسيغه أجيب بجوابين : أحدهما أن المعنى : ولا يسيغ جميعه كأنه يتجرع البعض وما أساغ الجميع . . والثانى أن الدليل

الذى ذكر إنما دل على وصول ذلك الشراب إلى جوف ذلك الكافر لا أن ذلك ليس بإساغة ، لأن الإساغة فى اللغة إجراء الشراب فى الحلق واستطابة المشروب والكافر يتجرع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه أى لا يستطيبه ولا يشربه شربا مرة واحدة ؛ وعلى هذين الوجهين يصح حمل « لا يكاد » على نفى المقاربة .

الأمر الثالث ماذكره تعالى بقوله : « ويأتيه الموت » أى أسبابه المقتضية له من أنواع العذاب « من كل مكان » أى من سائر الجهات وقيل : من مكان من جسده حتى من أصول شعره وإبهام رجله « وما هو بميت » أى حتى يستريح .

الأمر الرابع ما ذكره تعالى بقوله : « ومن ورائه » أى ومن بين يديه بعد ذلك العذاب « عذاب غليظ » أى شديد كل وقت ، وقيل : هو الخلود فى النار ، وقيل : هو قطع الأنفاس وحبسها فى الأجساد .

ولما ذكر تعالى أنواع عذابهم بين بعده أن سائر أعمالهم تصير باطلة ضائعة وذلك هو الخسران الشديد ، فقال تعالى «مثل» أى صفة « الذين كفروا بربهم أعمالهم » أى الصالحة كصدقة وصلة رحم وفك أسير وإقراء ضيف وبر والد فى عدم الانتفاع بها « كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف » أى شديد هبوب الريح فجعلته هباء منثوراً لا يقدر عليه ، كما قال تعالى « لا يقدرون » أى الكفار يوم الجزاء « مما كسبوا » أى عملوا فى الدنيا « على شيء » أى لا يجدون لهم ثواباً لفقد شرطه وهو الإيمان « وذلك » إشارة إلى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون « هو الضلال البعيد » أى الخسران الكبير ، لأن أعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى عودها . وتقدير الكلام : فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا .. وتكون الجملة من قوله تعالى « أعمالهم كرماد » مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول : كيف مثلهم ؟ فقيل : أعمالهم كرماد ، ومذهب الفراء أن التقدير : مثل أعمال الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد ؛ فحذف المضاف اعتماداً

على ذكره بعد المضاف إليه وهو قوله تعالى : أعمالهم ، ومثله قوله تعالى « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة » .. وقيل : التقدير: صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد، كقولك: صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول .. وقيل : أعمالهم بدلا من قوله « مثل الذين كفروا » والتقدير: مثل أعمالهم، وقوله تعالى كرماد هو الخبر ، وقيل : غير ذلك « ألم تر » خطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والمراد به أمته وكل واحد من الكفرة على الالتفات « أن الله خلق السموات » على عظمها وارتفاعها « والأرض » على تباعد أقطارها واتساعها « بالحق » أى بالحكمة والوجه الذى يحق أن يخلق عليه متعلق بخلق « إن يشأ يذهبكم » أيها الناس « ويأت » بدلكم « بخلق جديد » أطوع منكم ، رتب ذلك على كونه خالق السموات والأرض استدلالا به عليه ، فإن من خلق أصولهم قادر أن يبدلهم بخلق آخر « وما ذلك على الله بعزيز » أى بممتنع ، فإنه تعالى قادر بذاته ولا اختصاص له بمقدور دون مقدور ، ومن هذا شأنه كان حقيقا أن يؤمن به رجاء ثوابه وخوفا من عقابه يوم الحساب ؛ ولما ذكر تعالى أصناف عذاب هؤلاء الكفار وذكر عقبه أن أعمالهم تصير باطلة ، ذكر كيفية مجادلتهم عند تمسك أتباعهم بهم وكيفية اختصاصهم عندهم بقوله تعالى « وبرزوا » أى الخلائق من قبورهم « لله جميعا » والتعبير فيه وفيما يأتى بالماضى وإن كان معناه الاستقبال لتحقق وقوعه ، لأن كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو حق وصدق وكائن لا محالة ، فصار كأنه قد حصل ودخل فى الوجود ، ونظيره « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار » ، والبروز فى اللغة الظهور بعد الاستتار وهو فى حق الله تعالى محال فلا بد من تأويله ، وهو على وجهين : الأول أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله تعالى ، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله تعالى عند أنفسهم وعلموا أن الله تعالى لا يخفى عليه خافية ، الثانى : أنهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله تعالى وحكمته ؛ ثم حكى الله تعالى عنهم أن الضعفاء يقولون للرؤساء : هل تقدرون على دفع عذاب الله تعالى عنا بقوله تعالى « فقال الضعفاء » أى

الأتباع جمع ضعيف يريدون به ضعفاء الرأى « للذين استكبروا » أى المتبوعين الذين طلبوا الكبر وادعوه فاستبقوهم به حتى تكبروا على الرسل « إنا كنا لكم تبعا » جمع تابع أى تابعين لكم فى تكذيب الرسل فكنتم سبب ضلالنا ، وقد جرت عادة الأكابر بالدفع عن أتباعهم المساعدين لهم على أباطيلهم « فهل أنتم » أى فى هذا اليوم « مغنون » أى دافعون « عنا من عذاب الله » أى من انتقامه « من شىء » والفرق بين (من) فى عذاب الله وبين (من) فى شىء أن الأولى للتبيين والثانية للتبعيض ، كأنه قيل : هل أنتم مغنون عنا بعض الشىء الذى هو من بعض عذاب الله ، ويجوز أن يكونا للتبعيض معا ، والمعنى : هل أنتم مغنون عنا بعض شىء هو بعض عقاب الله ؟ وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا أنهم « قالوا لو هدانا الله » أى الذى له صفات الكمال « لهديناكم » أى لو أرشدنا الله تعالى لأرشدناكم ودعوناكم إلى الهدى ، ولكنه لم يهدنا فضللنا وكنتم لنا تبعا فأضللناكم ، ولما كان من الموجب لقولهم الجزع قالوا « سواء علينا » أى نحن وأنتم « أجزعنا أم صبرنا » أى مستويان علينا الجزع والصبر ، والجزع أبلغ من الحزن لأنه يصرف الإنسان عما هو بصدده ويقطعه عنه « مالنا من محيص » أى منجى ومهرب مما نحرب فيه من العقاب ، ويحتمل أن يكون هذا من كلام المتبوعين وأن يكون من كلام الفريقين ، ويؤيد الثانى ما روى أنهم يتألمون فى النار فقالوا : نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع ، فيقولون : تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر ، فعند ذلك يقولون ذلك ، وقال محمد بن كعب القرظى : بلغنى أن أهل النار استعانوا بالخزنة كما قال الله تعالى : وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب، فردت الخزنة عليهم : أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى، فردت الخزنة عليهم : ادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ، فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا : يا مالك ليقض علينا ربك .. سألوا الموت فلا يجيبهم ، ثم يجيبهم بقوله : إنكم ماكثون، فلما أيسوا مما عنده : قال بعضهم لبعض ذلك ، ولما ذكر تعالى المناظرة التى وقعت بين الرؤساء والأتباع

من كفرة الإنس أردفها بالمناظرة التى وقعت بين الشيطان وبين أتباعه بقوله تعالى « وقال الشيطان ، الذى هو أول المتبوعين فى الضلال ورأس المضلين والمستكبرين « لما قضى الأمر » أى أحكم وفرغ منه وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وأخذ أهل النار فى لوم إبليس وتقريعه وتوبيخه فيقوم فيهم خطيباً ، قال مقاتل : يوضع له منبر من نار فيجتمع أهل النار إليه يلومونه فيقول لهم ما أخبر الله تعالى بقوله : « إن الله وعدكم وعد الحق » أى بالبعث والجزاء على الأعمال فصدقكم « ووعدتكم » أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب « فأخلفتكم » أى الوعد فلم أقل شيئاً إلا كان زيغا فاتبعتمونى مع كونى عدوكم وتركتم ربكم وهو وليكم ، والتقدير : إن الله وعدكم وعد الحق فصدقكم كما تقدم تقديره ووعدتكم فأخلفتكم ، وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد لأنهم كانوا يشاهدونها وليس وراء العيان بيان ، ولأنه ذكر فى وعد الشيطان الإخلاف فدل ذلك على الصدق فى وعد الله تعالى . وقيل : إن قوله : ووعدتكم فأخلفتكم ـ الوعد يقتضى مفعولا ثانيا وحذف هذا للعلم به، والتقدير : ووعدتكم أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب كما تقرر ؛ ولما بين غروره بين سهولة اغترارهم زيادة فى تعذيبهم فقال « وما كان لى عليكم من سلطان » أى سلطان أى قوة وقدرة أقهركم بها على الكفر والمعاصى والحكم على متابعتى « إلا أن دعوتكم » المعنى على الاستئناف ، أى لكن دعوتكم « فاستجبتم لى » محكمين الشهوات ، لأن النفس تدعو إلى هذه الأحوال الدنيوية ولا تتصور كيفية السعادات الأخروية والكمالات الإنسانية ، والله يدعو إليها ويرغب فيها كما قال : والآخرة خير وأبقى ، قال الرازى : وعندى أنه يمكن أن يقال كلمة « إلا » ههنا استثناء حقيقى لأن قدرة الإنسان على حمل الغير على عمل من الأعمال تارة يكون بالقهر والعسر وتارة يكون بتقوية الدواعى فى قلبه بإلقاء الوساوس إليه ؛ فهذا نوع من أنواع التسليط « فلا تلومونى » أى لأنه ما كان منى إلا الدعاء وإلقاء الوسوسة « ولوموا أنفسكم » لأنكم سمعتم دلائل الله تعالى وجاءتكم الرسل، فكان من الواجب عليكم أن لا تلتفتوا إلى ولا تسمعوا قولى،

فلما رجحتم قولى على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم أولى بإجابتى ومتابعتى من غير حجة ولا دليل ، وقال الشيطان : « فلا تلومونى » وهو ملوم بسبب إقدامه على تلك الوسوسة الباطلة ، لأنه أراد : لا تلومونى على فعلكم « ولوموا أنفسكم » عليه ؛ لأنكم عدلتم عما توجه من هداية الله تعالى لكم « ما أنا بمصرخكم » أى بمغيثكم ولا بمخلصكم من العذاب « وما أنتم بمصرخى » أى بمغيثى فيما يخلصنى منه « إنى كفرت بما أشركتمون من قبل » أى كفرتم اليوم بإشراككم إياى من قبل هذا اليوم أى فى الدنيا ، كقوله تعالى « ويوم القيامة يكفرون بشرككم » ومعنى كفره بإشراكهم إياه استنكاره له كقوله « أنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم » روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة ، يقول عيسى : ذلك النبى الأمى فيأتون ، فيأذن الله لى أن أقوم فيثور مجلسى من أطيب ريح شمها أحد حتى آتى ربى فيشفعنى ويجعل فى نوراً من شعر رأسى إلى ظفر قدمى ثم يقول الكفار: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ؟ فيقولون : ما هو غير الشيطان الذى أضلنا فيأتونه فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، قم أنت فاشفع لنا فإنك أضللتنا فيقوم فيثور مجلسه من أنتن ريح شمها أحد ثم يعظم لهبهم ويقول ذلك .. إن الله وعدكم وعد الحق الآية ... « إن الظالمين » أى الكاذبين « لهم عذاب أليم » أى مؤلم ، وهو من كلام الله تعالى ، ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس ، وإنما حكى الله تعالى ما سيقول فى ذلك الوقت ليكون دعوة للسامعين إلى النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بد لهم من الوصول إليه ، وأن يتصوروا فى أنفسهم ذلك المقام الذى يقول فيه الشيطان ما يقول ، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم ؛ ولما بالغ سبحانه وتعالى فى شرح حال الأشقياء من الوجوه الكثيرة شرح أحوال السعداء وما أعد لهم من الثواب العظيم والأجر الجزيل ، وذلك أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم ، فالمنفعة الخالصة إليها الإشارة بقوله تعالى : « وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » وهو حال مقدرة ، والتعظيم حصل لهم من

وجهين : أحدهما قوله تعالى « بإذن ربهم » لأن تلك المنافع إنما كانت تفضيلا من الله تعالى وإنعاما ؛ والثانى قوله تعالى « تحيتهم فيها سلام » لأن بعضهم يحي بعضا بهذه الكلمة ، والملائكة يحيونهم بها كما قال تعالى « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم » والرب يحييهم أيضا بهذه الكلمة كما قال تعالى: سلام قولا من رب رحيم ، ويحتمل أن يكون المراد أنهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع آفات الدنيا وحسراتها وفنون آلامها وأسقامها وأنواع همومها وغمومها ، لأن السلام مشتق من السلامة .

٢٤ — أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ .

٢٥ — تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

٢٦ — وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ .

٢٧ — يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ .

فى هذه الآيات الأربع ضرب الله عز وجل المثل رائعا بليغا لكلمة الإسلام ولكلمة الكفر ، فجعل الأولى كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، وجعل كلمة الكفر الخبيثة كشجرة خبيثة قطعت من فوق الأرض ما لها من أصل راسخ ، وهكذا يهدى الله المؤمنين إلى كلمة الإيمان ، ويضل الكافرين ويرديهم فى النار .

يقول الله تعالى : « ألم تر » أى تنظر ، والخطاب يحتمل أن يكون للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره ، وأن يكون لكل فرد من الناس ، أى ألم تر أيها الإنسان « كيف ضرب الله » أى المحيط بكل شىء علما وقدرة « مثلا » أى سائرا يعم نفعه ؛ والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثانى بالأول ، ثم بينه بقوله تعالى : « كلمة طيبة » ، قال ابن عباس وأكثر المفسرين : هى « لا إله إلا الله » ، « كشجرة طيبة » قال ابن مسعود وأنس : هى النخلة ، وعن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم : إن الله ضرب مثل المؤمن شجرة فاخبرونى ما هى ؟ قال عبد الله : فوقع الناس فى شجر البوادى وكنت صبيا فوقع فى قلبى أنها النخلة ، فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقولها وأنا صغير القوم ، وروى : فمنعنى مكان عمر فاستحييت ، فقال له عمر : يابنى لو كنت قلتها لكانت أحب إلى من حمر النعم ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إنها النخلة . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : أكبروا عمتكم ، قيل : ومن عمتنا ؟ قال النخلة: « أصلها ثابت » أى فى الأرض « وفرعها » أى غصنها « فى السماء » فى جهة العلو والصعود « تؤتى » أى تعطى « أكلها » أى ثمرها « كل حين بإذن ربها » أى بإرادته ، والحين فى اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير ، واختلفوا فى مقدار هذا : فقال مجاهد : الحين هنا سنة كاملة ، لأن النخلة تثمر فى كل سنة مرة ، وقال قتادة : ستة أشهر يعنى من حين طلعها إلى وقت صرامها ، وقال الربيع : كل حين يعنى غدوة وعشية ، لأن ثمر النخل يؤكل ليلا ونهارا وصيفا وشتاء فأكلها دائم فى كل وقت ، قال العلماء : ووجه الحكمة فى تمثيل كلمة الإخلاص بالشجرة لأن الإيمان ثابت فى قلب المؤمن كثبوت أصل هذه الشجرة فى الأرض وعمله يصعد إلى السماء كفروعها ، كما قال تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » فكذلك فرع هذه عال فى السماء وتناله بركة ذلك وثوابه كل وقت ، فالمؤمن كلما قال : لا إله إلا الله صعدت إلى السماء وجاءه بركتها وخيرها وثوابها ومنفعتها ؛ لأن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال ، كذلك الإيمان

لا يتم إلا بثلاثة أشياء : تصديق القلب وقول اللسان وعمل الجوارح ، ثم نبه تعالى على عظم هـذا المثل ليقبل على تدبره ليعلم المراد منه فيلزم. فقال : « ويضرب الله » أى الذى له الإحاطة الكاملة « الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » أى يتعظون، فإن فى ضرب الأمثال زيادة إفهام ، وتذكير وتصوير للمعانى العقلية فيحصل الفهم التام والوصول إلى المطلوب ، ولما ذكر الله تعالى مثل السعداء أتبعه بمثل حال الأعداء فقال : « ومثل كلمة خبيثة » هى كلمة الكفر « كشجرة خبيثة » الحنظل وقيل : شجرة الشوك « اجتثت » أى استؤصلت « من فوق الأرض » أى عروقها قريبة منه «ما لها من قرار» أى لا أصل لها ولا عرق ، فكذلك الكفر بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة ، وعن عبادة أنه قيل لبعض العلماء : ما تقول فى «كلمة خبيثة » فقال : ما أعلم لها فى الأرض مستقرا ولا فى السماء مصعداً إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها يوم القيامة ... ولما وصف سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة فى الآية المتقدمة أخبر بقوله تعالى: « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت » أنه تعالى يثبتهم بها « فى الحياة الدنيا » أى فى القبر ، وقيل : قبل الموت « وفى الآخرة » أى يوم القيامة عند البعث والحساب ، وقيل : فى القبر على القول الثانى ؛ ولما وصف الكلمة الخبيثة فى الآية المتقدمة أخبر بقوله تعالى : « ويضل الله الظالمين » أى الكفار .. لا يهديهم للجواب الصواب « ويفعل الله ما يشاء » أى إن شاء هدى وإن شاء أضل لا اعتراض عليه ؛ روى عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : المسلم إذا سئل فى القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فذلك قوله تعالى : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، وروى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن العبد إذا وضع فى القبر وتولى عنه أصحابه يسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة ، قال النبى صلى الله عليه وسلم :

فيراهما جميعا ، وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدرى كنت أقول مايقول الناس فيه، فيقال: مادريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها منه من يليه غير الثقلين ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: شهدنا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغنا من دفنها وانصرف الناس قال : إنه الآن يسمع خفق نعالكم ، أتاه منكر ونكير فيجلسانه فيسألانه ما كان يعبد ومن نبيه فإن كان ممن يعبد الله تعالى قال : كنت أعبد الله ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه ، فذلك قوله تعالى « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » فيقال له : على اليقين حييت وعليه مت وعليه تبعث ، ثم يفتح له باب إلى الجنة ويوسع له فى حفرته ، وإن كان من أهل الشك قال : لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئا فقلته ، فيقال له : على الشك حييت وعليه مت وعليه تبعث ، ثم يفتح له باب إلى النار .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الثانى من سورة إبراهيم عليه السلام ، وهو كله تصوير لحجاج الكفار لرسلهم فى الدنيا ، وكفرهم برسالات السماء ، وعذاب الله الشديد الذى أعده الله لهم فى الآخرة ، وحجاج الأتباع للمتبوعين وللشيطان يوم القيامة ، ووصف النعيم والرضاء الإلهى الذى يقابل به الله عز وجل المؤمنين فى الآخرة . ويضرب الله الأمثال للإيمان والكفر ، ولكلمة الإيمان وكلمة البهتان .

الربع الثالث من سورة إبراهيم

٢٨ — أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ .

٢٩ — جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ .

٣٠ — وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ .

٣١ — قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ .

٣٢ — اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَـٰرَ .

٣٣ — وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ .

٣٤ — وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ الْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .

فى هذه الآيات السبع عود إلى الكفار ، وشرح لسر استحقاقهم لعذاب الله عز وجل ، ووصف لهذا العذاب وشدته .. ثم يشرح الله عز وجل منزلة المؤمنين من رضاء الله ، وتمسكهم بطاعات الله ، ويخاطبهم خطاب تكريم وتشريف ، بأن يداوموا على عبادة الله ، على أداء الصلاة وإيتاء الزكاة .. وتنتقل الآيات إلى تمجيد الله الواحد المعبود ، الذى هذه قدرته ، وتلك عظمته فيصف خلقه للسموات والأرض ، وإنزاله المطر من السحاب ، وما أخرج به من الثمرات من رزق للعباد ، وتسخير الله للشمس والقمر دائبين على السير فى الفضاء ، والليل والنهار ، وما أنعم به على الناس من نعم لا تعد ولا تحصى.. يقول الله تعالى فى هذه الآيات السبع : « ألم تر » أى تنظر « إلى الذين بدلوا »

والتبديل جعل الشيء مكان غيره « نعمة الله » أى التى أسبغها عليهم من كلمة التوحيد ومن جميع النعم الدنيوية وتيسير الرزق وغير ذلك ، بأن جعلوا مكان شكرها « كفرا » وهم يدعون أنهم أشكر الناس للإحسان وأعلاهم همما فى الوفاء وأبعدهم عن الجفاء «وأحلوا» أى أنزلوا «قومهم» أى الذين تابعوهم فى الكفر بإضلالهم إياهم « دار البوار » أى الهلاك مع ادعائهم أنهم أذب الناس عن الجار فضلا عن الأهل . روى البخارى فى التفسير أنهم كفار أهل مكة « جهنم » عطف بيان « يصلونها » أى يدخلونها «وبئس القرار» أى المقر هى « وجعلوا لله » أى الذين يعلمون أنه لاشريك له فى خلقهم ولا رزقهم لأنه له الكمال كله « أندادا » أى شركاء « ليضلوا عن سبيله » أى عن دين الإسلام ، قرىء بفتح الياء وقرأ الباقون بضم الياء من أضل يضل ، وليس الضلال ولا الإضلال غرضهم فى اتخاذ الأنداد لكن لما كانت نتيجته ذلك جعل كالغرض ، ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الأنواع الثلاثة من الأعمال القبيحة قال لنبيه صلى الله عليه وسلم « قل » أى تهديداً لهم فإنهم لايشكون فى قولك وإن عاندوا « تمتعوا » بدنياكم قليلا « فإن مصيركم » أى مرجعكم « إلى النار » فى الآخرة ، ولما أمر الله تعالى الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا أمر المؤمنين بترك التمتع بالدنيا والمبالغة فى المجاهدة بالنفس والمال بقوله تعالى : « قل لعبادى » فوصفهم بأشرف أوصافهم وأضافهم إلى ضميره الشريف تحبيبا لهم فيه ثم أتبع هذا الوصف بما يناسبه من إذعانهم لسيدهم بقوله تعالى «الذين آمنوا» أى أوجدوا هذا الوصف «يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم» فيه وجهان : أحدهما يصح أن يكون جوابا لأمر محذوف تقديره قل لعبادى الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا ، يقيموا الصلاة وينفقوا ، والثانى يصح أن يكون محذوفا منه اللام أى ليقيموا ليصح تعلق القول بهما « سرا وعلانية » أى ينفقون أموالهم فى حال السر والعلانية ، وقيل : المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية إخراج الزكاة الواجبة ، وفى انتصاب سراً وعلانية وجوه ، منها أن يكون على الحال أى ذوى سر وعلانية بمعنى

مسرين ومعلنين ، أو أنه على الظرف ، أى وقت سر وعلانية ، أوعلى المصدر أى إنفاق سر وإنفاق علانية .

ولما أمرهم تعالى بإقامة الصلاة والإنفاق أشار إلى عدم التهاون بذلك بقوله « من قبل أن يأتى يوم » أى عظيم جدا ليس كيوم من الأيام التى تعرفونها «لا بيع فيه» فيشترى المقصر ما يتدارك به تقصيره أو يفدى به نفسه « ولا خلال » أى مخالة أى صداقة تنفع فى ذلك اليوم ، قال مقاتل : إنما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة ، فكأنه تعالى يقول : أنفقوا أموالكم فى الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الإنفاق فى مثل هذا اليوم الذى لا يحصل فيه مبايعة ولا مخالة ، ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة البقرة : لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ؛ ونفى المخالة فى هاتين الآيتين مع أنه تعالى أثبتها فى قوله تعالى : الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ؛ لأن الآية الدالة على نفى المخالة محمولة على نفى المخالة بسبب ميل الطبع ورغبة النفس ، والآية الدالة على حصول الصداقة محمولة على حصول الصداقة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى . ولما طال الكلام فى وصف أحوال السعداء وأحوال الأشقياء وكانت العمدة العظيمة والمنزلة الكبرى فى حصول السعادة معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وفى حصول الشقاوة فقدان ذلك ، ختم تعالى أحوال الفريقين بقوله تعالى « الله » أى الملك الأعلى المحيط بكل شىء ، ثم أتبعه بالدلائل الدالات على وجوده وكمال عقله وقدرته ، وذكر هنا عشرة أنواع من الدلائل :

أولها : قوله تعالى « الذى خلق السموات » .

وثانيها : قوله تعالى « والأرض » وهما أكبر خلقا منكم وأعظم شأنا .

وثالثها : قوله تعالى « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » تعيشون به وهو يشمل كل رزق ، ويصح أن يكون المراد بالسماء هنا السحاب اشتقاقا من السمو والارتفاع ، وأن يكون الجرم المعهود فينزل من السماء إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض .

ورابعها : قوله تعالى « وسخر لكم الفلك » أى السفن « لتجرى فى البحر» أى بالركوب والحمل « بأمره » أى بمشيئته وإرادته .

وخامسها : قوله تعالى « وسخر لكم الأنهار » أى ذللها لكم تجرونها حيث شئتم لأن ماء البحر لا ينتفع به فى سقى الزرع والثمرات ولا فى الشراب، فكان ذلك نعمة من الله تعالى .

وسادسها ، وسابعها : قوله تعالى « وسخر لكم الشمس والقمر » حال كونهما «دائبين» أى جاريين فى فلكهما لا يفتران فى سيرهما وإنارتهما وتأثيرهما فى إنارة الظلمة وإصلاح النبات والحيوان ، إلى آخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها والشمس سلطانها النهار وبها تعرف فصول السنة ، وهى أفضل من القمر لكثرة نفعها والقمر سلطانه الليل وبه يعرف انقضاء الشهور ، وكل ذلك بتسخير الله تعالى وأنعامه .

وثامنها ، وتاسعها : قوله تعالى « وسخر لكم الليل والنهار » يتعاقبان فيكم بالضياء والظلمة والزيادة والنقصان ، وذلك من نعم الله تعالى على عباده حيث جعل لهم الليل ليسكنوا فيه والنهار لينتفعوا فيه من فضله .

وعاشرها قوله تعالى « « وآتاكم من كل ما سألتموه » أى ما أنتم محتاجون إليه على حسب مصالحكم « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » أى لا تحيطون بها ولا تطيقون حصرها « إن الإنسان لظلوم » أى كثير الظلم لنفسه « كفار » أى كفور لنعم الله . . وفى سورة النحل قال تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم » لأن المقصود هنا الحديث عن توبيخ الكافرين على كفرهم ، وهناك المقصود الحديث عن رحمة الله بعباده .

٣٥ — وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ .

٣٦ — رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٣٧ — رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

٣٨ — رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ .

٣٩ — ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ .

٤٠ — رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ .

٤١ — رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ .

فى هذه الآيات السبع أيضاً ذكر لقصة إبراهيم ودعواته وابتهاله إلى الله فى مكة بعد أن ترك إسماعيل فى البلد الحرام هو وأمه .

ولما بين تعالى بالدلائل المتقدمة أن لامعبود إلا الله سبحانه وتعالى ، وأنه لا تجوز عبادة غيرالله البتة حكى عن إبراهيم عليه السلام مبالغة فى إنكار عبادة الأوثان بقوله تعالى « وإذ » أى واذكر لهم مذكرا بأيام الله خبر إبراهيم إذ « قال إبراهيم رب » أى المحسن إلى بإجابة دعائى « اجعل هذا البلد » أى مكة « آمنا » أى ذا أمن ، وقد أجاب الله تعالى دعاءه فجعله حرما لايسفك فيه دم إنسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولايختلى خلاه ، وفرق بين قوله: اجعل هذا بلداً آمنا وبين قوله: اجعل هذا البلد آمنا بأن المسئول فى الأول أن يجعل من

جملة البلاد التى يأمن أهلها ولا يخافون . وفى الثانى أن يزيل عنها الصفة التى كانت حاصلة لها وهى الخوف ويجعل لها تلك الصفة وهى الأمن ، كأنه قال : هو بلد مخوف فاجعله آمنا ، وكان إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء ، والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب وهو موجود بحمد الله تعالى فلم يقدر أحد على خراب مكة ، فإن قيل : يرد على هذا ماورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : يخرب الكعبة ذوالسويقتين من الحبشة ، أجيب بأن قوله : اجعل هـــذا البلد يعنى إلى قرب القيامة وخراب الدنيا فهو عام مخصوص بقصة ذىالسويقتين فلا تعارض بين النصين ، والجواب الثانى أن المراد جعل أهلها آمنين كقوله تعالى: واسأل القرية ، أى أهلها ،وهذا الجواب عليه أكثر المفسرين ، وعلى هذا قد اختص أهل مكة بزيادة الأمن فى بلدهم كما أخبر الله تعالى بقوله : ويتخطف الناس من حولهم ، وأهل مكة آمنون من ذلك حتى إن من التجأ إلىمكة أمن على نفسه وماله ، وحتى إن الوحوش إذا كانت خارجة الحرم استوحشت ، وإذا كانت داخلة الحرم استأنست لعلمها أنه لايهيجها أحد فىالحرم ، وهذا القدر من الآمن حاصل بحمدالله بمكة وحرمها « واجنبنى » أى أبعدنى « وبنى أن » أى عن أن « نعبد الأصنام » أى اجعلنا فى جانب غير جانب عبادتها ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون ، فالفائدة فىقوله : اجنبنى وبنى عنعبادة الأصنام ، أنه عليه السلام إنما سألذلك هضما لنفسه وإظهاراً للحاجة والفاقة إلى فضل الله فى كل المطالب ، وفى ذلك دليل على أن عصمة الأنبياء بتوفيق الله تعالى وحفظه إياهم ، وكفار قريش من أبنائه مع أنهم كانوا يعبدون الأصنام ، فالمراد إذا من كان موجوداً حال الدعاء ، ولا شبهة أن دعوته كانت مجابة فيهم أو أن هـذا الدعاء مخصوص بالمؤمنين من أولاده ، والدليل عليه أنه قال عليه السلام فى آخر الآية « فمن تبعنى فإنه منى » وذلك يفيد أن من لم يقم على دينه فإنه ليس منه ، ونظيره قوله تعالى « إنه ليس من أهلك إنه عمـل غير صالح » والصنم المنحوت على خلقة البشر ، وما كان منحوتا على غير خلقة البشر فهو وثن ، قاله الطبرى ، ولذا لما

سئل ابن عيينة كيف عبدت الأصنام العرب؟ فقال : ماعبد أحد من بنى إسماعيل صنما ، واحتج بقوله تعالى : « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » إنما كانت أنصاب الحجارة لكل قوم ، قالوا : البيت حجر فحيثما نصبنا حجرا فهو بمنزلة البيت، فكانوا يدورون بذلك الحجر أى يطوفون به أسابيع تشبيها بالكعبة ويسمونه الدوار[1] فاستحب أن يقال: طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت ، قال الرازى : وهذا الجواب ليس بقوى .. ثم حكى الله تعالى عن إبراهيم أنه قال : « رب إنهن » ، أى الأصنام « أضللن كثيراً من الناس » بعبادتهم لها « فمن تبعنى » أى على التوحيد « فإنه منى » أى فإنه من أتباعى والمؤمنين بملتى « ومن عصانى » أى فى غير الدين « فإنك غفور رحيم » وهذا صريح فى طلب الرحمة والمغفرة لأولئك العصاة ، وإذا ثبت حصول هذه الشفاعة فى حق إبراهيم عليه السلام ثبت حصولها فى حق محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه مأمور بالاقتداء كما قال تعالى « واتبع ملة إبراهيم » وقيل : المعنى إنك قادر أن تغفر له وترحمه بأن تنقله عن الكفر إلى الإسلام ، وقيل : المراد من هذه المغفرة أن لا يعاجلهم بالعقاب حتى يتوبوا ، قال الرازى : واعلم أن هذه الأوجه ضعيفة وارتضى ما تقرر أولا ، وقد حكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام فى هذا الموضع أنه طلب من الله سبعة أمور :

الأول: طلب من الله نعمة الأمان ، وهو قوله : رب اجعل هذا البلد آمنا .

الثانى : أن يرزقه الله التوحيد ويصونه عن الشرك وهو قوله : واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام .

والمطلوب الثالث قوله : ربنا إنى أسكنت من ذريتى . أى بعض ذريتى أو ذرية من ذريتى ، وهم إسماعيل وأبناؤه « بواد غير ذى ذرع » أى لا يكون فيه شىء من الزرع قط « عند بيتك المحرم » أى الذى حرمت التعرض له والتهاون به وجعلت ما حوله حرماً لمكانه ، أو لأنه لم يزل ممنعا عزيزاً يهابه كل جبار كالشىء المحرم الذى حقه أن يجتنب ، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه ، أو لأنه حرم على الطوفان أى منع منه ، كما سمى عتيقا لأنه أعتق

---

(١) هو بضم الدال مشددة ، وقد تفتح .

منه فلم يستول عليه ، أو لأنه أمر الصائرين إليه أن يحرموا على أنفسهم أشياء كانت تحل لهم من قبل .

وروى البخارى أن هاجر كانت أمة لسارة فوهبتها لإبراهيم عليه السلام فولدت منه إسماعيل ، فقالت سارة : كنت أريد أن يهب الله لى ولدا من خليله فنعنيه ورزقه خادمتى وغارت عليهما وقالت لإبراهيم بعدهما منى وناشدته بالله أن يخرجهما من عندها فنقلهما إلى مكة وإسماعيل رضيع ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعالى المسجد وليس بمكة أحد يومئذ وليس بها ماء ، فوضعهما هناك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم خف إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل وقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وهو لا يلتفت إليها ، فقالت له: آلله أمرك بهذا ؟ قال: نعم ، قالت :إذاً لا يضيعنا ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه ، وقال : ربنا إنى أسكنت من ذريتى.. حتى بلغ : يشكرون ، وجعلت أم إسماعيل ترضعه وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى، فانطلقت كراهة أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى من أحد؟ فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم فلذلك سعى الناس بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فاذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، أوقال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه بيدها هكذا ، قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال الملك : لا تخافوا الضيعة ، فإن ها هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية يأتيه السيل فيأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا فى أسفل مكة

فنظروا طائرا فقالوا : إن هذا الطائر يدور على الماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ ، فقالت : نعم ولكن لا حق لكم فى فى الماء ، قالوا : نعم ، قال ابن عباس : قالت ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى كان بها أهل أبيات منهم ، فشب الغلام وتعلم العربية منهم والفهم وأعجبهم حتى يفع ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل ثم قال : « ربنا ليقيموا الصلاة » أى ما أسكنتهم بهذا الوادى القفر الذى لا شىء فيه إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرم وليعمروه بذكرك وعبادتك متبركين بالبقعة التى شرفتها على البقاع ، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك والطواف به والركوع والسجود حوله مستنزلين الرحمة التى آثرت بها سكان حرمك . وتكرير النداء وتوسطه للإشعار بأنها المقصود بالذات من إسكانهم هناك « فاجعل أفئدة » أى قلوبا محترقة بالأشواق « من الناس » والمعنى واجعل أفئدة بعض الناس « تهوى » أى تميل « إليهم » ويدل عليه ما روى عن مجاهد لو قال : أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم والترك والهند ، وقال سعيد ابن جبير : لو قال أفئدة الناس لحجت اليهود والنصارى والمجوس ، ولكنه قال : أفئدة من الناس ، فهم المسلمون ، وقال ابن عباس : لو قال أفئدة الناس لحنت إليهم فارس والروم والناس كلهم ، ولما دعا لهم بالرزق فقال « وارزقهم من الثمرات » ولم يقل : وارزقهم الثمرات ، وذلك يدل على أن المطلوب بالدعاء إيصال بعض الثمرات إليهم ويحتمل أن يكون المراد من إيصال بعض الثمرات إليهم إيصالها إليهم على سبيل التجارة ، كما قال تعالى : تجبى إليه ثمرات كل شىء « لعلهم يشكرون » يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لأداء العبادات وإقامة الطاعات ، فإن إبراهيم عليه السلام بين أنه إنما طلب تيسير المنافع على أولاده لأجل أن يتفرغوا لإقامة الطاعات وأداء الواجبات . ولما طلب عليه السلام من الله تعالى تيسير المنافع لأولاده وتسهيلها عليهم

ذكر أنه لا يعلم عواقب الأحوال ونهاية الأمور فى المستقبل ، فإنه تعالى هو العالم بها والمحيط بأسرارها فقال « ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن » وهذا هو المطلوب الرابع ، والمعنى إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا منا ، وقيل : ما نخفى من الوجد بسبب حصول الفرقة بينى وبين اسماعيل وما نعلن من البكاء ، وقيل : ما نخفى من الحزن المتمكن فى القلب وما نعلن ، يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع : إلى من تكلنا ؟ قال : إلى الله أكلكم، قالت : الله أمرك بهذا ؟ قال: نعم ،قالت : إذا لا يضيعنا . واختلف فى قوله تعالى « وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء » فقيل : هو من تتمة قول إبراهيم عليه السلام ، يعنى وما يخفى على الله الذى هو عالم الغيب من أى شىء فى أى مكان . والاكثرون على أنه قول الله تعالى تصديقا لإبراهيم فيما قال، كقوله تعالى: وكذلك يفعلون، ولفظة (من) تفيد الاستغراق.كأنه قيل ومايخفى عليه شىء ما ، ولما أتم إبراهيم عليه السلام ما دعى به أتبعه بالحمد على ما رزقه من النعم بقوله تعالى : « الحمد لله » أى المستحق لصفات الكمال «الذى وهب لى » أى أعطانى « على الكبر » أى وهب لى وأنا كبير آيس من الولد ، قال ذلك استعظاما للنعمة وإظهاراً لما فيه من المعجزة « إسماعيل وإسحاق ». قال ابن عباس : ولد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة ، وإبراهيم عليه السلام إنما ذكر هذا عندما أسكن إسماعيل وأمه فى ذلك الوادى ، وفى ذلك الوقت ما كان قد ولد إسحاق ، وهذا يقتضى أن إبرهيم إنما ذكر هذا الكلام فى زمن آخر لا عقب ما تقدم من الدعاء ، قال الرازى : ويمكن أيضا أن يقال : إنه عليه السلام إنما ذكر هذا الدعاء بعد كبر إسماعيل وظهور إسحاق وإن كان ظاهر الروايات بخلافه ، « إن ربى » أى المحسن إلى « لسميع الدعاء » أى لمجيبه ،والله سبحانه وتعالى يسمع كل دعاء أجابه أولم يجبه ، فيكون هذا من قولك : سمع الملك كلامى إذا اعتد به وقبله ، ومنه : سمع الله لمن حمده .

المطلوب الخامس من قوله « رب اجعلنى مقيم الصلاة » أى معداً لها مواظبا عليها . وقوله : «رب اجعلنى مقيم الصلاة » يدل على أن فعل المأمورات

لا يحصل إلا من الله تعالى، وذلك تصريح بأن إبراهيم عليه السلام كان مصراً على أن الكل من الله تعالى « ومن ذريتى » عطف على ضمير المتكلم فى « اجعلنى » أى واجعل بعض ذريتى كذلك ؛ لأن كلمة « من » فى قوله « ومن ذريتى » للتبعيض .

المطلوب السادس أنه عليه السلام لما دعى الله تعالى فى المطالب المذكورة دعا الله تعالى فى أن يقبل دعاءه فقال « ربنا وتقبل دعاء » قال ابن عباس : يريد عبادتى بدليل قوله تعالى : واعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وقيل : دعائى المذكور .

المطلوب السابع قوله « ربنا » أى أيها المالك لأمورنا المدبر لنا « اغفرلى » المقصود من ذلك الالتجاء إلى الله وقطع الطمع إلا من فضله وكرمه ، وأشرك معه أقرب الناس إليه وأحقهم بشكره فقال : « ولوالدى » واستغفر لهما وكانا كافرين لأنه ظن كون ذلك جائزاً ، أو أنه أراد بوالديه آدم وحواء ، أو أن استغفاره لهما كان بشرط إسلامهما ، وقال بعضهم : كانت أمه مؤمنة ولذلك خص أباه بالذكر فى قوله تعالى « فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » . « وللمؤمنين » أى بالله ورسله وكتبه « يوم يقوم الحساب » أى يوم القيامة .

٤٢ — وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ .

٤٣ — مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ .

٤٤ — وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ

تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ .

٤٥ — وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ .

٤٦ — وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ .

٤٧ — فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ .

٤٨ — يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ .

٤٩ — وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ .

٥٠ — سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ .

٥١ — لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ .

٥٢ — هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ .

فى هذه الآيات الإحدى عشرة بيان لقدرة الله على حساب الناس فى الآخرة وعلى خضوع الكافرين وذلتهم أمام جبروته يوم القيامة ، ودعوة من الله لرسوله بأن ينذر المشركين ويخوفهم عذابه ، وشرح لأعمال الكافرين الفاسدة ، وبيان لقدرة الله القادرة على البعث والحساب وقيام الساعة ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، يوم يصفد الكافرون فى النار . .

وفى آخر هذه الآيات يختم الله السورة كما بدأها بالتنويه بالقرآن الكريم وبيان ما فيه من بلاغ وإنذار للناس لعلهم يؤمنون .. وليذكر أولو العقول والقلوب الصافية الواعية . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون » لأن الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور ، وقيل : حقيقة الغفلة سهو يعترض الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ . وهذا فى حق الله تعالى محال ، والمقصود من ذلك التنبيه على أنه ينتقم للمظلوم من الظالم ، ففيه وعيد وتهديد للظالم وإعلام له بأنه لايعامله معاملة الغافل عنه ، بل ينتقم منه ولا يتركه ؛ وعن سفيان بن عيينة : فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم ، والخطاب للرسول والمراد به التثبت على ما كان عليه من أنه لايحسب الله غافلا كقوله : « لاتدع مع الله إلهاً آخر » أوالمقصود منه بيان أنه لو لم ينتقم لكان عدم الانتقام لأجل غفلته عن ذلك الظلم ، أو أن المراد ولا تحسبنه ماملهم معاملة الغافل عما يعملون ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على كل شىء ، ويصح أن يكون هذا الكلام خطاباً مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر إلا أنه فى الحقيقة خطاب مع الأمة ، ثم بين تعالى أنه « إنما يؤخرهم » أى عذابهم ليوم موصوف بخمس صفات :

الصفة الأولى قوله تعالى « تشخص فيه الأبصار » أى أبصارهم لا تقر مكانها من هول ماترى فى ذلك اليوم .

الصفة الثانية قوله تعالى « مهطعين » أى مسرعين إلى الداعى أو مقبلين بأبصارهم لايطرفون .. هيبة وخوفا ، وقيل : المهطع الخاضع الذليل الساكن .

الصفة الثالثة قوله تعالى « مقنعى رءوسهم » أى رافعيها إذ الإقناع رفع الرأس إلى فوق ، فأهل الموقف من صفتهم أنهم رفعوا رؤوسهم إلى السماء ، وهذا بخلاف المعتاد ؛ لأن من يتوقع البلاء يطرق ببصره إلى الأرض ، وقال الحسن : وجوه الناس يوم القيامة تشخص إلى السماء لاينظر أحد إلى أحد .

والصفة الرابعة قوله تعالى : « لا يرتد إليهم طرفهم » أى بل تثبت عيونهم

مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان ، قد شغلهم ما بين أيديهم .

الصفة الخامسة : قوله تعالى : « وأفئدتهم » أى قلوبهم « هواء » أى خالية من العقل لفرط الحيرة والدهشة ، واختلفوا فى وقت حصول هذه الصفات : فقيل : إنها عند المحاسبة بدليل أنه تعالى إنما ذكر هذه الصفات عقب قوله تعالى : « يوم يقوم الحساب » ، وقيل : إنها تحصل عندما يتميز فريق عن فريق ، فالسعداء يذهبون إلى الجنة والأشقياء إلى النار ، وقيل : يحصل عند إجابة الداعى والقيام من القبور ، قال الرازى : والأول أولى « وأنذر الناس » يا محمد أى خوفهم يوم القيامة وهو قوله تعالى : « يوم يأتيهم العذاب » الذى تقدم وصفه بشخوص أبصارهم وكونهم مهطعين مقنعى رؤوسهم « فيقول الذين ظلموا » أى كفروا « ربنا أخرنا » أى بأن تردنا إلى الدنيا « إلى أجل قريب » أى إلى أمد واحد من الزمان قريب « نجب دعوتك » أى بالتوحيد ونتدارك ما فرطنا فيه « ونتبع الرسل » فيما يدعوننا إليه ، فيقال لهم توبيخا « أولم تكونوا أقسمتم » أى حلفتم « من قبل » فى الدنيا « ما لكم من زوال » أى ما لكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور ، كما قال فى آية أخرى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » ، وكانوا يقولون : لا زوال لنا من هذه الحياة إلى حياة أخرى ومن هذه الدار إلى دار الجزاء ، ثم أنه تعالى زادهم توبيخا آخر بقوله تعالى « وسكنتم » فى الدنيا مساكن « الذين ظلموا أنفسهم » بالكفر من الأمم السابقة « وتبين لكم كيف فعلنا بهم » أى وظهر لكم — بما تشاهدون فى منازلهم من آثار — ما نزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم « وضربنا » أى بينا « لكم الأمثال » فى القرآن أن عاقبتهم الوبال والخزى والنكال مما يعلم به أنه قادر على الإعادة كما قدر على الابتداء ، وقادر على التعذيب المؤجل كما هو قادر على الهلاك المعجل ، وذلك فى كتاب الله تعالى كثير ، ولما ذكر الله تعالى صفة عقابهم أتبعه بذكر كيفية مكرهم بقوله تعالى : « وقد مكروا مكرهم » أى الشديد العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم .. واختلف فى عود الضمير فى مكروا على وجوه :

الأول : أن يعود إلى الذين سكنوا فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم .

والثانى : إلى قوم محمد صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى : « وأنذر » أى يا محمد الناس وقد مكر قومك مكرهم ، وذلك المكر هو الذى ذكره الله تعالى فى قوله « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك » ، « وعند الله مكرهم » أى ومكتوب عند الله فعلهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه ، وقيل: إن مكرهم لايزيل أمر محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو ثابت كثبوت الجبال ، وقد حكى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه فى الآية قول آخر، وهو أنها نزلت فى نمروذ الجبار الذى حاجّ إبراهيم فى ربه ، وكان نمروذ يقول : إن كان مايقول إبراهيم حقا فلا أنتهى حتى أصعد إلى السماء فأعلم مافيها ، « وإن كان مكرهم » أى من القوة والضخامة « لتزول منه الجبال » أى من شدته وهوله وقوة تأثيره « فلا تحسبن الله » الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد أمته « مخلف وعده رسله » من النصر وإعلاء الكلمة وإظهار الدين كما قال تعالى : « إنا لننصر رسلنا » ، وقال تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى » وقدم الله عز وجل الوعد ليعلم أنه لايخلف الوعد أصلا ، كقوله تعالى : « إن الله لايخلف الميعاد » ، ثم قال : « رسله » ليدل به على أنه تعالى لما لم يخلف وعده أحدا وليس من شأنه إخلاف المواعيد ، فكيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته « إن الله » ذا الجلال والإكرام « عزيز » أى غالب يقدر ولا يقدر عليه « ذو انتقام » أى ممن عصاه « يوم تبدل الأرض غير الأرض » بدل من « يوم يأتيهم » أو ظرف للانتقام ، والمعنى : يوم تبدل هـــذه الأرض التى تعرفونها أرضا أخرى غير هذه الأرض المعروفة ، وقوله تعالى « والسموات » عطف على الأرض وتقديره والسموات ، والتبديل : التغيير والمراد تبديل الأرض نفسها ، أو تبديل صفتها ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى تلك الأرض تغير فتبدل أوصافها فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتستوى ، فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، وتبدل السماء بانتشار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابا ، ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم : يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء ، ونحن إذ نعيش اليوم فى عصر

الذرة والفضاء الكونى نعلم أن العلم الحديث أصبح يؤمن اليوم بما قاله القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، وقد نشر منذ أيام أن لدى بعض الدول من الأسلحة النووية ما يكفى لتدمير الأرض التى نعيش عليها أعظم تدمير .. « وبرزوا » أى خرجوا من قبورهم « لله » أى لحكمه والوقوف بين يديه تعالى للحساب « الواحد » أى الذى لا شريك له « القهار » أى الذى لا يدفعه شىء عن مراده ، كما قال تعالى « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » ، ولما وصف نفسه سبحانه وتعالى بكونه قهاراً بين عجزهم وذلتهم بقوله تعالى « وترى » يا محمد أى تبصر « المجرمين » أى الكافرين « يومئذ » أى يوم القيامة ، ثم ذكر تعالى من صفات عجزهم وذلتهم أمور :

الصفة الأولى قوله تعالى « مقرنين » أى مشدودين « فى الأصفاد » جمع صفد وهو القيد ، قال عطاء : هو معنى قوله تعالى « وإذا النفوس زوجت » أى قرنت ، فتقرن نفوس المؤمنين بنفوس الحور العين ، وتقرن نفوس الكافرين بقرنائهم من الشياطين ، وقيل : هو قرن بعض الكفار ببعض ، فتضم تلك النفوس الشقية والأرواح المظلمة بعضها إلى بعض لكونها متشاكلة متجانسة ، وتنضاف ظلمة كل واحدة منها إلى الأخرى ، وقال ابن زيد : قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال .

الصفة الثانية قوله تعالى « سرابيلهم » أى قمصهم جمع سربال وهو القميص « من قطران » هو شىء تطلى به الإبل الجرب فيحرق الجرب بحرارته وحدته وقد تصل حرارته إلى داخل الجوف ، ومن شأنه أنه يتسارع فيه اشتعال النار وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يصير الطلاء كأنه سربال على أجسادهم .

الصفة الثالثة قوله تعالى « وتغشى » أى تعلو « وجوههم النار » ونظيره قوله تعالى « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب » ، وقوله تعالى « يوم يسحبون فى النار على وجوههم » ، ولما كان موضع العلم والجهل هو القلب وموضع الفكر والوهم هو الرأس ، وأثر هذه الأحوال تظهر فى الوجه ـ خص الله تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيهما فقال فى القلب : « نار الله الموقدة

التى تطلع على الأفئدة ، وقال فى الوجه : « وتغشى وجوههم النار » وقوله تعالى «ليجزى الله» متعلق ببرزوا «كل نفس ما كسبت » أى من خير أو شر ، وهذا أولى من قول الواحدى أن المراد منه أنفس الكفار ؛ لأن ما سبق ذكره لا يليق أن يكون جزاء لأهل الإيمان، ولما كان حساب كل نفس جديراً بأن يستعظم قال « إن الله سريع الحساب » أى لا يشغله حساب نفس عن حساب أخرى ولاشأن عن شأن ، وقوله تعالى « هذا » إشارة إلى القرآن الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور نزل منزلة الحاضر ، وقيل: إلى السورة « بلاغ » أى كاف غاية الكفاية فى الإيصال « للناس » والموعظة لهم « ولينذروا » أى وليخوفوا « به » وهو عطف على محذوف ، والتقدير : لينصحوا ولينذروا ، وقيل : الواو مزيدة ولينذروا متعلق ببلاغ « وليعلموا » أى بما فيه من الحجج على وحدانية الله تعالى « أنما هو » أى الله « إله واحد » فيستدلون بذلك على أن الله واحد لا شريك له « وليذكر » أى يتعظ « أولو الألباب » أى أصحاب العقول الصافية من الأكدار والأفهام الصحيحة ، فإنه موعظة لمن اتعظ . . هذا وقد ذكر الله سبحانه وتعالى لهذا البلاغ ثلاث فوائد مستفادة من قوله تعالى « لينذروا به » وما تلاه . والحكمة فى إنزال الكتب تكميل الرسل للناس واستكمالهم القوة النظرية التى منتهى كمالها التوحيد واستصلاح القوة العملية التى هى التدرع بلباس التقوى .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الثالث من سورة إبراهيم الذى تضمن التنديد بالكفار ، ودعوة الله للمؤمنين إلى طاعته وامتثال أوامره وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ كما تضمن التنويه بعظمة الله وقدرته فى السماء والأرض ، ودعوات أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام فى مكة إلى الله وابتهالاته .. والتنديد بالكفار وجرائمهم وتحذيرهم من عذاب يوم القيامة .. وقد وصف الله عز وجل مطلع يوم القيامة بأسلوب بليغ ، فذكر تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وسوى ذلك .. وفى آخر السورة يمجد الله عز وجل القرآن الكريم ، وينوه به ، ويصفه بأنه بلاغ للناس أى إعلان للإنسانية كلها ، يتضمن شريعة التوحيد والسلام ..

نظرة عامة فى سورة إبراهيم

(١)

سورة إبراهيم من السور المكية ، وكذلك سورة الرعد قبلها على ما رجحناه من أنها مكية ، وقدسميت سورة إبراهيم باسم إبراهيم عليه السلام نبي التوحيد ، وواضع أساس أول بيت وضع فى الأرض لعبادة الله .

(٢)

وسورة إبراهيم اثنان وخمسون آية ، وقد بدأت — كما ختمت — بتمجيد القرآن الكريم والتنويه به وبعظمة هدايته للناس ، وتتحدث السورة عن الكافرين وماأعده الله لهم من عذاب شديد ، وسبب استحقاقهم لهذا العذاب ، ويبين الله عز وجل هلاك فرعون بسبب كفرهم بآيات الله وبرسالة نبيهم موسى عليه السلام . . ثم يخاطب الله عز وجل مشركى مكة يطلب إليهم أن يتدبروا قصص الأمم البائدة مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم . . ثم يذكر حجاج الكافرين مع رسلهم فى الدنيا وعذاب الله الذى أعده لهم فى الآخرة ، وحجاج الأتباع والمتبوعين فى الآخرة . . كما يذكر القرآن الكريم ما أعده الله عز وجل للمؤمنين من جنات ونعيم ، ويضرب المثل رائعا لكلمة التوحيد وكلمة الكفر . . ويعود إلى حديث الكفار والمضللين الذين ضللوا قومهم وشعوبهم ، وصرفوهم عن الحق وعن الصراط المستقيم والعذاب الذى ينتظرهم فى الآخرة ، ويدعو الله عز وجل المؤمنين إلى طاعته وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ويذكرهم بقدرته فى السماء والأرض ، وينوه بشأن نبي التوحيد إبراهيم عليه السلام ، أول الداعين إلى رسالة التوحيد والحنيفية البيضاء ، ويذكر دعواته وابتهالاته إلى الله فى مكة . .

ثم يصف الله عذاب يوم القيامة وشدائده وأهواله ، وما يحدث للأرض والسماء حين يجىء المصير المحتوم .

(٣)

وهكذا نجد السورة كلها حديثا عن الكافرين وكفرهم وضلالهم وعذاب الله لهم فى الدنيا والآخرة ، وبجانب هذا يذكر الله عز وجل المؤمنين ويثنى عليهم ويبين رضاءه عنهم ، ونعيمه الذى أعده لهم فى الآخرة .

والآية الكريمة « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » من روائع الآيات الجامعة الدالة على قدرة الله عز وجل .. وقد أيد العلم الحديث إمكان ذلك ؛ فنحن ـ وإن كنا لانزال فى أول العصر الذرى والهيدروجينى وفى أول عصر الفضاء الكونى ـ لانجد مشقة فى فهم معنى هذه الآية الكريمة ، فقد ثبت أن قوة القنبلة الذرية والهيدروجينية ، وقوة الأسلحة النووية كافية لتدمير الأرض وتسيير الجبال وتسجير البحار ، والله القادر على كل شىء ، وقد جعل لكل شىء سببا فأتبع سببا .

(١٥)

ســـورة الحجر

تمهيد

(١)

سورة الحجر مكية نزلت بعد سورة يوسف ، وقد نزلت يوسف بعد الإسراء قبيل الهجرة ، فيكون نزول سوزة الحجر فى ذلك التاريخ أيضاً . وسميت بهذا الإسم لأنها قد ذكر فيها قصة أصحاب الحجر ، وهم ثمود قوم صالح عليه السلام .

وكانت مدينة « حجر » مقر ثمود الرئيسى ، وتقع على الطريق القديم بين الحجاز وسوريا ، وتسمى « حجر » الآن « مدائن صالح » نسبة إلى النبى صالح عليه السلام . وقد ارتفع شأن ثمود بعد فناء عاد ، وكانوا قوما أقوياء ، يسكنون شمال بلاد العرب ، كما كانوا كقوم عاد بنائين مهرة ، دأبهم إقامة البيوت والقصور والقبور من الحجارة فى الجبال ، وقد انتهت ثمود قبل مبعث موسى عليه السلام ، وعهد دولتهم من ١٨٠٠ — ١٦٠٠ ق م . . وكانت ثمود تعبد الكواكب والنجوم . . . وقد خلفهم أهل مدين الذين عاصروا موسى ثم جاءت بعدهم ثمود الثانية ولم يكونوا على شىء من القوة ، فاستولى الرومان على البطراء العربية فى شمال جزيرة العرب وهى على مقربة من أرضهم ، واستولى ملك أشور سرجون الثانى (٧٣٢ — ٧٠٥ ق م) على شمال بلاد العرب وخضعت له ثمود الثانية . . . وقد خلف أهل مدين ثموداً وكانوا معاصرين لموسى عليه السلام .

(٢)

وآيات السورة تسع وتسعون آية ، وقد تضمنت ذكر القرآن الكريم والتنويه به ، وإثبات تنزيله من الله ، كما تضمنت ما تضمنت من الترهيب والتحذير للمشركين وتذكيرهم بما حصل للأمم السالفة قبلهم .

(٣)

وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة إبراهيم لأنها تشبهها فى الغرض المقصود منها ، كما تشبهها فى الحروف التى افتتحت بها ، ولأنها تتحد معها فى عصر نزولها ، وفى كونهما من السور المكية .

وسورة الحجر تتصل بسورة إبراهيم بصلات وثيقة ، ففى مطلع كل من السورتين تمجيد للقرآن الكريم ، وفى كل من السورتين إنذار للكافرين وتحذير لهم ، وبيان لعظم العذاب الذى ينتظرهم يوم القيامة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة الحجر

١ – الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ .

٢ – رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ .

٣ – ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

٤ – وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ .

٥ – مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ .

هذه الآيات الخمس هى مطلع سورة الحجر ، وفيها ما فيها من معان كريمة ، وعظات بالغة . . فنى الآية الأولى تنويه بالقرآن الكريم وعظمته ، وفى الآية الثانية بيان لندم الكافرين يوم القيامة وتمنيهم لو كانوا قد أسلموا فى الدنيا ، وآمنوا برسالة الإسلام . . وفى الآية الثالثة تهديد للكافرين ، وبيان لعاقبة لهوهم وباطلهم . . وفى الآية الرابعة تقرير لأن مصارع الأمم لها أجل معلوم ، وأسباب تدعو إليها . . وفى الآية الخامسة بيان لأن نهايات الدول محددة ، وأسبابها كذلك معلومة ، فلا تسبق أمة أجلها وما يستأخرون . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « الر » هو من مطالع سور القرآن الكريم التى شرحناها وشرحنا الآراء فيها فى مواطن كثيرة « تلك » إشارة إلى آيات هذه السورة أى هذه الآيات « آيات الكتاب » أى القرآن « وقرآن مبين » أى مظهر للحق من الباطل عطف بزيادة صفة ، وقيل: المراد بالكتاب التوراة والإنجيل وبالقرآن ، هذا الكتاب . . ثم بين سبحانه وتعالى حال الكفار يوم القيامة بقوله تعالى : « ربما يود » أى يتمنى « الذين كفروا » إذا عاينوا

حالهم وحال المسلمين فى ذلك اليوم « لو كانوا مسلمين » وقيل: حين يعاينون حال المسلمين عند نزول النصر وحلول الموت ، ورب للتكثير فإنه يكثر منهم ذلك ، وقيل : للتقليل فإن الأهوال تدهشهم فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك إلا فى أحيان قليلة ، وقد دخلت هنا رب على المضارع مع أنهم أبوا دخولها إلا على الماضى ، لأن المترقب فى أخبار الله تعالى بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحقيقه ، فكأنه قيل: ربما ودوا ، وتخفيف « ربما » لغة أهل الحجاز، وقيس وبكر يثقلونها . ولما تمادوا فى طغيانهم قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « ذرهم » أى دعهم عن النهى عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة واتركهم « يأكلوا ويتمتعوا » بدنياهم والتلذذ بشهواتهم ، والتمتع هو التلذذ وهو طلب اللذة حالا بعد حال ، كالتقرب فى أنه طلب القرب حالا بعد حال « ويلههم الأمل » أى ويشغلهم توقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال عن أخذ حظهم من السعادة وعن الاستعداد للمعاد ، ولما كان هذا أمرا لا يشتغل به إلا أحمق تسبب عنه التهديد بقوله تعالى « فسوف يعلمون » أى ما يحل بهم بعد ما فسحنا لهم فى زمن التمتع من سوء صنيعهم ، وهذا قبل الأمر بالقتال ، وفى الآية دليل على أن إيثار التلذذ والتنعم فى الدنيا من أخلاق الهالكين ، والأخبار فى ذم الأمل كثيرة ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان : الحرص على المال والحرص على العمر ، وعن على رضى الله تعالى عنه : إنما أخشى عليكم اثنتين: طول الأمل واتباع الهوى ؛ فإن طول الأمل ينسى الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق . . ولما هددهم الله تعالى بآية التمتع وإلهاء الأمل أتبعه بما يؤكد الزجر بقوله تعالى « وما أهلكنا من قرية » أى من القرى والمراد أهلها ومن مزيدة ، والمعنى : وما أهلكنا من أمة « إلا ولها كتاب معلوم » أى أجل مضروب محدود مكتوب فى اللوح المحفوظ لهلاكها . . ثم بين الله تعالى الآية السابقة بقوله تعالى « ما تسبق » وأكد الاستغراق بقوله تعالى « من أمة » وقيل من مزيدة كقوله : ما جاءنى من أحد . . كما بين أن المراد بالكتاب الأجل بقوله تعالى « أجلها » أى الذى قدرناه لها ، « وما يستأخرون » أى عنه ؛ وقد أنث الأمة أولا حملا على اللفظ ، ثم أعاد الضمير عليها ثانيا حملا على المعنى .

٦ — وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ .

٧ — لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

٨ — مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ .

٩ — إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .

١٠ — وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ .

١١ — وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

١٢ — كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ .

١٣ — لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ .

١٤ — وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ .

١٥ — لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ .

فى هذه الآيات العشر بيان لجدل المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورميهم له بالجنون وطلبهم نزول الملائكة مصدقة له ، ورد الله عز وجل عليهم وعلى اقتراحاتهم الآثمة .. ويذكر الله عز وجل أن الله عز وجل الذى نزل القرآن هو الذى سيحفظه ، سيحفظ دعوته إلى البشر لتبقى أبد الآباد منيرة هادية ، وسيحفظه هو ليظل كتاب البشر والبشرية جمعاء على مر العصور واختلاف الأجيال . . . ثم يذكر الله عز وجل أن الله تعالى أرسل رسلا كثيرين قبله إلى الأمم السالفة يدعونهم إلى الهدى والتوحيد والطهر والخير والسلام والمحبة ، وكانت الأمم تقابل رسلها بالاستهزاء والسخرية والتكذيب .. ويذكر الله عز وجل أن المشركين مهما جحدوا القرآن ورسالة الإسلام ، فإن دعوة القرآن وبلاغته تنفذ إلى قلوب المشركين فتدمر معنوياتهم ،

وتنسف أباطيلهم ، وتبعث فى قلوبهم الشك والريبة والحيرة ، ومع ذلك فهم لا يؤمنون به ، مع علمهم بسنة الله فى الأمم البائدة ، إذ حكم عليها بالهلاك حين كذبت رسلها ، وهؤلاء المشركون لو صعد بهم الله إلى السماء ليروا عجائب قدرة الله عز وجل لما آمنوا ، ولظلوا فى طغيانهم يعمهون .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر » أى القرآن فى زعمه « إنك لمجنون » إنما نسبوه إلى الجنون . إما لأنهم كانوا يستبعدون كونه رسولا حقا من عند الله ؛ لأن الرجل إذا سمع كلاما مستبعدا من غيره فربما قال : به جنون ، وإما لأنه عليه الصلاة والسلام كان يظهر عليه عند نزول الوحى حالة شبيهة بالغشى فظنوا أنها جنون ، ويدل عليه قوله تعالى « أو لم يتفكروا مابصاحبهم من جنة » ثم أتبعوه مازعموا أنه دليل على قولهم فقالوا « لوما » أى هلا « تأتينا بالملائكة » أى يشهدون لك بأنك رسول من عند الله حقا « إن كنت من الصادقين » فى ادعائك بالرسالة وأن هذا القرآن من عند الله ، ولما كان فى قولهم أمران أجاب الله تعالى عن قولهم الثانى لأنه أقرب بقوله تعالى « ماننزل الملائكة إلا بالحق » أى لا ننزلها إلا ملتبسين بالحكمة والمصلحة ولا حكمة فى أن نأتى بهم عيانا يشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ، ومثله قوله تعالى : « وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » وقيل : الحق الوحى أو العذاب « وما كانوا » أى الكفار « إذا » أى إذ تأتيهم الملائكة « منظرين » أى لزال عنهم الإمهال وعذبوا فى الحال إن لم يؤمنوا ويصدقوا ، وكان حينئذ يفوت ماقضينا به من تأخيرهم وإخراج من أردنا إيمانه من أصلابهم ، ثم أجاب تعالى عن الأول بقوله تعالى مؤكدا لتكذيبهم « إنا نحن » بما لنا من العظمة والقدرة « نزلنا » أى بالتدريج على لسان جبريل عليه السلام « الذكر » أى القرآن « وإنا له لحافظون » أى من التبديل والتحريف والزيادة والنقصان ، ونظيره قوله تعالى « لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الأشياء كلها لا يقدر

أحد من جميع الخلق من الجن والإنس أن يزيد فيه أو ينقص منه كلمة واحدة أو حرفا واحدا ، وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فإنه قد دخل على بعضها التحريف والزيادة والنقصان .. وقد اشتغلت الصحابة بجمع القرآن فى المصحف ، وقد وعد الله تعالى بحفظه وما حفظه الله تعالى فلا خوف عليه ؛ لأن جمعهم القرآن فى المصحف كان من أسباب حفظ الله تعالى إياه ، فإنه تعالى لما أراد حفظه أقامهم لذلك ، قال أصحابنا: فى الآية دلالة قوية على كون البسملة آية من أول كل سورة ، لأن الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن والحفظ لا معنى له إلا أن يبقى مصونا من الزيادة والنقصان ، فلو لم تكن البسملة آية من القرآن لما كان القرآن مصونا من التغيير ولما كان محفوظا عن الزيادة ، ولو جاز أن يظن بالصحابة أنهم زادوا جاز أيضا أن يظن بهم النقصان ، وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة ، وقيل : الضمير فى قوله « له » راجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : وإنا لمحمد لحافظون ممن أراد به سوءا ، فهو كقوله تعالى « والله يعصمك من الناس » ، ولما أساء الكفار إليه صلى الله عليه وسلم فى الأحوال وخاطبوه بالسفاهة وقالوا: إنك لمجنون. وكان ذلك عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء، قال سبحانه وتعالى تسلية له على وجه الرد عليهم « ولقد أرسلنا من قبلك » أى رسلا فحذف ذكر الرسل لدلالة الإرسال عليه ، وقوله تعالى « فى شيع » أى فرق « الأولين » من باب إضافة الصفة إلى الموصوف كقوله تعالى « حق اليقين » سموا شيعا لمتابعة بعضهم بعضا فى الأحوال التى يجتمعون عليها فى الزمن الواحد ، والشيع جمع شيعة وهى الفرقة المجتمعة المتفقة كلمتهم على مذهب وطريقة ، وقال الفراء : الشيعة الأتباع وشيعة الرجل أتباعه ، وقيل : الشيعة من يتقوى بهم الإنسان ، « وما يأتيهم » عبر بالمضارع على حكاية الحال الماضية إذ (ما) لا تدخل على مضارع إلا وهو فى معنى الحال ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال ، والأصل: وما كان يأتيهم « من رسول » أى على أى وجه كان « إلا كانوا به » جبلة وطبعا « يستهزئون » كاستهزاء قومك فصبروا فاصبر كما صبروا « كذلك »

أى مثل إدخالنا التكذيب فى قلوب هؤلاء المستهزئين بالرسل « نسلكه » أى ندخله « فى قلوب المجرمين » أى كفار مكة المستهزئين « لا يؤمنون به » أى بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل : بالقرآن ، وفى الآية دليل على أن الله تعالى يخلق الباطل فى قلوب الكفار ، والسلك : إدخال الشىء فى الشىء كالخيط فى المخيط ، ومنه قوله تعالى « ما سلككم فى سقر » ، وقيل : الضمير فى نسلكه يعود للذكر كما أن الضمير فى به يعود إليه ، وجملة «لا يؤمنون به» حال من ذلك الضمير ، والمعنى على هذا : مثل ذلك السلك نسلك الذكر فى قلوب المجرمين مكذبا غير مؤمن به « وقد خلت سنة الأولين » أى سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم أنبياءهم ، وفيه وعيد شديد لكفار مكة بأنه ينزل بهم مثل ما نزل بالأمم الماضية المكذبة ، وقال الزجاج : قد مضت سنة الله فى أن يسلك الكفر والضلال فى قلوبهم ، قال الرازى : وهذا أليق بظاهر اللفظ «ولو فتحنا عليهم بابا من السماء » الآية هو المراد فى سورة الأنعام فى قوله تعالى « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس » الآية أى إن الذين يقولون : لو ما تأتينا بالملائكة ، فلو أنزلنا الملائكة « فظلوا فيه » أى فظلت الملائكة « يعرجون » أى يصعدون فى الباب وهم يرونها عيانا « لقالوا » أى من عتوهم فى الكفر « إنما سكرت أبصارنا » أى سدت عن الإبصار بالسحر أو من السكر ، ويدل عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف أو حيرت من السكر ، ويدل عليه قراءة الباقين بالتشديد « بل نحن قوم مسحورون » أى قد سحرنا محمد بذلك كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات كانشقاق القمر وما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن المعجز الذى لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله ، وقيل : الضمير فى « يعرجون » يعود على المشركين ، أى لو ظل المشركون يصعدون فى ذلك الباب ، فينظرون فى ملكوت السموات وما فيها من العجائب ، لما آمنوا لعنادهم وكفرهم ، وقالوا : إنا سحرنا .

١٦ ـ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ .

١٧ — وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ .

١٨ — إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ .

١٩ — وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ .

٢٠ — وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ .

٢١ — وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ .

٢٢ — وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ .

٢٣ — وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ .

٢٤ — وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ .

٢٥ — وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

فى هذه الآيات العشر ذكر لكمال قدرة الله فى السماء والأرض ، تأكيداً لقدرته العظيمة على البعث والجزاء ، وعلى إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية ، وفى طليعتها القرآن الكريم .. ولما أجاب الله تعالى عن شبهة منكرى النبوة ، والقول بالنبوة مفرع على القول بالتوحيد ، ودلائل التوحيد منها سماوية ومنها أرضية ، وبدأ منها بذكر الدلائل السماوية فقال عز وجل فى كتابه الحكيم : « ولقد جعلنا ، بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة ، فى السماء بروجا ، قال الليث : البروج واحدها برج من بروج الفلك ، والبروج هى النجوم الكبار مأخوذة من الظهور ، يقال : تبرجت المرأة إذا ظهرت ، وأراد بها المنازل التى

تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيارة ، قال ابن عباس فى هذه الآية :
يريد بروج الشمس والقمر يعنى منازلها ، وقال مجاهد : هى النجوم العظام ،
قال أبو إسحاق : يريد نجوم هذه البروج « وزيناها » أى السماء بالشمس
والقمر والنجوم والأشكال والهيئات البهية « للناظرين » أى المعتبرين المستدلين
بها على توحيد خالقها ومبدعها وهو الله الذى أوجد كل شىء وخلقه وصوره
« وحفظناها من كل شيطان رجيم » أى مرجوم ، وقيل : ملعون ، قال ابن
عباس : كانت الشياطين لايحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها ويسمعون
أخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها على الكهنة ، فلما ولد عيسى عليه السلام
منعوا من ثلاث سموات ، ولما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات
كلها ، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمى بشهاب ، فلما منعوا تلك
المقاصد ذكروا لإبليس فقال : لقد حدث فى الأرض حدث ؛ فبعثهم ينظرون
فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن ، فقالوا : والله هذا حدث ،
وقوله تعالى « إلا من استرق السمع » بدل من شيطان رجيم ، وقيل : استثناء
منقطع أى لكن من استرق السمع ، واستراق السمع : اختلاسه ، قال ابن
عباس : يريد الخطفة اليسيرة ، وذلك أن الشياطين كانوا يصعدون إلى سماء
الدنيا يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب كما قال تعالى : « فأتبعه
بشهاب مبين » الشهاب : شعلة من نار ساطعة ، وقد تطلق على الكواكب لما
فيها من البريق .

ولما شرح الله تعالى الدلائل السماوية فى تقرير التوحيد أتبعها بذكر
الدلائل الأرضية وهى أنواع :

النوع الأول: قوله تعالى « والأرض مددناها » قال ابن عباس : بسطناها
على وجه الماء ، والأرض هى كرة فى غاية العظمة ، والكرة العظيمة ترى
كالسطح المستوى .

النوع الثانى: قوله تعالى « وألقينا فيها رواسى » أى جبالا ثوابت ، واحدها

راسى والجمع راسية وجمع الجمع رواسى ، وهو كقوله تعالى « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » ، قال ابن عباس : لما بسط الله الأرض على الماء مالت بأهلها كالسفينة ، فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكى لا تميد بأهلها .

النوع الثالث قوله تعالى « وأنبتنا فيها » واختلف فى عود الضمير فى فيها فقيل : يعود إلى الأرض لأن أنواع النبات المنتفع به يكون فى الأرض ، وقيل : إلى الجبال لأنها أقرب مذكور ، ولقوله تعالى « من كل شىء موزون » وإنما يوزن ما يتولد من الجبال ، والأولى عوده لهما ، واختلفوا فى المراد بالموزون ، فقال ابن عباس : أى معلوم ، وقال مجاهد : أى مقدار معين تقتضيه حكمته ، وقال الحسن: أعنى به الشىء الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن ، والأولى أنه جميع ما ينبت فى الأرض والجبال لأن ذلك نوعان : أحدهما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون ، والثانى النبات فبعضه موزون وبعضه بالكيل وهو يرجع إلى الوزن لأن الصاع والمد مقدران بالوزن « وجعلنا لكم فيها » أى إنعاما وتفضلا عليكم « معايش » جمع معيشة وهى ما يعيش به الإنسان مدة حياته فى الدنيا من المطاعم والملابس والمعادن وغيرها « و » جعلنا لكم « من لستم له برازقين » من العبيد والأنعام والدواب والطير ، فإنكم تنتفعون بها ولستم لها برازقين ، لأن رزق جميع الخلق على الله تعالى . والله هو الرزاق يرزق المخدوم والخادم والمملوك والمالك ، لأنه تعالى خلق الأطعمة والاشربة وأعطى القوة ، فإن قيل: صيغة (من) مختصة بمن يعقل ، فالجواب أنه تعالى أثبت لجميع الدواب رزقاً على الله حيث قال : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » فغلب من يعقل على غيره .

ولما بين سبحانه وتعالى أنه أنبت لهم كل شىء موزون وجعل لهم معايش أشعر بذكر ما هو السبب لذلك فقال تعالى : « وإن » أى وما « من شىء » أى مما ذكر وغيره من الأشياء الممكنة وهى لا نهاية لها « إلا عندنا خزائنه » أى قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه ، فضرب الخزائن مثلا

لاقتداره على كل مقدور ، وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : فى العرش تمثال جميع ما خلق الله فى البحر والبر ، والخزائن جمع خزانة وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه للحفظ ؛ وقيل : أراد مفاتيح الخزائن ، وقيل : المطر لأنه سبب الأرزاق لبنى آدم والوحش والطير والدواب ، ومعنى عندنا أى فى حكمه تعالى وتصرفه وأمره وتدبيره «وما ننزله إلا بقدر معلوم» أى على حسب المصالح ؛ وقيل : إن لكل أرض حداً ومقداراً من المطر ، يقال: لا ينزل من السماء قطرة مطر إلا ومعها ملك يسوقها إلى حيث يشاء الله.

ولما تم ما أراد من آيات السماء والأرض وختمه بشمول قدرته لكل شىء ، أتبعه بما ينشأ عنهما مما هو بينهما مودعا فى خزائن قدرته ، بقوله تعالى : «وأرسلنا الرياح» جمع ريح «لواقح» أى حوامل لأنها تحمل الماء إلى السحاب فهى لاقحة، يقال: ناقة لاقحة إذا حملت الولد ، وقال عبيد بن عمير : يبعث الله تعالى الريح المثيرة فتثير السحاب ، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه إلى بعض فتجعله ركاما ، ثم يبعث الله اللواقح تلقح الشجر ، وعن ابن عباس قال : ما هبت ريح قط إلا جثا النبى صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها ريحا ، وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا عصفت الريح قال : اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به ، وفى الآية معجزة علمية جليلة ، وهى تثبت صدق محمد فيما بلغ به عن ربه ، إذ من ذا الذى كان فى عصر محمد يعلم أن الرياح تحمل اللقاح من بعض الأشجار فتلقح به أشجارا أخرى ؟ «فأنزلنا» أى بعظمتنا بسبب تلك السحائب التى حملتها الريح «من السماء» أى الحقيقية أو جهتها أو السحاب «ماء فأسقيناكموه» أى جعلناه لكم سقيا ، يقال : سقيته مايشربه وأسقيته أى مكنته منه ليسقى به ما شيته ومن يريد ، ونفى سبحانه وتعالى عن غيره ما أثبته أولا لنفسه بقوله : «وما أنتم له» أى لذلك الماء «بخازنين» أى ليست خزائنه بأيديكم ، والخزن وضع الشىء فى مكان معين للحفظ ، فثبت أن القادر عليه

واحد مختار . ومن دليل التوحيد الإحياء والإماتة كما قال تعالى : « وإنا لنحن نحيي » أى لنا هذه الصفة على وجه العظمة فنحيي بها من نشاء من الحيوان بروح البدن ومن النبات بالنمو « ونميت » أى لنا هذه الصفة فنبرز بها من عظمتنا ما نشاء « ونحن الوارثون » أى الإرث التام إذا مات الخلائق ، فنحن الباقون بعد كل شيء كما كنا ولا شيء ، فليس لأحد تصرف بإماتة ولا إحياء ، فلما ثبت بهذا كمال قدرته وكانت آثار القدرة لا تكون محكمة إلا بالعلم قال تعالى : « ولقد علمنا المستقدمين منكم » وهو من قضينا بموته أولا من لدن آدم ، فيكون فى موته كأنه يسارع إلى التقدم إليه « ولقد علمنا المستأخرين » أى الذين نمد فى أعمارهم فنؤخر موتهم حتى يكونوا كأنهم يسابقون إلى ذلك ، وقال ابن عباس : أراد بالمستقدمين الأموات وبالمستأخرين الأحياء ، وقال عكرمة : المستقدمين من خلق الله والمستأخرين من لم يخلق ، وقال الحسن : المستقدمين فى الطاعة والخير والمستأخرين المتبطئون ، وقيل : المستقدمين من القرون الأولى والمستأخرين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : المستقدمين فى الصفوف والمستأخرين فيها ، وذلك أن النساء كن يخرجن إلى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان فى الرجال من فى قلبه ريبة فيتأخر إلى آخر صف الرجال ومن النساء من فى قلبها ريبة، فتتقدم إلى أول صف النساء لتقرب من الرجال ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها . وفى سبب نزول هذه الآية قولان: أحدهما أن امرأة حسناء كانت تصلى خلف النبي صلى الله عليه وسلم فكان بعضهم يتقدم حتى يكون فى أول صف حتى لا يراها ويتأخر بعضهم حتى يكون فى آخر صف ، فإذا ركع نظر من تحت إبطه فنزلت ، والثانى أن النبي صلى الله عليه وسلم حرض على الصف الأول فازدحموا عليه ، وقال قوم بيوتهم قاصية عن المسجد : لنبيعن دورنا ولنشترين دورا قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المتقدم فنزلت « وإن ربك هو يحشرهم » أى المستقدمين والمستأخرين للجزاء ، وذكر « هو » للدلالة على أنه القادر والمتولى لحشرهم

لاغيره ، وتصدير الجملة بأن لتحقيق الوعد وللتنبيه على أن ماسبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله تعالى « إنه حكيم » أى باهر الحكمة . جميع أفعاله هى مثال الإتقان والكمال ، « عليم » يسع علمه كل شىء .

٢٦ — وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ .

٢٧ — وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ .

٢٨ — وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ .

٢٩ — فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ .

٣٠ — فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ .

٣١ — إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ .

٣٢ — قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ .

٣٣ — قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ

٣٤ — قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ .

٣٥ — وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ .

٣٦ — قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ .

٣٧ — قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ .

٣٨ — إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ .

٣٩ — قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .

٤٠ — إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ .

٤١ — قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ .

٤٢ — إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ .

٤٣ — وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ .

٤٤ — لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ .

٤٥ — إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ .

٤٦ — ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ .

٤٧ — وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ .

٤٨ — لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ .

فى هذه الآيات الثلاث والعشرين استدلال على قدرة الله عز وجل على البعث والجزاء وإرسال الرسل وإنزال الكتب ، كذلك بخلقه تعالى ابتداء للإنسان ، وبتفضيل الله عز وجل له ، ويذكر الله عز وجل أمره الملائكة بالسجود لآدم ، وامتثالهم لهذا الأمر جميعا ماعدا إبليس الذى خرج من رحمة الله وأغوى الناس إلا عباد الله المخلصين ، ويبين الله عز وجل ماأعده من العقاب للغاوين ، ومن النعيم للمتقين .

ولما استدل سبحانه وتعالى بقدرته فى السماء والأرض على صحة التوحيد فى الآية المتقدمة أردفه بالاستدلال بقدرته فى خلق الإنسان على هذا المطلوب فقال تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان » قال الرازى والمفسرون : اجمعوا على

أن المراد منه آدم عليه السلام ، ونقل فى كتب الشيعة عن محمد بن على الباقر أنه قال: قد انقضى قبل آدم الذى هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر ، سمى إنسانا لظهوره وإدراك البصر إياه ، وقيل : من النسيان لأنه عهد إليه فنسى « من صلصال » أى من الطين الشديد اليابس الذى لم تصبه نار ، إذا نقرته سمعت له صلصلة أى صوتا ، وقال ابن عباس : هو الطين إذا انصب عليه الماء تشقق فإذا حرك تقعقع ، وقال مجاهد : هو الطين المنتن، واختاره الكسائى وقال الفراء : هو طين خلط برمل فصار له صوت عند نقره ، وقال الرازى: قال المفسرون : خلق الله تعالى آدم من طين فصوره وتركه فى الشمس أربعين سنة فصار صلصالا لايدرى أحد مايراد به ولم يروا شيئاً من الصور يشبهه إلى أن نفخ فيه الروح « من حمأ » أى طين أسود منتن « مسنون » أى مصور بصورة الآدمى ، وقال ابن عباس : هو التراب المبتل المنتن، وقال مجاهد: هو المنتن المتغير .

ولما ذكر سبحانه وتعالى خلق الإنسان ذكر ماخلقه قبله من الجان فقال تعالى « والجان » قال ابن عباس هو أبو الجن كما أن آدم عليه السلام أبو البشر وإبليس أبو الشياطين ، وفى الجن مسلمون وكافرون ، يشربون ويأكلون ويحيون ويموتون كبنى آدم ، وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون إلا إذا مات إبليس ، وقال وهب : إن من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين، ومن الجن من هو بمنزلة الريح ولا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين، والأصح أن الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم فى الاستتار، وسموا جناً لتواريهم واستتارهم عن الأعين ، من قولهم: جن الليل إذا استتر، والشيطان هو العاتى المتمرد الكافر ، والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر « خلقناه من قبل » أى قبل خلق الإنسان « من نار السموم » أى من ريح حارة تدخل مسام الإنسان فتقتله من قوة حرارتها ، ويقال : السموم بالنهار والحرور بالليل ، وقال الكلبى عن أبى صالح : السموم نار لادخان لها والصواعق تكون منها وهى نار تكون فى وسط السماء ، وعن الضحاك عن

ابن عباس : كان إبليس من حى من الملائكة يقال لهم : الجن، خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار ، وأما الملائكة فخلقوا من النور .

ولما ذكر الله تعالى حدوث الإنسان الأول ، واستدل بذكره على وجود الإله القادر المختار ، ذكر موقف إبليس منه بقوله : « إذ » أى واذكر يا محمد قول ربك عز وجل إذ « قال ربك » أى المحسن إليك بتشريف أبيك آدم عليه السلام « للملائكة أنى خالق بشرا » المراد ملائكة السماء أو ملائكة الأرض من «صلصال من حمأ مسنون» تقدم تفسيره « فإذا سويته » أى عدلته وأتممته وهيأته لنفخ الروح فيه « ونفخت فيه من روحى » أى خلقت الحياة فيه ، وليس نفخ ولا منفوخ وإنما هو تمثيل، وأضاف الروح إليه تعالى تشريفاً كما يقال: بيت الله، وهو ما يصير به الروح عالما وأشرف منه ما يصير به العالم عاملا خاشعا « فقعوا » أى اسقطوا « له » تعظيما حال كونهم « ساجدين » كسجود الصلاة ، وقيل : هو سجود انحناء أو غيره « فسجد الملائكة كلهم أجمعون » قال سيبويه تأكيد بعد تأكيد ، وسئل المبرد عن ذلك فقال : لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم، فلما قال (كلهم) زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا، ثم عند هذا بقى احتمال، وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد فى وقت غير وقت سجود الآخر، فلما قال: أجمعون ظهر أن سجدوا دفعة واحدة ، قال الزجاج : وقول سيبويه أجود لأن أجمعين معرفة الكل فلا يكون حالا « إلا إبليس » أجمعوا على أن إبليس كان مأمورا بالسجود لآدم، واختلفوا فى أنه هل كان من الملائكة أم لا؟ وقد سبقت هذه المسألة « أبى أن يكون مع الساجدين » أى لآدم ، وهو على تقدير أن قائلا قال : هل سجد ؟ فقيل : أبى ذلك واستكبر عنه « قال » الله تعالى له « يا إبليس مالك أن لا تكون » أى أن تكون ، و(لا) مزيدة أى ما منعك أن تكون «مع الساجدين» لآدم « قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون » وهو أخس العناصر، وخلقتنى من نار وهى أشرفها ، قال بعض المتكلمين : إنه تعالى

أوصل هذا الخطاب إلى إبليس على لسان بعض رسله ، وأجيب بأن مكالمة الله تعالى إنما تكون منصبا عاليا إذا كانت على سبيل الإكرام والإعظام فإذا كانت على سبيل الإهانة والإذلال فلا « قال » الله تعالى له « فاخرج منها » أى من الجنة، وقيل : من السموات ، وقيل : من زمرة الملائكة «فإنك رجيم»أى مطرود من الخير والكرامة ، فان من يطرد يرجم بالحجر أو شيطان رجيم بالشهب ، وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته « وإن عليك اللعنة » أى هذا الطرد والإبعاد « إلى يوم الدين » قال ابن عباس: يريد يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم مثل قوله تعالى« مالك يوم الدين » فإن قيل : كلمة إلى تفيد حصر انتهاء الغاية فهذا يفيد بأن اللعنة لا تحصل إلا إلى يوم الدين وعند القيامة يزول اللعن ، أجيب بجوابين : الأول : أن المراد التأبيد ، وذكر القيامة أبعد غاية ذكرها الناس فى كلامهم كقولهم ما دامت السموات والأرض فى التأبيد ، والثانى أنه مذموم مدعو عليه باللعن فى السموات والأرض إلى يوم القيامة من غير أن يعذب ، فإذا جاء ذلك اليوم عذب عذابا يقترن اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب أن شدة العذاب تذهل عنه . ولما جعله الله تعالى رجيما ملعونا إلى يوم القيامة فكان قائلا يقول : فماذا قال؟ فقيل : « قال رب » فاعترف بالعبودية والإحسان إليه « فأنظرنى » أى أخرنى والإنظار تأخير المحتاج للنظر فى أمره والفاء متعلقة بمحذوف دل عليه : فاخرج منها فإنك رجيم «إلى يوم يبعثون» أى الناس أى لعله يجد فسحة فى الأمر أو نجاة من الموت إذ لا موت بعد وقت البعث « قال » الله تعالى مجيبا للأول دون الثانى بقوله تعالى « فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » وهو المسمى فيه أجلك عند الله وهو النفخة الأولى وما يتبعها من موت كل مخلوق لم يكن فى دار الخلد ، فإن قيل : كيف أجابه الله تعالى إلى ذلك الإمهال ؟ أجيب بأنه إنما أجابه لذلك زيادة فى بلائه وشقائه وعذابه لا لإكرامه ورفع مرتبته ، ولما أجيب لذلك كأنه قيل : فماذا قال ؟ فقيل : « قال رب » أى أيها الموجد والمدبر لى وقوله « بما أغويتنى » أى خيبتنى من رحمتك ،

« لأزينن » أى أقسم بإغوائك إياى لأزينن « لهم فى الأرض » حب الدنيا ومعاصيك كقوله تعالى : فبعزتك لأغوينهم أجمعين .. « ولأغوينهم » أى بالإضلال عن الطريق الحميد بإلقاء الوسوسة فى قلوبهم ولأحملنهم « أجمعين » على الغواية ، وقوله « إلا عبادك منهم المخلصين » قراءة ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام أى الذين أخلصو دينك عن الشوائب ، وقرأ الباقون بفتحها أى الذين أخلصهم الله تعالى بالهداية ، وإنما استثنى من إبليس المخلصين. لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه ، والإخلاص فى العمل سر بين العبد وبين الله تعالى لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ، وذكر القشيرى وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : سألت جبريل عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سر استودعته قلب من أحب من عبادى ، ولما ذكر إبليس أنه يغوى بنى آدم إلا من عصمه الله بتوفيقه ، وتضمن هذا الكلام تفويض الأمور إلى الله تعالى وإلى إرادته « قال » تعالى « هذا » أى الذى ذكرته « صراط »أى طريق « على مستقيم » أى لا انحراف عنه لأنى قضيت به وحكمت به عليك وعليهم ولو لم تقل أنت ، ولما قال إبليس : لأزينن لهم فى الأرض إلا عبادك منهم المخلصين أوهم هذا أن له سلطانا على عباد الله غير المخلصين ، فبين تعالى كذبه وأنه ليس له سلطان على أحد من عبيد الله سواء كانوا مخلصين أو لم يكونوا مخلصين ، بل ومن تبع إبليس منهم باختياره صار تبعاً له ، ولكن تلك المتابعات أيضاً ليس لأجل إبليس ، وأوهم أن له على عباد الله سلطانا ، فبين تعالى كذبه ، وذكر تعالى أنه ليس له على أحد منهم سلطان ولا قدرة أصلا بقوله تعالى « إن عبادى » أى المؤمنين كلهم « ليس لك » أى بوجه من الوجوه « عليهم سلطان » أى لتردهم كلهم كما يرضينى ، ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن إبليس : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » ، وقال تعالى فى آية أخرى : « ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » « إلا من اتبعك »

أى بتعمد منه ورغبة فى اتباعك « من الغاوين » أى ومات عن غير توبة فإنى جعلت لك عليهم سلطانا بالتزيين والإغواء ، سئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية قال : معناها ليس عليهم سلطان يلقيهم فى ذنب يضيق عنه عفوى ، وقيل: إن الإضافة للتشريف فلا تشمل إلا الخلص « وإن جهنم لموعدهم » أى الغاوين وهم إبليس ومن تبعه « أجمعين » ثم بين تعالى أنهم متفاوتون فيها بقوله تعالى « لها » أى لجهنم « سبعة أبواب » أى سبع طبقات ، قال على رضى الله عنه : أتدرون كيف أبواب النار؟ هى هكذا ووضع إحدى يديه على الأخرى أى سبعة أبواب بعضها فوق بعض ، وأن الله تعالى وضع الجنات على العرش ووضع النيران بعضها على بعض ، فأهل النار سبع فرق ، وقيل : جعلت سبعة على وفق الأعضاء السبعة من العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل لأنها مصادر السيئات فكانت مواردها الأبواب السبعة . . ولما كانت هى بعينها مصادر الحسنات بشرط النية والنية إعمال القلب زادت الأعضاء واحدا فجعلت أبواب الجنة ثمانية ، قال تعالى « لكل باب » أى منها « منهم » أى من الغاوين خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم « جزء » أى نصيب « مقسوم » أى معلوم ، قال الضحاك : فى الدركة الأولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون ، وفى الثانية النصارى ، وفى الثالثة اليهود ، وفى الرابعة الصابئون ، وفى الخامسة المجوس ، وفى السادسة أهل الشرك ، وفى السابعة المنافقون فذلك قوله تعالى : إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، وروى عن عمر رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتى ـ أو قال على أمة محمد .

ولما شرح الله تعالى أحوال أهل العقاب أتبعه بصفة أهل الثواب بقوله تعالى مؤكدا لإنكار المكذبين بالبعث « إن المتقين » أى الذين اتقوا الشرك بالله سبحانه وتعالى كما قال جمهور الصحابة والتابعين وهو الصحيح لأن المتقى هو الآتى بالتقوى مرة واحدة ، كما أن القاتل هو الآتى بالقتل مرة واحدة ، فكما أنه ليس من شرط صدق الوصف كونه آتيا بجميع أنواع الضرب

والقتل ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا كونه آتيا بجميع أنواع التقوى ، لأن الآتى بفرد واحد من أفراد التقوى يكون آتيا بالتقوى ؛ لأن كل فرد من أفراد الماهية يجب كونه مشتملا على تلك الماهية «فى جنات» أى بساتين ، قال الرازى : أما الجنات فأربعة لقوله تعالى : ولمن خاف مقام ربه جنتان، ثم قال : ومن دونهما جنتان فيكون المجموع أربعة وقوله : ولمن خاف مقام ربه جنتان ـ يؤكد ما قلنا ، لأن من آمن بالله لاينفك قلبه من الخوف من الله تعالى، وقوله تعالى : ولمن خاف ـ يكفى فى صدقه حصول هذا الخوف مرة واحدة وقوله تعالى «وعيون» قال الرازى : يحتمل أن يكون منها ما ذكره الله تعالى فى قوله «مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى» ويحتمل أن يكون المراد : من هذه العيون منابع مغايرة لتلك الأنهار .

ولما كان المنزل لا يحسن إلا بالسلامة والأنس قال تعالى : «ادخلوها» أى يقال لهم ذلك «بسلام» أى سالمين من كل آفة مرحبا بكم «آمنين» من ذلك دائما . ولما كان الأنس لايكمل إلا بالجنس مع كمال المودة وصفاء القلوب عن الكدر قال تعالى : «ونزعنا» أى بما لنا من العظمة والقدرة «مافى صدورهم من غل» أى حقد كامن فى القلب ويطلق على الشحناء والعداوة والحسد والبغضاء ، فكل هذه الخصال المذمومة داخلة فى الغل لأنها كامنة فى القلب ، يروى أن المؤمنين يحبسون على أبواب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم إلى الجنة وقد نقى قلوبهم من الغل والحقد والحسد حالة كونهم «إخوانا» أى متصافين حال كونهم «على سرر» جمع سرير وهو مجلس رفيع وهو موطن للسرور ومأخوذ منه لأنه مجلس سرور «متقابلين» والتقابل التواجه وهو نقيض التدابر، ولا شك أن المواجهة أشرف الأحوال ، وليس المراد الأخوة فى النسب بل المراد الأخوة فى المودة والمخالطة ، كما قال تعالى «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين» ، وعن الجنيد أنه قال :

ما أحلى الاجتماع مع الأصحاب وما أمرّ الاجتماع مع الأضداد . . وقوله تعالى « لا يمسهم فيها نصب أى إعياء وتعب وجهد ومشقة ، وقوله تعالى « وما هم منها بمخرجين » المراد به خلود بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان .

وبهذا ينتهى الربع الأول من سورة الحجر ، الذى تضمن تنويها بالقرآن الكريم وتحذيراً وتخويفا للكافرين ، وتلميحا لمصارع الأمم وآجالها ، وذكرا لما كان يقابل المشركون به رسول الله من استهزاء وسخرية ، واقتراحهم عليه أن ينزل الآيات لتشهد له بصدقه فيما أخبر به من الرسالة والوحى . . كما حدث للمرسلين من قبل من تكذيب أممهم لهم ، وكفرهم بهم وسخريتهم منهم . . ويشرح الله عز وجل مظاهر قدرته فى السماء والأرض وفى خلق الإنسان ليؤيد بذلك قدرته على البعث والجزاء وعلى إهلاك الأمم الضالة ، وعلى إرسال الرسل وإنزال الوحى والكتب السماوية ، وفى مقدمتها القرآن الكريم على الأنبياء والمرسلين ، ويبين تكريمه تعالى للإنسان وكيف خلقه وأمر الملائكة بالسجود له ، وسجود الملائكة لآدم وعصيان إبليس ، وطرد الله له من رحمته ، وإغواءه للناس ، والجزاء الذى أعده الله عز وجل للغاوين وللمتقين . . ويدل هنا على أن إبليس من الجان أن الله عز وجل ذكر أنه خلق الإنسان من صلصال ، وخلق الجان من نار ، ثم ذكر أمره للملائكة بالسجود لآدم ، وامتثالهم له أجمعين ، ثم ذكر إبليس عاصياً متمردا . . مما يدل على أنه من الجان . واستثناؤه من الملائكة ليس دليلا على أنه منهم لجواز أن يكون الاستثناء منقطعا . .

وفى هذا الربع إعجاز علمى جليل فى قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » وهذا مما يدل على صدق محمد فيما بلغ به عن الله ، وهو دليل على عظمة القرآن وأنه رسالة من الله نزل بها الوحى الأمين على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

وفى الآيات القرآنية المتقدمة كثير من الحقائق التى لم يعلمها العلماء إلا بعد

مرور نحو ألف وأربعمائة سنة على الدين الإسلامى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

هذه الآيات تجيب بصراحة على أربعة أسئلة ما فتىء الإنسان ، الجاهل والفيلسوف ، يبحثان عنها كل منهما على قدر عقله :

١ — كيف بدىء الخلق أى كيف خلق أول إنسان ، وكيف يخلق باقى المخلوقات ؟

٢ — حياة الإنسان على الأرض وبعد الموت .

٣ — النشأة الثانية أو البعث والحساب .

١ — بدأ الله الخلق من طين ، ولم تتقدم العلوم لتثبت ذلك ، وسيأتى الوقت الذى يثبت فيه هذا حتما « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » وكل ما يقال عن مذهب النشوء والارتقاء ومذهب « دارون » الخ ، لايزال فى دور التجربة ، ولم يثبت منه شىء بصفة قاطعة أبدا ، ومما يسهل فهمه أن خلق أول المخلوقات هو من نفس المادة التى يخلق الله منها جميع المخلوقات ، وقد أخبرنا القرآن أنها ثلاثة أشياء :

١ — مما تنبت الأرض .

٢ — من أنفسهم .

٣ — مما لا يعلمون .

١ — فالجسم الحى ينمو بأن يحول مايأكله إلى جزء حى من جسمه ، وهذه هى أهم مميزات الحى ، وما يأكله الطفل حتى يصير رجلا لايخرج عن كونه مأخوذاً من الحيوان أو النبات . والحيوان أصله من النبات ، فالكل مأخوذ من النبات الذى ينمو من مواد الأرض والهواء . وهكذا يكون جسم الإنسان كله من الطين الذى يتحول بقوة الحياة فيه كما يتحول الماء إلى بخار بقوة الحرارة .

٢ ــ « من أنفسهم » أى من النطفة التى تمنى .

٣ ــ « مما لا يعلمون » تفسرها سورة السجدة « ثم سواه ونفخ فيه من روحه » فهناك شىء آخر هو « الروح » وهو خارج عن الطين . وقد تقدمت علوم المادة حتى ظن العلماء أن المخ والغدد ذات الإفرازات الداخلية تفسر كل أفعال الإنسان ، ولكن كثيراً منهم أخذ يعترف بأن هذا لا يكفى ، وذهب فريق إلى أن بعض الأشعة الكونية النائية قد يكون له تأثير فى المادة المخية ، وما زلنا لا نعلم كثيراً مما يقع بين علماء المادة ، وعلماء الروح من سوء تفاهم ؛ فيقول الأولون : إن المخ إذا أصيب بمرض تأثرت القوى العقلية بل الأخلاق وغيرها الخ . وهذا دليل على أن المادة هى كل شىء ، ومن المدهش أن من أكبر العلماء من يحتج بذلك على أنه لا وجود للروح ، مثل « كيث وسمث » وغيرهما ، والحقيقة أن المادة ضرورية لإظهار شىء خفى عنا ، ومثلها مثل عدة المسرة « التليفون » فإنها ضرورية لسماع صوت من يتكلم ، وإذا أصيبت المسرة بضرر اختل الكلام ووقف ، ولكن المسرة ليست منشأ الكلام مطلقاً ، وقد أقنع شرلوك هلمس كثيرين من معارضيه بذلك . وهذا لا يثبت طبعا وجود الروح ، ولكن يجعله ممكنا ، وهذه هى آخر درجة معرفتنا ، أو بالأحرى « جهلنا » والمهم أنه لم يظهر شىء للآن يتنافى مع هذه الآيات . والله جلت قدرته يخاطبنا على قدر عقولنا ، ويتكلم عن النشأة الأولى وعن بدء الخلق ، كأنه تعالى قد اختص ببدء الخلق فقط مع أن الله بدأ الخلق وسن السنن الإلهية الطبيعية ، « ومنها خلق الكون كله » التى لا تبديل فيها أبداً لكى تكفل وجود النوع الإنسانى ما دامت السموات والأرض . وهكذا يكون معنى خلق آدم عليه السلام بعد خلق السموات والأرض والسنن الإلهية ، خلق العالم كله إلى النهاية التى أرادها الخالق وقت بدئها ، وإذا كان صانع « السيارة » عند ما يأتى بالمواد الخام التى يستعملها يتصور فى مخيلته شكل السيارة النهائى وسرعتها الخ مع أنه لا يتحكم فى الحوادث التى قد تطرأ عليه ، ويجهل كثيرا منها ، أفلا يعلم الخالق الأول كل ما سيكون عند بدء الخلق

مع أنه واضع السنن كلها ، وهذه السنن لا تتغير أبداً ، فالحقيقة أن الله بدأ الخلق ، والله خلق كل شيء ، وهذا هو معنى الآيات « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » و « يخلقكم فى بطون أمهاتكم » الآية .

ويمكنك أن تعلم بالإضافة إلى ذلك كيف تقوم القيامة وقدرة الله على قيام الساعة ، إذا قرأت أو شاهدت هذه الصورة المرعبة لنيويورك وهى تتلاشى من الوجود فى ١٥ دقيقة لو ألقيت عليها قنبلة من السلاح الجديد « ج الغازى » الذى ينتجه الآن الجيش الأمريكى . ويقول عنه الخبراء : إنه أقوى وأخطر من الصواريخ والقذائف الموجهة عابرة القارات ! . والذى كتب الوصف التفصيلى للرعب الذى قد يجتاح نيويورك فى يوم من الأيام هو الجنرال روتشيلد رئيس قسم الأبحاث البكتريولوجية والكيمائية فى الجيش الأمريكى . . وأنت لاشك لن يتملكك الرعب وأنت تقرأ السطور التالية من تقرير روتشيلد . . فالرغبة فى السلام تعيش فى كل قلب . . وربما كان تقرير روتشيلد وسيلة لنزداد تمسكنا بالسلام ! . . أنت تقف بأحد الميادين المزدحمة بنيويورك فى انتظار إشارة السير « الخضراء » . . والجو جميل . . والحياة تسير كالمعتاد . الناس تروح وتجىء تفكر فى عملها وآمالها . ولكن . . فجأة . . وبدون سابق إنذار . . تتحول الدنيا أمام ناظريك . . كل شيء من حولك تراه وقد أصابه ما هو أشد من الذهول والجنون . . السيارات تندفع — فجأة — بسرعة جنونية وبلا هدف لتصطدم بأى شيء ، المبانى تهتز وتتلوى . . الرجال والنساء والأطفال يتساقطون حيث هم على أرصفة الشوارع وقد تقلصت كل عضلة فى أجسادهم .. الهلع والرعب يرتسم على كل الوجوه التى طغى عليها سائل انبثق من الأنوف والأفواه ! . . وأنت — أيضاً — وفجأة . . تصاب بألم حاد قاتل فى معدتك وتسمع ملايين دقات الطبول وهى تطن فى رأسك . . وتحس بصدرك وهو ينطبق فى قسوة لا تدعك تتنفس . . وتشعر بساقيك ويديك وكأنما قد تحولت إلى أعمدة من الصلب ، على حين تفقد عيناك القدرة على الرؤية . . سترى فقط خليطا من الألوان . .

ستشاهد كابوسا رهيبا بالألوان الطبيعية .. ثم لا تحس إلا وأنت ترتطم بأرض الرصيف الذى كنت تقف عليه من ثوان معدودات . . وتنتهى حياتك إلى الأبد ! . . وفى أقل من ١٥ دقيقة تتوقف كل حركة ، ويسود الهدوء ، وتنتهى الحياة فى المدينة الكبيرة المزدحمة . . السيارات تقف فى سكون . . الناس تتناثر جثثهم الهامدة فى كل زاوية . . من المدينة الكبيرة !! . والغاز الجديد الذى يتسبب فى كل هذا يقتل دون ألم . تماما كما يخلعون أسنانك . . بلا ألم . وهو لا يشوى الأجسام ولا يشوهها .

* * *

الربع الثانى من سورة الحجر

٤٩ — نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

٥٠ — وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ .

٥١ — وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ .

٥٢ — إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ..

٥٣ — قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ .

٥٤ — قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ..

٥٥ — قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ .

٥٦ — قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ..

٥٧ — قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ .

٥٨ — قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ .

٥٩ — إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ..

٦٠ — إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ .

٦١ — فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ .

٦٢ — قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ .

٦٣ — قَالُوا بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ .

٦٤ — وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ .

٦٥ — فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ .

٦٦ — وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ .

٦٧ — وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ .

٦٨ — قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ .

٦٩ — وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ .

٧٠ — قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

٧١ — قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ .

٧٢ — لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ .

٧٣ — فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ .

٧٤ — فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ .

٧٥ — إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ .

٧٦ — وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ .

فى هذه الآيات الثانى والعشرين يخاطب الله عز وجل رسوله محمداً صلوات الله عليه لينبىء الناس بمغفرة الله لذنوب البشر ورحمته بهم ، وعذابه الشديد للكافرين منهم ، ولينبئهم عن قصة إبراهيم مع ملائكة الله ، الذين دخلوا عليه فبشروه بإسحاق وهو شيخ كبير ، ثم بشروه بقرب إهلاك الله لقوم لوط على أيديهم ، وتمضى الآيات فتقص قصة دخول الملائكة على لوط وحديثهم إليه ، وقدوم أهل المدينة نحو لوط ونحوهم، وجدل لوط لهم وتماديهم فى ضلالهم، وإهلاك الله إياهم بما كانو يصنعون .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « نبىء » أى أخبر « عبادى » أخباراً جليلة « أنى أنا » أى وحدى « الغفور » أى للمؤمنين « الرحيم » بهم « وأن عذابى » أى وحدى للعصاة « هو العذاب الأليم » أى المؤلم .. فى هذه الآية أضاف الله سبحانه وتعالى العباد إلى نفسه ، وفى هذا تشريف عظيم مثلما تراه فى قوله تعالى «سبحان الذى أسرى بعبده » .. ولما ذكر الله سبحانه وتعالى الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيد بلفظ « إنى » ، ولفظ « أنا » وبأل فى « الغفور الرحيم » ، ولما ذكر الله تعالى العذاب لم يقل أنا المعذب ، ولما وصف نفسه بذلك قال : وأن عذابى هو العذاب الأليم .. ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ إليهم هذا المعنى ، فكأنه أشهد رسوله على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة . . ولما قال: نبىء عبادى، كان معناه نبىء كل من كان مقراً بعبوديتى، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع كذلك يدخل فيه المؤمن العاصى ، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأسكن منها عنده تسعة وتسعين ، وأرسل فى خلقه رحمة فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار ؛ وعن عبادة رضى الله تعالى عنه قال : بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لو يعلم العبد قدر عفو الله ما تورع من حرام ، ولو يعلم قدر عذابه لجمع نفسه إلى قتلها ، وعن رسول الله صلى الله عليه

وسلم أنه مر بنفر من أصحابه وهم يضحكون فقال : أتضحكون وقد ذكر الجنة والنار بين أيديكم فنزل « نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم » ولما بالغ تعالى فى تقرير النبوة ، ثم أردف ذلك بذكر دلائل التوحيد ، ثم ذكر تعالى عقبه أحوال القيامة ووصف الأشقياء والسعداء أتبع ذلك بقصص الأنبياء ليكون سماعها مرغبا فى العبادة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء ، ومحذرا عن المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الأشقياء ، وافتتح من ذلك بقصة إبراهيم عليه السلام فقال تعالى « ونبئهم » أى خبر ياسيد المرسلين عبادى « عن ضيف إبراهيم » وهم ملائكة اثنا عشر ، أو عشرة أو ثلاثة منهم جبريل عليه السلام ، فإن قيل : الضيف هو المنضم إلى غيره لطلب القرى ، أجيب بأن هؤلاء بهذا الإسم لأنهم على صورة الضيف ، وقيل أيضا : إن من يدخل دار إنسان ويلتجىء إليه يسمى ضيفا وإن لم يأكل « إذ دخلوا عليه » أى إبراهيم وكان يكنى أبا الضيفان « فقالوا سلاما » أى نسلم عليك سلاما أو سلمت سلاما « قال » إبراهيم عليه السلام بلسان الحال أو المقال « إنا » أى أنا ومن عندى « منكم وجلون » أى خائفون ، وكان خوفهم لامتناعهم من الأكل أو لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت ، والوجل : اضطراب النفس لتوقع ماتكره « قالوا لا توجل » أى لاتخف « إنا » رسل ربك « نبشرك بغلام » أى ولد ذكر فى غاية القوة ليس كأولاد الشيوخ ضعيفا « عليم » أى ذى علم كثير هو إسحاق عليه السلام كما ذكر فى هود ، وتقدم ذكر القصة هناك بأسرها « قال » إبراهيم عليه السلام « أبشرتمونى » أى بالولد « على أن مسنى الكبر » حالا أى مع مسه إياى « فبم » أى فبأى شىء « تبشرون » أى بينوا لى ذلك بيانا شافيا فإنهم قد بينوا مابشروا به ، وفائدة هذا الاستفهام أنه أراد أن يعرف أن الله تعالى يعطيه الولد مع بقائه على صفات الشيخوخة أو يقلبه شابا ثم يعطيه الولد . والسبب فى هـــذا الاستفهام أن العادة جارية أنه لايحصل الولد فى حال الشيخوخة التامة وإنما يحصل فى حال الشباب ، أو أنه استفهام تعجب ، ويدل لذلك قولهم « قالوا بشرناك بالحق » قال ابن عباس : يريدون بما قضاه الله تعالى

والمعنى أن الله تعالى قضى أن يخرج من صلب إبراهيم إسحاق، ويخرج من صلب إسحاق ذرية مثل ما أخرج من صلب آدم « فلا تكن » أى بسبب تبشيرنا « من القانطين » أى الآيسين ، نهى لإبراهيم عليه السلام عن القنوط ، ونهى الإنسان عن الشيء لا يدل على كونه فاعلا للمنهى عنه كما فى قوله تعالى «ولا تطع الكافرين والمنافقين » ثم حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه «قال ومن يقنط » أى ييأس «من رحمة ربه» أى الذى لم يزل إحسانه عليه « إلا الضالون » المخطئون طريق الاعتقاد الصحيح فى ربهم من تمام القدرة وأن لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة ، ولما تحقق عليه السلام البشرى ورأى إتيانهم مختفين على غير الصفة التى يأتى فيها الملك للوحى ، وكان هو وغيره من العارفين بالله عالمين بأنه ما ينزل الملك إلا بالحق، كان ذلك سببا لأن يسألهم عن أمرهم ليزول وجله كله ، ولذلك « قال » عليه السلام « فما » بفاء السبب « خطبكم » أى شأنكم ، قال أبو حيان : والخطب لا يكاد يقال إلا فى الأمر الشديد ، وقال الرمانى : إنه الأمر الجليل « أيها المرسلون » فإنكم ما جئتم إلا لأمر عظيم يكون فصلا بين هالك وناج «قالوا إنا أرسلنا » أى أرسلنا الله العزيز الحكيم الذى أنت أعرف الناس به فى هذا الزمان «إلى» إهلاك « قوم » أى ذوى منعة « مجرمين » أى كافرين وهم قوم لوط ، وقوله تعالى « إلا آل لوط » فيه وجهان : أحدهما أنه استثناء متصل على أنه مستثنى من الضمير المستكن فى مجرمين بمعنى أجرموا كلهم إلا آل لوط فإنهم لم يجرموا ، ويكون معنى قوله تعالى «إنا لمنجوهم أجمعين» أى لإيمانهم ، فهو استئناف إخبار بنجاتهم لكونهم لم يجرموا . والثانى أنه استثناء منقطع لأن آل لوط لم يندرجوا فى المجرمين البتة ، ولكون قوله تعالى: إنا لمنجوهم أجمعين ، جرى مجرى خبر لكن فى اتصاله بآل لوط ، لأن المعنى لكن آل لوط منجوهم « إلا امرأته » استثناء من آل لوط أو من ضميرهم على الأول ، وعلى الثانى لا يكون إلا من ضميرهم لاختلاف الحكمين ، اللهم إلا أن يجعل : إنا لمنجوهم اعتراضا ، وقوله تعالى «قدرنا» قرأ شعبة بتخفيف الدال والباقون بالتشديد «إنها لمن الغابرين » أى من الباقين فى العذاب لكفرها .

ومعنى التقدير فى اللغة جعل الشىء على مقدار غيره ، يقال : قدرهذا الشىءلهذا أى جعله على مقداره، وقدرالله تعالى الأقوات أى جعلها مقدار الكفاية ، ويفسر التقدير بالقضاء فيقال:قضى الله تعالى عليه وقدره عليه أى جعله على مقدار ما يكفى فى الخير والشر ،وقيل: معنى قدرنا كتبنا، وقال الزجاج:أدبرنا، وأسندالملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم مع أنه لله عز وجل، لأنهم إنما ذكروا هذه العبادة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى، كما تقول خاصة الحاكم : دبرنا كذا وأمرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك لاهم ، وإنما يريدون بهذا الكلام إظهار مالهم من الاختصاص بذلك الملك فكذا هنا ، ولما بشر الملائكة عليهم السلام إبراهيم بالولد وأخبروه بأنهم مرسلون بعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد إبراهيم إلى لوط وآله ، وهذه هى القصة الثالثة المذكورة فى هذه السورة ، قال تعالى : « فلما جاء آل لوط المرسلون » أى بلغوا مكان إقامتهم « قال » لهم لوط « إنكم قوم منكرون» لأنهم دخلوا عليه فاستنكرهم وخاف من دخولهم لأجل شر يوصلونه إليه ، ولأجل أنهم كانوا شبانا مردا حسان الوجوه ، فخاف أن يهجم قومه عليهم بسبب طلبهم فقال هذه الكلمة ، وقيل : إن النكرة ضد المعرفة ، فقوله عليه السلام : إنكم قوم منكرون أى لا أعرفكم ولا أعرف من أى الأقوام أنتم ولا لأى غرض دخلتم على؛ فعند ذلك « قالوا » أى الملائكة « بل جئناك بما» أى بالعذاب الذى « كانوا » أى قومك « فيه يمترون » أى يشكون فى نزوله بهم ، والجاهل يوصف بالشك وإن كان مكذبا من جهة ما يعرض له من حيث أنه لا يرجع إلى نفسه فيما هم عليه ، ثم أكدوا ما ذكروه بقولهم « وآتيناك بالحق » أى باليقين الذى لا يشك فيه ، ثم أكدوا هذا التأكيد بقولهم « وإنا لصادقون » أى فيما أخبرناك به « فأسر بأهلك » أى فاذهب بهم « بقطع من الليل » أى فى طائفة من الليل ، وقيل : هى آخره . . « واتبع أدبارهم » أى وكن على آثار أهلك وسر خلفهم وتطلع إلى أحوالهم « ولا يلتفت منكم أحد » أى لئلا يرى أليم ما نزل بهم من البلاء ، وقيل : جعل ترك الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط « وامضوا حيث تؤمرون » أى

إلى المكان الذى أمركم الله بالمضى إليه ، قال ابن عباس : هو الشام ، وقيل : إلى الأردن ، وقيل : إلى مصر « وقضينا » أى وأوحينا « إليه » أى إلى لوط « ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع » أى مستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد « مصبحين » حال من هؤلاء أو من الضمير فى مقطوع وجمعه للحمل على المعنى أى يتم استئصالهم فى الصباح « وجاء أهل المدينة » أى مدينة من مدائن قوم لوط وهى سدوم بالدال ، وقيل : بالذال « يستبشرون » أى بأضياف لوط طمعاً فيهم ، وليس فى الآية دليل على المكان الذى جاءوه إلا أن القضية تدل على أنهم جاءوا دار لوط ، وقيل : إن الملائكة لما كانوا فى غاية الحسن اشتهر خبرهم حتى وصل إلى قوم لوط ، وقيل : إن امرأة لوط أخبرتهم بذلك ، والاستبشار إظهار السرور ، ولما وصلوا إليه « قال » لهم لوط « إن هؤلاء ضيفى » أى وحق على الرجل إكرام الضيف « فلا تفضحون » فيهم يقال فضحه يفضحه إذا أظهر من أمره ما يلزم به العار ، وإذا قصد الضيف بسوء كان ذلك إهانة لصاحب المكان « واتقوا » أى خافوا « الله » فى أمرهم « ولا تخزون » أى ولا تخجلون فيهم بقصدكم إياهم فعل الفاحشة ، من الخزاية وهى الحياء ، أو لا تذلونى بسببهم من الخزى وهو الهوان « قالوا » أى قومه فى جواب قوله لهم « أو لم ننهك عن العالمين » أى عن أن تضيف أحداً من العالمين ؟ وقيل : أو لم ننهك أن تدخل الغرباء المدينة فإنا نطلب منهم الفاحشة ؟ وقيل : أو لم ننهك أن تمنع بيننا وبينهم ؟ فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد ، وكان لوط عليه السلام يمنعهم منهم « قال » لهم : هؤلاء بناتى أو نساء القوم ، أى قال لهم : هؤلاء بناتى فانكحوهن واتركوا ضيوفى فلا تتعرضوا لهم « إن كنتم فاعلين » أى ما أقول لكم ، أو فاعلين لشهواتكم ، قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على لسان ملائكته « لعمرك » أى وحياتك : وما أقسم الله بحياة أحد غيره صلى الله عليه وسلم ، وذلك يدل على أنه أكرم الخلق عليه تعالى « إنهم لفى سكرتهم » أى شدة غفلتهم التى أزالت عقولهم « يعمهون » أى يتحيرون ، والخطاب للوط عليه السلام ، قالت له الملائكة ذلك ، أى فكيف يعقلون قولك

ويلتفتون إلى نصيحتك ؟ وتقدير الكلام: لعمرك قسمي أو يميني إنهم لفي سكرتهم. والعمر بالفتح والضم واحد وهو البقاء ، إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخذ فيه ، وذلك لأن الحلف كثير الدوران على ألسنتهم « فأخذتهم الصيحة » أي صيحة هائلة مهلكة وهي صيحة جبريل عليه السلام « مشرقين » أي داخلين في وقت الشروق وهو بزوغ الشمس « فجعلنا » أي بما لنا من العظمة والقدرة « عاليها » أي عالي مدينتهم « سافلها » بأن رفعها جبريل عليه السلام إلى السماء وأسقطها مقلوبة إلى الأرض « وأمطرنا عليهم » أي على أهل المدائن التي قلبت المدائن لأجلهم « حجارة من سجيل » أي طين مطبوخ بالنار ، ودلت الآية الكريمة على أن الله تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب : أحدها الصيحة الهائلة المنكرة ، وثانيها أنه جعل عاليها سافلها ، وثالثها أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل .. وتقدمت الإشارة إلى ذلك في سورة هود عليه السلام « إن في ذلك » أي المذكور من هذه الأنواع « لآيات » أي دلالات على وحدانية الله « للمتوسمين » أي للناظرين المعتبرين ، جمع متوسم وهو الناظر في السمة « وإنها » أي هذه المدائن « لبسبيل » أي طريق قريش إلى الشام « مقيم » أي لم يندرس ، بل يشاهدون ذلك ويرون أثره ، أفلا يعتبرون ؟

٧٧ — إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ .

٧٨ — وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ .

٧٩ — فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ .

٨٠ — وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ .

٨١ — وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ .

٨٢ — وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ .

٨٣ — فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ .

٨٤ — فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

فى هذه الآيات الثمان دعوة إلى الاعتبار بآيات الله والإيمان بها ، وذكر لأهل الأيكة وظلمهم وإهلاك الله لهم ، وهم قوم شعيب عليهم السلام ، وإشارة لقصة ثمود أهل الحجر وتكذيبهم برسالة صالح وإهلاك الله إياهم ، وقد سميت هذه السورة سورة الحجر لقوله تعالى هنا : « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين » ـ الآية ٨٠ ـ يقول الله عز وجل فى هذه الآيات مشيراً إلى زيادة الحث على الاعتبار بالتأكيد : « إن فى ذلك » أى فى هذا الأمر العظيم « لآية » أى علامة عظيمة فى الدلالة على وحدانيته تعالى « للمؤمنين » أى كل من آمن بالله وصدق الأنبياء والرسل عرف أن ذلك إنما كان لأجل أن الله تعالى انتقم لأنبيائه من أولئك الجهال ، أما الذين لا يؤمنون بالله فإنهم يحملونه على حوادث العالم ووقائعه.. ثم ذكر تعالى قصة أخرى ، وهى قصة شعيب عليه السلام بقوله تعالى « وإن » مخففة من الثقيلة أى وإنه « كان » أى جبلة وطبعاً « أصحاب الأيكة » وهم قوم شعيب عليه السلام ، وقد ذكر الله تعالى قصتهم فى سورة الشعراء ، والأيكة الشجر المتكاثف ، وقيل : الشجر الملتف ، وقال الكلبى : الأيكة غيضة شجر بقرب مدين « لظالمين » أى غريقين فى الظلم بتكذيبهم شعيباً عليه السلام « فانتقمنا منهم » أى بسبب ذلك ، قال المفسرون : اشتد الحر فيهم أياماً ثم اضطرم عليهم المكان ناراً فهلكوا عن آخرهم ، وقوله تعالى « وإنهما » فيه قولان: الأول المراد قرى قوم لوط والأيكة ، والقول الثانى أن الضمير للأيكة ومدين لأن شعيبا كان مبعوثا اليهما « لبإمام » أى طريق « مبين » أى واضح ، والإمام اسم لما يؤتم به ، وإنما جعل الطريق إماما لأنه يؤم ويتبع ، وقال ابن قتيبة لأن المسافر يأتم به حتى يصل إلى الموضع الذى يريده .

ثم ذكر تعالى قصة أخرى وهى قصة صالح عليه السلام بقوله تعالى « ولقد كذب أصحاب الحجر » وهم ثمود قوم صالح عليه السلام وديارهم بين المدينة الشريفة والشام « المرسلين » أى كلهم بتكذيب رسولهم كما كذب هؤلاء

المرسلين بتكذيبك ، لأن الرسل يشهد بعضهم لبعض بالصدق ، فمن كذب واحدا منهم فقد كذب الجميع ، وهم فى إثبات الرسالة والمعجزة على حد سواء. « وآتيناهم » أى بما لنا من العظمة والقدرة على يد رسولهم صالح عليه السلام « آياتنا » أى آيات الكتاب المنزل على نبيهم ، أو معجزات كالناقة وكان فيها آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظيم خلقها وغزارة لبنها . وإنما أضاف الآيات إليهم وإن كانت لنبيهم صالح عليه السلام لأنه مرسل من ربهم إليهم بهذه الآيات «فكانوا عنها» أى الآيات « معرضين » أى تاركيها غير ملتفتين إليها لا يتفكرون فيها ، ثم أخبر الله تعالى أنهم كانوا مثل هؤلاء فى الأمن من العذاب والغفلة عما يراد بهم مع أنهم كانوا أشد منهم فقال تعالى « وكانوا ينحتون من الجبال « بيوتا آمنين » أى يأمنون عليها من الهدم ومن عبث اللصوص ، ومن تخريب الأعداء « فأخذتهم الصيحة » أى صيحة العذاب « مصبحين » أى وقت الصبح « فما أغنى » أى مادفع « عنهم الضرر والبلاء « ما كانوا يكسبون » أى يعملون من بناء البيوت الوثيقة المحكمة ومن الاستكثار من الجيوش والأنصار ».

وعن جابر رضى الله عنه قال : مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم ما أصاب هؤلاء ، ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلفها .

٨٥ — وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ .

٨٦ — إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ .

٨٧ — وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ .

٨٨ — لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ .

٨٩ — وَقُلْ إِنِّى أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ .

٩٠ — كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ .

٩١ — ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ .

٩٢ — فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .

٩٣ — عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

٩٤ — فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ

٩٥ — إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ

٩٦ — ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

٩٧ — وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ .

٩٨ — فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ .

٩٩ — وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ

فى هذه الآيات الخمس عشرة خطاب من الله عز وجل لرسوله محمد عليه السلام للتأمل فى خلق الله فى السماء والأرض ، ودعوة من الله له بالصفح الجميل ، وبالاعتزاز بما أنزل عليه من القرآن الكريم ، وبالزهد والتواضع ، وتبليغ الرسالة كاملة ، والإعراض عن المشركين والمستهزئين ، إلى آخر ما تضمنته هذه الآيات الكريمة النبيلة .. ولقد ذكر الله عز وجل هذه القصص تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم ، فإنه إذا سمع أن الأمم السالفة كانوا يعاملون أنبياء الله بمثل هذه المعاملات سهل تحمل تلك السفاهة ، قال تعالى : « وما خلقنا السموات » على مالها من العلو والسعة « والأرض » على مالها من المنافع والغرائب « وما بينهما » من هؤلاء المشركين المكذبين وعذابهم ، ومن المياه والرياح والسحاب المسبب عن النبات وغير ذلك « إلا بالحق » أى إلا خلقا

متلبسا بالحق فيتفكر فيه من وفقه الله تعالى « وإن الساعة » أي القيامة « لآتية » لا محالة فيجازى الله تعالى كل أحد بعمله .

ثم أنه تعالى لما دعاه إلى الصبر على أذى قومه رغبه بعد ذلك فى الصفح عن سيئاتهم فقال : « فاصفح الصفح الجميل » أى أعرض عنهم إعراضا لا جزع فيه ولا تعجل بالانتقام منهم، وهذا منسوخ بآية السيف ، قال الرازى : وهو بعيد لأن مقصوده من ذلك أن يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح ، فكيف يصير منسوخا ، والأول جرى عليه البغوى وجماعة من المفسرين ، ثم علل تعالى هذا الأمر بقوله « إن ربك » أى المحسن إليك الآمر لك بهذا « هو » أى وحده « الخلاق » أى المتكرر منه هذا الفعل « العليم » أى بكل شيء ، فليست أقوالهم وأفعالهم إلا منه سبحانه وتعالى لأنه خالقها ، وقد علمت أنه لا يضيع مثقال ذرة ، فاعتمد عليه فى أخذ حقك فإنه نعم المولى ونعم النصير، ولما صبره الله تعالى على أذى قومه وأمره أن يصفح الصفح الجميل ، أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التى خص الله تعالى رسوله بها بقوله تعالى « ولقد آتيناك » يا أفضل الخلق بما لنا من العظمة والقدرة كما آتينا صالحا ما تقدم « سبعاً » هى أم القرآن الجامعة لجميع معانى القرآن التى أمرنا بتلاوتها فى كل ركعة زيادة فى حفظها وتبركا بلفظها وتذكراً لمعانيها وتخصيصا لها عن بقية الذكر الذى كلفناك بحفظه ، والسبب فى وقوع هذا الإسم على الفاتحة أنها سبع آيات وهذا ما عليه أكثر المفسرين ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال : هى السبع المثانى ، روى ذلك أبو هريرة رضى الله عنه ، وقيل : المراد سبع سور ، وهى الطوال ، واختلف فى السابعة فقيل : الأنفال وبراءة لأنهما فى حكم سورة ، ولذلك لم يفصل بينهما بآية البسملة ، وقيل: الحواميم السبع وقيل: سبع صحائف، والأصح أن ذلك كناية عن القرآن كله « من المثانى » صفة لسبع ، وهو جمع واحده مثناة والمثناة كل شيء يثنى ، أى يجعل اثنين ، من قولك : أثنيت الشيء تثنيا أى عطفته وضممت إليه آخر ، ومنه يقال لركبتى الدابة ومرفقيها : مثانى ؛ لأنه يثنى بالفصد ، ومثانى الوادى معاطفه ، أما تسمية الفاتحة بالمثانى فلوجوه :

الأول : أنها تثنى فى كل صلاة بمعنى أنها تقرأ فى كل ركعة .

الثانى : أنها تثنى بما بعدها فيما يقرأ معها .

الثالث : أنها قسمت من قسمين اثنين ، لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، والحديث مشهور .

الرابع : أنها قسمان اثنان : ثناء ودعاء ، وأيضا النصف الأول منها حق الربوبية وهو الثناء ، والنصف الثانى حق العبودية وهو الدعاء .

الخامس : أن كلماتها مثناة مثل: الرحمن الرحيم، إياك نعبد وإياك نستعين . إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، وأما السور أو الأسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ، ولما فيها من الثناء كأنها تثنى على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى ، وكتب الله كلها مثانى لأنها تثنى عليه لما فيها من المواعظ المكررة ويكون القرآن بعضها ، والقرآن العظيم أى الجامع لجميع معانى الكتب السماوية المتكفل بخيرى الدارين مع زيادات لا تحصى ، وفيه أوجه :

أحدها : أنه من عطف بعض الصفات على بعض ، أى الجامع بين هذين النعتين .

الثانى : أنه من عطف العام على الخاص إذ المراد بالسبع إما الفاتحة وإما الطوال ، فكأنه ذكر مرتين بجهة الخصوص ثم باندراجه فى العموم .

الثالث : أن الواو مقحمة .

ولما عرف سبحانه وتعالى رسوله العظيم نعمه عليه وهو أنه آتاه سبعاً من المثانى والقرآن العظيم نهاه عن الرغبة فى الدنيا بقوله تعالى «لا تمدن عينيك» أى لا تشغل سرك وخاطرك بالالتفات «إلى ما متعنا به أزواجا منهم» أى أصنافا من الكفار ، والزوج فى اللغة الصنف ، وقد أوتيت القرآن الذى فيه غنى عن كل شىء ، قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : من أوتى القرآن فرأى أن أحدا أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيراً ، وتأول

سفيان بن عيينة هذه الآية بقول النبي صلى الله عليه وسلم : ليس منا من لم يستغن بالقرآن ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : «ولا تمدن عينيك» ، أى لا تتمنى ما فضلنا به أحدا من متاع الدنيا ، وقيل : أتت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود قريظة والنضير فيها أنواع البر والطيب والجواهر وسائر الأمتعة ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى طاعة الله ، فقال الله تعالى : لقد أعطيتكم سبع آيات هن خير من هذه القوافل السبع ، وقرر الواحدى هذا المعنى فقال : إنما يكون ماداً عينيه إلى الشىء إذا أدام النظر نحوه وإدامة النظر على شىء يدل على استحسانه وتمنيه ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم لا ينظر إلى ما يستحسن من متاع الدنيا ، وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم «ولا تحزن عليهم» نهى له عن الالتفات إليهم إن لم يؤمنوا فيخلصوا أنفسهم من النار ، ولما نهاه سبحانه وتعالى عن الالتفات إلى أولئك الأغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين بقوله تعالى «واخفض جناحك» أى ألن جانبك «للمؤمنين» واصبر نفسك معهم وارفق بهم . ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالزهد فى الدنيا والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ ما أرسل به إليهم فقال : «وقل إنى أنا النذير» من عذاب الله أن ينزل عليكم إن لم تؤمنوا «كما أنزلنا» أى العذاب «على المقتسمين» قال ابن عباس : هم اليهود والنصارى سموا بذلك لأنهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه ، فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به ، وقال عكرمة : إنهم اقتسموا سور القرآن وإنما فعلوا ذلك استهزاء ، وقال مجاهد : إنهم اقتسموا كتبهم فآمن بعضهم ببعضها وكفر بعضهم ببعضها ، وقال قتادة : أراد بالمقتسمين كفار قريش ، قال : سموا بذلك لأن أقوالهم تقسمت فى القرآن فقال بعضهم : إنه سحر وزعم بعضهم أنه كهانة ، وزعم بعضهم أنه أساطير الأولين ، وقال ابن السائب : سموا بالمقتسمين لأنهم اقتسموا طرق مكة ، وذلك أن الوليد

ابن المغيرة بعث رهطا من أهل مكة وقال لهم: كونوا حيث يمر بكم أهل الموسم فإذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم: إنه مجنون وليقل بعضكم: إنه شاعر، فذهبوا وقعدوا على طرق مكة يقولون ذلك لمن يمر بهم من حجاج العرب ، وقعد الوليد بن المغيرة على باب المسجد الحرام حيث نصبوه حكما، فإذا جاءوا سألوا عما قال أولئك فيقول : صدقوا ، فأهلكهم الله تعالى يوم بدر . «الذين جعلوا القرآن عضين» نعت للمقتسمين ، وقال ابن عباس: هم اليهود والنصارى جزأوا القرآن أجزاء : فآمنوا بما وافق التوراة وكفروا بالباقي ، وقال مجاهد : قسموا كتاب الله ففرقوه وبددوه ، وقيل : كانوا يستهزئون به فيقول بعضهم: سورة البقرة لى ، ويقول بعضهم : سورة آل عمران لى ، وقيل : اقتسموا القرآن فقال بعضهم : سحر ، وقال بعضهم : شعر ، وقال بعضهم : كذب ، وقال بعضهم : أساطير الأولين ، وقيل : هم أهل الكتاب آمنوا ببعض كتبهم وكفروا ببعض . . وعضين جمع عضة وهى الفرقة ، وتقدم معنى جعلهم القرآن كذلك ، وقيل: العضه السحر بلغة قريش يقولون: هو عضه وهى عاضهة ، وفى الحديث : لعن صلى الله عليه وسلم العاضهة والمستعضهة أى الساحرة والمستحرة ، وقيل: هو من العضه وهو الكذب والبهتان ، وقيل: جمع عضو لأنهم جعلوا القرآن أعضاء مفرقة فقال بعضهم: سحر ، وقال بعضهم: أساطير الأولين ، ثم أقسم سبحانه بنفسه على أنه يسأل هؤلاء المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين بقوله تعالى «فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون» فيكون الضمير عائدا على المقتسمين ، لأنه الأقرب ، ويحتمل أن يعود على جميع المكلفين لأن ذكرهم يقدم فى قوله تعالى « وقل إنى أنا النذير المبين » أى لجميع الخلق ، قال جماعة من المفسرين : يسألون عن لا إله إلا الله ، وقال أبو العالية : يسألون عما كانوا يعبدون وما أجابوا المرسلين ، والجمع بين قوله تعالى « فوربك لنسألنهم أجمعين » وبين قوله تعالى «فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » أن النفى منصرف إلى بعض الأوقات والإثبات إلى وقت آخر، لأن يوم القيامة يوم طويل ، وفيه مواقف يسألون فى بعضها ولا يسألون فى بعض آخر ، ونظيره قوله تعالى : هذا يوم لا ينطقون ،

وقال فى آية أخرى « ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « فاصدع » أى اجهر بعلو وشدة فارقا بين الحق والباطل « بما » أى بسبب ما « تؤمر » به ، أمر النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية بإظهار الدعوة ، روى عن عبد الله بن عبيدة قال : كان الرسول مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه ، فنزل قوله تعالى «وأعرض» أى إعراض من لا يبالى « عن المشركين » بالصفح الجميل عن الأذى والاجتهاد فى الدعاء ، ولا تلتفت إلى لومهم إياك على إظهارك الدعوة ، قال بعض المفسرين كالبغوى: وهذا منسوخ بآية القتال ، وقال الرازى: وهو ضعيف لأن معنى هذا الإعراض ترك المبالاة بهم فلا يكون منسوخا . ولما كان هذا الصدع فى غاية الشدة عليه صلى الله عليه وسلم لكثرة مايلق عليه من الأذى خفف عنه سبحانه وتعالى بقوله معللا له « إنا » أى بما لنا من العظمة والقدرة « كفيناك المستهزئين » أى شر الذين هم ممعنون فى الاستهزاء وهم خمسة نفر من رؤساء قريش : الوليد ابن المغيرة والعاص بن وائل وعدى بن قيس والأسد بن عبد المطلب والأسود ابن عبد يغوث .. وصف سبحانه وتعالى هؤلاء بقوله: « الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون » أى عاقبة أمرهم فى الدارين . ولما ذكر سبحانه وتعالى أن قومه يستهزئون به ، ولا سيما أولئك المقتسمون قال له تعالى : « ولقد نعلم » أى تحقق وقوع علمنا « أنك » أى مع مالك من الحلم وسعة الصدر « يضيق صدرك » أى يوجد ضيقه ويتجدد « بما يقولون » أى من الاستهزاء والتكذيب بك وبالقرآن ، لأن الطبيعة البشرية والمزاج الإنسانى يقتضى ذلك ، فعند هذا قال تعالى «فسبح» متلبسا « بحمد ربك » أى نزهه عن صفات النقص ، وقال الضحاك : قل سبحان الله وبحمده ، وقال ابن عباس : فصل بأمر ربك « وكن من الساجدين » أى المصلين ، روى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .. واختلف الناس كيف صار الإقبال على الطاعات سببا لزوال ضيق القلب والحزن ؟ فقال العارفون المحققون : إذا اشتغل الإنسان بهذه الأنواع من العبادات يضىء صدره وينفسح

وينشرح، فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت إليها ، وقال بعض الحكماء: إذا نزل بالإنسان بعض المكاره ففزع إلى الطاعات فكأنه يقول: يارب يجب على عبادتك سواء أعطيتنى الخيرات اوألقيتنى فى المكروهات، فأنا عبدك بين يديك فافعل بى ما تشاء « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » قال ابن عباس : يريد الموت ، ويسمى الموت يقيناً لأنه أمر متيقن، وهذا مثل قوله تعالى فى سورة مريم « وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا » ، وروى البغوى بسنده عن ابن جبير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله إلى أن أجمع المال وأكون من التاجرين ، ولكن أوحى الله إلى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين .. وفائدة هذا التوقيت ـ مع أن كل أحد يعلم أنه إذا مات سقطت عنه العبادات ـ أن المراد منه : واعبد ربك فى جميع زمان حياتك فلا تخل لحظة من لحظات الحياة بهذه العبادات ، وعن عمر رضى الله تعالى عنه قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصعب ابن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تمنطق به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: انظروا إلى هذا نور الله قلبه ، لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، ولقد رأيت عليه حلة شريت له بمائتى درهم ، فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ماترون .

نظرة عامة فى سورة الحجر

(١)

تمتاز سورة الحجر المكية بآياتها القصار غالبا ، وبما تحمله من قوة فى الأسلوب ، وعذوبة فى اللفظ ، وصدق فى الأداء والتعبير ، وتوفيق فى الإقناع والجدل والحجاج .

والسورة تبتدىء بتمجيد شأن القرآن الكريم والتنويه بأمره ، ثم ببيان ندم المشركين والكافرين فى الآخرة على أنهم لم يسلموا ولم يؤمنوا برسالة نبى الإسلام ، ثم بتهديدهم والسخرية بهم ، وذكر مصارع الأمم السابقة ، وآجالها المحتومة . وذكر سخرية المشركين بالرسول ورسالته وبالكتاب الحكيم وهدايته ، واقتراحهم نزول الآيات عليه ، ورد الله عز وجل عليهم . ويفيض الله عز وجل فى شرح قدرته وعظمته :

١ — فيذكر مظاهر قدرته فى السماء والأرض وما بينهما .. ومن بينها الشهب وإنبات النبات وإرسال الرياح لواقح .

٢ — خلق الإنسان لأول مرة . . وموقف الملائكة وإبليس منه ، ومعصية إبليس لله ، وطرد الله له من رحمته ، والعذاب الشديد الذى ينتظره هو وأتباعه .

وهنا يشرح الله عز وجل جزاء الكافرين والعاصين ، والثواب الذى أعده للمؤمنين والمتقين . .

ويشير الله عز وجل إلى موقف أمم كثيرة ـ من قبل ـ من أنبيائها :

١ — فيذكر بشارة الملائكة لإبراهيم بإسحاق .

٢ — وجدال إبراهيم للملائكة فى لوط وقومه ، ودخول الملائكة على لوط وترحيبه بهم ، والأنباء الخطيرة التى سمعها منهم . وتهافت أهل المدينة

على ضيوف لوط وحواره معهم فى شأن ضيوفه ، وأخذ الله لهم أخذ عزيز مقتدر ، ونجاة لوط والمؤمنين به .

٣ — قصة شعيب مع قومه .

٤ — قصة أصحاب الحجر وإهلاكهم .

وهنا يذكر الله عز وجل أنه ما خلق الخلق إلا بالحق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، ويوجه الرسول العظيم ويرشده إلى جليل الأخلاق ، وعظيم الآداب ، ويقوى من عزمه ، ويعلن إليه فى قوة أن الله تعالى كفاه المستهزئين والساخرين ، ويطلب إليه أن يستمر فى عبادة الله وتوحيده حتى يأتيه اليقين .

(٢)

وهذه السورة كذلك وحدة متصلة فيما سيقت له من غرض، فهى متلاحمة النسج ، متآخية المعانى، متصلة الحلقات ، متقاربة الفواصل ، متوائمة الأفكار، وهى أعظم رد على الشرك والمشركين . . وقول الله عز وجل فيها « وأرسلنا الرياح لواقح » يحمل صدق محمد فى رسالته ، وأنه مبعوث من الله حقا وصدقا، فمن ذا الذى أخبر محمداً الأمى بهذه الحقيقة العلمية العجيبة، التى كشف عنها العلم الحديث فيما كشف من أسرار الله عز وجل فى الكون .

وسورة الحجر تتصل بما قبلها وما بعدها بصلات وثيقة ، فهى مع إبراهيم والنحل وحدة واحدة متصلة متآخية متآلفة الأفكار والأغراض .

(١٦)

ســـــورة النحل

تمهيد

سورة النحل مكية ، وقيل : يستثنى منها الآية الكريمة : « وإن عاقبتم » إلى آخر السورة فهي مدنية ، وحكى عن بعض المفسرين أنها مدنية ، وقال آخرون : السورة من أولها إلى قوله تعالى : « كن فيكون » مدنى ، وما سوى ذلك مكى ، وعن قتادة العكس .

وتسمى سورة النحل سورة النعم ، والمقصود منها الدلالة على أنه تعالى تام القدرة والعلم فاعل لما يريد منزه عن شوائب النقص ، وأدل ما فيها على هذا المعنى أمر النحل ، لما ذكر من شأنها فى دقة الفهم فى ترتيب بيوتها وسائر أمرها ، من اختلاف ألوان ما يخرج منها من عسلها الذى جعله الله شفاء مع أكلها من الثمار النافعة والضارة ، وغير ذلك . وسورة النحل مائة وثمان وعشرون آية .

وقد نزلت سورة النحل بعد سورة الكهف ، وهى من السور التى نزلت بعد «الإسراء» وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة النحل فى ذلك الحين أيضاً .

وسميت باسم «النحل» ، وهو اسم عجيب غريب لقوله تعالى فيها : «وأوحى ربك إلى النحل» الخ - الآية ٦٨ ، والقصد من السورة إنذار المشركين بالعذاب وإبطال شركهم ورد شبههم على القرآن والنبوة والبعث ، وقد افتتحت بآيتين سجلت فيها تلك الأغراض ، وكانا تمهيداً جليلا للأغراض المقصودة من السورة .. وختام السورة ذكر لنعمة الله على المشركين بسكنى حرمه .

وسورة النحل جاءت بعد سورة الحجر للمناسبة بين السورتين ، حيث ذكر الله عز وجل فى آخر الحجر أمره الكريم لرسوله العظيم بأن يعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، وفتحت سورة النحل بأن ما وعد به المشركون قد أتى وقته ، وحان حينه ، وجاء زمانه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة النحل

١ – أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

٢ – يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ .

آيتان جليلتان فى أولاهما وعيد وتهديد للمشركين وإنذار لهم بعذاب يوم القيامة الذى اقترب حينه ، وفى الآية الثانية منهما تأكيد لقدرة الله عز وجل على إرسال الرسل وإنزال الوحى ، وبعثة الأنبياء ، لإنذار الناس ، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده ، وتحذيرهم من الشرك والمشركين .

يقول الله عز وجل فى هاتين الآيتين الكريمتين : « أتى أمر الله » الفعل هنا ماض فى اللفظ مستقبل فى المعنى ، إذ المراد يوم القيامة ، وأتى به فى صورة ما وقع وانقضى تحقيقاً له ، ولصدق المخبر عنه . وقيل : إن الفعل الماضى «أتى» هنا على بابه من المضى والمراد مقدماته وأوائله ، وهو نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أى جاء أمر الله ودنا وقرب ، فإنه يقال فى الكلام المعتاد : إنه قد أتى ووقع إجراء لما يجب وقوعه مجرى الواقع . يقال لمن طلب الإعانة وقرب حصولها : جاءك الغوث ، أى أتى أمر الله وعدا « فلا تستعجلوه » أى وقوعه قبل مجيئه فإنه واقع لا محالة ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: بعثت أنا والساعة كهاتين ـ وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى ، قال ابن عباس : كان مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة ، ولما مر جبريل بأهل السموات مبعوثا إلى النبى صلى الله عليه وسلم قالوا : الله أكبر قامت الساعة ؛

وروى أنه لما نزل « اقتربت الساعة » قال الكفار بعضهم لبعض : إن هذا أى محمداً صلى الله عليه وسلم يزعم أن القيامة قد اقتربت ، فأمسكوا عن بعض ما تقولون ، حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا : ما نرى شيئاً ، فنزلت «اقترب للناس حسابهم » فأشفقوا وانتظروا ، فلما اشتدت الأيام قالوا يامحمد : ما نرى شيئاً مما تخوفنا به ، فنزل «أتى أمر الله » فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤوسهم وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزل « فلا تستعجلوه» أى فاطمأنوا ، فكان الكفار يقولون: أسلمنا لك يامحمد إلا أنا نعبد هذه الأصنام لتشفع لنا عند الله تعالى فتخلصنا من هذا العذاب المحكوم به ، فأجابهم الله تعالى بقوله : « سبحانه » أى تنزيها « وتعالى عما يشركون » أى تبرأ سبحانه وتعالى بالأوصاف الحميدة عن أن يكون له شريك فى ملكه، وقرىء بالياء على الغيبة على تلوين الخطاب أو على أن الخطاب للمؤمنين أولهم ولغيرهم . ولما أجاب سبحانه الكفار عن شبهتهم بقوله : تنزيها لنفسه عما يشركون ، وكان الكفار يقولون : هب أن الله تعالى قضى على بعض عبيده بالشر وعلى آخرين بالخير ، فكيف يمكنك أن تعرف هذه الأمور التى لا يعرفها إلا الله تعالى ، وكيف صرت بحيث تعرف أسرار الله تعالى وأحكامه فى ملكه وملكوته ، فأجابهم الله تعالى بقوله : « ينزل الملائكة » قال ابن عباس : يريد جبريل وحده ، قال الواحدى : يسمى الواحد بالجمع إذا كان ذلك الواحد رئيسا ، وقرىء بتخفيف الزاى وقرىء بتشديدها ، والمراد « بالروح » الوحى أو القرآن فإن القلوب تحيى به من موت الجهالة ، وقوله تعالى «من أمره» أى بإرادته حال من الروح « على من يشاء من عباده » وهم الأنبياء « أن أنذروا » أى خوفوا الكافرين بالعذاب وأعلموهم « أنه » أى الشأن « لاإله إلا أنا » أى لاإله غيرى ، وقوله تعالى « فاتقون » أى خافونى - رجوع إلى مخاطبتهم بما هو المقصود ، وفى « أن » فى قوله تعالى « أن أنذروا » ثلاثة أوجه : أحدها أنها المفسرة ، لأن الوحى فيه ضرب من القول والإنزال بالروح عبارة عن الوحى قال تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا » ، الثانى

أنها المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف ، والثالث أنها المصدرية التى من شأنها نصب المضارع ووصلت بالأمر كقولهم : كتب إليه بأن قم ، والآية تدل على أن نزول الوحى بواسطة الملائكة وأن النبوة من عطائه .

٣ - خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

٤ - خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ .

٥ - وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ .

٦ - وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ .

٧ - وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

٨ - وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

٩ - وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ .

١٠ - هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ .

١١ - يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

١٢ - وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

١٣ — وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ .

١٤ — وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

١٥ — وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

١٦ — وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ .

١٧ — أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

١٨ — وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

١٩ — وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ .

سبع عشرة آية فيها تأكيد لقدرة الله عز وجل على البعث وعلى إرسال الرسل ، بما ذكر من خلقه للسماء والأرض ، ومن خلقه للإنسان من نطفة ، وبما ذكر كذلك من خلقه الأنعام لمنفعة الناس وخيرهم ، والخيل والبغال والحمير كذلك ، وبما ذكر كذلك من قدرته على إنزال المطر من السحاب ، فيشرب منه الناس ، وتخرج به الأشجار ، وتنبت به الزروع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات . . ويردف الله عز وجل ذلك ببيان قدرته فى تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، وبما خلق الله فى الأرض من حيوان ونبات ، وبتسخيره البحر ليأكل الناس منه لحما طريا ، وليستخرجوا منه حلية يلبسونها ، ولتجرى الفلك مواخر فيه ، وليبتغوا من فضله ، ثم يذكر الله عز وجل خلقه للجبال لتكون رواسى للأرض ، وخلقه للأنهار

وللطرق يهتدى بها السائرون كما يهتدون بالعلامات وبالنجم . . هذه بعض مظاهر قدرة الله وبعض مخلوقاته ، فهل يستوى من يخلق ومن لا يخلق . . وإن يعد الناس نعمة الله لا يحصوها ، والله غفور لذنوب عباده رحيم بهم ...
وهكذا نجد أن الله عز وجل لما وحد نفسه ذكر الآيات الدالة على وحدانيته من حيث إنها تدل على أنه تعالى هو الموجد لأصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة بقوله تعالى : « خلق السموات » وهى كل ما علا وبدا فى الأفق من كواكب وسحب وأجرام وسدم « والأرض » وهى البساط المقل للناس « بالحق » أى أوجدهما على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصها بحكمته « تعالى عما يشركون » من الأصنام وغيرها ، ولما كان خلق السموات والأرض غيباً لتقدمه ، وكان خلق الإنسان على هذه الصفة شهادة فتكون أقوى فى الدلالة على وحدانيته تعالى ، قال تعالى « خلق الإنسان » أى هذا النوع « من نطفة » أى آدم عليه السلام من مطلق الماء ، ومن تفرع منه بعد زواجه حواء من ماء مقيد « فإذا هو خصيم » أى شديد الخصومة « مبين » أى واضح الخصومة ، أو ناطق شديد الجدل ، روى أن أبى بن خلف الجمحى - وكان ينكر البعث - جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال : أتزعم يا محمد أن الله يحيى هذا العظم بعد ما قد رمّ ، فنزلت هذه الآية ، ونزل فيه أيضا قوله تعالى « قال من يحيى العظام وهى رميم » ، قال الخازن فى تفسيره : والصحيح أن الآية عامة فى كل ما يقع فيه الخصومة فى الدنيا ويوم القيامة ، وحملها على العموم أولى ، ولما كان أشرف الأجسام الموجودة فى العالم السفلى بعد الإنسان سائر الحيوانات وأولاها بالذكر وبحياة العربى هى الأنعام ، ذكرها بقوله تعالى « والأنعام » أى الأزواج الثمانية : الضأن والمعز والإبل والبقر « خلقها » قال الواحدى : تم الكلام عند قوله والأنعام خلقها ، ثم ابتدأ وقال : « لكم فيها دفء » أى ما يدفأ به من اللباس والأكسية ونحوها المتخذة من الأصواف والأوبار والأشعار ، ويجوز أيضا أن يكون تمام الكلام عند قوله : والأنعام خلقها لكم ،

ثم ابتدأ فقال تعالى : فيها دفء ، وأحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله تعالى: خلقها ، والدليل عليه أنه عطف عليه « ولكم فيها جمال » والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال .. ولما ذكر تعالى الأنعام ذكر لنا أنواعا من المنافع :

الأول : قوله تعالى : فيها دفء .

النوع الثانى قوله تعالى : «ومنافع» أى ولكم فيها منافع من نسلها ودرها وركوبها والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الأنعام ، وإنما عبر تعالى عن ذلك بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الأعم، لأن الدر والنسل قد ينتفع به فى الأكل وقد ينتفع به فى البيع بالنقود ، وقد ينتفع به بأن يبدل بالثياب وسائر الضروريات ، فعبر عن جملة هذه الأقسام بلفظ المنافع وهى تتناول الأكل .

النوع الثالث قوله تعالى : « ومنها تأكلون » . ولما كان الأكل من هذه الأنعام هو الذى يعتمده الناس فى معائشهم ، وأما الأكل من غيرها كالدجاج والبط والأوز وصيد البر والبحر ، فليس بمعتاد فيه الأغلب ، وأكله يجرى مجرى التفكه به ، وقدم الجار والمجرور وهو «ومنها» لخرج ومنها تأكلون مخرج الغالب فى الأكل من هذه الأنعام ، ومنفعة الأكل مقدسة على منفعة اللباس . ولكن قدمت منفعة اللباس عليه لأن منفعة اللباس أكثر من منفعة الأكل ، فلهذا قدمت على الأكل « ولكم فيها جمال » أى زينة « حين تريحون » أى تردونها من مراعيها إلى مراحها بالعشى « وحين تسرحون » أى تخرجونها بالغداة إلى المرعى ، وقدمت الإراحة على التسريح لأن الجمال فى الإراحة أظهر إذا أقبلت وهى مملوءة البطون حافلة الضروع ثم آوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها فيفرح أهلها بها ، بخلاف تسريحها إلى المرعى فإنها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع ، ثم تأخذ فى التفرق والانتشار إلى المرعى فى البرية ، فليس فى التسريح تجمل كما فى الإراحة .

النوع الرابع قوله تعالى : « وتحمل أثقالكم » جمع ثقل وهو متاع المسافر

« إلى بلد » أى غير بلدكم إذا أردتم السفر إليها « لم تكونوا بالغيه » أى غير واصلين إليها بغير الإبل « إلا بشق الأنفس » أى إلا بكلفة ومشقة ، والشق بكسر الشين نصف الشيء أى لم يكونوا بالغيه إلا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها ، وقال ابن عباس : يريد من مكة إلى اليمن وإلى الشام وإلى مصر ، قال الواحدى : والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير إبل شق عليكم ، وخص ابن عباس هذه البلاد لأن متاجر أهل مكة كانت إلى هذه البلاد ، فإن قيل : المراد من قوله تعالى : والأنعام خلقها الإبل فقط ، بدليل أنه وصفها فى آخر الآية بقوله « وتحمل أثقالكم إلى بلد » وهذا الوصف لا يليق إلا بالإبل ، أجيب بأن المقصود من هذه الآيات تعديد منافع الأنعام ، فبعض تلك المنافع حاصلة فى الكل وبعضها مختص بالبعض ، والدليل عليه أن قوله « ولكم فيها جمال » حاصلة فى البقر والغنم مثل حصوله فى الإبل « إن ربكم » أى الموجد لكم والمحسن إليكم « لرؤوف » أى بليغ الرحمة لمن يتوسل إليه بما مر « رحيم » أى بليغ الرحمة بسبب وبغير سبب . « والخيل » أى الصاهلة وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل « والبغال والحمير » عطف على الأنعام أى وخلق هذه الحيوانات « لتركبوها » أى لأجل أن تركبوها « وزينة » مفعول من أجله ، وإنما وصل الفعل إلى الأول باللام فى قوله تعالى : « لتركبوها » وإلى هذا بنفسه لاختلاف شرطه فى الأول وهو عدم اتحاد الفاعل ، فإن الخالق هو الله والراكب المخاطبون ، ويصح أن يكون على الحال ، وصاحب الحال إما مفعول خلقها ، وإما مفعول لتركبوها ، فهو مصدر أقيم مقام الحال ، أو أن يكون منصوبا بتقدير فعل قدره الزمخشرى بقوله : وخلقها زينة ، وقدره ابن عطية وغيره بقولهم : وجعلها زينة ، ويصح أن يكون مصدراً لفعل محذوف أى وتتزينون بها زينة ، واحتج ابن عباس والحاكم وأبو حنيفة ومالك بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية ، قالوا : منفعة الأكل أعظم من منفعة الركوب . فلو كان أكل لحم الخيل جائز ، لكان هذا المعنى أولى بالذكر ، بحيث إنه حين لم يذكره تعالى علمنا أنه يحرم أكله ، لأن الله تعالى خص الأنعام بالأكل

حيث قال «ومنها تأكلون» وخص هذه بالركوب فقال : لتركبوها ، فعلمنا أنها مخلوقة للركوب لا للأكل ، واحتج القائلون بإباحة أكل اللحم من الخيل وهم سعد بن جبير وعطاء وشريح والحسن والشافعى ، بما روى عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما قالت : نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة ، وبما روى عن جابر رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية وأذن فى الخيل ، وفى رواية : أكلنا فى زمن خيبر حمر الوحش ، ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الحمار الأهلى .. هذه رواية البخارى ومسلم وفى رواية أبى داود قال : ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد أصابنا مخمصة ، فنهانا النبى صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل ، وقال الواحدى : لو دلت هذه الآية على تحريم أكل الحيوان لكان تحريم أكلها معلوما فى مكة لأجل أن هذه السورة مكية ، ولو كان الأمر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين أن لحوم الحمر الأهلية حرمت عام خيبر ، أى وذلك فى المدينة باطل ؛ لأن التحريم لما كان حاصلا قبل هذا اليوم فلم يكن لتخصيص هذا التحريم لهذه السنة فائدة، قال الرازى: وهذا جواب حسن متين ، وقال ابن الخازن: والدليل الصحيح المعتمد عليه فى إباحة لحوم الخيل: أن السنة مبينة للكتاب ، ولما كان نص الآية يقتضى أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الأكل مسكوتا عنه ، دار الأمر فيه على الإباحة والتحريم ، فوردت السنة بإباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير ، فأخذنا به جمعا بين النصين .

ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الأنواع من الحيوان ذكر باقيها على سبيل الإجمال بقوله تعالى : « ويخلق ما لا تعلمون » وذلك لأن أنواعها وأصنافها وأقسامها كثيرة خارجة عن الحد والإحصاء .. ولما شرح الله تعالى دلائل التوحيد قال تعالى « وعلى الله » أى الذى له الإحاطة بكل شىء « قصد السبيل » أى بيان الطريق المستقيم ، وإنما ذكرت هذه الدلائل وشرحها إزاحة للعذر وإزالة للعلة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ،

« ومنها » أى السبيل « جائر » أى حائد عن الاستقامة ، وهذه الآية تدل على أن الله يجب عليه الإرشاد والهداية إلى الدين وإزاحة العلل والأعذار كما قال المعتزلة، لأنه تعالى قال «وعلى الله قصد السبيل» ... وكلمة «على» للوجوب ، قال تعالى : « ولله على الناس حج البيت » ، ولكن المراد : على الله تعالى بحسب الفضل والكرم أن يبين الدين الحق والمذهب الصحيح ، وغير أسلوب الكلام حيث قال فى الأول : « وعلى الله قصد السبيل » ، وفى الثانى « ومنها جائر » لأن المقصود بيان سبيله وتنقسم إلى القصد والجائر ، وإنما جاء بالمعرض ، ثم قال تعالى : « ولو شاء » هدايتكم « لهداكم » إلى قصد السبيل « أجمعين » فتهتدون إليه باختيار منكم ، قال الرازى : وهذا يدل على أن الله تعالى ما شاء هداية الكفار وما أراد منهم الإيمان ، لأن كلمة (لو) تفيد انتفاء الشىء لانتفاء غيره .

ولما ذكر تعالى نعمه على عباده بخلق الحيوانات لأجل الانتفاع والزينة عقبه بذكر إنزال المطر لأنه من أعظم النعم على عباده ، فقال « هو » لا غيره مما تدعى فيه الإلهية « الذى أنزل » أى بقدرته الباهرة « من السماء » إما من نفسها أو من جهتها ، أو من السحاب كما هو مشاهد « ماء » يحسونه بالذوق والبصر « لكم منه » أى من ذلك الماء « شراب » أى يشربونه ، وقد بين تعالى فى آية أخرى أن هذه النعمة جليلة فقال : وجعلنا من الماء كل شىء حى . . « ومنه » أى من الماء « شجر » أى ينبت بسببه . والشجر هنا كل نبات من الأرض حتى الكلأ ، وفى الحديث : لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت ـ يعنى الكلأ ، وقال المفسرون : فى قوله تعالى «والنجم والشجر يسجدان» المراد من النجم ماينجم من الأرض مما ليس له ساق ومن الشجر ما له ساق ، فلفظ الشجر يشعر بالاختلاط ، يقال : تشاجر القوم إذا اختلطت أصوات بعضهم ببعض ، وتشاجرت الرماح إذا اختلطت ، وقال تعالى : حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ومعنى الاختلاط حاصل فى العشب والكلأ فوجب إطلاق لفظ الشجر عليه ، ويصح أن يكون المراد بالشجر هنا ماله ساق ، لأن الإبل

تقدر على رعى ورق الأشجار الكبار ، وحينئذ فإطلاق الشجر على الكلأ مجاز « فيه » أى الشجر « تسيمون » أى ترعون مواشيكم : يقال أسمت الماشية إذا خليتها ترعى ، وسامت هى إذا رعت حيث شاءت ، قال الزجاج : أخذ ذلك من السومة وهى العلامة ؛ لأنها تؤثر فى الأرض برعيها علامات ، وقال غيره : لأنها تعلم الإرسال فى المرعى .

ولما ذكر تعالى الحيوانات تفصيلا وإجمالا بقوله تعالى: « ينبت » أى الله « لكم به » أى بذلك الماء « الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات» فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذى يقتات به كالحنطة والشعير والأرز لأن به قوام البدن، وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الأدم والدهن وبارك فيه ، وثلث بذكر النخيل لأن ثمرها غذاء وفاكهة ، وختم بذكر الأعناب لأنه شبيه النخيل فى المنفعة من التفكه والأغذية ، ثم ذكر تعالى سائر الثمار إجمالا لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده ؛ لأن الحبة الواحدة تقع فى الطين فإذا مضى عليها مقدار معين من الوقت خرج من أعلى تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الأرض إلى الهواء ، ومن أسفلها شجرة أخرى غائصة فى جوف الأرض ، وهى المسماة بعروق الشجرة، ثم إن تلك الشجرة لاتزال تزداد وتنمو وتقوى ، ثم يخرج منها الأوراق والأزهار والأكمام والثمار، ثم إن تلك الثمرة تشتمل على أجسام مختلفة الطبائع مثل العنب . وفى ذلك الإشارة بقوله تعالى « إن فى ذلك لآية » بينة على أن فاعل ذلك تام القدرة يقدر على بعث الخلق « لقوم يتفكرون » أى فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته فيؤمنون ، ثم ذكر سبحانه وتعالى أشياء تدل على أنه الفاعل المختار بقوله تعالى «وسخر لكم» أى أيها الناس لإصلاح أحوالكم « الليل » للسكنى « والنهار » للمعاش، ثم ذكر آية النهار فقال: «والشمس» أى لمنافع اختصاصها ثم آية الليل والنهار «والقمر» لأمور علقها به « والنجوم » أى الآيات نصبها لها ، ثم نبه على تغيرها بقوله تعالى « مسخرات » أى بأنواع التغير لما خلقها له على أوضاع دبرها « بأمره » أى بإرادته دلالة على وحدانيته تعالى وفعله تعالى بالاختيار ، ولو شاء تعالى لأقام

أسبابا غيرها أو أغنى عن الأسباب ، ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الأشياء وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم ذلك بقوله « إن فى ذلك » أى التسخير العظيم « لآيات » أى دلالات متعددة كثيرة عظيمة « لقوم يعقلون » أى يتدبرون فيعلمون أن جميع الخلق تحت قدره وقدرته وتسخيره لما أراد منهم « وماذرأ » أى خلق « لكم فى الأرض » هذا معطوف على الليل أى وسخر لكم ماخلق لكم فيها من حيوان ونبات ، وقيل : إنه فى موضع نصب بفعل محذوف أى وخلق « مختلفا » حال منه « ألوانه » أى فى الخلقة والهيئة والكيفية ، وهو فاعل مختلف « إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون » أى يتعقلون ، وختم الله تعالى الآية الأولى بالتفكر لأن فيها مايحتاج إلى تأمل ونظر ، وختم الثانية بالعقل لأن مدار ماتقدم عليه ، وختم الثالثة بالتذكر لأنه نتيجة ماتقدم ، وجمع الآيات فى الثانية دون الأولى والثالثة لأن مانيط بها أكثر ، ولذلك ذكر معها العقل .

ولما استدل سبحانه وتعالى على إثبات الإله أولا بأجرام السموات والأرض وثانيا ببدن الإنسان ، وثالثا بعجائب خلقة الحيوان ، ورابعا بعجائب النبات ، ذكر خامسا عجائب العناصر ، وبدأ بالاستدلال بعنصر الماء بقوله تعالى: « وهو » أى لاغيره « الذى سخر البحر » أى ذلله وهيأه لعيش مافيه من الحيوان وتكون الجواهر وغير ذلك ، ومن تسخير البحار تهيئتها للانتفاع بها بالركوب وبالغوص وبغير ذلك ، فمنافع البحار كثيرة ، وذكر سبحانه وتعالى منها ثلاث منافع :

الأولى : قوله تعالى: « لتأكلوا منه » أى بالاصطياد وغيره من لحوم الأسماك « لحما طريا » لاتجد أنعم منه ولا ألين منه ؛ ففى ذلك دلالة على قدرته تعالى .

الثانية : قوله تعالى : « وتستخرجوا منه » أى بجهدكم فى الغوص ومايتبعه « حلية » أى اللؤلؤ والمرجان ؛ كما قال تعالى : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . « تلبسونها » أى نساؤكم ، وهن بعضكم فكأن اللابس أنتم ، ولأن زينة النساء بالحلى إنما هو لأجل الرجال فكان ذلك زينة للجميع .

المنفعة الثالثة قوله تعالى: « وترى الفلك » أى السفن « مواخر » أى تمخر

الماء تشقه بجريها « فيه » أى مقبلة ومدبرة ، وذلك أنك ترى سفينتين إحداهما تقبل والأخرى تدبر بريح واحدة ، وقال مجاهد : تمخر السفن يعنى أنها إذا جرت يسمع لها صوت ، وقال الحسن : مواخر يعنى مملوءة متاعا « ولتبتغوا » أى لتطلبوا ـ عطف على تأكلوا ومابينهما اعتراض، وقيل : عطف على محذوف تقديره لتبتغوا بذلك ولتبتغوا « من فضله » أى من سعة رزقه بركوبها للتجارة والوصول إلى البلدان « ولعلكم تشكرون » الله على هذه النعم التى أنتم عاجزون عنها لولا تسخيره ، ثم أنه ذكر بعض النعم التى خلقها الله تعالى فى الأرض بقوله تعالى: « وألقى فى الأرض رواسى » أى جبالا ثوابت « أن تميد » أى كراهة أن تميل وتضطرب « بكم » ، وقيل : لئلا تميل بكم، والأول قدره البصريون ، والثانى قدره الكوفيون « وأنهارا » عطف على رواسى لأن الإلقاء بمعنى الخلق والجعل ، ألا ترى أنه تعالى قال فى آية أخرى : « وجعل فيها رواسى من فوقها » ، وقال تعالى : « وألقيت عليك محبة منى » ، وذكر تعالى الأنهار بعد الجبال لأن معظم عيون الأنهار وأصولها تكون من الجبال « و » جعل لكم فيها « سبلا » أى طرقا مختلفة تسلكون فيها فى أسفاركم والتردد فى حوائجكم من بلد إلى بلد ومن مكان إلى مكان « لعلكم تهتدون » أى بتلك السبل إلى مقاصدكم وإلى معرفة الله تعالى فلا تضلون «و» جعل لكم فيها «علامات» أى من الجبال وغيرها ، جمع علامة ، تهتدون بها فى أسفاركم ، ولما كانت الدلالة بالنجم أنفع الدلالات وأوضحها براً وبحراً ليلا ونهاراً. نبه على عظمها بالالتفات إلى مقام الغيبة لإفهام العموم ، لئلا يظن أن المخاطب مخصوص والأمر لايتعداه ، فقال تعالى : « وبالنجم هم » أى أهل الأرض كلهم، وأولى الناس بذلك المخاطبون وهم قريش ثم العرب كلها لفرط معرفتهم بالنجوم « يهتدون » ، وقدم الجار تنبيها على أن دلالة غيره بالنسبة إليه أقل من هذه الدلالة ، وقيل : الضمير لقريش لأنهم كانوا كثيرى الأسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء فى سيرهم بالنجوم .

ولما ذكر سبحانه وتعالى من عجائب قدرته وبديع خلقه ماذكر على الترتيب

الأحسن والنظم الأكمل ، وكانت هذه الأشياء المخلوقة المذكورة فى الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة الله ووحدانيته ، وأنه تعالى المنفرد بخلقها كافة ، قال ـ على سبيل الإنكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة الأصنام العاجزة التى لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شىء ـ : « أفمن يخلق » أى هذه الأشياء الموجودة وغيرها «كمن لا يخلق» شيئا من ذلك بل على إيجاد شىء ما ، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادة من لا يستحق العبادة وترك عبادة من يستحقها وهو الله تعالى ، فإن قيل : ذلك الزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيها بالله ، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فكان حق الإلزام أن يقال: أفمن يخلقك كمن لا يخلق ، أجيب بأنهم لما جعلوا غير الله مثل الله تعالى فى تسميته باسمه والعبادة له وسووا بينه وبينه فقد جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات وشبيها بها ، فأنكر عليهم ذلك بقوله تعالى : أفمن يخلق كمن لا يخلق ، فإن قيل : من لا يخلق إن أريد به جميع ما عبد من دون الله كان ورود « من » واضحا ، لأن العاقل يغلب على غيره فيعبر عن الجميع بمن ، ولو جىء أيضا بما لجاز ، وإن أريد به الأصنام يكون التعبير بمن الذى هو لأولى العلم لأنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولى العلم ، ألا ترى إلى قوله تعالى : على أثره : « والذين يدعون من دونه لا يخلقون شيئا وهم يخلقون » وقيل : للمشاكلة بينه وبين من يخلق ، وقيل : المعنى أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم ، فكيف بمن لا علم عنده كقوله تعالى: «ألهم أرجل يمشون بها» يعنى الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب ، لأن هؤلاء أحياء وهم أموات، فكيف تصح لهم العبادة ، إلا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصح أن يعبدوا ، ولما كان هذا القدر ظاهرا غير خاف على أحد فلا يحتاج فيه تدقيق الفكر والنظر بل مجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل ، ختم تعالى ذلك بقوله تعالى: « أفلا تذكرون » بما تشاهدونه من ذلك ولو من بعض الوجوه فتؤمنون ؟ ! « وإن تعدوا » كلكم « نعمة الله » أى إنعام الملك الأعظم الذى لا رب غيره عليكم من صحة البدن وعافية الجسم وإعطاء النظر الصحيح والعقل السليم وبطش اليدين

ومشى الرجلين ، إلى غير ذلك مما أنعم به عليكم وما خلق لكم مما تحتاجون إليه من أمر الدنيا ، حتى لو رام أحدكم معرفة أدنى نعمة من هذه النعم لعجز عنها وعن معرفتها وحصرها « لا تحصوها » أى لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم مع كفركم وإعراضكم جملة عن شكرها ، والعبد وإن أتعب نفسه فى القيام بالطاعة والعبادات وبالغ فى شكر نعم الله تعالى فإنه يكون مقصراً ؛ لأن نعم الله كثيرة وأقسامها عظيمة ، وعقل الخلق قاصر عن الإحاطة بعبادتها فضلا عن غاياتها ، لكن الطريق إلى ذلك أن يشكر الله تعالى على جميع نعمه مفصلها ومجملها « إن الله لغفور » أى لتقصيركم فى القيام بشكر النعمة كما يجب عليكم « رحيم » بكم فيوسع عليكم النعم ولا يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصى « والله يعلم ما تسرون وما تعلنون » فيه وجهان : الأول أن الكفار مع كفرهم كانوا يسرون أشياء وهو ما كانوا يمكرون بالنبى صلى الله عليه وسلم وما يعلنون من إيذائه صلى الله عليه وسلم ، فأخبر الله تعالى بأنه عالم بكل أحوالهم سرها وعلانيتها ، لا يخفى عليه خافية وإن دقت وخفيت ، والوجه الثانى أنه تعالى لما ذكر الأصنام وذكر عجزها فى الآية المتقدمة ، ذكر فى هذه الآية أن الإله الذى يستحق العبادة يجب أن يكون عالما بكل المعلومات سرها وجهرها ، وهذه الأصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة .

٢٠ — وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ .

٢١ — أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ .

٢٢ — إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ .

٢٣ — لاَ جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ .

٢٤ — وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

٢٥ — لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ .

٢٦ — قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

٢٧ — ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ .

٢٨ — الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

٢٩ — فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ .

فى هذه الآيات العشر حملة شديدة على الشرك والمشركين ، والكفر والكافرين ، ورد عنيف على الذين يشككون فى رسالة محمد ، وينكرون دينه الحق ، وتأييد قوى لدعوة التوحيد ؛ وإنذار شديد للضالين عن سبيل الله ، وتحذير لهم ، وإنذار بمثل مصارع الأمم السابقة ، وتخويف لهم من نتائج عصيانهم والعذاب الذى ينتظرهم فى الآخرة .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات : « والذين تدعون » أى تعبدون

« من دون الله » أى الأصنام ، وتعتقدون أنها آلهة . . وقرىء « تدعون » بالتاء وبالياء « لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون » أى يصوَّرون من الحجارة وغيرها ، وقوله تعالى فى الآية المتقدمة « أفمن يخلق كمن لا يخلق » يدل على أن هذه الأصنام لا تخلق شيئاً وهم يخلقون ، وهذا هو المعنى المذكور فى تلك الآية المذكورة ؛ ففائدة هذا التكرار أن المعنى المذكور فى الآية المتقدمة أنهم لا يخلقون شيئا فقط ، والمذكور فى هذه الآية أنهم لا يخلقون شيئا وهم يخلقون كغيرهم ، فكان هذا زيادة فى المعنى وهو فائدة التكرار ، فكأنه تعالى بدأ بشرح نقصهم فى ذواتهم وصفاتهم ؛ فبين أولا أنها لا تخلق شيئا ، ثم بين ثانيا أنها لا تخلق غيرها بل هى مخلوقة كغيرها .

الصفة الثانية قوله تعالى: «أموات» أى جمادات لا روح لها « غير أحياء » إذ الإله الذى يستحق أن يعبد هو الحى الذى لا يموت ، وعلم من قوله « أموات » أنها غير أحياء ، فالفائدة فى ذكره أن من الأموات ما يعقب موته حياة كالنطف التى ينشئها الله تعالى حيوانا وأجساد الحيوانات التى تبعث بعد موتها ، وأما الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة ، وذلك أعرق فى موتها ، وقيل : ذكر للتأكيد ، لأن الكلام مع الكفار الذين يعبدون الأوثان وهم فى نهاية الجهالة والضلالة ، ومن تكلم مع الجاهل الغبي فقد يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة ، وغرضه الإعلام بكون المخاطب فى غاية الغباوة فى أنه لا يفهم المعنى المقصود بالعبارة الواحدة .

الصفة الثالثة قوله تعالى: « وما يشعرون » أى الأصنام « أيان » أى وقت « يبعثون » أى وما تعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء تهكما بحالها ، لأن شعور الجماد محال ، فكيف بشعور ما لا يعلمه حى إلا الحى القيوم سبحانه وتعالى؟ وقيل : الضمير راجع للأصنام ، قال ابن عباس : إن الله يبعث الأصنام ومعها شياطينها فيؤمر بالكل إلى النار ، وقيل : المراد بقوله تعالى « والذين تدعون من دون الله » الملائكة ـ وكان ناس من الكفار يعبدونهم ـ فقال الله تعالى :

إنهم أموات . أى لا بد لهم من الموت ، غير أحياء أى باقية حياتهم وما يشعرون أى لا علم بوقت بعثهم .

ولما زيف سبحانه وتعالى طريقة عبدة الأوثان وبين فساد مذهبهم ، قال تعالى : « إلهكم » أى أيها الخلق جميعا المعبود بحق « إله » أى متصف بالإلهية على الإطلاق بالنسبة إلى كل أوان وكل زمان وكل مكان « واحد » لا يقبل التعدد الذى هو مثار النقص بوجه من الوجوه « فالذين » أى فتسبب عن هذا أن الذين « لا يؤمنون بالآخرة » أى دار الجزاء ومحل إظهار الحكم الذى هو ثمرة الملك ، والعدل الذى هو مدار العظمة « قلوبهم منكرة » أى جاحدة للوحدانية « وهم » أى والحال أنهم بسبب إنكار ذلك « مستكبرون » أى متكبرون عن الإيمان بها « لا جرم » أى حقا « أن الله يعلم ما يسرون » أى يخفون مطلقا أو بالنسبة إلى بعض الناس « وما يعلنون » أى يظهرون فيجازيهم بذلك ، ولما كان فى ذلك معنى التهديد علل ذلك بقوله تعالى « إنه » أى العالم بالسر والعلن « لا يحب المستكبرين » أى على خلقه فما بالك بالمستكبر على التوحيد واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعنى محبتهم أنه يعاقبهم ، وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل يا رسول الله : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمص الناس ، ومعنى بطر الحق أنه يتكبر عند سماع الحق فلا يقبله ، ومعنى غمص الناس : استنقاصهم وازدراؤهم .

ولما بالغ سبحانه وتعالى بالدلائل القاهرة فى إبطال مذهب عبدة الأصنام قال تعالى : « وإذا قيل لهم » أى لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة « ماذا » ، ما استفهامية و « ذا » موصولة أى ما الذى « أنزل ربكم » على محمد صلى الله عليه وسلم ، واختلف فى قائل هذا القول ، فقيل : هو كلام بعضهم البعض ، وقيل : قول المسلمين لهم ، وقيل : قول المقتسمين الذين اقتسموا

مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم « قالوا » مكابرين فى إنزال القرآن هو « أساطير » أى أكاذيب « الأولين » مع عجزهم بعد تحديهم عن معارضة أقصر سورة منه ، مع علمهم بأنهم افصح الناس ، وأنه لا يكون من أحد من الناس متقدم أو متأخر قول إلا قالوا أبلغ منـه ، وهذا كلام متناقض لأنه لا يكون منزلا من ربهم وأساطير ، وأجيب بأنهم قالوا على سبيل السخرية كقولهم: إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، واللام فى قوله تعالى « ليحملوا » لام العاقبة كما فى قوله تعالى « فالتقطه آل فرعون ليـكون لهم عدوا وحزنا » ، وذلك لما وصفوا القرآن بكونه أساطير الأولين ، كأن عاقبتهم بذلك أن يحملوا « أوزارهم » أى ذنوب أنفسهم « كاملة » لئلا يتوهم أنه يكفر عنهم شيء بسبب البلايا التى أصابتهم فى الدنيا وأعمال البر التى عملوها فى الدنيا بل يعاقبون بكل أوزارهم « يوم القيامة » الذى لا شك فيه ولا محيص عن إتيـانه ، قال الرازى : وهذا يدل على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين ، إذ لو كان هذا المعنى حاصلا فى حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهـذا التكميل فائدة « و » ليحملوا أيضاً « من » جنس « أوزار » الجهلة الضعفاء « الذين يضلونهم بغير علم » حال من مفعول يضلونهم أى يضلون من لا يعلم أنهم ضلال ، أو من الفاعل ، وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وإن لم يعلم ، لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل ، وإنما حصل للرؤساء الذين أضلوا غيرهم وصدوهم عن الإيمان مثل أوزار الأتباع ، لأنهم دعوا إلى الضلال فأبقوهم فاشتركوا فى الإثم ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من دعى إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعى إلى الضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » أخرجه مسلم ، ومعنى الآية والحديث : أن الرئيس والكبير إذا سن سنة حسنة أو سيئة قبيحة فتبعه عليها جماعة فعملوا بها فإن الله تعالى يعطيهم

ثوابه وعقابه ، حتى يكون ذلك الثواب والعقاب مساويا لكل ما يستحقه كل واحد من الأتباع الذين عملوا بالسنة الحسنة أو القبيحة ، وليس المراد أن الله يوصل جميع الثواب والعقاب الذى استحقه الأتباع إلى الرؤساء ، ويدل لذلك قوله تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، وقوله تعالى « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » و « من » فى قوله تعالى « ومن أوزار » للجنس كما قدرت ذلك فى الآية الكريمة ، أى ليحملوا من جنس أوزار الأتباع ، وقيل : إنها للتبعيض وجرى عليه البيضاوى تبعاً للزمخشرى.. « ألا ساء » أى بئس « ما يزرون » أى يحملون حملهم هذا ، وفى هذا وعيد وتهديد لهم ، وهذه الشبهة عن القوم قد حكاها الله تعالى ولم يجب عنها بل اقتصر على محض الوعيد ، والسبب فى ذلك أنه تعالى بين كون القرآن معجزا بطريقين :

الأول: أنه صلى الله عليه وسلم تحداهم تارة بكل القرآن، وثانيا بعشر سور، وثالثا بسورة ، ورابعا بحديث واحد ، فعجزوا عن المعارضة ، وذلك يدل على كونه معجزاً .

الثانى : أنه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها فى آية أخرى وهى قوله تعالى : « اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » وأبطلها بقوله تعالى : « قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض » ومعناه أن القرآن يشتمل على الأخبار بالغيوب ، وذلك لا يأتى إلا ممن يكون عالما بأسرار السموات والأرض .

ولما ثبت كون القرآن معجزاً بهذين الطريقين ، وتكرر شرح هذين الطريقين مرارا كثيرة ، لاجرم اقتصر فى هذه الآية على مجرد الوعيد ولم يذكر الجواب عن هذه الشبهة ، ثم أنه سبحانه وتعالى بالغ فى وصف وعيد هؤلاء الكفار بقوله تعالى « قد مكر الذين من قبلهم » أى من رأوا آثارهم وخلوا ديارهم « فأتى الله » أى أمره « بنيانهم من القواعد » أى من جهة العمد التى بنوا عليها مكرهم « فخر » أى سقط « عليهم السقف من فوقهم » وصار سبب هلاكهم « وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » أى من جهة لا تخطر ببالهم ، وهذا على سبيل التمثيل ، أى التشبيه والتخييل بإفساد ما أبرموه من المكر بالرسل ، فجعل الله هلاكهم فى ما أبرموه كحال قوم بنوا

بنيانا وعمدوه بالأساطين ، فأتى البنيان من الأساطين بأن تضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا ، وقيل : هو نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح ببابل ليصعد إلى السماء ، ومعنى قوله تعالى « فأتى الله بنيانهم من القواعد » أى أتى أمره فخرت بنيانهم من أصلها وأصولها ، فخر عليه وعلى قومه السقف أى أعلى البيوت من فوقهم فهلكوا ، قيل: كان لسانهم السريانية ، وفيه نظر لأن صالحا عليه السلام كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية ، وكان أهل اليمن عربانهم جرهم الذين نشأ إسماعيل بينهم وتعلم منهم العربية ، وكان ببابل من العرب طائفة قديمة قبل إبراهيم ، وقد يقال : إنه كان لسان أكثر الناس بالسريانية فلا ينافى ذلك ، وفائدة قوله تعالى : فخر عليهم السقف من فوقهم ، أنهم قد لا يكونون تحته ، فلما قال تعالى: فخر عليهم السقف من فوقهم، دل على أنهم كانوا تحته، وحينئذ يفيد هذا الكلام أن الأبنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها ، ولما ذكر تعالى حالهم فى الدنيا ذكر حالهم فى الآخرة بقوله « ثم يوم القيامة يخزيهم » أى يذلهم ويهينهم بعذاب النار « ويقول» لهم الله تعالى على لسان الملائكة توبيخا « أين شركائى » أى فى زعمكم واعتقادكم « الذين كنتم تشاقون » أى تخالفون المؤمنين « فيهم » أى فى شأنهم « قال » أى يقول «الذين أوتوا العلم » أى من الأنبياء والمؤمنين ، وقال ابن عباس : يريد الملائكة « أن الخزى» أى البلاء المذل «اليوم» أى يوم الفصل الذى يكون للفائز فيه العاقبة المأمونة « والسوء على الكافرين » أى كما تكبروا فى غير موضع التكبر، وفائدة قولهم إظهار الشماتة وزيادة الإهانة .

ثم إنه تعالى وصف عذاب هؤلاء الكافرين من وجه آخر فقال سبحانه وتعالى : « الذين تتوفاهم الملائكة » أى يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه « ظالمى أنفسهم » أى بأن عرضوها للعذاب المخلد بكفرهم « فألقوا السلم » أى استسلموا وانقادوا حين عاينوا الموت قائلين : « ما كنا نعمل من سوء » أى شرك وعدوان فتقول لهم الملائكة « بلى » أى بل كنتم تعملون أعظم السوء ، ثم علل تكذيبهم بقوله تعالى « إن الله عليم بما كنتم تعملون » أى فلا فائدة

لكم فى إنكاركم فيجازيكم به ، ولما كان هذا الفعل مع العلم سببا لدخول جهنم قال تعالى «فادخلوا» أى أيها الكفرة «أبواب جهنم» أى أبواب طبقاتها «خالدين» أى مقدرين الخلود «فيها» أى جهنم لايخرجون منها ، وإنما قال تعالى ذلك لهم ليكون أعظم فى الخزى والغم ، وفى ذلك دليل على أن الكفار بعضهم أشد عذابا من بعض ؛ ثم قال تعالى « فلبئس مثوى » أى مأوى « المتكبرين » عن قبول التوحيد وسائر ماأتت به الرسل .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الأول من سورة النحل ، الذى تضمن دعوة قوية للتوحيد ، وإنذاراشديدا للشرك والمشركين ،وتخويفامابعده تخويف للكافرين بمثل مصارع الأمم البائدة، وتذكيرا قويا بنعم الله وبمظاهر قدرته فى السموات والأرض والحياة والكون والوجود .

إن هذه السورة المكية أضخم دعوة إلى التوحيد ، وفيها إقامة الدليل عليه بمالا يحتمله الشك ، وهى كذلك أعظم إنذار للشرك والمشركين .

وهذا الربع الأول منها فاتحة تدل على هذه السورة ، وترشد إليها ، بما احتوى على دعوات قوية حارة لعبادة إله واحد ونبذ الضلال والكفر والشرك .

الربع الثانى من سورة النحل

٣٠ — وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ .

٣١ — جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ .

٣٢ — الَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

فى هذه الآيات الثلاث ـ اللاتى هى مطلع الربع الثانى من سورة النحل حديث عن المتقين ومنزلتهم فى الدنيا والآخرة عند الله ، وما أعده الله لهم فى الآخرة من نعيم مقيم ، واستقبال الملائكة لهم فى الجنة بالإعظام الإكبار والتقدير . .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الثلاث الكريمة : « وقيل للذين اتقوا » أى خافوا عقاب الله « ماذا » أى أى شىء « أنزله ربكم » قالوا «خيرا» أى أنزل خيرا ، وذلك أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا جاء سأل عنه الذين قعدوا على الطريق فيقولون : ساحر كاهن كذاب مجنون ولولم تلقه خير لك ؛ فيقول السائل : أنا شر وافد إن رجعت إلى قومى دون أن أدخل مكة وألقاه ، فيدخل مكة فيرى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيخبرونه بصدقه وأنه نبى مبعوث من الله تعالى ، فذلك قوله تعالى : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم » الآية ، وجواب الجاحد فى ذلك أنهم لما سألوا الكفار عن المنزّل على النبى صلى الله عليه وسلم عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : أساطير الأولين، وليس هومن الإنزال فى شىء لأنهم لم يعتقدوا كونه منزلا ، ولما سألوا المؤمنين عن المنزل على النبى صلى الله عليه وسلم لم ينطقوا وطابقوا الجواب عن السؤال « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة » أى حياة طيبة ، أو أن للذين أتوا الأعمال الصالحات الحسنة لهم ثوابها حسنة مضاعفة من الواحدة إلى العشرة إلى السبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، أو أنه تعالى بين أن لهم بذلك الإحسان فى هذه الدنيا حسنة أى جزاء لهم على إحسانهم هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ ولما كانت هذه الدار سريعة الزوال أخبر عن حالهم فى الآخرة فقال : « ولدار الآخرة » أى الجنة « خير » أى ما أعد الله لهم فى الجنة خير مما حصل لهم فى الدنيا ، ثم مدحها ومدحهم بقوله تعالى «ولنعم دار المتقين» أى دار الآخرة فحذف لتقدم ذكرها ، وقال الحسن : هى الدنيا لأن أهل التقوى يتزودون منها للآخرة « جنات » أى بساتين « عدن » أى إقامة « يدخلونها » أى تلك

الجنات حالة كونها « تجرى من تحتها » أى من تحت غرفها « الأنهار » ، ثم كأن سائلا سأل عما فيها من الثمار وغيرها ، فأجيب بأن « لهم فيها ما يشاؤن » أى ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين مع زيادات غير ذلك ، فهذه الآية تدل على حصول كل الخيرات والسعادات، فهى أبلغ من قوله تعالى: وفيها ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين لأن هذين القسمين داخلان فى قوله تعالى : « لهم فيها ما يشاءون » مع أقسام أخرى ، وعلى أن الإنسان لا يجد كل ما يريده فى الدنيا لأن قوله : « لهم فيها ما يشاءون » يفيد الحصر « كذلك » أى مثل هذا الجزاء العظيم « يجزى الله » أى الذى له الكمال كله « المتقين » أى الراسخين فى صفة التقوى ثم حث تعالى على ملازمة التقوى بالتنبيه على أن العبرة بحال الموت فقال : « الذين تتوفاهم الملائكة » أى بقبض أرواحهم « طيبين » كلمة مختصرة جامعة للمعانى الكثيرة ، وذلك لأنه يدخل فيه اتباعهم بكل ما أمروا به واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ، ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة متبرئين من الأخلاق المذمومة ، ويدخل فيه كونهم متبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين إلى حضرة القدس ، ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الأرواح ، وأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة ، حتى صاروا كأنهم مشاهدين لها ، ومن هذا حاله لا يتألم بالموت « سلام عليكم » هذا هو ترحيب الملائكة بهم عند الموت أو عند الحساب أو عند دخول الجنة . . حيث تسلم عليهم وتبلغهم السلام من الله تعالى . وروى أن العبد إذا أشرف على الموت جاءه ملك الموت فقال : سلام عليك يا ولى الله ، الملك يقرئك السلام ويبشرك بالجنة، أو يقال لهم فى الآخرة هذا « أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون » أى التى بشرتم بها والتى هى داركم وخاصة بكم .

٣٣ — هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

٣٤ — فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ .

٣٥ — وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ .

٣٦ — وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ .

٣٧ — إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ .

٣٨ — وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

٣٩ — لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰذِبِينَ .

٤٠ — إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ .

٤١ — وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا

فى هذه الآيات الثمان تهديد لمشركى مكة ما بعده من تهديد ، وإنذار لهم بالعذاب والهلاك الشديد وبمثل مصارع الأمم البائدة التى ظلمت أنفسها ما وظلمهم الله .. وفيها رد على المشركين كذلك ، الذين يحملون شركهم مما أراده

الله وقدره وقضاه عليهم ، شأنهم فى ذلك شأن الأمم البائدة ، ورسالات الله إلى الأمم من شأنها أن تلاقى المؤمن بها والكافر . . ولو سار المشركون فى الأرض وشاهدوا مصارع الأمم البائدة وآثارها الدارسة ، لكان لهم من ذلك عظة وعبرة . . إن المشركين قد أضلهم الله ، ومهما حرص الرسول على هدايتهم فلن يؤمنوا ، وما لهم من ناصرين ينصرونهم فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ويرد الله عز وجل على مشركى مكة كذلك فى إنكارهم للبعث ، ويقرر أنه حقيقة لا شك فيها ، وأنهم سيبعثون ليعلموا حقيقة ما اختلفوا فيه ، وليعرفوا أنهم كانوا فى الدنيا كاذبين على الله والحق بإنكارهم البعث والجزاء.. وهل يستعصى على قدرة الله شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟ إنما قوله لشىء إذا أراده أن يقول له كن فيكون . . إنه القادر على كل شىء فى السماء والأرض وفى أنفسكم أفلا تبصرون؟ يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة: « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة » بقبض أرواحهم « أو يأتى أمر ربك» أى يوم القيامة، وقيل: العذاب ، وقيل: إنهم طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم أن ينزل الله تعالى ملكا من السماء يشهد على صدقه فى ادعاء النبوة فقال تعالى : هل ينظرون فى التصديق بنبوتك إلا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك.. «كذلك» أى مثل ما « فعل » هؤلاء هذا الفعل البعيد الشنيع فعل « الذين من قبلهم » من الأمم السابقة . « كذبوا رسلهم فأهلكوا وما ظلمهم الله » بإهلاكهم بغير ذنب « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » لكفرهم وتكذيبهم للرسل استوجبوا ما نزل بهم « فأصابهم أى فتسبب عن ظلمهم لأنفسهم أن أصابهم « سيئات » أى عقوبات أو جزاء سيئات « ما عملوا وحاق بهم » أى نزل بهم « ما كانوا به يستهزئون » تكبرا عن قبول الحق فحاق بهم جزاؤه.. « وقال الذين أشركوا » للنبى صلى الله عليه وسلم استهزاء : « لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا » ، لأنهم اعتقدوا أن كون الأمر كذلك يمنع من جواز بعثة

الرسل وهو اعتقاد باطل فلذلك استحقوا عليه الذم والوعيد ثم قالوا لهم : « ولا حرمنا من دونه من شيء » أى من السوائب والبحائر والحام فهو راض به وبمشيئته ، وحينئذ فلا فائدة فى مجيئك وفى إرسالك ، وهذا عينما حكاه الله تعالى عنهم فى سورة الأنعام فى قوله تعالى: « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله » الآية ، قال الله تعالى « كذلك فعل الذين من قبلهم » أى من تقدم هؤلاء الكفار من الأمم الماضية كانوا على هذه الطريقة وهذا الفعل الخبيث .. فإنكار بعثة الرسل كان قديما فى الأمم الخالية ، وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم « فهل على الرسل إلا البلاغ » أى الإبلاغ « المبين » أى البين فليس عليهم هداية أحد ، إنما عليهم تبليغ ما أرسلوا به إلى من أرسلوا إليه . . ثم بين تعالى أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية فى الأمم كلها سببا لهدى من أراد هداه وزيادة لضلال من أراد ضلاله « ولقد بعثنا » أى بما لنا من العظمة التى من اعترض عليها قصم « فى كل أمة » من الأمم الذين من قبلكم « رسولا » أى كما بعثنا فيكم محمدا صلى الله عليه وسلم « أن اعبدوا الله » أى الملك الأعلى وحده « واجتنبوا الطاغوت » أى الأوثان أن تعبدوها « فمنهم من هدى الله » أى وفقهم للإيمان بإرشاده « ومنهم من حقت » أى وجبت « عليه الضلالة » أى فى علم الله تعالى فلم ينفعهم ولم يرد هداهم ، وفى هذه الآية أبين دليل على أن الهادى والمتفضل هو الله تعالى لأنه المتصرف فى عباده يهدى من يشاء ويضل من يشاء لااعتراض عليه فى ما حكم به بسابق علمه .. ثم التفت سبحانه وتعالى إلى مخاطبتهم إلى أنه لم يبق بعد هذا الدليل القطعى فى نظر البصيرة إلا الدليل المحسوس للبصر فقال تعالى : « فسيروا » أى فإن كنتم أيها المخاطبون فى شك من إخبار الرسل فسيروا « فى الأرض » أى جنسها « فانظروا » أى إذا سرتم ومررتم بديار المكذبين وآثارهم ، ثم اشار الله تعالى بالاستفهام إلى أن أحوالهم مما يجب ان يسأل عنه للانعاظ به فقال « كيف كان عاقبة » أى آخر أمر « المكذبين » أى مثل عاد ، ومن بعدهم من الأمم الذين تلقيتم أخبارهم عمن قلدتموهم فى الكفر من أسلافكم لعلكم تعتبرون .. ولما كان المحقق أنه ليس

بعد الإيصال فى الاستدلال إلى الأمر المحسوس إلا العناد أعرض عنهم ملتفتا إلى الرؤوف بهم الشفيق عليهم ، محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال مسليا له : « إن تحرص على هداهم » فتطلبه بغاية جهدك واجتهادك - وقد أضلهم الله تعالى - لا تقدر على ذلك . « فان الله لا يهدى من يضل » أى من يريد ضلاله وهو معين لمن حقت عليه الضلالة « وما لهم » أى هؤلاء الذين أضلهم الله وجميع من يضله « من ناصرين » أى وليس لهم أحد ينصرهم فى الدنيا والآخرة عند مجازاتهم على الضلالة لينقذهم مما يلحقهم عليه من الوبال كما فعل بالمكذبين من قبلهم . . « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » أى غاية اجتهادهم فيها « لا يبعث الله من يموت » ؛ وذلك أنهم قالوا : إن الإنسان ليس هو إلا هذه البنية المخصوصة ، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه وبلى امتنع عوده بعينه ، لأن الشىء إذا عدم فقد فنى ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه . فكذبهم الله تعالى فى قوله تعالى « بلى » أى ليبعثنهم بعد الموت ، فان لفظة بلى إثبات بعد النفى والجواب عن شبهتهم أن الله تعالى خلق الإنسان وأوجده من العدم ولم يكن شيئا فالذى أوجده من العدم قادر على إيجاده بعد إعدامه ، لأن النشأة الثانية أهون من الأولى « وعدا عليه حقا » مصدران مؤكدان منصوبان بفعلهما المقدر ، أى وعد ذلك وحقه حقا « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » اى لا علم لهم يوصلهم إلى ذلك لأنه من عالم الغيب ، لا يمكن لعقولهم الوصول إليه بغير إرشاد من الله تعالى ، ولا هم يقبلون أقوال الدعاة اليه الذين أيدهم الله بروح منه لتقييدهم بما يوصل إلى عقولهم أنها قاصرة على عالم الشهادة . لا يمكنها الترقى منه إلى عالم الغيب بغير واسطة منه سبحانه وتعالى ، فكذلك ترى الإنسان منهم يأبى ذلك استبعادا وهو خصيم مبين . وقوله تعالى : « ليبين لهم الذى يختلفون فيه » يتعلق بما دل عليه بلى أى يبعثهم ليبين لهم ، والضمير لمن يموت ، وهو عام للمؤمنين والكافرين والذين اختلفوا فيه هو الحق « وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين » فى قولهم : « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء » ، وقولهم : « لا يبعث الله من يموت » وقيل يجوز أن يتعلق بقوله : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا » أى بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه ، وأنهم كانوا على الضلالة قبله مفترين على الله الكذب . « إنما

قولنا » أى بما لنا من العظمة والقدرة « لشىء » بدءاً وإعادة « إذا أردناه .. أن نقول له كن فيكون » أى يتسبب عن ذلك القول أنه يكون ، ولفظ كن من كان التامة التى بمعنى الحدوث والوجود أى إذا أردنا حدوث شىء فليس إلا أن نقول له احدث فيحدث عقب ذلك من غير توقف ، وهذا تمثيل لنفى الكلام والغايات وخطاب مع الخلق بما يعقلون ، وليس هو خطاب المعدوم لأن ما أراد فهو كائن على كل حال وعلى ما أراده من الإسراع ، ولو أراد الله تعالى خلق الدنيا والآخرة بما فيها من السموات والأرض فى قدر لمح البصر لقدر على ذلك ، وقد خاطب الله تعالى العباد بما يعقلون ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تبارك وتعالى « يشتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى ويكذبنى وما ينبغى له ، أما شتمه إياى فيقول : إن لى ولدا ، وأما تكذيبه فيقول : ليس يعيدنى كما بدأنى » . وفى رواية : « كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فيقول : لن يعيدنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته . وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الله الواحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحدا » .

٤٢ — ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

٤٣ — وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

٤٤ — بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

فى هذه الآيات الكريمة بشارة عظيمة للمهاجرين المجاهدين فى سبيل الله بخير الدنيا ومجدها وبنعيم الآخرة وجناتها ، جزاء جهادهم وصبرهم وتوكلهم

على الله . . وليست رسالة محمد بالبدع من بين الرسالات ، إنه أرسل اليه كما أرسل إلى أنبياء ورسل كثيرين من قبله ، نزل عليهم وحي الله ، فليسأل المشركون أهل الكتاب وأهل الذكر عن هؤلاء الرسل ورسالاتهم ، وعما نزل عليهم من البينات والزبر ، وكذلك أنزل الذكر على محمد بن عبد الله لهداية الناس ودعوتهم إلى الدين الحق ، دين الإسلام العظيم .

يقول الله تعالى فى هذه الآيات الكريمة : « والذين هاجروا فى الله » أى فى حقه ولوجهه بإقامة دينه « من بعد ماظلموا » وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله تعالى عنهم ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم إلى الله تعالى ، منهم من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، فجمع الله بين الهجرتين ، ومنهم من هاجر إلى المدينة ، أو المحبوسون المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم : بلال وصهيب وخبـــاب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل ، أخذهم المشركون بمكة فأخذوا يعذبونهم ليرجعوا عن دين الإسلام إلى الكفر ، فأما بلال فكان أصحابه يخرجون إلى بطحاء مكة فى شدة الحر ويشدونه ويجعلون على صدره الحجارة وهو يقول : أحد أحد ، فاشتراه منهم أبو بكر رضى الله تعالى عنـه وأعتقه واشترى معه ستة نفر أخر . وأما صهيب فقال : أنا رجل كبير إن كنت معكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضركم فافتدى بماله وهاجر ، فلما رآه أبو بكر قال له : ربح البيع ياصهيب ، وقال له : نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ، وهو ثناء عظيم ، يريد : لو لم يخف الله لأطاعه « لنبوئنهم » أى لننزلنهم « فى الدنيا » داراً « حسنة » وهى المدينة وقيل : لنحسنن إليهم فى الدنيا بأن نفتح لهم مكة ونمكنهم من أهلها الذين ظلموهم وأخرجوهم منها ، وقيل : أراد بالحسنة فى الدنيا التوفيق والهداية إلى الدين « ولأجر الآخرة » وهى الجنة والنظر إلى وجهه الكريم « أكبر » أى أعظم « لو كانوا يعلمون » أى الكفار والمتخلفون عن الهجرة ما للمهاجرين من الكرامة لوافقوهم ، وقيل : إنه راجع إلى المهاجرين ، أى لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا فى اجتهادهم

وصبروا ، وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك ربك به فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ، ثم يقرأ هذه الآية : «الذين صبروا» أى على الشدائد وعلى مفارقة الوطن وعلى الجهاد وبذل الأموال والأنفس فى سبيل الله «وعلى ربهم يتوكلون» أى منقطعين إليه مفوضين الأمر كله إليه .. وقد ذكر الله تعالى فى هذه الآية الصبر والتوكل وهما مبتدأ السلوك إلى الله تعالى ومنتهاه . أما الصبر : فهو قهر النفس وحبسها على أعمال البر وسائر الطاعات واحتمال الأذى من الخلق ، وأما التوكل : فهو الانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه إلى الحق . فالأول هو مبدأ السلوك والثانى هو آخر الطريق ومنتهاه ..

ونزل لما أنكر مشركو مكة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : الله أعظم وأجل أن يكون رسوله بشراً فهلا بعث ملكا إلينا .. «وما أرسلنا من قبلك» يا محمد إلى الأمم من طوائف البشر «إلا رجالا» لا ملائكة بل آدميين فى غاية الاقتدار على الصبر والتوكل الذى هو محط الرحال «يوحى إليهم» بواسطة الملائكة ، فعادة الله جارية مستمرة من أول مبتدأ الخلق إلى الآن لم يبعث رسولا إلا من البشر «فاسألوا أهل الذكر» أى أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، وإنما أمرهم الله تعالى بسؤالهم لأن كفار مكة كانوا يعتقدون أن أهل الكتاب أهل علم، وقد أرسل إليهم رسلا مثل موسى وعيسى عليهما السلام من البشر وكانوا بشراً مثلهم ، فإذا سألوهم فلا بد أن يخبروهم أن الرسل الذين أرسلوا إليهم كانوا بشراً ، فإذا أخبروهم بذلك فربما زالت هذه الشبهة ، وقال ابن عباس : يريد أهل التوراة والدليل عليه قوله تعالى : «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر» يعنى التوراة ، والذكر هو التوراة . «إن كنتم» أى جبلة وطبعاً «لا تعلمون» ذلك فإنهم يعلمونه وأنتم إلى تصديقهم أقرب من تصديق المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم .. «بالبينات» متعلق بمحذوف أى أرسلناهم بالحجج الواضحة ، وقيل : التقدير : إن كنتم لا تعلمون

بالبينات « والزبر » أى الكتب فاسألوا أهل الذكر ، وقيل : إنه متعلق بمحذوف جوابا لسؤال مقدر ، كأنه قيل : بم أرسلوا ؟ قيل : أرسلوا بالبينات . « وأنزلنا إليك الذكر » خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والذكر هو القرآن ، وإنما سمى ذكرا لأنه موعظة وتذكير « لتبين للناس » كافة أى أعطاك الله تعالى من الفهم الذى فقت به جميع الخلق ، واللسان الذى هو أعظم الألسنة وأفصحها ، وقد أوصلك الله تعالى فيه الرتبة التى لم يصل إليها أحد « ما نزل » أى ما وقع بتنزيلها « إليهم » من هذا الشرع المؤدى إلى سعادة الدارين بتبيين المجمل وشرح ما أشكل من علم أصول الدين الذى رأسه التوحيد ومن البعث وغيره ، فإن القرآن فيه محكم وفيه متشابه ، فالمحكم يجب أن يكون مبينا والمتشابه هو المجمل فيطلب بيانه من السنة « ولعلهم يتفكرون » فيما أنزل إليهم إذا نظروا أساليبه الفائقة ومعانيه العالية الرائعة فيعتبرون .. وهذه الآية تدل على أن المبين لكل التكاليف والأحكام هو النبي صلى الله عليه وسلم، فالقياس ليس بحجة . وأجيب بأنه صلى الله عليه وسلم لما بين القياس كان ذلك فى الحقيقة رجوعا إلى بيان النبي صلى الله عليه وسلم .

٤٥ — أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

٤٦ — أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ .

٤٧ — أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

٤٨ — أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ .

٤٩ — وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ .

٥٠ — يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

فى هذه الآيات الست الكريمة إنذار للمشركين ، وتحذير لهم من عذاب الله الشديد ، ومن إهلاكه لهم كما أهلك الذين من قبلهم . ودعوة لهم إلى التأمل فى ملكوت الله ، والنظر فيما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون . وهنا يبلغ جلال القرآن وعظمته مبلغا كبيرا من السمو والإعجاز .. حيث بين الله عز وجل امتثال الكون كله لأمر الله وخضوعه لقدرته ، ويصور ذلك بصورة السجود .. « ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض ، من دابة . وتسجد الملائكة ، والملائكة لايستكبرون عن عبادته وهم يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون » . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة .. « أفأمن الذين مكروا السيئات » هم مشركو مكة ، مكروا مكر السوء برسول الله وصحابته وبالإسلام وبالقرآن ، والمكر هو السعى بالفساد على سبيل الإخفاء .. وقد هدد الله المشركين بأربعة ألوان من العذاب :

الأول بقوله تعالى : « أن يخسف الله بهم الأرض » ، كما خسف بقرون وأصحابه ، فإذا هم فى بطنها .

الثانى بقوله تعالى : « أو يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون » أى بغتة فيهلكهم ، كما فعل الله عز وجل بقوم لوط .

الثالث : ذكره الله عز وجل فى قوله : « أو يأخذهم » أى الله تعالى « فى تقلبهم » أى فى حالة تقلبهم ومشاعرهم حاضرة وصحتهم موفورة ، وقواهم مستجمعة ، وقيل يأخذهم بالعذاب فى أسفارهم وتقلبهم فى الأرض « فما هم بمعجزين » أى بفائتين من العذاب بسبب ضربهم فى البلاد البعيدة ، بل يدركهم الله حيث كانوا .. وقيل يأخذهم الله بالعذاب بالليل والنهار ، وفى حال إقبالهم وإدبارهم وذهابهم ومجيئهم .وقيل: إنه تعالى يأخذهم فى حال تدبيرهم واحتيالهم

فيحول الله بينهم وبين تلك الحيل ، وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى : وقلبوا لك الأمر ، فإنهم إذا قلبوها فقد تقلبوا فيها .

اللون الرابع من العذاب ماذكره الله تعالى فى قوله : « أو يأخذهم على تخوف » وفى تفسير التخوف قولان :

الأول : التخوف تفعل من الخوف ، يقال: خفت الشيء وتخوفته ، والمعنى أنه تعالى لا يأخذهم بالعذاب أولا بل يخيفهم أولا ثم يعذبهم ، وتلك الإخافة هو أنه تعالى يهلك قرية فتخاف التى تليها أن يأتيهم العذاب .

والثانى : التخوف بمعنى التنقص أى أنه تعالى يتنقصهم شيئاً بعد شيء فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا ، من تخوفه إذا تنقصه ، روى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال : ما تقولون فى هذه الآية ؟ فسكتوا فقال شيخ من هذيل : لغتنا: التخوف التنقص ، فقال عمر : هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها؟ قال نعم فقال عمر : عليكم بديوانكم ، قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم .. « إن ربكم » أى المحسن إليكم بإهلاك من يريد وإبقاء من يريد « لرؤوف » معناه بليغ الرحمة لمن يتوسل إليه بنوع وسيلة وكذا من قاطعه أتم مقاطعة « رحيم » أى حيث لم يعاجلهم بالعذاب ؛ ولما خوف سبحانه وتعالى المشركين بالأنواع الأربعة المذكورة من العذاب أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته فى تدبير أحوال الأرواح والأجسام ، ليظهر لهم أنه مع كمال هذه القدرة القاهرة والقوة الغير المتناهية لا يعجز عن إيصال العذاب إليهم على أحد تلك الألوان الأربعة بقوله تعالى : « أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء » أى من الأجرام التى لها ظل كشجر وجبل « تتفيأ » أى تتمثل « ظلاله عن اليمين والشمائل » جمع شمال أى ترجع الظلال من جانب إلى جانب ، متقاربة غير ممتنعة عليه فيما يسخرها الله له ، وقال قتادة والضحاك : أما اليمين فأول النهار وأما الشمال فآخره لأن الشمس وقت طلوعها إلى وسط الفلك يقع الإظلال فى الجانب الغربى ، فإذا انحدرت الشمس من وسط الفلك إلى الجانب الغربى وقع الإظلال فى الجانب الشرقى ،

والسبب فى ذكر اليمين بلفظ الواحد والشمال بصيغة الجمع أنه وحد اليمين والمراد الجمع ، ولكنه اقتصر فى اللفظ على الواحد كقوله تعالى : ويولون الدبر وقال : الفراء : كأنه إذا وحد ذهب إلى واحد من ذوات الظلال فإذا جمع ذهب إلى كلها ، وذلك لأن قوله : « إلى ما خلق الله من شىء » لفظه واحد ومعناه الجمع على ما مر فيحتمل كلا الأمرين .. وقيل : العرب إذا ذكرت صيغتى جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله تعالى : وجعل الظلمات والنور .. وقوله تعالى : ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم . والهمزة للاستفهام وهو استفهام إنكار ، أى ليتدبروا أمثال هذه المشاهد ، فما بالهم لم يتفكروا فيها ليظهر لهم كمال قدرته وقهره « سجدا لله » حال من الظلال جمع ساجد كشاهد وشهد ، و راكع وركع ، واختلف فى المراد فى السجود على قولين :

أحدهما : أن المراد منه الاستسلام والانقياد ، يقال : سجد البعير إذا طأطأ رأسه ليركب ، وسجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل .

والثانى : أن هذه الظلال واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد ، فلما كانت الظلال يشبه شكلها شكل الساجدين أطلق الله عليها هذا اللفظ ، وكان الحسن يقول : أما ظلك فيسجد لربك وأما أنت فلا تسجد لربك بئس ما صنعت . وعن مجاهد : ظل الكافر يصلى وهو لا يصلى . وقيل : ظل كل شىء يسجد لله سواء كان ذلك الشىء ساجداً أم لا ، وقال الرازى : والأول أقرب إلى الحقائق العقلية ، والثانى أقرب إلى الشبهات الظاهرة .. « وهم داخرون » أى صاغرون حال أيضاً من الظلال ، وقيل : حال من الضمير المستتر فى سجداً فهى حال متداخلة ، والظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون ؟ أجيب بأنه تعالى لما وصفها بالطاعة والامتثال أشبهت العقلاء ، أو أن فى جملة ذلك من يعقل فغلب ، ولما حكم على الظلال بما يعم أصحابها من جماد وحيوان ، وكان الحيوان أشرف من الجماد ، جعل الحكم شاملا له ولم يجعل الحكم إليه بخصوصه فقال : « ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض » وقوله تعالى : « من دابة » يجوز أن يكون بيانا لما فى السموات والأرض جميعا ، على أن

فى السموات خلقا لله يدبون فيها كما تدب الأناسى فى الأرض ، وأن يكون بيانا لما فى الارض وحده ، ويراد بما فى السموات الخلق الذى يقال له الروح. وأن يكون بيانا لما فى الأرض ويراد بما فى السموات الملائكة ، وكرر ذكرهم بقوله تعالى : « والملائكة » خصوصا من بين الساجدين لأنهم أطوع الخلق وأعبدهم ، ويجوز أن يراد بما فى السموات ملائكتها أو المراد بقوله تعالى : «والملائكة» ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم، وسجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد ؟ قيل : إن المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم وسجود غيرهم انقيادهم بإرادة الله تعالى وأنها غير ممتنعة عليه ، وكلا السجودين يجمعهما معنى الانقياد فلم يختلفا فلذلك جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد. ولم يجيء بـ(من) بدلا من (ما) تغليبا للعقلاء من الدواب على غيرهم ،لأنه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب فكان متناولا للعقلاء خاصة ، فجيء بما هو للعقلاء وغيرهم إرادة للعموم « وهم » أى الملائكة ، ويصح أن يكون الضمير عائداً إلى « ما » فى قوله تعالى : « ما فى السموات» «لا يستكبرون» عن عبادته ، ثم علل تخصيصهم بقوله تعالى ـ دلالة على أنهم كغيرهم فى الوقوف بين الخوف والرجاء « يخافون ربهم » أى الموجد لهم المدبر لأمورهم المحسن إليهم خوفا مبتدأ « من فوقهم » والمراد علوّ الخوف عليهم وغلبته لهم ،أو أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم ،أو يخافون وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى : « وهو القاهر فوق عباده » ، وقوله تعالى : « وإنا فوقهم قاهرون » . والجملة حال من الضمير فى « لا يستكبرون » ، أو بيان له ، وتقدير الكلام لأن من خاف الله لا يستكبر عن عبادته « ويفعلون ما يؤمرون » أى من الطاعة والتدبر ، وفى ذلك دليل على ان الملائكة مكلفون ، يشملهم الأمر والنهى والوعد والوعيد كسائر المكلفين، وأنهم بين الخوف والرجاء كما مرت الإشارة إليه ،وأنهم معصومون من الذنوب لأن قوله تعالى : « وهم لا يستكبرون » يدل على أنهم منقادون لخالقهم ، وأنهم ما خالفوا فى أمر من الأمور، كما قال تعالى : « لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

وبهذا ينتهي الربع الثاني من سورة النحل الذى تضمن من الأصول الجليلة ما يلي :

١ — بيان عاقبة المتقين في الدنيا والآخرة ، وجنات النعيم التي أعدت لهم ثوابا من عند الله وبشرى الملائكة لهم عند موتهم ، وبعثهم وجزائهم وعند دخولهم الجنة .

٢ — إنذار المشركين والمناوئين لرسالة نبي الإسلام بالعذاب الشديد جزاء شركهم وكفرهم

٣ — الرد على المشركين في معاذيرهم الباطلة وحججهم الواهية وفي إلقائهم مسئولية شركهم على الله

٤ — الله عز وجل بعث في كل أمة رسولا ، فآمن به بعض وكفر آخرون ، ومصارع الكافرين ماثلة للعيان أمام المشركين والمكذبين .

٥ — الرد على منكرى البعث والجاحدين به والمتشككين فيه وبيان أنهم سوف يعلمون علم اليقين في الآخرة بما لا يبقى معه مجال للشك والريبة ، وقدرة الله القادر على كل شيء لا يعجزها البعث ولا شيء في الأرض ولا في السماء .

٦ — بيان فضل المهاجرين ورضاء الله عنهم وثوابه لهم في الدنيا والآخرة ، جزاء عملهم وصبرهم وتوكلهم على الله .

٧ — رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليست بدعا من الأمر ، وقد أرسل إليه كما أرسل إلى الذين من قبله . وللقرآن نظير في الكتب السماوية السابقة .

٨ — تهديد المشركين وإنذارهم بالعذاب الشديد والوبال الأليم ، والله قادر على إهلاكهم كما قدر على خلقهم وله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة وهم لا يستكبرون .

خاتمة هذا الجزء

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . وبعد : فهذه هي نهاية الجزء الثالث عشر من تفسيرى للقرآن الكريم ، المسمى « تفسير القرآن الحكيم » ، وقد تضمن تفسير سورة الرعد وسورة إبراهيم وسورة الحجر والربعين الأولين من سورة النحل .

وسوف يتلوه بإذن الله تعالى الجزء الرابع عشر ، وأوله تفسير باقى سورة النحل من مطلع الربع الثالث فيها ، وهو قوله تعالى : « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون » ، وسيتناول الجزء الرابع عشر عدا باقى سورة النحل تفسير سورة الاسراء وسورة الكهف. ومن الله التوفيق ، وإليه أتضرع طالبا عفوه وغفرانه إنه ولى الصابرين ، وعليه فليتوكل المتوكلون . . وما توفيقى إلا بالله ؟

المؤلف

فهرست الجزء الثالث عشر

استدراك

ص ١٩٦ بعد السطر ١٧ سقط قوله تعالى :

« حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون »

ص ١٩٦ سطر ٢٠ : ماو — وصحتها : وما .

للمؤلف

قصــــة الأدب في مصر		ـ ٥ أجزاء
« « الأندلس		ـ ٥ «
« « المعاصر		ـ ٥ «
ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ـ طبعة ثانية		٨٠٠ صفحة
الحيـاة الأدبيـة في العصر الجاهلي ـ طبعة ثانية		٤١٠ «
الشـعر والتجـديد		
مواكب الحرية في مصر الإسلامية		
في ظلال الإسلام ـ بالاشتراك		
التراث الروحي للتصوف الإسلامي في مصر		
تفسير القرآن الحكيم		ـ ٣٠ جزءاً ـ ظهر منه ١٣ جزءاً


Bibliotheca Alexandrina
03354863